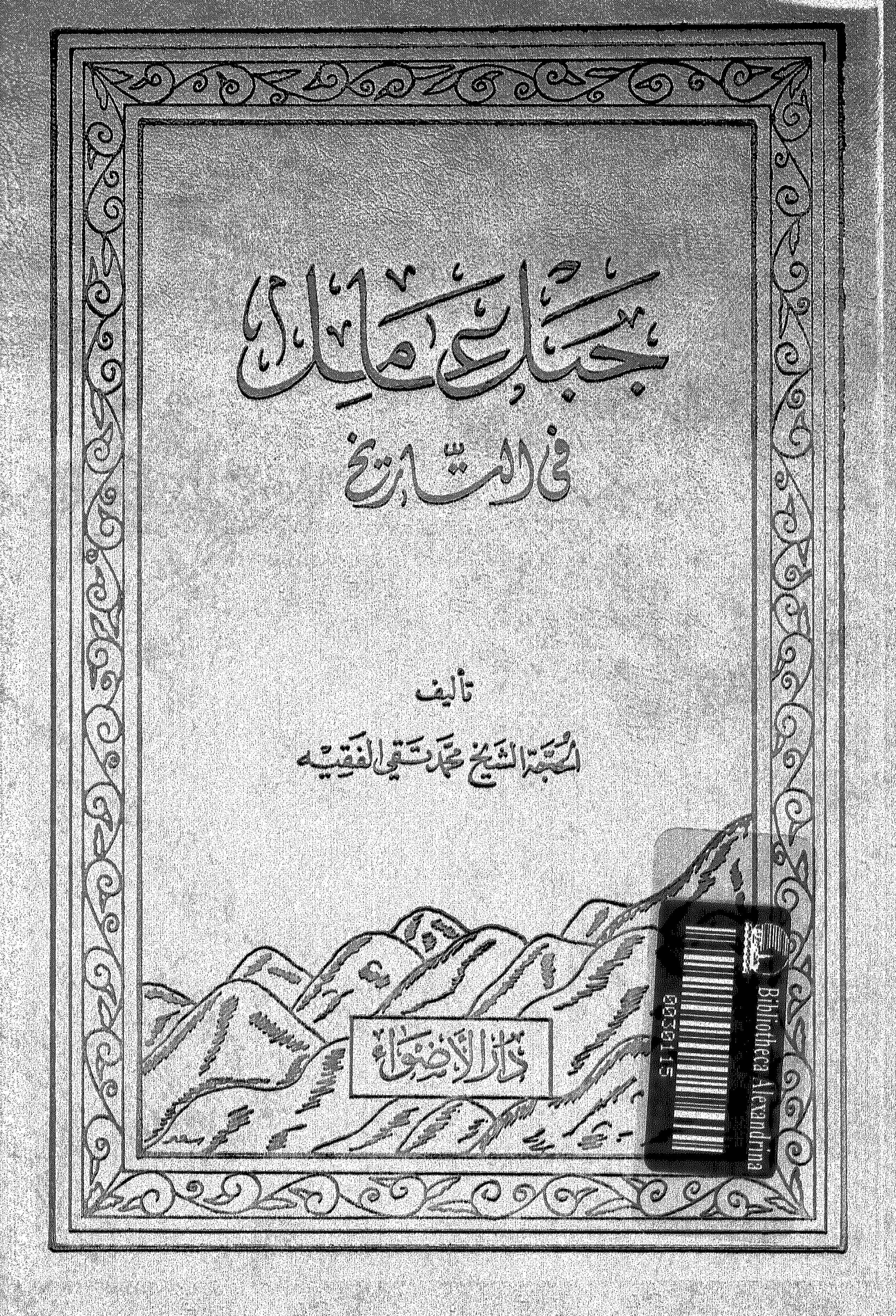


جبل عامل
في التاريخ
تأليف
الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه
دار الأضواء
Bibliotheca Alexandrina
0030115

جبل عامل
في التاريخ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

الغبيري - شارع عبدالله الحاج - ص.ب ٢٥/٤٠
برقياً : غبيري حسنكو - بيروت - لبنان

جبل عامل
في التاريخ

تأليف

الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه

دار الأضواء
بيروت - لبنان

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله وحده ، إقراراً بمنته ، واستمطاراً لرحمته والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله . .

أما بعد : فإن « جبل عامل في التاريخ ، هو أول كتاب في موضوعه ، وقد طبع ووضع بين أيدي القراء منذ أربعين عاماً تقريباً ، ومن الطبيعي أن يصبح مفقوداً .

ومنذ عدة سنوات ، وأنا اعتذر للراغبين في إعادة طبعه بأنه يحتاج إلى وقت يتسع لالحاق ما يمكننا إلحاقه به ، وبأنني لو كنت أملك مثل هذا الوقت ، لأنفقته لتهذيب غيره من مؤلفاتي الراقدة في مسوداتها ، التي هي أولى منه بذلك لشدة حاجة أهل العلم إليها ولندرة من يعتني بتهذيب الفقه والأصول وقواعدهما في هذا الزمان .

ثم : إن السبب في الاهتمام بـ « جبل عامل في التاريخ » على صغره أمران :

أولهما : أنه أول المصادر بالنسبة لتاريخ جبل عامل وأكثرها تثبتاً .

ثانيهما : تميزه بالتعرض إلى مصادر جميع محتوياته بوضوح ، وهذا وحده هو أثمن ما في الكتاب لأن العثور على تلك المصادر يكاد يكون متعذراً على

المؤلف فضلاً عن غيره لولا احتفاظنا بها في الهوامش ، لأن ما اجتمع فيه لم يكن مجتمعاً قبله في كتاب ولا في كتيب ، بل هو حصيلة لقطات كانت مبعثرة هنا وهناك في أوراق خطية أو مقال أو جواب سؤال منشور في مجلة شهرية أو جريدة أسبوعية أو يومية أو كلمة عابرة في بطون أسفار التاريخ الواسعة كالطبري وابن الأثير وأبي الفداء وأعيان الشيعة وغيرها ، أو حديث يحدثنا به معاصر لتلك الاحداث أو شبه معاصر ، وأهم هذه المصادر مجلة العرفان التي تخطت رقاب ثمانين حولاً ، فصدر منها أكثر من ستين مجلداً ، كل مجلد في عشرة أجزاء ، كل جزء في مئة صحيفة أو أزيد .

ألا وإن نبذاً عاشت في هذه المجلة التي قطعت هذه الرحلة الطويلة لا يتمكن الباحثون من الحصول على مجموعة منها اليوم ولو حصلوا عليها فليس من السهل استقراؤها بدقة في سنة او سنوات ومن هنا يتضح ان ما صدر من هذا الكتاب وما سيصدر فعلاً وما بقي كله مبثوث في أوراق مجمعة في ظروف ثم في إضبارة مشدودة بخيوطها وبعض تلك القصاصات لا تحمل الا الاشارة للحادث أو للموضوع مع اسم الكتاب والصحيفة التي هو فيها ، وما زلت حتى الساعة أدون ما أحصل عليه في رقع . . واضيفها إلى اخواتها إذا كتب لها البقاء في جيبي .

ثم إن البرنامج الذي أعددناه لهذا الكتاب هو ما يلي :

١ ـ علماء جبل عامل وأدباؤه وزعماؤه وسائر نبلائه ووجهائه وبالطبع إن جملة من العوائل والبيوتات سيكون لها حظ وافر فيه .

٢ ـ معجم قرى جبل عامل الحاضرة والمندثرة والمستجدة وعدد سكانها ومساجدها ونفوسها والعوائل التي تعيش فيها ، واعلم : أن المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى اهتم في هذه الناحية قبل سنوات ، وقد طلبت صورة عنها من ابن اختنا العلامة الشيخ محمود فرحات مدير المجلس المليّ ، ووعد ولم يتوفق لذلك، ونسأل الله أن تكون محفوظة .

٣ ـ هجرة أبنائه إلى المهاجر البعيدة وتاريخها وأسبابها وتطورها وفوائدها

وبالطبع إن عمالقة الناجحين من المغتربين سيخلدون في هذا السفر وهم عدد لا يستهان به . .

٤ ـ الجمعيات العامة والخاصة باسم القرية أو العائلة والصحف والمجلات والنوادي والمستوصفات وما أشبه ذلك ومنها ما أنشأه المهاجرون في مهاجرهم .

٥ ـ حياة جبل عامل الاقتصادية وتطورها في نحو من ثلاثة قرون حتى الساعة . ! وتصوير حياة الفلاح امس واليوم .

إلى غير ذلك ، ونحن انما تعرضنا لهذا لتفتح الآفاق لمن يريد أن يكتب حول جبل عامل من أبنائنا المقبلين . .

هذا اذا لم تتبدل الأرض غير الأرض ولم يدخل انسان هذا العصر في تاريخ جديد كما نتخيله وكما يتكهن به الشيعة خاصة بل وغيرهم من أهل الأديان والحمد لله أولاً وأخيراً

سنة ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣/١/١٨ محمد تقي الفقيه .

تقديم

إن جبل عامل ينبوع فياض يزخر بالمواهب السامية التي تنحدر من أعلى قمة إلى اعظم مستوى من الأرض الخصبة حتى إذا انتهت إليها اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج .

يقـولون أن الفكـر حلقة مستديرة، وأن عقـول البشر سـواسية لا تختلف بـاختلاف القـارات والأنساب ، وأنـه لا فرق بـين العقل السـامي وبـين العقـل الآري ، وهذه النظرية قريبة من الصواب ، ويشهد لذلـك ما نـراه من اختلاف الأمة الواحدة رقيا وانحطاطا في عصرين ، فإننا نشاهد أمة واحدة في قارة واحدة تبلغ أسمى مراتب الكمال في عصر ثم تنحط في عصر آخر .

إن هذا يدلنا على أن الفكر البشري ليس سائحا يقطع في رحلته الشـاسعة قـطر الدائـرة فيعرس في نقـطة منها في قـرن أو قرون ، ثم ينـزح عنها إلى نقـطة أخرى في زمن آخر .

قلنا هذه النظرية قريبة من الصواب ، ولم نقل هي عـين الصواب ، فـإنه لا يسعنا أن ننكر أن لنقاء التربة ، وصفاء المـاء ، ولطف الهـواء ، أثراً بعيـداً في صقل المواهب وإرهافها ، ويؤ يد هذا ما ورد في الحديث الشريف المحفوظ عـلى ألسنة الناس (إن الله في خلقه خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص) .

ويمتـاز جبل عـامل بنقـاء التربـة ، وصفاء المـاء ، ولـطف الهـواء ، وهي

مواهب لا مكاسب ، ولعله من أجل هذا كانت أرضه أرضاً مطهرةً اختارهـا الله سبحانه لرسله جيلاً بعد جيل ، ثم للعلماء الذين هم كأنبياء بني اسرائيل ، حتى بلغ العلماء فيـه من الكثرة حـدا بعيدا لا يتنـاسب مع صغـر البقعة ، وقـد ذكر صاحب الوسائل في كتابه أمـل الأمل : أنـه اجتمع عـلى جنازة واحـدة في عصر الشهيد الثاني رحمه الله سبعون مجتهداً، وبلغ من كثرة الكتب والمكاتب في جبل عامل أن أفران عكا بقيت سبعة أيام تحرق في كتب العامليـين وذلك في حـوادث الجزار المشهورة حوالي سنة ١١٩٥ هـ .

إن الشهيد الثاني رحمه الله ترك ألفي مجلد ، منها مئتان بخطه . وإن مكتبة آل خاتون كانت تضم بين دفتيها خمسة آلاف من الكتب النادرة ، ويقال انهم قد احتفظوا بقسم من كتبهم ، وأنه لا يزال بعضها موجودا حتى اليوم .

حسبك من العامليـين ـ على صغـر البقعة وشـظف العيش ـ أنه لا يـوجد علم من العلوم التي كـانت معـروفـة في البـلاد الاسـلاميـة إلا ولهم فيــه الحظ الأوفر ، والقدح المعلى ، والتآليف الممتعة ، وإن لمؤلفاتهم ميزة على مـا يشاركهـا من الكتب التي ألفها غيرهـم منذ العصور الأولى حتى الساعة ، وأن قسما منها لا يزال يدرس في الجامعـات الدينية الشيعية الموجودة في العراق وايـران وباكستـان وأفغانستان ولبنان وغيرها ، وأن قسما منهـا لا يستغني عنها عـالم أو متعلم ، وإن جمع من الكتب ما جمع .

إن علماء جبل عامل لم يزالوا مجاهـدين في سبيل الـدين الاسلامي ، فقـد انتشروا في أنحـاء بلاد الاسلام ، فكـان السيد عـلي أخو صـاحب المدارك هـو المدرس الأعظم في مكة المكرمة ، وكان والد الشيخ البهـائي وهو الشيـخ حسين عبد الصمد العاملي ، هـو الوحيـد في البحرين ، وقـد كان المحقق الثـاني ، هو القـائم وحده عـلى السلطة في دولة يبلغ عـدد نفوسهـا ستين مليـونا ، وذلـك في ايـران عندمـا كانت تحكم افغـانستان وبـاكستان ، فنشـر العـدل وطبق القانـون الإسـلامي ، وأن السيد حسـين العامـلي ابن صـاحب المـدارك ، تـولى مشيخـة الاسلام والتدريس العام في خراسان ، من بلاد ايـران ، وتولاهمـا بعده الشيـخ الحر العاملي ، وتولاهما عدد آخر من العامليين بعدهما وقبلهما .

ولقد بلغ زعماء عاملة من الشجاعة والنجدة حدا أهلهم لأن يكونوا في الرعيل الأول ، حتى أن الشيخ محمود النصار كان يعد بألف فارس وقد شهد له بذلك خصومه.

قال الشهابي في تاريخه ، في حوادث سنة ١١٩٧ هـ ما لفظه : وكان عندهم ـ يعني العامليين ـ أبطال لا تطاق في الحرب . . . ثم قال : بعد ذكر استشهاد ناصيف النصار : ثم قتل اخوه الشيخ أبو حمد وكان يعد في الحرب بألف فارس[١] انتهى .

وقد استقلوا ببلادهم أمدا طويلا ، واستطاعوا صد عادية المستعمرين ، وبلغوا من الحلم الغاية القصوى ، فإن الأمير ناصيفا عفا عن خصومه بعد القدرة عليهم ، فأركب الأمير يوسف على بغلته ، وألبسه فروه مقلوبا ، وهو بمنزلة جز الناصية عند العرب ، وذلك عندما تم اسره في عقبة جرجوع ، يوم وقعة « كفر رمان » .

وعفا عن الشيخ ظاهر العمر أيضاً ، عندما أسره العامليون في وقعة طربيخا ، واخذت منه فرسه الشهيرة « البرصاء » فإنه عفا عنه ، واركبه بيده عليها ، قائلا : إذا رجعت البصيصة فلا حاجة لنا بالبريصة[٢] .

وخلع على ولدي فاضل المهنا ، رئيس عرب آل المزيد ، بعدما وتروه بأخيه محمود النصار وولوا منهزمين فتبعهم ناصيف بجنوده ، ففاتوه هرباً فادرك النساء والأطفال وولديه المريضين في « الرمثا » ، فخلع عليهما وأكرمهما وخلع على سائر الذين لم ينهزموا .

وكان لهم من الشعراء المادحين عدد لا يستهان به ، وينبغي أن ينسب

---

(١) الشهابي في تاريخه : الغرر الحسان في تواريخ الأزمان ص « ٨٤١ ـ ٨٤٢ » طبع في مصر ولا يخفى أن أبا حمد المذكور استشهد في وقعة الرقاد نهار الاثنين ١١ ع ٢ / ١١٩٣هـ في الجيدور من بلاد حوران ، والظاهر أن العامليين اخفوا موته لقضايا عسكرية ، وأقاموا بعد وفاته بيسير أعراسا وأفراحا كثيرة .

(٢) البصيصة تصغير البصة وهي التي وقعت لأجلها الحرب والبريصاء اسم فرس الشيخ ظاهر. وكلمة الشيخ ناصيف هذه جرت مثلاً في بلادنا.

تقـدم الأدب في عصرهم اليهم فـإنهم كانـوا يتذوقـونـه . ويقـرضـون الشعـر ، ويشجعون الشعراء ، بما شاءت لهم أحسابهم الكريمة .

إن من يكتب اليوم عن جبل عامل بعد تفرق المصادر وانعدام اكثرها يرى نفسه مسؤولا عن الاعتذار لانه لم يف الموضوع حقه اكثر مما يتـطلبه من الشكـر على جهوده مهما بالغ في السعي ، ومهما ناله من تعب ونصب ، ومن أجـل ذلك نعتذر مرة اخرى بانعدام المصادر وتشتتها وتمزقها ، فإن فكرة التأليف وان سـرت الى العوام منهم ، كما يـلاحظه من قـرأ الكتاب المنشـور في العرفـان تحت عنوان (جبل عامل في قرن) وغيره ، إلا أن مؤلفاتهم التي اجتـازت مراتب الألـوف لم يصـل الينا منهـا إلا النزر اليسـير ، الـذي حمله أولئـك المشـردون الى بـلاد غـير بلادهم ، وبالطبع إنه كان مما خفّ حمله وسهل اخفـاؤه . أو بقي محفوظـاً ، في ذاكرتهم ، ينقله الأجداد للأحفاد .

ان بلداً مساحته طولا ثمانية عشر فرسخا وعرضا تسعة فراسخ تقريبـا ، ثم يضع صاحب الـوسائـل الحر العـاملي كتـابه أمـل الأمل في علمـائه دون أعيـانه ويعترف بعدم الاستقصاء، ثم يقفوه العلامة الشهير السيد حسن الصدر فيضع تكملته ويسبقه لذلك غيره ويتبعه من تأخر عنه، جدير بالاكبار والإعظام .

إن قـطراً صغيراً منـزوياً عن العـواصم والحواضـر ، يمـر عليـه عصـر من العصور ، وهو جامعة علمية يقصدها الطلاب من العـراق وايران وغيـرهما عـلى بعـد الشقة وصعـوبة التنقـل كـما كـان في زمـان المحقق الميسي الـذي بلغ عـدد تلامذته أربعمئة طالب جدير بأن يهتم بـه المؤرخون ، قـالوا واجتمـع في عصر الشهيد الثاني في جزين سبعون مجتهداً بمناسبـة جنازة متـواضعة ، وإذا كـان هذا عدد المجتهدين فكم هو عدد الطلاب .

اجل : إن بلـداً هذا حاله ، ينبغي الاعتراف بـأهميته ، وينبغي للبـاحثين والمنقبين ، أن يتجهوا للبحث عن ماضيه ، فإن ذلك حقاً من حقوقـه ، وذمتهم لا تزال مرهونة به .

إن بلداً تكـثر فيه المـدارس فتكاد تستـوعب شطراً وافـراً من قراه وتكـون

كجامعة من الجامعات العالمية في العصور الغابرة ينبغي للباحثين الاهتمام في التنقيب عن تراثه العلمي والأدبي في زوايا المكتبات العالمية ، ويجب على حكام الشيعة ، وأعيانهم وأثريائهم أن يوجهوا لهذه الناحية بعض قدراتهم .

قال القاضي نور الله في مجالس المؤمنين ؛ ما من قرية هناك (جبل عامل) الا وقد خرج منها جماعة من علماء الامامية وفقهائهم[1] .

وقال الحر العاملي : قد ناف عدد علماء الشيعة في جبل عامل عن خمس مجموعهم في أنحاء المعمور مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي بلدان الشيعة أقل من عشر العشر[2] . وقال أيضا : سمعت من بعض مشائخنا أنه اجتمع على جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهدا في عصر الشهيد الثاني[3] .

وقال الانطاكي : دعتني همة علية أو علوية أن أصعد منه (بعض ثغور الشام) جبل عاملة فصعدته منصوبا على المدح وكنت عامله واخذت عن مشايخها ما أخذت وبحثت مع فضلائها فيما بحثت[4] .

إن هذه المواهب الشريفة قد تتمتع بجملة منها بقعة من الأرض ، ولكنها قلما تتلاقى كلها في قطر واحد .

هذا هو جبل عامل ، الذي بلغ علماؤه أعظم مبلغ ، وارتقى الأدب فيه إلى أعلى ذروة ، وانبثقت من سفوحه وقممه طلائع النهضة الحديثة ، وانتج في هذا العصر مخترعا كبيرا يعد في طليعة المخترعين .

فإن حسن كامل الصباح ، النباطي العاملي ، له ما يزيد عن ثلاثين مخترعا مسجلا باسم الشركة التي كان يعمل فيها . وله عشرات اخرى لم تسجل .

وقد توفي هذا المخترع في نيويورك ، ونقل جثمانه إلى بلده النبطية ،

---

(١) أمل الآمل في الطبعة الملحقة بمنهج المقال ص ٤٤٥ .

(٢) أمل الآمل في الصفحة المشار اليها .

(٣) في أمل الآمل في الصفحة المذكورة نفسها .

(٤) قاله أبو المعالي الطالوي في سيرة الفيلسوف الحكيم الشيخ داوود بن عمر الأنطاكي في العرفان م ٣٧ ص ٤٦٠ .

تقـدم الأدب في عصرهم اليهم فـإنهم كانـوا يتذوقـونـه . ويقـرضـون الشعـر ، ويشجعون الشعراء ، بما شاءت لهم أحسابهم الكريمة .

إن من يكتب اليوم عن جبل عامل بعد تفرق المصادر وانعدام اكثرها يرى نفسه مسؤولا عن الاعتذار لانه لم يف الموضوع حقه اكثر مما يتـطلبه من الشكـر على جهوده مهما بالغ في السعي ، ومهما ناله من تعب ونصب ، ومن أجـل ذلك نعتذر مرة اخرى بانعدام المصادر وتشتتها وتمزقها ، فإن فكرة التأليف وان سـرت الى العوام منهم ، كما يـلاحظه من قـرأ الكتاب المنشـور في العرفـان تحت عنوان (جبل عامل في قرن) وغيره ، إلا أن مؤلفاتهم التي اجتـازت مراتب الألـوف لم يصـل الينا منهـا إلا النزر اليسـير ، الـذي حمله أولئـك المشـردون الى بـلاد غـير بلادهم ، وبالطبع إنه كان مما خفّ حمله وسهل اخفـاؤه . أو بقي محفوظـاً ، في ذاكرتهم ، ينقله الأجداد للأحفاد .

ان بلداً مساحته طولا ثمانية عشر فرسخا وعرضا تسعة فراسخ تقريبـا ، ثم يضع صاحب الـوسائـل الحر العـاملي كتـابه أمـل الأمل في علمـائه دون أعيـانه ويعترف بعدم الاستقصاء، ثم يقفوه العلامة الشهير السيد حسن الصدر فيضع تكملته ويسبقه لذلك غيره ويتبعه من تأخر عنه، جدير بالاكبار والإعظام .

إن قـطراً صغيراً منـزوياً عن العـواصم والحواضـر ، يمـر عليـه عصـر من العصور ، وهو جامعة علمية يقصدها الطلاب من العـراق وايران وغيـرهما عـلى بعـد الشقة وصعـوبة التنقـل كـما كـان في زمـان المحقق الميسي الـذي بلغ عـدد تلامذته أربعمئة طالب جدير بأن يهتم بـه المؤرخون ، قـالوا واجتمـع في عصر الشهيد الثاني في جزين سبعون مجتهداً بمناسبـة جنازة متـواضعة ، وإذا كـان هذا عدد المجتهدين فكم هو عدد الطلاب .

اجل : إن بلـداً هذا حاله ، ينبغي الاعتراف بـأهميته ، وينبغي للبـاحثين والمنقبين ، أن يتجهوا للبحث عن ماضيه ، فإن ذلك حقاً من حقوقـه ، وذمتهم لا تزال مرهونة به .

إن بلداً تكـثر فيه المـدارس فتكاد تستـوعب شطراً وافـراً من قراه وتكـون

كجامعة من الجامعات العالمية في العصور الغابرة ينبغي للباحثين الاهتمام في التنقيب عن تراثه العلمي والأدبي في زوايا المكتبات العالمية ، ويجب على حكام الشيعة ، وأعيانهم وأثريائهم أن يوجهوا لهذه الناحية بعض قدراتهم .

قال القاضي نور الله في مجالس المؤمنين ؛ ما من قرية هناك (جبل عامل) الا وقد خرج منها جماعة من علماء الامامية وفقهائهم[١] .

وقال الحر العاملي : قد ناف عدد علماء الشيعة في جبل عامل عن خمس مجموعهم في أنحاء المعمور مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي بلدان الشيعة أقل من عشر العشر[٢] . وقال أيضا : سمعت من بعض مشائخنا أنه اجتمع على جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهدا في عصر الشهيد الثاني[٣] .

وقال الانطاكي : دعتني همة علية أو علوية أن أصعد منه (بعض ثغور الشام) جبل عاملة فصعدته منصوبا على المدح وكنت عامله واخذت عن مشايخها ما أخذت وبحثت مع فضلائها فيما بحثت[٤] .

إن هذه المواهب الشريفة قد تتمتع بجملة منها بقعة من الأرض ، ولكنها قلما تتلاقى كلها في قطر واحد .

هذا هو جبل عامل ، الذي بلغ علماؤه أعظم مبلغ ، وارتقى الأدب فيه إلى أعلى ذروة ، وانبثقت من سفوحه وقممه طلائع النهضة الحديثة ، وانتج في هذا العصر مخترعا كبيرا يعد في طليعة المخترعين .

فإن حسن كامل الصباح ، النباطي العاملي ، له ما يزيد عن ثلاثين مخترعا مسجلا باسم الشركة التي كان يعمل فيها . وله عشرات اخرى لم تسجل .

وقد توفي هذا المخترع في نيويورك ، ونقل جثمانه إلى بلده النبطية ،

---

(١) أمل الآمل في الطبعة الملحقة بمنهج المقال ص ٤٤٥ .
(٢) أمل الآمل في الصفحة المشار اليها .
(٣) في أمل الآمل في الصفحة المذكورة نفسها .
(٤) قاله أبو المعالي الطالوي في سيرة الفيلسوف الحكيم الشيخ داوود بن عمر الأنطاكي في العرفان م ٣٧ ص ٤٦٠ .

حيث يقيم والده وارحامه ، وقد قدرت له الحكومة الاميركية اعماله ، وقد أسهبت الصحف العربية في تأبينه والإشادة بنبوغه .

إن العامليين هم أول من اتقن تبويب الحديث حسبما اعتقد ، واحصى الاحاديث والأبواب ، وذكروا المصادر ، وأول من دون علم الدراية ونقل اصطلاحاته ، وأول من هذب الأصول وأوضحه ، وأول من باحث في المذاهب الخمسة في بعلبك ، وأول من باحث فيها في مكة المكرمة ، وأول من ألف كتابا في جمع الأقوال تحرجا من نقل الاجماع في مورد الخلاف وتسهيلا للباحثين . وستعرف ذلك في بعض المباحث الآتية .

إن المستشهدين من علماء الشيـ [illegible] هم من الأولين والآخرين كثيرون ، ولكن لم يفز بلقب الشهيد إلا محمد بن مكي (الشهيد الأول) وزين الدين (الشهيد الثاني) وذلك يدلنا على خصوصية لهما قدسية[1] . كما أن لقب المحقق قد نعت به جمع كثير ولكن لم يفز بهذا اللقب الا اثنان ، أحدهما عراقي حلي ، وهو المحقق الأول (صاحب كتاب الشرائع) ، وثانيهما عاملي ، وهو المحقق الثاني (صاحب كتاب جامع المقاصد) .

لقد كان الأدب منحطا قبل قرون ، وبلغت عبارات المؤلفين من التعقيد كل مبلغ ، لضعفهم من الناحية الأدبية ، حتى اصبح بسطاء الناس يعدون ذلك نوعا من التفوق والدقة ، ولكنه كان في جبل عامل في ريعان شبابه .

اذا قرأت مؤلفاتهم في ذلك العصر ، وقرأت شيئا من أدبهم وأدب زعمائهم عرفت مبلغ هذه الدعوى من الصحة .

وإذا علمت أن النساء في ذلك العصر كان لهن حظ وافر من العلم والأدب ، عرفت أن جبل عامل كان الأندلس الثانية ، وإذا قرأت الدر المنثور في طبقات ربات الخدور للسيدة زينب فواز ، تيقنت بذلك وآمنت به .

هذه صورة بسيطة عن جبل عامل وستعرفها عن قريب بصورة أجلى وأوضح في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى .

---

(١) وقد فطن لهذا في خاتمة المستدرك فإنه أشار له وأسهب فيه .

جغرافية جبل عامل

جبل عامل اسم لمقاطعة من الأرض جنوبي الشام، ويسمى جبل الجليل، ويُعرف بالبشارتين ، ولا تزال القطعة الجنوبية منه تعرف ببلاد بشارة ، ويطلق على ما كان منه بين النهرين (الليطاني والزهراني) بلاد الشقيف ، وعلى ما وراءهما من جهة الشمال ، اقليم التفاح ، والشومر ، والريحان ، والخروب ، وقد اختلف المؤرخون في تحديده ، ولعل هذا الاختلاف نشأ من امتداد سلطة زعمائه احيانا ، وتقلصها اخرى ، فكانت بعض البلاد داخلة تحت سلطة زعمائه في زمن بعض المؤرخين فأضافها اليه ، وخارجة في زمن بعض آخر ، فأخرجها عنه[1] .

ولا ريب ان لكل بقعة من بقاع الأرض حدوداً ، ولا ريب أن لجبل عامل حدودا طبيعية كغيره من بقاع الأرض ، وأفضل تحديد له من الحدود التي رأيناها هو أنه : يحده جنوبيا نهر القرن ، الجاري قرب ترشيحا « طير شيحا » من بلاد عكا ، وشرقا أرض الخيط والأردن والحولة ، وقسم من جبل لبنان ـ وشمالا نهر الأولي . وغربا البحر المتوسط ، وتدخل في هذا الحد صيداء ، وجزين ، وقسم من قرى عكا[2] . واذا عدلت الحدود في الآونة الاخيرة بين جبل عامل

---

(١) فقد عدّ صفدا منه في معجم البلدان ، وهي الآن من أعمال عكا . وعد الكرك منه في روضات الجنات ، وهي الآن من لبنان .

(٢) العرفان ج ١ م ٢٧ وجريدة جبل عامل التي أصدرها صاحب العرفان سنة ١٣٣٠ هـ . والجزء =

وفلسطين فاجتاح التعديل تسع قرى(١) فإن التاريخ الحر لا يرضى بهذا التعديل ولا بد أن يشير إليه بين آونة وأخرى .

وإذا جعل هذا التعديل الأعوج مقدمة لتعديل آخر في ظرف ملائم ، فإنه لا يضر بالحدود الطبيعية ولا يسدل دونها سترا من النسيان .

وإذا كانت هذه القسمة غير طبيعية ، فلا بد أن تعود المياه إلى مجاريها ، وتعمل قاعدة رد الفعل عملها .

إن القرى التي اجتاحها هذا التعديل ، خصبة التربة ، وتتمتع بموقع استراتيجي عسكري ، ومنها : هونين التي هي احدى حواضر جبل عامل ، المهمة .

وإذا سمي جبل عامل بـ (لبنان الجنوبي) عند الاحتلال ، وسمي لبنان الشمالي بـ (لبنان الصغير) وسمي جبل عامل بـ (الجنوب) في المدة الأخيرة حتى شاع ذلك ، وحتى استعمله نوابه في بطاقاتهم فإن ذلك لا ينسيه اسمه الأصلي ، والتاريخ كفيل بذلك لأنه حارس أمين .

وإننا نلفت زعماء عاملة ونبلاءها إلى ضرورة الاحتفاظ باسم قطرهم الذي ترعرعوا فيه ، لان في الاحتفاظ به احتفاظا بتاريخه المجيد الحافل بالعظائم ، الطافح بالنابغين ، ولو تيسرت المصادر لمن يريد أن يكتب عنه لكان ما يكتبه عشرات المجلدات ، بل لو سلم الشطر اليسير من مؤلفات رجاله التي ذهبت في حرب الجزار وغيرها من الحروب ، لكانت بنفسها من أعظم الشواهد والآثار على ما اختص به هذا الجبل الاشم . ومما يلهب المشاعر ، ان جملة من الناس ، الذين جددوا بناء بيوتهم ، وجدوا في جدرانها الضخمة كنوزاً من

= الخامس من أعيان الشيعة . وديوان شبيب باشا وغيره .

(١) وهي الجادرية ، وهونين، وقدس، ومالكية الجبل، وصالحا، وحانوتا، وتربيخا، وأقرط، ويوشع، وقد شطرت بعض القرى شطرين كما هي الحال في قرية ميس الجبل ، وياروين وعيثا الشعب وراميا ، وغيرها فقد اجتاح التقسيم الشطر الوافر من أملاك أهل هذه القرى وأدخله تحت حكم الاسرائيليين .

الكتب التي اخفيت فيها فاستحالت ترابا .

وإلى القارىء الكريم نقدم نبذة من كلمات المؤرخين وأهل اللغة .

قال الشيخ يوسف البحراني في كشكوله في مقام تعداد قرى جبل عامل :

إنه كلف بعض العامليين وهو من قرية انصار ، كما يظهر بتعداد قرى جبل عامل ، فعدها وعد منها (الجية) وهي حاضرة معروفة بين صيداء وبيروت قبيل الدامور وعد منها مشغرة وهي قرب جزين .

يقول عدد ممن ألف في أحوال الرجال عندما يتعرضون للشهيد الأول رحمه الله ويذكرون جزين ، يقولون : جزين قرية من قرى جبل عامل حتى انه اثنى في روضات الجنات على جبل عامل في ترجمة هذا الرجل العظيم ، وكذلك يعبرون عن علماء مشغرة .

وعن معجم البلدان ، إن مشغرة على سفح جبل لبنان ، وقال عند ذكر صفد، جبال عاملة من جبال لبنان، وعند ذكر الجليل، جبل الجليل في ساحل الشام ممتد الى قرب حمص ، ثم حكى عن ابن الفقيه ، أن جبل الجيل بالقرب من دمشق وهو جبل يقبل من الحجاز ، وهو بفلسطين جبل الخيل ، وبالاردن جبل الجليل ، وبدمشق لبنان ، وبحمص سنير ، قلت ، وقانا الجليل المذكورة في الكتب المقدسة هي شرقي صور ، وجبل الجليل وجبل الخيل من أسماء جبل عامل. وعن ابي الفداء، إن جبل عامل ممتد في الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور .

وقال شكيب ارسلان[1] قد ورد ذكر جبل عاملة في مواضع كثيرة ، قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين ، بلد في جبال عاملة ، وقال عند ذكر تبنين بلدة في جبال بني عاملة المطلة على بانياس بين دمشق وصور .

وورد في تاريخ ابن الاثير عند ذكر حصر الافرنج تبنين ، أن الملك العزيز

---

(١) في مقال نقلته مجلة العرفان في م ٢ ص ٤٤٦ عن مجلة المقتطف .

خرج من مصر لنجدة المسلمين في الشام ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل ، ويعرف بجبل عاملة ، انتهى .

وقال العلامة الأمين[١] أنه يعني ـ جبل عامل ينقسم إلى عدة جبال ، ونواح منهاجبل هونين وجبل تبنين وساحل صور وساحل قانا ، وتسمى مجموع هذه الجهات بلاد بشارة ومنها جبل ارنون ، أو ارنوم وإقليم الشومر ، وإقليم التفاح ، وناحية جزين ، وفيها شقيف تيرون ، ثم ذكر انهم اختلفوا في دخول جبل الزيب في جبل عامل ، وذكر ما محصله ان نسبة دخول هذه البلاد في جبال عاملة كما هو معروف عند أهلها يدلنا انها كذلك من أمد بعيد .

وعن شيخ الربوة من أهل القرن الثامن في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : جبل جزين من جبال عاملة .

والذي نستقربه ، أن جبل عامل اسم لمجموع لبنان ويدلنا على ذلك عد الكرك منها في كلمات جملة من المؤرخين ، واكبر شاهد عليه قول المغربي أنها على سفح لبنان، وهو اشهرها ، يعني أشهر جبال عاملة فهو منها ولكن شهرته اكثر من شهرتها[٢] ، وعلى كل حال فإن جبل عامل منذ قرون أصبح اسما لدائرة ضيقة باعتبار استقلاله سلطة ومذهبا ، فقد كان زعماؤه يحكمون منطقة لا تبلغ تلك الحدود ، وطالما كان يقع الخصام بينهم وبين جيرانهم من أجل امتداد السلطة ولكن الحدود التي ذكرناها في صدر هذا البحث ، والتي نص عليها معظم الباحثين[٣] هي أقرب الحدود لان العادة في تقسيم الأراضي والمقاطعات منها تقضي بملاحظة الحدود الطبيعية والحدود التي ذكرناها طبيعة محضة ولا سيما الثلاثة منها الغربي والجنوبي والشمالي .

---

(١) في الرحيق المختوم المطبوع سنة ١٣٣٣هـ ص ٣٤٣ .

(٢) راجع عبارة المغربي تحت عنوان مساحة جبل عامل .

(٣) كالسيد محسن الأمين والشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر والشيخ أحمد عارف الزين .

القلاع والحصون في جبل عامل [1]

وهي كثيرة والذي نعرفه منها فعلا :

١ ـ قلعة الشقيف ، وهي أهمها وأكثرها عمرانا وتحصيناً وهي فوق قرية ارنون ، وعلى مقربة من النبطية واقعة على كتف الليطاني ، وهي من منشآت الرومان بعد المسيح على الراجح ، وكانت مقر حكام بلاد الشقيف الصعبيين .

٢ ـ قلعة تبنين ، وهي من منشآت هيوسنت أحد قواد الصليبيين ، بعد القرن الخامس الهجري [2] وقد مر عليها زمن سعيد على عهد الأمير ناصيف النصار وعلى عهد علي بك ومحمد بك الاسعد ، أما الآن فاخذت تتداعى حصونها وقد اخذ بعض أهالي تبنين كثيرا من حجارتها الضخمة .

٣ ـ قلعة هونين ، وهي ايضا من بناء الصليبيين على الراجح وقد كانت مقر الشيخ قبلان من آل الصغير على عهد ناصيف .

٤ ـ دوبيه ، على مقربة من شقراء من بناء الصليبيين ايضا وقد كانت مقر مراد النصار على عهد أخيه ناصيف النصار وبعده كانت مقر ولده قاسم المراد .

٥ ـ برج قلاوية مثلهما .

٦ ـ قلعة مارون من بناء بعض امراء المسلمين في القرون الأخيرة وكل هذه القلاع لم يبق منها سوى رسوم دارسة ولم يتصل بنا تحديد سني بنائها ، ولا أسماء مؤسسيها .

الحصون

أما الحصون فقد توجد في اكثر البلاد التي سكنها حكام البلاد ، كشحور مثلاً ، التي كانت موطن آل الصغير وآل الزين فإن القبو الكبير المعروف بالقبو التحتاني

---

(١) مأخوذ من جواب عن سؤال في العرفان م ٢٠ ص ٦٤٠ ولم نزد عليها الا قليلا وقد كتب الاستاذ ظاهر حديثا مسهبا عن هذه القلاع في المجلد الثامن عشر من العرفان وغيره .

(٢) وعن جغرافية فانديك : بناها هيو صاحب طبريا ١١٠٧ أعدها لغزو صور واستولى عليها صلاح الدين الأيوبي بعد وقعة حطين ١١٨٧ م .

كان حصنا ويدل على ذلك (الرمـايات) التي بـه ، وكالحصن المـوجود في تبنـين الذي بناه علي بك الاسعد .

والآن[1] وأنـا في طريقي لاعـداد الطبعـة الثانيـة من هذا الكتـاب (جبل عامل في التاريخ) عثرت على أمور تتعلق بهذه القلاع[2] ، فاضفتها إليه . .

قلعة الشقيف[3]

وهي من أعـظم القلاع التي في جبـل عامـل ، ولعلوهـا تبـدو للرائي من أمكنـة بعيدة ، ولهـا ربض من غربيهـا وإليه تنسب فيقـال قلعة الشقيف . وقـد تسمى نفس القلعة بالشقيف ويقال أنها مبنية على صخر في الجبل وضع أسـاسها عليه بعدمـا حفر فيـه امكنة كثيـرة وبنيت حيطانها فـوق حيطان تلك الامكنـة ، فأساس القلعة محفور كله في الصخر ، وقد حفر في غربيها خارجا عنها آبار لجمع ماء المطر فيها ، وسترت من خارج القلعة وجعل لها أبواب من داخل القلعة ينزل منها على درج إلى الماء ليستقي منها وقت الحصار .

وكانت مقر الأمـراء الصعبية ، ولهـا خندق عميق ويجـري من شرقيهـا نهر الليطاني على مهوىً سحيق يسمى المزحلق ، والقول بأن لهـا طريقـاً إلى النهر من شرقيها في نفق تحت الأرض ، ليس بصحيح . نعم : كان لها باب صغير من تلك الجهة يسمى باب السر ، ولها ذكر في الحروب الصليبية وأخبار كثيرة .

ولما هاجم الجزار جبل عامل ، كان فيها الشيخ حيدر الفـارس من الأمراء

---

(١) ليلة الأحد ١٢ / ٥ / ١٩٧٩ م الموافق ١٥ ج ٢ / ١٣٩٩ هـ .

(٢) في خطط جبل عامل تأليف العلامة المتتبع الشهير السيد محسن الأمـين .المطبـوع سنة ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ م .

(٣) الشقيف على وزن الرغيف في لغة العامليين اسم للصخرة الكبيرة ، وكلما عظمت وكانت ثابتـة ، كان انطباق هذا الاسم عليها اجلى ، وتسميـة مقاطعـة كبيرة من جبـال عامـل (بلاد الشقيف) ظـهر في معروفية هذا الشقيف عند سكـان تلك البلاد وعنـد من يستطرقهـا ، ويدل عـلى كبره وعظمته ، واتساعه لبنـاء القلعة عليـه كما ستعـرفه من أوصـافها فيـما يلي . قلت : وهـو يعني ما ذكرناه .

الصعبية ، فحاصره عسكر الجزار شهرين ثم دخلها بالأمـان فقتل جميـع من فيها غدرا .

وقد نظفتها مصلحة النافعة في هـذه السنين وأصلحتهـا بعض الاصلاح ، وشقت لها طريقاً في الجبل تسير عليه السيارات والعربات، وتحت الجبل الذي عليه القلعة من الشمال قرية ارنون واليها ينسب ، فيقال : (شقيف ارنون) .

وفي معجم البلدان : الشقيف ، كالكهف اضيف إلى ارنون (اسم رجـل أمـا رومي وأما افـرنجي) وهو قلعـة حصينة جـدا في كهف[1] من الجبل قـرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل .

وفي صبـح الأعشى عند ذكـر اعمـال صفـد (العـاشـر : عمـل الشقيف ويعرف بشقيـف ارنون . قال في المشتـرك وهو ـ اي ارنـون ـ اسم رجل أضيف الشقيف اليه ويعرف بالشقيف الكبير ، وهو حصن بين دمشق والساحل ، بعضه مغارة منحوتة في الصخر ، وبعضه ليس له سور ، وهو في غاية الحصانة ، وعـلى القرب منه شقيف آخر يعرف بشقيف تيـرون (بكسر المثنـاة التحتية وضم الـراء وسكون الواو وآخره نون) وهي قلعة حصينة من جند الاردن ، على مسيـرة يوم من صفـد في سمت الشمـال . قـال في مسـالـك الأبصـار : وليست من بـلاد صفد .

وفي كتـاب مجمع المسـرات : قلعة ارنـون أو قلعـة الشقيف هـذه القلعـة اسمهـا الشقيف ، وبها سمي كـل الاقليم وتسميتها بقلعـة أرنون آتيـة من اسم قرية بجانبها ، ومعنى ارنون الجرذون ، وهي موجودة على ارتفاع عامودي غـربي نهر الليطاني بحيث لا يمكن الصعود اليها من تلك الجهة ، وارتفـاعها عن النهـر نحو ثلاثمائة متر كحائط واحد ، وتنظر من مسافات بعيدة ، وهي مبنية بحجارة ضخمة جداً وفيها منازل للسكنى ، وآبار للمياه وتعلو عن النبطية قدر مئتي متر ،

---

(١) هذا لا أصل له فعلاً ، ويحتمل أن يكون كذلك قبل إقامة القلعة، ويشهد لذلك ما قاله في المشترك.

ولا يمكن الوصول اليها الا من الجهة الغربية بصعود عظيم عسر المسلك بناها الصليبيون وفيها بناء فينيقي قديم .

٢ ـ قلعة شقيف تيرون ـ

يلفظها العامليون بفتح التاء، وفي معجم البلدان انه بكسر أوله. جبل في آخر قضاء الشوف على حدود جزين عليه قلعة تعرف بقلعة نيحا وهو الذي يعد مع شقيف ارنون في الكتب فيقال شقيف ارنون وشقيف تيرون .

قال ابن الاثير في حوادث سنة ٥٢٨ : شقيف تيرون في الجبل المطل على بيروت وصيدا .

وفي معجم البلدان : شقيف تيرون مثل شقيف ارنون حاله في التسمية والاضافة ، وهو ايضا حصن وثيق بالقرب من صور « انتهى » .

٣ ـ قلعة تبنين ـ

تبنين قرية تبعد عن صور نحو أربعة فراسخ، ترتفع عن سطح البحر نحو ثمانمئة متر ، في صبح الأعشى عند ذكر اعمال صفد : الرابع عمل تبنين وهونين ، في مسالك الأبصار ، هما حصنان بنيا بعد الخمسمئة بين صور وبانياس بجبل عاملة ، وأهل هذا العمل شيعة رافضة .

وقال الأمين : وفيها يعني في تبنين قلعة كبيرة على رأس جبل عال تشرف من الجهات الأربع على بلاد جبل عامل الساحلية والجبلية ، وأعمال صفد ولبنان والجولان ووادي التيم ، ويصعد اليها بدرج عريض يصعده الفارس والراجل ، ولها ربض على جبل يقابلها من الغرب يسمى الحصن، وخندق يحيط بها، ولها ذكر في الفتوح الاسلامية والحروب الصليبية وغيرها .

قيل : ان الذي بناها (هيوسنت) أو (هوك سن اومر) سنة ٥٠١هـ ١١٠٧ م وسماها طورون واتخذها معقلا لغزو صور وما يليها ، فإن صح هذا

فهي من بناء الصليبيين ، وفيها آبار كثيرة عادية تكفي لشرب اهلها وقت الحصار مهماً طال ، ولشربهم في غير وقت الحصار حتى ان فيها بئرا في ضمن بئر . وتحتها في السهل من جهة الشرق خان قديم كان محلا لتعشير البضائع في زمن الصليبيين . وقال ابن جبير ، في رحلته التي ابتدأت سنة ٥٧٨ وانتهت سنة ٥٨١ هـ : وانتهينا إلى حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبنين وهو موضع تمكيس القوافل وصاحبته تعرف بالملكة ، هي أم الملك صاحب عكا ، فكان مبيتنا اسفل ذلك الحصن « في الخان الذي ينسب اليه سهل الخان » وذلك سنة ٥٨١ هـ.

وعد صاحب صبح الأعشى تبنين من العمل الرابع من أعمال صفد ، وقال : إن تبنين وهونين حصنان اقيما بعد الخمسمئة بين صور وبانياس في جبل عامل .

وفي القاموس : تبنين بلد منه ايوب بن ابي بكر خلطب التبنيني . وزاد في تاج العروس حدث عن ابن بني الليثي . انتهى .

وفي معجم البلدان : تبنين بلدة في جبال بني عاملة المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .

وفتحها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ وبقيت في يده إلى أن توفي سنة ٥٨٩ ثم في يد ولده الأفضل إلى سنة ٥٩٢هـ، ثم في يد عمه العادل ابي بكر بن ايوب، وفي سنة ٥٩٤هـ حصرها الفرنج ثم عادوا عنها، وتعاقبت عليها ايدي التعمير والتدمير ، وكانت خرابا في عهد الشيخ ناصيف بن نصار شيخ مشايخ جبل عامل في المئة الحادية عشرة، فعمرها كما كانت عليه في هذا العصر، كما عمر غيره من مشايخ جبل عامل سائر القلاع ، وعمر ابن عمه عباس المحمد صور وكانت خرابا . وسكنها ناصيف هو وأخوه محمود المعروف بأبي حمد . وفيها برج من جهة الغرب ، ينسب الى ابي حمد إلى اليوم ، لأنه هو الذي عمره ، وهو البناء الغربي الذي في جانبيه الشمالي والجنوبي تدوير اقل من باقي الابراج ثم زاد في تعميرها حمد البك بن ابي حمد هذا ثم زاد في بنائها علي بك الاسعد لما

ولي بعد حمد البك وكان معه كالوزير محمد بك بن اسعد الخليل فبنى علي بك، في اعاليها من جهة الغرب دورا شاهقة وأواوين لطيفة بديعة على يد المعمـار الحاج حميدي الصفدي باني جامع بنت جبيل اليوم وقد رأيت تلك الـدور وصعدت إلى اعلاها فكان لها منـظر رائع ثم آل امرها الى الخـراب ولم يبق لها اثـر على عـادة الدنيا .

ونقـل مصطفى بـك القنواتي الـدمشقي قائمقـام صـور جملة من أعمـدة الرخام التي فيها إلى سراي الحكومة في صور حتى انه نقـل بعض احجار الجامع وذلك في عصرنا ، وبنى علي بك فيها حماما رأيته عامـرا ، وتوفي عنـد تمامـه فلم يدخله ، وكان فيها جامع معظم لا أدري أهو من بناء ناصيف أو غيره ؟ . وبنى علي بك فيهـا دورا جميلة من جهة الشمـال لحسين بـك بـن سلمـان بك حـين جـاء مغاضباً لأخيـه تـامـر بـك حـاكم بنت جبيـل ، دخلتهـا ورأيتهـا في زمن الصبا ، وكان على سقوفها اشعار وتواريخ بخطوط جميلة وقد غـابت عن حفظي واسفت على عدم كتابتها وعلى جدرانها وسقوفها نقوش بديعة ، وقد هدمت بعد الاحتـلال الفرنسي ، واخـذت انقاضهـا ! ورأيت في القلعة مكـان مطبـخ عـلي بـك ، ولا يشبهه الا مـطابخ الملوك ، وأمـاكن مواقـده تسع قـدورا تكفي جيشـا عَرَمْرَما ، وبقي علي بك في هذه القلعة إلى سنة ١٢٨٢ هـ ثم قبض عليه وارسل إلى دمشق ، فتوفي فيها ودفن بجوار الضريح المنسوب إلى السيدة زينب في قريـة راويـة ثم عينت فيهـا الحكـومـة العثمـانيـة مـديـرا واستمـرت كـذلـك إلى اول الاحتـلال ، بعد الحـرب العظمى فخـرب ما فيهـا من البناء ولم يبق فيهـا سوى العقود والابراج التي لا يمكن تخريبها ، واخذ الناس انقاضها من حجارة وغيرهـا وعـادت إلى شبه حـالتهـا الاولى من الخـراب وهجرت فسبحـان من لا يـدوم الا ملكه .

٤ ـ قلعة ميس او قلعة أبي الحسن ـ

قيل لي أن قلعة ميس هي القلعة الجاثمة على قمة جبل بين الشهابية المسماة سابقا « طير زبنا » وبين « دير كيفا » ، تكون عن يسار الذاهب من الشهـابية إلى

دير كيفا ، ويقول الأمين انـه رآها وهي مـزرب للماعـز وأنه يـظن أنها قلعة أبي الحسن .

وأما قلعة أبي الحسن ، فعن معجم البلدان ، أنها قلعة عظيمة ساحليـة ، قرب صيدا بـالشام ، فتحهـا يوسف بن أيـوب واقطعهـا ميسون القصيـري مدة وصارت لغيره. انتهى.

وعن القـاموس : قلعـة ابي الحسن قريب صيـدا ، وعن تاج العـروس : بساحل الشام ، وهي المعروفة بقلعة الموت واسمها تاريخ عمارتها سنـة ٥٧٧ هـ عمـرها ابـو الحسن بن نزار بن الحـاكم بأمـر الله العبيـدي ، صـاحب الـدعـوة الاسماعيلية ، وله بها عقب منتشر . انتهى .

ولما رأى العلامة الأمين ان تاريخ عمارتها لا ينـطبق مع اسمهـا احتمل أن يكـون تاريخهـا الموت الـذي يبلغ بحساب الجمـل ٤٧٧ هـ وأن تكـون الاربعـة ابدلت بخمسة وهو غير بعيد لكثرة ما نشاهده في المخطوطات من تبديـل الارقام الحسابية .

٥ ـ قلعة دوبيه ـ

بدال مهملة مضمومة وواو ساكنة وباء موحدة مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة وهاء.

قلعـة قديمـة لها خنـدق وفيها لـوازم الحصـار ، يحيط بهـا واد من جهـاتهـا الثلاث عدا الجنوبية لها ربض من غربها يسمى الزنار ، جددهـا آل علي الصغـير فـي عهد ناصيف بن نصار وسكنوها وبناؤ هم فيها تختلف عن بنائهـا الاصلي ، وهو ظاهر . وممن جدد بناءها الشيـخ ظاهـر بن نصار النصـار ابن أخي ناصيف من آل علي الصغير ولما اتم بناءها وصعد إلى اعلاها ليشرف على منـاظرهـا سقط إلى الأرض فمات وذلك سنة ١١٦٣ هـ . وقيل انها كانت مقر مراد النصار على عهد أخيه ناصيف النصار وبعده كانت مقر ولده قاسم المراد . وفيها اختبأ الأمير يونس المعني بولـديه ملحم وحمـدان من وجه الكجـك أحمد بـاشا والي صيـدا لما زحف بعساكره لمحاربة أخيـه فخر الـدين ، كما فـر اخوه الأمـير فخر الـدين إلى قلعة شقيف تيرون وذلك سنة ١٠٤٤ هـ .

يبلغ طولها ١٢٥ مترا وعرضها ٨٠ مترا ، فيها ثلاث طبقات ، والثالثة متهدمة وفي الطبقتين الباقيتين ٣٢ حجرة وغرفة وفي داخلها وخارجها آبار وصهاريج كثيرة وفي داخلها بئر في الطبقة الثانية وفي خارجها صهريج كبير منقور في الصخر الأصم .

وفي معجم قرى جبل عامل يلوح لي أن بنيانها من صليبيي الافرنسيين وأن اسمها محرف قليلا من دوبو أو دوبي من أسماء الاعلام الشخصية في اللغة الفرنسية ، وإن بناءها صليبي ، قائم على انقاض بناء روماني ، بدليل ما يوجد حواليها من المدافن الشبيهة بالمدافن الرومانية ، وإن بناءها متأخر عن رحلة ابن جبير والا لم يهمل ذكرها ، وقد مر وهو ذاهب من هونين إلى تبنين بقربها في وادي الاصطبل وهي في مكان عال « انتهى » .

والموجود عندها من المدافن مدفن واحد منقور في الصخر[1] .

٦ ـ قلعة شمع ـ

وهي قلعة كبيرة، جددها أو بناها حكام آل علي الصغير سنة ١١٦٣ هـ وهي الآن خراب ، تقد في قرية شمع الواقعة بين صور والناقورة وهي قريبة من البحر .

٧ ـ قلعة القط ـ

جبل صغير من حجارة في أرض مجدل سلم تأوي اليها السنانير البرية، وبذلك سميت قلعة القط . فالقط بلسان أهل جبل عامل الهر وليست بقلعة ، وسميت بذلك تشبيها بالقلعة قلت : ولعل تلك الاحجار متراكمة على موضع القلعة .

٨ ـ قلعة هونين ـ

بهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة ومثناة تحتية ، قرية على أواخر جبل عامل من جهة الشرق على جبل وفوقها جبل ينسب اليها ويقابلها من الشرق جبل بانياس .

---

(١) خطط جبل عامل ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

ذكرها ابن جبير في رحلته وكانت احدى قواعد الحكم في جبل عامل ثم صارت من عمل مرجعيون ، والحقت بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٩١٨م بفلسطين .

فيها قلعة قديمة كان بها بعض ملوك الصليبيين لها ذكر في الفتوح والحروب الصليبية وحولها خندق جله منحوت في الصخر . ومر عن صبح الأعشى انها بنيت بعد الخمسمئة قال : وجعل العثماني في تاريخ صفد قلعة هونين من عمل الشقيف ، وفي معجم البلدان : هونين بالضم ثم السكون ونون ثم ياء ونون أخرى بلد في جبال عاملة مطل على نواحي مصر . « انتهى » .

وجدد تعمير قلعة هونين حكام تلك البلاد من امراء الشيعة ولا يعرف لها ربض . سكنها من العشائر آل الصغير قبلان الحسن بفتح الباء وذلك في عهد ناصيف النصار ولهم فيها آثار وعمارات محكمة ، منها الجامع الباقية منارته وبعض حيطانه الى اليوم وقد كتب عليه هذا التاريخ :

ومسجد فاز ببنيانه ... ذو الفضل قبلان حليف الندى
كيف وقد قال لنا جعفر ... والقول حق من بنى مسجدا
مذ أمه الناس وصلوا به ... ارخت خروا ركعا سجدا (١١٦٦)هـ

وكتب كلمات حكمية على جانبي هذا التاريخ، فالتي على احد الجانبين قد ذهبت ، والتي على الجانب الآخر هي هذه كل واحدة في سطر : « تاج الملك عدله » . « تزكية الرجل عقله » . « واضع المرء فعله » . وكتب على المأذنة خط لم نتمكن من قراءته ولا من الصعود إليها لتهدم درجها ، وصعد رجل فقرأ هذه الجملة (بني بإشارة قبلان الحسن، سنة ١١٨٧هـ.) ووجدت صخرة بقرب هذا المسجد لم يعلم انها له أو لغيره ، وقد كتب عليها هذا التاريخ :

أبا حسين جزاك الله مغفرة ... فقد اتيت بفضل غير مشتبه
كلفت بالمسجد المعمور فابتسمت ... سماؤه فرحا عن نور كوكبه
يفنى الزمان ولا يفنى مؤرخه ... الخير يبقى وإن طال الزمان به

سنة ١١٩٦هـ.

٩ ـ قلعة مارون ـ

بضم الراء. في ساحل صور قلعة قديمة هي اليوم خراب وفيها بيوت مسكونة وحواصل مياه كثيرة . من أبنية العشائر امراء جبل عامل جدد بناءها الشيخ عباس العلي وكان على عتبة بابها هذا التاريخ :

عوذوها إن فيها للعدى داء مغيظا
جنة والنار فيها تحرق السفط الغليظا
شادها عباس حصنا للعدى زادت حظوظا
فهي دار الخلد أرّخ وكفى الله حفيظا[1]

الانهر والعيون في جبل عامل[2] :

إن المياه في لبنان تجري بسرعة، لأن اكثرها ينبع من جبال مرتفعة، ثم تنحدر إلى المصب انحدارا عظيما ، وفي الشتاء تلتقي معها كميات كبيرة من مياه المطر ، حاملة معها ما تجرفه من التراب والصخور ، فتتراكم في مجاري الانهار ، أما في الصيف فإن اكثرها يكاد يجف ، وليس فيها نهر يصلح للملاحة .

نهر الليطاني :

ويسمى (اوليونتس)، ويطلق عليه عند اسفل مجراه اسم نهر القاسمية، وهو نهر طويل وماؤه كثير ، ولا يسقي الأرض لأنه يسير في أرض منخفضة ، محفوفة بجبال شاهقة ، وإذا اجتمعت فيه الامطار من الجبال في الشتاء بلغ أعالي تلك الجبال ، وربما حمل معه قطعة من جبل وكثيرا ما يغرق فيه أبان فيضانه نفوس وحيوانات ، لأنه يجيء على غفلة في موج كالجبال ، مصدره من السفح الشرقي لجبل المكمل ، وبعد أن يروي جانبا من سهل بعلبك ويمر في طول سهل البقاع متجها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، ثم يلتوي فجأة إلى الغرب ،

---

(١) خطط جبل عامل . قلت : ويدل هذا التاريخ على أنها بنيت سنة ١١٧٠ هـ .
(٢) ان وصف نهر الليطاني والزهراني أخذناه عن كتاب (لبنان بعد الحرب) ص ١٢ .

ويجري ، حتى يصل إلى البحر الابيض المتوسط ، أما مصبه فيكون على بعد ثمانية كيلومترات تقريبا من مدينة صور من جهة الشمال ويبلغ طول مجراه الكثير التعرج مئة وثمانين كيلومترا تقريبا .

يصب فيه من الجانبين عدة أنهر أخرى منها : البردوني ، الذي يهبط من صنين ، ويسقي زحلة ، ثم المعلقة ، ثم يصب في الليطاني بالقرب من بر الياس .

ونهر الليطاني يسير في سهول بعلبك والبقاع بكل هدوء ، فينبسط في السهول الواقعة في جانبيه ثم يصير ضيقا عميقا ، وتمر مياهه المتدفقة من تحت صخر جعلته جسرا طبيعيا .

نهر الزهراني :

ينبع نهر الزهراني من نواحي جبل نيحا ، على بعد عشرة كيلومترات من جزين شرقا ، ويتجه أولا جنوبا بغرب ، ثم يدور فجأةً شمالا بغرب مكونا زاوية حادة ، ثم يتدفق في البحر على بعد سبعة كيلومترات من صيدا جنوبا ، ومنبعه عين الطاسة ، وهو في سفح جبل في أرض اللويزة على مقربة من عربصاليم وجرجوع[1] ، ومياهه قليلة نسبيا ، ولا سيما في الصيف ويبلغ طوله أربعين كيلومترا تقريبا ، وقد جلب منه الماء الزعيم يوسف بك الزين العاملي رحمه الله إلى النبطية ، وإلى بلدة كفر رمان وإلى بعض القرى المجاورة ، بواسطة الانابيب ، فأحياها ، وأحيا أرضاً كثيرة ، وعند انتهاء العمل ، عقد احتفالا على سطح مخزن الماء الواقع على رأس جبل ، وقد حضره جمع من ذوي الفضل والادب وتليت في هذه المناسبة القصائد والخطب ، وأرخه شعراء ذلك الوقت بعدة تواريخ ، ثم بعد ذلك اصبح هذا المشروع ـ مشروع نبع الطاسة ـ يسقي بلاداً كثيرة ، تعد بالعشرات ، وسمعت من بعضهم أنها تزيد عن ستين بلدة . .

---

(١) ذكرنا المنبع الثاني اعتمادا على رواية بعض الاخوان المشاهدين لمنبعه مرارا .

وأما العيون التي تجري على وجه الأرض ، فهي كثيرة ، ولعل اغلبها قديم ، وفي بعضها صنع عجيب . وهي في اقليمي الشومر والتفاح اكثر منها في بلاد بشارة ، حتى أنه قال لي بعض أهالي جبع وغيرهم انه يوجد في جباع وحدها ثلاثمئة وستون عينا ، ولكن هذه الينابيع كلها لا تكفي لري الاراضي الواسعة . . ومن أهم الينابيع الموجودة في جبل عامل نبع (المأذنة) وهو على مقربة من كفر رمان ، ونبع وادي الحجير ، ونبوع مرج الخيام وجديدة مرجعيون ، ونبع قدس ، ونبوع رأس العين وهي عجيبة الصنع ، يذكر الواصفون عنها أشياء كثيرة ، ونبع عرمتى ، ونبع الريحان ، ومشغرة وكفر حتى وكفر حونا وعين قانا ، وزيتا ووادي جيلو وغيرها .

وأما الآبار النابعة التي يبعد قعرها عن وجه الأرض المترين والثلاثة وما أشبه ذلك ، فهي كثيرة جداً قد لا تخلو منها قرية ، ففي قريتنا حاريص مثلا عدة عيون ، احداها عين الضيعة ، وفيها فن وصنعة ، وهي تخرج من ميزابين ، احدهما حديد والآخر حجر مستخرج من نفس الصخر الذي ينبع منه الماء ، وكانت تستعمل قديما لسقي ما حولها من الأرض المسماة بالبستان ، وقد ادركت جدار خزان واقع في بعضها ، وثانيها عين (الياذون) وهي في واد سحيق ، ولها بركة مستديرة ، وهي لا تزيد ولا تنقص ، فقد يتعاقب عليها جماعة من الرعاة ، فيخرجون منها الماء بالدلاء لسقي مواشيهم الكثيرة ، ومع ذلك لا يظهر عليها النقص ، وماؤها في منتهى الخفة ، وكانت كل قرية قبل عقود تستقي لها ولماشيتها من العيون العائدة اليها ، وكانوا يحتفرون امكنة واسعة تجتمع فيها مياه الشتاء ، يستعينون بها في قضاء حاجاتهم، ، وبعضها واسع وعميق ، وهي محتفرة في الصخر غالبا ، وفرجها مسدودة ببناء محكم ، ومطلية بما يمنع تسرب الماء منه . . . وتسمى بركة .

مذهب سكان جبل عامل :

سكان جبل عامل شيعة إمامية إثنا عشرية، ما عدا القليل من سكان بعض القرى ، فإنهم مسيحيون ، ولا تبلغ نسبتهم نصف العشر ، بل وأقل من

ذلـك ، ويوجـد في صيدا ومـا بعدهـا الى جهة بيـروت عدد من أهـل السنـة ، والشيعة في جبل عـامل وبعلبـك عرفوا منذ عهـد قريب بـ (المتـاولة)[1] وهـم يفتخرون بهذا الاسم ويمتدحون به ، ومأخذه أحد أمور :

ـ اولها : انه جمع متوال ، مشتق من غير قياس من تـولى ، أي اتخذ وليـا ومتبوعا ، ويـراد به هنـا ولايتهم لأهل البيت (ع) ، وهم عـلي والحسنان وزين العـابدين عـلي بن الحسين والبـاقر والصـادق والكاظم والـرضا والجـواد والهادي والعسكري والإمام المهدي المنتظر (ع) الذين بأنوارهم يهتدون، وبما بلغوه عن النبي ﷺ يعملون .

ـ ثانيها : انه مشتق من توالى ، بمعنى تتـابع ، وهـو على القيـاس والمعنى المشار بها اليه ، هو تتابعهم في موالاة اهل البيت (ع) خلفا عن سلف[2] .

ـ ثـالثها : إن تـولى تأتي بمعنى اتبـع كما تـأتي بمعنى انصـرف ، فكـأنها من الاضـداد ، وقد استعملت في كلا المعنيين في الكتـاب العـزيـز : (ومن يتـولهم منكم فإنه منهم) ، (وإن تتـولوا يستبـدل قومـا غيركم) ، واستعملت في معنى ثـالث ايضـا : (فهــل عسيتم ان تــوليتم أن تفســدوا في الأرض وتقــطعــوا أرحـامكم) ، واسم الفاعـل متولي ، ثم حـرفت على طـول الزمن كغيـرهـا من الالفاظ العربية .

رابعها : ما ذكره الامير شكيب ارسلان قائلا : سمعت من فم استاذنـا الامام الشيخ محمد عبده المصري اكرم الله مثواه ، انهم كانوا يقـولون للعلوي : (مت وليـا لعلي) ، إلى أن قـال : فصيغت من ذلك كلمـة متولي ، ثم صـارت بتوالي الايام متوالي[3]

ولو صـح هذا ، للزم أن تسمى جميـع الشيعة بهـذا الاسم دون خصوص أهل جبل عامل وبعلبك ، كما ذكره الاستاذ صاحب العرفان .

---

(١) كما اعترف به جملة من الباحثين منهم الاستاذان رضا وارسلان .

(٢) كما افاده اللغوي الكبير الاستاذ رضا في العرفان م ٢ .

(٣) كما أفاده الأمير شكيب أرسلان في العرفان م ٢ .

وقد كانوا يعرفون في بعض العصور بالعلوية ، كما كان يعرف بعض السنة بالعثمانية نسبة لعلي وعثمان ، واننا نستقرب ان يكون العلويون الموجودون في جبال العلويين استقلوا بهذا الاسم منذ عهد قريب ، والذي نظنه أن بعدهم عن جبل عامل وعدم اتصالهم بالجماعات الدينية الشيعية بواسطة ضغط حكام دمشق عليهم ، هو الذي اوجب انحطاطهم في المعارف الدينية الصحيحة .

جبل عامل والتشيع

الشيعة: اختص بهذا الاسم من يقول بأحقية علي (ع) بالخلافة، كما أن من تبرأ منه يسمى عثمانياً كما اختص من تبرأ من علي وعثمان باسم الخوارج، وقد اشتهرت هذه الفرق الثلاث في صدر الاسلام، كما انه لم يبق شخص من المسلمين الا واتصف بواحدة منها في آخر عهد علي (ع)، إلا أن مبدأ الخوارج ولد بعد التحكيم وهو اشهر أيام صفين، ومبدأ العثمانية ولد قبيل وقعة الجمل، واما مبدأ التشيع فقد ولد مع الاسلام، ولكن هل سبق تشيع سكان جبل عامل غير الحجاز أولاً؟ وذلك أمر هو المقصود لنا في هذا البحث لأنه هو الذي يمس الموضوع الذي نعالجه في هذه الصحائف.

وقد تعرض لهذه الناحية آحاد من الباحثين المعروفين بالتتبع والتنقيب والانصاف والمجاهرة بالحق وان كلفهم ذلك غاليا، حتى يكاد من عرفهم يعدهم من الاختصاصيين بهذه النواحي، وأولهم الأمير شكيب ارسلان[1].

---

(١) يقال عنه انه درزي المذهب ويقال انه مسلم سني، ومهما يكن من شيء، فإن اصله درزي وهو من اكثر الناس اعتدالا، والمذهب الدرزي باطني، ويقال انهم يقولون بالوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي وصعوده للسماء، وهم ينتظرونه، وقد حدثني الدكتور الشيخ محمد عيد في النجف في العراق في سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م. وهو منهم من قرية بعقلين، إن من شروط الإيمان عندهم بلوغ الاربعين، وترك اللحية، ولبس الحذاء الاحمر المسمى هناك (بحرية)، وفي العراق (يمني)، ولبس عمة على الطربوش، وترك التدخين أو السيكارة بالخصوص، وإن يحمل عصا في=

والثاني والثالث الفاضلان الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ، وهما من أكثر أدباء جبل عامل بحثا ومعالجة للمواضيع التاريخية والأدبية ومن أبعدهم شهرة في وقتهم وهما عضوا المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضوا المؤتمر الإسلامي بالقدس ، والرابع والخامس الحر العاملي صاحب الوسائل والعلامة الأمين صاحب أعيان الشيعة . .

قال الشيخ أحمد رضا[1] : أن التشيع في بلاد الشام هو أقدم منه في كل البلاد غير الحجاز ، وهذا من العجيب أن يقوم أول ركن وتنتشر أول دعوة للشيعة في بلاد محكومة لأعدى الناس لهم .

لما سير أبو ذر الغفاري (رضى) منفيا الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى)[2] لمقالة بلغته عنه ، أقام في دمشق مدة يبث دعوته ، لا يرهب في أمره صولة ولا يخشى قوة ولم يكن نفيه هذا ليلين من شكيمته شيئا ، فكان ينشر مذهبه في العلوية وآراءه الاشتراكية (؟) من حيث عدم استئثار الأغنياء بأموالهم دون الفقراء حتى استجاب له قوم في نفس الشام لا يزالون ثابتي العقيدة في التشيع إلى اليوم ، ثم كان يخرج إلى الساحل فكان له مقام في قرية الصرفند القريبة من صيدا ، ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الاردن ، وكلتاهما من قرى جبل عامل والمقامان إلى الآن معروفان وقد اتخذا

= اعلاها شيء يضع ابهامه فيه ، واما النساء ، ومن لم يبلغ الأربعين من العمر ، فلا حظ لهم في معرفة الدين ، ويقال انهم يقولون بالتناسخ ، وقال كثير من مجاوريهم انهم عثروا على كتب خطية اثناء ثورتهم على الافرنسيين كانت تشتمل على معتقداتهم واهمها ما يفرضونه على اهل المذاهب الأخرى، وعما يكون بعد خروج الحاكم بأمر الله، ولهم زعيم ديني يسمى شيخ العقل، وشيخ العقل اليوم ملحم بك حمدان ، وقد زرته في بيته ، يوم كان رئيسا لمحكمة الاستئناف الكبرى ، وكان حليما ، ورأيت بعد ذلك صورته في الصحف ، وقد ارسل لحيته بعدما انتخب شيخا للعقل ، ونستغرب من مثل هذا الرجل ان يظل حريصا على كتمان هذا المذهب ، مع انه يفهم ان الكتمان على خلاف حكمة الاديان ، وعلى خلاف سيرتها منذ بدأ الله ببعثته الرسل . .

(١) العرفان م ٢ ص ٢٣٩ نقلناه بلفظه .

(٢) مؤرخو هذا العصر عندما يتحدثون عن أبي ذر يذكرون ما يشبه هذه العبارة وكنت أظن أن هذا من المسلمات ، ثم في هذه الأيام تغير رأيي بعد ملاحظة ما كتبه ولدنا الشيخ محمد جواد الفقيه وفقه الله في كتابه (أبو ذر الغفاري) .

مسجدين ، فكان له حينئذ في هذه الديار من استجاب دعوته وهم كثيرون ، وعرفت العلوية في جبل عامل منذ ذلك الحين ، أما معاوية فقد استغاث بعثمان (رض) من أبي ذر ، وكتب إليه أن أبا ذر أفسد علينا الشام فأمر برده إلى المدينة فارسله إليها مهانا ، على بعير ضالع بلا وقاء ولا غطاء بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكره ابن الأثير في كامله والطبري في تاريخه ، وإن كرها أن يذكرا بعد ذلك أسباب نفيه للربذة ، ولا يمكن التسليم بأن الأمر الذي أحرج معاوية فأخرجه عن حلمه حتى فعل بأبي ذر ما فعل ، هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمر أهم من هذا وأعظم ، الا وهو الدعوة العلوية ، التي كانت تقضي على آمال معاوية كلها ، ويكاد يغص لذكرها بالماء الفرات . .

إن أبا ذر كان معروفا بميله الشديد إلى الهاشميين عامة (؟) وإلى علي عليه السلام خاصة وقد كان ممَّن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليه اسم الشيعة ، فقد ورد في كتاب الزينبية في تفسير الألفاظ المتداوله بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازى كما نقله عنه صاحب الروضات أن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم أبو ذر ، وسلمان الفارسي ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالي علي (ع) انتهى . !

وقال أيضاً : ولم يكن أبو ذر يرهب قوة في المجاهرة برأيه وحسبك شاهدا ما أتى به في مجلس عثمان (رضى) لما احضرت أموال عبد الرحمن بن عوف وما صنعه وقتئذ بكعب الأحبار على ما رواه المسعودي ، إنتهى[1] ! .

ولقد عقبه الأمير شكيب[2] : فقال اما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم منه في العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز ، فمن الحقائق التي لا خلاف

---

(١) كلام الاستاذ رضا . العرفان م ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) في مقال نشره فى المقتطف ونقلته مجلة العرفان في المجلد الثاني صفحة ٤٤٨ اتعلقه بمقالات نشرها الاستاذ رضا فيها .

فيها ، بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الاسلام[1] ثم استطرد تاريخ ظهور التشيع في ايران ثم ذكر انه في العرب وبلاد الشام لم يكن ظاهرا وأن الشيعة كانت تستمسك بحبال التقية خوفا على أنفسهم ، ولذلك تجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطرارا ، ثم ذكر شواهد كثيرة على ذلك ملخصها : أن جملة من أعيان الشيعة وعلمائها المعروفين ـ وقد صرح بأسمائهم واحدا واحدا ـ ترجمهم المحبي وغيره ولم ينسبهم الى تشيع أو رفض ، وإنما نسب من قتل منهم بأنه رمي بالرفض فقتل إلى أن انتهى إلى فريد عصره الشيخ بهاء الدين العاملي فحكى عن المحبي أنه ورد الشام ونزل بمحلة الخراب وهي محلة الشيعة منذ فتحت الشام حتى اليوم ونقل في حقه عبارة للشيخ أبي الوفاء العرضي وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم ، حضر دروس الوالد أي الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله عن أدلة تفضيل الصديق على المرتضى ، فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت فرد عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقضي تفضيل المرتضى ، فشتمه الوالد ، وقال له رافضي شيعي وسبه ، فسكت ، ثم أن البهائي أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه ، فصنعها ودعاهما فأخبره أن هذا هو الملا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمتمونا ، فقال له ما علمت أنك الملا بهاء الدين ثم قال أنا سني ، أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعي ويقتل العالم السني ، قال المحبي : ولما سمع بقدومه أهل بني عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجا فخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب ، الخ ، انتهى .

قال الأمير شكيب: ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالتقية ومتكتمين في أمرهم مئين من السنين ، لأنهم لا جدال في كونهم موجودين في الشام منذ أوائل الفتح الاسلامي ومع هذا ، فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عرضا ، وربما لا يذكر اصلا .

---

(١) وقد عقب الأمير شكيب ارسلان كاتب آخر تبريزي بتوقيع (علي بن موسى) استعرض فيه تاريخ التشيع ونسب نفسه الى تبريز .

ومما يدل عل القدم والتكتم ، كون الأسماعلية والدروز قد خرجوا من الشيعة ، ويقال : أنهم خرجوا من الشيعة السبعية ، أي القائلين بالأئمة السبعة وقد وقع في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس منه في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع ، فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم ، ومنازل الفريقين لم تزل متناوحة ، مما يستدل به على وحدة الجرثومة ، فضلا عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات[1] والكلالات والانساب المتحدة في الأصل متواترا ذلك خلفا عن سلف ، يؤيد كون هذه الطوائف كلها راجعة في أصلها إلى العرب ، انتهى بلفظه .

وقد ذكر الاستاذ ظاهر ما يقرب من كلام صاحبيه قائلا : ان قدم التشيع في هذا القطر يعني جبل عامل يمتد الى خلافة عثمان (رضى) وإلى عهد نفي أبي ذر[2] .

وقال الحر العاملي[3] : إن تشيعهم - يعني العامليين - أقدم من تشيع غيرهم ، فقد روى أنه لما مات رسول الله ﷺ لم يكن من شيعة علي إلا أربعة مخلصون : سلمان ، وأبو ذر ، والمقداد وعمار ، ثم تبعهم جماعة قليلون ، اثنا عشر وكانوا يزيدون ويكثرون بالتدريج ، حتى بلغوا الفا وأكثر ، ثم في زمن عثمان لما أخرج أبا ذر إلى الشام ، بقي أياما فتشيع جماعة كثيرة ثم اخرجه معاوية إلى القرى ، فوقع في جبل عامل ، فتشيعوا من ذلك اليوم ، ثم لما قتل عثمان ، وخرج أمير المؤمنين (ع) من المدينة الى البصرة ، ومنها إلى الكوفة ، تشيع أكثر أهلها ومن حولها ، ولما تفرقت عماله وشيعته كان كل من دخل بلادا تشيع كثير من أهل تلك البلاد بسببه ، ثم لما خرج الرضا (ع) الى خراسان تشيع كثير من أهلها ، وذلك مذكور في التواريخ والأحاديث ، فظهر أنه لم يسبق أهل أجبل عامل إلى التشيع إلا جماعة محصورون من أهل المدينة ، وقد كان

---

(١) يؤيد ما قاله الأمير شكيب ارسلان أن الدروز حتى اليوم يزعمون أن الشيعة أولاد عمهم .

(٢) العرفان م ٣٠ ج أول وثاني تحت عنوان : (اغلاط الاعلام) .

(٣) في كتابه (أمل الآمل في علماء جبل عامل) في الطبعة الملحقة برجال الميرزا محمد المعروف بمنهج المقال ص ٤٢٤ .

أيضـا في مكة والـطائف واليمـن والعـراق والعجم شيعـة قليلون ، وكـان أكـثر الشيعة في ذلك الوقت أهل جبل عامل ، انتهى بلفظه .

قلت : ومن عرف ما كانت تشتمل عليه مكتبة الحر صاحب الوسائـل وما تهيأ له من الأعوان، وعرف ما انفقه من عمره الشريـف في التأليف والتصنيف، والضبط جزم بكل ما في كلامه ، وأشده ارتباطا فيما نحن فيه قوله : ثم أخـرجه معاوية إلى القـرى فوقـع في جبل عـامل ، فتشيعـوا من ذلك اليـوم ، فإنـه نص صريح في المطلوب .

وقـال العلامـة الأمين معقبـا على مـا ذكره الحـر العامـلي : ثم ان اقتصـار صاحب أمل الآمل على الأربعة ، والاثني عشر في عدد الشيعة ، بعـد وفاة النبي ﷺ غـير صواب ، فقـد كان جميـع بني هاشم شيعـة ، وكان معهم الـزبـير ، لم يفارقهم ، وعندما امتنع علي (ع) عن البيعة ، ودخلوا عليه البيت ، كان الزبير مع بني هاشم في البيت ، وحضر دفن الزهراء (ع) لما دفنت ليلا ، وما تغير حتى نشأ ولده عبد الله ، وكذلك جل اهل اليمن والطائف كانوا شيعة ، بل قيل أن أهل البطاح بالبادية لا يعرفون غير التشيع ، انتهى .

قلت : لا ريب أن أبا ذر هو الذي حمل التشيع في عهد عثمان من المدينـة المنورة ، إلى دمشق ، وبذره فيهـا ، ولم يزل يعيش فيهـا حتى الساعـة ، ويشهد لذلك جميع ما أسلفناه .

ويشهـد له أيضـا : أن المعروف عنـد العامليـين أنفسهم ، أن أبـا ذر هـو الـذي نشر التشيـع في بلادهم وهم يتنـاقلون ذلك خلفـا عن سلف ، ويسمـون أنفسهم شيعة أبي ذر ، ويتبركون بهذه التسمية ويتيمنون بها .

ومن الشواهد التاريخية علـى ذلك ايضـا ، التي لا تكاد تقبـل الشك ، أن بلاد عاملة، لا تزال تحتفظ بمكانين، يزعمون أن أبا ذر كان يقيم فيهما، وقد أصبحـا على طـول الزمن مسجـدين ينسبـان لأبي ذر ، ويـزورهمـا الخـواص من المؤمنـين ،ويصلون فيهما تبـركا ، أمـا أحد هـذين المسجـديـن ففي بلدة ميس الجبل،المشرفة على بحيرة الحولة ، وأما الآخر ، ففي بلدة الصرفند ، الواقعة بين

صور وصيدا على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد صليت فيه أكثر من مرة قبل ثلاثين سنة تقريباً ، وهو مسجد صغير، مبني على الطراز القديم (قبو)، ويقع على قمة جبل صخري متلاصق الصخور ، يصعب السلوك إليه، وكان في ذلك الوقت منعزلا عن البلدة في تلك القمة ، وهذا المكان يشبه الأمكنة المنسوبة إلى أنبياء بني اسرائيل ، مثل مقام شمع وصافي ومحيبيب وغيرهم ، ولعلهم كانوا يختارونها طلبا للعزلة عن الناس ، يساعدان النفس على التوجه لمناجاة الخالق ، والشعور بالقرب منه ، وبث الشكوى إليه ، والاستعانة به .

بقي علينا أن نشير إلى السبب في مجيء أبي ذر إلى الشام ، وفي خروجه منها إلى جبل عامل فنقول : أما مجيئه إلى دمشق فكان بأمر من عثمان وكان السبب في ذلك هي البوادر الشاذة اسلاميا ، التي صدرت في عهد عثمان من حاشيته وأقاربه ، والتي لم يستطع المخلصون من الصحابة السكوت عليها، فطالبوا عثمان بتداركها بالحاح وتكرار ، فكان يتنصل من بعضها ، ويصر على بعضها غير مكترث ، واعقب هذا أمر مهم ، وهو أن من أحسن الظن به اتهمه بالضعف ، ومن أساء الظن فيه اتهمه بالانحراف ، وقد أدى ذلك في النهاية الى تجمهر عظماء المسلمين من مصر والعراق والحجاز ، وتجمعهم في المدينة المنورة ، واجتماع رأيهم على تنحية عثمان من الحكم . .

وكان عثمان قبل ذلك قد أعاد أبا ذر من الشام إلى المدينة ، على حال لم يرتضها المسلمون ، ثم نفاه الى الربذة انتقاما منه ، بعدما سأله عثمان قائلا : أي البقاع أحب اليك ؟ فأجابه أبو ذر : حرم الله وحرم رسول ، ثم سأله : أي البقاع أبغض إليك ؟ فقال : الربذة ، فأمره بالخروج اليها ، ونهى الناس عن تشييعه مخافة تجمهر المسلمين ، لأنهم كانوا يعظمون أبا ذر ويكبرونه ، فامتنعوا ولكن أمير المؤمنين علياً (ع) والحسنين وبعضاً آخر خرجوا لتشييعه ، وخرج بعض خاصة عثمان لينبههم على ذلك ، فقال علي (ع) : أو كلما قال عثمان نطيعه فيما قال ؟ . .

وكان مشهد الوداع والكلمات التي قيلت فيه مشهدا مؤثرا . ولما أمره

عثمان بالخروج ، قال : أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ قائلا : يا أبا ذر . . تعيش وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك .

وهكذا كان . . فقد مات أبو ذر في الربذة وحده قبل مقتل عثمان ، وعندما حضرته الوفاة كان وحده ولم يكن عنده إلا ابنته الوحيدة ، التي قالت له في تلك الساعة العصيبة : يا أبتي . . تموت غريبا وليس معي من يساعدني على شأنك ؟ فقال لها : إذا أنا قضيت ، فاجلسي على قارعة الطريق ، فيمر بك ركب من المسلمين ، فاخبريهم بخبري ، فإنهم يقومون بأمري ، ففعلت ، فاجتاز بها ركب من المسلمين العراقيين ساعة موته ، وكان مالك الأشتر من بينهم ، فاخبرتهم بخبره ، فعظم عليها ذلك ، ثم غسلوه وكفنوه ودفنوه ، وأبنوه بكلمات خلدت مع التاريخ بخلود أبي ذر ، وحملوا ابنته معهم ، وأنزلوها في دار أمير المؤمنين علي (ع) وشاع الخبر طبعا ، فكان هذا الحدث هو الحدث الأخير ، الذي أحفظ المسلمين ، وزاد في سخطهم على عثمان إلى أبعد حد ، ثم حوصر عثمان في داره ، وانتهى الأمر بموته قتلا ، وبقي أياما لم يدفن ملقى على حش كوكب في ضاحية المدينة المنورة .

والذي نعتقده أن عثمان كان يتحامى أبا ذر ، وأنه أرسله للشام لا بعنوان الانتقام، بل بعنوان البعث ، فإن المدينة المنورة كانت تصدر القادة والجيوش إلى الأمصار والثغور ، وكانت تدون أسماء هؤلاء ، فكان أبو ذر في بعث الشام ، ويشهد لذلك قول عثمان لأبي ذر : الحق بمكتبك ، والظاهر أن هذا هو المقصود من هذه الكلمة .

ولكن ، لماذا اختار له الشام ، وهي اطيب من البلاد الحجازية مناخاً ، وأكثرها رفاها .

والذي نعتقده أنه إنما اختار ذلك بعد فشله في محاولة شرائه بالمال طمعاً بتطويق أفكاره المناهضة للاتجاه السياسي والاقتصادي ، الذي كانت تخططه الدولة في ذلك العهد وتسير عليه، فإن عثمان أغدق على أقاربه وخاصته ، وكان منهم مروان بن الحكم ووالده الحكم ، اللذان طردهما رسول الله ﷺ في حياته

من المدينة ، وسميا طريدي رسول الله ﷺ وبقيا طريدين في أيام خلافة أبي بكر وفي أيام عمر أيضا ، ولما انتهت الخلافة إلى عثمان ، أرجعهما للمدينة لقرابتهما منه ، فاغضب ذلك المسلمين ، وكان معاوية في ذلك الوقت حاكم الشام وهو من أقرب الناس إلى عثمان ، ومن أكثرهم استفادة من سلطانه ، ولعل عثمان كان يظن أن معاوية سيريحه من أبي ذر ، أو يظن أن أهل الشام لا يستمعون لكلام أبي ذر ولا يأبهون به ، ولكن الأمر كان على العكس فإن معاوية كان أكثر حصافة وأبعد نظرا ، ومن ثم لم يسىء لأبي ذر بأكثر من حرمانه من العطاء المقرر له ، وأما أهل الشام فإنهم تجمعوا حول أبي ذر وصدقوه لشهادة الصحابة له بالصدق ، مستندين في ذلك الى شهادة النبي ﷺ به .

وبعد ذلك أصبح أبو ذر يتمتع بحصانة التصديق ، وأصبح يهاجم معاوية في عقر داره ، فكان يدخل على معاوية في قصره ، أو يقف على باب ذلك القصر ، ويحاسبه على ما انفقه فيه ، ويقول : جاء القطار بحمل النار ، وما أشبه ذلك ، وبعد ذلك كتب معاوية الى عثمان كتابا يقول فيه : أما بعد فإن أبا ذر أفسد أهل الشام عليك ، فإن يكن لك بها حاجة فخذه اليك ، فأمره عثمان بإرجاعه إلى المدينة ، فأرجعه إليها على مركب خشن ، وأمر مرافقه أن يسير به بعنف ، وأن لا يسمح له بالاستراحة ، ولعله كان يظن أن ذلك سيودي بحياته لضعفه و شيخوخته ، فوصل إليها على أسوأ حال ، وفتح هذا العمل بابا آخر على عثمان ، واستغله خصومه . .

ثم إن سبب خروج أبي ذر إلى بلاد عاملة لم يزل مجهولا ، فمن المحتمل أن يكون قد خرج إليها بأمر من معاوية ، وبه حدثنا الحر العاملي حيث قال : ثم اخرجه معاوية إلى القرى ، فوقع في جبل عامل ، فتشيعوا من ذلك اليوم إلى أن قال : وذلك مذكور في التواريخ والاحاديث انتهى[1]، ومن المحتمل أن يكون قد خرج إليها مختارا ، طمعا في نشر دعوته في زاوية من زوايا بلاد الشام منقطعة عن العاصمة ، وبعيدة عن الرقابة ، ومن المحتمل أن يكون قد خرج إليها تسكينا لغيظ معاوية من جهة ، واستفراصاً لنشر دعوته من جهة اخرى ، ولكن

---

(١) أمل الآمل ، الملحق بمنهج المقال ص ٤٢٤ .

لا طريق لنا من الوجهة التاريخية إلى الجزم بشيء من هذه المحتملات ، وعلى كل حال ، فقد نجح أبو ذر ، فإن جبل عامل لا يزال يحمل عقيدته ويحتضنها ويحامي عنها إلى يومنا هذا[1] .

وقد ظهر من جميع ما قدمناه ، أن التشيع بكل معانيه كان موجودا في عهد عثمان ، وأنه لم يولد بعد مقتله ، كما يقوله أكثر المستشرقين ، وجمع من خصوم الشيعة والتشيع ، وجمهور ممن يقلد المستشرقين ويعتقد بآرائهم ، ولا ريب أن مؤرخي المسلمين هم اعرف بتاريخ الإسلام وبتاريخ فرقه من الغرباء عن الإسلام والمسلمين . .

وظهر أيضا أن غضبة عثمان ومعاوية وأنصارهما على أبي ذر ، لم تكن لمجرد ابداء الملاحظات والمحاسبات ، بل لما كان يهدف إليه أبو ذر . . فإنه كان يهدف إلى تحويل مجرى الخلافة وارجاعها لأهلها . .

ومن الغريب بقاء التشيع منذ ذلك العهد إلى اليوم في بلاد عاملة ، وفي الشام نفسها مع مطاردة الحكام للشيعة ومناوأتهم للتشيع . . ومن الغريب أيضا أن يعيش التشيع في دمشق نفسها في ثلاث مناطق كلها شيعية وأن يبقى من ذلك العهد إلى هذه الساعة ، وتلك المناطق هي : الخراب والجورة والصالحية ، وبعض القرى المجاورة لدمشق .

أجل ليس من الغريب أن تعيش أفكار أبي ذر طيلة أربعة عشر قرنا ، لأن أبا ذر كان يعمل لله ، وما كان لله ينمو .

ثم إن انتساب شيعة جبل عامل لأبي ذر أمر يعرفه غير العامليين ، ففي سنة ١٣٦٦ هـ ذهبت من النجف إلى قلعة سكر ، عن طريق الديوانية فالرميثا فالناصرية ، فالشطرة فالرفاعي ، وعند وصولي للرفاعي اضطررت للنزول على الوجيه المعروف الشيخ اسماعيل السوز ، وكان شخصية منفتحة ، وكان يتمتع بمكانة مرموقة وكنت اسمع به ، وكان يسمع بي ، فتلقاني وأكرمني على غير

---

(١) مصادر ما يتعلق بأبي ذر ـ الغدير ـ ج٨ ـ ص ٢٨٧ ـ ٣٤٢ أعيان الشيعة ترجمة جندب بن جنادة ج ١٧ ص ٤١٩ ـ ٥٣١ ـ أبو ذر للشيخ محمد جواد الفقيه ابن المؤلف .

معرفة ، وكان يظن أنني فارسي فقد سلم علي باللغة الفارسية ، وكنت لا أحسن منها إلا القليل ، فاخبرته أنني عاملي ولم ازد ، وبعد ذلك عرفني ، فسلم علي من جديد ، وظهر عليه الابتهاج والارتياح(١) .

وحيث انتهينا إلى هنا ، وأثبتنا قدم التشيع في جبل عامل ، وأنه وجد فيه في عهد وجود أبي ذر فيها ، أرى في نفسي رغبة ملحة إلى اتمام هذا الموضوع وإشباعه والاحاطة به من جميع جوانبه ، وإن كان هذا بعيدا عن موضوع الكتاب ، وذلك لكثرة حاجة الباحثين إليه .

هذا ، وقد قلنا في أول هذا الكتاب أن مواضيع الحلقة الأولى منه ، تشبه جولات عامة ترتبط بموضوع الكتاب بنحو من أنحاء الارتباط فنقول : يتولد مما قدمناه سؤ ال جديد ، وهو :

متى ولد التشيع ؟

إن هذا السؤ ال لا يزال يتردد بين حين وآخر على ألسنة أقلام الباحثين، وذلك

---

(١) ومما اتفق لي معه ، أنني عندما وصلت إليه ، وكان الفصل فائضا ! قدم لي البطيخ ، وكنت مكللا بغبار الطريق فقلت له : لو تفضلت بماء أزيل به بعض ما علي من وعثاء السفر لكان ذلك أفضل من البطيخ ، فأحضر الماء بنفسه ، وجعل يصبه على يدي ، وأنا استقيله ولا يقبل ، وكان ذلك كله قبل تعارفنا ، وهذا مما امتاز به هذا الرجل من كرم الاخلاق .

ثم أنني وقت الصلاة رأيت الجموع تفد اليه ، وتجلس في باحة داره الواسعة ، المشتملة على المقاعد الخشبية الكثيرة ، المبثوثة هنا وهناك ، المسماة قنفات ، وقد قدرت من ورد في تلك الساعة بحدود تزيد عن مئة شخص بين داخل وخارج ، ولا حظت أنه لم يصل المغرب في أول وقتها مع أنه معروف بالتدين ، ولم يذهب للمسجد ، وفي صبيحة اليوم الثاني زارني عالم البلدة المرحوم الشيخ عبد الحسن حمام ، فقلت له : هل تعتقد بعدالة هذا الشيخ ؟ وكان معروفا بالصلاح ، قال : نعم فقلت له : لم لم تذهب وقت المغرب للمسجد لصلاة الجماعة ؟ فاعتذر باشغاله بقضاء حاجات الناس ، وتصريف أمورهم ، فقلت له : الناس على دين ملوكهم وانت متبوع ، فلو ذهبت للمسجد لذهبوا معك ولو جعلت وقت قضاء الحاجات غير هذا الوقت لقصدك الناس ، فيه فظهر عليه الغضب الشديد وانقطع عن الكلام ، ثم قال : رحم الله أبا ذر . . علمكم الجرأة .

ويستطيع القارىء أن يستخرج من كلمة هذا الرجل ، الذي تبعد بلاده عن عاملة ما يقرب من الف وخمسمئة كيلو متر ، معروفية انتساب العامليين لأبي ذر ، كما أنه يستطيع أن يعرف منها مكانته الزمنية . . . وكان هذا الرجل معروفا باحاطته بالتاريخ ، وبانفتاحه على الاضياف والضيافة رحمه الله برحمته الواسعة . . .

لأنه كلما ولد جيل ولد الجهل معه ، وكلما اجتاز باحث جديد في هذا الموضوع ، وقرأه في كتاب أو مقالة ، أو سمعه من خطيب أو مجادل ، وقف عنده موقف المتردد ثم إذا لاحظ ما كتب حوله، وجد حوله رأيين أو آراء ثم خرج منه وهو يتساءل: متى ولد التشيع؟

هل ولد في أيام عثمان ، أو أنه كان معروفا في عهد النبي ﷺ ، أو أنه ولد بعد استشهاد علي (ع) عندما انقسم المسلمون إلى حزبين سياسيين ، علوية وعثمانية ؟

وخلاصة الكلام في مستندات هذه الأقوال ما يلي : أما من زعم أن التشيع ولد في عهد عثمان ، فالظاهر أنه استند في ذلك إلى ما ألممنا به من سيرة أبي ذر ، ومن أنه هو الذي حمل التشيع من المدينة المنورة الى بلاد الشام ، ومن المعلوم أن مجيئه اليها كان في أيام عثمان .

ويدفعه : أن أبا ذر لم يؤسس هذا المذهب في دمشق ، وإنما حمله معه من المدينة المنورة إليها ونشره فيها ، ولا ريب أن أبا ذر كان تابعا لا متبوعا ، فمن الطبيعي إذن أن يكون التشيع موجوداً في المدينة قبل مجيئه إلى الشام ، وأن تكون المدينة هي القاعدة التي انطلق منها التشيع ، وأن يكون له فيها عدد وعدة .

وأما القول بأن التشيع ولد بعد مقتل عثمان واستشهاد علي (ع) فالذي أظنه بل أكاد أجزم به أن هذا القول وجد في مطلع هذا القرن أو قبله بأمد غير بعيد ، وأن القائلين به ليس لهم مصدر يركن إليه أو يعتمد عليه غير أقوال المستشرقين ! وذلك لأن الكتاب والباحثين من العرب بدأوا يتلقون دروسهم ويأخذون معلوماتهم عن الأجانب في مطلع هذا القرن ، عندما انهارت الامبرطورية العثمانية ، واستولى الاجانب على البلاد الاسلامية بأسرها ، عربية وغير عربية .

والسبب في تبني المستشرقين لهذا القول هو أنهم عاشوا دهرا غرباء عن الاسلام وعن المسلمين، ثم حينما ابتدأت القوة والحياة تدب في دولهم ، وابتدأ الهزال والضعف يظهر على الدول الاسلامية ، وذلك في أيام الدولة العثمانية

تـوجـه الغـربيـون للبحث عن الاسـلام والمسلمـين، وعن تـاريخهم وفـرقهم ومـذاهبهم ، لا لأجـل التعـرف عـلى الإسـلام ولا لأجـل الاحـاطـة بتـاريخهم وشؤونهم واعطاء صورة واقعية عنهم ، بل طمعا في العثور على نقاط الضعف في المسلمين ، لأن هذه النقاط هي الجيوب التي يمكنهم الـدخول منهـا للقضاء عـلى الاسـلام والمسلمين ، وكـانت الفتن الـطائفيـة المستفحلة ، هي أعـظم مستنقـع صالح لبذورهـم الخبيثة، ومن الصدف أنهم وجدوا اسم الشيعة والسنة منتشرا في ذلك الوقت ، وأن الحكام كانوا يستغلون الطائفية استغلالا مفضوحا ، فكان الحاكم يكون شيعياً مع الشيعة وسنياً مع السنة، وربما كان الحـاكم سنياً وابنه شيعيا وبالعكس ليدخل كل واحد منهما مع الطائفة التي ينتسب اليها ، وإذا كان خصمه شيعيا رماه بالتسنن وإذا كـان سنيا رمـاه بالتشيـع ، كل ذلـك استنصارا بجمهور المحكومين حسبما يتـطلبه الـظرف السياسي ، وهـذا شيء لا يختلف فيه الباحثون المدققون.

في هـذا الظرف اتجـه المستشرقـون للبحث عن جـذور التشيـع والتسنن ، فـلاح لهم الخلاف الـذي نشأ في عهـد معاويـة بعد مضي عـلي وعثمان ، ورأوا المسلمين في ذلك العهد منقسمين إلى علوية وعثمانية ، فظنوا انها عبارة ثانية عن شيعة وسنة ، بل كثير من الشيعة الناشئين والسنة الناشئيـن يظنون ذلـك أيضا ، مع أن أقل الباحثين يعـرف أن هاتـين الكلمتين أعني العـلويـة والعثمانيـة كانتـا تشيران إلى الخلاف السياسي القائم في ذلك الوقت أكثر من اشارتهـا إلى الاتجاه المذهبي ويشهد لذلك أن الأمويين ما كانـوا يهدفـون لغير الملك والأمرة، ودفع الهاشميين عنهـا ، ويشهد لـذلك ايضـا ان اسم السنة أو أهـل السنة حـدث في العهد العباسي ، ولم يكن له في العهد الأمـوي عين ولا أثـر ، لا في الخطب ولا في المواعظ، ولا في تصنيف المسلمين .

والأمويون وعمـالهـم هـم الذين شهروا اسم الشيعة ، لأنهم كانوا يسمون كل من يخرج عن خـطهم السياسي شيعـة علي وشيعـة أبي تراب ويعتبـرون هذه الكلمة نبزا لخصومهم ، وارهاصا للبطش بهم ، وتحـريضا لعمـالهم في إقصائهم عـن أعمال الدولة .

وأما الفقه فلم يكن منسوبا في ذلك الوقت لأحد من الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم بل كان الفقهاء المنبثون في الأمصار يفتون أو ينقلون فتوى بعض الصحابة، وكانت الناس ترجع لمن عرف بالفقه في بلدهم أو في المدينة التي تكون مركزا للولاة ، وكانوا على جانب من الورع أو العقل ، فإذا وردت عليهم مسألة لا يحفظون فيها نصاً ، ولا يروون فيها فتوى عن بعض الصحابة، توقفوا فيها، وارجعوا السائل إلى غيرهم . . والروايات المتضمنة لذلك من طرق الشيعة وغيرهم كثيرة جدا .

والأمويون انفسهم كانوا في معزل عن ذلك كله . . أقول هذا على كثرة تجوالي في كتب التاريخ والأدب، فضلاً عن الفقه والحديث.

وأما من زعم بأن التشيع كان موجوداً على عهد رسول الله ﷺ، وأنه هو الاسلام وليس شيء غيره ، فإنهم يستندون في ذلك إلى جملة من النصوص التي رواها جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، وقد رواها عنهم جمع غفير ممن جاء بعدهم من رواة الحديث وهي مبثوثة في كتب السنة والشيعة مضافا إلى الروايات التي يرويها الشيعة عن أهل البيت (ع) ، وهي عندهم من النصوص المتواترة .

فقد روى السيوطي في كتابه (الدر المنثور في تفسير كتاب الله المأثور) في تفسير قوله تعالى : (أولئك هم خير البريه) ص ٩٨ ـ ٧ .

قال أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبي ﷺ ، فاقبل علي (ع) ، فقال النبي صلى الله عليه وآله : والذي نفسي بيده ، ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة . ونزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية) .

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس ، قال : لما نزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قال رسول الله ﷺ لعلي (ع) : هم أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين .

وأخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : قال رسول الله ﷺ : ألم تسمع قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) ، هم

انت وشيعتك ، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب ، تدعون غرا محجلين .

وعن النهاية لابن الأثير في مادة قمح : وفي حديث علي (ع) : قال النبي ﷺ ستقدم على الله انت وشيعتك راضين مرضيين ، ويقدم عليه أعداؤك غضابا مقمحين ، ثم جمع يده في عنقه ، يريهم كيف يكون الاقماح

وقال الدكتور صبحي الصالح في كتابه «النظم الإسلامية نشأتها وتطورها» في ص ٩٦ : كان بين الصحابة حتى في عهد النبي ﷺ شيعة لربيبه علي ، منهم : أبو ذر الغفاري ، والمقداد بن الأسود وجابر بن عبد الله ، وأبيّ بن كعب ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، والعباس بن عبد المطلب ، وجميع بنيه ، وعمار بن ياسر ، وأبو أيوب الأنصاري

وقال محمد كرد علي في كتابه خطط الشام : إن أول أسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ « الشيعة » وكان لقب أربعة من الصحابة ، وهم : أبو ذر ، وسلمان ، وعمار ، والمقداد ، إلى أن أتى أوان صفين ، فاشتهر بين موالي علي عليه السلام[(١)] .

وقال في مجمع البيان : وفي شواهد التنزيل للمسكاني رحمه الله قال : اخبرنا أبو عبد الله الحافظ بالاسناد المرفوع إلى يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب علي (ع) قال : سمعت عليا عليه السلام يقول : قبض رسول الله وأنا مسنده إلى صدري ، فقال : يا علي . . ألم تسمع قول الله تعالى ؟ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) هم شيعتك ، وموعدي وموعدكم الحوض ، إذا اجتمعت الأمم للحساب ، يدعون غرا محجلين .

وفيه : عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس في قوله : هم

---

(١) لاحظ كتاب (التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية) ص٣٢ وهو كتيب صغير لولدنا العلامة السيد طالب الرفاعي المقيم فعلا في القاهرة وهو من العراق من مدينة الرفاعي من لواء الناصرية وهو يعمل وكيلا عن المرجع الديني في النجف وقم ليلاحظ الشؤون الدينية المشعة في تلك الديار .

خير البرية ، قال : نزلت في علي وأهل بيته .

وقد روى هذين الحديثين في مجمع البحرين في مادة (برا) .

وقال في مجمع البحرين أيضا : في مادة (شيع) : وروي أن النبي ﷺ جلس ليلا يحدث أصحابه في المسجد ، فقال : يا قوم . . إذا ذكرتم الأنبياء الأولين ، فصلوا علي ثم صلوا عليهم . وإذا ذكرتم أبي ابراهيم ، فصلوا عليه ثم صلوا علي . قالوا : يا رسول الله . . بما نال إبراهيم ذلك ؟ قال : اعلموا أن ليلة عرج بي الى السماء ، فرقيت السماء الثالثة ، نصب لي منبر من نور ، فجلست على رأس المنبر ، وجلس إبراهيم تحتي بدرجة ، وجلس جميع الأنبياء حول المنبر ، فإذا بعلي قد أقبل ، وهو راكب ناقة من نور ، ووجهه كالقمر ، وأصحابه حوله كالنجوم ، فقال إبراهيم (ع) : يا محمد أي نبي معظم وأي ملك مقرب ؟ قلت : لا نبي معظم ولا ملك مقرب . . هذا أخي وابن عمي وصهري ووارث علمي علي بن أبي طالب .

قال : وما هؤلاء الذين حوله كالنجوم ؟ قلت : شيعته ، فقال إبراهيم : اللهم اجعلني من شيعة علي ، فأتى جبرائيل بهذه الآية : وإن من شيعته لابراهيم) - ٣٧ - ٨٣ .

وعن الفراء : وإن من شيعته أي من شيعة محمد ﷺ كما قال : إنا حملنا ذريتهم أي ذرية من هو أب لهم ، فجعلهم ذرية لهم ، وقد سبقوهم .

وفي سفينة البحار م ١ ص ٧٢٩ في مادة (شيع) عن يعقوب بن ميثم التمار ، مولى علي بن الحسين (ع) قال : دخلت على أبي جعفر (ع) فقلت : جعلت فداك ، إني وجدت في كتب أبي أن عليا (ع) قال لأبي ميثم : أحبب محب علي . . فإني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) ثم التفت إلي وقال : هم والله أنت وشيعتك يا علي . . وميعادك وميعادهم الحوض غدا ، غرا محجلين متوجين .

وفي سفينة البحار أيضا ، ما لفظه : كتاب المسلسلات بالاسناد عن بكر بن أحنف قال : حدثتنا فاطمة بنت علي بن موسى الرضا (ع) قالت : حدثتني

فاطمة وزينب وام كلثوم بنات موسى بن جعفر (ع) قلن حدثتنا فاطمة بنت جعفر بن محمد (ع) قالت : حدثتني فاطمة بنت محمد بن علي (ع) قالت : حدثتني فاطمة بنت علي بن الحسين (ع) قالت : حدثتني فاطمة وسكينة ابنتا الحسين بن علي عليهما السلام عن أم كلثوم بنت علي عليه السلام عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من درة بيضاء مجوفة وعليها باب مكلل بالدر والياقوت ، وعلى الباب ستر ، فرفعت رأسي ، فإذا مكتوب على الباب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ علي ولي القوم ، وإذا مكتوب على الستر بخ بخ من مثل شيعة علي الخ . . وفي آخره : يحشر الناس بأسماء كلهم يوم القيامة حفاة عراة الا شيعة علي (ع) ويدعى الناس بأسماء أمهاتهم ما خلا شيعة علي فإنهم يدعون بأسماء آبائهم، فقلت : حبيبي جبرائيل وكيف ذاك ؟ قال : لأنهم احبوا عليا ، فطاب مولدهم .

وفي مجمع البيان في تفسير قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) الشعراء ٢١٥ عن الثعلبي في تفسيره عن البراء بن عازب أنه قال : لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم بني عبد المطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلاً ، الرجل منهم يأكل المسنه ويشرب العسّ فأمر علياً (ع) برجل شاة فأدمها ثم قال : ادنوا بسم الله ، فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ، ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ، ثم قال لهم : اشربوا بسم الله ، فشربوا حتى رووا ، فبدرهم أبو لهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل ، فسكت صلى الله عليه وآله يومئذٍ ولم يتكلم ، ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال : يا بني عبد المطلب ، إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل والبشير ، فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ، ثم قال : من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصييّ بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني ، فسكت القوم ، فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي (ع) : أنا ، فقال في المرة الثالثة : أنت ، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك ، فقد أمّر عليك .

وروي عن أبي رافع هذه القصة ، وأنه جمعهم في الشعب ، فصنع لهم رجل شاة ، فأكلوا حتى تضلعوا وسقاهم عسا فشربوا كلهم حتى رووا ثم قال : إن الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وانتم عشيرتي ورهطي وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله ، فأيكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري ووصيي ويكون من بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟ فسكت القوم فقال : ليقومن قائمكم أو ليكونن في غيركم ، ثم لتندمن ، ثم أعاد الكلام ثلاث مرات ، فقام علي (ع) فبايعه وأجابه ثم قال : أدن مني ، فدنا منه ففتح فاه ، ومجّ في فيه من ريقه ، وتفل بين كتفيه وثدييه ، فقال أبو لهب : فبئس ما حبوت به ابن عمك أن أجابك ، فملأت فاه ووجهه بزاقاً ، فقال ﷺ : ملأته حكمة وعلماً .

الإفتاء والقضاء عند الشيعة

١ ـ لمحة عن المرجعية عند الشيعة .

٢ ـ لمحة عن مثالية الحكم الإسلامي .

٣ ـ لمحة عن القضاء والافتاء عند الشيعة ، قديما وحديثا ، وفي جبل عامل خاصة .

الافتاء والفضاء عند الشيعة منصبان يختصان بالمجتهد العادل ، ويشترط فيه مضافاً الى الاجتهاد والعدالة الحياة والبلوغ والعقل والحرية والذكورة .

والافتاء عندهم منصب اعلى من منصب القضاء ، فكل مفتٍ يستطيع القيام بصلاحيات القاضي ، وليس كل قاضي يستطيع القيام بصلاحيات المفتي .

اما صلاحيات القاضي فانها مختصة بفصل الخصومات بجميع انواعها المتعلقة بالاموال والاعراض والدماء ، سواء كانت ناشئة عن شبهة موضوعية كما هو الغالب ، او عن شبهة حكميّة .

واما المفتي فانه يزيد عنه باعطاء حكم كل مورد يحتاج الناس الى معرفته ، وهذا مختص بالشبهات الحكمية ، واما الشبهات الموضوعية فانه لا يجب الرجوع فيها اليه ، ويكون رأيه فيها كآراء سائر الناس ، لان العالم والعامي فيها سواء ،

فلو شك الانسان في كون هذا السائل ماء مضافا ، او ماء مطلقاً أو في كونه خمرا او خلا ، وجب عليه ان يعتمد في ذلك على مقدار معلوماته بالنسبة لهذه الامور ، فان لم يتمكن رجع فيها لاهل الخبرة ، فان عجز اهل الخبرة ، وكانت مما تترتب عليه أحكام شرعية ، وجب الرجوع الى المفتي ، والمفتي بدوره يعرفه حكم الموضوع المشتبه اذا تعذرت معرفته بحقيقته ، فانه هو الذي يعطي الحكم في مثل هذا الحال ، ففي المثال الاول يشك المكلف في جواز ازالة الحدث ورفع الخبث بذلك السائل ، وفي المثال الثاني يشك في جواز شربه وعدمه ، وعليه ان يرجع في ذلك للمفتي .

وكان الشيعة في العصور السابقة ولا يزالون يرجعون الى علمائهم في القضاء والافتاء ، ويعتبرون ذلك جزءا من احكام المذاهب ، سواء رضي الحكام بذلك ام لم يرضوا ، وكانوا ولا يزالون يبتعدون عن علماء الدين الذين تختارهم السلطة للقيام بهذه الصلاحيات ، لان الذين تختارهم السلطة عادة لا يستجمعون شرائط القاضي ، والمفتي ، والذين يستجمعون الشرائط لا تقبلهم السلطة، لانهم لا يسايروهم، وسواد الشيعة يرجعون في خصوماتهم الى العلماء المجتهدين غير المنصوبين من قبل الحكام، وهؤلاء العلماء لا يملكون سلطة التنفيذ ، ولكن السلطة الروحية هي الحافز القوي الذي يبعث الخصمين على التنفيذ ، ومن الغريب ان من خالف هؤلاء العلماء ، ولا سيما اذا حلف يمينا كاذبا يتعرض لنقمة السماء ، وطالما لمس الناس ذلك لمس اليد ، وتحدثوا فيه في انديتهم ، وهو امر معروف عندهم ، هذا مضافا الى ان المتخاصمين إذا كانوا مؤمنين ، كان ايمانهم حافزا على التنفيذ خوفا من الله سبحانه وتعالى ، مضافا ايضا إلى تعرضهم لغضب الجماهير إذا لم ينفذوا . . . ولو تمرد متمرد ، ولم ينفذ كسائر المسلمين الذين يتمردون على جملة من احكام الشريعة ، كالكذب والغيبة والنميمة والسرقة والمقامرة وغيرها بل كان اشد محاسبة عندهم . لأن كثرة هذه التمردات انست الناس اهميتها في الشريعة ، بخلاف الزنا بذات البعل مثلا ، وبخلاف انكار الحق بعد ثبوته عند الحاكم الشرعي ثم انه في عصر الميرزا محمد حسن الشيرازي الملقب بالميرزا الكبير ، الذي كان يقيم

في مدينة سامراء في العراق ، والمتوفي في اوائل القرن الرابع عشر الهجري تغير الحال بالنسبة لمنصب الافتاء اعني التقليد ،والمرجعية وكان السبب في ذلك تقارب البلدان بواسطة انتشار وسائل النقل الحديثة ، وقد سمعت من استاذنا آية الله الحكيم ، أن الحقوق المالية ، التي يكون مرجعها المجتهد ، كان كل عالم يتولى انفاقها بنظره في المصالح الدينية في بلاده ، وان جمعها وارسالها إلى العراق لم يكن معروفا الا في عهد الميرزا الشيرازي الكبير .

كما انني سمعت منه او من غيره ، ان تلامذة الميرزا الشيرازي المتميزين بالفضل ، وهم عدد جم ، تفرقوا بعده ، وقلدوا في مواطنهم ، واشتهر منهم في العراق الميرزا محمد تقي الشيرازي ، ولكنه لم يعمر بعد استاذه كثيرا ، وفي الفترة التي امضاها في المرجعية نسب اليه حكم بوجوب الجهاد ، في صفوف جيوش الدولة العثمانية سنة ١٩١٩ م ، بعدما اشبعوا ذهنه بان الحلفاء اذا تغلبوا على البلاد الاسلامية نصّروا المسلمين ، واستباحوا اعراضهم واموالهم ، وجعلوا معابدهم خمارات ، ودورا للبغاء ، وفي مثل هذا الحال يجب ان ترفع راية الجهاد ويصبح مشروعا ، لان ذلك ضرب من ضروب الخوف على بيضة الاسلام وعزته .

ومع ذلك ، فقد سمعت ممن اثق به انه لم يفت بالجهاد ، وانه عندما اقنعوه بوصول جيوش الحلفاء الى حلق الفاو ، وباستباحتهم الدماء ، والاعراض ، قال دافعوا عن اخوانكم . .

والسبب في هذا التريث هو وجوب التأكد التام في مثل هذه الامور ، على المصلحة البشرية بوجه عام ، وخوفا من تعريض المسلمين واعراضهم واموالهم للتمزيق والدمار ، واما اذا كان النزاع على الارض او على السلطة ، مع ترك الناس على حريتها في دينها ، فالمجتهد انما يرخص اصحاب الارض بالدفاع عن ارضهم بشرط قدرتهم ويرخص بمعاونتهم في مثل هذه الامور اذا كان لا يستوجب اهراق الدماء لان دماء المسلمين في نظر الاسلام اثمن من الارض ولان الغاية من الجهاد ليس عرض العضلات ، ولا تنفيذ كلمة القادة والزعماء ، بل الغاية منه هي المصلحة العامة بعد ملاحظة عامة المصالح .

وعندما قال كلمته ، وهي : اذا كان الامر كذلك ، دافعوا عن اخوانكم ، فاستغلها المتحمسون الذين هم في المرتبة الثانية من حيث السن والتجربة والعلم والكمال ، فاجتمعوا في مدرسة القطب ، المعروفة اليوم بمدرسة الميرزا الخليلي ، الواقعة غربي الحرم المقدس في اوائل منطقة العمارة في النجف الاشرف ، واعلنوا الجهاد باسم الميرزا الشيرازي ، ثم نفروا للجهاد ، وتبعهم الناس، واتجه شطر منهم الى سوق الشيوخ ، وآخرون الى العمارة ، للمرابطة في الخطوط التي يحتملون دخول الحلفاء منها ، وكان المجاهدون جموعاً غفيرة ، يموِّلها العلماء بما يجبى لهم ، من الحقوق الشرعية ، ويموِّلهم الاغنياء بمقدراتهم ، وقد امرت الحكومة العثمانية القائد في تلك المناطق باستجابة طلباتهم ، والحكومة نفسها تعرف ورعهم ، وقدسيتهم ونزاهتهم وتورعهم عن انفاق قرش واحد في غير سبيل الجهاد ، او ادخاره عنه مع الحاجة إليه .

وقد عرضت صورة موجزة عن هذا الجهاد في كتابنا (جامعة النجف الاشرف) ، وسيرة آية الله الحكيم رحمه الله فليراجع .

ولنعد لما كنا فيه فنقول : كانت جبال عامل لا تخلو من عظماء المجتهدين ، في معظم العصور الاسلامية .

وقد عاشت جملة من مؤلفاتهم التي كانت تعد من اعظم المراجع للفقهاء في عدة قرون، ولا تزال حتى الساعة، ومنها الدروس والذكرى والقواعد للشهيد الاول ، وجامع المقاصد للمحقق الكركي ، والمسالك والروض للشهيد الثاني ، والروضة واللمعة للشهيدين الاول والثاني ، والمدارك للسيد محمد بن السيد نور الدين علي ، والمعالم للشيخ حسن بن الشهيد الثاني ، والوسائل للحر العاملي ، واكثر مؤلفات الشيخ البهائي ، ومفتاح الكرامة وغير ذلك .

كما أن اقوالهم ونظرياتهم وتنبهاتهم في المسائل الدقيقة لخفايا الامور لا تزال موضع عناية عند المحققين .

أما موقفهم من الحاكمين ، في ايام العباسيين والفاطميين والمماليك

والعثمانيين ، فليس لنا به معرفة تفصيلية ، وربما يجيء بعدنا من يجعل هذا الموضوع هدفا له ، ويعطي الاجيال المقبلة صورة عنه .

والذي اعتقده فعلا ، استنادا الى نتف صغيرة علقت في ذهني عرضا عند استعراض احوال بعضهم اثناء الحاجة لذلك ، ان علماء الشيعة كانوا شبه منعزلين في اداراتهم الدينية عن قوافل الحكام ، في درسهم وتدريسهم وتأليفهم ، وفي الافتاء والقضاء ، بل وفي اداراتهم المالية المتصلة بالدين ، كالاوقاف المختصة بهم ، وكالخمس والزكاة وغيرها فانهم كانوا ولا يزالون مستقلين في ذلك سواء اكان ذلك في كيفية دفعها أم في كيفية صرفها .

وكانوا يؤثرون مرارة الحرمان من المال والرفاه والسلطة في ابتعادهم عن الحاكمين على التمتع بالرفاه والدعة والسمعة والسطوة، إذا عاشوا معهم وفي ظلهم .

ذلك ان الحكام بمقتضى الواقع المحسوس الملموس ، لا يكتفون من العالم بالعلم والصلاح والعقل ، بل كانوا ولا يزالون يريدون منهم المشاركة فيما هم فيه ، كائنا ما كان ، سواء اكان ذلك يسير في خطوط الاسلام أم يبتعد عنها .

من اجل ذلك ، كانوا يفضلون السلامة في دينهم مع الحرمان ، على المخاطرة بدينهم مع الرفاه في ظلال الحكام ،

هذا وقد ارتكب عدد من القضاة في العصور السالفة جرائم لا تعد ولا تحصى ، استجابة لرغبة الحكام ، فقتل من قتل ، وسجن من سجن ، وجرِّم من جرِّم بفتاواهم واحكامهم واعمالهم التي قد لا يرتضونها هم أنفسهم.

فبعد هلاك معاوية ، كان ابن زياد هو حاكم المصرين ، وكان شريح هو قاضي الكوفة ، وعندما دخل مسلم بن عقيل الكوفة ، نزل في دار هاني ، ولما علم ابن زياد بذلك استدعى هاني بن عروة بعد تعهد الامراء الذين صحبوه له بالامن والامان ، وعندما دخل على ابن زياد ، وتبادلا الكلام اعترض ابن زياد وجهه بالقضيب حتى ادماه ، وامر به للمعتقل ، فبلغ ذلك مذحجا فطوقوا القصر بجموعهم وقواتهم ، وخاف ابن زياد ، فامر شريحا القاضي بأن ينظر الى هاني في معتقله ويكلمه ثم يشرف على الناس من اعلى القصر ، ويقول لهم :

رأيته بعيني سالما ، وكلمته وكلمني ، وهكذا كان .

اما هاني ، وهو بالطبع سياسي المعي ، فانه بمجرد ان رآه عرف ما يريد او يراد ، فقال له : الله . . الله . . في دمي يا شريح .

ولكن شريحاً نفذ مخطط الأمير ، وأمر الناس بعدم استعجال الشر ، فتفرقوا وضاع دم هانيء بخدعة القاضي المؤتمن.

هذا يوم كان المسلمون لا يزالون يتمتعون ببقايا المثالية الاسلامية ، التي خلّفها الرسول ﷺ في الصحابة والتابعين .

واما بعد ذلك ، فقد كان قادة الجيوش الاسلامية المتخاصمون فيما بينهم يصحب كل منهم ما استطاع من القراء والفقهاء ، ليتسلح بهم ، ويتخذهم وسيلة لاقناع جنده بانه على حق ، وبأن خصومه على ضلالة ، وان دمهم مباح ، كما كان في عهد الحجاج وابن الاشعث .

وآخر ما سمعته ، وليس اخيرا ، ان الرئيس ابا رقيبة ، رئيس الجمهورية التونسية عندما استقل ببلاده ، واخذ في اعداد قواته المسلحة ، حرم على الجنود صوم شهر رمضان المبارك ، وكلف المفتي او شيخ الاسلام هناك بصعود المنبر واعلان هذه الفتيا ، فصعد ، وجعل يؤكد تحريم الصوم على الجنود ، ويبالغ فيه ، فالتفت ابو رقيبة الى من كان قريبا منه ، وقال : كنا نرضى منه باقل من هذا .

وعلماء الشيعة كانوا وما يزالون يبتعدون عن الحكم والحكام ، مخافة ان يقعوا في مثل ما وقع فيه هؤلاء .

وبالجملة ، علماء الشيعة ، ابعد الناس عن استباحة القتل والقتال والفتك ، وعن تعريض المسلمين للتمزيق والدمار ، باسم الدين او المذهب ، ويبتعدون ايضا عن استباحة دماء المعاهدين واموالهم واعراضهم ، فضلا عن اهل الذمة ، فان اهل الذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، والمعاهد له ما عاهد عليه ويعتبرون المعاهدات القائمة بين المسلمين او بين بعض المسلمين

وبين اهل الكتاب نافذة المفعول .

وهذه فتاواهم في كتبهم التي تملأ المكتبات ، وهذه سيرتهم منذ عرفهم التاريخ ، اكبر شاهد على ما نقول ، ونحن عندما نقول هذا ، لا نقوله لغير الشيعة فقط ، وانما اسهبنا فيه ليعرفه الشيعة انفسهم وليعرفه منهم من يتزيا بزي رجال العلم الديني ، وهو يبعد عنهم بعد السماء عن الارض ، ثم يقول في الدين ما يقول ، ويحلل ويحرم ، غير خائف ولا متورع ، كأنه لا يؤمن بيوم الحساب .

واذا فعل شخص من المجتهدين ، او ممن يراهق بالاجتهاد ، وهو نادر في تاريخ الشيعة ، شيئا مما لا يفعله العلماء البررة الذين هم بمنزلة انبياء بني اسرائيل بشهادة النبي ﷺ واوصيائه (ع) لهم بذلك ، عاش على صفحات التاريخ وعلى رأسه علامة حمراء ، تشير الى ما فعل وارتكب .

ولو كان حكام المسلمين في عصر من العصور ، مستعدين للمفاوضات نابذين التعصب والكبرياء قاصدين وجه الله سبحانه ، لكان علماء الشيعة اسبق الناس للمطالبه بالسلطة ، لاعتقادهم بانهم اصلح المسلمين لصيانة الاسلام ، واصلح البشر للبشر ، ولانهم يحاولون العمل بسيرة امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، الذي تولى امور المسلمين نحو سبع سنين ، ولم يقتل شخصا على الظنة ، او يحبسه على التهمة ، ولم يحاكم شخصا لانه سبه او عارضه ، ولانه قاد ثلاثة حروب دفاعية في البصرة والنهروان وصفين ، وقتل من قتل فيها ، ثم كان اذا وضعت الحرب اوزارها لا يحاكم احدا ممن وقف ضده في المعركة ولا يعتقله ولا يصادر امواله ولا يهدم بيته ، ولا يتبع فارا .

اما المسلمون الذين يقتلون على الظن ، ويحبسون على التهمة ، ويصادرون اموال المسلم الذي يبلغهم عنه ما يسوؤهم ويعتقلون اولاده وزوجته وابويه والاعزاء من ارحامه الى ان يسلمهم نفسه للموت ، فانهم بنظر علماء الشيعة لا يسيرون على خطوط الاسلام العريضة السمحة الطافحة بالرفق والرحمة .

فقد جاء طلحة والزبير يستأذنان عليا للخروج الى العمرة ، فجدد عليهما البيعة ، ولم يمنعهما مع قدرته ، لان الاسلام لا يفسح للحاكم المسلم الطريق لسلب حريات الافراد ، ولم يعتقلهما ، لان الاسلام لا يجيز العقاب قبل ارتكاب الجريمة ، ولم يرسل اليهما خفية من يغتالهما ، لأن الإسلام ضد الفتك .

وما كان يجري من الخوارج والمفسدين تحت منبره في الكوفة من التشويش اكثر من ان يحصى .

وهل يظن مخلوق في الارض ممن استعرض تاريخ المسلمين في صدر الاسلام ان علي بن ابي طالب عليه السلام كان جبانا ، او كان يخاف الموت ؟ وهل يظن مخلوق في الارض انه كان ضعيف القوة ؟

وكيف يظن احد ذلك ، وهو القائل : لا ابالي ، اوقعت على الموت ام وقع الموت علي ، وهو القائل لولده محمد : يوم الجمل : اعر الله جمجمتك ، تد في الارض قدمك ، تزول الجبال ولا تزول .

ولما رآه وقد تلكأ وضع يده بين كتفيه ، وتنفس انفاسه الحارة التي اخترقت درع محمد وثيابه حتى قال : اني لا ازال احس بحرارة انفاس ابي بين كتفي .

ثم اخذ الراية وهزها وقال :

اطعن بها طعن ابيك تحمد   لا خير في الحرب اذا لم توقد

يقول الطبري : ثم حمل علي يوم الجمل حملة طحن الناس فيها طحنا .

ان امرءاً كهذا ليس جبانا ، ولا مؤثرا للحياة ، ولا ضعيف البنية ، هذا وعمره الشريف يومئذ يزيد عن الستين عاما .

ولكنه هو القائل : قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ، ودونها حاجز من تقوى الله ، فينتهزها من لا جريحة له في الدين[1] .

---

(١) اصل الجرح الاكتساب من قوله تعالى : ما جرحتم في النهار اي اكتسبتم ، والمراد به هنا اللامبالاة فيما اكتسب من الدين . وفي نسخة لا حريجة . =

وعلماء الشيعة يعتقدون ان عهد علي (ع) كان يحمل صورة طبق الاصل عن الاسلام ، على عهد رسول الله ﷺ ، فان الاسلام دين يأمن كل واحد في ظل حكمه ما دام لا يعلن حربا مسلحة ضده ، وان كان خصما في واقع امره .

فقد عاش المنافقون والمرجفون والذين في قلوبهم مرض على عهد النبي ﷺ مع النبي ﷺ في المدينة وحولها هادئين مطمئنين ، غير مطاردين ولا مروعين ، ولا يخافون غدرا ولا مكرا ولا تبييتا ، وكانوا مضافا الى ذلك كله ، يعتقدون أن أمرهم لو انكشف لا يقدمون للموت بدون محاكمة او بمحاكمة شكلية أو مزعومة وكانوا يظنون انهم يمكنهم ارضاء النبي ﷺ بالايمان والمخادعة . كما يتضح ذلك من قوله تعالى : إتخذوا أيمانهم جُنَّةً .

نعم . . كان المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون يعيشون في المدينة وحولها ويتجمعون ، حتى آل امرهم الى بناء مسجد خارج المدينة بقصد الاضرار والكفر والتفريق ، وهو الذي وصفه الله سبحانه بقوله : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، ليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون) ـ٩ ـ١٠٧ ـ وهل يظن مؤمن او مسلم او انسان ما ان المنافقين قاموا بهذا المشروع الذي يستدعي زمنا طويلا للتفكير والتجمع والبناء حدث ولم يشعر به النبي ﷺ ولا اصحابه المخلصون .

اجل . . ان من يحتمل ذلك لا يعرف النبي ولا النبوة ، وهو ابعد خلق الله عن الاسلام بل من يحتمل ذلك فيه وفي اصحابه المخلصين وهم اذكى والمع واكيس اهل زمانهم ، هو في منتهى الغباوة والبساطة .

ولكن الاسلام هو الذي لا يقتل على الظنة ولا يحبس على التهمة ، ولا يعاقب على نية السوء وانما يعاقب على الجريمة بعد وقوعها مفضوحة ، اما قبل ذلك فلا ، وذلك لان القتل هو منتهى قساوة العقوبات الاسلامية ، وهو ضرب

- واصل الحرج الضيق ومنه قوله تعالى : ما جعل عليكم في الدين من حرج ، ولعل المقصود هنا من لا يتضايق في امور الدين بمعنى اللامبالاة به .

من ضـروب الحدود ، والحـدود تدرأ بـالشبهـات ، فهـو اذن لا يكـون الا بعـد وضوح الجريمة ، ومع ذلك عندما انتهى امر هؤلاء إلى الفضيحة لم يأخذهم النبي أخذ الجبابرة ، وإنما بادرهم بالانذار والتخويف وقد تمثل ذلك في قوله تعالى : (وممن حـولكم من الاعراب منـافقون ، ومن اهـل المدينـة مردوا عـلى النفاق لا تـعلمـهم ، نـحن نـعلمـهـم) ـ٩ ـ١٠٢ ـ قـال المفسـرون : مـردوا : اي عتوا واستمروا عليه .

ثم انه بعد هذا المؤشر اعلن عليهم حرب الأعصاب فواجههم بالتخويف والتهـديد والارهـاب ، فقال تعـالى : (لئن لم ينتـه المنافقـون والـذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورونـك فيها إلا قليـلا ، ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا) ـ٣٣ ـ٦٠ .

هكذا كان حكم الاسـلام في عهد رسـول الله ﷺ ، وهكذا كـان في عهد علي (ع) ايضا .

فقد كانت المدينة المنورة عاصمة علي (ع) في اول حكمـه ، وكان طلحـة والزبير وعائشة يعدون العدة للخروج عليه ، ويخـططون للعمل في سبيـل تنحيته عن الحكم وعندما انتهـوا من وضع التصميم الاسـاسي لاعمالهم هـذه ، جاؤا الى علي (ع) يستأذنونه في الخروج إلى مكة معتمرين ، وانما استـأذنوه ظنـا منهم ان عليا لا يعرف شيئا من امورهم ، ففعلوا ذلك مخافـة ان يتنبه ويـظن بهم ظن السوء اذا خرجـوا بدون استئـذانه فيـطوقهم بمفرزة من جنـده ، او يقطع عليهم الطريق .

أما موقـف عـلي (ع) في هذه اللحظـة الرهيبـة فقـد كـان عجيباً ، فقد قـابلهم باعصـاب هادئـة في منتهى الهدوء وقـال لهم : ليس هـذا وقت عمـرة ، وطلب منهم البقاء في المدينة ، والمشاركة في معالجة مشاكل المسلمين ، ولكنهم اصروا ، وعنـدئذ طبق عليهم نـظاما من انـظمة الاسـلام العاليـة ، فجدد عليهم البيعـة بمحضر ملأ من المسلمين طبعا ، طبقـه بكل رفق وهـدوء والبيعة عمـل بسيط في ظاهره ، ولكنه ثقيل في واقعه ، لانه ينطوي على عملية فعالة ، تنتهي باستبـاحة

دم من خانها ، ولما اتم هـذه العملية قـال كلمته الفـاصلة التي تحمل اللين بكـل معانيه حتى كأنها ليست كلمة حاكم ولا قائد قدير . . قال لهم : (يا أخوي . . والله ما تريدان العمرة ولكنكما تريدان الغدرة) .

اترى بعد هذا ، وبعد ان اقسم عـلي (ع) بالله هـل كان لا يعـرف شيئا من تدبيرهم ومخططاتهم ؟ او تراه كان عاجزا عن اعتقالهم ؟ او تـراه كان عـاجزا عـن التشويش عليهم وعن ارسال بعض خصومهم من اتباعه وانصاره ليغتالوهم في الطريق او يمكرون بهم ، فيقتلونهم ثم يقولون : قتلهم الجن ؟

اجل . . إن عليا (ع) كـان يسير بسيـرة رسول الله ﷺ ، فـهو لا يمكـر ولا يغدر ولا يخون ، ولا يشير بعينه ، فيكون ممن يستعمل خائنة الأعيـن ، ولا يعاقب على الجريمة قبل ارتكابها .

وعلي هو الذي اشترط عـلى نفسه يـوم الشورى ان يسـير بسيرة النبي ﷺ خاصة ، وكان ذلك هو الذي اخره عن تسلم زمام الحكم منذ يوم الشورى حتى يوم مقتل عثمان .

ومن هذه اللمحة ، يتضـح ان خصوم عـلي (ع) عاشـوا في ظل حكمـه مطمئنين آمنين ، كما عاش خصوم رسول الله ﷺ في ظل حكمه .

هـذا ، وعندمـا تجمع الخـوارج ، واعلنوا التمـرد والعصيـان ، واظهـروا الفساد في الارض ، ولقيهم عبد الله بن خبـاب بن الارت وفي عنقه مصحف ، وهو راكب على حمـار ، ومعه امـرأته وهي حـامل ، وكـان عامـلا لأمير المؤمنـين (ع) على النهروان ، فأنزلوه عن حماره الى شاطىء النهر ، وذبحوه وبقروا بـطن زوجـه وهي حامـل ، وكان معهـا طفل رضيـع ، فذبحـوه فوق ابيـه ، وذبحـوا خنزيراً فـاختلط دمه بـدم عبد الله ، وقـالوا : مـا ذَبْحُنا لـك ولهذا الخنـزير الا واحدا .

فقصدهـم علي (ع) وهـم يـومئذ اثنـا عشر الفـا ، وبعث اليهم من يقيم عليهم الحجة طمعا باستبقائهم وصونا لدمائهم ، فما استجابوا .

وبعد ذلك اعطى راية الامان لابي ايوب ، فرفعها ، ثم ناداهم ابو ايوب : من دخل تحت هذه الراية فهو آمن ، ومن خرج عن الجماعة فهو آمن ، فرجع منهم ثمانية الاف ، واقام الآخرون وهم اربعة آلاف على ماهم عليه ، فامرهم امير المؤمنين عليه السلام ان يقسموا انفسهم كتائب ، وجعل يستنطقهم كتيبة كتيبة : من قتل عبد الله بن خباب ؟ فيجيبون باجمعهم : نحن قتلناه ، حتى استنطقهم باجمعهم .

بعد هذا كله قال كلمته الفاصلة : لو أن اهل الدنيا كلهم اقروا بقتله ، وانا اقدر على قتلهم ، لقتلتهم به ، وكان للخوارج زعيمان : عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير البجلي ، المعروف بذي الثدية ، فتقدما ، وقالا : ما نريد بقتالنا اياك الا وجه الله والدار الآخرة ، فاجابهم علي (ع) بقوله تعالى : (:قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا ، الذين ظل سعيهم في الحياة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا اولئك الذين كذبوا بآيات الله ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ١٨ - ١٠٣ .

وقالوا : وحمل الاخنس الطائي ، فشق الصفوف يطلب عليا ليقتله ، فبدره علي (ع) بضربة فقتله ، ثم حمل ذو الثدية ليضرب عليا (ع) فضربه علي ضربة فشق رأسه ، ففر به جواده ، فألقاه في حرف دالية - ناعور - فحمل بعده ابن عمه مالك بن الوضاح على علي (ع) ، فضربه علي فقتله ، وتقدم عبد الله بن وهب زعيم الخوارج الاول وصاح ، يا ابن ابي طالب ، والله لا نبرح من هذه المعركة ، لو تأتي على انفسنا ، ابرز الي وابرز اليك ، وذر الناس جانبا ، فلما سمع علي كلامه تبسم وقال : قاتله الله من رجل ما اقل حياءه اما إنه ليعلم اني حليف السيف وخدين الرمح ، ولكنه قد يئس من الحياة ، وانه ليطمع طمعا كاذبا ، ثم حمل على علي (ع) ، فضربه علي (ع) فقتله .

قالوا : وقال علي (ع) : احملوا عليهم ، لا يفلت منهم عشرة ، ولا يقتل منكم عشرة . . وهكذا كان ، باجماع من تعرض لهذه المعركة . .

ونحن اذا وضعنا صورة هذا الحدث العظيم امامنا ، وتمعنا فيه ، وجدنا

ان عليا (ع) مدافعا لا مهاجما ، ومحبا للسلام ، لا يتورط في سفـك الدمـاء الا بعد ان يوصد خصومه ابواب السلم امامه ، ووجدناه لا يتبـع الهارب ولا يـطلبه ولا يحـاسب من وقف في صفـوف خصـومـه ثم عـاد اليـه ، ولا يهتم في اخـذ المعلومات عمن اشترك في الجريمة مخـافة ان يثـير الشحناء ، او يـربك التـائبين ، كل ذلك تمشيا مع السنن الاسلامية ، ومن اعـظم تلك السنن قول النبي ﷺ : الاسلام يجُبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها .

ولـو قـارنّـا بـين هـذا اللون من الحكم والادارة ، وبـين شكـل الحكم والادارة ، عنـد حكام المسلمـين في طول الارض وعـرضها ، لـوجـدنـا الفـرق شاسعا .

وفي عقيدتي : ان حكام المسلمـين لوسـاروا على هـذا النهج لأسلم جميـع اهل الارض طوعا .

وفي عقيدتي ايضا : انهم لو احسنوا الظن بالله سبحـانه واعتمـدوا عليه ، وعلى عملهم بما يملكون من قدراته المشروعة ، لنصرهم الله سبحـانه ، كما نصر انبياءه ورسله وأوصياءهم من قبل ، وهو القائل في كتابه العزيز : (ان تنصـروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) .

وبعد : فهل يصدق احد قبل يوم بدر ان ثلاثمائة وثلاثـة عشر شخصـا لا يملكون من معدات الحرب الا اليسير وكـان سلاح بعضهم جـريد النخـل ، فيما اتذكر يغلبون الفا من الابطال المدججين بالسلاح ؟

وهل يصدق احـد قبل وقعـة النهروان ، ان اربعـة آلاف من المستميتين ، فيهم الابطال المجرّبون يقتلون باجمعهم في سـاعة او سـاعات ، ولا يسلم منهم عشـرة اشخـاص ، ولا يقتـل من اصحـاب عـلي (ع) الا اقـل من عشـرة اشخاص ؟

اجل لقد كانت قوة المسلمين يوم بدر ويوم النهروان وفي غيرهـا من الايام من قوة الاسلام ، وقوة الاسلام من الله والله لن يُغلب .

وقد كان علي (ع) يجسد الاسلام في اقواله وافعاله ، في الحرب والسلم على السواء ، ! وبذلك كان ينتصر .

واما الآخرون ، فقد كانوا ولا يزالون مسلمين في مساجدهم وفي مواعظهم واقوالهم ،ولكنهم لم يجسدوا الاسلام في اعمالهم لا في الحرب ولا في السلم .

فقد كانوا يتسلحون بالخديعة والاغتيال والافتراء على خصومهم ، فيلوثونهم بما ليس فيهم ويعتمدون على هذا السلاح اكثر مما يعتمدون على التسلح بكمال الاسلام . .

إن الاسلام دين الرحمة ودين الصدق ودين الوفاء بالعهد وهو يأمر بالاستعانة بالله سبحانه قبل كل شيء ، ويدلك على هذا أن الله سبحانه وتعالى افتتح كتابه العزيز بالفاتحة ، وافتتحها بالبسملة وافتتح البسملة بباء الاستعانة . .

والشيعة كانوا ولا يزالون يطالبون الحكام بتجسيد الاسلام في اقوالهم وافعالهم في الحرب والسلم ، ويطالبونهم بتطبيقه على انفسهم وفي بيوتهم ، قبل ان يطبقوه على غيرهم ، وقبل ان يطلبوا من غيرهم تطبيقه لئلا يكون الحاكم مصداقا لقوله ﷺ : الا لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر المرتكبين له .

والشيعة كانوا ولا يزالون يطالبون بذلك ما وجدوا للمطالبة سبيلا وما لم يؤ د ذلك الى دفع الفاسد بالافسد .

ومن اجل ذلك كله ، كان العلماء الاتقياء يعتزلون مناصب الدولة ، لانهم لا يجدون مجالا للعمل الاسلامي الحر ، وكانوا يقاسون مرارة الحرمان من نعمتي الرفاه والنفوذ .

مثلا : كان البويهيون يحكمون بغداد وما احاط بها ، وهم شيعة مخلصون للتشيع ، وكان معظم الخاصة في ذلك العهد شيعة ، واعني بالخاصة الوزراء

والكتاب والشعراء ، وكان علماء الشيعة في ذلك الوقت يتمتعون بالتفوق بالعلم والنزاهة وقوة الحجة ، وكانوا يتصلون بالبويهيين ، بل كان البويهيون يتصلون بهم ، لان شعار علماء الشيعة العمل بقول رسول الله ﷺ : اذا رأيت العلماء على أبواب الملوك ، فقل بئس العلماء وبئس الملوك ، وإذا رأيت الملوك على أبواب العلماء ، فقل نعم الملوك ونعم العلماء.

ومع ذلك كله ، لا نعرف احدا منهم تولى منصب القضاء ، ولا منصب قاضي القضاة ، وهذان المنصبان كانا في ذلك العهد مختصين بالفقهاء .

نعم كانت نقابة الطالبيين بيد علماء الشيعة ، ولكن هذا المنصب لاعلقة له بشؤون الدولة ، لان الغاية منه ، هي المحافظة على انساب الطالبيين وحل المشاكل المتعلقة بهم عند من يشغل منصب النقابة تكريما لهم ، وربما كانوا يتولون امارة الحاج ، وهو ايضا منصب لا علقة له بشؤون الدولة السياسية والعسكرية . .

وفي ذلك العهد او فيما يقرب منه ، كان الحمدانيون يملكون حلب والموصل وتوابعها ، والحمدانيون شيعة عارفون مخلصون، ويتجلى ذلك في ميمية ابي فراس الحمداني الشهيرة التي يقول في مطلعها :

الحق مهتضم والدين مخترم ... وفيء آل رسول الله مقتسم

والتي يخاطب فيها العباسيين في مقطع منها :

يا باعة الخمر كفوا عن مفاخرة ... لمعشر بيعهم يوم الهياج دم
منهم علية ام منكم وكان لهم ... شيخ المغنين ابراهيم ام لكم
تمسي التلاوة في ابياتهم سحرا ... وفي بيوتكم الاوتار والنغم

ولما كانت مهمة الحمدانيين في حلب مقتصرة على حماية الثغور، ورد عاديات الروم ، وادارة ما تحت ايديهم من البلاد ، ولم يكن بينهم وبين امراء المسلمين فتن ولا حروب تولى علماء الشيعة القضاء على عهدهم في حلب وغيرها وتولوا ادارة المدارس والمساجد ، لثقتهم بانهم يستطيعون الحكم في ذلك العهد بما انزل الله تعالى بمقتضى اجتهادهم .

ومن اجـل ذلك ايضـا تولى علماء الشيعـة الادارات الـدينيـة في ايـران في القرن العاشر للهجرة والقرن الحادي عشر .

فقد تولى المحقق الثاني الشيخ علي الكركي المتـوفي سنة ٩٣٧ هـ وهـو من مشايخ الشهيد الثاني الـذي قتل سنـة ٩٥٩هـ، مشيخة الإسـلام وادارة المعاهـد الدينية ، وسلمه الشاه زمام الدولة ، لان ادارتها في حـال عدم حضـور المعصوم للمجتهـد العادل ، فقبـل المحقق ثم كلف الشاه بـادارتها بـالنيابـة عنه لمقـدرتـه وعجزه ، وهذا هو القدر الميسور من تطبيق الاسلام على النهج الذي اسلفناه.

وتولى مشيخة الإسلام الشيخ حسن بن عبد الصمد المتوفي سنة ٩٨٤ هـ، وهو من تلامذة الشهيد الثاني ، واقطعـه الشاه فيـها أذكر سبـع ضياع في هـراة ، وامـر والده بـالحضور تحت منبـره ، ومـع ذلـك فقـد حـاول التخلص من هـذا المنصب ، فأستأذن الشاه في الحج فلم يأذن له ، مخافة ان لا يعود الى ايران وبعد قضاء سبع سنوات فيها اتذكر اذن له ، فذهب الى الحج ، ورجع إلى البحرين ، واقام فيها معـرضا عن هـراة ونعيمها ، وهـراة قد تفـوق لبنان في لـطف هوائهـا وعذوبة ، ائها وكثرة فواكهها ، وقد انهى ولده الشيخ البهائي اصناف اعنـابها الى سبعين صنفا . . وقـد رأيت جماعـات من اهل هـراة في النجف الاشرف وكـانوا متـوجهين للحـج او وافـدين للزيـارة ، فكنـا نتخيلهم لبنـانيـين لانهم يشبهـون اللبنانيين في اجسامهم والوانهم وترفهم .

وتولى الشيخ علي بن صبح العـاملي مشيخـة الاسلام في يـزد وهو معـاصر للشيخ البهائي ، وكـان الشيخ البهـائي المتوفي سنـة ١٠٣١ هـ او ١٠٣٥ هـ من جملة اربـاب المناصب ايضـا ، ومع ذلـك ، ترك ذلـك النعيم وسـاح في الارض ثلاثين سنة ، وكان يخفي نفسه ، ويروي النـاس عنه الامـور الغريبـة التي تشبه المعجزات اذا صح ذلك عنه ، وقد اجتمع في الكرك بصاحب المعالم المتوفي سنـة ١٠١١ هـ . .

وكان السيد نور الدين علي ـ الذي تتلمـذ عليه اخـوه صاحب المـدارك ،

والشيخ حسن صاحب المعالم ـ يدرس في المذاهب الخمسة في مكة المكرمة نحواً من عشرين سنة . .

وكان الشيخ زين الدين الشهيد الثاني ـ ولعل السيد نور الدين علي من تلامذته او في طبقته ـ يتولى التدريس في بعلبك في المدرسة النورية بعد أن ذهب إلى القسطنطينية سنة ٩٥٢ هـ وكتب بعد وصوله اليها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم ، واوصلها إلى قاضي العسكر ، وكان فاضلا ، فوقعت منه موقعاً حسنا ، وجرت بينهما مباحثات كثيرة ، فارسل اليه هذا القاضي الدفتر الذي فيه الوظائف ، وبذل له ما يختاره منها ، فاختار المدرسة النورية المذكورة بعد الاستخارة .

ومع هذا كله ، فقد كان معظمهم يؤثر الاشتغال بالعلم والعبادة وادارة شؤون الشيعة الدينية مؤثرا ذلك على الاتصال بالملوك وعلى استلام منصب من قبلهم . .

وقد ذكر الرواة في ترجمة صاحبي المدارك والمعالم انهما عندما عادا من العراق إلى جبل عامل وكانا من المع اهل زمانهم بالفضل والنبل ، تركا زيارة مشهد الرضا (ع) عمداً ، مخافة أن يستدعيهما الشاه لمقابلته .

الإفتاء والقضاء في جبل عامل

قال العلامة الامين في كتابه (خطط جبل عامل) ص ١١ :

كانت الحكومة تعين القضاة من الشيعة في هـذه المقاطعـات الثمان بـاسم (نائب) ايام حكم العشار كما كان يطلق على القضاة عموما في الالوية والاقضية في عهد الدولـة العثمانيـة ـ وقد عـين الشيخ سعيـد الحر الجبعي صـاحب كتاب مهذب الاقوال في احوال الرجال نائبا على جبع بمرسوم من عبد الله باشا بن علي باشا الخزندار صاحب عكا مؤرخ في سنة ١٢٤٠هـ بتوقيـع السيد عبـد الله والي صيـدا ومتصرف غـزة ويافـا ، وكان ولـده الشيخ حسن سعيد نائبـا عن قاضي صيدا في ناحية جبع .

وممن عين لنيابة تبنين الشيخ مغنية في عهد علي بك الاسعد . . وممن عـين لناحية هونين التي كان مركزها في بنت جبيل الشيخ علي شرارة ، وكذلك في غيرها من المقاطعات .

هذا في أيام حكم العشار، أما بعد زوال حكمهم سنة ١٢٨٢هـ، وتعيـين ثلاث قائمقاميات ومديريتين فقد عين في مركز كل قضـاء قاض حنفي في صيـدا وصـور ومرجعيـون ، يكون مـرجعا لجميـع الفرق والمـذاهب في الحكم والقضاء ومنع الناس من الترافع الى غيره والحكم بغير المـذهب الحنفي ، وكان ذلـك من جملة احكام العثمانيين الجائرة .

وبعـد الحرب العـالمية الاولى والحـاق جبل عـامل وغيـره بلبنـان ، جعـل المذهب الجعفري رسميا في لبنان ، وعين منهم قضاة في صيدا وصور ومرجعيون والنبطية وبعلبك وبرج البراجنة والهـرمل وحصـرت وظيفتهم كغيرهـم من قضـاة السنـة في النكاح والـطلاق وفرض النفقـة والمواريث والـوصايـا وولاية الاوقـاف والقاصرين ، وعين لهم محكمة تمييـز في بيروت ، مؤلفـة من رئيس وعضوين ثم ابدلت بمحكمة استئناف .

هذا بالنسبة للقضاء .

وامـا الافتاء ، فقد حكى العلامة الامين في كتـابه (خـطط جبل عـامل) ان جدهم السيد محمد الامين المعاصر للجزار كان مفتيا ، وانه اقطع الصوانة مع اربعة فدُن في شقراء معيشة له ، ولم يكن من العلماء المجتهـدين ، ولما تـوفي صار الافتاء لولده السيد علي، وكان من العلماء المجتهدين، وبعد وفاته انتقل الافتاء لـولده السيـد محمد الامـين الثاني ، ولم يكن من العلماء ، وتـولى عـلى الصـوانـة والفدن الاربعة ، وحاول اخوتـه مشاركتـه بها فلم يفلحـوا ، وكان الافتـاء لكل واحـد منهم بمرسـوم من الحكومـة العثمانيـة ، والسيد محمـد الامين الثـاني اخذ الارض وتسلم عـدة صكوك عثمـانية فيهـا ، بانها معيشـة له من قبـل الدولـة ، قلت : وقد اثبتها العلامة الامين في كتابه (اعيان الشيعة)، في ترجمته .

وكان السيد علي بن السيد ابراهيم مفتيا في قضـاء صيدا ، وهـو معاصـر للسيد علي الامين المتقدم .

والظاهر ان السيد علي بن السيد ابراهيم هو شارح منـظومـة بحر العلوم التي فرغ منها سنة الف ومئتين واحـدى وخمسين هجـرية ، واذا كـان هو شـارح المنضومة فهو من المجتهدين، وقد شهد له بما يشبه الاجتهاد المعلّق اساتذته، وهم : صاحب الجواهر والشيخ علي بن الشيخ جعفر والسيد حسن الخـرسان ، والكتـاب عندنـاوهوبخـطه ، وعليه تلك الشهـادات بخطوطهم وقـد بيـع هـذا الكتاب عندما بيعت مكتبة المرحوم العلامة السيد محمد ابـراهيم للعلامـة الشيخ علي العسيلي ، وحملها للنجف وباع شطراً منها، واستبقى شطرا آخر .

وذكر العلامة الامين في الخطط ايضا : ان الحانيني المتوفي سنة ١٠٣٥ هـ الف وخمسة وثلاثين هجرية تولى منصب الافتاء في عهد امارة فخر الدين المعني[١].

ثم انه بعد الحرب العالمية الاولى ، التي انتهت باحتلال الفرنسيين لسوريا ولبنان سنة ١٩٢٠م عينت الحكومة الفرنسية مفتين من الشيعة في صور وصيدا ومرجعيون وبعلبك والهرمل ، ولم يكن لهم عمل الا قبض الراتب .

قلت : وكانوا باجمعهم على صلة وثيقة بالشيخ الوالد ، وقد تناول الوالد طعام الغداء عند مفتي صور الشيخ عز الدين عز الدين ، وكنت معه ، وكان عمري في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة او دونها ، كما انني رأيت الحاج علي العبد الله عندنا ضيفاً عند الوالد ، وكان يتولى افتاء مرجعيون[٢]

---

(١) يضرب المثل في بلادنا بقدس الحانيني وصلاحه ، فاذا اطال احدهم صلاته قالوا : اهي صلاة الحانيني ؟ واذا كان هو المفتي دلنا ذلك على ان علماء الشيعة الصالحين كانوا يتولون الافتاء كما تولاه السيد علي الامين والسيد علي ابراهيم . .

(٢) في سنة ١٣٤٧ هـ ولد اخي سليمان وكان الحاج علي افندي ضيفا على الوالد في بيروت في المصيطبة ، فارخ ولادته بابيات وهي :

أذُكا فخارٍ قد بدت ... تزهو بابراج التهاني
ام انجبت ذات العفاف ... سليلة الشرف المصان
ذا غُرّة من نوره ... الزاهي استمد الفرقدان
لأجلٍ حبر فاضل ... سامي المفاخر والمكان
قل فيه يوسف عفة ... قل فيه سحبان البيان
قل يا خدين المكرمات ... وفاقدا بالفضل ثاني
وثني الجمال لقد كساه ... فجل حسنا عن مدان
يهنيك نجل مفاخر ... فيه تغايرت المعاني
صف يا مؤرخ وشيه ... هذا سليمان الزمان

ولكن سليمان هذا توفي يافعا سنة ١٣٥١ هـ ودفن في مقبرة الشياح ، وكنت يومئذ موجودا في لبنان ، فوقف الوالد للتعزية ووقف الى جنبه علي نصرت بك الاسعد بن شبيب باشا الاسعد يتقبل التعازي معه ، وقد رثي بعدة قصائد اجودها ابيات للشاعر الفطري الشيخ سليم البرجي العاملي من بلدة الرمادية ـ قضاء صور : وهو تاجر في بيروت في سوق سرسق قال فيها :

صبرا ايا قطب الشريعة بعده ... فالموت حتم ما له من فادي
واسلم ودم يا كهفنا وملاذنا ... يا ملجأ القصاد والرواد
انت الصبور على الخطوب بهمة ... تردي الاسود الشسوس يوم جلاد

وفي سنة ١٣٤٢ هـ ، وقعت فتنة في حاريص ، فاقام الشيخ رحمه الله في بيروت نحوا من تسعة اشهر وكان ينزل في فندق دار السرور ، الملاصق لسوق سرسق ، وهو افخم فندق في ذلك الوقت ، وقد اتصل خلال اقامته بالاعيان واهل الفضل من سائر الطوائف ، وكان تأليف كتاب (حقائق الايمان) نتيجة للمحاورات التى كانت تغمر انديتهم ، وفي تلك الايام اهتم الشيخ الوالد في جعل مذهب الشيعة رسميا ، فجعل يحرك القضية بسبب سعة اتصالاته ، وكان السيد احمد الحسيني عضوا فعالا في الدولة في ذلك العهد ، فاقترح توقيع مضبطة من علماء الشيعة واعيانها ورفعها للمندوب السامي ، وتعهد بملاحقتها ، وكان عبد الله مروة احد شباب حاريص الفاهمين يرافق الشيخ الوالد في سفره هذا ، ويساعده على اموره ، فزوده بالمال والكتب وحمله العريضة فتحركت الفكرة ، وكادت تتم لولا المعارضة ، ثم انبعثت الفكرة مرة اخرى واصبح المذهب الجعفري رسميا في سنة ١٣٤٤ هـ تقريباً ، وارجعت الحكومة امر تعيين القضاة للعلماء وتم اختيار الوالد لرئاسة محكمة التمييز العليا ، فكان كذلك ، وقد اسندت إليه رئاستها بعد ذلك من اجل الكفاءة العالية التي تمثلت فيه ، وبقي فيها بعد انتهاء مدته القانونية عشر سنوات .

وقد منح وسام الاستحقاق الفضي ، ثم الذهبي ووسام الارز ، وكان يعلقه على صدره رئيس الوزراء رياض الصلح بنفسه ، وكان يستره بعبائته استحياء منه . ولا اعرف احداً غيره ممن شغل هذه المناصب حصل على شيء من ذلك ، الى هذا التاريخ اعني سنة (١٤٠٣ هـ ١٩٨٢) .

= كم فل منك الرأي جيش حوادث والبيض ما سلت من الاغماد

وحدثني هذا الشاعر في النجف انه انشد الملك عبد الله بن الحسين في عمان قصيدته فيه ، فلما انتهى إلى قوله فيه :

تدري الفوارس انه قطب الوغى والصافنات بانه خيالها

وقف الملك عبد الله استحسانا وابتهاجا قائلا : انه ينظم فينا عن طبع لا عن تطبع ، وكان ثمة عدد من الشعراء والاعيان .

تسمية جبل عامل ببلاد بشارة

هـذه الاضـافـة بـاصـطلاح النحـاة بمعنى الـلام وهي تفيـد الملك أو الاختصاص وكلا الاسمين يعطياننا شيئا عن ماضي جبلنا الأشم فإن عاملة قبيلة من قبائل العرب اليمانية، وبشارة هو أحد حكـامها في العصـور الوسـطى والذي يدور على الالسن أن مراكز امارته في قرية زبقين من اعمال صـور حيث لا تزال الآثار الفخمة فيها تدل على ذلك[1] .

وبشارة هذا هل هو من امراء بني معن؟ أو هو بشارة بن مقبل القحطاني ؟ كل ذلك لم يقم عليه برهان[2].

والذي يقرب من الصواب أن بشارة هذا هو ابن اسد الدين العاملي الذي اقطعه الملك الناصر خيط بانياس ويـدل على ذلـك ما عن تـاريخ بن فتحـون أن حسام الدين بشـارة بن اسد الـدين بن عامـر بن مهلهل بن سليمـان بن احمد بن سـلامة العـامـلي من رهط عـاملة بن سبأ حضـر فتـح قلعـة هـونـين مـع الملك الناصر بن ايوب واقطعه الملك الناصر خيط بانايس .

(١) كما ذكره الاستاذ رضا في العرفان م ٢ ولا يزال سكان زبقين من بيت واحد ويسمون البزيع ولهم شرف ومجد ويحتفظون بمزايا وسمات منها انهم لا يزوجون الا من كان منهم وفي المدة الاخيرة ناسبوا بعض اهل العلم وقد كان الحاج محمد بزيع احد الاشخاص الموجهين في جبل عامل في اواخر القرن الحادي عشر وسيأتي انشاء الله في الفصل السياسي .

(٢) كما اعترف بذلك الاستاذان رضا وارسلان في م ٢ من العرفان .

قال الأستاذ محمد جابر في كتابه (تاريخ جبل عامل) ص ٢٤ :

سميت بلادنا جبل عامل أو عاملة في الكتب القديمة أو في الدور الاول . واطلق عليها اسم بلاد بشاره في الكتب الحديثة . ودعيت بجبل الخليل وجبل الجليل فيما سبق كما ورد في تاريخ الكامل لابن الاثير وتاريخ ابي الفداء واليعقوبي ومعجم البلدان لياقوت وغيرهم .

وتنقسم إلى قسمين جنوبي وشمالي يفصل بينهما نهر الليطاني ، والليطاني كلمة سريانية معناها ذو الضجة أو اللوطة بتعبير العامة لسرعة انحداره أو الملعون لأنه قلما ينتفع به . وقيل أن اسمه نهر ليطا .

وفي تحديدها خلاف لا حاجة للاسهاب فيه والمعول عليه في الوقت الحاضر أنها تحد من نهر القرن بالقرب من طرشيحا وضواحي عكا جنوبي قرية الزيب من اعمال فلسطين جنوباً ، إلى نهر الأولي المعروف قديماً بنهر الفراديس الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزين بالقرب من صيدا شمالاً ، ومن شواطىء البحر المتوسط غرباً ، إلى واحة الحولة والنميط إلى نهر الغجر ووادي التيم شرقاً . وقد الحق قسم وافر منها بجبل لبنان كجزين ومشغره وجبل الريحان . وكانت جزين دار علم وتدريس من ديار الشيعة وخرج منها فحول العلماء العامليين منهم العلامة محمد بن مكي الجزيني العاملي المعروف بالشهيد الاول وغيره . وقد مر ذكرهم .

ومساحة البلاد ثلاثة آلاف كيلو متر ، وعدد نفوسها ماية وخمسون ألف نسمة يدينون بالاسلام على مذهب الشيعة الامامية . بينهم قسم قليل من المسلمين السنيين في الثغور وقسم من النصارى في الداخل .

وسكانه عرب خلّص بنسبهم ولغتهم وعاداتهم متحدرون من عاملة بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهي قبيلة هاجرت من اليمن إلى أطراف الشام قبل الميلاد بثلاثماية سنة على وجه التقريب بعد حادثة سيل العرم وانهيار

سد مأرب وضياع مملكة سبأ المعروفة في التاريخ وباسمه اسمي الجبل .

وعلى هذا تكون قبائل عاملة بن سبا احتلت هذه البلاد واستولت عليها من زمن يزيد عن الفي عام .

ويعرب اسمه في الاصل عامر ، قالوا وإنما سمي يعرب لأنه أول من نسق لغة العرب البائدة على النحو الذي نتكلمه اليوم باللهجة الفصحى . وسبأ بن يشجب اسمه الاول عبد شمس ولقب بسبأ لامتداد سلطانه في الشرق واستيلائه على بابل ومصر وما بينهما من الامصار ونقله من الاموال والسبايا إلى اليمن . وهو الذي بنى مدينة مأرب في الجنوب الشرقي من صنعاء اليمن وشيد سدها العظيم وآثاره لم تزل باقية إلى الآن .

وقد اظهر علم الآثار أن مدينة مأرب عاصمة سبأ كانت احدى عجائب الدنيا في زخرفها وعماراتها . وكانت سقوف بعض قصورها مرصعة بالذهب والاحجار الكريمة والعاج .

وكانت الزراعة على الاصول الفنية التي لم يسبق اليها من قبله ولا وصل اليها اليوم كما حققه بعض الاثريين من علماء الافرنج .

وولد لسبأ عشرة اولاد تفرقوا بعد ذلك الحادث العظيم.

وقال أيضاً :

وأما تسمية جبل عامل ببلاد بشارة ومن هو بشارة فالأقوال فيه متضاربة . فمنهم من قال أنه الامير بشارة بن معن، وآل معن ، أسرة عربية وبطن من ربيعة حكمت لبنان من سنة ١٥١٦ م إلى سنة ١٦٩٧ م وعدد حكامها تسعة واشهرهم فخر الدين الثاني الذي دخلت جبال عاملة تحت حكمه بطريق الالتزام من الدولة التركية كما كان يلتزمها غيره من امراء ذلك العصر كآل الحرفوش وغيرهم .

لم يضـرب في سبيلها بسيف ولم يـطعن برمـح كـما يـدعي بعضهم . وقـد نقض هذا الرأي إذ لم يعرف في سلسلة امراء آل معن من اسمه بشارة .

ومنهم من قـال أنه بشـارة بن مقبـل القحـطاني . وهـذا القـول انفـرد بـه العلامة المؤرخ الشيخ علي سبيتي وتابعه شبيب باشا الاسعـد في العقد المنضـد . ولم نر لهذا الاسم ذكـراً في ما لـدينا من المؤلفـات التاريخيـة ، ولم يذكـر العلامـة السبيتي المصدر الذي نقل عنه . فاصبح القـول به في حكم المهجـور حتى تتوفـر الأدلة على صحته .

والمعول عليه والاقرب إلى الصحة أنـه الأمير حسـام الدين بشـارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن احمد بن سلامة العـاملي ، هكـذا ساق نسبـه بن فتحـون في تاريخـه . وقـال العـلامـة السيـد محسن الأمـين الحسيني ، ولم يـذكـر المصدر ، أنه من رهط عاملة بن سبا .

وهذا الامير كما يقول ابن فتحون هو من امراء الدولة الصلاحيـة الكرديـة حضـر مع الملك النـاصر صـلاح الدين يـوسف بن ايوب . فتـح حصن هونـين واقطعه الملك خيط بانياس . وورد ذكره في تاريـخ ابن شداد عنـد حلف اليمين للملك الافضل بن صلاح الدين في عكا بعـد وفاة ابيـه ، وظهر من كـلامه أنـه كان من اكابر امراء الدولة . ومما تتناقله الالسن في جبل عامل ونص عليه بعض الباحثين أن قرية زبقـين ، من اعمال صـور ، كانت مـركز امـارته حيث الآثـار الفخمة فيها تدل على ذلك .

والمقول أن محمد بن هزاع الوائـلي القحطاني من رؤسـاء عشيرة عنـزة كان معاصراً للأمير بشارة أو لأحد اعقـابه وصهـراً لهم واليه انتقلت الامـارة في جبل عامل بعد انقراض سلالة الامير بشارة .

وابن هزّاع هذا هـو الجد الأول لآل عـلي الصغير يتصـل نسبه ببني تغلب القبيلة الوائلية المعـروفة . وأول من قـدم من باديـة نجد إلى الـديار العـاملية في عصر الدولة الصلاحية وحط رحاله ونصب خيامه على الجبل الجنوبي بقرب قرية

عديسه وأسس هناك بناية لم تزل آثارها ماثلة كما ذكر بعض أفراد الأسرة وسيأتي ايضاح ذلك في الفصول التالية .

تقسيم جبل عامل قديماً(١)

تنقسم جبل عامل إلى قسمين بلاد بشارة الشمالية ونهايتها في الشمال نهر الأولي شمال صيدا ويفصلها عن الجنوبية نهر الليطاني الذي يصب في البحر المتوسط شمالي صور حيث يعرف هناك بالقاسمية، وبشارة الجنوبية ونهايتها في الجنوب نهر القرن الجاري شمالي طيرشيحا وجنوبي قرية الزيب وهي التي اشتهرت اكثر من اختها الشمالية بهذا الاسم وكانت بلاد بشارة عموما تقسم إلى ثمان مقاطعات اربع في بشارة الجنوبية وهي تبنين وهونين وقانا ومعركة وكان حكامها آل علي الصغير وقبلهم بنو شكر وقيل بني شكر وآل منكر ، وقيل آل منكر اجداد علي الصغير ولكن مأخذ هذه الدعوى غير واضح ولا سيما بالنسبة للقرن العاشر الهجري والتاسع والثامن ويتألف الآن منها قضاء صور وقضاء مرجعيون وثلاث في بشارة الشمالية وهي الشقيف والشومر والتفاح المعروفة بناحية جبع وحكام الاولى منها آل صعب وحكام الاخيرتين آل منكر ويتألف من الثلاث الآن قضاء صيدا والثامنة مقاطعة جزين الداخلة في قضائها في جبل لبنان الآن وحكامها المقدمون المعروفون بمقدمي جزين(٢) .

تقسيم جبل عامل بعد الاحتلال

إن الحكومة الافرنسية بعد احتلالها سوريا ولبنان جعلت صور مركز محافظة والمحافظ بمنزلة المتصرف في العهد التركي وجعلت كلا من تبنين وعلما

---

(١) من مقال للأستاذ الشيخ أحمد رضا في العرفان م ٢ . ص ٢٤٢ .

(٢)حدثني العلامة الشيخ رضا فرحات في سنة ١٣٤٧ هجرية تقريباً في العراق أن بعض المقدمين وسماه ركب فرساً شموساً واطلق عنانها في جرجوع على ما تخطره فانطلق به الفرس ودخل في اشجار التين وخافوا عليه ومذ ولج الفرس الاشجار قبض المقدم على فرع منها فلم يستطع الفرس أن يتحرك بينما كان في منتهى السرعة ولم ينزل عنه حتى مات تحته وبالطبع أن ذلك كان من أثر حفظه بفخذيه وساقيه وكان الفرس ليس له فاعتذر إلى صاحبه بأنه هجين وأنه لا ينبغي أن يقتنى وهذا من الأمور العجيبة .

وبنت جبيل مديرية وجعلت صيدا مركز محافظة وكذلك مرجعيون ثم جرت تشكيلات أخرى فجعلوا في صور قائمقام وفي بنت جبيل وتبنين حاكم صلح وجعلوا صيدا مركز محافظة ونقلوا محكمة البداية من صور سنة ١٣٤٧ هـ الموافق ١٩٢٩ م وجعلوا فيها حاكم صلح وقاضيا وقائمقام ولم تزل على هذا إلى اليوم وهو سنة ١٣٥٤ هـ الموافق ٦ حزيران سنة ١٩٣٥ م[١] .

وفي سنة ١٧٢٩ كانت الشام ولاية وبيروت متصرفية وكلا من صيدا وصور قائمقامية[٢] .

مساحة جبل عامل

في جريدة جبل عامل مقالات بـر (س) حكى في احدها عن روضات الجنات في ترجمة الشهيد الاول أن جبل عامل واقعة كما عن تاريخ المغربي على الطرف الجنوبي من مدينة دمشق على اسفاح جبل لبنان المشتهر من جبال تلك الارض في سعة ثمانية عشر فرسخا من الطول في تسعة فراسخ من العرض .

وفي مقال آخر في الجريدة نفسها بتوقيع بهاء الدين العاملي بلغت قرى جبل عامل ثلاثمائة وخمسين قرية وزادت نفوسه على المائة والثلاثين الفا فكان لكل اربعين نفسا مترا واحدا مربعا .

وبين هذين التحديدين فرق كبير وللآن لم نقف على المساحة الحقيقية .

نفوس جبل عامل

إن عدد النفوس في الأزمنة السابقة لم يكن مضبوطا وإنما كان يذكر بنحو من التقريب ولم يكن ضبطها ذا اهمية لأن استنفار الناس إلى الجهاد وحثهم على الحروب لم يكن محتاجا إلى أزيد من امرين احدهما القاء موعظة من أئمة المساجد يحثون الناس فيها على الجهاد وثانيهما ارادة زعيم القبيلة وتحركه بنفسه للمعركة وقد كانت القبيلة لا تعرف احدا إلا زعيمها ولا تقدس مخلوقا سواه وليس

(١) هذا مأخوذ من المقدمة التي وضعها المرحوم الخال الشيخ حسين سليمان البياضي ولم يتعرض للوضع الاداري في بلاد بشارة الشمالية .
(٢) وهذا أيضاً مأخوذ منها .

للزعيم غرض في احصاء نفوس قبيلته وكان احصاؤ ها على غيره متعذراً .

وأول احصاء جرى لبلاد عاملة في سنة ١٢٨٠هـ . بعد وفاة الأمير حمد البك ولكنه احصاء بغير ضبط[1] وقد جرى احصاء النفوس ثانيا حوالي سنة ١٣٠٠هـ احصاءا تاما فظهر في قضاء صور ثمانمائة رجل كلهم من ابناء العشرين بعد خروج ذوي الاعذار فألفت الحكومة طابوراً كاملاً من نفس قضاء صور[2].

وقد قدرت نفوس جبل عامل في مقال بتوقيع الحر العاملي منشور في جريدة عامل وقدرها كاتب آخر ولعله اكثر تتبعا كما يظهر لمن راجع مقالاته الممتعة بمائة وثلاثين ألفاً ويقول الاستاذ الزين منشيء الجريدة أن زعيم جبل عامل كامل بك الأسعد الذي انتخب م - ثا عن سوريا أو بيروت يستطيع أن يجند عشرة آلاف مقاتل بواسل .

وقد بلغت نفوس جبل عامل في احصاء سنة ١٩٣٢ م مائة واثنين وخمسين ألفا وسبعمائة وسبعة وعشرين نسمة ١٥٢٧٢٧ بينهم من الشيعة الاثني عشرية ٩٢٦٨١ نفسا وهذا هو مجموع نفوسه الحاضرين دون المهاجرين وإذا كان مجموع المهاجرين في سنة ١٣٣٠ هـ خمسة وعشرين ألفا كما يقول مراسل جريدة جبل عامل من نيويورك فكم تكون نفوس المهاجرين وقد تضخمت الهجرة تضخما هائلا منذ سنة ١٣٣٠ هـ الذي ارسل فيه ذلك المراسل كلمته إلى سنة ١٩٣٢ م التي جرى فيها الاحصاء الآخر وبينهما ما يقرب من عشرين سنة .

اليك مثلا : حاريص قرية صغيرة لم يبلغ مهاجروها في ذلك التاريخ عشرين شخصا وقد بلغوا في المدة الاخيرة نحوا من مائة وخمسين شخصا .

إن القاريء الكريم إذا لاحظ هذه الكلمة استطاع أن يستخرج نسبة صحيحة لسكان جبل عامل .

---

(١) عن المقدمة التي هي بقلم المرحوم الخال .

(٢) ايضا عن المقدمة المذكورة . وإذا كان ابناء العشرين الذين لا عذر لهم عن الجندية بذلك العدد في قضاء صور وحده فكم يكون مجموع سكان جبل عامل من النساء والاطفال والرجال الذين فوق هذا السن ودونه في قضاء صور وغيره والخال لم يذكر مجموع النفوس لا هو ولا غيره .

العامليون عرب أقحاح

للعربي مظاهر وميز تتجلى فيه دون غيره من الأمم فالاباء والشمم والشجاعة والكرم والفخر والنجدة كلها مظهر من مظاهر العروبة، والتحدث بالأصل والنسب وحفظ آثار الآباء والأجداد والتمدح بها في المحافل والأندية هو التراث القيم الذي حفظه العربي واحتفظ به وتلقاه عن اسلافه الأمجاد، وهذه المظاهر تكاد تكون ملموسة في العامليين والعراقيين والحجازيين، فلو أن التاريخ اغفل العامليين ولم يتحدث عنهم بشيء لكان في ذلك كفاية في اثبات عروبتهم الصميمة .

إن التاريخ يحدثنا عن سبأ وأولاده العشرة وعن عاملة[1] وهو أحد أولاده العشرة وأنهم تفرقوا وأن بني عاملة سكنوا بعض جبال الشام المعروفة باسم أبيهم إلى اليوم فإنها تسمى جبال عاملة وربما رخمت تخفيفاً فقيل عامل فالعامليون يمانيون وأما قول الأعشى :

أعامل حتى متى تذهبين إلى غير والدك الاكرم
ووالدكم قاسط فارجعوا إلى النسب الاتلد الاقدم

فشيء لا يعرفه التاريخ وإن تحدث به الاعشى في شعره ولعله في مقام

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٤٨ .

هجاء لا مقام نصيحة والهجاء كيل بلا ثمن ووزن بغير قسطاس مستقيم وعلى كل حال فقاسط هو زوج المسك بنت ثقيف وأبو وائل الذي ولد بكر بن وائل[1] وهم من سادات العرب واشرافها وفي جبل عامل اليوم قوم ينتسبون إلى وائل منهم آل الاسعد زعماء عاملة منذ أمد بعيد وسيمر عليك شيء كثير من مواقفهم الشهيرة ووقائعهم الخطيرة .

والذين يحتفظون بانسابهم من العامليين إلى هذا اليوم عدد جم لا نقدر على استيفائه . فالعامليون كانوا يحتفظون بانسابهم احتفاظاً يشبه الحفاظ المر إلى قبل عقود من السنين فإن الحكومة العثمانية عندما قسمت الاراضي وطوبتها واضعفت شوكة الزعامة بهذا العمل ذهبت النزعة القبيلية من نفوس العامليين واضمحلّ أثر الانتساب فبينما كان العامليون إذا سمعوا طلقة نارية يجتمعون من اقصى عاملة إلى أعلاها وإذا بهم بعد ذلك لا يعرفون شيئاً من هذا[2] .

وبينما هم يقدسون الزعيم حتى العبادة وإذا بهم لا يعرفونه إلا وقت افتقارهم اليه ولكن الظروف الحاضرة أوشكت أن تقيد شيئاً من تلك الزعامة .

واليك شاهدا على احتفاظهم بانسابهم ما قاله اعظم مؤرخ لبناني في هذا العصر وهو عيسى اسكندر المعلوف في العرفان م ١٨ عند بحثه عن المعنيين وهم حكام صيدا . قال ما لفظه : ووثق عرى الاجتماع بتقوية حزبه القيسي الذي

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص ٤١ .

(٢) يحدثنا الأستاذ رضا في العرفان م ٢ ص ٢٨٧ أن نجدة العامليين بلغت منتهاها في منتصف القرن الثاني عشر فقد بلغ من شدة حذرهم في زمن الشيخ عباس العلي حاكم صور في أواسط القرن الثاني عشر أن رجلا منهم كان يحرس مزرعته من الوحوش فاطلق عيارا نارياً فظن أهل القرى المجاورة أنه يخبرهم بدخول العدو أو أنه يستغيث بهم فأجابوه باطلاق الرصاص رمزا للاجابة واعلاماً لمن في جوارهم وتبعهم في ذلك أهل القرى المجاورة حتى امتد الصوت على ما قيل من جباع في سفح لبنان إلى البصة على حدود عكا وما انجلا عمود الصبح حتى كان أن أتت الجموع ترد وتحتشد والفرسان مهيأة للطعان وقال جورج يني فيما كتبه في المقتطف وكانوا يعني الشيعة يومئذ في سمت عزهم يبلغ جيشهم زهاء العشرة آلاف فارس من الابطال المجربين ولهم حكم بلاد بشارة ومدينة صور وقد ارتفعت عنهم طاعة ولاة لبنان فتمادوا في سلطتهم حتى كانوا يغيرون على اطراف ولاية الشام ويكسون المال السلطاني عن والي صيدا .

وقال الشهابي كان للعامليين ابطال لا تطاق في الحروب وكان محمود النصار يعد بالف فارس .

استظهر مرارا كثيرة على الحزب اليمني إلى آخر ما قاله ولا ريب أن العامليين هم المعنيون بالحزب اليماني إذا لم يكن للشهابيين اعداء ينازعونهم السلطة غير العامليين، وصيدا هي احدى قواعد جبل عامل .

وفي كلام ابن فتحون الذي قدمناه في وجه تسمية جبل عامل ببلاد بشارة شاهد آخر وفي تسمية الجبل بجبل عامل شاهد ثالث وفي كلمات المؤرخين شواهد كافية وإن كانت القضية ليست موضع بحث أو جدال(١) .

عن مجمع البيان في الحديث عن فروة بن مسيك سألت رسول الله ﷺ عن سبأ رجل هو أم امرأة فقال ﷺ هو رجل من العرب، ولد عشرة، تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فالأزد وكندة ومذحج والأشعرون وانمار وحمير. فقال رجل من القوم ما انمار قال ﷺ الذين منهم خثعم وبجيلة وأما الذين تشاءموا فعاملة وجدام ولخم وغسان ثم قال في المجمع المراد بسبأ هنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وعن الطبري أنه ذكر هذه الرواية وما يقرب منها .

وعن الصحاح عاملة هي من اليمن وهو بن سبأ .

وعن لسان العرب قال الأزهري عاملة قبيلة ينسب اليها عدي بن الرقاع العاملي، وعاملة حي من اليمن وهو عاملة بن سبأ .

وعن بعض المؤرخين أن جبل عامل أو عاملة وجبل الجليل سمي بعاملة

---

(١) وإن كان اوغست اديب باشا في كتابه الذي وضعه بالافرنسية وسماه لبنان بعد الحرب وترجم إلى العربية يدعي خلاف ذلك ولم يدعم دعواه المنهارة بمنطق ولا برهان وقد ذكر ص ٦٤ من كتابه ما يدلنا على أنه يكتب من غير تأمل ولا معرفة في شيء مما كتبه وجاء في تقويم البشير لسنة ١٩٣٩ م أنه توغل في القرن التاسع في جنوبي لبنان اقوام من عرب البادية يرتادون المرعى لمواشيهم وكانوا من بني جذام وبني عاملة وعقبه الاستاذ ظاهر في العرفان م ٣٠ تحت عنوان اغلاط الاعلام وحبذا لو تابع الاستاذ بحثه وعقب أوغست باشا وعاقبه بما يستحقه مع أن ما ورد في تقويم البشير لا ينافي عروبتهم كما إنا لا نجزم أنه غلط بحد ذاته فإن شبيب باشا الاسعد يحدثنا أن آباءه وهم وائليون دخلوا عاملة على عهد بشارة العاملي الذي ولاة أياها الملك الناصر وأنهم تغلبوا عليه بعد ما قاوموهم غير أن التاريخ الذي ذكر في التقويم وفي ديوان شبيب باشا مختلف .

القضاعية. وهي ام الحارث بن علي الذي تنسب قبيلته اليها نزلوا الشام من بني جذام ولخم وغسان .

وعن القاموس بنو عاملة بن سبأ حي باليمن .

وعن تاج العروس هم من ولد الحارث بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ نسبوا إلى أمهم عاملة بنت مالك بن وديعة بن قضاعة أم الزاهر ومعاوية ابني الحارث بن عدي نفسه .

وعن تاج العروس أيضاً: شذ ابن الأثير حيث جعل عامل من العمالقة . وقد رد عليه أبو سعيد وغيره.

قلت: وكان الذي أوهم ابن الأثير هو سكناهم في مساكن العمالقة فإن الارض المقدسة مجاورة لجبال عاملة مع أن التاريخ يحدث عن انقراضهم وانقراض آخرين ممن خلفهم إلى أن اتخذها عاملة مسكناً.

هذه نبذة من كلمات أهل اللغة والتاريخ وربما يبدو بينها اختلاف لاول نظرة ولكن الحقيقة هو أن سبأ هو الجد العاشر لعاملة ولبقية القبائل واصلهم من اليمن وليس العشرة من اولاد سبأ الصلبيين كما توهمه جملة من كلمات المؤرخين وهذا الحذف متعارف فيقال أن فلاناً من بني هاشم وبينه وبينه عشرات الجدود كما أن نسبتهم إلى اليمن باعتبار الاصل لا المسكن .

وكلمات المؤرخين مختلفة في تحديد دخول العرب إلى جبال عاملة ومتفقة على اصل دخولهم اليها كما أنها متفقة على أنهم عرب ينتسبون لعاملة وإن اختلفوا في أن عاملة رجلاً ، أو امرأة.

وإن من يراجع فتوح الشام يجد أن جبل عامل كانت مأهولة بالروم والعرب وأن الروم كانوا يسكنون الحصون والقلاع وأن العرب كانوا يقيمون في الضواحي .

ولنضع بين يدي القارىء الكريم شاهدا آخر ليس من نوع الشواهد

الأنفة ليروح به نفسه. فإنا نقدم له بعض الشخصيات الأدبية العاملية الشهيرة في القرن الأول والثاني للهجرة وسنسهب في اخبارهم فإن حديث الأدب مستعذب مستملح. هذا عدي بن الرقاع العاملي شاعراسلامي فحل أقر له أهل الأدب وعد شعره من الطراز الأول وهو من شعراء العصر الأموي لأنه من مادحي الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة سنة ٨٦ هـ وهو القائل كما في الكامل لابي العباس المبرد:

ومما شجاني أنني كنت نائما اعلل من برد الكرى بالتنسم
إلى أن بكت ورقاء في غصن ايكة تردد مبكاها بحسن الترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكاها وقلت الفضل للمتقدم

ورحل إليه قوم ليهاجوه فسألوا عنه في منزله فتقدمت اليهم بنية له فقالت :

تجمعتم من كل أوب ومنزل على واحد لا زلتم قرن واحد

فأنصرفوا عنه ولم يهاجوه، - وهو القائل:

لو ثوى لا يريمها ألف حول لم يطل عندها عليه الثواء
أهواها يشُفُّ أم هل اعيرت منظرا غير ما اعير النساء

وهو القائل :

وكأنها بين النساء اعارها عينيه احور من جآذر جاسم
وسنان اقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنائم

ولقد فضله الاصمعي في هذين البيتين على النابغة الذبياني حيث يقول النابغة :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العوَّد

قائلا أنه وإن احسن في تشبيهه مرض الطرف إلا أنه هجنه بذكر العلة وتشبيه المرأة بالعليل[١] .

وفي حديث الاصمعي وهو طويل[٢] قال قال لي الرشيد اتروي كلمة عدي بن الرقاع :

عرف الديار توهما فاعتادها : قلت نعم قال هات فمضيت فيها حتى صرت إلى وصف الجمل قال لي الفضل ناشدتك الله أن تقطع ما امتعنا به السهر من ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب؛ فسكته الرشيد ثم قال لي امض في امرك فأنشدته حتى إذا بلغت قوله :

تزجي اغن كأن ابرة روقه   قلم اصاب من الدواة مدادها[٣]

استوى جالسا ثم قال لي اتحفظ في هذا ذكرا قلت نعم ذكرت الرواة أن الفرزدق قال كنت في المجلس وجرير إلى جانبي فلما ابتدأ عدي في قصيدته قلت لجرير مسرا اليه هلم نسخر من هذا الشامي فلما ذقنا كلامه يئسنا منه فلما قال :

تزجي اغن كان أبرة روقه . وعدي كالمستريح فقال جرير اذن تراه يتسلب بها مثلاً ؟ فقال الفرزدق يالكع انه يقول قلم أصاب من الدواة مدادها فقال جرير كأن سمعك مخبوء في صدره فقال لي اسكت شغلني سبك عن جيد الكلام .

ويروي[٤] أن جريرا دخل على الوليد وابن الرقاع العاملي عنده ينشده قصيدته التي يقول فيها :

غلب المساميح الوليد سماحة   وكفى قريش المعضلات وسادها

---

(١) عن معاهد التنصيص .

(٢) امالي المرتضى « رض » ج ٣ ص ٩٨ وقد اختصرنا القصة .

(٣) زجا وزجى ساقه ودفعه برفق والاغن ذو الغنة والمراد به ولد الظبية « الخشف » والروق القرن ولما كان هذا التشبيه في منتهى الدقة كان هذا البيت موضع الاعجاب عند أهل الادب حتى سجد له احدهم واعتذر لمن حوله انكم اعرف بمواضع السجود من القرآن ونحن أعرف بمواضعه من الشعر .

(٤) في الكامل لابي العباس المبرد وقد روى له ابن خلكان حديثا آخر لا نستحسن نقله .

قال جرير فحسدته على أبيات منها حتى أنشد في صفة الظبية (تزجى أغن كـأن أبرة روقه) قال فقلت في نفسي وقع والله ما يقدر أن يقول أو يشبـه به قـال فقال :

(قلم أصاب من الدواة مدادها) قال فما قدرت حسداً له أن أقيم حتى انصرفت.

عن ابن الاثير في حوادث سنـة ١٣ و١٤ للهجرة المـوافقة سنـة ٦٣٦ م أن أبا عبيدة لما فتح الشام استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان فسار يـزيد إلى مـدينة صيدا وعرقا وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق .

وإذا كانت هذه البلاد فتحت في ذلك العهـد فمن القريب جـدا أن يكون فتحها فتحا لـما حواليهـا من القرى والمـزارع ويكون الاسـلام دخلها كغيـرها في ذلك التاريخ على التقـريب لا التحقيق غير انـا لا نجزم بـذلك كـما لا نعتقد أن اسلامهم على تقديره كـان اسلامـا صحيحا لأن الجنـد الاسلامي في ذلـك اليوم كان يهتم بالفتح اكثر من اهتمامه في غيره ، ولكن الاسلام كان يدعـو إلى نفسه بنفسه وكانت تسير امامه آية كبرى تعلن نفسها امام جماهير البشر فيقف المفكرون امـامها في حيـرة وذهول. فـإن قومـا كانـوا مستضعفين وكلمتهم متفـرقة والـدول المجاورة لهم تقتسمهم ثم تسخرهم لما تريد ثم يقوم فيهم رجل واحد يسحق كل مبادئهم الدينية والاخلاقية والسياسية ثم يستطيـع هذا الـرجل المفـرد أن يوحـد كلمتهم وأن يجعلهم يعتـرفون بكـل ما يـريد ثم مـا هي إلا حركـة سـريعـة من حركات الزمن وإذا بهم يحاولون اخضاع دول العالم الكبرى ثم ما هي إلا حركة ثانية وإذا بالدول المخاصمة تلقي إليهم الزمام ويخضع عتاتها ويعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

ثم أن الجند الاسلامي نفسـه يعترف بـأن هذه الانتصـارات الهائلة ليست بفعله وإنما هي بقدرة الله سبحانه ، التي كـانت تهيء اسبابـا خفية ليست داخلة في الحساب وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب .

ويظن الباحث ظنا يشرفه على الجزم أن الدين الصحيح دخل تلك البـلاد على أيدي افذاذ الصحابة العارفين بحقيقة الدين ويوجد في بلادنا اسماء قرى

باسم الصحابة بعضها صار خراباً وبعضها لا يزال موجوداً.

فإن الترف غمر المسلمين والدنيا القت اليهم بزبرجها مرة واحدة فكان ذلك بالنسبة اليهم كالانتقال الفجائي من بداوة لاعظم حضارة ونحن وإن كنا نعتقد أن منتهى حضارتهم في ذلك العهد لا يشبه حضارة سائر الناس اليوم إلا أنها بالنسبة لعالمهم الأول هي منتهى ما يخطر في بالهم وآخر ما يحلمون فيه وكان أبو ذر الغفاري الصحابي الجليل (رض) قوي العقيدة راسخ الايمان مخلصا في العمل من اشجع الصحابة لا يهاب إلا الله وحده حتى أنه كان من الفئة الذين تخلفوا عن بيعة الخليفة الاول (رض) فكان من اصلب الناس عقيدة واعظمهم ثباتا حتى كاد أمرهم يشبه أمر الانبياء في مجانبة الرأي العام وفي الثبات على مبادئهم التي يرون احقيتها مهما كلف الأمر ومهما كانت النتائج. وقد انكر على الخليفة الثالث (رض) امورا على أبي ذر أدت إلى نفيه إلى بلد تجسمت فيه الروح التي لا تتحد مع مبادىء أبي ذر ولا تعرف شيئا عنها فإن الشام منفى أبي ذر (رض) حكمها يزيد بن أبي سفيان منذ اليوم الأول وأبو سفيان هو الشخصية الوحيدة التي ناوأت الاسلام بمقدار ما ناوأه العالم اجمع ولكن دعوة الحق غلبت دعوة الباطل فدخل ابو سفيان واتباعه في الاسلام كرها وذلك مما لا يشك فيه أحد .

أهمية جبل عامل في التاريخ

نبل العاملين . . نبوغهم وفضلهم على العلم قديماً وحديثاً . . النظريات المستحدثة التي كانت موضع اعجاب الباحثين . . الأدب السامي . . الثقافة العامة . . المخترعات الميكانيكية في هذا العصر .

النكتة مقياس الذكاء

مقاييس الاشياء تختلف باختلافها فكما يختلف ميزان الجزر عن ميزان الذهب كذلك يختلف مقياس الكميات عن مقياس المساحات وكما اختلفت هذه اختلف ميزان المسائل الحسابية عن غيره وهكذا .

وكلما ازدادت الاشياء دقة كان قسطاسها أشد استقامة وأدق وزنا وقد أخبر الله عن قابلية الذرات للوزن بقوله سبحانه : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . وقد توصل العلم الحديث إلى ذلك بينما كان الأقدمون لا يكادون يحسون بوجودها إلا من طريق الوهم . ولا نعني بالذرة هنا الشيء الدقيق الذي يرى بالناظرة بل ما لا يرى إلا بالمكبر « المكرسكوب » .

وكما أن المحسوسات بالحواس الظاهرية مفتقرة إلى مقياس يوضحها ساعة الخفاء ، كذلك المحسوسات بالحواس الباطنية . فالنتيجة العلمية تعرض على أحد الأقيسة الأربعة والمسألة الحسابية توزن بميزانها وهكذا سائر الأشياء .

ولا ريب أن الذكاء من ألطف الموجودات ، وأن معرفة الأذكى مفتقرة إلى مقياس أدق من مقياس الذهب والفضة ، وقد اعتنى العقلاء بكل شيء . فلما انصرف الماديون إلى وضع مقاييس المساحات والكميات كذلك انصرف الفلاسفة والعلماء إلى وضع مقاييس لبقية الأمور .

قالوا : النكتة مقياس الذكاء ، وقد تلقاها الناس بالقبول واعتمد الباحثون في مؤلفاتهم والخطباء في محاضراتهم . واعتناق الأكثرين لنظرية ما ليس دليلاً على صحتها ما دام التقليد يرافق الانسان منذ يومه الأول وما دامت قاعدة المحاكاة والمنابهة تغتنم فرصة ضعف الارادة في الانسان فتعمل عملها فيه وهو في دور التلقي من غير معارضة ولا استنكار ولا سيما إذا اعتقد بأسانيده وكان اعتقاده ناشئاً من ظهور خطئه في معتقداته مرة بعد أخرى كما هو الشأن في الانسان الذي خلق ضعيفاً ملء ما في كلمة الضعف من معنى . ولذا نرى الانسان بفطرته يكبر أبويه ويقدس معتقداتها أكثر من كل أحد وذلك لأن ظهور خطئه له من طريقهما كان أكثر من ظهوره له بواسطة أي شخص آخر، وإذا انتقل إلى المدرسة كان إكباره لأستاذه أكثر من كل أحد حتى أبويه لنفس العلة الآنفة .

الفلاسفة من أكثر الناس بحثاً ونقاشاً في الحقائق ومع ذلك ربما يجيء فيلسوف متمرد على ما وضعه أسلافه من أسانيد ، فيضع نظرياتهم تحت مبضع النقد وفي بودقة التحليل ، وإذا هي لا شيء . فما هي إلا لحظة واحدة واذا بعدة نظريات كبرى تنهار تباعاً لأنها كلها كانت قائمة على نظرية واحدة . إننا مثلاً إذا استطعنا أن ننكر نتيجة الشكل الأول أو أن نجعلها موضع شك ينهار علم المنطق من أصله ولن تقوم له قائمة أبداً .

والفلاسفة مع أنهم أكثر الناس تحرراً وأبعدهم عن التقليد ، لا يزال التقليد يعمل فيهم عمله ، غير أنه فيهم أخفى منه في غيرهم ، يقوم أحدهم فيشيد بنظرية ما ويجهد نفسه في ايضاحها لتلاميذه ثم يهذبها الفذ منهم ثم يبنون عليها ملء مكاييل من النظريات الأخرى وتصبح النظرية نفسها ضرورة من

الضروريات لا تحتاج إلى دليل ولا تفتقر إلى برهان ويستمر الناس على ذلك جيلاً أو أجيالاً إلى أن يقوم آخر فيهدم تلك النظرية وتبطل تلك المباني ويصبح مجدِّداً .

إن من نظر في كلمات الفلاسفة وعرف رأيهم في الجوهر الفرد وعرف ما بنوه عليه في عدة قرون ، ثم نظر مرة أخرى فرآهم كيف انتقلوا منه للأثير ثم للسديم ، وعرف أن كل ذلك من الحقائق الفرضية التي اضطرهم لفرضها الجهل بما يعتمد عليه هذا الكون العظيم أو العلم بجهلهم عرف مبلغ ما نقوله من الصحة .

ومن درس شيئاً عن نظرية داروين وعن تفشيها في أذهان كثيرين ، ثم عرف كيف انهارت أن انهيارها كان بفعل معتنقيها أنفسهم ، علم أن التقليد لا يزال يعمل عمله حتى في فلاسفة العصر الحاضر فضلاً عن سائر الناس الذين ليسوا من الفلسفة في عير ولا في نفير وليس لهم منها قلامة ظفر ولا قطمير .

قالوا : النكتة مقياس الذكاء وقرأ أناس كثيرون هذه الكلمة في مظانها وغير مظانها وعليها صار عملهم وفهموا منها الدعابة لأنها هي المعنى المفهوم من لفظة النكتة في هذه الأيام . وظنوا أن الدعابة هي مقياس الذكاء فمن كانت دعابته أجود ومضحكاته أعظم تأثيراً على نفوس الجماهير وكان انتقاله اليها أسرع كان أذكى الناس .

إذن فليذهب سقراط وأفلاطون وأبو العلاء والمتنبي وأبو تمام وليندبوا حظهم ، فإن أشعب ودلامة وأمه وجحا وأضرابهم أذكى منهم وأعلى كعبا ، بل المفاضلة ليست جارية على مقياسها المعتاد ، لأن الفلاسفة لا يعرفون الدعابة أبداً ، فلا مشاركة وزيادة لنتصور المفاضلة ، وإنما هي اذن على حد قولهم : الناقص والأشج أعدلا بني مروان على حين أنه ليس فيهم عادل كما يقوله النحاة .

هكذا فهموا من معنى النكتة وبهذا القسطاس كانوا يزنون ، فقد كانوا

يقارنون بين المصريين وغيرهم ثم يحكمون للمصريين لأنهم أسرع جواباً وأكثر إدراكاً لموضع النكتة .

ولكن النكتة في اللغة هي الشيء الدقيق ، فالورقة البيضاء المحتوية على نقطة سوداء يقال فيها نكتة ، والجوهرة الثمينة التي فيها نقطة يخالف لونها لونها أو فيها تجويف رقيق لا يرى إلا بالمكبر يقال فيها نكتة ، ومن أحس بهذه النكتة ورآها كان أقوى بصراً ممن لا يراها .

وكما كانت قوة الباصرة وضعفها تتميز بهذه النكتة ، فكذلك قوة البصيرة وضعفها يتميزان بادراك دقائق بقية الأشياء مع المشاركة أن كل صنعة أو حرفة تحتوي على دقائق لا يفهمها كل أربابها ، فإذا أدرك أحد أرباب تلك الصنعة عيباً فيها وخفي على الآخرين كان أذكاهم . وإذا استطاع استدراك ذلك العيب وعجز عنه الباقون كان أمهرهم . ويسمى ذلك الشيء نكتة لدقته وخفائه ، فكأنه أشبه النكتة الخارجية التي تحس بالباصرة وكان إدراكه دليلاً على قوة بصيرته كما كان إدراك الدقائق المرئية دليلاً على قوة باصرته .

هذه هي النكتة التي تكون مقياس الذكاء ، وليست النكتة هي الدعابة . وإذا عرفنا النكتة عرفنا مقياساً للذكاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أدخلها تحت حكومته العادلة . لكن هذا المقياس إنما نزن به الأجناس المتساوية فنضع في إحدى كفتي الميزان شيئاً ما ونضع في الكفة الأخرى قدراً ما من جنسه ثم ننظر الكفة الراجحة فنحكم لها . والأفهام لا تقابل بالحديد والأحجار . . . وإنما يشترى الذهب بالذهب مع كون قيمته اعتبارية محضة . أما الفهم فقيمته وافية لا تفتقر إلى معتبر نافذ الاعتبار فإنه هو ينفذ ذاته ويفرضها فرضاً حتمياً .

فإذا اجتمع بناء ونجار فأدرك البناء عيباً دقيقاً في الجدار لم يدركه النجار ليس لنا أن نقول إنه أذكى منه . وكذلك إذا أدرك النجار عيباً في الباب ليس لنا أن نقول إنه أحذق من البناء . ولو اجتمع عدة نجارين فأدرك أحدهم ما خفي على الآخرين في الباب كان أذكاهم . وهكذا الحال في العلوم فإذا اجتمع عدة فقهاء أو نحاة أو فلاسفة ، وأدرك أحدهم شيئاً في العلم الذي يدعي معرفته

الآخرون وخفي عليهم كان أذكاهم بلا ريب . وأما إذا أدرك أحدهم ناحية دقيقة في جهة بعيدة عن الآخرين لم يكن أذكاهم فالمتفوق في صنعته على مشاركيه في تلك الصنعة هو أذكاهم . وبهذه الملاحظة يكون هذا المقياس كسائر المقاييس قسطاساً مستقيماً لا يحتاج إلى برهان ويكون داخلاً في قسم البديهي ، ونحن نعترف بأن كل شيء يعلل ويدخل تعليله في قسم البرهان حتى معرفة الأثقال بالكم الخاص .

إننا إذا فهمنا هذه الجهة أمكننا أن نحكم للعامليين بمنزلة سامية في الذكاء . وتتضح تلك المنزلة بملاحظة ما سنمليه عليك الساعة مع اعترافنا بعدم الاحاطة . فإننا سنذكر لك جملة من الشخصيات التي كان لها تميز على من يشاركها في هذا العصر وفي العصور الغابرة .

١ ـ الشيخ محمد حسن الحر العاملي المشغري :

صاحب الوسائل الذي فرغ من بعض أجزائه في سنة ١٠٨٥ هـ ولد سنة ١٠٣٣ هـ وتوفي سنة ١١٠٤ هـ[١] إن الذين ألفوا في الحديث كثيرون ، فقد كانت الأصول أربعمئة ، وجمع منها المشائخ الثلاثة في الكتب الأربعة شيئاً كثيراً ، وكانت الكتب الأربعة : الكافي ، والفقيه ، والتهذيب ، والاستبصار ، هي مدار الحديث في عدة قرون ، مع أن في تناول الحديث منها مشقة وتعباً يعرف ذلك من جربه فجاء صاحب الوسائل فجمع الحديث منها ومن غيرها ، ورتبه أفضل ترتيب ، وبوبه أفضل تبويب ، واستوفى كل ما في الكتب الأربعة . وقيل إنه فاته منها حديثان واستدركها عليه غيره ، ووضع لها فهرساً وأحصى فيه عدد الأبواب وعدد ما في كل باب من الأخبار ، وأهمل هذه الناحية في نفس الكتاب ، وفي ذلك حفظٌ للوسائل من الزيادة والنقصان . ومن استبدل الوسائل بأصولها أتعب نفسه ولم يحصل على النتيجة المطلوبة ، مع أن الوقوف على أصولها ليس بالأمر السهل ، وقد أصبح أخذ الحديث للاستشهاد به في مظانه في غاية السهولة لا يضطر الباحث إلى تعب ومشقة بخلاف أصولها. وقد طبعت الوسائل

(١) الكنى والألقاب ص ١٥٨ .

عدة طبعات ، ولا يمكن أن يستغني عنها فقيه مجتهد أو مراهق للاجتهاد لأن في هذا الكتاب عمدة ما يعتمده الشيعة من الأحاديث الشريفة في فروع دينهم ، وإن كان ليس كل ما فيه معتمداً . فهي كغيرها من كتب الحديث في هذه الناحية ، وقد ألفها الحر في عشرين سنة وجمعها من مئة وأربعة وتسعين كتاباً منها ثمانون بلا واسطة . قال الحر رحمه الله : وبقي كتب أخرى لم نذكرها « يعني في هذا الاحصاء » وذكرناها في أماكنها ، وقد دون الإحصاء في صدر كتابه ونسبها لأصحابها .

وصاحب الوسائل من أعظم رجالات الاسلام جهاداً في سبيل الدين ، وأكثرهم تأليفاً وإتقاناً ، وشذ أن تجتمع كثرة التأليف والاتقان ، وكتاب الوسائل من أجلّ الكتب في بابه ترتيباً وتبويباً وجمعاً وضبطاً . وقال في ترجمة نفسه إنه قد ألف كتابا في إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات يشتمل على أكثر من عشرين ألف حديث ، وعلى أسانيد تقارب سبعين ألف سند منقولة من جميع كتب الخاصة والعامة مع حسن الترتيب والتهذيب واجتناب التكرار بحسب الامكان ، والتصريح بأسماء الكتب إلى أن قال : نقل فيه عن مئة واثنين وأربعين كتاباً من كتب الخاصة وعن أربعة وعشرين كتاباً من كتب العامة ، هذا كله بلا واسطة . ونقل عن خمسين كتاباً من كتب الخاصة بالواسطة وعن مئتين وثلاثة وعشرين كتاباً من كتب العامة بالواسطة . وله عدة مؤلفات حافلة بجميع الفنون حتى الهندسة ، ولعلنا نشير إليها عند البحث عن مؤلفات العامليين في الفصل الثاني من فصول الكتاب . وله ميزة باحصاء الحديث والسند والمؤلفات والأشخاص المترجمين ، كما أنه يذكر مصادر كل كتاب بأسمائها كما هي الطريقة المألوفة اليوم كما أنه ألف رسالة أحصى فيها عدد الواجبات والمحرمات .

٢ ـ الشهيد الثاني العاملي الجبعي :

الشيخ زين الدين صاحب المسالك والروضة وغيرهما ، ولد سنة ٩١١ هـ واستشهد سنة ٩٦٦ هـ[1] له مؤلفات كثيرة ذكر بعضهم أنها بلغت مئتي مؤلف

(١) الكنى والألقاب ص ٣٤٤ قالوا إنه عاش ٥٥ سنة فيكون استشهد سنة ٩٦٦ كما يحصل من ضمها إلى سني ولادته .

وأسماء المسطور منها والموجود لا يبلغ هذا العدد وهي كثيرة جدّاً ، وبعضها يقع في عدة مجلدات . وقد رحل في طلب العلم إلى مصر وغيرها ، وقد روى عن كثير من علماء الخاصة والعامة ، وهو أكثر علماء الشيعة ابتكاراً وله تفوق عظيم في العلوم الرياضية مع تفوقه فيما كان متخصصاً فيه . فقد أتقن المعقول والهيئة والهندسة والحساب ، كما أتقن العلوم العربية وعلوم الحديث وعلم الفقه وعلم الأصول ، وقد ألف ابن العودي « تلميذه » رسالة مسهبة في أحواله ، وهو أول من أدخل الشرح المزجي في كتب الشيعة ، وأول من ناقش في الاجماع المنقول حسبما أعلم ، وقد ناقش فيه في منجزات المريض في المسالك ، وله كتب لها امتياز على ما يشاركها، منها:

(أ) المسالك :

هو شرح على شرائع الاسلام للمحقق الحلي (ره) وهو كتاب لا تستغني عنه مكتبة فقيه ولا يستغني عنه مجتهد أو مراهق للاجتهاد .

(ب) الروضة :

هو شرح على اللمعة الدمشقية للشهيد الأول رحمه الله تعالى . يُدرس إلى اليوم في جامعات الشيعة الكبرى كالنجف الأشرف وقم وخراسان وطهران وتبريز وغيرها من حواضرهم في الهند وإيران والعراق ككربلاء ولاهور والكاظمية واصفهان وما عداها . ويقال إن الروضة هي المادة الوحيدة للشيعة في جبال العلويين الذين يسمون الآن بالعلويين ، والمعروف كما يدعي مثقفوهم أنهم شيعة إمامية اثناء عشرية غير أنهم لا يتصلون بجامعة النجف الأشرف ولا بغيرها من جامعات الشيعة ولا نظن أنه يوجد عندهم ثقافة دينية عالية ، ولعل ذلك هو الذي أوجب التصاق بعض الخرافات بهم أو إلصاقها فيهم ، فأدى إلى رميهم بالانحياز وإلى نسبة نحلة لهم من غير النحل المعروفة فسموا « عليّ اللّهية » أو « النصيرية » وهم أبعد الناس عن ذلك كما سمعته من آحاد من الناس .

(ج) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد :

كان الشهيد الثاني رحمه الله أول من هذب الدرس ورتب العلوم ، وجعل هذه الناحية موضع بحث ، ووضع فيها كتاباً ووضع برنامجاً للمعلم والمتعلم . وقد قيل إنه ترجم إلى عدة لغات ، اعتناء بشأنه وسننقل منه شيئاً عند البحث عن كيفية الدراسة في الفصل الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى :

(د) الدراية :

كان الشهيد الثاني أول إمامي صنف في الدراية ، وقد اقتبس الاصطلاحات من كتب العامة كما ذكره ولده وغيره ، فألف البداية في الدراية ، وشرح الدراية . وربما يقال إن أول من أدخل الاصطلاحات في اقسام الحديث الأربعة العلامة الحلي ويكون الشهيد الثاني هو أول من ألف في الدراية وللحديث أقساماً قد تزيد عن اثنين وثلاثين قسماً .

كان الشيعة في قم في زمان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقسمون الأخبار إلى الصحيح وغيره ، وكانوا يسمون من يأخذ بكل ما روي من الأخبار أخبارياً أو حشوياً . وقد كان رئيسهم والمقدم فيهم أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري ، وقد طرد أحمد بن محمد بن خالد البرقي من قم لأنه كان أخبارياً . ثم لما مات مشى في جنازته حافياً وصلى عليه ، وذلك يدل على مكانة البرقي السامية ومقامه الديني العظيم ووثاقته في نفسه كما يدل على أن طريقته كانت غير مرضية عند الشيعة المعاصرين للأئمة عليهم الصلاة والسلام . فإن هذه القضية كانت في زمان الإمام العسكري عليه السلام ولم يعرف أن الامام (ع) أنكر على ابن عيسى مع أن الشيعة ولا سيما شيعة قم كانوا على اتصال دائم بخدمته عليه السلام في سامراء ، وكانت قم في ذلك العهد جامعة دينية كبرى للشيعة ، ولا تزال كذلك حتى اليوم وهي أقدم الجامعات الاسلامية الكبرى الموجودة اليوم .

وقد رحل الشهيد الثاني في طلب العلم إلى ميس ثم إلى كرك نوح ثم إلى جبع ثم إلى دمشق ثم إلى مصر سنة ٩٤٢ هـ ثم إلى الحجاز سنة ٩٤٣ هـ ثم لما قضى مناسكه زار النبي وأئمة البقيع صلوات الله عليهم أجمعين ، وكان في مصر

قد رأى النبي صلى الله عليه وآله في المنام ووعده بالخير ثم عاد إلى جبع سنة ٩٤٤ هـ وفي هذه السنة سافر إلى العراق لزيارة الأئمة عليهم السلام وعاد فيها إلى جبع ثم سافر إلى بيت المقدس سنة ٩٤٨ هـ ثم عاد إلى جبع ثم سافر سنة ٩٥٢ هـ إلى القسطنطينية ولم يجتمع بعد وصوله اليها مع أحد من الأعيان إلى ثمانية عشر يوماً ، كتب في خلالها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم ، وأوصلها إلى قاضي العسكر وكان فاضلاً فوقعت منه موقعاً حسناً وجرت بينهما مباحثات كثيرة . ثم إن هذا القاضي أرسل اليه الدفتر الذي فيه الوظائف وبذل له ما يختاره منها فاختار بعد الاستخارة المدرسة النورية في بعلبك وجعل له في كل شهر ما شرطه واقفها واجتمع فيها بالسيد عبد الرحيم العباسي صاحب معاهد التنصيص ودرَّس فيها في المذاهب الخمسة وكان يفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها فكان إذ ذاك إمام المسلمين أجمع ، وكان يكتب في كل يوم كراساً وكان يغمس القلم في الدواة فيكتب بالغمسة الواحدة عشرين سطراً أو ثلاثين وهذا من كراماته . وقد حدث البهائي عن والده أنه دخل عليه فوجده في فكرة فسأله عن السبب فقال رأيت البارحة في المنام السيد المرتضى صنع ضيافة جمع فيها علماء الامامية بأجمعهم في بيت فلما دخلت عليهم قام السيد ورحب بي وقال يا فلان اجلس إلى جنب الشهيد فجلست بجنبه فلما استوى بنا المجلس انتبهت ، منامي هذا دليل ظاهر على أني أكون ثانياً له في الشهادة ، ولما استشهد رأى جماعةٌ من التركمان انواراً تتلألأ على جثمانه الشريف فدفنوه ، وسعى السيد عبد الرحيم العباسي عند السلطان في قتل قاتليه فقتلوا . وكراماته لا تحصى وفضله لا يستقصى فإنه أنفق عمره الشريف في الطاعات وكانت أسفاره كلها في طلب العلم والحج والزيارة وكان يقع معه من الكرامات القدسية والألطاف الإلهية ما يدل على صفاء نيته وطيب سريرته .

وقد كان القائم بامداده وتجهيزه في سفره إلى مصر الحاج شمس الدين محمد بن هلال فإنه قام بكل ما احتاج اليه ، مضافاً إلى ما أسدى اليه من المعروف وأجرى عليه من الخيرات في مدة طلبه للعلم قبل سفره هذا جزاه الله تعالى خير جزاء المحسنين .

وقد كان الشهيد الثاني مصاباً بفقد الأولاد وقد كان عمر ولده المحقق صاحب المعالم يوم شهادته سبع سنين وكان غير مرجو البقاء . وقد ألف الشهيد الثاني كتاب مسكن الفؤاد عن فقد الأحبة والأولاد تسلية لنفسه ، وقد بارك الله في ذريته فكانوا سلسلة طيبة يتمتعون بالجاه العظيم والورع والصلاح والتقوى والعلم فكان كل واحد منهم في زمانه علماً في هذه الخصال يشار إليه وكان ولده الشيخ حسن أكبر مثال لنبل اليتم كما كان هو وذريته أكبر مصداق لقول أمير المؤمنين عليه السلام : بقية السيف أنمى عدداً . وقد تخرج عليه جمع من أعاظم العلماء .

٣ ـ السيد محمد صاحب المدارك المتوفي سنة ١٠٠٩ هـ :

هو سبط الشهيد الثاني وقد ألف المدارك تتمة للمسالك ، لأن الشهيد الثاني ألف روض الجنان في العبادات من الفقه ثم لما شرح الشرائع أوجز في العبادات اعتماداً على ما فصله في الروض ، وأسهب فيما عداها من أبواب الفقه . ثم جاء سبطه السيد فألف المدارك فكان من المدارك والمسالك دورة فقه جعفري كاملة وقد بلغت المدارك في جودة التعبير وحذف الفضول منتهى ما يخطر في البال . وما من فقيه يجيء بعده ويكتب مطولاً الا وينقل من عبارة المدارك الشيء الكثير حرفيّاً استغناء به عما سواه كما يعرفه من مارس الحدائق والجواهر ومصابيح الآغا رضا وفي المدارك من الذوق وجودة الفهم وإتقان المباني ما لا يقل عما فيها من لطافة التعبير الذي امتازت به وهي كالوسائل والمسالك لا يستغني عنها فقيه ، وقد اقترح علي الشيخ الوالد أدام الله ظله الشريف أن أشرح الشرائع من أول المعاملات على نهج المدارك قائلاً : وهذا شيء كنت أدخره لنفسي وقد آثرتك فيه ، وقد امتثلت أمره فكتبت شطراً وافراً من الوصايا والاجارة وغيرهما ، وكان الشيخ الوالد دام ظله يرى أن المدارك أقرب إلى الاتقان من المسالك وهو غير بعيد ، أو أنه يرى أن ما عدا العبادات من الفقه يحتاج إلى إعمال الأصول والقواعد لقلة النصوص الخاصة ، وهي عند المتأخرين متقنة موضحة أكثر مما هي عليه عند السلف الصالح رضوان الله عليهم ، لذلك لا يرى المسالك تنهض بهذا الأمر ، والجواهر مع أنها بعيدة عن هذا العصر لا

تخلو من إسهاب وتكرار ولعل الأخير هو الذي دعا الشيخ دام ظله إلى ما أمرني به جزى الله جميع العلماء العاملين خير الجزاء وجعلنا منهم .

ولصاحب المدارك مؤلفات كثيرة ، إلا أن المدارك أشهرها ومما ينسب اليه شواهد شرح بدر الدين على ألفية والده محمد بن مالك وشرح القصائد السبع العلويات المنسوبة لابن أبي الحديد وهما مطبوعان .

وقد توفي صاحب المدارك قبل صاحب المعالم بمدة قليلة فلم يعش بعده صاحب المعالم إلا بمقدار ما ساواه في السن وقد كتب صاحب المعالم على قبره : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً .

وكانا مدة حياتهما إذا اتفق سبقُ أحدهما إلى المسجد وجاء الآخر يقتدي به في الصلاة بل كان كل منهما إذا صنف شيئاً عرضه على الآخر ليراجعه فيتفقان على ما يجب فيه التحرير ، وكذا إذا راجع أحدهما مسألة وسئل عنها الآخر يقول ارجعوا اليه فقد كفاني مؤنتها . وعن أمل الآمل كان كل منهما يقتدي بالآخر في الصلاة ويحضر درسه .

٤ ـ الشيخ حسن صاحب المعالم ابن الشهيد الثاني المتوفي سنة ١٠١١ هـ .

له مؤلفات كثيرة تبلغ اثني عشر مؤلفاً أشهرها المعالم . وهو في معالمه يعد من المجددين في علم الأصول ، وقد اشتملت المعالم على جملة من نظرياته العلمية التي لم تكن معروفة قبله ، وهي لا تزال تدرس في جامعات الشيعة الدينية مع كثرة الكتب المؤلفة في الأصول التي تعد بالمئات بل الألوف . وكان علم الأصول مذاباً في كتب الفقه وكان بعض العلماء يذكره كمقدمة مختصرة في كتابه الفقهي كابن زهرة الحلبي ، فجاء الشيخ الطوسي والعلامة الحلي فافرد كل منهما له مؤلفاً خاصاً ثم تلاهما صاحب المعالم فكان ما جاء به أجود تنميقاً وترتيباً وأكثر تحقيقاً وتهذيباً ، بينما كان علم الأصول كما ذكرنا وإذا بالمحقق الشيخ حسن يطل على العالم بكتاب جديد يحمل بين دفتيه التحقيقات الكثيرة والآراء

المتينة التي لا تزال موضع العناية والإكبار عند من تأخر عنه وقد جمع فيه آراء الخاصة والعامة وحكى أدلتهم مهذبة مرتبة . وقد اعتنى العلماء بالمعالم فوضعوا عليها التعليقات الكثيرة وأهمها حاشية الشيخ محمد تقي أخي صاحب الفصول وحجمها يزيد عن المعالم مرات كثيرة .

ومن نظريات صاحب المعالم التي لا تزال محط الأنظار نظرية المعنى الحرفي ، فانه أول من أشار اليها فيما أعلم وقد ذكرها في رد شبهة أبي حنيفة في مسألة الاستثناء المتعقب للجمل المتعددة . وفي هذه المسألة ومسألة مفهوم الشرط ومسألة الواجب المشروط تظهر ثمرة المعنى الحرفي التي يظن كثير من أهل العلم أنها من المسائل العقيمة . وكان صاحب المعالم من أرشق الناس عبارة وأتقنهم للمطالب ، ولم يكن في زمانه أعلم منه في الفقه والحديث . وكان حسن الخط جيد الضبط عجيب الاستحضار حافظاً للرجال والأخبار والأشعار وكان يظهر إعراب ألفاظ الحديث . وكان هو وصاحب المدارك فرسَي رهان ورضيعي لُبان ، وكان الشيخ حسن خاله . وعن الأنوار النعمانيَّة أن صاحبي المدارك والمعالم تركا زيارة الرضا عليه السلام خوفاً من أن يكلفهما الشاه عباس الأول بالدخول عليه . وكتب المحقق الأردبيلي في آخر إجازة صاحب المعالم قبل تأليفها: كتبه العبد أحمد لمولاه امتثالاً لأمره ورضاه وذلك كله من إمارات ورعهما رحم الله الكاتب والمكتوب له وألحقنا بهما .

٥ ـ الشيخ حسين بن عبد الصمد المتوفي سنة ٩٨٤ هـ والد الشيخ البهائي :

هو أول من استدل على حجية الاستصحاب بالروايات كما يقوله شيخنا المرتضى في رسائله ومسألة الاستصحاب من المسائل المهمة المترامية الأطراف المتشعبة المباحث ، وكانت غامضة المأخذ عند كثير من علماء الشيعة الإمامية الذين لا يعملون بالقياس ولا بالاستحسان ولا بالظن الذي لم يقم على حجيته دليل مقطوع الحجية ، وكان من يرى حجية الاستصحاب لدليل قطعي في بعض الموارد يُرمى من بعض الجامدين بأنه يعمل بالاستحسان . وقد أغرق هؤلاء الجامدون، إغراقاً شديداً في الجمود ، فإن أحدهم إذا فهم شيئاً من

الرواية يرى نفسه عاملاً بها ، وإذا فهم غيره غير ذلك لا يراه عاملاً بها ، كان فهمه حجة على نفسه وعلى غيره ، وفهم غيره ليس حجة على أحد . ومن يفهم شيئاً من الرواية إذا علل فهمه ببعض الأمور المصطلحة كمناسبة الحكم والموضوع أو الذوق الفقاهتي أو عدم تفرقة العرف رماه أولئك الجامدون بأنه يعمل بالاستحسان مع أنه لا يعمل إلا بما فهمه من ألفاظ الحديث لقرائن مقاميَّة أو كلاميَّة . وقد بلغ من قحة هؤلاء الجامدين أنهم ينكرون حجيَّة ظواهر الكتاب ويستدلون به ، وينكرون حجيَّة القطع ويعتمدون عليه ، ويقولون بأنهم يعملون بالاحتياط وعملهم على خلافه . فإن أم المسائل مسألة التقليد وتقليد الحي أحوط ، وهم لا يقلدون إلا الميت ويقولون بأنهم يعملون بجميع الأخبار لأنها قطعيَّة ، وهم إن عملوا بها أجمع طرحوا الأخبار العلاجية الآمرة بطرح المرجوح مع التعارض . وإن عملوا بالأخبار العلاجية طرحوا قسماً وافراً من الأخبار لكونه مرجوحاً . ولولا خوف الإسهاب لذكرنا شيئاً كثيراً من شؤون هؤلاء الجامدين .

وللشيخ حسين بن عبد الصمد عدة مؤلفات عددها في الكنى والألقاب فسمَّى منها ستة ثم قال وله رسائل أخرى .

وعن اللؤلؤة للشيخ يوسف البحراني قال أخبرني والدي أن الشيخ حسين بن عبد الصمد كان في مكة المشرفة بقصد الجوار فيها فرأى في المنام أن القيامة قد قامت وجاء الأمر من الله عزَّ وجلَّ بأن ترفع أرض البحرين بما فيها إلى الجنة . فلما رأى هذه الرؤيا آثر الجوار فيها والموت في أرضها فقصدها وأقام بها إلى أن توفي في ٨ ربيع الأول سنة ٩٨٤ هـ . وهو ينتسب إلى الحارث بن عبد الله الهمداني صاحب أمير المؤمنين عليه السلام الذي قيل في حقه إنه من أفضل التابعين وأفقه الناس ، وهو الذي قال له أمير المؤمنين عليه السلام : وأبشرك يا حارث ، لتَعرفني عند الممات وعند الصراط وعند الحوض وعند المقاسمة . قال الحارث وما المقاسمة قال مقاسمة النار أقاسمها قسمة صحيحة ، أقول هذا وليي فاتركيه ، وهذا عدوي فخذيه ، الحديث . وقد نظم السيد الحميري ما تضمنه هذا الحديث .

وقد سكن الشيخ حسين بن عبد الصمد مدينة هراة وذلك أن أهلها كانوا لا يعرفون التشيع فأمره السلطان شاه طهماسب الصفوي بالتوجه إليها والإقامة فيها لإرشاد الناس وأعطاه ثلاث قرى من قراها فأقام بها ثمان سنين يعلم الناس الأمور الدينية ويبث فيهم الأحكام الشرعية فتشيع خلق كثير ، وقد توجه اليه العلماء والفقهاء من الأطراف لأجل مقابلة الحديث وأخذ العلوم الدينيَّة فأصبحت هراة على عهده مدرسة كبرى . وأمر السلطان المذكور حاكم بلاد خراسان بأن يحضر والد السلطان المذكور محمد خدا بنده ميرزا في كل جمعة بعد الصلاتين لاستماع الحديث ، وأمره بالانقياد لأوامر الشيخ ونواهيه ثم ذهب إلى قزوين وترخص من السلطان له ولولده البهائي في زيارة بيت الله الحرام فأذن له خاصة ولم يرخص البهائي وأمره بالإقامة هناك لاشتغاله بالتدريس . ثم لما ذهب للحج وعزم على المجاورة ورأى في منامه ما رأى سكن البحرين .

٦ ـ الشيخ البهائي محمد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي الجبعي الحارثي المتوفي سنة ١٠٣١ هـ .

هو أول من أنكر ثمرة مسألة الضد ، ومسألة الضد من المسائل الأصولية المهمة التي هي محل بحث وجدال عند علماء الأصول من الشيعة وغيرهم . وثمرتها عندهم هي فساد العبادة إذا كانت ضدّاً للمأمور به بناءً على القول باقتضاء الأمر بالشيء النهي عن أضداده الخاصة ، وعدمه على القول بعدم الاقتضاء . وإنما تفسد بناءً على الاقتضاء لأنها عبادة منهيٌّ عنها . وهناك قاعدة أخرى وهي أن النهي عن العبادة يقتضي فسادها . والبهائي « ره » أنكر هذه الثمرة بدعوى أن الفساد لا يتوقف على القول بالاقتضاء الآنف ، بل يكفي عدم الأمر بالضد الآخر في ظرف الأمر بضده المزاحم له . والعبادة محتاجة إلى الأمر إذ بدونه لا تكون عبادة ، بل ربما كان فيها نوع من التشريع . وربما يكون غرضه أنه في ظرف مزاحمة الضدين اللذين يكون أحدهما أهم والآخر مهماً ، لا يكون في المهم أمر ليتقرب بامتثاله في جميع مراتب الأمر من الاقتضاء والشأنية والفعليّة ، بناء عليها كما يؤيده اطلاق الكلام . وأجابوه : بكفاية مجرد الرجحان والمحبوبية في التقرب ، وهو المراد بالملاك . كما أننا إذا قلنا بأن مرتبة

الاقتضـاء من مـراتب الأمـر ، وقلنـا إنها هي عـين الـرجحـان الـذاتي المقتضي للمحبوبية والرجحان ، أو قلنا أن المحبوبية ترجيح وهو متأخر رتبة عن الرجحان الذاتي « الترجح » يكون الأمر بناء على أن ما مـر مرتبـة من مراتبـه غير منتفٍ في المرتبة الأولى من مراتبه . ونحن فعلاً نوافق على إمكان التقرب بما هـو محبوب ، وإن لم يأمر به المولى ونشكك في تعدد مراتب الأمر .

وللبهائي مؤلفات تزيد عن الخمسين مؤلفاً وقـد طبع كثـير منها ولا يـزال بعضهـا يدرس في الجـامعات الـدينية : كتشـريح الأفـلاك « هيئة » وكخـلاصـة الحسـاب وكالصمـدية « نحـو » ولعل أشهـر كتبه وأكثـرها تـداولا الكشكـول ، والمخلاة ، وكتاب الأربعين ، ومفتاح الفـلاح . والحبل المتـين ، ونانـا حلوى . ولعله أول من نظم الشعر ممزوجاً من عربي وفارسي . وله قصيدة رائيـة في مدح المهدي عليه السلام قد اعتنى بها أهل الفضل فشرحت شرحين أحـدهما للشيـخ جعفر نقدي وقد طبع في مجلدين ضخمين . وله يـد طولى في علوم كثيـرة بل في كـل علم من العلوم التي كانت معـروفة في زمـانه . وقـد حكى عنـه المؤرخـون غرائب القصص التي كادت تلحق بمنسوجات الخيال لولا تـواتر نقلهـا ولولا علو شأنه وعظم قدره .

وعن سلافة العصـر ، بعدمـا أسهب في مدحـه والثناء عليـه ، أنه قـال : أخبرني بعض ثقات الأصحاب أن الشيخ « ره » قصد قبل وفاته زيـارة المقابـر في جمع من الأجلاء الأكابر فما استقر بهم الجلوس حتى قال لمن معه إني سمعت شيئا فهل فيكم من سمعه ؟ فأنكروا سؤاله واستغربوا مقالـه ، وسألـوه عما سمعـه ، فأوهم وعمّى في جوابه ثم رجع إلى داره فاغلق بابـه فلم يلبث أن أصاب داعي الردى فأجابه وكانت وفاته سنة ١٠٣١ هـ . باصبهان ونقل إلى طوس فدفن فيها وعلى محل قبره اليوم بنية فخمة تمثل عظمـة الفن في العصر الحـاضر في إيـران ، وإيران من البلدان الصناعية بطبعها .

وعن المجلسي الأول في تـرجمة أستـاذه الشيخ بهـاء الدين أنـه سمع قبـل وفاته بستة أشهر صوتاً من قبـر بابا ركن الدين وكنت قـريباً منـه فنظر إلينـا وقال سمعتم ذلـك الصوت ؟ فقلنـا لا . فـاشتغـل بـالبكـاء والتضـرع والتـوجـه إلى

الآخرة ، وبعد المبالغة العظيمة قال : إني أخبرت بالاستعداد للموت وبعد ذلك بستة أشهر تقريباً توفي وتشرفت بالصلاة عليه مع جميع الطلبة والفضلاء وكثير من الناس يقربون من خمسين ألفاً انتهى ، ولفظه ما سمعه (شيخنا درفكر خودباش) وترجمة ذلك إلى العربية : يا شيخنا كن في فكر نفسك ، أي اشتغل بالفكر في أمر نفسك . وفي الكنى والألقاب أيضا أن بعض الأعلام سمع من القاضي معز الدين محمد أقضى القضاة في أصبهان أنه قال : رأيت ليلة من الليالي أحد أئمتنا عليهم السلام في المنام فقال لي أكتب كتاب مفتاح الفلاح وداوم العمل بما فيه ، فلما استيقظت ولم أسمع اسم الكتاب قط من أحد تصفحت علماء أصفهان فقالوا لم نسمع بهذا الكتاب وفي ذلك الوقت كان الشيخ الجليل مع معسكر السلطان في بعض نواحي إيران فلما قدم الشيخ بعد مدة إلى أصبهان استفهمت منه أيضاً عن هذا فقال صنفت في هذا السفر كتاب دعاء سميته : مفتاح الفلاح ، إلا أني لم أذكر اسمه لأحد من الأصحاب ولا أعطيت نسخته للانتساخ لأحد من الأحباب فذكرت للشيخ المنام فبكى وناولني النسخة التي كانت بخطه وأنا أول من انتسخ ذلك الكتاب من خطه طاب ثراه . انتهى .

٧ ـ المحقق الثاني الشيخ علي الكركي العاملي صاحب جامع المقاصد المتوفي سنة ٩٤٠ هـ[١] .

هو أول من نبه على نظرية « الترتب » وقال فيها وأنكر على أساسها ثمرة الضد . ونظرية الترتب من أدق النظريات العلمية ، ولا تزال موضع بحث عند العلماء حتى الساعة . فبينما كان المحقق الخراساني صاحب « كفاية الأصول » يرى الترتب محالاً وإذا بأستاذنا الأوحدي آية الله السيد محسن الحكيم وشيخ مشائخنا المرحوم آية الله النائيني يعدانها من البديهيات .

---

(١) راجع الكنى والألقاب ج ٣ ص ١٣٣ وقد اعتمدناه في تاريخ الوفيات دون « أمل الآمل» لرداءة طبعه وكثرة أغلاطه وقد اعتمد صاحب الكنى والألقاب على عدة مصادر موثوق فيها وهو من أعظم محدثي هذا العصر ومؤرخيهم وهو أحد رجالات « قم » وقد توفي قريباً رحمه الله تعالى .

وبما أنا لا نكتب لطبقة خاصة من القراء وإنما نكتب للعالم أجمع وجب علينا أن نشير إلى مبادىء هذه النظرية أو إلى الجهة التي تتعلق فيها ، لأن في الناس قسماً وافراً يتذوق هذه المباحث وتستشرف لها نفسه ، ومنهم المثقفون بالثقافة الاسلامية ، فإن علم الأصول وإن اشتمل على جملة من المباحث العقلية ، إلا أن علقته باللغة أكيدة ولا سيما باللغة العربية ، والأصول من أهم ما يعتمده الفقهاء في استنباط الأحكام الاسلامية وفي فهم المواد الكبرى والقوانين الشريفة التي جاء بها نبيهم الأعظم محمد ﷺ في تطبيقها على مواردها .

قالوا إن ثمرة الضد تظهر في موردين :

أولهما صورة المزاحمة بين الواجب المضيق وبين الواجب الموسع إذا كان عبادة وكان الأمر بالمضيق يقتضي النهي عن ضده الخاص فتكون العبادة الموسعة منهيًّا عنها ، فتقع فاسدة لو ترك المكلف الواجب المضيق وأتى بالعبادة الموسعة ، لاقتضاء النهي فساد العبادة المنهي عنها .

ثانيهما صورة مزاحمة الأهم والمهم في المضيقين ، فإن المهم إذا كان عبادة وقلنا بالاقتضاء ، وترك المكلف الأهم ، وفعل المهم ، كانت عبادته فاسدة لما مر .

وقد أنكر الشيخ البهائي هذه الثمرة وادَّعى فساد العبادة حتى بناء على عدم الاقتضاء ، وقد أورد المحقق الثاني على إنكار الثمرة بالطريق المحكي عن البهائي إيراداً مهماً وقد أوضحه المتأخرون واسهبوا فيه ويتضح بملاحظة أمور :

١ ـ أن الأمر هل هو متعلق بالطبائع أو بالافراد ؟ قولان . والحق أنه متعلق بالطبائع بما أنها مرآة للأفراد .

٢ ـ أن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد الموجودة في متعلقها لا في نفس الأمر والنهي .

٣ ـ أن التقرب بالشيء هل يتوقف على ثبوت الأمر به ، أو يكفي في

إمكان التقرب به كونه محبوباً للمولى وإن لم يأمر به ؟ الحق كفاية المحبوبية ، لأنا نجد من أنفسنا أنا نتقرب لغيرنا بما يحبه وإن كان لم يأمر به « فـالملاك كـافٍ » في التقرب .

٤ ـ أن النهي عن العبـادة يقتضي الفسـاد ، ولكن ذلـك مختص بـالنهي النفسي لأنه هو الذي يدل على مفسدة في متعلقه لما مر الأمر الثاني وأما التبعي كما في باب نهي الضد المضيق عن ضده الموسع بنـاء عليه فـلا يدل عـلى مبغـوضية متعلقـة ، لأن النهي عنه حينئـذ إنما جـاء من جهة المـلازمة بـين فعل المضيق وترك الموسع أو مقدميته له لا من جهة مفسدة فيه .

٥ ـ أن القـدرة التي هي شرط التكليف التي يكـون فقدهـا موجبـاً لانتفاء الأمر كما في صورة مزاحمة الموسـع بالمضيّق والمهم بـالأهم ، هل هي شـرط عقلي جاء من جهة قبح تكليف العاجز « بالمحال » أو أنه جـاء من جهة اقتضـاء نفس التكليف لـه ، لأن التكليف عبـارة عن إيجـاد الـداعي للمكلف ويمتنـع إيجـاد الداعي لما هو غير مقدور ، فإن البعث للممتنع ممتنع كـالانبعاث اليـه؛ ألا ترى أن العـاقـل لا يتحـرك لتحصيـل الممتنعـات ، وهـو كـذلـك لا يحـرك غيـره لتحصيلها .

٦ ـ أنه إذا أمكن التعليل بأمر ذاتي وآخر عرضي ، قدم الذاتي لسبقه طبعاً فيستند التأثير له دون العرضي المتأخر وجوداً ، فإن العلة الأولى كافية في التأثير ولا يمكن بعد وجود المقتضي وعدم المانع انفكاكها عنه ، والثانية لا يعقل أن تؤثر لأنه يلزم من ذلك تحصيل الحاصل علتين على معلول واحد ، ونفي التأثير عن المؤثر الأول بلا سبب.

٧ ـ أننا لو قلنا بأنه لا فرق بـين النهي النفسي والتبعي في اقتضائـه الفساد إلا أنـه لا مفر عن التفـرقـة بـين النهي المتعلق بنفس الشيء وبـين النهي المتعلق بمقدماته فإن الثاني لا يقتضي الفساد قطعاً والنهي عن الفرد المزاحم للمضيق انما هو نهي عن مقدمات متعلق الأمر وهـو الطبيعـة كما عن المحقق القمي صـاحب القوانين.

إذا فهمنا هذه الأمور أمكننا أن نشير إلى نظرية المحقق الثاني ، وأن نعرف

الجهات التي دار البحث حولها بين جملة من عظماء المفكرين .

إن المحقق الثاني أورد على من أنكر ثمرة الضد في صورة المزاحمة بين الموسع والمضيق بأنه : إن قلنا بكفاية « الملاك » لزمنا القول بصحة العبادة حتى على القول باقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضده الخاص ، لأن النهي عنه يكون حينئذٍ تبعيّاً وهو لا يدل على مفسدة في متعلقه لما عرفته في الأمر الرابع غاية الأمر أنه يقضي بارتفاع الأمر فيه من جهة العجز عن امتثاله شرعاً لمزاحمته بالمضيق والممتنع شرعاً كالممتنع عقلاً وذلك لا يستلزم ارتفاع المصلحة « الملاك » لكونها من ذاتيات المتعلق ، ولو قلنا بأن التبعي يقتضي الفساد فإنا نقول إن النهي هنا عن مقدمات متعلق الأمر لا عن نفسه ، راجع الأمر - ٧ - وأما لو لم نقل باقتضاء الأمر بالشيء للنهي عن ضده الخاص فبقاء الملاك أوضح . هذا إن قلنا بكفاية الملاك ، وأما إذا قلنا بتوقف التقرب على الأمر فلا محيص عن القول بالفساد لأن الأمر بالموسع منتفٍ من جهة المزاحمة بالمضيق ولا يختلف الحال سواء قلنا بأنه منهي عنه أو أنه غير منهي عنه . فالمحقق الثاني يوافق البهائي في إنكار الثمرة لكنه يقول بالصحة إذا قلنا بكفاية الملاك سواء قلنا بالاقتضاء في باب الضد أو لم نقل ، ويقول بالفساد بناء على عدم الاكتفاء به والتوقفِ على الأمر سواء قلنا بالاقتضاء في باب الضد أو لم نقل .

وهناك طريق آخر لإثبات الصحة حتى بناء على توقف التقرب على الأمر وعدم الاكتفاء بالملاك ، وهو أن المضيق إنما يزاحم الفرد فيمتنع الأمر به من أجل المزاحمة دون أصل الطبيعة لأن المضيق لا يزاحمها من جهة إمكان تحصيلها في فرد غير مزاحم بالمضيق . وقد عرفت في الأمر الأول أن الأوامر متعلقة بالطبائع ، فإذا أتى بالفرد المزاحم انطبقت عليه الطبيعة قهراً لأنه فرد منها فيجزي والانطباق قهري ، والإجزاء عقلي وقد نوقش في هذا الطريق بأن القدرة المفقودة هنا ليست عقلية ليتم ما مر وإنما هي من جهة اقتضاء نفس التكليف فيكون الأمر وارداً على الطبيعة المقيدة بالأفراد المقدورة ، فالفرد المزاحم لا يكون فرداً للطبيعة المأمور بها لتنطبق عليه قهراً فلا إجزاء ، راجع الأمر - ٥ - وههنا مباحث أدق مما أسلفناه تتعقبها نظرية الترتب التي هي من أدق النظريات

الأصولية وأشكلها : ولم نذكر ما مر إلا أنموذجاً للدروس الأصولية التي يتوقف عليها الاجتهاد الذي لا يزال بابه مفتوحاً عند الشيعة الإمامية الذين امتازوا على سائر أهل الملل والأديان بإلزام كل مكلف بوجوب البحث والفحص عن معتقداته كل بحسب حاله بينما نرى كثيراً من أهل الملل والنحل يحرمون الخوض في المسائل الاعتقادية والبحث في جميع المسائل الدينية .

قيل إن البهائي اجتمع بالمحقق الثاني في اثناء سياحته وكان يدعو لتقليد[1] نفسه ، وبعد ذلك أصبح يدعو لتقليد المحقق الثاني اعترافاً بتفوقه عليه . ولست أكبر الكركي بقدر إكباري للبهائي رحمهما الله تعالى . وقد قال صاحب الجواهر وهو علامة وقته : مَن كان عنده جامع المقاصد والوسائل والجواهر لا يحتاج بعدها إلى كتاب آخر للخروج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الفرعية[2] . وفي الكنى والألقاب : قال صاحب الرياض وقال حسن بيك روملو المعاصر للشيخ في تاريخه بالفارسية ما معناه : إنه بعد الخواجة نصير الدين لم يُسمع أحد سعى أزيد مما سعى به الشيخ علي الكركي في إعلاء أعلام المذهب الحق الجعفري وكان له مساع جميلة في منع الفجرة والفسقة وزجرهم وقلع قوانين المبتدعة وقمعها ، وفي إزالة الفجور والمنكرات ، وإراقة الخمور والمسكرات ، وإجراء الحدود والتعزيرات ، وإقامة الفرائض والواجبات ، والمحافظة على أوقات الجمعة والجماعات ، وبيان احكام الصيام والصلوات ، والفحص عن أحوال الأئمة والمؤذنين ، ودفع شرور المفسدين ، وزجر مرتكبي الفسوق والفجور حسب المقدور ، ورغّب عامة العوام في تعلم الشرائع وأحكام الاسلام ونقل حسن بيك أن محمود بيك مهردار كان ألد الخصام له فكان يوماً في ميدان صاحب آباد يلاعب بالصولجان وكان الشيخ مشغولاً بالدعاء السيفي عصر يوم الجمعة فلم يتم دعاءه حتى وقع محمود بيك من فرسه واضمحل رأسه . انتهى[3] .

(١) هو أخذ احكام الدين في الفروع من المجتهد نظير الرجوع للأئمة والفقهاء في عصر الدولة العباسية .

(٢) مستدرك الوسائل .

(٣) الكنى والألقاب .

والمحقق الثاني هو أول من نشر التشيع في إيران وقد كان التشيع موجوداً فيها منذ تولي الرضا عليه السلام ولاية العهد في زمن المأمون وقد كانت « قم » في زمن العسكري عليه السلام جامعة كبرى منها يتخرج فقهاء الشيعة فما قاله شكيب ارسلان من أن التشيع فيها أحدث منه في كل مكان ، قول بعيد عن الصواب إلا أن يكون الحصر إضافيّاً . وقد رد عليه بعض الايرانيين ردًّا مشبعاً بالحقائق التاريخية على اختصاره[1] وللمحقق الثاني مؤلفات كثيرة معروفة مشهورة أشهرها جامع المقاصد وقد عدَّ له في الكنى والألقاب أحد عشر مؤلفاً ثم قال وله مؤلفات غيرها ولعله حكى ذلك عن أمل الآمل .

٨ ـ السيد جواد العاملي من شقراء صاحب مفتاح الكرامة :

هو أول من خصص كتاباً لجمع أقوال العلماء في كل مسألة . وكان الغرض من ذلك تسهيل الأمر على الطلاب والعلماء بمراجعة هذا الكتاب بدلاً عن مراجعة الكتب الكثيرة ، وهناك غرض آخر أهم وهو التحرج من نقل الاجماع في مورد الخلاف . وقد طبع هذا الكتاب في مصر ولم ينل ما يستحقه من الحظ ، حتى أن مطريه لا يقتنيه ، ولله أسرار وشؤون لا نعرفها ، وسمعت من أستاذنا الأوحدي الحكيم عن النائييني أن ابن أحد أساتيذه في إيران كان يؤلف في هذا الموضوع وكان ينقل عبارات الفقهاء بنصها فيكون المؤلفون فيه اثنين أولهم صاحب مفتاح الكرامة .

٩ ـ الشهيد الأول محمد بن مكي المستشهد سنة ٧٨٦ هـ والمولود سنة ٧٣٤ هـ .

له اللمعة الدمشقية وقد شرحها الشهيد الثاني ووسم الشرح بالروضة وقد قلنا إنه لا يزال يدرس حتى اليوم ، وقد اتفق من رأيناه وتعرض له أنه ألفه في السجن في دمشق قبل شهادته ، وأنه أتمه في سبعة أيام ولم يكن يحضره من كتب الفقه إلا المختصر النافع ، ومما يعرف عن اللمعة أنه تعرض فيها للمشهورات ،

---

(١) راجع م ٢ من العرفان فانه نقل فيه مقال الأمير إرسلان والمقال الذي هو رد عليه .

ومن أجل ذلك توهم كثير من أهل العلم أن ما ذكر فيها يوافق المشهور فتوى ، وعليه فكل ما أفتى به الشهيد أو حرره فيها يمكن للفقيه أن يحكي عن الشهيد نسبته للمشهور ، وهذا من الأغلاط الشائعة لكثرة ما فيها مما يخالف المشهور بل المراد المشهور تحريراً ، فإن بعض المسائل يحررها كل مؤلف وبعضها يحررها بعض المؤلفين ، واللمعة من النوع الأول . وقد ذكر له الحر العاملي في أمل الآمل خمسة عشر مؤلفاً .

والشهيد الأول هو أول من لقب بالشهيد ، وأول من هذب كتب الفقه عن نقل أقوال المخالفين ، وقد أجازه فخر المحققين وهو ابن سبع عشرة سنة ٧٥١ هـ وأجازه السيِّد عميد الدين وابن نما ، بعد هذا التاريخ بسنة ، وكذلك ابن معية بعده بسنة ، ومن تأمل طرق إجازات علمائنا وجدها كلها أوجلها تنتهي اليه على كثرتها . وقد قال في إجازته لابن الخازن : وأما مصنفات العامة ومروياتهم ، فإني أرويها عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم بمكة ، والمدينة ودار السلام بغداد ، ومصر ، ودمشق ، وبيت المقدس ، ومقام الخليل ابراهيم . وهو ينتسب من طرف الأم لسعد بن معاذ ـ راجع الكنى والألقاب فقد اعتمدناه في هذا وغيره مما مر ـ .

وللشهيد الأول من التنبهات في الفقه ما ليس لغيره من العلماء . وقد بلغ من الاستحضار مبلغاً عظيماً ناهيك عن أنه ألف اللمعة في السجن في سبعة أيام ، وقد استدرك على الفقهاء أموراً كثيرة في مقام الوضع التأليفي فكانوا يخصون الخيارات وموانع الارث بعدد مخصوص فزاد عليهم كثيراً فيها وفي غيرها ، كما أنهم قد يعنونون البحث بعنوان يوجب عدم انطباقه كما في خيار ما يفسد ليومه فنبه رحمه الله أنه إذا فسد لا مجال للخيار وعنونه بخيار ما يفسده المبيت ، وذلك كثير جدًّا لا يقع تحت الاحصاء .

وأهم نظرياته الدقيقة التي تحضرنا الساعة نظريته في كيفية استخراج النسبة بين الصحيح والمعيب وينبغي أن نبسط هذه النظرية هنا لأنها لا تختص بالفقيه .

قالوا لو باع شخص عيناً شخصية باثني عشر درهماً مثلاً فظهرت معيبة

تخيّر المشتري بين الرد وبين الامضاء مع الأرش . وقد نفى فيه الخلاف شيخنا المرتضى في مكاسبه ، وعلى هذا فلو اختار الثاني قومت العين صحيحة ومعيبة ولوحظت النسبة واسترجع من الثمن بنسبة التفاوت بين الصحيح والمعيب .

فلو قومت صحيحة بعشرة ومعيبة بخمسة كانت نسبة التفاوت بالنصف فيسترد نصف « المسمى » وهو الثمن الذي جرى عليه العقد وهذا واضح . ولكن لو اختلف المقومون وأريد الجمع بين أقوالهم فما هي الطريقة الصحيحة لاستخراج نسبة التفاوت ؟ وقد نسب القول بلزوم الجمع للمعظم في المكاسب ، قيل : تلحظ مجموع قيم المعيب ثم يؤخذ منها كسراً مضافاً إلى عدد المقومين فمن الاثنين نصفاً ومن الثلاثة ثلثاً وهكذا ، ولعل هذا القول هو المعروف . وقيل : تلحظ كل واحدة من قيم الصحيح مع واحدة من قيم المعيب . ثم يؤخذ من المسمى بنسبة كسر مضاف إلى عدد المقومين : فلو فرض أن قيم الصحيح ثلاثة وقيم المعيب ثلاثة لوحظت الثلاثة مع الثلاثة كل واحدة مع واحدة ثم يؤخذ من المسمى ثلث نسبة التفاوت ، فلو كان التفاوت بين إحدى قيم الصحيح وإحدى قيم المعيب بالخمس وبين القيمة الثانية للصحيح والقيمة الثانية للمعيب بالسدس ، وبين القيمة الثالثة للصحيح والقيمة الثالثة للمعيب بالسبع ، أخذ ثلث الخمس وثلث السدس وثلث السبع من المسمى وهذا القول ينسب للشهيد الأول .

وهاتان الطريقتان ، قد تتحدان نتيجة وقد تختلفان . ويتضح ذلك بملاحظة الأمثلة الآتية . وليعلم أن المراد بالمسمى هو القيمة التي وقع عليها العقد .

١ ـ لو كان ما جرى عليه العقد اثني عشر درهماً ، ثم قومت صحيحة باثني عشر تارة وبستة أخرى ، وقومت معيبة بأربعة تارة وباثنين أخرى، كانت نتيجة ملاحظة مجموع قيم الصحيح وهي ثمانية عشر مع ملاحظة مجموع قيم المعيب وهي ستة ، هو التفاوت بالثلث[1] فيسترد ثلث « المسمى » . وهو أربعة

---

(١) إن طريقة استخراج النسبة عند غير الشهيد تحصل بأخذ كسر مضاف إلى عدد مقومي الصحيح=

من اثني عشر . وهذه النتيجة بعينها تحصل على مذهب الشهيد ، فإنا إذا لاحظنا الأثني عشر مع الأربعة ،كانت نسبة التفاوت بالثلث فيسترد نصف ثلث المسمى . ثم إذا لاحظنا الستة مع الاثنين كانت نسبة التفاوت أيضاً بالثلث، فيسترد من المسمى أيضاً نصف الثلث فالمشتري يستحق من المسمى نصف الثلثين، وذلك ثلث واحد، وهذه النتيجة كانت حاصلة بعينها على المذهب المعروف .

٢ ـ لو كان ما جرى عليه العقد اثني عشر ، ثم قومت صحيحةً باثني عشر تارة ، وبثمانية أخرى ، وقومت معيبة بعشرة تارة وبخمسة أخرى . فإنا إذا لاحظنا مجموع كل منهما مع الأخرى ، كانت نسبة التفاوت بالربع فيسترد من المسمى ربعه، وهو ثلاثة من اثني عشر . وإنما كان التفاوت بالربع لأن مجموع قيم الصحيح عشرون ، ومجموع قيم المعيب خمسة عشر، فيكون حاصل ما استرده من المسمى على المذهب المعروف ثلاثة .

ولو لاحظنا العشرة التي هي إحدى قيم المعيب مع الاثني عشر التي هي احدى قيم الصحيح ، كان التفاوت بينهما بالسدس . فيسترد نصف سدس المسمى لأن مخرج الكسر اثنان وهو عدد المقومين ، ونصف سدس الاثني عشر واحد فقط . وإذا لاحظنا الثمانية، وهي إحدى قيم الصحيح مع الخمسة ، وهي إحدى قيم المعيب ، كان التفاوت بينهما بثلاثة أثمان . فيسترد من المسمى نصف ثلاثة أثمانه، ونصف ثلاثة أثمان المسمى وهو اثنا عشر اثنان وربع وكان نصف سدسه واحد، فيكون حاصل ما استرده على مذهب الشهيد ثلاثة وربعاً، وقد زاد عن المتحصل على المذهب المعروف بربع درهم .

٣ ـ لو كان ما جرى عليه العقد اثني عشر، ثم قومت صحيحة بعشرة

= ثم أخذ كسر مضاف إلى عدد مقومي المعيب ، ثم ملاحظة الكسرين . وهذه الطريقة تجري إذا اتحد العددان، وأما إذا قوم المبيع صحيحاً بقيمة واحدة ومعيباً بأكثر أو بالعكس فكذلك لك إذ لا عدد في جانب المقوم بقيمة واحدة ليؤخذ منه كسراً ، وأما لو تعدد المقومون لهما ، واختلفا عدداً فلا بد من فرض طريقة أخرى ، أقلها فرض قيم ليتساوى العدد ، وهذا بعينه يجيء على طريقة الشهيد ، إذ لا بد حينئذ من تكرر ملاحظة القيمة الواحدة ، مع كل من القيم المتعددة ونحن الآن مثلنا بأمثلة متساوية عدداً في كل من الصحيح والمعيب واستخرجنا النسبة على طريقة غير الشهيد بملاحظة المجموع مع المجموع ، لأن ذلك لا يختلف حالاً عن ملاحظة الكسرين .

تارة وبثمانية أخرى ثم قومت معيبة بستة فقط فعلى المذهب المعروف تجمع قيم الصحيح ، وهي العشرة والثمانية في الفرض فتكون ثمانية عشر ثم يؤخذ نصفها ، وهو تسعة ، ثم ينسب لقيمة المعيب وهو ستة فيكون التفاوت بالثلث فيسترد ثلث « المسمى » وهو أربعة من اثني عشر ، وكذا الحال لو فرض أن العين قومت معيبة من اثنين فقومها كل منهما بستة ، كان ملاحظة مجموع قيم الصحيح ، وهي ثمانية عشر مع مجموع قيم المعيب ، وهي اثنا عشر في الفرض لكونها ستة وستة ، ينتج كون التفاوت بالثلث فيسترد ثلث المسمى، وهو أربعة من اثني عشر . وهذا هو الذي أشرنا اليه في الهامش الآنف . وأما على مذهب الشهيد ، فإن الستة تلحظ تارة بالنسبة للعشرة ، فيكون التفاوت ، بخمسين فيسترد من المسمى خمساً واحداً لأنه هو نصف نسبة التفاوت ، وهو واحد وخمس الواحد . وتلحظ الستة تارة ثانية بالنسبة للثمانية ، ونسبة التفاوت بين الستة والثمانية بالربع ، فيسترد نصف ربع المسمى ، وهو واحد ونصف ، لأن ربع الاثني عشر ثلاثة ، ونصفها واحد ونصف ، وقد استرد آنفاً واحداً وربعاً ، فيكون مجموع ما يسترده على المذهب المعروف أربعة ومجموع ما يسترده على مذهب الشهيد، اثنين ونصفاً ونصف الخمس، وهو ثلاثة إلا خمساً ونصف الخمس، وبين كل من المتحصلين فرق بعيد وتفاوت شديد .

والذي ينبغي أن يدور حوله البحث عند الفقهاء . أمران :

الأول : عما يوافق عليه القانون الاسلامي من الكتاب ، والسنة ، والعقل ، والاجماع ، من سقوط جميع القيم ، والرجوع للأصول الموضوعة أو تقديم بينة الأقل ؟ أو تقديم بينة الأكثر أو الرجوع للقرعة ، أو الرجوع للصلح ، أو تخيير الحاكم ، أو إلحاق المقام بباب الخصومة أو إعمال المرجحات بين أقوال المقومين ، أو الجمع بينها بأحد الطريقين الآنفين أو بطريق ثالث، احتمالات .

الثاني : أن الأدلة إذا عينت الجمع بين القيم فأي الطريقين أقرب للصواب ؟ هل هو طريق الشهيد الذي وافقه عليه جملة ممن تأخر عنه من عظماء العلماء ، أو الطريق المعروف ، أو الطريق الثالث الذي سنذكره ؟ولأجل معرفة

الحق ينبغي ملاحظة أسباب التفاوت ، وانه كيف ينشأ هذا التفاوت بمجرد اختلاف اللحاظ ، مع كون الملحوظ أمراً واحداً[1] .

والذي تقتضيه الأدلة هو أحد أمرين : إما سقوط البينات والرجوع للأصول ، وإما الجمع بينها . فإن احتمال السقوط والرجوع للأصول ينشأ من جهة المعارضة وانتفاء المرجح، وامتناع شمول دليل الحجية للمتعارضين، للزوم تناقضه في نفسه بعد فرض طريقته لاستلزامه كون كل منهما حجة بالدلالة المطابقية ، وكونه ليس بحجة بالدلالة الالتزامية . وهذا هو التناقض ويلزمه دخوله في دليل الحجية وخروجه عنه ، من جهة كون الإمارات حجة في مدلولها المطابقي والالتزامي على حد واحد . كما أنه بعد المعارضة لا يمكن أن يكون أحدهما المردد حجة لامتناع وجوده خارجاً ، وللزوم التناقض أيضاً لكونه داخلاً في الدليل وغير داخل فيه في آن واحد . وإذا سقطت البينات ، فالمرجع الأصول الموضوعة المقررة في محلها وأصالة البراءة محكمة ، إذا قلنا بتعلق الأرش بالذمة ، كما هو الحق، لكون الثمن ينتقل للبائع بالعقد ، ولكون الأرش على خلاف الأصل، ويؤيده أن البائع له أن يدفع الأرش من غير المسمى قطعاً . وأما إذا قلنا بتعلق الأرش بالثمن ، كان استصحاب تعلق حق المشتري ببعض الثمن المشكوك محكماً، فيجب على البائع أن يرجع ما يعلم باستحقاق المشتري له وما يحتمله . وهذه الأصول كلها مبرهن عليها في محلها . والشيخ المرتضى (ره) لم يتعرض لاحتمال التساقط والرجوع للأصول مع أن القواعد تعينه .

وينشأ احتمال تقديم بينة الأقل من جهة ترجيحها بأصالة البراءة الآنفة . وفيه : أن الاصل ليس في مرتبتها فلا يعقل ترجيحها به ، وأن الترجيح بأمر ما ظن ، والظن ليس بحجة ما لم تثبت حجيته بدليل قطعي، لأن حجية القطع ذاتية، وحجية الظن غيرية وما بالغير لا بد وأن ينتهي إلى ما بالذات، وإلاَّ دار أو تسلسل . والأخذ بالأقل بعد التساقط بالتعارض ليس من باب ترجيح بينة

---

(١) قلنا عند التعرض لنظرية المحقق الثاني إنا لا نكتب لطبقة خاصة من الناس كما أننا نحب أن نقدم للقراء أنموذجا من الدروس الفقهية ، أو الحقوقية الجعفرية التي تدرس في الجامعات الشيعية ، ويعد من اتقنها مجتهداً عندهم ، ومما ذكرناه يمكن أن يعرف معنى الاجتهاد .

الأقل ، بل من باب الرجوع لحجة ثانية بعد سقوط الحجة الأولى .

وينشأ احتمال تقديم بيّنة الأكثر ، من جهة توهم عدم معارضتها ببينة الأقل ، لأنها تثبت الزائد وتلك لا تنفيه . أو من جهة أن البينة المثبتة تقدم على النافية وإن تعرضت للنفي، وفيه : أولاً أن بينة الأقل تنفي الأكثر لما تقرر في محله من حجية لوازم الإمارات ، وثانياً أن تقديم البينة المثبتة مختص بباب الخصومة لأن المثبتة توافق المدعي غالباً وهو مكلف بها دون المنكر ، وثالثاً أنا لا نسلّم أن المثبتة تقدم مطلقاً ، ورابعاً أن الكلام في مطلق الحجة ولو من باب حجية قول أهل الخبرة لا في خصوص البينة . فالدليل أخص من الدعوى ، وهذا يجري في كثير مما مر ويأتي .

وينشأ احتمال القرعة، من جهة ورودها لكل أمر مشتبه (بفتح الباء أو كسرها) وفيه : أنها مهملة لأمور ، منها : أننا لو أخذنا بعمومها لزم سد باب الأصول والإمارات بأجمعها لأنها ترفع موضوعها . ولعل هذا هو السر في عدم عمل العلماء بها إلا في موارد خاصة إلا أن يقال بأن الأصول والإمارات تقدم عليها ، لأنها ترفع الاشتباه تعبداً . ومنها : أن العمل بها يستلزم تأسيس فقه جديد يخالف ما هو ضروري عند المسلمين . ومنها : إعراض الفقهاء عن العمل بأدلتها مع صحتها سنداً . فلا تجري فيها الأصول العقلائية لإحراز جهة الصدور ، فتسقط عن الحجية وإن أحرز نفس الصدور .

وينشأ احتمال الصلح من جهة تشبث كل منهما بحجة شرعية ظاهرية ، بعد كون المورد غير قابل للحلف ، لجهل كل منهما بالواقع . وفيه : أنه مع إمكان الجمع أو السقوط والرجوع للأصول ، لا مجال له إلا أن يتراضيا عليه . وذلك أمر آخر إذ لكل منهما أن يسقط تمام حقه إذا شاء .

وينشأ احتمال تخيير الحاكم من جهة امتناع الجمع ، وفقد المرجح وسعة ولا يته وفيه : أنه ممنوع ، وأن القدر الثابت من ولايته هو ولايته على ما كان يتولاه القضاة في ذلك العصر خاصة ، ولم يعلم ثبوت ولايتهم على مثل ما نحن فيه .

وينشأ احتمال إلحاقه بباب الخصومة من جهة تنازع البائع والمشتري . وفيه : أن الشبهة حكمية وفيها تنحسم الدعوى بالفتوى، إلا أن يكون المتخاصمان مجتهدين أو مقلدين لمختلفين ، فإنها لا تنحسم حينئذ إلا بالحكم وينفذ عليهما وإن خالفهما معاً أو خالف أحدهما ووافق الآخر .

وينشأ احتمال ترجيح إحدى البينات بالمرجحات الواردة في ترجيح الأخبار التي يمكن انطباقها هنا من جهة دعوى شمولها لها ولو بتنقيح المناط ، العلة المستنبطة . وفيه : أن ورودها في الأحكام لا يستلزم اطرادها في الموضوعات ، والمناط ظني والظن لا يغني عن الحق شيئاً والترجيح بالمرجحات في خصوص المقام لا دليل عليه .

وينشأ احتمال الجمع بينها من جهة دعوى شمول دليل الحجية وعدم قصوره في ذاته ، ومن جهة أن المخالفة القطعية لكلا الدليلين مع الموافقة القطعية لهما أولى من المخالفة الاحتمالية لهما مع الموافقة الاحتمالية لهما . ومن جهة قاعدة العدل والانصاف ، ومن جهة أن الجمع بين الدليلين مهما أمكن أولى من الطرح . ومن البديهي أنه إذا قوم العين شخص بعشرة فقد قوم كل نصف منها بخمسة وإذا قومها الآخر بأربعة فقد قوم كل نصف منها بأثنين فإذا جمعنا بينهما نكون طرحنا قول كل منهما في نصفها وعملنا بكل منهما في النصف الآخر وفيه أن ذلك كله لا دليل عليه. والتحقيق أن حجية البينة إن كانت على جهة الطريقية تعين ما مر من التساقط، وإن كانت على جهة الموضوعية لم يتعين التصنيف بل كان له أن يتخير بين أيهما شاء، وبين أن يبعض حسبما يشاء، لأن ذلك هو الذي تقتضيه القواعد. إذا عرفت ما ذكرناه آنفاً ، عرفت أن الذي تقتضيه القواعد المقررة المبرهن عليها هو التساقط والرجوع للأصول ، وأن الجمع بينها ليس عليه دليل سالم من المناقشة . وعليه لا يهمنا البحث عن أحقية ما ينسب للشهيد أو لغيره ، ولا البحث عن سبب اختلاف المتحصل باختلاف اللحاظ . كما أن القول بلزوم الجمع لم ينته إلى حد الاجماع . ولو انتهى فليس بحجة لمعلومية مدركه . فيكون هو العمدة دونه ، وهو غير صالح للدليلية لما أسلفناه .

نعم ههنا أمران . نستدركهما على المشهور ، القائلين بلزوم الجمع .

أولهما : ما استدركه الأستاذ الأوحدي . آية الله السيد محسن الحكيم الطباطبائي[1] من أن ما ذكرناه من تساقط البينتين والرجوع إلى الأصل ، لا يجري فيما لو كان تعارض البينتين في القيمة الواقعية مع اتحاد النسبة ، كما في المثال الأول الذي تتحد فيه النتيجة على طريقة الشهيد ومخالفيه ، فإن المقومين وإن تعددوا واختلفوا في قيم الصحيح والمعيب ، إلا أن الغرض لما لم يكن متعلقاً به ، لم يكن لتباينه أثر لتجري عليه احكام التعارض . والغرض إنما تعلق بالنسبة ، فإن اختلفا فيها وتنافيا كانا متعارضين ، وإلا فلا . والمثال الأول من الأمثلة الثلاثة التي أسلفناها، لم تتناف فيه البينات من حيث النسبة ، وإن تنافت من حيث أصل التقويم الذي عبرنا عنه بالقيمة الواقعية . فإن ملاحظة المجموع تعطي كون نسبة التفاوت الثلث، وملاحظة كلٍّ منفرداً تعطي كونها كذلك . وحينئذ لا تكون البينات متنافية بالاضافة إلى النسبة وتنافيها في غيرها لا يهمنا بعد كونه ليس له ثمرة فيما نحن بصدده . وعليه فهذا الفرض وأشباهه تكون البينتان حجة فيه ولا يرجع للأصل . وسقوطهما بالنسبة للمدلول المطابقي لا يضر . فقد أثبتنا في باب تعارض الخبرين أنهما حجة في مدلولها المطابقي والالتزامي ، وأن سقوطهما عن الحجية في أحد المدلولين لا يستلزم سقوطهما عنها في غيره ، ومن ثَمَّ قلنا إنهما حجة في نفي الثالث .

ثانيهما : أن نظرية الشهيد لا تخلو من قلق واضطراب ، وتحكم أحياناً ببعدها عن الصواب . فإنا إذا فرضنا ، أن أربع بينات قومت العين فقومتها الأولى صحيحة باثني عشر ، والثانية قومتها صحيحة بثمانية ، والثالثة قومتها معيبة بعشرة ، والرابعة قومتها معيبة بخمسة كانت نتيجة ملاحظة مجموع قيمها صحيحة ، مع مجموع قيمها معيبة ما عرفته كما عرفت نتيجة ملاحظة الاثنى عشر مع العشرة ، والثمانية مع الخمسة ، في المثال الثاني من الأمثلة الثلاثة التي أسلفناها ، ولكن لقائل أن يقول بلزوم ملاحظة الاثني عشر مع الخمسة ،

(١) ذكره في حاشية المكاسب وهي من جملة مؤلفاته القيمة المفعمة تحقيقاً وتدقيقاً واستدراكاً على عظماء العلماء ولا تزال كسائر كتبه الشريفة مخطوطة وقد استنسخها شطر وافر من الفضلاء .

والثمانية التي هي إحدى قيم الصحيح ، مع العشرة التي هي إحدى قيم المعيب . ولا يلزم من ذلك إلا كون المعيَّب أكثر قيمة من الصحيح في بعض الصور ، ولا مانع منه في مقام الملاحظة . ويمكن أن نفرض مثالاً آخر لأجل النقض على هذه النظرية ، لايلزم منه ذلك ، وعليه فنظرية الشهيد لا تخلو من التحكم ، والترجيح بدون مرجح ، وربما قال قائل باختصاص كلام الشهيد في صورة تقويم البينة الواحدة صحيحة ومعيبة ، فيكون ضم إحدى المعيبتين المعينة لإحدى الصحيحتين المعينة ، ترجيحاً بمرجح ، وهو كون كل منهما لمقوم واحد ، وهو كما تراه لا يصلح مرجحاً ، كما إنا لا نظن كلامه مختصاً بصورة واحدة .

إذن فلا بد على رأي الشهيد خاصة من ملاحظة كل من قيم الصحيح ، مع كل من قيَم المعيَّب لئلا يلزم الترجيح بدون مرجح ثم يؤخذ بنسبة ربع كل منهما من المسمى ، وقد يؤدي الحال أحياناً إلى الحط ، كما يؤدي إلى الجبر ، كما في المثال الثاني من الأمثلة الثلاثة ليستقيم الحال . وعلى هذه العملية ينقص المتحصل عما كان عليه عند الشهيد وعند غيره لأنه يكون اثنين وثلاثة أرباع ونصف الخمس .

وعلى كل حال ، إن كانت طريقة الشهيد هي المتعينة لأمر من الأمور فلا بد من تكرار الملاحظة فإذا كانت قيم الصحيح ثلاثة والمعيب أيضاً ثلاثة لوحظت كل واحدة مع الثلاثة وأخذ بنسبة تسع النسبة من المسمى .

وهذا شيء لم أجد من تنبه له غير سيدنا الأستاذ قائلاً إنه لم يجد مَن أشار اليه على كثرة ما تتبع .

وإنني للآن لم استوضح السر في هذا الاختلاف كما أن الشيخ في المكاسب تعرض لأمر لاحظته فوجدته مطرداً ، وهو أنه إذا كانت قيمة الصحيح واحدة وقيمة المعيب متعددة ، لم يختلف المتحصل على طريقة الشهيد وغيره ، وإذا كانت قيمة المعيب واحدة ، وقيم الصحيح متعددة ، كان المتحصل على طريقة الشهيد أكثر منه على طريقة غيره ، وإذا تعددا وكان عددهما واحداً اختلف الحال فقد يتحدان وقد تزيد إحداهما على الأخرى ، ولم يتعرض لا هو ولا غيره لصورة تعدد قيمها واختلاف العدد .

١٠ ـ الشيخ احمد عارف الزين العاملي من « شحور »

صاحب مجلة العرفان، وجريدة عامل، ولعله هو أول صحافي عاملي، وأول رجل شيعي أصدر مجلة واسعة النطاق وقد ثابر صاحب العرفان على عمله ، وصبر صبر الكرم ، وقد صدر من العرفان حتى اليوم واحد وثلاثون مجلداً[١] ، وهي لا تزال تصدر حتى الساعة وهي كدائرة معارف للشيعة ، كما أنها تحمل صورة كاملة عن الأدب العاملي والعراقي ، ولا سيما النجفي منه ، وقد لاقى صاحب العرفان ، في سبيل حرية ضميره ، وصدقه في عقيدته مصاعب جمة .وله مؤلفات منها تاريخ صيدا الذي هو أحد مصادر هذا الكتاب وللشيخ عارف الزين فضل على كثير من أهل الأدب ، فانه خدمهم خدمات جمة .

١١ ـ السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي من « شحور »

له كتب كثيرة، طبع جملة منها، وقد احترق بعضها، وقد نشر كتاب المراجعات أخيراً فكان له شأن يليق به ، وقد نفذت نسخ الطبعة الأولى منه بسرعة ، وقد استأذن جماعة من مؤلفه في ترجمته الى غير العربية وقد أخبرني نجله الثالث السيد محمد رضا شرف الدين أنه ترجم في الهند هو وكتاب الفصول المهمة وطبعا .

وكتاب المراجعات يبحث في الامامة ، وعلماء الشيعة ، ما أبقوا مجالاً للشك في هذا الموضوع ، ولا تركوا دقيقة إلا وسطروها ، ولا معضلة الا وأوضحوها حتى أنه ربما يؤلف منهم في كل عصر عشرات ومئات في هذا الموضوع.

ولكن المراجعات أولى في نوعها ، ففيها أسلوب رائع وتتبع جامع وحجة ليس لها دافع ، وقد طبع حتى اليوم أكثر من عشر مرات .

---

(١) هذا حين تأليف كتابنا ، أما اليوم فقد زادت مجلدات العرفان على الخمسين .

وقد طبعت الفصول المهمة طبعة ثانية ، وفي آخرها الكلمة الغرآء في تفضيل الزهراء سلام الله عليها .

ومما امتازت به المراجعات والفصول، أنهما يحيلانك على المصادر بدون تعب ولا مشقة ، لأنهما يعيِّنان الكتاب والطبعة والصفحة ومن احتاج يوماً إلى التتبع عرف قيمة هذه الناحية .

١٢ ـ الشيخ يوسف الفقيه العاملي الحاريصي(١)

له كتب كثيرة ، طبع جملة منها ، ولا يزال الباقي محفوظاً .

١ ـ **مصابيح الفقيه** : وهو يبحث في الارث على مذهب الشيعة الامامية ، والعلماء وإن الفوا في الارث كثيراً في كل عصر ومصر إلا أن هذا الكتاب يعد أولاً في نوعه ، لأنه وضعه في ضمن مواد ، على نحو يمكن جعله قانوناً مقررا ، وقد وضع لهذه الغاية ، كما أشير لذلك في أوله ، وهو ممتاز بقوة العبارة ، وترك الفضول ، وجودة الترتيب ، وبالاحاطة التامة فيما يتعلق بالارث ، ومن مارس كتاب الارث من الفقهاء والحقوقين ، ثم لاحظ مصابيح الفقيه عرف ذلك ، وقد علق عليه آيتا الله السيد أبو الحسن الأصبهاني ، والميرزا حسين النائيني ، من الفتاوى ما يوافق نظرهما ، وقد طبع مع تعليقة السيد ونفذت نسخه بسرعة ولا يزال يطلب منا بالحاح . وقد كان المرحوم آية الله النائيني يحمد الله كثيراً على وجود مثل مؤلفه في الجبل ، فبينما كان كثير من الناس لا يعرفون شيئاً عن الفقه الجعفري ، ولا يمكنهم الوقوف عليه في الكتب المتداولة لكثرة ما فيها من الاصطلاحات ولأن اساليبها لا تتلائم مع روح العصر الحاضر ، واذا بهم يرون أنموذجا صالحاً للحقوق التي تدرس في جامعة النجف الأشرف وغيرها من الجامعات الشيعية الدينية ، فيقفون موقف الدهشة والاكبار . ولو علموا أن الحقوق التي تدرس في الجامعات الكبرى شعبة من شعب الفقه الاسلامي ، الذي يدرس في الجامعات الشيعية لكان إعجابهم أشد ، وإكبارهم أعظم ، ولو علموا أن خريجي النجف يستطيعون أن يخطئوا واضعي مواد المجلة التي هي

(١) والد المؤلف .

العمدة في المدارس الحقوقية على أساس ما استندوا اليه من الأدلة الاربعة ، في وضع موادها ، وهذا معنى الاجتهاد الذي لا يزال بابه مفتوحاً عند الشيعة الامامية .

٢ ـ المدنية والاسلام: وهو أول في نوعه فانه يبحث فيما يرمي اليه الدين الاسلامي أصولاً وفروعاً من الحكم والمصالح وهو جواب عن ثلاثة أسئلة وجهها المؤلف الى نفسه .

لماذا أنا ديني ؟ لماذا أنا مسلم ؟ لماذا أنا شيعي ؟

وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً وقد نشر قسم منه في مجلة العرفان الغراء ومن قرأ هذا الكتاب قرأ فيه أصل الشيعة واصولها وفروعها ، ورأى ذلك كله مقروناً بالبرهان .

٣ ـ حقائق الإيمان: طبع في مطبع العرفان سنة ١٣٤٣هـ وهو يبحث في أصول معتقدات الشيعة بحثاً مفصلاً مشبعاً بالأدلة والبراهين ، وقد اشتمل على جملة من المسائل الفكرية كالقضاء والبراهين ، وقد اشتمل على جملة من المسائل الفكرية كالقضاء والقدر ، والجبر والتفويض كما اشتمل على المسائل المهمة التي هي محل البحث والخلاف بين المسلمين ، وقد نفذت نسخه منذ سنوات حتى اضطر الشيخ عيسى البحراني أحد علماء البحرين الى استنساخه . ونحن ننوي إعادة طبعه بحلة قشيبة ، وقد اخبرني الشيخ محمد علي صندوق الدمشقي بأن بعض فضلاء الفرس ترجمه الى اللغة الفارسية .

١٣ ـ السيد محسن الامين العاملي من شقراء

له مؤلفات كثيرة ضخمة أكثرها مطبوع، منها أعيان الشيعة وقد طبع منه سبعة عشر مجلداً[1] . وهو اول كتاب من نوعه ، فقد جمع فيه بين تراجم أهل العلم والأدب والجاه ، وهو يبلغ عشرات المجلدات وقد أسهب فيه إسهاباً يغني عن مراجعة ما سواه .

---

(١) تم اليوم طبع ما اعدّه السيد رحمه الله قبل وفاته .

١٤ ـ السيد عبد الحسين نور الدين العاملي النباطي

له كتب طبع منها ـ الكلمات الثلاث ـ وهو جزآن . وقد نشر منه الجزء الأول الذي يبحث في سيرة النبي صلى الله عليه وآله الطاهرين . ولكن سيرته لما كانت مقرونة بسيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام ، لأنه هو القائد الفاتح على عهد ﷺ سمى الكلمة الثانية منه باسمه (ع) وقد وقف مواقف دقيقة في استخراج أمور لم يكن مسبوقاً بمثلها في التآليف التي نشرت في هذا الموضوع فكان فيه فلسفة تاريخية تلفت أنظار الباحثين .

١٥ ـ الدكتور شريف عسيران العاملي من صيداء[١]

هو احد حاملي لواء النهضة الحديثة ، منذ يومها الاول وهو من كتاب العرفان والمقتطف والهلال وغيرها ، قبل ثلاثين عاماً . وقد هاجر الى العراق سنة ١٣٤٠هـ وهو أول من فكر في مشروع انقاذ القرية . الذي يقوم به بمساعدة جملة من الاطباء المتخرجين من كلية الاميركان والغاية من مشروع القرية نشر الوسائل الصحية في القرى العراقية ، بصورة مألوفة للسواد وهم يخرجون في هذه المهمة على التبادل . وقد صادفوا نجاحاً لا بأس به ، ويرجى أن يتوسع هذا المشروع في المستقبل .

١٦ ـ المخترع الكبير أو « اديسون الصغير »
حسن كامل الصباح العاملي النباطي المتوفي سنة ١٩٣٥ هـ

أقيمت له مناحات ، وقد رثاه الشعراء وممن رثاه الشاعر الشيخ علي مهدي شمس الدين العاملي من قرية « خربة سلم » بقوله :

أيهذا المقيم رهن سباته ... قم فناج الأثير عن مضمراته
قد سبرت الفضاء سبراً دقيقاً ... وكشفت الدفين من غامضاته

(١) ولد سنة ١٨٩٠ م وقد دخل في الفرع العلمي في الجامعة الامريكية في بيروت وبعده في الطبي وتخرج من الدائرة الطبية ١٩١٨ م وقد اشترك في بعض الجمعيات المهمة ، فكان ما بين عضو تارة ، ورئيس ثانية وهو اليوم من أشهر الأطباء في العراق .

ثــم أبــرزتهــا عــلى الأرض نــوراً　　يـسـتـنـيـر الـظلام مـن لامـعـاتـه
معجــزاً كـنـت في صـنـيـعـك حقـاً　　بهـر الــعــالمـين في آيــاتــه
مــرحبــاً زرت مسقط الــرأس لكن　　زورة أغــرقــتــه في عــبــراتـه
كنت للشــرق خــير مــا يــرتجي الـ　　شـرق وقصَّـرت الخـطير من نكبـاتـه

وقد ترجمه أحد شبابنا النابهن في جريدة الأدب ترجمة ضافية وهو « محمد قره علي » ونحن نقتطف منها ما يلي.

ولد حسن كامـل في النبطيـة ـ جبل عـامل ـ من أرومـة ترجـع بنسبها الى الشيخ الصباح أمير الكويت من سلالة يعقوب بن الصباح الفيلسـوف الريـاضي الشهير الذي عاش في أوائل الدولة العباسية .

والمعروف عن حسن كامل أنه كان متفوقاً منذ حداثته بالحساب والشعر وعلم الفلك إذ درس الجبر والهندسـة بدون معـاونة أستـاذ وهو لمَّـا يبلغ الرابعـة عشرة من سنِّه ومنذ ذلك الحين تجلت فيه إمارات النبوغ وفي خلال ثمانيـة أشهر أتقن اللغة الفرنسية ثم دخل الجامعة الأميركية فـألم باللغـة الانجليزيـه في خلال ستة أشهر الماماً بارعاً أثار إعجاب أساتذته ورفقائه ، وقال أحد رفقائه في الجامعة إنه كان وهو في الصفوف الأولى يشترك مع أساتذة الصفوف العليا في حل المسائل الرياضية ، ثم دخل قسم الهنـدسة ولم يتم السنـة الأولى إذ دُعي في سنة ١٩١٦ الى الجندية ونقل الى الآستانـة وهناك تيسـر له دخـول قسم التلغراف الـلاسلكي ودرس اللغة الألمانية واستحضر كتباً رياضيـة في تلك اللغة ثم عـين قائـداً لمفرزة التلغراف اللاسلكي في غاليبولي وبقي فيها حتى انتهاء الحـرب إذ قفل راجعـاً الى دمشق حيث عينِّ فيها معلماً للريـاضيات في المـدرسة السلطانيـة وفي سنة ١٩٢١ رجع الى بيروت وعين مدرساً للرياضيات في الجامعة الأميركية وكأن الجامعة ومـا فيهـا لم تشبع نهمـه فغادرهـا مهاجـراً الى الولايـات المتحدة لـلالتحـاق بمؤسسـة ماسـاتشوستس الفنية وتُعـدُّ هذه المدرسة أعظم مدرسة في العالم ولمـا قدم امتحـانه المدرسي اعفته للحـال من جميع الـدروس الريـاضية في بـرنامجهـا كما أعفتـه من دروس الطبيعيات .

ولم يمكث طويلاً في هذه المدرسة حتى غادرهـا الى جامعـة اليويش ولم يبلغ

نهاية العام في هذه الجامعة حتى قدم أستاذ الفلسفة الطبيعية اقتراحاً للمعهد بمنح الأستاذ كامل شهادة أستاذ العلوم « أ ـ اي » غير أن العمدة لم توافق على هذا الاقتراح بحجة أن التلميذ يجب أن يقضي سنتين على الأقل في الجامعة وهنا كانت نفسه قد ارتاحت الى ترك الحياة الدراسية ودخل حياة العمل فعين في شركة الكهرباء العامة في سكنكتدي بنيويورك ولما بدأ يخترع الاختراعات المدهشة عينت له مختبراً خاصاً ، ومكتباً خاصاً ووضعت تحت تصرفه مهندسين يعملون بإدارته .

وبعث اليه المستر (هوفر) رئيس الولايبات المتحدة السابق بكتاب يظهر له فيه إعجابه بنبوغه وبنبوغ العالم العربي .

وفي سنة ١٩٣٢ منحه مجمع مؤسسة الكهرباء الأمير كاني في نيويورك لقب فتى العلم الكهربائي وهذا اللقب لا يمنح إلا لمن اخترع وابتكر ودرس في فن الكهرباء مدة عشر سنوات .

يتقن خمس لغات العربية الانجليزية الألمانية ، التركية ، الفرنسية ، وكان الى جانب ذلك كاتباً في العلم والأدب والاجتماع .

وقصة وفاته تتلخص في أنه ذهب مع أصدقائه الأمريكان الى مدينة « غالون » حيث تفقد طائرته التي اشتراها ليقوم برحلة الى البلاد العربية وفي عودته الى « سكتكتدي » كانت سيارة أصدقاء عمه تسير في المقدمة ففقدوا أثره قرب مدينة « اليزابيثوم » وعادوا أدراجهم فوجدوا سيارته خارجة عن الطريق الى منحدر يبلغ علوه (١٥) قدماً ووجدوه ميتاً فيها وما ان اذيع النبأ المشؤوم على العالم حتى عطلت مصانع الدنيا من أقصاها الى أقصاها من ١ ـ ٥ دقائق وبعد أن نقل جثمان الفقيد الى الوطن بعث والد الفقيد الى رئيس الشركة الكهربائية في « سكنكتدي » يطلب منه صورة مفصلة عن متروكات ولده وإشارة الى مخترعاته ، وأجابه برسائل كان يختلف بعضها عن الآخر .

وأرسل لوالده قائمة باخترعات كامل الصباح أذكرها فيما يأتي:

١ ـ سنة ١٩٢٨ ـ نقل الصور والمناظر
٢ ـ سنة ١٩٣٣ ـ آلة إخراج المسافات
٣ ـ سنة ١٩٣٠ ـ آلة البخار الكهربائية
٤ ـ سنة ١٩٣٠ ـ نقل الصور والمناظر
٥ ـ سنة ١٩٢٩ ـ نقل الصور والمناظر
٦ ـ سنة ١٩٣٠ ـ آلة لقياس الضغط
٧ ـ سنة ١٩٢٧ ـ آلة تدقيق للضغط
٨ ـ سنة ١٩٢٨ ـ آلة قوس البخار الكهربائي
٩ ـ سنة ١٩٢٨ ـ طريقة التصحيح
١٠ ـ سنة ١٩٣٥ ـ آلة لتدقيق الحرارة
١١ ـ سنة ١٩٢٣ ـ آلة إخراج الكهرباء
١٢ ـ سنة ١٩٣٠ ـ آلة تحويل القوة
١٣ ـ سنة ١٩٣١ ـ آلة تحويل القوة
١٤ سنة ١٩٣١ ـ آلة تحويل القوة
١٥ ـ سنة ١٩٣٣ ـ آلة تحويل القوة
١٦ ـ سنة ١٩٣٢ ـ دورة التحويل الكهربائي
١٧ ـ سنة ١٩٣٤ ـ دورة التحويل الكهربائي
١٨ ـ سنة ١٩٣٣ ـ ـ آلة الصمام الكهربائي المحول
١٩ ـ سنة ١٩٤١ ـ تحويل القوة الكهربائية
٢٠ ـ سنة ١٩٣٤ ـ آلة الصمام الكهربائي المحول
٢١ ـ سنة ١٩٣٤ ـ آلة الصمام الكهربائي المحول
٢٢ ـ سنة ١٩٣٤ ـ آلة الصمام الكهربائي المحول
٢٣ ـ سنة ١٩٣٥ ـ مصحح الطريقة المركبة
٢٤ ـ سنة ١٩٣٣ ـ طريقة منع عدم توازن مصحح الطريقة المركبة
٢٥ ـ سنة ١٩٣٤ ـ طريقة تحويل الصمام الكهربائي وآلة التهييج.
٢٦ ـ سنة ١٩٢٩ ـ طريقة التوزيع

٢٧ ـ سنة ١٩٣٢ ـ توزيع المسافات
٢٨ ـ سنة ١٩٢٩ ـ الطرق الاصلاحية
٢٩ ـ سنة ١٩٣٢ ـ المجرى الثابت المعبر عن الدوائر
٣٠ ـ سنة ١٩٣٢ ـ طريقة الاخراج الكهربائي
٣١ ـ سنة ١٩٣٤ ـ طريقة الصمام الكهربائي المحول
٣٢ ـ سنة ١٩٣٣ ـ طريقة الصمام الكهربائي المحول
٣٣ ـ سنة ١٩٣٤ ـ طريقة الصمام الكهربائي المحول وآلة التهييج
٣٤ ـ سنة ١٩٢٨ ـ طريقة صمام البخار الكهربائي
٣٥ ـ سنة ١٩٢٨ ـ قياس الفولتاج الكهربائية .

وكانت الاختراعات التالية قد وصلت قبل وفاة الراحل العظيم في دائرة السلات في واشنطن باسم ابن الصباح .

١ ـ طريقة لضبط القوة الصادرة من المقوم الكهربائي .

٢ ـ حوافظ وضوابط لحماية المقاومات الكهربائية من الخط .

٣ ـ طريقة لمنع حدوث هزات عالية في القوة الكهربائية من المقومات الزئبقيَّة .

٤ ـ ملتقط حديث لمنع حدوث انفجار كهربائي منعكس محول الكهربائية العظمى

٥ - جهاز تلفزة يحول أشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة .

٦ ـ جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور

٧ ـ جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي . ومما ذكره مدير الشركة « اليكتريك » في رسالته الى والد الفقيد النبذة التالية :

لقد برهن الأستاذ كامل الصباح أثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين الرياضيين في البلاد الأمريكية ووفاته تعد خسارة كبيرة لعالم الاختراع

وقد اعترف جهابذة علماء الفن الكهربائي الذين كانوا يلقبونه « بأديسون الصغير » بأنه من أعظم المخترعين والسلام .

استقينا هذا البحث من مجلة (الأديب) البيروتية كتبه السيد محمد قره علي .

أهمية جبل عامل في التاريخ

« أ » ـ الزعيم الاجتماعي

من البديهي أن الزعيم لا تكونه الأمة ، ولا تخلقه الظروف وليس هو الذي يكون نفسه وإنما يتكون من تفاعل هذه العناصر ، مع الاحتفاظ بالقابلية الشخصية ، وللزعيم الاجتماعى صفات أساسية ، وصفات كمالية وإذا قال علماء الاجتماع يجب أن يكون الزعيم محيطاً بقضيته ، قوي الإرادة إلى آخر ما قالوه ، كان الفن والتجربة أن ينقض عليهم هذا الرأي وأن يضعه تحت مبضع النقد والتحليل .

فإن الزعامة كما تحتاج الى شروط في الزعيم نفسه ، كذلك تحتاج إلى شروط في البيئة والمحيط ، وقد أغفل علم الاجتماع هذه الناحية ، فدرس الزعيم ، من ناحية واحدة فقط وأهمله من ناحية مهمة جداً والحقيقة ، هي أن الزعيم له حقوق وعليه واجبات ، ولن يستطيع القيام بهذه الواجبات قبل أن يتمتع بصفات نفسية ، فإنه يجب أن يكون متحلياً بالكمال النفسي ، بقسميه الفطري والكسبي ، وأن يكون له ميزة بيِّنه في هذه الصفات عن أفراد رعيته ، فإذا كانوا شجعاناً وجب أن يكون أشجعهم ، وإذا كانوا كراماً وجب أن يكون أكرهم ، وهكذا . . وإلا استحال أن يكون زعيماً لأنه ترجيح له على أفراد رعيته بدون مرجح ، والعقلاء لا يرتكبونه ، وإلا لم يكونوا عقلاء ، وبحكم هذه

القضية وجب أن يكون الزعيم كريماً شجاعاً متواضعاً ليس أنانيًّاً ولا حسوداً ، إلى آخر ما هنالك من الصفات الشريفة ، وكما يجب أن يكون متحلياً بهذه الصفات كذلك يجب أن يكون تجليها فيه أكثر من تجليها في رعيته .

قلنا إنه يجب أن يكون شجاعاً ، وإنما وجب ذلك ، لأنه اذا كان جباناً تخلف عن الإيجاب وقت الحاجة ، بأعذار أهمها التمهل والتأمل والتريث ففاته الغرض ، وفرت الفرصة من بين يديه فرار الحلم العذب من أكف النائمين ، فيكون قد أفقد الأمة بذلك أمراً عظيماً ، ربما لا تقدر على الوصول اليه ، في عقود من السنين .

وقلنا إنه يجب أن يكون كريماً ، وإنما وجب ذلك ، لأنه إذا كان بخيلاً ، كسته رعاياه أثواب الخزي والمهانة ، والسب والشتم عندما يؤملون خيره ، فيصلب آمالهم على خشبة ، ويخيب ظنونهم فيتفرقون عنه أيدي سبا ، ويبقى وحيداً ساعة الحاجة بلا معين اذا أمنوا غائلة التخلف عنه ، والرعية التي تنقاد لزعيمها بدافع الرهبة لا يمكن أن ينتفع بها الزعيم ، في جميع الظروف .

وقلنا يجب أن يكون متواضعاً ، وإنما وجب ذلك ، لأنه اذا كان متكبراً حرك حشرجات الصدور عليه ، وكثر بذلك مناوئوه واحتجب عن أفراد الأمة ، ولم يتصل بهم ، ففاته بذلك أكثر الاصلاحات المنشودة وخفيت عليه أمورهم ، فأعياه داؤهم ، وعجز عن دوائهم ، وحمل الآخرين الذين يتطلعون إلى الزعامة من بعيد على استسهال أخشن مركب ، وعلى استغلال الفرص ، من تثوير الرأي العام عليه ، وبالطبع إنهم لا يعدمون أنصاراً فيتكوَّن من ذلك انقسام الأمة على نفسها ، وينشأ من ذلك ، وقوف الأعمال النوعية وانحطاط الأمة في الأخلاق ، فتفشو فيها شهادة الزور والكذب والنميمة واللصوصية ، وهتك الأعراض وتلف الأموال وإهراق الدماء وينتهي مصيرها إلى أعظم أنواع الدمار ، وأسوأ ألوانه المخيفة .

وقلنا إنه يجب أن لا يكون أنانيّاً ولا حسوداً ، وإنما وجب ذلك ، لأنه اذا كان أنانيّاً حسوداً ، نازع رعيته فواضل النعم ، فاستلب أموال أهل الثراء ، وتقصد تحقير أهل الجاه ، وجدَّ في توهين ذوي الحول والقوة ، وأصبح يحاول

إنزال الضربة القاضية بكل ما لديهم من حول وطول وعـدة وعدد ، ويكون من جراء ذلك ما يكون . .

وإنما ذكرنا هذه النواحي ، شبه درس أخلاقي لمن يريـد أن يكون زعيـماً ، أو لمن يريد أن تبقى زعـامته مـرافقة لـه طيلة حياتـه ، فإن علماء الـدين يحملون رسـالة الخير والسلام الى العـالم ، ويبلغونها بـالأساليب التي يتمكنـون عليهـا ، ونسأل الله سبحانه أن يجعلنا منهم ويحشرنا معهم .

وهذه النواحي التي استعرضناهـا في البحث الآنف ، ربما تنفعنـا في تعليل كثير من الانقلابات الهامة ، التي واجهت جبلنا المحبوب .

وهـذه النظريـات ، كلها مبنيـة على نـظرية الأوسـاط ، وكلهـا مفتقـرة في تطبيقها إلى حذق ولطف قريحة ، كـافتقارهـا إلى منطق قـوي ، واقتدار متفـوق ليستـطيع اقنـاع المشاغبـين له والمتبعـين لهم ، أو إفهام من لا يـرتضي البرنـامج الذي يسير هـو عليه فـان الناس لا يفهمـون القضايـا فهماً واحـداً ، إذ كثيراً مـا يختلفـون في الشيء ، فيـرى شخـص وجـوب عمله ، ويـرى الآخـر وجـوب تركه ، ويـرى الثالث تسـاوي الأمرين وهـذا الاختلاف لا ينـافي إخلاصهم وإن كـان أحـدهم مخطئاً لا محـالة لأنـه إنما نشأ مـن فهـم القضية ، بملاحظة بعـض الجهات ، والغفلة عن بعض آخر ، أو سبب الاهتمام بمفاسد ما التفت إليـه أو بمصالحه الناشيء من الخلقة الذاتية ، أو من التـربية الاخلاقية فـالبخيل يضحي بمصلحة الأمة محافظة عـلى جهة اقتصـادية لكـونها بنظره أهم ، والجبـان يضحي بمصلحتها خوفاً على حياته او حياة فرد ما ، واختلاف هؤلاء يشبه اختلاف علماء الدين في الدين ، الناشـيء عن اختلافهم في فهمـه ، فإن هـذا أيضاً لا ينـافي إخلاصهم في معتقداتهم الدينية وكونهم منبعثين عن أمر الله سبحانه، وأمثال هؤلاء المصلحين والعلماء المخلصين ، يكـون انبعاثهم في حـال اختلافهم نـاشئاً عن علة غائية واحدة ، لكون الغرض واحداً والهدف الذي يـرومونـه واحداً الا أن الحاذق يصيبه وغيره يخطئه .

ونحن لا ننكر أن في الناس، من يتذرع باسم الدين وباسم الاصـلاح ثم

يهتف بالجماهير فيلبّيه خلق كثير ولكنّا ننكر نجاح هؤلاء الى النهاية فان الفن أثبت بالبرهان بقاء الأصلح ، وأنه يتكفل بحياة نفسه ، حتى قالوا إن الكذب يتكفل بهدم نفسه والصدق يتكفل بحياة نفسه والأدلة على ذلك مسطورة في محلها .

من أجل هذا كله ، يجب أن يكون في الزعيم من اللباقة والكياسة ، ما يساعده على الخروج من المأزق الحرج ، نقي الذيل طاهر الأرادن ، وهو بدوره إن استطاع إقناع الجميع بالأساليب السلمية ، فهو الزعيم الفذ ، وإن استطاع إقناعهم بالأساليب السلمية تارة ، وبالقوة أخرى ، فهو الزعيم الذي ينحط عن سابقه ، وأما إذا كان في مثل هذه الظروف الحرجة ، لا يستطيع أن يدير السفينة بغير القوة والشدة فإنه يكون هو الزعيم الوقتي الذي لا يتزعم النفوس والأرواح والذي تكون زعامته مهددة بالزوال عند أول خطر مفاجىء .

وللزعيم صفات أخرى ، وشروط غير الشروط التي مرت ، لا يمكن بسطها هنا لئلا يلزم الخروج من بحث تاريخي إلى بحث اجتماعي ومن بحث اجتماعي ، الى بحث أخلاقي .

ونحن كما أوضحنا هذه الأمور الآنفة التي استعرضناها من الناحية العلمية ، كذلك يمكننا أن نوضح محاسنها ومساوي أضدادها من الوجهة الدينية ، وقد تكون حكمة التشريع فيها ، ما أسلفناه من الحكم والمصالح ، ولو أردنا أن نلم بأطراف هذه المواضيع لخرجنا عما نحن بصدده ، وأصبحنا في شأن غير الشأن الذي نحن فيه ، فالزعيم اذا تمتع بالصفات الآنفة ، استطاع أن يرفع أمته الى حيث شاءت له مواهبه السامية ، وأن يطير بها في سماء العز والمجد ، بقدر ما تسمو به همته ، فإن له إذ ذاك من رأيه جيشاً عرمرماً ، لا ينهزم في معركة الحياة الكبرى ، ولا يضل طريقه وإن أظلمت الدنيا .

إن البلاد قد تكون مهددة بغزو الأعداء فتكون في حاجة للحصون والقلاع والسلاح وقد تكون في ضائقة اقتصادية ، فتكون في حاجة لتوسعة الزراعة وانعاش التجارة وتكثير الصناعة وترويج المصنوعات الوطنية ونبذ

المصنوعات الأجنبية ولا يتوقف ذلك على أزيد من سلطة الزعيم المعنوية ولا يحتاج الى قوة بطش أو الى سن قانون للعقوبات فإنه اذا كان زعيماً بحق استطاع أن يبلغ رسالته لأمته بمجرد الايعاز ، والاشارة شأن الزعماء الأحرار في مختلف أنحاء المعمورة فان الزعيم إذا لم يلبس إلا نسيج بلاده ولم يستعمل الا آنيتها ، وو إلخ . . . كان الشعب كله على مبدئه ومذهبه فإن الناس على دين ملوكهم وقاعدة المحاكاة والمشابهة تعمل عملها ، وتؤدي وظيفتها في جميع الطبقات، وفي مختلف الأوقات والزعيم هو المثل الأعلى ، الذي تهتم الأمة بأسرها في محاكاته والتشبه به حتى قيل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاحُ

والزعيم هو سيد الكرام في نظر العامة(١)

وقد تكون الأمة متخبطة في عشواء الجهالة ، فتكون في حاجة إلى نشر المعارف فيشيِّد الزعيم المدارس ، ويقرب العلماء ، ويشجع المتعلمين .

وقد تكون الأمة في حاجة لأمور أخرى يفهمها الزعيم ، فيسد تلك الحاجة، ويرتق ذلك الفتق فقد تكون في أشد الأمراض واعضل الأدواء، فيهتم في فهم مرضها وفي تقديم الدواء الشافي لها فإذا كانت متفرقة الرأي جمع متفرقاتها، ولمَّ شتاتها، وإذا كانت موبؤة الأخلاق ، سعى لرفع ذلك وقطعه. وعلى الزعيم قبل كل شيء أن يفعل ما يأمر به ، فإنه لا برهان للعامة على ما تعتقده إلا مثابرة الخاصة عليه، والزعيم بطبعه يستشير أفذاذ الأمة، ويرجع الى آرائهم ويعتمد عليهم فانه لا يستغني عن مشاورة العقلاء ، وإن بلغ من الحزم

---

(١) في السنة الثانية من سني هذه الحرب الطاحنة . ارتفعت أثمان اليشماغات « الكوفية » التي يلبسها العراقيون ، ارتفاعاً هائلاً ، حتى عجز المتوسطون عن شرائها فضلاً عن الفقراء ، وكان العراقيون لا يلبسون على رؤ وسهم إلا نوعاً واحداً منها ، فقام آحاد من زعماء السواد في النجف الاشرف ، ولبسوا الكوفية البيضاء ، وجلسوا في حانوت في باب السوق الكبير ، وكلما مر عليهم وجيه أخذوا (يشماغه) وألبسوه الكوفية ، فارتفع بذلك الحياء من لباس الكوفية البيضاء ، ولبسها سائر الطبقات ، وهبطت أسعار (اليشماغ) العراقي ، فكان في ذلك فرجة لأهل العراق عامة ، ولا سيما لزعماء الفرات ورعاياهم ، ولو تنبه الزعماء ، فجروا هذا المجرى في سائر الأمور ، لكانوا قدوة صالحة ، ومثلاً أعلى .

والنجدة والتنبه والحذر ما بلغ، إن الله عزّ وجلّ يقول لنبيّه صلّى الله عليه وآله : وشاورهم في الأمر. وبعد أن كنا نعتقد أن النبي لديه ثروة كبرى ، من الحنكة والتدبير ، وأنه يمكنه أن يستغني عن مشاورة المخلوق ، بما يوحيه اليه الخالق ، فلا بد لنا إذن من صرف هذا الكلام عن ظاهره وحمله على معنىً شريف يكون هو الظاهر منه ، بعد ملاحظة جملة من القرائن المقامية وغيرها ، وأقل ما نفهمه منها ، من الحكم البالغة ، هو ترويح نفوس الصحابة بما يكون عليه النبيُّ ﷺ من الديموقراطية والتواضع وإذا كانوا يشعرون بأنه أغنى الموجودين عمن يحمله الوجود ، ومع ذلك يظهر بمظهر الحاجة ، كان لهم في ذلك أبلغ درس ، وأعظم تربية أخلاقية ، فإن الله سبحانه ، إذا حبب المشاورة لنبيّه ﷺ كان من دونه أولى بها ثم أولى ، وقد قيل « من استشار عاقلاً فقد ضمَّ عقلاً إلى عقله » .

« ب » ـ زعماء عاملة أمس واليوم

وزعماء عاملة ، في العصور الاقطاعية ، يمكن أن يكونوا مثلاً أعلى ، للزعيم الاجتماعي الذي صورناه آنفاً ، وسنحدثك عنهم بحديث مجمل تارة ، ومفصل أخرى ، وما سنمليه عليك الساعة سوف يجعلك تؤمن كل الإيمان ، بنبل زعماء العامليين لا محالة . فان التحدث عنهم ، يُشرف بك على دنياً من الفضيلة زاهية تختال في بردها الجميل الضافي .

لقد كان الحكم إقطاعياً على عهد الأمير ناصيف النصار ، وعهد آبائه ، وكان إقطاعياً بشكل آخر ، على عهد الأمير حمد البك وحفيد أخيه علي بك ، وكان بشكل ثالث على عهد الآخرين ، ومن درس أحوال زعماء عاملة ، في الأدوار الثلاثة ، عرف أنه لم يكن همهم هم زعماء الاقطاع ، من اشباع االشهوات الشرهة ، وتكديس الأموال الضخمة ، وإنفاقها في غير ما يرضي الله سبحانه والانسانية ، بل كان همهم تشييد الحصون وترميم القلاع وتشجيع العلم والأدب وتنمية الزراعة والتجارة ، وبث روح التعاون والتآلف ، فانهم كانوا يعززون بلادهم ، من الوجهة العمرانية ، والأدبية والسياسية ، فقد رمموا

القلاع ، وانشأوا الحصون ، ومدنوا المدن ، ونشروا المعارف ، فأسسوا المدارس ، وقربوا العلماء فأقطعوهم الاقطاعات ، وجعلوا كلمتهم العليا ، وأجازوا أهل الأدب ، وكانوا هم أنفسهم يتحلون بالعلم والأدب فكان كل منهم يقوم بما يحتاج اليه عصره ، ويفعل حسبما توحيه اليه الظروف التي كان يعيش فيها .

فقد كانت جبل عامل ، على عهد ناصيف مهددة من جميع أطرافها ، فمن البحر بغزو الافرنج ، ومن الجنوب بغزو الشيخ ظاهر العمر وولديه ، الشيخ علي الظاهر ، والشيخ عثمان الظاهر اللذين استقلا عن أبيهما بالزعامة في حياته ، ومن الشرق بغزو عرب البادية ، وقبائل شرقي الأردن وغيرها ، ومن الشمال بغزو الحكومة العثمانية ، على أيدي الولاة والأمراء من الشهابيين والجنبلاطيين وغيرهم ، فان الحكومة العثمانية قد ألحقت الجبل بولاية الشام تارة ، وبصيدا أخرى ، فيوم كانت الشام مقر الولاية ، كانت صيداء وهي قاعدة الجبل ملحقة بها ، ويوم كانت صيدا إيالة مستقلة عنها كانت همة حكامها إخضاع العامليين ، وقد كان العثمانيون يبذلون جبل عامل ثمناً لمجاهدته ، ويجعلونه تابعاً للوالي الذي يستطيع إخضاعه وكانت همة الشيخ ظاهر وولديه، توسعه نطاق السلطة، وادخال قسم من الجبل فيها، وهمة القبائل المجاورة كسب الأموال ؛ من أجل ذلك كله اتجه زعماء العامليين على عهد الأمير ناصيف الى ترميم القلاع وتشييد الحصون في تبنين ، وهونين ، والشقيف ، ودوبيه ، وشمع وجباع وغيرها .

وكانت جبل عامل بعد احتلال الجزار ثم المصريين خراباً يباباً قد خبا فيها سراج العلم ، وخمدت شموع الأدب ، فكان الأمير حمد البك بنفسه تلميذاً في أول مدرسة نشأت في ذلك العهد ، وكان جيش المصريين يعيث فيها فساداً بعد طرد القوات العثمانية منها ، فكان حمد البك بنفسه قائداً فاتحاً ، ومنقذاً كبيراً ، ومصلحاً خطيراً كان الجند العثماني ينهزم أمام الجند المصري الفاتح أميالاً في الساعة، ومنذ تعهد حمد البك بمطاردة المصريين، أصبح الجيش المصري ينهزم فراسخ في الساعة حتى أن الحكومة العثمانية أغدقت على حمد بك بالهدايا

والألقاب فاهدته سيفاً مرصع القبضة ، ولقبته رسمياً بلقب شيخ مشائخ بلاد بشارة ، وفي ذلك العهد لقب بالبك ، ولبس الطربوش ، ونزع العمة العربية التي هي من الشال الايراني الثمين ، ثم وجهت اليه برتبة « استبل عامره مديري » وأهداه شاه ايران شالاً من الكشمير ، وطائراً من البزاة ثم عهدت اليه الحكومة العثمانية في تأديب الأقطار المتمردة ثم أصبحوا يمنونه بالوزارة والوزارة في ذلك العهد سلطة على دنيا واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، وكانت البلاد بعد ناصيف ومحمود وقاسم وواكد وبنيه وقبلان وإخوته وعباس المحمد وعباس العلي واخوتهم وعلي الفارس وأخيه وغيرهم ، شاحبة اللون ، مغبرة الأرجاء لا شجر ولا وبر ، ولا زرع ولا ضرع ، وأصبحت على عهد حمد البك وقد جددت فيها الاغراس ، واستعادت لونها الزاهي ، وعاد البلبل الصداح فيها الى سيرته الأولى فجعل يتنقل في الافياء ، من فن إلى فن ، ومن غابة ملتفّة الأغصان ، إلى شجرة متفرعة شامخة الأفنان ، وكانت البلاد بعد حمد البك على عهد حفيد أخيه علي بك الأسعد آمنة مطمئنة ، والدنيا ضاحكة بوجوده مستبشرة ، فالثروة في تضخم ، والزراعة في تقدم ، والعلم مزدهر ، والأدب منتشر ، والشعراء تقصده من حمص وحلب ، والعراق والشام وبيروت ولبنان ، وغيرها من البلاد العربية والحدود محفوظة مضبوطة لأنه أرضى الزعماء المجاورين وأغدق في العطاء على القبائل وزعمائها ، وأرهب الجميع بمظاهر العز والنجدة ، والعددٍ والعدة ، فأصبحوا يعترفون بزعامته المطلقة ، ولا يرون في أنفسهم من ذلك شيئاً وصاروا يزورونه على التبادل ، ويقدمون له خضوعهم ، وينتظرون منه ما تنتظر الرعية من مليكها المقتدر العافي ، فكان يغمرهم باللطف والكرم ؛ وكان له منهم بعد ذلك جيش لهام، يعده للمهمات ويدخره للمعضلات، وربما ندبهم لمهمة فلبوا النداء ، أو تقدموا لمساعدته من غير استدعاء وقد أصبحت هذه المعاونة سنة في بنيهم ، فانهم اذا علموا بمناوأة شخص ما لآل علي الصغير ، أرسلوا رسلهم اليه ، يعلمونه باستعدادهم للمساعدة ولا يزالون كذلك حتى اليوم؛ وقد كان علي بك مسدد الخطأ ميمون النقيبة، فما دخل في مشكلة الا وحلها بالأساليب السلمية ، وكان يتولى عقد راية الصلح ، بين الزعماء والقبائل المتعادية بيده؛ وقد أصبحت هذه القضية أيضاً سنّة متبعة ، فلا

تعقد راية صلح بين زعماء القبائل إلا في دور آل علي الصغير ، من أجل ذلك كله كانت البلاد على عهد علي بك في أتم نعمة ، وأرغد عيش ، ولكنها في نفس الوقت كانت مهددة من ناحية أخرى ، فانها لم تكن مأمونة من الحركات الداخلية. وانقسام الأمة على نفسها، أشد فتكاً في جسمها القوي ، من ألف جيش عرمرم ، وتتلخص الأسباب التي كانت تثير الحركات الداخلية فيما يلي :

١ ـ إن الشيخ حسين السلمان العباس ، كان هو الزعيم الشيعي الوحيد الذي سالم المصريين سنة ١٨٣٢ م فانه كان حمياً للأمير بشير الشهابي الثاني ، وقد انضم وإياه للمصريين وكان هو شيخ المشائخ على عهدهم[1] ، ولا ريب أن مطاردة حمد البك للمصريين ، واستيلاءه على البلاد ، هو الذي حال بين حسين وبين المشيخة العامة ، ومن ثم أصبح حمد هو الزعيم المطلق وأصبح شيخ المشايخ رسمياً، فمن الطبيعي إذن أن يرث ثامر الحسين عن أبيه عداوة حمد وذويه، وقد كان ثامر وأبوه وجده يحكمون مقاطعتي جبل هونين ومرج العيون.

٢ ـ أن ثامر بك الحسين السلمان العباس كان أسن من علي بك ، وابن حسين السلمان شيخ المشايخ على عهد المصريين ، وحمد البك مات ولم يعقب أولاداً ؛ من أجل ذلك كله كان ثامر يرى نفسه أحق بالرئاسة العامة من علي بك الأسعد ، وقضية التقدم في السن كان لها قيمتها عند آل علي الصغير ، فانهم كانوا يؤمِّرون الأسن[1]) ويدلنا على أن الضغائن كانت قبل تولي علي بك للزعامة ، ما حدثتنا به مراثي حمد البك ، فانها تحمل لنا صورة عن الحالة في ذلك العهد ، فانها تشير إلى أناس ، كانت تشرئب أعناقهم للزعامة على عهد حمد نفسه ، وأنهم شامتون بموته ويرتقبون انتقاماً لهم ، كما أنه يظهر منها أن أهل الفكر والرأي كانوا بأجمعهم متوجهين إلى علي بك ، لأنه هو المعزَّى بحمد دون من سواه ، وهو المرشح للزعامة دون من عداه ، واليك شاهداً واحداً على ذلك

---

(١) العرفان م ٢٧ ص ٢٩٠ من مقالات الاستاذ محمد جابر .

(٢) اشار إلى هذا في مقالات الاستاذ محمد جابر .

ما قاله الشيخ علي زيدان العاملي فانه عرض بشخص أو أشخاص لا نعرفهم بأعيانهم قال[1].

فقل لحسود راح يغضي على قذى
يكابد أضغاناً ملأن الترائبا
أتأمل من حوض الأماني مشارباً
ولم تشرب الكأس الذي كان شاربا
تزحزح قصيّاً قام بالأمر حازم
وشبل غداً عن ذلك الليث نائبا

٣ ـ أن الحكومة العثمانية لم تنس ما كان من محمد علي باشا في مصر ، مع أنه كان إحدى صنائعها ، ولا ريب أنها كانت تحذر من علي بك الأسعد ، أن يكون ثانيه ، فان علي بك جمع كلمة العرب حوله في سوريا ولبنان ، في الحواضر والبوادي ، ووجه أنظارهم اليه ، فحامت آمالهم عليه ، حتى أصبحوا نصاله التي اذا رمى بها أصاب ، وجنده الذي اذا غزا به فتح ، وحتى أصبح هو الرجل الوحيد ، الذي يصلح شؤونهم فيا بينهم ، أو فيما بينهم وبين الحكومة العثمانية ، من أجل ذلك كله أصبحت الحكومة العثمانية على حذر شديد منه ، وأخذت تتربص به الدوائر .

٤ ـ أن محمد خورشيد باشا ، الوالي العثماني على البلاد في ذلك العهد كان شديد الخصام لعلي بك ، فانه كان في معية فؤاد باشا ، يوم حادثة سوريا بين المسيحيين والدروز ، وكان علي بك مدعوّاً للاشراف على الوضع وإصلاح الشؤون ، وعين عضواً في اللجنة العليا ، وجرت أمور حينئذ بينه وبين محمد خورشيد باشا ، أدت إلى حقده عليه فان علي بك لم يكن يحترمه بعد تلك الحادثة[2] ومن الصدف أنه صار والياً على البلاد بعد ذلك ، ولكن لم يكن له طريق على علي وبالطبع إنه كان يتحين به الفرص .

---

(١) هذه الابيات من قصيدة طويلة ذكرت في ديوان شبيب باشا ص ٧٥ .
(٢) ديوان شبيب باشا.

هكذا كان عصر الأمير علي بك الأسعد ، ولكنه أخذ للامر اهبته ، وأعد له عدته فانه جمع كلمة العرب حوله ، واثبت ولاءه ونصحه للعثمانيين في جميع أحواله ، وكان همه الوحيد توحيد كلمة زعماء عاملة قبل كل شيء ولكنه لم يوفق في ثامر لذلك كان ينوي إخفاء صوته ، أما توحيد كلمة الزعماء فقد فاز فيها فانه أمر آل علي الصغير ، وآل الصعبي ، وآل منكر أن لا يخاطب أحدهم الآخر في محادثاته ومكالماته الا بيا ابن العم ،[1] مع ما بينهم من بعد الأنساب كل ذلك خشية أن تبدر من أحدهم بادرة كبر ، أو هزة عزة ، فتثور في النفوس ثائرة الحسد ، وتأخذ مأخذها الوخيم ، ويستغلها خصومه وأعداؤه والظاهر أنه كان موفقاً في كل خططه ، حتى خطته الأخيرة التي أعدها لغزو ابن عمه ثامر ، فان ثامراً هو البطل العنيد الذي لا يبالي بحوادث الدنيا وهو الذي زعزع كرسي علي بك حتى أنه حاربه مراراً ، وهاجمه في إحداها في قلعته الحصينة وحاول اقتلاعه من الزعامة أو اقتلاع الزعامة منه فإن علي بك بعد أن مهد الأمور، وأحكمها مع العثمانيين ، ومع الأقطار المجاورة ، ومع ذوي النفوذ من أهل البلاد عمد الى ثامر ، فأعلن تنحيته عن منصبه ، ونصب مكانه محمد بك الأسعد ومحمد بك الأسعد لا يقل عن ثامر جرأة ونبلاً ولا عن علي كمالاً وفضلاً وهذه هي العملية الوحيدة ، التي صنعها علي بك لتصفية الأمور التي يظن أنه كان يحاول أن يحقق أمانيه بعدها فمحمد بك الأسعد كان يداً لعلي قوية ، وقد شب واياه في قصر واحد ، ورتع واياه في مدرسة واحدة ، وهما قريبان نسباً فمن الطبيعي إذن أن يتحد الاتجاه الفكري ، فإن الوراثة والبيئة متحدة ، وقد كان ولا يزال اسم علي مقترناً باسم محمد .

أما ثامر فلم يهن ولم ينكل بل استعمل شتى الأساليب ، واخيراً ذهب الى مصر وبين المصريين وبين والده مودة أكيدة واهدى اليهم خيلاً عراباً جياداً ووسطهم الى الباب العالي في استانبول وذهب بنفسه إلى هناك ، وصادف تنصيبه هوى في نفس الدولة فقيل إنها أرجعته إلى مقاطعتيه ، جبل هونين ، ومرج

---

(١) ديوان شبيب باشا ص ١١١ ومقالات الاستاذ جابر في العرفان.

العيون ، وقيل ولته المشيخة العامة مكان علي بك ، ولكن علي بك لم ينفذ شيئاً من ذلك .

وأخيراً استطاعت الحكومة أن تخدع علياً ، وأن تأسره بصورة سلمية ، بعدما طال الكلام بينه وبين الوالي في شأن ثامر ، وانتهت الأمور بموت علي بك ومحمد بك في دمشق ولم ينتفع بعدهما ثامر بشيء فان الحكومة العثمانية ألغت الحكم الاقطاعي بتاتاً وقيل إن ثامراً أشار على علي بك أن يمتنع عن الاجتماع بالوالي وأشار عليه بالثورة فلم يفعل؛ وقيل إن ثامراً أراد أن يثور على العثمانيين مطالباً بابني عمه ، لأنه ادرك خطورة الموقف ، وقيل إن سعد الدين الأمين الزعيم المعروف من آل صعب جاء بأعوانه الى صيدا بقصد مهاجمة الثكنة واستخلاص الزعيمين فوصل بعد فوات الوقت؛ وكان ثامر الحسين من أعظم الزعماء في نفسه وأشدهم صولة ، واذا صح أنه حاول الثورة والمطالبة بابني عمه فهو إما أنه من أدهى الناس لأنه عرف كيف يشتري ضمير الشعب الموالي لابني عمه وإما أنه من أطيب الناس قلباً وأطهرهم نفساً، وأخيراً مات الأميران ، علي ومحمد في دمشق ، بالوباء المعروف بالكوليرا ، ولم يستقر الحكم لثامر لأن الحكومة العثمانية ، ألغت الحكم الاقطاعي ، وحكمت البلاد بحكم مباشر وعينت في البلاد قائمقامين ، ومديرين ، وقسمت الأراضي ، وسجلتها باسم الأهلين ، ووضعت عليها الضرائب بعد أن كانت البلاد لا تعرف شيئاً من ذلك كله .

إن هذه الناحية ، تدلنا على أن علي بك ، كان من أعظم الزعماء سياسة وكياسة لأنه استطاع أن يتزعم أمته ، بالأساليب السلمية مع أنها مهددة بالفتن الداخلية وقام بنشر العلم والأدب على أتم وجه؛ وتدلنا أيضاً على أنه كان شجاً في حلق العثمانيين في آخر أمره ، وأنه كان السد الحائل بينهم وبين ما يشتهون ، من الحكم المباشر الذي طبقوه بعد موته ، وتدلنا على أنه لم يكن لثامر في نفوسهم ذلك الأثر العظيم ، الذي كانوا يظهرونه له ، ويحبون أن يظهر هو فيه .

وقد فقدت البلاد خيراً كثيراً بفقد علي بك فانها خسرت بخسرانه شرفها

وأبهتها ، وفقدت استقلالها الذاتي ، وأدبها الغض ، وفتوّتها الطموحة ، ومدارسها العامرة ، وجندية بنيها الوثابة الفاتحة[1] . واخيراً مات الأميران علي ومحمد وتلبس بالزعامة آخرون وبالطبع إن زعامتهم كانت تتلون بلون غير لونها الآنف إلا أننا لا نعرف عنهم شيئاً .

وممن استقل بالزعامة بعد ذلك بمدة لا نعرف حدودها فعلاً خليل بك الأسعد وبعده ولده كامل بك الأسعد ، فكانا زعيمين شعبيين ، وكان كامل وهو ممن عاصرناه ، بعيد الشهرة ، ذائع الصيت ، يتردد اسمه في الأندية والمحافل ، مشهوراً بالكرم والحنكة والنجدة والبسالة والبطولة والقوة وحسن الخُلق والخَلق ، وقد احس خليل بك بموجة الحياة الجديدة التي تفاجيء العالم ، وأحس بما خسره الجبل بعد علي با؛ ، من ثروته الأدبية ، ومكانته السياسية فأزمع النية على إعادة سوق العلم فاهتم بانشاء مدرسة كبرى ، كجامعة علمية دينية فلم يوفق ، ثم اقتفاه ولده كامل في ذلك فاخفق ، ثم هب علماء عاملة لتحقيق هذه الفكرة ؛ فكانت حركتهم مكللة بالنجاح العظيم في بدء أمرها ، ثم انهار ما بنوه وتداعى ما أسسوه وستقرأ حديثاً مسهباً عن جمعية العلماء العاملية في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وتقرأ فيه تاريخ كل من هذه الحركات الشريفة إن شاء الله تعالى .

مات علي بك وترك ولده شبيباً وعمره اثنتا عشرة سنة ، وبعدما ترعرع وشب وأقام في الآستانة ومات خليل بك عاد شبيب إلى البلاد ، وكان كامل قد تلبس بالزعامة ، فأصبح شبيب يزاحم كاملاً عليها ، وقد كان يلقب هو وأخوه نجيب بالباشا ولعلهما أول من لُقبا بهذا اللقب من آل علي الصغير وأخيراً اسرع القدر الى شبيب فاستقل كامل بالزعامة إلى أن توفي ، وقد حضر دوراً سياسيّاً هاماً ، وهو دور انقلاب الأمبراطورية العثمانية ، ويقال إن موقفه كان غامضاً ، وأنه كاد يقضي بذلك على حياته المعنوية ولا سيما لو بقي في قيد الحياة ، وأنه كان يقدر على أن يصنع لأمته كل شيء ، ولكنه لم يصنع لها شيئاً .

---

(١) ويشهد لهذا كله ، ماذكره الشيخ محمد مغنية في كتابه نفائس الحكم وسننقله بلفظه عند التعرض لترجمه علي بك .

وممن نبل من أولاد شبيب ، علي نصرت بك الأسعد ، الذي كان مفتش الولايتين ، حلب والشام في عهد العثمانيين ، وقد كان كل من علي بك ، وولده شبيب ، وحفيده علي نصرت شاعراً مجيداً ، وكان شبيب وولده علي نصرت من التقوى والورع والعبادة والتهجد بمكان؛ ولشبيب باشا ديوان شعر ، طبعه باستنبول وقد استطرد فيه شيئاً كثيراً عن حياة والده ، وعمه المرتفع حمد البك ، وهو من أهم المصادر التي نعتمدها في هذا الكتاب ، وسوف تقرأ شيئاً عن فتوة نجيب باشا الأسعد بن علي بك الأسعد في حادثة الخيام ، في الفصل الثالث إن شاء الله تعالى .

وكان علي نصرت بك الأسعد بن شبيب باشا يقيم في آخر أيامه في البرج في ضواحي بيروت ، وقد اجتمعت به مراراً في دارنا في ضواحي بيروت وفي داره ، فإنني زرته مرة فيها[1] فحدثني بأحاديث طريفة ، وقرأ علي شيئاً كثيراً من شعره وشعر والده ، وقد أخرج إلي صورة تاريخية ، ، تمثل المرحوم شبيب باشا ، وجملة من العلماء والأعيان يتوسطهم الشيخ الوالد دام ظله الشريف ، وقد وقف على مرتفع فإن شبيباً لما عاد من استانبول التفّ حوله علماء البلاد بغية أن يعيد مجد العلم كما كان على عهد أبيه علي بك الأسعد ، ولكن شبيباً لم يعمر ولم تستقم له الأمور .

ثم مات كامل ولم يترك عقباً ذكراً ، فقام بالأمر أخواه عبد اللطيف بك الأسعد ، ومحمود بك الأسعد ، ولم يتفقا ، فلم يستقم لهما أمر ، وأدى ذلك إلى فشلهما .

وهنا انتقلت الزعامة المطلقة ، من آل علي الصغير عامة ، ومن بيت الأسعد خاصة ، إلى يوسف بك الزين ، وهو أحد أحفاد الشيخ علي الزين صاحب شحور الذي لعب دوراً على عهد الجزار ، فقام يوسف بك الزين بها خير قيام ، فقد كان الزعيم الحازم المهاب ، ولكن زعامته كانت حكومية أكثر

---

(١) وكانت هذه الزيارة سنة ١٣٥٠ هـ فانني ذهبت اليه أنا وعمي أبو وجيه الشيخ محمد علي افندي الفقيه ، وابن عمنا الوجيه الهمام ، أبو نايف محمد افندي الحاج حسن الفقيه ، بالنيابة عن الشيخ الوالد دام ظله الشريف .

منها شعبية ، وقد بلغت منتهاها بعد انحطاط الزعامة في آل علي الصغير ، وقد كان يعاصره ثلة من الزعماء الموجهين ، إلا أن يوسف بك كان يحترم من بينهم عبد اللطيف بك الأسعد ، وكان عبد اللطيف يكبر يوسف بك[1] وقد كانت ليوسف بك منزلة سامية في نفوس الشعب ، وكانت بيده أزمة الأمور العامة والخاصة ، فبلغ من زعامته أنه لا يريد أمراً إلا نفذه ، وكان يفرض إرادته على غير الافرنسيين من أبناء الحكومة وغيرهم فرضاً ، وقد فاجأ حياة سياسية كبرى ، ليس بينها وبين الماضي أية صلة ، فاستطاع أن يقود السفينة والبحر متلاطم الأمواج ، وقد قام منفرداً بانشاء ، مشروع عظيم ، له قيمته الكبرى وهو إنشاء مشروع إسالة الماء الى النبطية وما حواليها من القرى ، وقد نجح في عمله فأتمه ، وقد تكبد الأموال الجسمة ويعد هذا المشروع من أعظم المشاريع الحيوية في الجبل ، ولا تزال جملة من القرى والحواضر في أشد حاجة إلى مشروعي إسالة ماء وتنوير فمن من الزعماء يلبي نداء أمته ويقوم بهما .

ثم لما آنس من نفسه الزعامة المطلقة ، هب لتأدية رسالته الكبرى ، وللمطالبة بحقوق أمته ، من الحكومة المحتلة ، والحكومة المحلية ، وأخيرا آب فشلاً؛ وقد ولدت له حركته هذه ، أعداء ألداء من الافرنسيين ، فتصدوا حينذاك لعرقلة مساعيه العامة والخاصة لذلك أخفق بعد ذلك إخفاقاً شديداً ، حتى اضطر إلى اعلان انسحابه من السياسة في الصحف اليومية وقد أبدت الصحف أسفها الشديد لذلك ولو لم يكن من الكياسة بمكان لناله أعظم مما رأى .

وهنا أصبحت الأمة بلا زعيم واغتدت السفينة أسيرة أمواج الأذى المتلاطم ، فاشرأبت أعناق الأمة للزعيم الجديد ، وتطاولت أعناق فحول الرجال للزعامة ، فما كان إلا وأبو أحمد عبد اللطيف بك الأسعد يلبي نداء أمته ، ويعيد مجده ومجد آبائه ويتقدم للزعامة من جديد ، ويتردد اسمه في الأندية والمحافل ، وللقديم في النفوس أثر فكان زعيماً بالاجماع ثم عاجله القدر فبويع ولده ابو

---

(١) فإن شخصاً ذكر يوسف بك بمحضر مني أمام عبد اللطيف بك فكان جواب عبد اللطيف أنا لا أفعل شيئاً لا يرضي يوسف بك لأنه رجل يفي لي وبقدرتي ولا يتقدم علي في أمر من الأمور.

كامل أحمد بك الأسعد ، وأصبح أحمد المبشر به[1] من عمه المرحوم الزعيم كامل بك الأسعد زعيماً يشار اليه بالبنان قام أحمد بالزعامة وشاركه آخرون ، من أفذاذ الأمة ، فكان في البلاد عدة زعماء وكانوا شبه أصابع الكف المتفرقة ، حتى اذا بدرت منهم البوادر ، التي لا تليق بالزعيم ، تحولت عنهم وجوه الوجوه ، فاخفقوا ، واستقل أحمد بالزعامة وأصبح هو الزعيم المطلق المطاع الذي بيده الحل والعقد ، وأصبحت الأمة تترقب منه ما تترقبه من الزعيم المصلح ، وهي لا تزال تنظره بالعين التي كانت تنظر فيها ، آباءه الصيد القشاعم ، وأجداده الأشاوسة الضياغم .

هذا حديث مجمل عن تاريخ الزعامة منذ ثلاثة قرون أو يزيد ، وسنوقفك عليه مفصلاً مرتين ، مرة عند التعريف بهؤلاء الزعماء في هذه الصحائف التي بين أيدينا ، ومرة ثانية في الفصل السياسي إن شاء الله تعالى عند التعرض لما جرى في أيام كل منهم من الوقائع والحروب والانقلابات الهامة .

ونحن نذكر الساعة ، الزعماء الذين وقفنا على شيء من آثارهم الأدبية ، وأعمالهم الحيوية ، التي يحسن بالكاتب أن يتحدث عنها ولسنا بصدد استقصاء الزعماء والوجهاء فاننا لو عممنا البحث ، أعوزتنا المصادر ، واحتجنا مع ذلك الى عدة كتب مثل هذا الكتاب ،وربما سنحت الفرصة للاستدراك فاستدركنا ومما ينبغي أن نشير اليه أنا لا نعرف شيئاً عن آل منكر ، مع أنهم أحد أقطاب البلاد الثلاثة كما أن ما نعرفه عن آل الصعبي نزر يسير، وليس الذنب علينا في ذلك، وإنما الذنب على من أهمل تاريخ البلاد الى هذا اليوم ، وفرط بالمصادر الى هذا الحد ، ولم يشجع هذه الأمور بماله ونواله ، حتى أصبح الباحث لا يجد ما يبل به ظامي أوامه ، أو يوصله إلى حقيقة مرامه .

وبهذه المناسبة نوجه نداء عاماً لكل من يقرأ هذه الكلمة راجين منه أن يتفضل علينا بمعلوماته ، ولا يبخل على نفسه وأمته بما لديه من ذلك .

---

(١) كان كامل بك الأسعد على ما يقال له يد طولى في الفراسة وقد سمعت من العلامة الشيخ رضا فرحات عن والده المرحوم الحاج محمود فرحات أن كاملاً كان ينوه بأحمد ويعده للزعامة من صغره وقد سمعت هذا الحديث منه قبل عشرين سنة تقريباً ، وقد صدق كامل في التنبؤ .

«ج» ـ تقسيم البلاد بين زعمائها [١]

كانت جبل عامل تقسم إلى ثمان مقاطعات ، تبنين ، هونين ، وساحل معركة ، وساحل قانا ، ومرجعيون ، والشقيف ، وإقليم الشومر ، وجباع ، وكان الحاكم العام ، يؤدي عنها ستين ألف غرش ، سنوياً ، مقسطة على إثني عشر شهراً [٢] .

وفي أواخر القرن الثالث عشر كان جبل عامل مقسماً إلى عدة مقاطعات يحكمها أمراؤه وهي مقاطعة جبل تبنين ، ويحكمها علي بك الأسعد في عصر المترجم ـ يعني ثامر بك الحسين ـ ومركزها تبنين ، ومقاطعة جبل هونين ، ويحكمها المترجم وقبله أبوه وجده ومركزها بنت جبيل ، وقد أنشأ فيها أبوه داراً للإمارة ومقاطعة الشقيف ويحكمها الصعبية ، ومركزها النبطية ومقاطعة الشومر ، ويحكمها المناكرة ومركزها جبع [٣] .

كانت تبنين مقر الشيخ ناصيف وابن أخيه حمد البك وحفيد أخيه علي بك الأسعد ، وكانت قلعة الشقيف مقر علي الفارس على عهد ناصيف ، وكانت جبع مقر أخيه حيدر الفارس على عهد ناصيف أيضاً وكانت دوبيه مقر مراد أخي ناصيف ، ومقر ولده قاسم المراد على عهد ناصيف أيضاً ، وكانت هونين مقر قبلان وإخوته على عهد ناصيف أيضا ولعل ميس ويارون كانتا تابعتين له وكان فيهما حصون ، وكانت شمع مقر واكد وأولاده عمر الواكد وأخوته على عهد ناصيف ، وكانت صور ، ومعركة ، وقانا ، وطرفلسيه [٤] مقر عباس المحمد

---

(١) قد ذكرنا تقسيمها قديماً وحديثاً في أوائل هذا الكتاب ، وحكيناه عن الأستاذ رضا ولكننا لم نذكر حكام المقاطعات بأسمائهم ، كما أننا أشرنا القسم من القلاع والحصون ولم نستوف الموضوع ، والذي نذكره الآن ينفعنا في البحث الذي نعالجه الساعة وفيه تتمة البحثين اللذين أسلفناهما . وهذا أحد الأمور التي استدركناها على أنفسنا ، قبل أن يستدركها علينا الباحثون ونحن ننتظر أكثر من ذلك ، شاكرين كل من يتفضل علينا بتنبيه على غلط أو سهو .

(٢) ديوان شبيب باشا ص ١٨ ولكن لم يتضح لنا أن هذا التقسيم وهذه الضريبة كانت على عهد ناصيف أوعلى عهد من قبله .

(٣) أعيان الشيعة في ترجمة ثامر الحسين .

(٤) عباس العلي وعمه عباس المحمد لا يزال أمرهما مشتبهاً لاشتراكهما في الاسم والعصر حتى نسب جماعة تمدين صور لعباس العلي وآخرون لعباس المحمد وستعرف الصحيح عند تفصيل حياتهما .

وابن أخيه عباس العلي وإخوتهما على عهد ناصيف أيضاً وكانت شحور قمر حمزة المحمد أخي عباس المحمد بعد انقضاء عهد ناصيف ومعاصريه بسنتين وكان فيها جد آل الزين الشيخ علي الزين صاحب شحور . وكان حمزة في عهد ناصيف سكن في ميس وحاريص وغيرهما على عهد ناصيف ، وكان حمد العباس المحمد يقيم في صور بعد أبيه وعلى عهد ناصيف ، وكان فارس الناصيف وأخوه شبيب بعد أبيهما يقيمان في الطيبة والزرارية ، وكان حسن الحيدر الفارس وابن عمه شبيب الفارس يقيمان في النميرية ؛ وكان سلمان العباس يقيم في بنت جبيل[1] وكان ولده حسين السلمان يقيم فيها على عهد حمد البك ، وكان ثامر الحسين يقيم فيها على عهد حمد البك أولاً ثم على عهد علي بك ، وكان محمد بك الأسعد يقيم في الطيبة على عهد علي بك ، وكان سلمان الحسين السلمان العباس يقيم في بنت جبيل مدة على عهد علي بك أيضاً هذه نبذة والمجهول أكثر واكثر فأنَّا لا نعرف شيئاً عن بقية آل علي الصغير ولا عن آل الصعبي وآل منكر ومقدَّمي جزين .

ومما يحسن بنا أن ننبه عليه أن المقاطعة قد تكون باسم شخص ويكون قسم من ذويه أو غيرهم تحت سلطته ويكون كل واحد منهم يدير ناحية من تلك المقاطعة فالمقاطعة تشبه اللواء ويكون تحتها أقضية وتحت الأقضية نواحي .

وقد لاحظنا أن القلاع والحصون أكثر مما ذكرناه آنفاً في هذا الكتاب ، وهي هذه : تبنين ، وهونين ، والشقيف ، ودوبيه وميس ، ويارون ، وشحور ، وشمع ، وجباع ، وزبقين ، ومارون وغيرها .

« د » ـ لمحة عن أحوال بعض الزعماء

« ١ » علي الصغير .

« ٢ و ٣ و ٤ و ٥ » مشرف ، وعلي منصور ، والحاج محمد بزيع ، وحسين العمر .

---

(١) لا نعرف أنه كان على عهد حمد أو على عهد من قبله .

« ٦ » الشيخ نصار الأحمد .

« ٧ » الشيخ ناصيف النصار وأولاده فارس وشبيب ونصار وعقيل .

« ٨ » الشيخ محمود النصار أبو حمد .

« ٩ » الشيخ مراد النصار وولده الشيخ قاسم المراد النصار .

« ١٠ » الشيخ محمد النصار وولداه الشيخ عباس المحمد والشيخ حمزة المحمد النصار وحفيده الشيخ عباس العلي المحمد النصار والشيخ حمد العباس المحمد النصار وأحفاد آخرون .

« ١١ » الشيخ واكد وولده الشيخ عمر الواكد وبقية أولاده .

« ١٢ » الشيخ قبلان وأخوه الشيخ ابراهيم .

« ١٣ » محمد البك وحمد البك ولدا الشيخ محمود النصار .

« ١٤ » علي بك الأسعد وابن عمه محمد بك الأسعد وولده شبيب باشا وحفيده علي نصرت الأسعد .

« ١٥ و ١٦ و ١٧ » ثامر بك الحسين ووالده حسين بك السلمان وجده الشيخ سلمان العباس .

« ١٨ و١٩ » الشيخ علي الزين صاحب شحور وحفيده صاحب السعادة يوسف بك الزين الزعيم الحالي .

« ٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ » خليل بك الأسعد، وولداه: كامل بك، وعبد اللطيف بك ، وحفيده الزعيم المطلق اليوم أحمد بك الأسعد .

« ٢٤ و ٢٥ » آل الصعبي وآل منكر والشيخ علي الفارس الصعبي وأخوه الشيخ حيدر وآخرون وآل المقدم .

حياة جبل عامل السياسية

تمهيد ، واعتذار ، وشكر ، وانتقام[1] .

أيها القارىء الكريم

إننا نضع بين يديك الحلقة الثانية من كتابنا « جبل عامل في التاريخ » وإنني على يقين بأنه سوف يوقفك على كثير من النواحي المجهولة لديك ، ويعطيك صورة مفعمة بالحقائق ، عن هذا البلد العربي الصميم ، ويصوره لك قديماً وحديثاً ، بصورة رائعة فتانة ، فان كتاب جبل عامل بمجموعه يريك هذا البلد العربي بين يديك في كتاب ؛ واذا قرأته ملأ قلبك بالذكريات البعيدة والأحاسيس السامية، والشعور المبارك ، وحلق بك إلى ماضي الأزمان ، وغابر الأيام ، حتى كأنك عشت مع آبائك ، أو كأن آباءك يعيشون معك ، وحسبنا من القول فيه ، ما قاله الزعيم اللبناني الكبير الأمير صبري حمادي ، رئيس البرلمان اللبناني في رسالته ، وهذا نصها:

حضرة العالم القدير الشيخ محمد تقي الفقيه الأفخم . بملء السرور ، وبلذة كبرى ، طالعت كتابكم القيم « جبل عامل في التاريخ » فوجدت فيه

(١) وضع هذا التمهيد مقدمة للجزء الثاني في الطبعة القديمة .

نتاجاً طيباً ، ومتعةً وفائدة ، كلفوني بما يلزم ، وفقكم الله وأعانكم لما فيه الخير والسلام[1] .

ايها القارىء

آثرت مواجهتك بهذا الأسلوب من البيان ، على الاعتذار اليك ، لأنني كنت أواجه كل معتذر عن مجهوده ، بقصور أو تقصير ، بأسوأ ألوان اللوم ، المنتهية أحياناً إلى الأستخفاف والسخرية، حتى إذا احتجت إلى الاعتذار عما وقع في الحلقة الأولى [2] عدت باللوم على نفسي قبل أن يلومني القراء الذين لم تحنكهم التجارب ، ولم تضرسهم الأمور : إن الماضي اذا لم تكثر المستندات ، وتتوفر المصادر ، أنوار مستطيرة مدبرة ، تغشاها ظلمات مقذوفة بأشباهها ؛ ولكن اليراع الباذخ الجريء ، يستوحي الريح البليل الهادىء ، ويحيا بالنفس الضعيف الخافت ، ويهتدي بالضوء السقيم الخابي ، فيكون له من ذلك ما يكون من «الذرة» في مفعولها الجبار فيحول الظلمات الحالكة من سباتها العميق ، وسكونها الأبدي ، إلى حركة دائمة ، ووجود مغمور بالحياة الفرحة الجذلة ، وينشر فجر الحق ناصعاً مستطيراً في آفاقها ، فيجلل مبسم الدنيا بأنواره الوضاءة الخاطفة ، ويتحرك في كبدها ، كما تتحرك السلامة في قلب المريض ، ويدب بين طياتها دبيب الدم في عروقه الخاوية، حتى تعود سيرتها الأولى؛ إن اليراع كان يحاول القيام بهذا الواجب، منذ سنوات تزيد عن العشر ولكنه كان يرى نفسه لا يقوى على تحمل هذه المسؤولية ، بتأدية هذه الرسالة ، ولا يستطيع التعهد بالبلاغ والأداء ، حتى أوشك أن يأخذه تيار التغابي الجارف ولكن الثقة لا يضيع ما استحفظ ، والأمين لا يخون الوديعة والرائد لا يكذب أهله ، ولا يدخر دونهم مجهوداً .

---

(١) بيروت في ٢٨ ك ١ سنة ١٩٤٥ م التوقيع صبري حمادي

(٢) ففي الجزء الأول اغلاط مطبعية لا تحصى ، بعضها غير مفهوم ، وبعضها مصحف تصحيفاً يعكس المقصود الى ضده ، لذلك قلما يهتدي اليها القارىء بنفسه وفيه أغلاط غير مطبعية ، والعذر في ذلك ما يعتذر به سائر الكتاب عما وقعوا فيه .

ايها القارىء ·

إذا قرأت « جبل عامل في التاريخ » فاذكر غموض المصادر ، وقلتها وحراجة الظروف ، التي حاولت خنق الكتاب في مهده ، بعدة أساليب واهية ، فاضطرت مؤلفه إلى القناعة بكل شكل من أشكال طبع الجزء الأول وبكل لون من ألوان الاخراج .

إن السلطة لم تسمح له بالنشر ، لأنه يبحث عن قطر مجهول ، ولم تسمح له بالورق ، لأنه يبحث عن بلد ليس . . . . إقرأه ، وقل لهؤلاء المأجورين ، أن عاملة بن سبأ ، ليس من أحفاد الزنوج ، وأن لبنان ليس بالبلد المجهول كلاً أو بعضاً ؛ وقل لهم إننا اليوم في عصر النور وعصر الذرة وعصر المواصلات السريعة ، وعصر الوحدة العربية الكبرى .

وقل لهم ، إن لبنان عربي بأرضه ودمه ، وروحه وأفكاره، عربي ملء كلمة العروبة . وقل لهم ، من سفوح لبنان سوف تنتشر طلائع النهضة العربية الصريحة ، والمبادىء القومية الصحيحة، التي لا تعرف الالتواء ولا التحيز.

وقل لهم ، إن رجال لبنان هم الذين يفهمون معنى العروبة ، ويعرفون كيف يخدمون العرب .

وقل لهم ، إن العرب عائلة واحدة ، في بيوت متفرقة ، فلا لبناني ، ولا عراقي ، وقل لهم :

ليس بين العراق والشام حد هدم الله ما بنوا من حدود

أيها القارىء :

اذا كنت استحق شكراً على جهود ، كان من يشجعني على هذه الجهود شريكي في قليله وكثيرة ، وإن الشباب العاملي المهاجر ، قوي الاحساس ، ثائر العواطف ، وثاب الهمة ، يستمد قوته من أسمى غاية ، ويراشق بهمته أبعد الأهداف وفي طليعة هؤلاء ، أبناء الجالية الأماجد ، المقيمون في مقاطعة

سيراليون فان لهم أيادي بيضاء ، على كثير من المشاريع الحيوية ، العامة والخاصة .

وليس نشر الحلقة الأولى من « جبل عامل في التاريخ » إلا مشروعاً من تلك المشاريع العامة ، فان (جبل عامل) لا يخص واحداً ولا آحاداً ، وانما هو للأمة العاملية بأسرها وللعرب قبل ذلك أجمع ، ولله سبحانه قبل كل شيء .

حروب ، مغازي ، زعماء ، شؤون أخرى(*) .

جبل عامل في تسعة قرون :

إن تاريخ جبل عامل بخصوصه منذ فتح المسلمون سوريا إلى نهاية ألف عام أو يزيد ، يكاد يكون غامضاً ، حتى كأنه ألقي عليه ستر من النسيان ، فقد كانت بلاد الاسلام الواسعة يحكمكها آحاد من الولاة ، وكانت سوريا بأسرها يدير شؤونها والٍ واحد في زمن الخلفاء الراشدين، ثم كانت أمداً طويلاً مقر العرش الأموي .

ومن الطبيعي أن لا يكون للمقاطعة الصغيرة ، التي ليست مقراً للولاة ولا للخلفاء ، أهمية كبرى في التاريخ ، واذا كانت تتقصد الاحتجاب عن العاصمة أو الحاضرة جهدها، فلا حرج على التاريخ إن لم يلم بشيء من شؤونها .

وجبل عامل ، يتشيع منذ اليوم الأول ، وهو في قلب سوريا ، وسوريا

(*) وعدنا قراءنا في آخر الحلقة الأولى أننا سنحدثهم عن الزعماء أمس واليوم ، ليكون القارىء عارفاً بأبطال الحوادث عندما تمثل بين يديه ولكن الظروف دعتنا للاضراب عن ذكر الزعماء الماضين والحاضرين ، نعم سنعرف كل زعيم يمر معنا بكلمة مختصرة في هامش هذه الحلقة .

عاشت نحواً من قرن ، وهي مقر العرش الأموي ؛ والأمويون من أعظم الناس عداوة لبني هاشم وأشياعهم ، وهذه العداوة ليست وليدة ذلك العصر ، فانها عاشت عقوداً في الجاهلية ، وخطت على رقاب عقود في الاسلام ، تلك هي عداوة هاشم وأمية ، التي انتهت الى أعظم صورة من صورها : علي أمير المؤمنين عليه السلام ، ومعاوية بن ابي سفيان ، ولقد تحولت من صبغة قبلية إلى صبغة دينية ، ومن صبغة دينية ، إلى صبغة سياسية .

ولقد استطاع الأمويون التغلب على خصومهم في أول الأمر ، فشفوا غيظهم ، وبردوا قلوبهم الحرانة ، حتى لم يستبقوا زيادة لمستزيد ، فلقد أباحوا دم الشيعة ، وقتلوهم تحت كل حجر ومدر ، وأوغلوا في سب علي (ع) إلى أن منع منه حفيدهم عمر بن عبد العزيز « أعدل خلفاء بني مروان »[1] ثم انقرضت الدولة الأموية من المشرق ، وتقوضت أركانها على ذلك الاساس .

وقد استطاع علي (ع) بعد مجاورة ربه ، أن يرسل قوة هائلة ، من مبادئه السامية ، وأهدافه المقدسة ؛ على دولة عظيمة ، فيدك هضابها الشامخة ، وينكس أعلامها الباذخة ، ويبقي أطلالها مطموسة اثني عشر جيلاً ، ثم قامت بعدها دولة أخرى ، أعظم سطوة ، وأبعد سلطة ، وأوسع نطاقاً ، باسم علي وبنيه ، تلك دولة بني العباس ؛ فدلنا ذلك على أن علياً (ع) كان أبعد نظراً في سياسته وأعظم تفكيراً فقد استطاع أن يفوز في النهاية ، وأن يحطم عدوه تحطيماً لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، حتى أصبح الناس يخجلون من الانتساب لبني أمية نسباً ومذهباً ، وكفاه هذا الانتصار الخالد الشريف ، انتصاره في المبدأ ، والفكرة ، والرأي ، فان هذا الفوز هو الفوز الحقيقي ، وهذا الانتصار هو الانتصار الذي يتطاحن لأجله عقلاء البشر .

---

(١) وفيه يقول الشريف الرضي مخاطباً له وقد مر بقبره في دير سمعان :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين فتى من أمية لبكيتك
أنت أنقذتنا من السب والشتم فلو أمكن الجزاء جزيتك
دير سمعان لا عدتك الغوادي خير مَيْتٍ من آل مروان ميتك

قامت دولة العباسيين ، وهم هاشميون باسم علي وبنيه (ع) ولكنهم رأوا بعينهم أن هذا الاسم هو الذي قوض دولة خصومهم وخصوم بني عمهم ، فرأوا أن يستأصلوا العلويين بشتى الوسائل ؛ فاقدموا على الوقيعة فيهم ، وانتصروا في الظاهر عدة قرون ، لكن دولتهم استؤصلت على ذلك الأساس بعينه ، كما يعترف به جملة من المؤرخين .

فكان علي هو الغالب ، وكانت سياسته هي السياسة السائدة ، ثم جاءت بعد ذلك دول أخرى ليس لها تلك الشؤون وكانت مزيجاً مركباً من عناصر مختلفة ، ومواد شتى .

فمن الطبيعي إذن ، أن يكون جبل عامل الشيعي ، وهو القطعة الصغيرة من أرض الشام ، التي هي مقر العرش الأموي مهملاً نفسه ، ومن أجل ذلك كان غير واضح في التاريخ ، وكان يرد ذكره استطراداً .

هذه صورة مصغرة عن جبل عامل في تسعة قرون ؛وربما توفقنا لنقل نبذة من كلمات المؤرخين المتعلّقة بماضي جبلنا المحبوب في ظروف أخرى ، فقد مضى عليه مدة طويلة وهو ساحة حرب بين المسلمين والافرنج وبهذه المناسبة كثر التعرض لقراه[1]

ويظهر أن اهلها كانوا متفقين مع الافرنج كما يحدثنا به الشهابي[2] وابن جبير[3] وقد كان يحكمه زعماؤه أحياناً ويحكمه آخرون في حين آخر ، ولا نعرف من زعمائه الأقدمين إلا بشارة بن أسد الدين العاملي[4] وبشارة بن مقبل القحطاني[5] وبعض آخر .

(١) فذكرت هونين ، وتبنين ، والصرفند ، وصور ، وصيداء وبانياس ، وغيرها مراراً .

(٢) ص ٣٨٣ في حوادث سنة ٥٨٤ هـ فانه ذكر أن زعيمهم كان شيعياً وأنه كان يحكم على ستين ألفاً من الشيعة وأنه هادن الافرنج في صور

(٣) في رحلته ص ٢٤٩

(٤) تقدم نسبه ص ٢٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب محكياً عن ابن فتحون وذكر الأمين في الأعيان ج ١٥ ص ١٠٣ أن بشارة هو أسد الدين بن عامر ، ولا نعرف مستنده

(٥) ديوان الباشا ص ١٦

جبل عامل في القرن العاشر والحادي عشر الهجري

كانت سوريا إلى سنة ٩٢٢ هـ بيد الجراكسة[١] وكانت الحرب قائمة بين الشاه عباس ، والسلطان سليم الأول العثماني وكان الشاه عباس على صفاء ومحبة مع الملك الأشرف قانصو ، الغوري الجركسي ملك مصر وسوريا ، فأسعفه بوضع الخفراء في السبل لمنع وصول القوافل المعدة لنقل الذخائر إلى جند العثمانيين ، وقد انتصر السلطان سليم في حربه هذه ، فحول قواته إلى حرب الجراكسة ، وكان خير بك نائباً في حلب ، والغزالي نائباً في دمشق ، فكاتبهما السلطان سليم سرّاً ومناهما بالولاية على الايالات المصرية والشامية ، ولما بلغ الملك الأشرف توجه القوات العثمانية لحربه خرج بالعساكر المصرية إلى نواحي حلب ، وولى عليها النائبين الآنفين ، فالتقى الجمعان في مرج دابق فخانه النائبان ، وكان الأمير فخر الدين المعني الأول حاضراً معه ولكنه تنحى ولم يشترك في الحرب فانتصر السلطان سليم انتصاراً هائلاً وملك حلب وحماه وحمص ودمشق وبيت المقدس وغزة[٢] وقتل الملك الأشرف أو انتحر عندما شاهد الخيانة ثم قضى السلطان سليم على الجراكسة في مصر ودخلها بعد حرب طاحنة .

---

(١) أصلهم من سيبريا ، وكانوا عبيداً عند الأتراك وترقوا فأصبحوا يحرسون القلاع ، ومن أجل ذلك سموا البراجنة ثم ترقوا وتسنموا الملك ، وكان أول تشكيل دولتهم في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ لاحظ تاريخ الشهابي ص ٥٠٢

(٢) الشهابي ص ٥٥٩ ولكن الخال في المقدمة ينقل عن تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس أن العثمانيين ملكوا سوريا سنة ٩٣١ هـ

ملك السلطان سليم الديار الشامية، في التاريخ الآنف ودعا اليه زعماء البلاد، وأعطى كلاً مقاطعته[٢] والظاهر أن الوضع استمر على ذلك، وفي سنة ١٠١٦ هـ أرسل الأمير فخر الدين المعني الثاني ابن قرقماز ابن الامير فخر الدين الأول، ثلاثمئة ألف قرش مع ولده علي وكان عمره تسع سنين إلى الوزير فعفا عنه وأنعم عليه بسنجقية صيدا وبيروت وغزير، وفي سنة ١٠٢٠ هـ أراد الوزير قطع رواتب السكمان الذين في قلعتي بانياس وشقيف أرنون، فارضاه الأمير فخر الدين[١] ونحن إذا درسنا التاريخ، وجدنا الأمير فخر الدين المعني الثاني يحكم شطراً وافراً من لبنان في سنة ١٠٢١ هـ ووجدنا قلعتي بانياس والشقيف بيده، وكانتا محصنتين على نهج القلاع والحصون؛ وقد جعل الشيخ حسين اليازجي وكيلاً في قلعة بانياس، وكان يرجع اليه شرقي بلاد بشارة، والشيخ حسين الطويل وكيلاً في قلعة الشقيف وكان يرجع اليه إقليم الشومر والتفاح؛ وكان العامليون لا يستطيعون حراكاً، لأنهم مهددون بغضب السلطة العثمانية قبل كونهم مهددين بالقلاع ومن يحميها؛ وكان زعماء العامليين إذ ذاك، يقيمون في الزرارية، وعيناثا، والكوثرية، وبنت جبيل، وحومين الفوقا.

---

(١) في تاريخ الشهابي ص ٥٦١ ما يدل على ذلك، وهو لم ينص على جبل عامل بالخصوص كما لم ينص على بعلبك وفلسطين، وانما نص على أنه ولى الأمير فخر الدين بن عثمان المعني على بلاد الشوف والأمير عساف على بلاد كسروان نعم ذكر في ص ٦١٢ في حوادث سنة ٩٥١ هـ أنه فيها توفي الأمير فخر الدين بن عثمان المعني، وأنه كان يحكم بلاد عربستان من حدود يافا إلى طرابلس وكانت جميع تلك البلاد تحت أمره، ويذكر أن ولده قرقماز تولى الحكم بعده، وأنه ضعف أمره بعد ذلك.

وأنه توفي سنة ٩٩١ هـ وأن ولديه فخر الدين الثاني ويونس توليا الحكم بعده، ويذكر أن الأمير فخر الدين تولى على صفد في سنة ١٠١٢ هـ ولكن الأستاذ الشيخ أحمد رضا يقول في م ٢ من العرفان ص ٢٢٦ كانت جبل عامل قبل سنة ١٠٢١ هـ حالها حال سائر البلاد السورية ينالها ما ينالهم - كذا - من خير وشر وفي سنة ١٠٢١ هـ الحقت جبل عامل بحكومة جبل لبنان في زمن الأمير فخر الدين المعني - وكانت قبل ذلك قطعة مستقلة في أيالة صيدا كما صرح به جودت باشا - انتهى.

وهو لا يتوافق كثيراً مع ما يذكره الشهابي فانه ينص على أن سنجقية صيدا أو صفد كانتا تحت حكم المعنيين قبل سنة ١٠٢١ هـ.

(١) ذكره الشهابي ص ٦٢٦.

ويظهر أنه لم يكن بين هؤلاء الزعماء وبين الولاة العثمانيين علقة ولا صلة ، وأنهم كانوا يتصلون بالمعنيين وأشباههم ، ويخضعون لهم على كره وبغضاء .

ففي سنة ١٠٢٢ هـ حدث اختلال سياسي أدى إلى عزم الأمير فخر الدين على الهزيمة في البر أولاً ثم البحر أخيراً ، فتحسس العامليون ، وشرعوا في استغلال الموقف الجديد ، وحاولوا التفلت من مخالب المعنيين فاجتمعوا في بلاد بشارة ، ولا نظن هذا الاجتماع يتخطى بيت شكر وزعموا الحاج علي وأخاه الحاج ناصر الدين ابني منكر ؛ غير أن هذه الحركة لم توصلهم إلى نتيجة محبوبة ، لأننا لم نجد في التاريخ ما يدل على تغيير الوضع قليلاً ولا كثيراً ، بل ربما كان الأمر على العكس .

ففي أثناء اجتماعهم ، تحرك جماعة من أهل الكوثرية من أتباع آل علي الصغير ، وسلبوا بعض المارة وكان غرضهم بذلك تشويش الأمن الداخلي ليضطر الأمير فخر الدين إلى توزيع قواه فاخبروا الأمير فخر الدين بذلك وكان مقيماً تحت قلعة الشقيف ينتظر فرصة للهزيمة لأن الطرق أوصدت دونه وكان معه من السكمانية فقط الف فارس ، فذهب من ساعته بخيله ورجله ، إلى الكوثرية ، ونهب جميع منقولات أولاد علي الصغير ـ وكانوا غائبين في جمعية مشايخ بني متوال ـ في بلاد بشارة كما في رواية الصفدي[1] وهذا الحادث يوضح

(١) ص ١٦ وقال الشهابي ص ٦٣٠ من تاريخه حضرااليه ـ يعني الى فخر الدين ـ أناس وأعلموه أن أولاد علي الصغير سلبوهم في الطريق فبالحال توجه وباغتهم في قرية الكوثرية ، وقبل وصوله بلغهم الخبر بقدومه فهربوا فنهب القرية ، ورجع الى القلعة .
ولعل هذه الحادثة هي التي يحدثنا عنها الشيخ أحمد رضا في م ٢ من العرفان ص ٢٢٦ حيث يقول : فان الأمير فخر الدين أغار على قرية الكوثرية في مقاطعة الشومر من جبل عامل وكانت محلاً لآل علي الصغير وترك عسكره يعبث فيها ثلاثة أيام بعد أن قتل المقاتلة ـ وسبى الذرية ـ انتهى فانا لا نعرف يوماً لفخر الدين المعني في الكوثرية غير اليوم الآنف وحديث الصفدي عنه أوثق الأحاديث ، لأنه معاصر له ولعله كان يكتب الحوادث في وقتها ، وقد كان يوقتها باليوم والشهر والسنة ، والقارىء يرى أن الصفدي والشهابي نفيا القتال ونصًا على انه لم يقف في وجهه احد ولا نعرف ما استند اليه الأستاذ رضا ولعل بعض الباحثين يوضح لنا هذا الحادث المجهول

لنا مبلغ سلطة الأمير فخر الدين ويعرفنا قسوته في الحكم ، واستبداده المطلق ، الذي لا يعرف الرحمة ، ولا يفهم للعدل قيمة ولا وزناً .

وربما نستفيد من اجتماعهم في بلاد بشارة ، أنها كانت خارجة عن سلطة المعنيين ، وأنهم من أجل ذلك اختاروا الاجتماع فيها ؛ إلا أن يكون ذلك من جهة انزوائها وبعدها عن دار الحكم وأنهم إنما زعّموا آل منكر مع أنهم ليس لهم سلطة مستقلة ابتعاداً عن التهمة .

وهناك حديث آخر ، يؤكد هذا الاستنتاج ، وربما نستفيد منه أن هذا الشطر الخارج عن سلطة المعنيين ، كان محكوماً لبيت شكر فقط .

ففي شتاء سنة ١٠٢٣ هـ أرسل حسين الطويل الوكيل المرابط في قلعة الشقيف أناساً لينهبوا بعض قرى صيدا ، وينهبوا العرب الذين اعتادوا النزول في الحولة ، ثم يبيعون نصف المغنم للعلوفة[٢] ويقتسمون النصف الآخر ، فعند ذلك تحمس أصحاب حسين اليازجي حاكم قلعة بانياس المرابط فيها ، وطلبوا منه أن يرسلهم إلى مكان ينتفعون من غزوه ، فارسل ثلاثمئة رجل إلى حسين الطويل ، وضم اليهم حسين الطويل مئتي رجل ، وتوجه الجميع وكبسوا قرية عيناثا من بلاد بشارة ، وكان الخبر قد بلغ زعمائها بيت شكر ، فجمعوا الفتيان من القرى المجاورة والتقى الجمعان ، فقتل العامليون قائد الفرقتين ـ على قول اوغلي ـ سردار السكمانية وستة بلو كباشية وستة عشر آخرين ؛ وجرحوا عدة مجاريح ؛ وانهزم الجمع وولوا الدبر ، فاتبعهم بيت شكر وأعوانهم ، إلى قرية عين الدقيقة من الحولة[١] .

---

(١) العلوفة : الراتب المعين للجند ، والسكمان هم الجند ـ الذي يتقاضى راتباً ، وهم يطيعون حكام المقاطعات اذا كانوا يكرمونهم دون الوزراء والولاة .

(١) نقل الحادث بهذه الصورة مستفاد من تاريخ الصفدي ، الموجود في ذلك العهد لاحظ ص ٣٩ و ص ٤٠

وذكر الشيخ أحمد رضا في م ٢ من العرفان ص ٢٢٦ أن كلًّا منهم أغار على القرى الراجعة =

وهذا الحديث يدلنا على أن الحولة كانت من أعمال صيدا ، وأن صيدا خارجة ، عن منطقتي بانياس والشقيف وكذلك بلاد بشارة ، فهي إما تابعة لصيداء وإما لصفد وإما أنها كانت قطعة مستقلة في أيالة صيدا كما قاله جودت باشا(٢) إذ من البعيد أن يتفق حاكمان على مهاجمة الرعايا الراجعة إلى أحدهما بدون ذنب أو جرم . وهذا الحديث يكشف لنا على أن الشكريين هم حكام بلاد بشارة في ذلك التاريخ دون غيرهم ؛ وقد صرح بذلك بعض مؤرخي العامليين ، ويدلنا على مبلغهم من النجدة الملتهبة والبسالة المشبوبة ، والتيقظ الواعي ومن ثم استعدوا ، وكانت همتهم قتل القائد الأكبر ، والفتك بالضباط ، وهم أعيان الجند ؛ فإذا قتلوا تفرق جمعه ، وتبدد شمله ، وهكذا كانت النهاية .

ولا نستبعد أن يكون الشكريون قد تسلموا بلادهم من قبل حاكم صيدا لأنها لم تكن باشوية في ذلك التاريخ، أو من قبل المعنيين إذ من البعيد أن تكون كتبت عليهم من قبل والي الشام ؛ ثم يهمل التاريخ ذلك كل الأهمال : إجتمع زعماء عاملة ، في بلاد بشارة ، وتأسس هذا الاجتماع لانتخاب زعيم ، وتم الانتخاب ، وزعَّموا آل منكر ، وساعدتهم الظروف السياسية ، فان الأمير فخر الدين فر في البحر هارباً ، وبعد فراره قدم أخوه الأمير يونس المعني مالاً جزيلاً إلى أحمد حافظ باشا ؛ فأعطاه سنجقية بلاد الشوف ، ولكنه لم يطلق له والدته وبقية الأسرى ، ثم إن أحمد حافظ باشا جهز جيشاً لمقاتلته في سنة ١٠٢٣ هـ لبعض الأسباب ، بقيادة الحاج علي بن منكر ، واخيه الحاج ناصر الدين بن منكر ، وحسن باشا البستانجي حاكم صيداء ومحمد آغا اليازجي بلو كباشي ، ففر الأمير يونس ؛ واستمات أهالي الشوف في الدفاع عن أعراضهم ، فانكسر جيش الحافظ بعد خساة خمسمئة مقاتل ، أكثرهم من

= للآخر ، ولم يصرح بالمستند ولعله اعتمد على رواية الشهابي في تاريخه ص ٦٤٠ و ص ٦٤١ وينبغي للباحث أن لا يستسلم للروايات على عواهنها ، فمن البعيد أن يغير أحدهما على رعايا الآخر من غير أن يكون بينهما سابقة شحناء أو بغضاء ، في حين أنهما منصوبان من قبل حاكم واحد ، وإن كنا لا نستبعد شيئاً على ذلك العصر .

(٢) راجع أول هذا الفصل

السكمانية ومن جملتهم محمد آغا اليازجي بلو كباشي(1) ثم حاول الحافظ جمع قواته من جديد ، وراسل الحرافشة ، ويوسف باشا بن سيفا ، وطارد المعنيين ، وأسر النساء والأطفال ، وأحرق بنو سيفا كثيراً من بلاد الشوف وعيد الحافظ عيد رمضان في مرجعيون وبينما هو في ريعان انتصاره ، وإذا بالقدر يفاجئه بقتل الوزير نصوح باشا وتعيين محمد باشا القبودان وزيراً من بعده ، وكان بينه وبين الأمير فخر الدين أسباب مودة(2) ومذ عرف أحمد حافظ باشا بذلك رجع إلى الشام(3) وفي سنة ١٠٢٤ هـ أعطى الوزير محمد باشا سنجقية صفد للأمير يونس المعني ، وسنجقية صيدا ، وتوابعها للأمير علي المعني(4) وكان الأمير يونس الحرفوشي يتدخل في كثير من هذه الشؤون ، ويتوسط في إرجاع سلطة المعنيين كما يبدو من ملاحظة مجموع الحوادث ، حتى أنه تعهد هو وحسين اليازجي للعثمانيين في تنفيذ الشروط التي من جملتها هدم قلعتي بانياس والشقيف فقبل المعنيون بذلك مرغمين لأنهم أدركوا سوء العاقبة ولكن اليازجي أكد لهم أنه لا يرى وجهاً للخلاص غير ذلك فنفذوا الأوامر ، وهدمها البناؤون في أربعين

يوماً(1) ولا نستبعد أن يكون هدم القلاع أحد التدابير التي اتخذها الأمير يونس الحرفوشي لمساعدة العامليين ، وإضعاف المعنيين ؛ وساعده على ذلك الأمر رغبة الحكومة فيه ، وقد يكون اشترك هو وحسين اليازجي في هذا التدبير فان حسيناً طلب سنجقية صفد في سنة ١٠٢٧ هـ ووافقه زعماء عاملة خاصة وهذا مما يدل على تفاهمهم من ذي قبل في هذا السبيل .

وقد انتفع العامليون بهدمها بعد عقود من السنين ؛ فانها سهلت لهم

---

(1) الصفدي ص ٣٦ و ص ٣٧
(2) لأنه استطرق لبنان بعد عودته من مصر معزولاً فقدم له الأمير فخر الدين أموالا جسيمة .
(3) الشهابي ص ٦٣٩ و ص ٦٤٠
(4) الصفدي ص ٤٦
(1) الصفدي ص ٤٩ و ص ٥٠

التمرد على غاصبيهم حقوقهم ، فكان لهم بعد ذلك مواقف محمودة ، ثم شيدوها فكانت عوناً لهم وملجأ.

وإذا كانت الخطط السياسية قد تبدلت بتبدل الوزير ، ورجوع أحمد حافظ باشا إلى الشام وفشلت أساليب زعماء عاملة ، فمن الضروري أن يحفظوا خط الرجعة ، وقدفعلوا، فبينما هم يتزعمون الجنود المحاربة للمعنيين سنة ١٠٢٣ هـ وإذا بالسياسة تدعوهم لأن يسيروا في صفوفهم وأن يفكروا في خطط أخرى ، ومن أجل هذا كله ، نجدهم في سنة ١٠٢٥ هـ في شعبان يقاتلون معهم في حرب الناعمة ، التي كانت بين المعنيين وبين ابن سيفا والشيخ مظفر ، فان ميسرة جيش المعنيين كانت مؤلفة من العامليين ومن رجال الأمير علي الشهابي ؛ وكانت الغلبة للأمير علي المعني[٢] ثم إن الأمير علي قسم البلاد بعد هذه الواقعة فاعطى عمه الأمير يونس حكم بلاد الشوف وبلاد بشارة وبلاد كسروان ، وأعطى الأمير علي الشهابي حكم بلاد مرجعيون ، والحولة ، وأعطى الشيخ حسين اليازجي حكم بلاد صفد وبلاد الشقيف ، وأبقى حكم مدينة صيدا في يد الشيخ حسين الطويل ، وكل توجه لمنصبه غير راض[٣]

وهكذا كانوا يقاتلون معهم في جميع غزواتهم ومدافعاتهم ، ولكنهم هل كانوا مختارين في ذلك أو مرغمين ، ذلك شيء لا نعرفه ؟

والذي نعرفه أن الأمير يونس المعني كان يقيم في صور أثناء توليه على عاملة ، وحسين اليازجي كان يقيم في تبنين أثناء توليه عليها ، وأنهما كانا يقودان الشعب بأجمعه وقت الحاجة ويوجهانه حيث أرادا.

---

(٢) ملخص عن تاريخ الصفدي ص ٥١ و ٥٢ وقد ذكر ذلك الشهابي أيضاً ص ٦٤٩ ولم يصرحا باسم أحد من زعماء عاملة في هذه الوقعة ولا في هذا التقسيم .

(٣) ذكره الصفدي ص ٥٣ و ٥٤ وذكره الشهابي ص ٦٥١ وفي حديثه زيادة لا يهمنا أمرها ، وجعل ذلك في حوادث سنة ١٠٢٦ هـ ثم ذكر الشهابي في مقام آخر ان الأمير علي المعني ، سلخ بلاد بشارة عن حكم الشوف، وجعلها تابعة إلى ولاية صفد وصار الجميع تحت حكم حسين اليازجي .

ثم انه عندما تولى الأمير علي المعني حكومة البلاد ، وعاد الحكم للمعنيين ، أضرب زعيم العامليين الحاج علي بن منكر ، عن الدخول تحت سلطتهم ، ونزح الى بعلبك ، وأقام عند الحرافشة ، وكان قد تزوج الأمير احمد بن الأمير يونس الحرفوشي بفاخرة ابنة[1] الأمير علي المعني ، وسكن في قرية مشغرة ، وأسس بها أساس بناء عظيم ، ليسكن هناك وابتدأ يكاتب بني متوالي ، فحضر إليه أولاد داغر ، وأولاد علي الصغير وبيت منكر ، فلما بلغ الأمير المعني ذلك ، أرسل إلى والده الأمير يونس الحرفوشي ، أن يمنع ولده من السكنى في قرية مشغرة ، فأرسل جواباً إن ولدي مراده القرب منكم ، وأن يكون هو وزوجته بقربكم ، وتحت أنظاركم فما قبل الأمير علي بذلك وألزمه أن يرجع إلى بعلبك[2] .

وهكذا ما برح العامليون مجدين غير أن هذه الحركة لم تكن غامضة ومن ثم اتضحت أهدافها بسرعة ، وأعقبها الفشل ، ولكن ذلك لم يفت في عضد العامليين ،فان الزعيم ابن منكر ، نزح الى الديار البعلبكية ، وأقام ضيفاً كريماً عند الحرافشة ، ولعب دوراً هاماً ، وأنشبها حرباً أدبية طاحنة ، ومن القضايا

---

(١) كان عمر الأمير علي المعني في هذا التاريخ نحواً من عشرين سنة فقد ذكرنا في ص ٢٢ من هذا الجزء ص ٣ أن عمره كان في سنة ١٠١٦ هـ تسع سنين ويبعد أن يكون له بنت في محل الزواج ، كما يبعد أن يجري عليها العقد وهي دون البلوغ وصرح الصفدي ص ٦٦ أنه تزوج بابنة الأمير فخر الدين ، ورواية الشهابي صريحة بأنها ابنة الأمير علي ، والعادة تقضي بصحة رواية الصفدي لما قلناه ولأنه معاصر للقوم ومتخصص في تدوين ما يجري لهم ، وقد توفي زوجها الأمير أحمد سنة ١٠٣٠ هـ وكان له منها ولد ويكون عمر الأمير علي في ذلك التاريخ نحواً من ٢٤ سنة .

(٢) ما بين الأهلة هو لفظ الشهابي في تاريخه ص ٦٥٥ ذكره في حوادث سنة ١٠٢٧ هـ وأما الصفدي فقد ذكر هذا كله ص ٦٦ و ٦٧ وزاد عليه أشياء لها قيمتها منها أن العامليين الذين زاروه حملوا له هدايا ، ومنها أنهم وفدوا عليه ـ بحجة أنهم يسلمون على قرابتهم الحاج علي ابن منكر لكونه كان نازحاً عنهم من حين رجع الأمير علي إلى البلاد وحكمها ، ونازلاً عند ابن الحرفوش الأمير يونس ـ ومنها أن الأمير علي فهم غرض الحرافشة وأنهم يريدون استمالة العامليين واحتلال مشغرة فأرسل الأمير علي الى الأمير يونس الحرفوشي ـ مع السيد نور الدين من قرية ـ

التي لا يشك الباحث فيها ، أن نزوحه كان خوفاً من خدع المعنيين ، وتحرساً من اغتيالهم ، لأنهم عرفوا ما تنطوي عليه نفسه ، وقد كان نزوحه هذا مبنياً على تواصل المواصلة والزيارة ، لتكون هذه الحفلات العلنية ، حفلات سياسية خفيّة، تنتج التدابير ووضع الخطط في جو هادىء ولا ريب أنهم كانوا يجمعون المال والسلاح ، أو يفكرون في الحصول عليهما والمال هو القنبلة الوحيدة التي يتسلح بها زعماء الاقطاع في ذلك التاريخ فانهم كانوا يشترون ذمم الولاة والوزراء والجند بآلاف القروش ، وكان يكفي العامليين في الخروج عن سلطة المعنيين ضمان بلادهم أو بلاد المعنيين أنفسهم ، بأكثر مما يضمنونها به فان المقاطعات كانت تباع كما تباع السلع بالمزاد العلني ، ولا يضر الولاة بعد ذلك ما يكون من إرهاق وإرهاب وضغط ، وأنّى للعامليين بالثروة في ذلك العهد ، والمعنيون لا يردعهم عن حلب درهم دين ولا وجدان .

إن العامليين كانوا يتصلون بالحرافشة على أساس الجامعة المذهبية فقط ، فان البعلبكيين والعامليين يشتركون في اعتناق التشيع منذ العهد الأول ، والطائفية في تلك العصور كان لهامفعولها ، وما زال العامليون والحرافشة جادين في أمرهم ، يستفرصون كل سانحة ، والمعنيون كذلك وعلى هذا الأساس تنبه الأمير علي المعني إلى الخطر المحدق به .

وسارع إلى جمع قواته بحجة وضع معاهدة سلمية بينه وبين الأمير منذر وابن اخيه ، المطالبين بقرية الناعمة ، وأنهم إن لم يرضوا بذلك فهو مستعد لقتالهم ،

= جبع يطلب منه ردع ابنه عن البناء ومنعه من الأقامة في مشغرة اذا كان يرغب في استبقاء الصداقة فخاتله الأمير يونس في الجواب ، فأرسل اليه ثانياً مع السيد المذكور أنه لا بد من ذلك فمنع ابنه الأمير أحمد واعتذر اليه على لسان قريبه ـ أمير حاج ـ ومع هذا كله ما انقطعت حكاياتهم ومراسلاتهم الى مشايخ بني متوال وهم لم يمتنعوا من التردد اليه انتهى . حافظنا على لفظه مع لحنه .

والظاهر أن السيد نور الدين الآنف هو أخو صاحب المدارك ـ وكانت هذه الحركات بعد وفاة صاحب المدارك بنحو من سبع عشرة سنة وربما كان يوجد شخص آخر بهذا الاسم ، ولعل السيد نور الدين لم يكن مهاجراً الى مكة في هذا التاريخ والله العالم .

وكان هدفه الحقيقي ، من جمع هذه القوات ، ضرب العامليين غيلة ، ومنعهم من الاتصال بالحرافشة ، أو القضاء على الزعماء[1]

وبينما هم في هذا البحران السياسي ، واذا بالأمير فخر الدين المعني يعود بعد تشريده في سنة ١٠٢٧ هـ وكان بلغه ما يحاوله العامليون والحرافشة ، فاستقبله زعماء عاملة إلى عكا وحينما وقعت عينه على الحاج ناصر الدين ابن منكر مسكه ، وألقى عليه القبض لأنه من أعيانهم[2] ثم توسط الأمير يونس الحرفوشي في تخلية سبيله لقاء اثني عشر الف قرش[3] وكان أخوه الحاج علي لا يزال مقيماً في بعلبك .

إن هذه الحركات ، تعطينا صورة واضحة لها قيمتها ، عن زعيم عاملة الحاج علي ابن منكر ، فإنه تحصن بالحرافشة ، وطفق يدير شؤون السياسة الداخلية والخارجية في بلاده ، وكان ذلك من التدبير والحزم فإن خصومه لا يقدرون عليه ، وكل ما يصيب العامليين بعد ذلك لا يفت في عضدهم ؛ ولا يخفف من هوسهم ، في طلب حقهم والمحافظة على شرفهم فإن الزعيم إذا قتل أو أسر ، تفرق الجند وتوزعت القوى ، وتحطمت الأمة كما يتحطم قشر البيضة ، ولكنه إذا بقي في منعته ، لم تؤثر عليهم أية خسارة أدبية أو مادية بعد ذلك ، فإن السراة المغامرين ، يركنون اليه ، ويعتمدون عليه ، في الخلاص فيجازفون بأنفسهم ، ويخوضون الغمرات ، لأنهم يجدون خلفهم قوة تبعث فيهم روح الأمل ، وتمنيهم بالنجاح ولو بعد حين ، تلك هي قيمة الزعيم التي يجهلها فتيان عاملة اليوم ، الذين يجدون في تحطيم الزعماء ، وهم يحطمون الأمة ، ويحطمون أنفسهم قبل ذلك ، ولا يشعرون .

رجع الأمير فخر الدين بعد فراره ، وبالطبع أنه كان مفلساً ، وهو في

---

(١) قال الصفدي ص ٦٨ ما لفظه وبالأكثر كان سبب هذه الجمعية أحوال بيت الحرفوشي ، ومسكنهم قرية مشغرة ، ليطردهم عنها

(٢) الصفدي ص ٦٩

(٣) اخذت من الشام قرضاً بكفالة الحرافشة .

حاجة إلى الأموال ليرضي الولاة والوزراء ، ففرق الجباة على الاقطاع فاضرب الزعماء في عاملة ، وفلسطين ؛ وخرجوا من بلادهم ، فذهب بيت شكر ، وأولاد علي الصغير ؛ وأقاموا عند الحرافشة وجعل الزعماء المهاجرون يغيرون على البلاد بين آونة وأخرى ، ويشوشون الامن[1] وهذه الخطة كانت آخر الخطط التي سلكها العامليون في مقابلة المعنيين ؛ فقابلهم الأمير فخر الدين بالعسف والشدة ، فأرسل وهدم بيوت أولاد شكر في عيناثا ، والحاج علي بن أبي شامة في بنت جبيل وفرحات بن داغر في أنصار ، والحاج ناصر الدين ابن منكر في الزريرية وولده في قرية حومين الفوقا ، وضبط جميع غلتهم[2] واخيراً ظفر بالصفديين النازحين فشفى غليله .

فانه خرج مع خمسمئة سكماني بحجة الصيد ، وأطبق عليهم ليلاً غيلة فقتل منهم خمسة عشر قتيلاً ، وسبى ذراريهم ونساءهم ، وأخذ أموالهم كلها غنيمة ؛ وأما العامليون فلا نعرف من عاقبة أمرهم بعد هذا الحادث شيئاً ؛ فلا نعرف متى رجعوا ، ولا نعرف أين أقاموا .

وربما يسمح لنا الفن إذا قلنا أنهم اتفقوا مع الأمير فخر الدين المعني ، وأعطوه أزمَّة الطاعة ، فاننا نقرأ في حوادث سنة **١٠٣٣** هـ أنه أرسل خلف رجال بلاد بشارة ، وبلاد الشقيف ، وصيدا أنهم[2] يجوا إلى عنده ، بمرج عدوس وأرسل ايضاً إلى الأمير علي ابن الشهاب أن يرسل ولده الأمير محمد ، والأمير قاسم برجال بلادهما وكذلك إلى أخيه الأمير أحمد[3] وهكذا عدد رؤساء المقاطعات وهذا يدلنا على أن بلاد عاملة لم يكن يرأسها في هذا التاريخ غير زعمائها ، فإن من لاحظ أسلوب الكتاب ، يجده يرسل إلى أخيه أو إلى الشيخ حسين الطويل أو إلى غيرهما ممن تولى على بلاد عاملة ، يأمره باحضار رجال بلاد

---

(١) يظهر من عبارة الصفدي أن الذين كانوا يشوشون الأمن هم زعماء صفد وعاملة ، ويحتمل اختصاصها بالصفديين .

(٢) آخر حوادث سنة ١٠٢٧ هـ من كتاب الصفدي ص ٧١ .

(٣) الصفدي ص ١٨٠ واللفظ الملحن له .

بشـارة ، وفي هذه المرة نجده يـراسلهم رأسـاً ، مما يـدل عـلى أنهم هم الـذين يقودون أمتهم ، وغير بعيد أن يبذلوا له ما يريد من مال ورجال ، كي يتخلصوا من ظلم المتسلمين والحكام ، وربما يكون غير ذلك .

عاد الأمير فخر الدين ـ كما قلنا ـ وكـان بالأمس زعيـماً مطاعـاً وقد أحكم اليوم صلاتـه مع رجـال العثمانيـين ، فاستقـامت لـه الأمـور ، واستوسقت لـه البلاد ، فطفق يحلب درها ، ويسقيه معينـاً بارداً للوزراء والـولاة والسماسـرة ، فأخلد الشيوخ والأمـراء والمقدمـون إلى السكينة ، ووقفـوا يستفرصـون الحوادث وجعلت المقادير تساعد الأمير فخر الدين بما شاءت فتفسح له الطريق ، وتسهـل أمامه السبل .

ففي سنة ١٠٣٢ هـ جمع القوات التي تحت حكمه ليحاربوا معـه ، ومنهم العـامليون ، فـانقادوا لـه ، ولم يتخلف من حكام المقـاطعات أحـد ، وفي هـذه السنة أيضاً رفعت السلطة يـد الأمير فخـر الدين عن سنجقيـة صفد ، ونـابلس وعجلون ؛ فحاول الأمير يونس الحرفوشي الحصول عليها لنفسه ، وخطبها من الولاة ؛ فما كادت تتم له حتى جمع الأمير فخر الدين قـواته وكـان العامليـون من جملتهم وحاول غزو الحرافشة ، بعـدما زاد عـلى بلادهم مئـة ألف من الذهب ؛ فانتقـل الأمير يونس الحـرفوشي من القلعـة إلى الحصن ، بعدمـا خلف حاميـة مهمـة ، في قلعـة بعلبـك ؛ فـابقى عيـالـه في الحصن ، ثم قفـل نحـو الــولاة والحكام ، يستثيرهـم ويتناول خصمه بأيديهم ، فدخل الأمير فخر الـدين الديـار البعلبكية ، ونهب وأحرق[1] وأسعفـه على ذلـك غيبة الأمـير يونس ، ومسـاعدة الأمير شلهوب الحرفوشي ، فانه هو الذي تولى إدارة شؤ ون البلاد أثناء غيبة ابن عمـه الأمير يـونس ويظهـر أن الأمير يـونس كان يحـافظ على شعبـه ، ويريـد أن يضحي في سبيـل الحكم رجالاً آخـرين ثم تزلف الأمـير فخـر الـدين إلى الـولاة بالأموال ، فعادت له سنجقيـة صفد ونـابلس وعجلون وفي سنة ١٠٣٣ هـ اتفق والي الشـام مصطفى بـاشا شـابكاربكي والأمـير يونس الحـرفوشي ، وابن سيفـا

---

(١) الشهابي ص ٦٨٧ .

وغيرهم من الأمراء والباشاوات على حرب الأمير فخر الدين ؛ فقامت الحرب على ساق ، ووقعت الهزيمة وأسر الباشا ، وترجل له الأمير فخر الدين وولده الأمير علي ، وقبلا ذيله ، ومشيا بين يديه وهو راكب ، واعتذر له الأمير فخر الدين عما جرى ، وأكرمه فرضي عنه ، ثم نهب الأمير فخر الدين ما للأمير يونس الحرفوشي من المعز ، وكانت نحواً من عشرة آلاف رأس[1] وفي هذه السنة أيضاً أمر مراد باشا ، الأمير خالد بن عجاج ، أن يمر على معرة النعمان ، وأن يقبض الأمير يونس الحرفوشي لأنه كان مقيماً فيها ، فقبضه ورفعه إلى قلعة سلمية ، وكان ذلك في أواخر جمادي الأولى[2] فتوسط ولده الأمير حسين الحرفوشي في فكاكه ، فإنه كان في حماة عند محمد باشا ، فحضر إلى اللبوة ، ودخل الحصن ، وبذل إلى الأمير فخر الدين أربعين الف قرش ثمن سكوت لئلا يغري مراد باشا والأمير مدلج في قتل والده ، وكان البذل بواسطة خاله الأمير شلهوب وأخيه الأمير علي ، وكانا مقيمين عند الأمير فخر الدين في بعلبك ، فقبل بذلك[3] ثم حاصر الأمير فخر الدين قلعة بعلبك ، وأخيراً خدع المحاصرين ، وكانوا قد ضويقوا من قلة الحطب فقط ، ففتحوها بعد حصار أربعة أشهر ، وخرجوا بسلاحهم ، ثم إن الأمير يونس الحرفوشي عندما اجتمع بمراد باشا أرضاه ، ثم جاء محمد باشا إلى بعلبك ، وكتبها على الأمير علي بن الأمير يونس الحرفوشي ، ثم إن الأمير يونس دفع لمصطفى باشا ثلاثين ألف قرش على قبض الأمير شلهوب الحرفوشي وقتله ، وكان الأمير شلهوب من سكمانية الشام فقبض (وكان آخر العهد به) وصار الأمير علي بن الأمير يونس الحرفوشي مكانه وسكن داره وتزوج بامرأته : وهنا ظهرت قوة الأمير فخر الدين ، وإخلاصه للدولة لأنه عفا عن الباشا ، وبذل الأموال ، وأدى ما عليه ؛ فجاءه كتاب هما يوني ببلاد عربستان من حدود حلب ، إلى حدود القدس ، على أن يؤدي خراجها ، ويحفظ الأمن ، فجعل السلطان زيادة على الأموال المقررة مئتي ألف من الذهب .

---

(١) الصفدي ص ١٥٠ وغيرها .

(٢) الصفدي ص ١٧١ .

(٣) الصفدي ص ١٧١ .

وفي سنة ١٠٣٥ هـ . قتل الوالي الأمير يونس الحرفوشي وفي سنة ١٠٣٨ هـ أخذ الأمير فخر الدين يؤسس القلاع ، ويرمم الموجود منها وحدثته نفسه بالاستقلال والاستبداد فشعر العثمانيون بذلك ، فمنعه والي حلب من بناء القلاع في جوارها فلم يمتنع ، فغزاه الكجك أحمد باشا في سنة ١٠٤٣ هـ وقتل ولده الأمير علي من رمح أصابه في كتفه ، وحمل رأسه للوالي ، ومذ علم الأمير فخر الدين بذلك ، دب الوهن فيه ، ففر إلى نيحا واختفى في شقيف تيرون ، ثم هرب منه وتدلى من خلفه وأقام في مغارة جزين ، ثم حوصر فسلم ، فأوثق هو وولداه منصور وحيدر وغيرهم كتافاً ، ثم أرسل إلى إسلامبول ؛ وبعد ثورة الأمير ماحم ابن الأمير يونس المعني ، قتل عمه الأمير فخر الدين في إسلامبول وآخرون وكان الأمير يونس مختفياً في بلاد بشارة في قلعة دوبيه ، فقبض مع ولديه ملحم وحمدان ثم أطلق الأمير ملحم ليأتي بالأموال ، فيفدي أباه وأخاه ، ولكنه لم يعد ، فماتا تحت العذاب وسلم الأمير ملحم ، وتولى الحكم بعد ذلك[1] .

وهكذا انطوت صحيفة دامية ، من تاريخ لبنان العربي ، أو من تاريخ العرب في لبنان ، في نحو من نصف قرن ، وكان زعماؤه يتطاحنون على الحكم ويتسابقون لاستغلال منافع الشعب البائس ، وقد انقضت حياتهم هذه بين مد وجزر ، ثم كانت سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء ثم اصبحت عبرة ، وأمست عظة .

ولو أنهم قاموا بواجبهم ، ونصحوا لشعبهم ، لكان لهم بعد ذلك ما يكون للأحرار المجاهدين .

فليتنبه رجالنا اليوم ، وهم في طليعة عهد الاستقلال ، وليحذروا العواقب وليعلموا أنهم في عصر النور ، وليغنموا فرصة الحكم ، وليحذروا ضربة القضاء الكبرى ، ولا يغرنهم ما هم فيه من القدرة والنفوذ ، فإن الجبابرة جند الله سبحانه ينتقم بهم ومنهم : نعم هكذا انطوت هذه الصحيفة بين مد وجزر ،

---

(١) تاريخ الصفدي ص ٢٤٧ وص ٢٤٨ والشهابي ص ٧١٩ وص ٧٢٠ اقتضبنا رواياتنا الآنفة منها ، وهما يختلفان في كثير من الخصوصيات .

فانقضى عهد الأمير فخر الدين ، وانقرض هو ومعاصروه من الحرافشة ، ولم نعلم ما جرى على آل منكر ؛ وجاء دور الانقلاب ، وتشكلت الحكومات الجديدة ، ولم نجد في المصادر التاريخية التي بين أيدينا نصوصاً نستند اليها في شأن جبل عامل ، لذلك لا نستطيع النفي أو الاثبات ، إلا على نحو من التقريب ، الذي يولده الفن من طريق الاستنباط والاستنتاج ؛ وغير بعيد أن يحكم العامليون أنفسهم في هذا العهد ، لضعف المعنيين ، المادي والأدبي ، فإن الثورات الآنفة ، لم تبق لهم باقية ، والسلطة أصبحت تعدهم متمردين ، ولون الحكم الذي كانوا يطبقونه على الرعايا خلق لهم مشاكل أخرى ؛ ويزيد هذا الاستنتاج وضوحاً ، بملاحظة ما أسلفناه[1] فإننا كنا نستقرب أن يكونوا حكموا أنفسهم على عهد الأمير فخر الدين .

ويمكننا أن نستند في دعوانا هذه ، إلى ما حدثنا به الشهابي ، فإنه قال إن بني سيفا تولوا أيالة طرابلس ، واليمنية بلاد الشوف[2] ولم يتعرض إلى مقاطعات عاملة وصفد وغيرهما ، كما هي عادته وذلك دليل واضح على أنها لم تكن تحت حكم كل من زعماء القيسية واليمنية؛ ويحتمل أن يكون الحكم أصبح بيد العثمانيين مباشرة ، ويحتمل أن يكون زعماؤها هم الذين يستأجرونها من الوالي ، ويؤدون الضريبة ، ويحفظون الأمن الداخلي ، غير أن الشهابي يذكر في حوادث سنة ١٠٤٦ هـ أن أحمد الشمالي كان يتولى سنجق صفد ويتسلم بيروت ، وأن الأمير ملحم المعني ظهر بعد اختفائه وحكم الشوف ، وأنه فيها قتل الكجك أحمد الذي انقرض حكم فخر الدين المعني على يده ، وأن الأمير عساف حكم بلاد عكا[3]؛ وفي سنة ١٠٤٧ هـ اتفق الأمير عساف مع الأمير ملحم المعني ؛ ثم قتل الأمير عساف بن سيفا وهرب الأمير ملحم[4] وهذه الأحاديث تدلنا على أن القوم اشتغلوا بأنفسهم عن بلاد عاملة وأشباهها ، وأن العامليين اغتنموا هذه الفرصة ، وجمعوا قواهم واستقلوا بالحكم .

---

(١) لاحظ أوائل هذا الجزء .

(٢) الشهابي ص .

(٣) الشهابي ص ٧٢٢ وص ٧٢٣ .

(٤) الشهابي ص ٧٢٣ وص ٧٢٤ .

واقعة « أنصار » الأولى

ولكن في سنة ١٠٤٨ هـ . قدم السلطان مراد خان إلى مدينة حلب بعساكر وافرة قاصداً بغداد ، فخاف الأمير علي بن علم الدين منه ، وانتقل إلى بلاد بشارة وكان الأمير ملحم ابن معن في وادي التيم ، فارسل إلى رجال الشوف ، وسار بهم إلى بلاد بشارة ؛ وباغت الأمير علياً علم الدين في قرية أنصار فهرب ابن علم الدين ، وأرسل إلى متسلم الشام يطلب المعونة فارسل له عسكراً من السكمان ، وزحف بهم لمحاربة الأمير ملحم فهرب أمامه ، وخرب الشوف والمتن والغرب والجرد من القيسية [1] وتسمى هذه الوقعة عند العامليين وقعة أنصار [2] وقد قتل فيها من الشيعة ألف وخمسمئة قتيل [3] .

---

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٢٤ واللفظ له .

(٢) جبل عامل في قرنين للسبيتي ، وهو كتيب صغير يبلغ ثماني صحائف بقطع هذا الكتاب ، نشر في العرفان في ج ١ م ٥ ، وهو يبتدىء من سنة ١٠٤٨ هـ وينتهي في سنة ١١٥٦ هـ وقد استنسخه الأستاذ منيف الفقيه بأمر خاله العلامة الشيخ علي الفقيه « اخ المؤلف الأكبر » عن نسخة بخط السبيتي وجدت في مجموعة عند عبد الخالق الفقيه من قرية حولا ، وهي تشتمل على فائدة مهمة ، فإن السبيتي قال في أولها ما لفظه : وجدت في بعض مجموعات أصحابنا : صارت وقعة أنصار من بلاد الشقيف سنة ١٠٤٨ هـ وقال في آخرها ما لفظه : ثم ما عثرنا عليه من مجموعة المرحوم المقدس أستاذنا الشيخ علي مروة : وبهذه الكلمة تنتهي الرسالة ، وعليه تكون هذه الرسالة من مؤلفات مروة لا السبيتي ، ونسبتها له من المشهورات التي لا أصل لها ، ويظهر أن الخال « ره » نقل النسخة برمتها من مستحضراته الخطية وزاد عليها بضع تعلقيات ، وأتبعها بما جرى في بقية السنين إلى عهد الاحتلال الافرنسي ، وسمينا كتاب الخال المقدمة لأنه وضعه لنا كمقدمة لهذا الكتاب لأننا كنا نحاول إخراجه بغير هذا الشكل وقد فرغ الخال « ر ه » من كتابة المقدمة الذي يقع في نحو من أربعين صحيفة بهذا القطع في ٦ - ٣ سنة ١٣٥٤ هـ الموافق ٦ - ٦ - ١٩٣٥ م وقد وجدنا اختلافاً يسيراً بين نسخة الفقيه والخال والعرفان سنشير له في مواضعه إن شاء الله تعالى وسننسب الكتاب إلى مروة للفرق بينه وبين كتاب السبيتي المشهور الدر المنضد في شرح عينية علي بك الأسعد ، الذي نقل شطراً منه شبيب باشا في الديوان واعتمده المرحوم محمد جابر ، ولكنه لم يصرح بذلك ؛ والدر المنضد لا يعرف له نسخة في هذه الأيام كما ظهر لي بعد الفحص ، وهو يشتمل على شطر من تاريخ آل علي الصغير ؛ وسننقل تاريخ مروة برمته في هذا الهامش بالمناسبات لاختصاره ، نشراً لهذا المستند بين يدي القراء . قال : بسم الله الرحمن الرحيم صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف سنة ١٠٤٨ هـ . انتهى وفي نسخة العرفان سنة ١٨٤٠ هـ وهو غلط واضح .

(٣) الاستاذ رضا في العرفان م ٢ .

ويظهر أن أسباب الحادث منحصرة بعداوة القيسية واليمانية المعروفة فإن المعني قيسي ، وابن علم الدين يماني ، والشهابي وإن أفهمنا السبب وعرَّفنا بمثيري الحرب ، إلا أنه لم يشر إلى اشتراك العامليين فيها ، فضلاً عن عدد القتلى وإباحة القرية ، إلا أن كلمة جبل عامل في قرنين على اختصارها توحي لنا شيئاً عن هذا الحادث ، وتعطينا عنه صورة لا بأس بها فإن مروة كما يظهر كان بصدد تعداد الحوادث التي تخص العامليين ، لا بصدد تعداد الحوادث التي تقع في أرض جبل عامل ، وإن لم ترتبط بساكينه ؛ وافتتاح الكتاب بها يدلنا على أهميتها ؛ وغير بعيد أن يثور العامليون للذب عن كرامتهم ، فإن ابن معن خفر ذمامهم ، وأراد أن يبطش بجارهم فضحوا هذه النفوس الكريمة في سبيل هذا الخلق الباذخ ؛ وربما يكون العامليون منحازين إلى اليمانيين لأنهم منهم[1] أو لغير ذلك ؛ وعلى أي الحالات فإن العامليين خسروا في هذه الوقعة ألفا وخمسمائة قتيل ، كما في رواية الفاضل الشيخ أحمد رضا[2] .

ونحن نستفيد من هذا الحديث ، أن آل منكر كانوا ذوي عدد وعدة ، وأن (أنصار) كانت تضم آلافاً من الرجال ، أو أن الحرب كانت على ميعاد أو أنهم كانوا قد اجتمعوا لفرح أو حزن وبوغتوا ؛ وليت التاريخ سمَّى لنا أحداً من العامليين لنسير على ضوء لامع ، وندرس الحوادث دراسة أعمق من هذه الدراسة .

---

(١) لاحظ الجزء الأول من هذا الكتاب فقد ذكرنا فيه نسب عامله .

(٢) في م ٢ من العرفان قال ما لفظه أن الأمير ملحم بن ـ كذا ـ معن دخل إلى قرية أنصار من مقاطعة الشومر مفتشاً على مناظره في الامارة الأمير علي علم الدين ، وكانت هذه القرية مقرًّا لآل منكر الذين هم حكامها ، فاستلحم أهلها واستمر القتل فيهم ، ولم يشف حقده مقتل الف وخمسمئة من الشيعة ، في هذه الغارة حتى استباح القرية نهباً وسلباً . إنتهى .

ونحن لا نعرف ما استند اليه الاستاذ ، ولا نعرف يوماً للأمير ملحم في انصار مع ابن علم الدين غير اليوم الآنف ، وحديث الاستاذ عنه مجمل لأنه مرة يجعل ابن علم الدين مناظراً من قبل الأمير ملحم ومعنى هذا أنه هو حاكم البلاد ، وأخرى يجعل آل منكر هم حكام المقاطعة ، وإن أراد بالمناظر النظير في الجاه ، فلماذا يدخل مفتشاً عليه فإن نظير الشخص لا يختفي منه ، وابن علم الدين لم يكن مختبئاً ، ولعل الاستاذ نشر هذه المقالات في بدوٌ أمره ومن ثم كان يعوزها الاستقراء الكامل ، والنظر الثاقب .

وبعد طبع هذا الكتاب ونشره بخمسة وثلاثين عاماً اطلعنا على كتاب تاريخ جبل عامل للاستاذ محمد جابر المتوفى سنة ١٩٤٥ م . وكان الكتاب قد نشر بعد موته بزمن طويل ، فانه نشر قبل سنوات[1] .

ثم إن الأمير علي علم الدين باغت قرية مشغرة ونهبها في سنة ١٠٤٩ هـ وفي سنة ١٠٥١ هـ . حضرت أوامر شريفة من الباب العالي ، إلى محمد باشا الأرناؤوط والي طرابلس أن تكون صيدا وبيروت في تسلمه ؛ فأرسل مدبره زلفة آغا متسلماً ، وكان الأمير ملحم في بلاد الشوف ، والأمير علي علم الدين في بشتوادار من بلاد البترون[2] وقد عزل محمد باشا الأرناؤوط وعين غيره ثم أعيد هو وكان قد أجرى مظالم كثيرة على البلاد ، إلى أن ولي طرابلس حسن باشا في سنة ١٠٦٣ هـ وفي سنة ١٠٦٥ هـ قدم الأمير ملحم المعني ثلاثين ألف قرش إلى الوزير مراد باشا فعفا عنه وأعطاه سنجقية صفد ، وأقره على الشوف وملحقاته[3] وفي سنة ١٠٦٦ هـ . هرب إسماعيل الكردي مدبر والي طرابلس ابن الكبرللي إلى بلاد ابن معن فأسكنه في مدينة صور ، وفي هذه السنة عزل الوزير الآنف وتولى الوزارة محمد باشا الذي كان على ايالة طرابلس ، فولى على صيداء وبيروت إسماعيل آغا ، وولى على صفد بشناق محمد آغا وفي سنة

(١) المذبحة الثانية حصلت في القرية ذاتها سنة ١١٥٦هـ-١٧٤٣ م وبطلها الامير ملحم بن الامير حيدر الشهابي . فقد قام هذا بعسكره من لبنان متظاهراً أنه يقصد جهة فلسطين بطريق الساحل ولما وصل إلى محاذاة قرية انصار داهمها في يوم الجمعة ، والقوم عزل من السلاح ، يؤدون الفريضة في جامع منصور ، وقيل جامع السرايا . وكان حاكمها (علي سليمان منكر) فذبح منهم الف قتيل ، وقيل ألف واربعماية ، حتى سال الدم في الازقة . وفي هذه المذبحة قتل ثمانية من آل منكر ، وسبعة من مشايخ آل صعب ، وثلاثة عشر من الحمادية .
والمجمع عليه من أقوال المؤرخين في جبل عامل أن مواقف المهاجين في مذابح أنصار لم تكن مواقف مشرفه . وأن الشيعيين أخذوا غيلة وغدراً ولئن اغفل ذكر هذه الحقائق بعض المؤرخين اللبنانيين سيراً مع الهوى والغرض ، واغضى عن ذكر دفاع الشيعيين المجيد ، وانتصاراتهم الباهرة ومواقفهم الشريفة مع اخصامهم هؤلاء ، والدفاع عن حوزة البلاد ضد الاجنبي الدخيل ، فلا يخلو الامر من منصف لا تطاوعه ذمته على كتم الحقائق مما سيرد بيانه . والحق لا يعدم انصاراً .

(٢) تاريخ الشهابي ص ٧٢٥ .

(٣) تاريخ الشهابي ص ٧٢٩ .

١٠٦٩ هـ تولى الأمير ملحم المعني أحكام صفد فتوجه ليجمع ما لها ؛ ولما وصل إلى عكا مرض فنقل إلى صيداء ثم توفي(١) وبعد وفاته قرر ولداه الأمير قرقماز والأمير أحمد على جبل الشوف ، وولي محمد باشا الأرناؤوط على صيدا ، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، وزحف أحمد باشا والي الشام ، الذي ولاه عليها والده الوزير محمد باشا ، بجيش عرمرم ، بعدما أعانه اليمانيون ، على الشهابيين وقطعوا لهم نحواً من خمسين ألف شجرة من التوت ، في مرجعيون والبقاع ، ثم وزع المقاطعات ، وعين على صيداء باشا ، وأصبحت باشوية من ذلك الوقت ، وكان الغرض من ذلك إضعاف سلطة رجال العرب ، وأعطاها إلى علي باشا الدفتر دار وهو أول باشا تولاها فاضطهد المعنيين والشهابيين ، واستعان الباشا بأولاد علم الدين واستعانوا به ، فدمروا بلاد المعنيين حرقاً ونهباً وقطعاً للأشجار .

ونحن إذا درسنا ما بأيدينا من المستندات منذ سنة ٤٨ إلى سنة ٧١ لم نجد فيها ذكراً لزعماء عاملة ، وللآن لم يتضح لنا من هم ؟ وما هي أسماؤهم ؟ وهل كانوا محكومين أو حاكمين ؟

ولكننا إذا لاحظنا حوادث السنين التي سبرناها آنفاً ، وجدنا صيداء وصفد ومرجعيون وصور خارجة عن سلطة العامليين ، وأما الشقيف وبانياس وبلاد بشارة فانها مجهولة الحال .

ومذ انتهى التاريخ إلى هذه النقطة شرع يعطينا صورة جديدة عن بلاد عاملة ، ففي سنة ١٠٧٠ هـ اصبحت صيداء باشوية(٢) وتولى باشويتها علي باشا الدفتر دار ، ودخلها في سنة ١٠٧١ هـ وهو أول باشا تولاها(٣) وكان أحمد باشا ابن محمد باشا الوزير قد قضى على المعنيين والشهابيين وغير بعيد أن يكون العامليون في معزل عن هذه الحركات ، منتظرين ما تولده لهم الحوادث ، وأنهم

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٣٠ .
(٢) مروة في جبل عامل في قرنين والشهابي ص ٧٣٢ ومعنى كونها باشوية ، أن مراجعة الشوف وعاملة وغيرها معها لا مع الشام .
(٣) تاريخ الشهابي ص ٧٣٣ .

حاولوا بعد ذلك إثبات وجودهم أمام هذا الحكم الجديد ، ليحتلوا مراكزهم من الحياة .

واقعة عيناثا الثالثة [1]

قال مروة في رسالته ، جبل عامل في قرنين ، وسنة ١٠٧٠ هـ كانت وقعة عيناثا[2] وقال الشهابي في حوادث سنة ١٠٧١ هـ وفي هذه السنة قدم علي باشا إلى صيدا ، وهو أول من تولاها من الباشاوات ، وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة[3] .

وإذا لاحظنا رسالة (مروة) وجدناه يصرح بموضع الحادثة ، ويهمل أسبابها ، ولا يسمي أحداً من أبطالها ، وإذا لاحظنا تاريخ الشهابي وجدناه يصرح بأنها بين زعماء عاملة والباشا الجديد ، ويعظم الحادثة ويهمل الأسباب .

ومن المظنون وحدة ما ذكراه ، واشتباه أحدهما في التوقيت كما أن وقوعها في عيناثا يؤذن ببقاء زعامة بيت شكر إلى هذا التاريخ لأننا لا نجد في مستحضراتنا من المستندات ، ما يدل على أن غيرهم من الزعماء استوطنها ، وعلى أي حال فإنا لا نجزم بشيء ، نعم لنا أن نقول ، إن الأمير ملحم مات سنة ١٠٧٠ هـ وفر ولداه قرقماز وأحمد[4] وأصبحت صيداء باشوية ودخلها الباشا على أثر هذا الانقلاب ، فحاول العامليون استغلال الموقف ، فقامت الحرب على ساق ، بينهم وبين الباشا الجديد ، وكانت الخسائر فادحة ، والضحايا كثيرة ؛ والواقعة (عظيمة) ولا نعرف ماذا اعقبته ،ولا أي شيء انتجته على التفصيل ؛ غير أننا نظن أنهم تولوا إدارة البلاد بأنفسهم ، وربما نستدل على ذلك ببعض النصوص التاريخية الآتية .

---

(١) كانت وقعة عيناثا الأولى سنة ١٠٢٣ هـ راجع ص ٢٥ من هذا الجزء وأما الثانية فيزعم بعضهم أنها كانت سنة ١٠٥٩ هـ بين بيت شكر وعلي الصغير .

(٢) وفيها جاء جراد عظيم ، وقلت الحبوب ، حتى أكلت الناس العظام « والميتة » وبيع المد بقرش واحد ، وفيها صارت صيداء باشوية. انتهى كلام مروة بلفظه .

(٣) لفظ الشهابي في تاريخه ص ٧٣٣ .

(٤) تاريخ الشهابي ص ٧٣٢ .

ثم في سنة ١٠٧٣ هـ عزل علي باشا الدفتر دار عن صيداء ، وتولى مكانه محمد باشا ، وخدع الأمير قرقماز وأخيه أحمد ، ابني الأمير ملحم المعني وأمر بضربهما فقتل الأول وسلم الثاني ، وتولى بلادهما الأمير أحمد ابن الأمير علي علم الدين[١] .

واقعة النبطية الأولى

وواقعة وادي الكفور

قال مروة : وسنة ١٠٧٧ هـ كانت وقعة النبطية ، وانتصر المشايخ وسنة ١٠٧٨ هـ كانت وقعة وادي الكفور[٢] .

ونحن لا نعرف عن هاتين الحادثتين الا ما تضمنته هذه الكلمة ، فإن الشهابي لم يشر لهما أبداً ، فقد أوجز كثيراً عندما حدثنا عن الحوادث في هذه السنين ولا نعرف السبب ؛ ولكننا نستطيع المجاهرة بأن هذه الحرب كانت بين العامليين والمعنيين أو بين العامليين وبني علم الدين ، وأن العامليين برهنوا على وجودهم في هاتين الحادثتين ، فإنهم سحقوا عدوهم سحقة بقي أثرها نحواً من أربعين سنة ، فقد ظلوا بعدها في أمن ودعة لا يجترىء عليهم أحد من جيرانهم ، وذلك يدلنا على قوتهم ونجدتهم كما يدلنا على ضعف عدوهم .

ولكن بعض الباحثين صرح بأن زعماء عاملة أعلنوا استقلالهم عن المعنيين في سنة ١٠٧٧ هـ فغزاهم الأمير أحمد المعني حاكم جبال الشوف والتقوا في النبطية ، فارتد خائباً ؛ فطفق يدبر الحيلة في إخضاعهم ؛ وأخيراً استجاش عليهم والي صيدا فالتقوا في وادي الكفور فانهزم الوالي وأتباعه واتبعهم

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٣٤ واللفظ الملحن له .

(٢) وسنة ١٠٨١ هـ . صار موت عظيم وسنة ١٠٨٢ هـ . صار رخص عظيم ، بيع الشعير غرارة ونصف بقرش . انتهى كلام مروة بلفظه وفي (المقدمة) هكذا : وسنة ١٠٨٢ هـ . تحسنت الأغلال ورجعت الأسعار وصار رخص عظيم كالأيام السابقة ، بيع الشعير غرارة ونصف بأربعين بارة ، ثم ذكر الخال تعليقة قال فيها : والغرارة ٧٢ مدّاً والمد ثمان أقات من الشعير ، واستراحت الناس من الحروب إلى سنة ١١٠٩ هـ . فإن الحكومة استبدت على البلاد ، وحكمت الأمير بشير الشهابي .

العامليون إلى عين المزراب قرب صيداء ونحن لا نعرف مستنده وفي سنة ١٠٨٦ هـ استمرت ايالة طرابلس بيد حسن باشا وصيداء بيد اسماعيل باشا ، وكان هذا الباشا مخلصاً للأمير أحمد ابن الأمير ملحم المعني لذلك خدمه في قضية المشايخ آل حمادي[1] ثم لم يزل التاريخ صامتاً لا ينبس ببنت شفة ، تتعلق بعاملة إلى سنة ١٠٩٠ هـ فإن الشهابي يقول في حوادثها (وفيها توفي الشيخ أحمد بن علي الصغير شيخ المتاولة)[2] . وبالطبع إن مأتمه كان حاشداً وكان مهيباً مريعاً ، لا لأنه زعيم يستقل بإدارة البلاد، ومنقذ كبير استخلصها من جور السلطات المختلفة ، وجعلها حرة نحواً من ثلاثين سنة ، بل لأنه مات فجأة[3] وموت الفجأة له روعته ، ولا سيما إذا نزل بمثل هذا الانسان .

ونحن يسعنا أن نجعل ما حدث منذ سنة ١٠٥٩ هـ إلى سنة ١٠٩٠ هـ كله حدث في زمانه فإنا لا نستبعد أن يعيش زعيم إحدى وثلاثين سنة فإذا صحت حادثة عيناثا أو قانا أو تبنين الواقعة في سنة ١٠٥٩ هـ كان هذا الشخص أحد أبطالها[4] .

وإذا عرفنا أن صيداء صارت باشوية في سنة ١٠٧٠ هـ وأن حكومة عاملة انفصلت فصلاً باتاً عن حكام الشوف ، وأن زعماء عاملة وجبال الشوف كلهم يشتركون في مراجعة علي باشا الدفتر دار والي صيداء ، وأنهم يشتركون في الانفصال عن الشام عرفنا أن لون الحكم قد تغير ، وشكل الزعامة في عاملة قد

---

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٣٦ .

(٢) ص ٧٣٩ .

(٣) قال الأمين في أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٦٧ : إنه توفي فجأة سنة ١٠٩٠ هـ . على ما ذكره الشيخ محمد بن مجير الدين العنقاني في كتيبه . انتهى بلفظه ولم يزد على هذا شيئاً .

(٤) عندما تحدثنا عن علي الصغير أثبتنا أن هذه الحادثة موضع شك وريب وجزمنا بأن علي الصغير لم يكن حيّاً في هذا التاريخ ، وأنه وجد قبل الألف الهجري ، وأنها إذا صحت يكون القائمون بها أولاده أو أحفاده أو من هم أنزل منهم ، وفقنا الله لنشر هذا الكتاب كما نريد .

كما أنه بقي علينا شيء آخر له قيمته أرجأناه لذلك الكتاب ، وهو أن احمد بن علي الصغير الذي تحدثنا عنه آنفاً ، هل هو أبو نصار الأحمد وجدُّ ناصيف النصار أولا ؟ وهل هو ابن علي الصغير الصلبي أو احد أحفاده الأقربين أو الأبعدين ؟

تبدل ، والأسلوب السياسي اليوم أصبح له طابعه الخاص ، وأن زعماء عاملة أصبحوا عدلاً للمعنيين .

وإذا حدثنا الشهابي أنه في سنة ١٠٧١ هـ وقعت فتنة عظيمة بين علي باشا الدفتر دار ، وبين مشايخ المتاولة ، أمكننا أن ننسب هذه الحرب إلى أحمد بن علي الصغير ، إذ يمكن أن يكون تغلب على الوالي في ذلك التاريخ ، واستقل بشطر من البلاد ، واشترك هو وبقية الزعماء بادارة دفة السياسة؛ ولكنه في نفس الوقت ، أو بعد ذلك ، كان هو شيخ المشايخ ، وأصبح هو المسيطر ؛ ومنع الوالي من تعيين متسلمين أتراك أو غير أتراك أو أنه اتفق معه بوجه من الوجوه ، وتكون وقعة النبطية سنة ١٠٧٧ هـ . ووقعة وادي الكفور سنة ١٠٧٨ هـ وقعت على عهده ، ولعله بهذه المواقف الجبارة أصبح موضع عناية عند المؤرخين ، فذكروا وفاته ، ونعتوه بشيخ المشائخ مع أنه لم يسبق لهم مثل ذلك بالنسبة لمن تقدمه من زعماء عاملة .

وفي سنة ١٠٩٢ هـ تولى ايالة صيداء أحمد باشا التفتجي فغضب على الأمير أحمد المعني ، وغزا بلاد الدروز ، فهرب الأمير أحمد واختفى في وادي التيم ، وحكم الأمير موسى ابن علم الدين بلاد الدروز ، ثم بعدمدة عزل أحمد باشا التفتجي عن صيداء ، فرجع الأمير أحمد المعني ، وفر ابن علم الدين إلى طرابلس ؛ وفي سنة ١٠٩٩ هـ تولى صيدا عبدون باشا فأهان البلاد بمظالمه ، وغلبت الأسعار وقلت الأمطار ، وفي سنة ١١٠٤ هـ توجه الأمير يونس الشهابي ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم ونهب وقتل ورجع إلى وادي التيم[1] وفي سنة ١١٠٦ هـ عزل الأمير أحمد المعني عن مقاطعاته السبعة ، وهي الشوف والجرد والعرقوب والمتن والغرب واقليم جزين وكسروان وتولاها الأمير موسى ابن علم الدين؛ ثم جهز الولاة ثلاثة عشر ألفاً لغزو الأمير أحمد المعني وخانه قومه فاختفى ، ودخل ابن علم الدين دير القمر وتملك دار ابن معن ، وتصرف في جميع المقاطعات وبعد ذلك ظهر ابن معن عند الشهابيين في وادي التيم ، فكبر

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٤٠ وص ٧٤٢ وص ٧٤٣ ونحن لا نعرف عن هذه الحادثة شيئاً غير ما ذكره الشهابي .

الـوهم على ابن علم الـدين فانهزم من ديـر القمر إلى صيـداء إلى عند مصـطفى باشا الذي كان وزيـراً أعظم ، ثم رفـع مصطفى بـاشا تقـريراً في حق ابن معن يقـول فيـه لا يمكن أن يحكم بـلاد الـدروز غـير ابن معن ؛ وشفعـه بمئتي كيس للمطبخ كل كيس فيه خمسمائة قرش ؛ فعفا عنـه وأعيد إلى مـا كان عليـه ، وفي سنـة ١١٠٩ هـ كـانت وفـاة الأمـير أحمـد بن معن ، وبمـوتــه انقـرضت سلطة المعنيين ، لأنه لم يكن له ولد ذكر[1] .

ويظهر أن بلاد عاملة استقرت بالانفصال عن المعنيين ، وأن الحرب كانت بينهم سجالاً ، وقد بقي العامليون على منعتهم إلى نهاية هـذا القرن وهنـا ينتهي تاريخ عاملة في القرن الحادي عشر ، وهو ينطوي على كثير من الخفـايا ، التي لم يتوصل لها البحث على قرب العهد ؛ ولنختمه بكلمة حـول آل منكر ، وأخـرى حـول لـون الحكم في هذا القرن ؛ ولنترك التحدث عن وقعة سنة ١٠٥٩ هـ إلى الوقت الملائم ؛ ومؤرخو عاملة المعاصرين ينسبونها لعلي الصغير ، أما نحن فـإنا نعتقد أن علياً وجد قبل الألف الهجري وأن هذه الـواقعة عـلى تقديـر صحتها لا ترتبط بعلي أصلا ، وقد برهنا على هذا عندما تحدثنا عن عـلي الصغير في إحـدى حلقات هذا الكتاب ، التي أهملناها فعلاً وهي : زعماء عاملة أمس واليوم .

الفتوة السياسية

إن هـذه المشاهـد وما يليهـا ، تـدلنـا عـلى كفـاءة ابن منكـر واستحقـاقـه للزعامة ، فإن الزعيم هو الذي يحصن أمته من الداخل قبل كل شيء ، فيؤلف شملها ، ويربط وحداتها المتفككة ، فإن الأمة وحدة قوية ، تتـألف من وحدات ضعيفة ؛ فإذا فاز الزعيم بهذه الوحدة ، فقد قاد أمة واستولى على قوة ، وأصبح قادراً على إنشاء دولة وضرْبِ خصمه في أي مقتل أراد ، وإذا استتب له ذلك ، لم يحتج بعـد إلا إلى عنصر واحـد فعال ، جبـروت في نفسه وشـدة في عزيمتـه وإقدام لا رهبـة معه ولا جبن ولا كلل ؛ فـإذا حملت نفسه هـذا المثلث الرهيب ، نشـرت

---

(١) تاريخ الشهابي ص ٧٤٤ وص ٧٤٥ .

أشعتها على سائر النفوس الضعيفة ، والأرواح الضئيلة ، فملأتها حماساً ونجدة ، فإن الزعيم يلون الأمة باللون الذي يحمله ؛ فإذا كان خائناً ، كانت حاشيته وأسرته وبقية أفراد الأمة أسرع إلى الخيانة وتقع التجربة الأولى لعملهم هذا في الزعيم نفسه ، فلا يشعر إلا وقد خسر زعامته على أساس الخيانة ، وإذا كان مخلصاً ، كانوا كلهم جذوة حق متأججة ، ونبراس إخلاص يفيض بالنور وإذا كان من المغامرين في سبيل الحق ، كانوا إلى المغامرة أسرع ، لأنهم يضحون بأنفسهم لقاء سلامته ، ويعملون على حسابه ؛ ولا يرون للأمة كياناً قبل كيانه وقد كان المنكريون مثالاً صالحاً لهذا الواقع ، الذي تصطدم به براعة الكاتب الماهر ، والمفكر المصيب ، كلما أجالها على جبين القرطاس فإن ثورتهم على المعنيين ، ليست إلا ثورة أحرار على أغلال ، ومجازفة الضعيف في حقه فانهم أرادوا أن يزعموا عدوهم بقوة الحق والإخلاص ليس إلا ؛ وإقدامهم على محاربة الأمير يونس المعني بعد ما خفُّوا لتوحيد كلمتهم قبل هرب أخيه الأمير فخر الدين المعني يدلنا على ما يحملونه من حنكة وتجربة ، وغيرة ملتهبة ، وحماس متوقد ينطف شرراً ، وما كان ينقص هؤلاء الزعماء شيء من أسباب الزعامة إلا شيء واحد ، له قيمته في ذلك العهد وهو المال ، فقد كان صاحب السنجقية يستطيع أن يشتري ذمم أرباب الدولة العثماينة بقبضة من الدراهم ولا يضرهم بعد ذلك إذا ارتكب مع أفراد الأمة ما يريده من الجرائم باسم السلطة .

ذلك العهد هو عهد الاقطاعات المظلمة ، التي يلعنها عصر النور ، والتي وثب المنكريون لتحطيمها ، وأعانهم الحرافشة . وفي حياة ابن منكر نقاط ، تستدعي الأكبار ، وتثير الإعجاب ، تأليف العامليين وجمع كلمتهم ، وإقناع الزعماء بكفاءته ومقدرته ؛ ومن ثم رأسوه عليهم ، واصطدامه مع المعنيين وهو ضعيف وهم أقوياء ، وإصراره على مبدئه واتخاذه من الحرافشة ردءاً ومجنّاً وساعداً ومساعداً ، هذه نبذة من حياة ابن منكر في بضع سنوات ؛ غير أن التاريخ لم يحدثنا عنه بأكثر مما أسلفناه ، ونحن اليوم نكتب ونجهل كثيراً من شؤونه التي يجب على الكاتب أن يحيط بها ، فلا نعرف نسبه ولا من ينتسب اليه ، ولا وقت وفاته ووو إلخ . . .

زعماء عاملة في هذا القرن
ولون الحكم

نستعرض قرناً بجملته ، فلا نسمع فيه ، إلا بابني منكر ، وبيت شكر وأبناء على الصغير ، وفرحات ابن داغر وبني فرحات وابن أبي شامة ، وعندما نريد أن نجتاز هذه المسافة الشاسعة ، وعلى رأس هذا القرن ينبل أبناء علي الصغير ، وتصبح الزعامة المطلقة لهم ، والحكم الإقطاعي بأيديهم ، حتى أصبحنا لا نسمع بأحد من آل منكر في هذا القرن ، الا بالحاج علي والحاج ناصر الدين ، ولم يسم لنا التاريخ أحداً من زعماء الشكريين عدا السيد أحمد المستشهد سنة ١٠٥٩ هـ[١] .

وأول شخص سماه لنا التاريخ وحدثنا عنه ، هو الشيخ أحمد بن علي الصغير السالمي ثم الوائلي الآنف ، ويتلوه الشيخ مشرف وعلي منصور وبعد ذلك يجتاز تاريخ عاملة هذه الآكام الوعرة إلى بهو متسع الجوانب رهف الحواشي ، مربع الجناب خضل النبات ؛ فيدخل في دور واضح يتسلمه الركيني ، ويسلمه لولده من بعده ، ثم يستمران في الحديث الضافي عن زعماء عاملة الأمجاد قرناً ونيفاً ، ولكنهما لم يحدثا إلا عن أحفاد علي الصغير ، وعن الصعبيين .

ونحن بعد دراستنا لحوادث هذا القرن ، نستطيع الجزم ، بأن زعماء عاملة أصبحوا يستقلون بمقدراتها ، ويديرون شؤونها ، ويتلقون الحكم من العثمانيين منذ سنة ١٠٧٠هـ فانها هي السنة التي أصبحت فيها صيدا ، باشوية[٢] وأما قبل هذا التاريخ ، فلا نجازف إذا قلنا بأن الوضع مرتبك والتاريخ مطموس ، والتهجس لا يوصل إلى أكثر من الظنون والاحتمالات .

---

(١) ذكره الأمين في اعيان الشيعة ج ٩ ص ٦٧ فقال السيد أحمد بن علي بن شكر قتل سنة ١٠٥٩ هـ أحد آل شكر الذين تغلب عليهم علي الصغير ذكر ذلك الشيخ محمد بن مجير العنقاني في تاريخه .

(٢) وبهذه المناسبة استحقوا لقب الإمارة ، فان من يلقب بها لم يستحقها الا بهذا ، واذا كان المقدمون آل ابي اللمع استحقوا لقب الإمارة لأن أحدهم قتل خمسة أمراء ، فهؤلاء أسروا عدة أمراء وعفوا عنهم بعد القدرة .

ونحن إذا درسنا حوادث هذا القرن ، وجدنا المعنيين يواجهون العامليين غزاة لا محاربين ، ووجدناهم يغتنمون فرصة غفلتهم ووجدنا هذه الغزوات ، مبنية على طلب الانتفاع بالسلب ؛ ولكن هذا النوع من الغدر ، نبَّه العامليين ، فانزلوا بمجاوريهم بعد ذلك الموت الاحمر ، وخلدوا الرهبة في قلوبهم أجيالا ، وعرفوهم القراع والنضال ، حادثة بعد حادثة ، ونازلة بعد نازلة .

هذا بعدما بوغتوا بأنواع العسف ، وأخذوا بألوان الإرهاق من أناس كان يمكنهم توطيد العلائق معهم ، بالأساليب السلمية والحكم الذي يكون نتيجة العسف والارهاق ، قصير العمر ، قريب المدى ، ومن ثم لم يدم الحال الا عقداً من السنين أو يزيد ، ولو كانت أساليبهم مشروعة ، لاستطاعوا أن يعيشوا إخواناً أمداً طويلا ، ولما سوَّدت صفحات التاريخ بمثل هذه المآسي الدامية التي نقرأها متجلدين عن خير إخوان متجاورين .

إننا لا نقصد من تدوين الحوادث ، عرض القصة فقط ، وانما هي درس نافع ، وعظة بالغة ، نقدمها للساسة المعاصرين من زعماء لبنان خاصة ، وزعماء العرب أجمع ، فان التاريخ هو أعظم درس عملي ، ويستحيل على أي خبير من الخبراء ، أن يمحص نظرية ما ، سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية ما لم يقم عليها البراهين الكافية . وإن سرد الحوادث التاريخية والاكثار من الشواهد ، التي لا تكون محلاً للنقاش والجدال من أعظم البراهين الاقناعية وحقيقة البرهان ، اقتناع الخصم ، وأما النظريات فليست برهاناً واقعياً ، كيف لا ، ولم تزل موضع نقض وإبرام .

وإننا نفهم من سكون الفتن بين العامليين والمعنيين منذ سنة ١٠٧٧ هـ إلى سنة ١١٠٤ هـ أنهم عاشوا برفاه وأمن بعد ما حاربوا خصومهم بجند من الرعب ، كونته النجدة العربية ، المتوقدة في نفوسهم الأبية ، وأنهم فازوا باستقلالهم المجيد نحواً من ثلث قرن بعد ما فدوه بالضحايا الغالية وبعدما كانوا مثلاً أعلى للثبات على المبدأ ، والإصرار على طلب حقهم ، لذلك كله لم يجترىء على شرفهم الباذخ ، أي إنسان مهما بلغ به الغرور ومهما لج به الطمع .

جبل عامل في القرن الثاني عشر الهجري

كان مطلع هذا القرن يدعو إلى التشاؤم ، فقد كان حبل الحكم مضطرباً ، وكانت السلطة العثمانية تغتنم فرصة هذا الاضطراب الداخلي ، وتحاول تثبيت أقدامها بشكل مباشر . ومن الطبيعي أن يكون الأمن مهدداً بالخطر ، والثورات محدقة برجال الحكم .

مات الأمير أحمد المعني في سنة ١١٠٩ هـ ولم يكن له عقب ذكر ، فكان آخر حكام المعنيين ، واتفق رجال الشوف على الأمير بشير الشهابي الأول ، وكان يقيم في وادي التيم ، فتولى الحكم ، وانتقل إلى دير القمر وفي سنة ١١١٠هـ. حضر أمر من الباب العالي أن يكون الأمير حيدر بن الأمير موسى الشهابي حاكماً على مقاطعات ابن معن ، لأنه سبطه ابن ابنته وأن يكون الأمير بشير وليّاً عليه ، لأن عمره اثنتا عشرة سنة[1] وربما كان لهم غرض من وراء هذا العمل ، إلا أن هذه المحاولة لم تفلح .

هذه موجة غمرت بلاد الشوف ، وكان العامليون في معزل ، يسودهم الأمن ، ويرفلون في أبراد الدعة والعز ، يتمتعون في عيش خضل ، وزعامة مطلقة السراح ، وكان الترف والطمأنينة ، يقومان بواجبهما المحتم فترعرعت « الاتكالية » فيهم وخمدت جذوتهم الملتهبة ، فغفلوا عما تحمله لهم المقادير في

---

(١) الشهابي ص ٧٤٩ .

أحضانها ، وقد بلغ من جرأة زعيم عاملة في ذلك التاريخ الشيخ مشرف بن علي الصغير ، أنه قبض على بعض رجال الدولة وقتلهم .

ذلك أن مشرفاً رأى نفسه ذات يوم ، يفرض سلطته على من يريد وينفذ رغائبه حسبما يشاء ، ووجد حوله آلافاً من الفتيان ، فاستشعرت نفسه العظمة وحدثته بالتمرد والاستقلال ، فبنى داراً على قمة جبل ، ونعتقد أن دار هذا الزعيم الحاكم ، كانت ثابتة الأسس ، محكمة البنيان ، مشيدة الجدران ، ولعل موقعها الجغرافي يدلنا على أنه اتخذها حصناً يكنه من غزوات الأعداء ، لا مسكناً يقيه شرور الأنواء .

بنى مشرف داره ، في المزرعة المعروفة باسمه ، ومن عرف (مزرعة مشرف) عرف قيمة البناء فيها ، وعرف الغاية المتوخاة من اختيارها على غيرها ، في حين أنها لا تمتاز عن سائر القرى والمزارع ماء وهواء وخصباً .

إذا اتجهت من مدينة صور مشرقاً ، وهبطت وادياً وصعدت جبلاً ، ووجهت طائر الطرف إلى المدى البعيد فحلق ثم أسف ، وقع على قرية تقوم على نشز من الأرض ، تلك مزرعة مشرف وإذا اطردت في مسيرك انخفضت إلى سهل فسيح متسع الجوانب (مرج الصفراء) حتى إذا اجتزت هذا المرج الرحب ، دخلت وادياً صعب المسلك ، وعر الطريق ، ملتوي الفجاج ، يمتد ساعة أو نحوها (وادي عاشور) وعلى جناحي الوادي الضيق جبلان شامخان تقوم مزرعة مشرف على طرف الايسر منهما ، فكأنها ترمق قوافل المسافرين ، بين حين وحين ، على كتف الوادي الذي لا يكاد الطرف يطير إلى رواسيه ولا تستطيع مردة البشر التسلق إلى أعاليه . فالقرية إذن محصنة بحصن طبيعي من هذه الناحية الواحدة ، وأما بقية النواحي فانها لا يسهل فيها طراد الخيل ومصارعة الفرسان ، لذلك تنحصر مواجهة العدو فيها من وجه واحد (مرج الصفراء) المبتعد قليلاً عن القرية ، المنخفض عنها عشرات الأمتار ، وانحصار الطراد في وجه واحد قوة لا يستهان فيها ، في الخطط الحربية الدفاعية .

مدّن مشرف بقعة ، واتخذها عاصمة ، وهي لا تزال ترمز إلى عظمته ،

وأقام فيها صرحاً ، ونقش على أحد جدارانه ما يلي :

قسماً بما حاطت أباطح مكةٍ ومنى وآيات الكتاب المنزل
لم أبنها طمع الخلود وإنما هي زينة الدنيا لأهل المنزل

أشاد هذا البناء وأعلاه ، وأحسن النظر لو كافأ بناه ، الشيخ الكبير الملقب بالصغير ، شيخ مشرف بن نصار دامت سيادته سنة ١١٠٨ هـ[١] .

فاصبحت القرية حاضرة يقصدها السفر ، ودار حكم تتبعها مئات القرى ، وساعدها الحظ فاضيفت إلى اسم مليك البلاد « مشرف » .

هنا شمخت القرية بأنفها ، وناطحت السحاب ، وجرَّت ذيل الكبرياء فتسابقت اليها نظرات الحسد من جاراتها الصغيرة ؛ وحسبها مشرف وفيها قصره الباذخ إحدى متع الدنيا ومر عليه حولان كاملان وهو في عيشة راضية لا يشعر بثقل الحياة ولا بتبعات الزعامة فأخذته نشوة العز ، وثارت في رأسه نزوات الكبر ، فاعتدى على أعظم سلطة في عصره ، وقتل بعض رجال الدولة العثمانية ، لسبب لا يزال مجهولاً ، فاستنجد قبلان باشا والي صيداء في ذلك العهد بالأمير بشير الشهابي حاكم بلاد الشوف ؛ فجمع الشهابي ثمانية آلاف مقاتل وباغتوه ، فما أفاق على نفسه الا وهو في أيدي خصومه الألداء فسلموه إلى قبلان باشا فوضعه في السجن مع أخيه الحاج محمد بعد أن قتل الحاج حسين المرجي[٢] واستولى قبلان باشا على بلاده وأجرها على الأمير بشير ، فوضع فيها متسلماً من قبله . يحدثنا الشهابي قائلاً « في سنة ١١١٠ هـ . تولى ايالة صيداء قبلان باشا وكان الشيخ مشرف ابن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة ؛ وقصد العصاوة ، فاستنجد قبلان باشا بالامير بشير فجمع الامير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوه في مكان يقال له المزريعة فقبض عليه الأمير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم إلى الباشا فأمر

(١) العرفان م ٢٩ ص ٥٧٨ يقول الأستاذ صاحب العرفان حدثنا الشيخ عبد المحسن الظاهر أنه رأى على دار مشرف ما يلي وذكر الأبيات وما بعدها .

(٢) في رواية الشهابي وفي رواية مروة حسين العمرو.

الباشا بشنق حسين المرجي ووضع مشرفاً وأخاه في السجن وأعطى الأمير بشير ايالة صيداء من طرف بلاد صفد إلى جسر المعاملتين وصار له اسم عظيم عند الدولة . . . وبعد أن قبض قبلان باشا على الشيخ مشرف وأخيه أجر الأمير بشير بلادهما وأقام عليها متسلماً من قبله الشيخ محموداً أبا هرموش . . انتهى(١) .

ونحن نكاد نلمس أمرين في حياة مشرف ، الغرور والتهاون ، فإن الأمير يونس الشهابي غزا بلاده سنة ١١٠٤ هـ ولم يحرك ساكناً وقتل بعض رجال السلطة وطمع في العصيان ، ونعتقد أنه كان يعيش وحده ، ولا يرتبط بقادة الفكر ، فان هاتين الحادثتين ، وما نقش على جدران داره كله ينطق بذلك فإن ما نقش بمجموعه يمثل الأدب المنحط ؛ فإن كان من صنع مشرف دلنا على أن ثقافته كانت لا تستحق ذكراً وأنه كان ينظم الشعر بفطرته ، وإن كانت من صنع معاصريه دلنا على أنه كان في معزل عن الطبقة المثقفة فإن الذين كانوا في عاملة وعاشوا بها قبل بناء الدار وبعده عدد جم(٢) ولعل ذلك هو الذي سبب له الأسر ، لا لأن القوم كانوا متفقين مع خصومه ، بل لأنه لم يكن يتلقى دروس الحياة عنهم ، فإن الزعيم الذي يقبض في بلاده باليد من غير أن يسفك في سبيله ملء محجمة دماً ، يعد في الغافلين المتهاونين الذين استفادوا الملك من طريق الوراثة فقط .

(١) هذا كلام الشهابي برمته ص ٧٤٩ وأما مروة في جبل عامل في قرنين فانه يقول . . وفي سنة ١١٠٩ هـ . ركب الأمير بشير على بلاد بشارة ومسك مشرف من المزرعة وبنى عين الدروز قرب جوياً : وفي نسخة المقدمة ـ وعين الجنان قرب بافلية وعين الراموح مشهورين ـ وقتل حسين العمرو وصفا له الحكم في بلاد بشارة ـ بعد أن خرب ونهب ـ وفي سنة ١١١٣ هـ . ألقي القبض على علي منصور ومحمد بزيع ـ وجدوهم في أنطاكية ـ وبقي مشرف في الحبس خمس سنين حتى توفي سنة ١١١٤ هـ . وسنة ١١١٤ هـ توفي مشرف في قضاء صيدا وسنة ١١١٧ هـ . صارت زلزلة عظيمة أياما متعددة وسنة ١١١٩ هـ . سليمان باشا حرق حاصبيا وسنة ١١٣٠ هـ قتل الشيخ ـ يونس النباطي من العلماء . قتله الأمير حيدر وسنة ١١٢٢ هـ القى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلي منصور وتوفي الحاج محمد بزيع . ـ وسنة ١١٣٢ القي القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلى علي منصور الخ ـ وسنة ١١٤٣ توفي الشيخ عبد الله نعمة انتهى بلفظه ونسخة الفقيه والعرفان متفقتان ونسخة الخال في المقدمة اشتملت على زيادات ذكرت آنفا بين الأهلة .

(٢) فإنه كان معاصراً لصاحب الوسائل المتوفي سنة ١١٠٤ هـ في إيران ومن راجع أمل الآمل عرف أن عدد العلماء الموجودين في الجبل عدد كثير .

وإن ترميم الأمير بشير لبعض العيون يدلنا على سلوك ممتاز وأنه كان يعرف موضع النقص في سياسة مشرف .

وعن تاريخ الأعيان للشدياق ما صورته : وسنة ۱۷۰۰ م خرج الشيخ مشرف بن علي الصغير المتوالي اليمني صاحب مقاطعة بلاد بشارة عن طاعة أرسلان باشا وقبض على بعض غلمانه وقتلهم فاستنهض الوزير المذكور الأمير بشير لقتاله وأطلق له ولاية صفد مع مقاطعات جبل عامل الثلاث وهي مقاطعة بلاد بشارة ومقاطعة إقليمي الشمار « الشومر » والتفاح ومقاطعة الشقيف فجمع الأمير من رجاله القيسية ثمانية آلاف مقاتل وزحف بهم إلى قتال مشرف اليمني فالتقى به في قرية المزريعة « المزرعة » من بلاد بشارة واصطف الفريقان للقتال ولم تضطرم نار الحرب بينهم الا قليلاً حتى انكسرت رجال مشرف وهلك منهم خلق كثير وقبض على مشرف وأخيه الحاج محمد ومدبرهما الحاج حسين المرجي فأرسلهم الأمير إلى أرسلان باشا فقتل الوزير الحاج حسيناً وسجن مشرفاً وأخاه . انتهى[1] .

بقي علينا أن نعرف مشرفاً هذا ، وأنه هل هو ابن نصار أو أبوه ؟ وهل تولى حكومة البلاد بعد أحمد المتوفي سنة ۱۰۹۰ هـ . فتكون زعامته إلى حين أسره ١٩ سنة أو أنه تخلل بينهما حاكم آخر ؟

هذه حقائق باقية في ذمة التاريخ نتركها الساعة للباحثين ونستبقي رأينا فيها إلى الحلقة التي بحثنا فيها عن زعماء عاملة خاصة وقد أثبتنا أن مشرفاً هذا غير مشرف الواقع في سلسلة آباء ناصيف النصار لأنه نصار بن نصّار بن أحمد بن نصار بن مشرف بن محمد بن حسين بن علي الصغير وصاحب المزرعة هو مشرف بن نصار إذا صح ما روي عن جدار داره وقد انتهى ملك مشرف بالأسر وانتهت حياته بالموت في السجن في صيداء بعدما قضى فيه خمس سنوات لأنه توفي سنة ١١١٤ هـ كما في رواية « مروة » .

والخلاصة : أن مشرفاً كان زعيماً نشيطاً يحاول أن يطير بأمته ويستقل

(١) العرفان م ٢١ ص ٤١٤ .

بحكـومته ، ويتـوسع في سلطتـه ، ولكنه لم يكن يـرتبط بـرجـال الأمـة ، وقـادة الفكر .

وأمـا الأمير بشـير فانـه بعدمـا انتهز فـرصة غضب السلطة وغفلة مشـرف استولى على البلاد ، وقام ببعض المشاريع الحيوية فـرمم بعض العيون وصفـا له الحكم وبقيت البـلاد تحت تصرفـه إلى أن توفي سنـة ١١١٩ هـ وفي هـذه السنـة حرق سليمان باشا حاصبيا[١] وتولى بعد الأمير بشير الأمير حيدر الشهابي وقامت الثورات على ساق واستعاد آل علي الصغير حقهم المغصـوب ، وحكموا بـلادهم وتولوها من قبل بشير باشا والي صيداء .

يحـدثنا الشهـابي أنه « في سنـة ١١٢٠ هـ . ركـب الأمير حيـدر لغزو بـلاد المتاولة لأن المشايخ بني علي الصغير بعد وفاة الأمير بشير كانوا قد تولوا بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الأمير حيدر حكم بلاد الشـوف وكسروان فغـزاهم الأمير حيدر برجال بلاده فعظم ذلك على بشـير باشـا وكان متـولياً ايـالة صيـداء فأرسل يقوي الأمراء اليمنيـة الذين كـانوا في الغـرب والجرد من بني علم الـدين وغيرهم . . انتهى[٢] .

والظاهر أن الأمير حيدر استأجر بلادهم من بشير بـاشا بعـد هذه الـواقعة وأبقى الشيخ محموداً أبا هرموش وهو قيسي متسلماً من قبله فيها ، ثم رفعه عنهـا سنة ١١٢١ هـ . لأنه لم يف المال المقرر ؛ وكان الشيخ محمـود الآنف قد اتصـل بالوالي فتوسط معه فاحضر له أوامر بالولاية مكان الأمير حيدر ودعي أمـير ميران ففر الأمير حيدر واستعان الشيـخ محمود بـاليمنية وغيـرهم وفي سنة ١١٢٢ هـ . ظهر الأمير حيدر بعد اختفائه وتجمع عليه أتباعه واجتمـع لحربـه أضداده فصمم على الهزيمة أولاً ثم بدا لـه فباغت خصـومه ليـلاً وأسر الشيـخ محموداً فـاراد قتله فمنعه المشايخ لئلا يتخذ القتل سنة في الزعماء فقطع لسانه وإبهامه ولم يمنعه ذلك من الكلام[٣] .

---

(١) لاحظ الهامش قبل صفحتين من هذا الكتاب .
(٢) الشهابي ص ٧٥١ .
(٣) الشهابي ٧٥٢ وص ٧٥٣ .

ولسنا نعرف ما جرى على بلاد بشارة بعد ذلك غير أن الشهابي يحدثنا أنه في سنة ١١٢٤ هـ حكم الأمير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا على بلاد بشارة من يد والي صيداء وأنشأ بها مظالم وقبض عثمان باشا قبل عزله ـ وانتقاله إلى البصرة ـ على الشيخ منصور بن علي الصغير وقتله . انتهى[١] .

ويلاحظ القارىء : أن الشهابي حدثنا بصراحة ، أن عثمان باشا قبض على الشيخ منصور ، وأما مروة فقد حدثنا أنه في سنة ١١١٣ هـ ألقي القبض على علي منصور ومحمد بزيع وجدوهم في أنطاكيا وأنه في سنة ١١٣٢ هـ . ألقى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلى علي منصور وتوفي الحاج محمد بزيع[٢] .

ومما لا نشك فيه أن هذا الشخص ليس من سائر الناس ، وأنه زعيم يشار اليه بالبنان ، وربما يظهر من الحديث الآنف أنه كان مشرداً ، ونحن لا نعرف عنه إلا ما أسلفناه .

واما الحاج محمد بزيع فقد قبض في أنطاكيا سنة ١١١٣ هـ . ولم يكن قد حج كما يظهر من مروة ولكنه عندما ذكر وفاته عبر عنه بالحاج محمد بزيع وذلك يدلنا على أنه كان طليق الجناح ، وأنه استطاع بعد الأسر وذهب إلى الحج ، وأما الشهابي فقد ذكر أن الذي أسر مع مشرف هو أخوه الحاج محمد ؛ وإذا صح

---

(١) الشهابي ص ٧٥٥ .

(٢) نسخ جبل عامل في قرنين لمروة مختلفة ، وما ذكرناه هو لفظ نسخة الخال في المقدمة وأما نسخة الفقيه والعرفان فهما هكذا وسنة ١١٢٢ هـ ألقى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلي (بياء منقطة في نسخة الفقيه ومهملة في نسخة العرفان) منصور وتوفي الحاج محمد بزيع ، وعلى هذا يمكن أن تكون نسخة العرفان موافقة للشهابي في إثبات كون المقبوض عليه هو منصور لا علي منصور . وهناك خلاف آخر وهو أن الشهابي وقت الحادث بسنة ١١٢٤ هـ ونسخة الفقيه والعرفان وقتاه بسنة ١١٢٢ هـ ونسخة الخال وقتته بسنة ١١٣٢ هـ . ولكن النسخ الثلاث ذكرته بعد حادثة قتل الشيخ يونس في سنة ١١٣٠ هـ . وهذا يقرب صحة نسخة الخال رحمه الله تعالى لأن الكتاب مبني على ترتب الحوادث من حيث الزمان : وهناك خلاف ثالث وهو أن الشهابي يقول أن الذي قبضه عثمان قد قتل ، وكتاب مروة لا يشير إلى ذلك ، ونحن لا نجد مانعاً من الأخذ بالروايتين ، كما أنه لا مانع من أن يعيش علي منصور من سنة ١١١٣ هـ إلى سنة ١١٧٩ هـ فقد حدثنا الركوني أن عباس العلي حاصر ـ تحصن ـ هو وعلي منصور في قلعة ميس سنة ١١٧٩ .

قوله إنه أخوه وجمعنا بين رواية مروة ورواية الشهابي ، أنتج ذلك أن الحاج محمد بزيع هو أخو مشرف ، ويكون آل بزيع الموجودون في قرية « زبقين » فرعاً من الأسرة الصغيرية[1] ولعل آثار الأبْنِيَة الفخيمة الموجودة فيها من بقايا ذلك العهد ؛ فيكون مشرف ، بنى داراً في المزرعة وأخوه بنى مثلها في زبقين .

وأما حسين العمرو أو حسين المرجي فربما يكونان واحداً[2] .

ويظهر لنا من خلال هذه الحوادث أن سلطة بيت علي الصغير الحكومية سلبت منهم بعد مشرف منذ سنة ١١٠٩ هـ . واستدامت كذلك إلى سنة ١٢٢٥ هـ. ولم يتخللها إلا فترة واحدة في سنة ١١١٩ هـ . وإذا لاحظ القارىء ما حدثناه به في هذا الكتاب ، عرف مبدأ الزمن الذي حكم فيه زعماء عاملة بلادهم ، وعرف بعد ذلك أن ما ذكره العلامة الأمين لا يتفق مع التاريخ الصحيح[3] .

حوادث مجهولة

لم يحدثنا عنها مروة في جبل عامل في قرنين ولا غيره ، نعم حدثنا عنها الشهابي بصورة موجزة كما هي عادته فيما يتعلق بغير حكام الشوف قال : في سنة ١١٣٣ هـ كانت الفتنة بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد ، وجرى بينهم قتال شديد ، فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير ، ثم خرج عثمان باشا بالعسكر على بلاد صفد وقتل منهم أكثر من ثلاثمئة

---

(١) لاحظ ما ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٧ .

(٢) يوجد اليوم بيت في عاملة يسمون بيت المرجي يقيمون في قرية زبدين منهم الشيخ أمين مرجي وولداه الحاج محمد أمين مرجي والحاج علي مرجي وهم بررة أتقياء وقد حدثنا الشيخ أمين عن محمد بك الأسعد أنه نزل ضيفا على جده عندما كان ذاهباً إلى جباع للنظر في قضية تتعلق بالشيخ عبد الله نعمة والشيخ علي الحر .
وقد حصلنا على قطعة خطية استنسخها الشيخ يوسف عمرو من الكتاب المخطوط الموجود عند آل عمرو في وادي السلوقي . وقد صرح فيه بأن حسين العمرو وهو من آل عمرو وذكر سبب تسميتهم ببيت المرجي وربما يتسع هامش هذا الكتاب في الطبعة المقبلة لنشر قطعة من الكراسة التي وصلت الينا فهي تتعلق بما نحن فيه .

(٣) لاحظ ما ذكره في أعيان الشيعة ج ١٥ ص ١٠٣ لتعرف مواضع الاشتباه .

رجل وقتل البشناق أولاد مشايخ بلاد صفد . انتهى[1] . وفي سنة ١١٦٦ هـ سار الأمير حيدر بالعكسر إلى بلاد المتاولة فهربت ونهبت الدروز جميع تلك البلاد[2] .

وفي سنة ١١٤٣ هـ توفي الأمير حيدر الشهابي في دير القمر وكانت مدة حكمه في الشوف من حين حضوره من حاصبيا ستاً وعشرين سنة وتولى الحكم بعده ولده الأمير ملحم الشهابي ، وكان والي صيدا في هذا التاريخ أسعد باشا العظم ، وكان من أشد الناس بغضاً له[3] :

وفي سنة ١١٤٤ هـ استأجر الأمير ملحم الشهابي بلاد بشارة من يد وزير صيدا بموافقة الشيخ سلمان الصعيبي ، وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير ، وباغت إخوته في قرية جويا فهربوا إلى بلاد القنيطرة ، وقتل ثلاثة عشر قتيلاً من قبيلتهم ؛ ونهبت الدروز تلك البلاد ، ثم رجع أولاد نصار وفكوا أخاهم (؟) واستأجروا بلادهم من الأمير ملحم وكان في تلك السنة موت عظيم ، وتوفي الشيخ سليمان (؟) الصعيبي[4] .

وفي سنة ١١٤٧ هـ « صارت وقعة أنصار « الثانية » مع الأمير ملحم بن الأمير حيدر وأسر من الشيعة ألفا وأربعمئة ومات في الكنيف في بيروت ، وفكت

---

(١) الشهابي ص ٧٥٦ وأما الشيخ ظاهر العمر فقد حدثنا عنه شبيب باشا الأسعد في مقدمة ديوانه العقد المنضد ص ٢٣ فذكر أنه أحد رؤساء عرب طبريا والناصرة وأنه استأذن من صاحب طير شيحا المقيم بقلعة - جدين - في سكنى محل من بلاده لأنه كان يقيم في طبريا وهي موبوءة الهواء فأعطاه عكا وكانت خراباً في اوائل القرن الثاني عشر وشرط عليه أن لا يسورها فبنى فيها دورا مكشوفة وجعلها متجراً للحبوب والقطن والزيت ، فنبه ذكره ، ثم اغتال صاحب قلعة جدين - بالسم وتملك تلك البلاد ، واعطى كلا من ولديه علي وعثمان شطراً من بلاده فعظم شأنه وخافته العربان وفرت من بين يديه وتمردت عليه عربان بلاده وهم عرب مرج بني عامر من الصقر والحوارث ، وقد قتل هو وولداه في أواخر القرن الثاني عشر وقد ذكر الشهابي في تاريخه ص ٨٠١ عنه حديثاً يخالف ما ذكره شبيب باشا الأسعد فليراجع .

(٢) الشهابي ص ٧٦٥ واللفظ له .

(٣) الشهابي ص ٧٦٦ وص٧٦٧ .

(٤) الشهابي ص ٧٦٨ وسليمان الصعبي هو والد الحاج علي سليمان بن أبي صعب المتوفي سنة ١١٧٥ هـ كما ذكره الركيني في حوادث السنة المذكورة .

الأسرى ، وكانت الوقعة بفتوى الشيخ نوح ، حكم تاريخها بالحامدية[1] .

وفي سنة ١١٥٢ هـ كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ أحمد فارس وأولاده وهرب أخو الشيخ حيدر إلى بلاد الشوف واحتمى عند الأمير ملحم[2] .

واقعة أنصار الثالثة
وواقعة مرج قدَس سنة ١١٥٦ هـ

تطاول زعماء عاملة على أطراف بلاد الأمير ملحم بن الأمير حيدر الشهابي ، ومنعوا الأموال السلطانية عن سعد الدين باشا والي صيدا ، فأمر الأمير ملحماً بأن يسير اليهم بعسكر بلاده وعندما وصل الأمير ملحم إلى جسر الأولي بالقرب من صيدا أمره الباشا بالرجوع لأن العامليين قد تفاهموا معه واتفقوا وإياه ؛ فعظم ذلك على الأمير ملحم لأنه عدّ تسليمهم بدون مراجعته استخفافا بكرامته وتعدياً ثانياً عليه ؛ فزحف عليهم بجيشه فنهاه الوزير عن ذلك وأمره بالعودة إلى بلاده فلم يعتن بذلك وزحف بالجيش ماراً على صيدا حتى انتهى إلى قرية أنصار فالتقاه الزعماء بعساكرهم هناك ودارت رحى الحرب ، ثم انجلت عن أكثر من ألف قتيل من الفريقين كما في رواية « مروة » وعن ألف وستمئة قتيل من الشيعة كما في رواية الشهابي وقبضَ أربعة من الشيوخ وسلمهم إلى الباشا في صيدا .

ونحن نظن أن مراجعة الباشا خففت من وطأتهم ، لأنهم حسبوا أن استرضاء الوالي يكفي في دفع الفتنة لأنهم لا يرونه يجترىء على مخالفته فكانت

(١) مروة واللفظ له وفي نسخة العرفان حكم تاريخها في الحامدية وأما نسخة الخال فهي خالية من هذه الفقرة ، وهذا التاريخ لا يتمشى مع حساب أبجد المعروف ، ثم إن هذه الواقعة لم يشر لها الشهابي مع أن الأمير ملحم لم يمت في هذا التاريخ ، ولعل الذي تولى الحرب شخص آخر بهذا الاسم وكانت الحرب بأمر الأمير ملحم بن الأمير حيدر ، ومن أجل هذا الاضطراب لم نجعل لها عنواناً مستقلاً. وأما الأمير ملحم بن الأمير حيدر فانه توفي في بيروت بعد عزله عن الحكم سنة ١١٧٣ هـ .

(٢) الشهابي ص ٧٦٩ .

الحرب بعد ذلك كأنها على غير ميعاد ونحن لا نعرف أبطال هذه الواقعة ولا المشائخ المأسورين ولا نعرف أحداً من القتلى .

وأما واقعة قدّس الأولى ، فلا نعرف أسبابها ، والذي نعرفه عنها أن سليمان باشا أقسم أن يحرق بلاد بشارة وزحف بالجيوش الكثيرة ونزل في مرج قدّس ، فنزل من وجهه أهل بلاد بشارة وبلاد الشقيف وإقليم التفاح وأقام الباشا ثلاثة عشر يوماً ورجع كما في رواية الشهابي[1] وتوفي كما في رواية مروة وكفى الله المؤمنين القتال[2] .

واقعة مرج عيون الأولى

كانت هذه الواقعة في سنة ١١٥٧ هـ والذي نعتقده أنها وليدة واقعة أنصار الثالثة التي أسلفناها آنفاً ، فإن زعماء عاملة أخذوا فيها على شبه غرة وخسروا الموقف بكل معانيه ! فبينما كانوا يغيرون على أطراف بلاد الشهابيين ، ويمنعون المال المقرر عن والي صيدا ، وإذا بالقوات المهاجمة تحيط بهم ، وكانت الخطة الوحيدة التي ساروا عليها هي إحكام الصلة وتوطيد العلائق مع وزير صيدا من جديد ، فأصدر الوالي أمراً برجوع الأمير ملحم الشهابي ؛ ولكن ملحماً نفذ خطته ، ولم يحفل بأمر الوالي ، بحجة أنهم أغاروا على أطراف بلاده أولاً ، وسحقوا كرامته ثانياً لأنهم تفاهموا مع الوالي منفردين عنه فلم يشركوه في

---

(١) الشهابي ص ٧٧٠ ولكنه يقول في ص ٧٧١ إن سعد الدين باشا العظم توفي في طبريا سنة ١١٥٧ هـ . أي في السنة التالية لسنة هذا الحادث وأما سليمان باشا فلم يزل يحدثنا عنه في عدة سنوات بعد هذا التاريخ .

(٢) قال مروة ما لفظه ـ وسنة ١١٥٦ هـ صارت وقعة مرج قدّس مع سليمان باشا العظم وفي نسخة الخال وأقسم أن يحرق بلاد بشارة ـ فتوفي الباشا قبل الحرب وكفى الله المؤمنين القتال وقيل في ذلك تاريخ :

قالت الدنيا الغرورة ... مات سليمان النجيب
قلت في التاريخ كفى ... موته فرج قريب

وفيها ركب الأمير ملحم على أنصار ثانياً وقتل من الفريقين أكثر من ألف قتيل . انتهى . وأنت ترى أن مروة قبل أسطر من رسالته ذكر أن الأمير ملحماً توفي سنة ١١٤٧ هـ في الكنيف ، ولعل الذي غزا في سنة ٤٧ كان أحد أرحامه وكان يسمى بهذا الاسم ومات في الكنيف .

الأمر ولم يجعلوه وسيطاً بينهم وبين الوالي .

ونحتمل أن تكون هذه الحركة خطة مدبرة ، صدرت عن اتفاق من الوالي والأمير ، لتفتح لهم طريقاً إلى إخضاع قوات العامليين الجبارة فكان الباشا يمنيهم بانتهاء الحادث بدون قتال ويأمر الأمير بالرجوع علناً ، ويستحثه على القيام بالمهمة اللازمة من المسارعة في الهجوم سرّاً . إن هذا الأحتمال شيء يقربه الفن ، ولا يستنكره المنطق.

وكأن العامليين انتبهوا إلى هذا التدبير ، فاعدوا العدة وصمموا على أخذ ثأرهم ؛ فهاجموا الشهابيين في العام الثاني ، فجرت الموقعة في مرج عيون ، وكأن الشهابيين كانوا على ميعاد فاجتمعت أهالي وادي التيم ودروز جبل الشوف ، وقامت الحرب على ساق ؛ ودارت رحى القتال بين الفريقين ، فانهزم جيش الدروز وولّوا الدبر ، بعد خسارة ثلاثمئة مقاتل واقتنع العامليون في أول أمرهم بهذا المقدار من الثأر لكرامتهم ، والانتقام لقتلاهم في العام الماضي ، ثم لما عادوا تداولوا الرأي فيما بينهم ، ووجدوا أن ذلك لا يشفي الغليل ، ولا يبرد الأكباد ، فتجمهروا في النبطية من جديد ، وصمموا على غزو بلاد الدروز ، وإجراء عملية الانتقام عملية كاملة ، فحال الوالي بينهم وبين مايريدون[١] ؛ وكان هذا التجمهر أشد وقعاً على قلوب خصومهم المنهزمين ، من تطبيق العملية خارجاً ، وهكذا انتهى هذا الحادث ، وأعقبته الفتوة والتيقظ والافراح والمسرات ، حتى بلغ من نجدة العامليين أنهم يغيرون على الجند العثماني عند استطراقه من بيروت إلى عكا[٢] .

تجديد القلاع ، وتقسيم المقاطعات سنة ١١٦٤ هـ

استقبل العامليون بعد موت الأمير حيدر الشهابي سنة ١١٤٣ هـ حياة فتية

---

(١) الشهابي ص ٧٧١ فانه صرح ببعض خصوصيات هذه الواقعة .

(٢) قال مروة ـ وفي سنة ١١٥٧ هـ . كانت وقعة مرج عيون بين الدروز والشيعة وكانت الغلبة للشيعة ـ هكذا في نسخة الفقيه والعرفان وزاد الخال ما لفظه ـ وكانت بينهم أيام أفراح وشدة بأس حتى أن العسكر العثماني يسير من بيروت إلى عكا على شاطىء البحر لا يخشى إلا من هجوم شبّان الشيعة يسمونهم المتاولة أو العلويين . انتهى .

متسلحة بالعزة المتمردة ، والكرامة الثائرة ، وتقدموا في معترك الحياة فرطاً وحلوا من الشرف وسطاً ، وبزغ عليهم فجر سنة ١١٦٣ هـ أو سنة ١١٦٤ هـ فكان من أكثر الاعوام بركة ، وأعظمها يمناً ، وأعمها نفعاً لأنه فاتحة عهد جديد ؛ فقد حمل الخير من أطرافه ، وألقاه بين أيدي الزعماء ، فاقتسموه فيما بينهم ، وحصنوه بالقوة بما لها من معاني ، فان الظروف السالفة ، كونت في نفوسهم اتجاهاً جديداً ، يندر وجوده بين دول متفاهمة فضلاً عن زعماء إقطاعيين ، فانهم أصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، على ما بينهم من إحن تثيرها الأطماع وتولدها الحاجة الزمنية ، وذلك وحده هو الأمر الذي يبعث الإكبار من رقدته ، ويستنهض الإعجاب من مكمنه ، وإذا درس القارىء شطراً من حوادث السنين الآتية ، وجدهم يشتركون في الدفاع عن كرامة بلادهم ، فإذا أصاب أحدهم نازلة كانت كأنها حلت بالجميع وإذا قدروا على الدفاع اشتركوا معه وإذا لم يشتركوا لم يسعفوا عدوه عليه وإن كان صديقاً لهم أو كانوا لا يأمنون صولته ؛ فقد كبست الحكومة (أنصاراً) ولكن عباس العلي كبسها بعد ذلك[1] حتى كأن الخطة مدبرة ، في حين أنه لا تدبير ولا مؤامرة . ثم تجدهم وقت السلم تبدر من أحدهم البادرة ، ولكنها لا تصل إلى جر السلاح وإهراق الدماء حتى كأنهم قد تبانوا على ذلك فقد أساء الأدب عباس العلي مع قبلان فسجنه في قلعة مارون ، ومع ذلك كله كانا يشتركان في الوقائع الكبرى ولا يستفرص أحدهم ابتلاء الآخر بعدوٍّ أجنبي عنهما وهكذا غيرهما من الزعماء ؛ وإذا كنا لا نعرف الحاكم السياسي تفصيلاً بعد وفاة مشرف سنة ١١١٤ هـ وبعد وفاة الحاج محمد بزيع سنة ١١٢٢هـ أو سنة ١١٣٢هـ على اختلاف النسختين ، إلا أننا نعرف إجمالاً أن نصاراً كان يحكم البلاد يوم حادث جويا سنة ١١٤٤ هـ . ولكن نصاراً هذا هل هو نصار الأحمد الذي أنجب سادات العرب ناصيفاً وإخوته وأحفادهم أو هو نصار بن مشرف ؟ ذلك أمر لا نعرفه ، لأن الوثائق التاريخية مطموسة والتهجس لا يوصل إلى أكثر من الظن ، والظن لا يغني عن الحق شيئاً . نعم حدثنا شبيب

---

(١) تستعمل لفظة كبس عندهم بمعنى الهجوم المباغت .

باشا[1] أن نصار الأحمد هو حاكم البلاد ولكنه لم يحدثنا عن ابتداء حكمه وانتهائه، كما أنه سبب له حادثة البحرة وهي من الوقائع التي دارت رحاها على ساعد ناصيف بن نصار الأحمد، لذلك أصبحنا نشكك في روايته هذه .

ومهما يكن من غموض في حوادث الأعوام الماضية فاننا لا نجد منه شيئاً بعد عام سنة ١١٦٣ هـ ذلك لأننا أصبحنا نسير على هدى فجر من التاريخ مستطير، وأصبحنا لا نجهل إلا خصوصيات بسيطة لا تمس صلب الحقيقة، ولا تزعزع راسخات أهدافنا المقدسة ففي سنة ١١٦٣ هـ . شرع زعماء عاملة في ترميم القلاع والحصون فقامت قلعة تبنين ، وهونين، ودوبيه، ويارون وشمع، وجبع وميس وغيرها ، وأعيدت مدينة صور فتية بعدما كانت خراباً لا يقيم فيها أحد ، وأما قلعة الشقيف فقد هدمت سنة ١٠٢٤ هـ[2] ولم نجد نصوصاً خاصة تدلنا على الزمن الذي أعيدت فيه ، نعم كانت في النصف الثاني من القرن الثاني عشر من أشد القلاع تحصيناً وأكثرها تزويقاً وتنميقاً وذلك على عهد الأمير الشيخ علي الفارس الصعبي، حتى وصفها شاعرا عاملة في ذلك العهد بأروع أنواع الوصف، فقال فيها الشيخ ابراهيم الحاريصي من جملة قصيدة يمدح بها صاحب القلعة الشيخ علي الفارس الصعبي :

ما الشقيف الصلد إلا جنة ... ولنا قصر بأعلاه استنار
تنظر المرآة فيه فترى ... فوقك النهر تراءى بانحدار
ما رأينا قبل هذا جدولاً ... فوق قصر شامخ في الجو طار
لاولا قصر كهذا إنه ... فلك يزهو ولكن لا يدار
زينة الدنيا على أرجائه ... تزدهي في كل نحو كالفنار
نقشها مؤتلف مختلف ... في ابيضاضٍ واحمرارٍ واخضرارٍ
شامخ يأوي اليه أسد ... ذو افتراس واقتناص وابتدار

وله أيضا في وصفها :

لك القلعة الشماء أشرق بدرها ... وإن كره الحساد في فرق فرقد

(١) في مقدمة ديوانه ص ٢٠ .
(٢) لاحظ ص ٢٨ من هذا الكتاب الذي بين يديك .

جـذبت بهـا حتى بلغت بهـا السهى　　وقصّـر عنهـا كـل قـصـر مشيـد
وأبـرزتهـا لـلوافـدين فـأقـبلت　　تنـادي على شحط المـدى كل مجتـدي

وله أيضا في وصفها :

حصن حصـين وأبـراج تـدور عـلى　　قـطب السعـود ولا تنحط عن زحـل
وشـاهـق راح يحكـيهـا فـقلت لـه　　ليس التكحـل في العينـين كـالكحـل

ومن الغـريب أن الامـين في أعيـان الشيعـة نسب الأبيـات اللاميـات والداليات للشيخ ابراهيم الحاريصي تارة وللشيخ إبراهيم يحيى الطيباوي جد آل صادق أخرى والذي نراه أنه لا ينبغي الشك في كون اللاميـات للشيخ إبـراهيم يحيى لأن عليهـا مسحـة من أدبـه وهي من جملة قصيـدة ذكـر شـطرا منهـا في الأعيان[1] .

وأما قلعة ميس ويارون وجبع وغيـرها فـانا لا نعـرف شيئاً عن تـاريخها ، نعم حدثنا مروة في جبل عامل في قرنين عن تاريخ تـرميم تبنين وهـونين ودوبيـه وشمع وإعادة صور وأوضح هذا الحديث الركيني في جبل عامل في قرن .

ومما يلفت النظر أن المستندات التي بين أيدينا حـدثتنا عن آل عـلي الصغير بأحاديث ممتعة تشفي الغليل ، وحدثتنا عن آل الصعبي بصـورة مقتضبة ، وأمـا المنكريون فلم نجد ذكرهم فيها إلا عرضـاً ولا نعرف السبب ، وكـذلك مقـدّمو جـزين الذين هم من سـلالة الخـزرج من الأنصار وكـانوا يحكمـون جـزين ومـا إليها[2] .

ولعـل السر في ذلـك أن الحـاكم العـام « شيخ المشـايخ » كـان من آل علي الصغير أو أن المؤرخين : مروة والركيني كانا يسكنان في المقاطعات التي يحكمهـا

(١) لاحظ اعيان الشيعة في ترجمة الشيخ ابراهيم الحاريصي والشيخ ابراهيم يحيى الطيبـاوي ج ٥ ص ١٣٢ وص ٦٢٢ .
(٢) لاحظ العرفان م ٢٩ ص ١٣٩ بالنسبة لما يرجع للمقدّمين .

الصغيريون فتكون من أجل ذلك معلوماتهم عنهم أكثر[1] أو لعلهم كانوا يعتمدون عليهم في مادياتهم .

وقد كانت جبال عاملة تقسم إلى ثماني مقاطعات ، خمسة منها تحت سلطة آل علي الصغير ، وهي تبنين، وهونين، وساحل معركة، وساحل قانا، ومرجعيون ، ومقاطعة واحدة تحت سلطة آل أبي صعب وهي مقاطعة الشقيف ، ومقاطعتان تحت سلطة آل منكر وهما إقليم الشومر، وجباع ، وكان الحاكم يؤدي عنها ستين ألف غرش سنوياً مقسطة على اثني عشر شهراً[2] .

وأول تقسيم نعرفه كان في سنة ١١٦٣ هـ . فكانت تبنين لناصيف وصور لعباس العلي وهونين لقبلان ، وأما بقية المقاطعات فلم نعرف اليوم الأول الذي تناولتها القسمة فيه ولا نعرف حكامها على التفصيل في هذا العهد ؛ وتقسيم البلاد الراجعة لآل علي الصغير بين أحفاده يدلنا على أنها اتخذت كعلاج لمشكلة سياسية داخلية .

ولعل آل منكر وآل الصعبي لم يعترفوا بحكومة آل علي الصغير ، فاتفق هؤلاء في قبالهم ، وجعلوا هذا الاتفاق حجراً أساسياً لإخضاع إخوانهم .

ويشهد لهذا ما حدثنا به الركيني[3] أنه في سنة ١١٧١ هـ ركب محمود إلى اقليم الشومر وقبض سليمان بن أبي صعب ، وحدثنا أنه في سنة ١١٧٧ هـ كبس الشيخ حسين منصور قرية الغازية ، وخرب إقليم التفاح ، وتضعضعت أحوال الناس فركبت خيل ناصيف وخيل قبلان وعباس إلى إقليم الشومر ، فإن المظنون أن حسينا هذا من آل منكر ولعله أخو علي منصور المنكري فقد حدثنا

---

(١) مروة من قرية صلحا ، والركيني لعله من قرية طير زبنا وكلاهما من المقاطعات التي كان يحكمها آل علي الصغير .

(٢) ديوان شبيب باشا ص ١٨ ولكن لم يتضح لنا أن هذا التقسيم كان على عهد حكومة ناصيف النصار أو قبله أو بعده ، ونحن نجد ما يخالف هذا في القرن الثالث عشر على عهد حمد البك وعلي بك وينبغي ملاحظة ص ١٥٤ من الحلقة الأولى من هذا الكتاب .

(٣) جبل عامل في قرنين المنشور في م ٢٧ و٢٨ و٢٩ من العرفان وينبغي ملاحظة كل جهة ذكرناها في حوادث سنتها والظاهر أن محمودا الذي ركب إلى اقليم الشومر وقبض سليمان بن أبي صعب هو محمود النصار أخو ناصيف .

أيضاً أنه في سنة ١١٩٢ هـ توفي الشيخ محمد العلي بن علي منصور منكر ، وعلى هذا يكون حمزة بن علي منصور الذي اختلف مع الدروز في سنة ١١٨٣ هـ . هو أخو الشيخ محمد العلي ويكون علي منصور الذي تحصن هو وعباس العلي في قلعة ميس سنة ١١٧٩ هـ هو والد محمد العلي وحمزة الأنفين حتى التجأت الحكومة إلى ضرب الحصار عليه مستعينة بالدروز ولم تفعل شيئاً، ولعل هذه المؤامرة الممقوتة حملت أبا حمد الشيخ محمود النصار على الاستيلاء على مواشي عباس العلي في قرية طرفلسيه تخفيفاً من نزقه . وأخيراً رجع إلى صور في سنة ١١٨٠ هـ واستقرت الأمور .

وحيث انتهينا إلى هذه المرحلة فلنسرد حوادث السنين المتعلقة بالناحية السياسية فقط ، لأنها هي هدفنا الوحيد في هذه الحلقة؛ وسنجهد أنفسنا في المحافظة على النصوص التي تضمنتها المصادر الملحنة ، لنبقي مجالاً للقارىء في الاستنتاج ، ثم نحيله عليها في مظانها لنسهل على الباحث الوصول إلى الغاية أو نشير إلى أخطاء بعض الباحثين المهمة بشكل غيرمقصود، وإلا لوجدنا أشياء كثيرة ، وخرجنا عن الغاية المتوخاة .

قال مروة في جبل عامل في قرنين « وسنة ١١٦٣ هـ شرعوا في عمارة القلع في تبنين وهونين ودوبيا وشمع ، واقتسموا البلاد فكان لعباس العلي صور[1] ولناصيف تبنين ولقبلان هونين » وفي هذه السنة « تطاولت المشايخ المناكرة على إقليم جزين وقتلوا رجلين من خدم الشيخ علي جنبلاط فعظم ذلك على الأمير ملحم وجمع عسكر البلاد وركب لحرب جباع الحلاوي فهربت المتاولة

---

(١) وفي نسخة الخال ولأخيه حمزة ، وحمزة المعروف إنما هو أخو عباس المحمد وعباس العلي ابن أخي عباس المحمد وحمزة المحمد .
ومن المحتمل أن يكون لعباس العلي أخ اسمه حمزة ولكن التاريخ لم يشر لذلك ، وقد اختلفت المصادر من حيث تجديد صور فبعضها مجمل وبعضها يصرح بان الذي جددها هو عباس المحمد كما في ديوان شبيب باشا ص ٢٠ وبعضها يصرح أنها حصة عباس العلي كما مر في عبارة مروة وأما الركيني فمرة يطلق عباس ومرة يصرح بان عباس المحمد سكنها وقد أتينا على هذه الناحية عند التحدث عن زعماء عاملة وذلك كله يدلنا على أن مقاطعة الساحل كانت لأبناء محمد النصار وهم عباس المحمد وأخوه حمزة وأبناء اخيه عباس العلي المحمد النصار واخوته .

من وجهه وأحرق أكثر بلادهم ورجع منصوراً إلى دير القمر وكان قد أصاب منهم جماعة في جبل الشوك الذي فوق جباع وقتل من المتاولة نحو ثلاثمئة نفس وأحرق حارة جباع وقطع الأشجار التي هناك وأحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة »(١) .

وفي سنة ١١٦٤ هـ (نزل القضاء والقدر بوقعة الشيخ ظاهر وذلك في قلعة دوبية وكانت وفاته ليلة الأحد ٢٤ من ربيع الأول : وفي هذه السنة شرعوا في عمارة الصور وبناء القلع وفي سنة ١١٦٥ هـ كانت بداءة الشيخ عباس في عمارة الصور في شهر جماد الأول(٢) .

وقد عرفت أن مروة جعل ذلك في سنة ١١٦٣ هـ وغير بعيد أن يصدر القرار في ذلك التاريخ ويكون التنفيذ في سنة ١١٦٤ والركيني أثبت من مروة لأنه معاصر للقوم ويكتب الحوادث لوقتها كما يظهر ويوقتها باليوم والشهر والسنة كما أنه يظهر أن الشروع في تمدين صور كان متأخراً وأنه كان في سنة ١١٦٥ هـ .

واقعة القنيطرة وواقعة رميش الأولى

وفي سنة ١١٦٦ هـ ركبت خيل واكد وناصيف على عرب القنيطرة وبعد

(١) الشهابي ص ٧٧٤ واللفظ له .

(٢) الركيني في جبل عامل في قرن وهو كتاب يحتوي على أمور هامة تتعلق بجبل عامل نشره صاحب العرفان في العرفان في م ٢٧ و٢٨ و٢٩ ومؤلف الكتاب هو الشيخ حيدر رضا المولود في سنة ١١٢٣ هـ كما يظهر من ملاحظة ما ذكره في حوادث سنة ١١٦٦ هـ وقد توفي الشيخ حيدر المذكور في ١٠ ذ.ق سنة ١١٩٨ هـ فتكون مدة حياته ٦٥ سنة وأكمل الكتاب ولده وهو الذي ذكر سنة وفاة أبيه في حوادث هذه السنة من هذا الكتاب. ويظهر مما ذكره في سنة ١٢٠٣ هـ أن الذي أكمله ولد سنة ١١٩٦ هـ وأما وفاته فلا نعرفها على التحقيق ولكننا نحتمل أنه توفي في سنة ١٢٤٧ هـ لأن حوادث الكتاب تنتهي عند هذا الحد وقد اشتبه صاحب العرفان في أمرين : أولهما أنه قال إنه دون الحوادث من سنة ١١٦٧ هـ . مع أنه يشرع في سنة ١١٦٣ هـ وهذا الاشتباه تكرر في صدر كل قطعة نشرت منه . ثانيهما أنه نسبه للشيخ حسن حيدر رضا الركوني مع أنه للشيخ حيدر وأتمه ولده ولا أتحقق فعلاً اسم ولده الذي أتمه وكأنني أذكر أنه يتعرض لذلك في غضون الكتاب وأن اسمه الشيخ علي ، ونحن نستدرك هذا وأمثاله على حملة التاريخ للتاريخ ليس الا وقد ذكرت لقبه مراراً بلفظ الركيني وهو في العرفان الركوني ولا أعرف الأصح منهما فعلاً .

يومين من هذا الركوب أعني يوم الثلاثاء خامس عشر جماد الأول ركب الشيخ قبلان إلى حاصبيا لمواجهة الأمير ملحم بن الشهاب ، وفي هذه السنة نفسها يوم السبت أربعة وعشرين من جماد الآخر ركب الشيخ قبلان والشيخ عباس على عرب مرج رميش ونهبوهم نهبة عظيمة ، وخربت البلاد[1] .

واقعة انصار الرابعة

وفي سنة ١١٦٧ هـ عمر الشيخ عباس البئر الكبير ، وفيها في شهر جماد الأول صبيحة الأربعاء يوم الحادي عشر منه جاء مصطفى باشا من صيدا إلى أنصار فكبسها ونهبها نهبة عظيمة ، ومسك الحاج محمد الحمادة وسليمان جواد ، وأخذهم معه إلى صيدا ؛ وفيها صبيحة الخميس ، ركبت خيالة عباس العلي وكبسو الدولة في مغراقة أنصار ٢٣ رجب وفيها يوم الأربعاء تاسع شهر ذق ركب ناصيف وعباس مع الشيخ ظاهر العمر على أولاده إلى طبريا ولم يركب معهم قبلان .

وفي سنة ١١٦٨ هـ في يوم الجمعة ١٨ شعبان ركب الشيخ عباس والشيخ ناصيف على شريعة منذور ، فغنموا أهلها وقتلوا منهم قدر عشرين رجلاً .

وفي سنة ١١٦٩ هـ كبست الافرنج مدينة صور فأخذوا ١٥ نفساً رجالاً ونساء ، وفي شهر رمضان خربت بلاد الشقيف وفيها مسك الشيخ عيسى فارس في قلعة بلاد الشقيف ؛ وفي شهر ربيع آخر من هذه السنة ركب أخو الشيخ ناصيف وأخو الشيخ قبلان إلى الشام وفيها عزلت العظام من الشام ومن صيدا ، وجاءت الباشوية إلى كواخيهم حسين بيك بن مكي إلى الشام ، وموسى كاخيا إلى صيدا ، وفيها رفع الأمير ملحم ابن الشهاب من حكم الشوف وحكّم موضعه إخوته الأمير أحمد والأمير منصور وفي سنة ١١٧١ هـ في ليلة الجمعة ٢ محرم توفي الشيخ حسين ويحيى ولدا (؟) الشيخ قبلان، وفي هذه السنة في ليلة الأثنين غرة شهر ربيع أول ركب محمود إلى إقليم الشومر ومسك الحاج علي سليمان ابن أبي

(١) جبل عامل في قرن للركيني وكذلك حوادث سنة ٦٧ و٦٨ واللفظ له بعد حذف ما لا نحتاجه .

صعب ، وفي ٢٧ شهر ربيع آخر يوم الأحد توفي الشيخ محمد الحَمَدْ(١).

واقعة راس العين الأولى

في سنة ١١٧٢ هـ كان سعد الدين باشا العظم والياً على صيدا ولسبب مجهول لم يحدثنا عنه التاريخ ، خرج هذا الوالي من صيداء نهار الاربعاء الموافق ٢٢ صفر من هذه السنة ودخل بلاد بشارة ، وقتل ونهب؛ والظاهر أنه دخلها بغتة وفي اليوم الآنف نفسه ، توجه الشيخ ناصيف إلى دمشق وفي نهار الاربعاء سادس ربيع الأول من هذه السنة حدثت واقعة راس العين (بين الشيخ قبلان والشيخ ناصيف وبين الوالي وكانت وقعة عظيمة وقتل من الفريقين قدر ثمانين رجلاً) .

ومن الأمور التي لا نشك فيها أن حركة الباشا هي السبب الوحيد في تكوين هذه الواقعة ، ومن المحتمل أن تكون حركة الشيخ ناصيف إلى دمشق قبل العلم بهجوم الوالي المباغت كما أنه من المحتمل أن تكون حركته هذه بعد العلم بهجومه ، وتكون رحلته هذه رحلة سياسة ، والغرض منها إلقاء الحجة ، ويكون في رحلته هذه قد حفظ خط الرجعة؛ وفي هذه السنة (سجنوا الحاج محمد حيدر أبي بشير وولديه محمد وحسين في البئر ومات الحاج حيدر وولده محمد وقلعوا عيني حسين في قلعة بلاد الشقيف وفي شهر ذي القعدة توفي الحاج محمد عيسى منكر)(٢) .

والركيني في عبارته الآنفة كما تراه لم يصرح بأسماء الذين سجنوا هذا الإنسان وولديه كما أننا لا نعرف شيئاً عن المسجونين غير ما ذكره هنا والاحتمالات لا تتناهى؛وفي سنة ١١٧٣هـ نهار الجمعة ١٤ محرم ركب العسكر

---

(١) الركيني في جبل عامل في قرن ولا نعرف غير ما ذكره هو في هذه السنة وما قبلها مع أهمية ما ذكره في حوادث سنة ٦٩ من خراب بلاد الشقيف وقبض الشيخ عيسى فارس .

(٢) الركيني في جبل عامل في قرن في حوادث هذه السنة وأما مروة فانه قال ما لفظه : وسنة ١١٧١ هـ جاء أسعد باشا العظم إلى رأس العين فنهب وحرق قرى الساحل وسنة ١١٧٣ هـ صارت زلزلة عظيمة أهلكت قرى ومدن ـ انتهى .

من بلاد بشارة إلى بلاد صفد على النوابلسي ، وفيها توفي الشيخ محمد العلي[١] وفيها توفي الأمير ملحم الشهابي في مدينة بيروت، بعد عزله عن الحكم بعد ما استخفف به أرحامه[٢]، وهو الذي مثل دوراً هاماً مع العامليين .

وفي سنة ١١٧٥ هـ في شهر ربيع الأول جاء عثمان باشا وهو يومئذ والي الشام إلى قلعة بانياس وهدمها وقبض الأمير إسماعيل بن الأمير نجم الشهابي وفيها انتقل الشيخ حمزة إلى قانا ، وفيها حاصر (أي تحصن) الشيخ واكد في قلعة شمع ، وفيها توفي الحاج علي سليمان بن أبي صعب يوم الجمعة عاشر جماد أول .

وفي سنة ١١٧٦ هـ نهار الخميس ١٨ ربيع الأول جاء الكاخية إلى قرية شحور وفيها نهار الجمعة ٢٤ رمضان توفي الشيخ واكد، وفي سنة ١١٧٧ هـ كبس الشيخ حسين منصور قرية الغازية وخرب إقليم التفاح وتضعضعت أحوال الناس ، وركبت خيل ناصيف إلى بلاد الشقيف وخيل قبلان وعباس إلى اقليم الشومر وكان ذلك في ٢٠ ربيع الأول، وفي منتصف جماد أول توفي الشيخ موسى منكر[٣] وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين الشهابيين[٤].

وفي سنة ١١٧٩ هـ في جماد الثاني ركب علي الظاهر العمر وقبلان إلى مرجعيون إلى قرية آبل فقتلوا من الدروز قدر ستين رجلاً، وقتل منهم قدر خمسة عشر رجلاً، وفيها في ٨ ربيع الأول نهار الاثنين ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس بعسكرهم وعسكر الدرفة إلى وادي المعظمية إلى عسكر علي الظاهر العمر فكسروه كسرة عظيمة ، وذبحوا من الصفدية قدر ٢٥٠ رجلاً وفيها خرب إقليم الشومر ، وحاصر «أي تحصن» عباس العلي وعلي منصور في قلعة ميس وفيها في آخر جماد الثاني شنق والي صيداء رجلين من بلاد بشارة ، وفيها كبست الغازية وركب الشيخ أبو حمد إلى قرية طرفلسيه وأخذ معزة عباس العلي وبعض جمال

---

(١) جبل عامل في قرن للركيني .
(٢) الشهابي ص ٧٨٣ .
(٣) جبل عامل في قرن للركيني .
(٤) الشهابي ص ٧٨٨ وص ٧٨٩ .

وخيل وسلبوا بعض الناس ، وفيها خرب سوق عديسة وعمر سوق الطيبة ، وسوق بدياس ؛ وفيها في رجب نهار الجمعة صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس وعلي فارس والأمير اسماعيل والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا؛ وفيها في منتصف رجب انكسر في البحر غليون أهل الروم فاختلف عليه مشايخ بلاد بشارة وعباس العلي، وبعد هذا ظبته « جمعته » الدولة بأمر والي صيداء وفيها نهار الثلاثاء ٢٢ رمضان خرج والي صيداء ومعه عسكر الدروز وحاصر عباس العلي، وكان متحصناً في قلعة ميس،وفي عشرين شوال من هذه السنة ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس المحمد والشيخ عثمان الظاهر إلى بلاد الدروز في الجمعية ، وفي هذه السنة نهار الأحد ٢٢ ذي الحجة ركبت عساكر بلاد الشقيف وبلاد بشارة وإقليم التفاح على بلاد صفد وعثمان الظاهر معهم أيضا . هذه جملة حوادث مهمة حدثنا عنها الركيني تدلنا على أن الزعماء كانوا يهتمون في التفاهم مع جيرانهم وربما يظهر أن حكام بلاد الشقيف وإقليم التفاح لم يكونوا متفاهمين مع آل علي الصغير كما يراد، بل يظهر أن عباس العلي كان يتفاهم مع المناكرة ضد بني عمه وعمومته لأن الشيخ حسين منصور منكري كما يظهر لنا .

واقعة صفد

في يوم الاحد ١٤ محرم من سنة ١١٨٠ هـ كانت واقعة صفد بين زعماء عاملة وبين علي الظاهر العمر ، فانتصر عليه زعماء عاملة بعد ما خسروه مئتي مقاتل وزاد بعضهم عدد المقتولين(١) .

واقعة تربيخا أو الدولاب(٢)

كانت واقعة تربيخا في سنة ١١٨٠ هـ . في نهار الاثنين ٨ ج ١ وسببها أن ظاهر العمر كان قد استولى قبل هذه الحادثة على قرية البصة ، وهي داخلة في المقاطعات التي يحكمها الشيخ ناصيف النصار فأراد الشيخ ظاهر أن يتوسع في

(١) الركيني وأما مروة والشهابي فانهما لم يشيرا لهذه الواقعة .

(٢) تربيخا قرية من قرى جبل عامل تقرب من حدود فلسطين والدولاب اسم مكان بجنوبي تربيخا .

سلطته وتجاوز الحدود ، والظاهر أنه لم يلق مقاومة من زعماء عاملة ؛ ومن أجل هذا لج به الطمع وحدثته نفسه بأكثر من ذلك فجاء قرية تربيخا بعسكر وافر وأحاط بها، فما كان بأسرع من أن وصل الخبر إلى قلعة تبنين وفيها حاكم البلاد الشيخ ناصيف ، والظاهر أن الشيخ علي الفارس كان عنده في ذلك الوقت ، وعندما مر صدى الحادث على أسماع الحاضرين هبوا سراعاً لتلبية الداعي ، وطارت الفرسان على متون الجياد ، وما هي إلا ساعة أو ساعات وإذا بهم قد قطعوا تلك الأرض الوعرة الواقعة بين تبنين وطيربيخا وفاجئوا تلك الجموع المنتشرة ، فالتقى الفريقان ، ودارت رحى القتال والذي نظنه أن الجموع التقت أولاً في تربيخا، وقعت الهزيمة واتبعهم ثلة من الفرسان فكر عليهم عسكر الشيخ ظاهر فاشتبكت المعركة في الدولاب وحمي الوطيس فانجلت الغبرة عن هزيمة عسكر الشيخ ظاهر هزيمة قبيحة،وعن مقتل مئة وخمسين فارساً من عسكر الشيخ ظاهر وعشرين فارساً من عسكر الشيخ ناصيف وقد غنم الشيخ ناصيف مئة فرس قد قتل فارسها « وتسمى (قليعة) باللغة الدارجة » في ذلك الوقت وغنم فرس الشيخ ظاهر المسماة بالبرصاء بعد أن أحكم الرمح في صدره وعفا عنه، وأنزله عن فرسه المعروفة بالبريصة ثم أعادها له قائلاً « لا حاجة لنا بالبريصة بعدما رجعت لنا البصيصة»[1]، ويقول الشيخ علي السبيتي أنه أركبه عليها بيده[2] وقد أبدى الشيخ علي الفارس الصعبي ، والشيخ محمود النصار في ذلك اليوم بسالة غريبة ، لم ينقلها التاريخ الا عن آحاد من فرسان العرب في

---

(١) تصغير بصة والبريصة تصغير برصاء .

(٢) ديوان شبيب باشا ص ٢٦ وأعيان الشيعة ج ٥ ص ١٢٢ وقد اعتمدنا في جمع شتات هذه الواقعة على الركيني ومروة وقصائد الشيخ إبراهيم يحيى والشيخ إبراهيم الحاريصي وأعيان الشيعة وديوان شبيب باشا الأسعد ص ٢٦ وقد صرح الأمين في أعيان الشيعة بكون حادثة الدولاب وتربيخا واحدة ويظهر ذلك من الشعر الذي نظم بهذه المناسبة . أما مروة والركيني فلم يذكرا إلا تربيخا كما أن جبل عامل في قرنين الذي هو لمروة وينسبه المعاصرون للسبيتي لم يذكر أنه أحكم الرمح في صدره وعفا عنه وأنزله عن فرسه وأركبه عليها بيده،ولعل الأمين اعتمد على كتاب السبيتي الذي هو في شرح قصيدة علي بك الاسعد .

ولنذكر لفظ مروة وفاء بما وعدنا به قال : وسنة ١١٨٠ هـ . صارت وقعة تربيخا مع ظاهر العمر وناصيف وانكسر ظاهر وقتل منه ماية قتيل ونهبت منه خيول ومن الجملة فرسه البرصاء . انتهى .

الجاهلية كالمهلهل وأضرابه وهذه البسالة هي التي دعت الشيخ إبراهيم يحيى والشيخ إبراهيم الحاريصي ، وهما شاعرا عاملة في ذلك العهد للتغني بهذا الموقف الرهيب في قصائد هما الرنانة :

واعجب شيء أن خمسين فارساً   تمزق الفي فارس بالقواضب

وينبغي أن لا يغيب عن القارىء أن عثمان الظاهر كان في ذلك الوقت في منتهى القوة ، وأنه كان قد مضى على حكم البلاد ما يقرب من نصف قرن ولعل هذه الهزيمة هي التي دعته للتحالف مع العامليين وستقرأ شيئاً من ذلك بعد سطور .

بقية حوادث سنة ١١٨٠ هـ

في أوائل هذه السنة « أمسك الشيخ عباس الشيخ قبلان ورده إلى خلف في سنة تاريخها ظرف ، وقتل فيها خمسة رجال ، وطلب وراء الشيخ عباس صبيحة الثلاثاء ، فأدركته الخيل شرق القنيطرة فاستيسره واستيسر أخاه أحمد وجاء بهما إلى قلعة مارون وأدخلهما السجن كما قال عز شأنه ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[1] .

وفي نهار السبت ١٣ محرم من هذه السنة نهبت صور ، وفي ٢٣ ذي القعدة نزل الشيخ عباس إلى صور واسترجع الأمور وفيها في يوم الجمعة ١٩ ذي الحجة كبست قرية صلحا من الصفدية[2] .

ولنذكر طرفاً من الشعر الذي تضمن التحدث عن واقعة تربيخا والدولاب فمن قصيدة قالها الشيخ إبراهيم يحيى المخزومي العاملي الطيبي في مدح أبي حمد الشيخ محمود النصار :

وغانية مثل الهلال تركتها   وأدمعها تنهل فوق الترائب

---

(١) الركيني واللفظ له ، وهذا الحديث يدلنا على مكانة الشيخ قبلان السامية في ذلك العهد وأنه أجل من الشيخ عباس قدراً وأعظم خطراً .

(١) الركيني أيضا .

تقـول إلى من تقطع البـر صـاديـاً فقلت إلى محمـود بحـر المـواهب
أبي حمـد حامي البـلاد ومن جرى نـدى كفـه في شـرقهـا والمغـارب
أنـامله في الحـرب خمس صـواعق وفي السلم لا تنفك خمس سحائب
لعمـرك مـا أنسـاه يـوم تـألَّبت عليـه الأعـادي من فتيٍّ وشـائب
وثـار لهم من آل نصـار عصبـة على كل معروق الجناحَين شازب
يكـاد ظلام النقـع فوق رؤوسهم يـواريهمُ لـولا ضيـاء المنـاقب

إلى أن قال في وصف الأعداء :

فـاقلقهم وقـع الحسـام وأدبـروا يروغون من أُسد الشرى كالثعالب
كـأني بهم عند المضيق وقـد هـوى هنالك راس القوم من غير ضارب
جـواد تـردى عن جـواد مـطهمٍ ومـا زال ظهر الغي شـر المراكب
فلست ترى إلا سلاحاً على الثرى وخيـلاً بها فقـر إلى كـل راكب
وأعجب شيء أن خمسـين فـارسـاً تمـزق ألفَي فارسٍ بـالقواضب[1]

ومن قصيدة يمدح بها الشيخ عـلي الفارس ويهنئـه بعيد الفـطر سنة ١١٨٠ هـ[2] .

ومـا أنس لا أنسى الغداة وقـد سـرى فـريـداً ينـادي من يجيب المنـاديـا
فثـار إليـه الجيش من كـل جـانب فلست تـرى إلا سيـوفـاً عـواريـا
فـحكـم فيـهم سـمهـريًّـا تخـالـه شهـاباً عـلى جمـع الشيـاطين هـاويا
فـلست تـرى إلا قـتيـلاً وهـاربـاً ومنجـدلاً يشكـو الجـراح وعـانيـا
وأقلقهم وقـع الحسـام فـأسـلمـوا عتـاق المـذاكي والـرمـاح العـواليا
فـأرسـل كـل نفسـه في تـنـوفـة يجـوب الـفيـافي واديـاً ثـم واديـا
رأوا من سيوف الهند بحـراً وأصبحوا يـدورون في الدولاب شعثاً ظـواميا

وقال الشيخ إبراهيم العامـلي الحاريصي في هـائيته المعـروفة التي مـدح بها الشيخ ناصيف النصار :

---

(١) أعيان الشيعة ج ٥ ص ٦١٤ .
(٢) أعيان الشيعة ج ٥ ص ٦١٨ .

وافى بهـا في يـوم تـربيخـا وقـد جـاست خيـول الـدارعـين خـلالهـا
طـافـوا عليهـا بـالصـوارم والقنـا فـكـأنهم قـطع الغـمـام حيـالهـا
فسـطا ونـادى لا فـرارَ فـأدبـرت تلك الجمـوع ونـالهـا مـا نـالهـا
عـافت هنـالـك خيلهـا وسـلاحهـا والـرعب من تلك السـروج أمـالهـا

وله من قصيدة يمدح بها الشيخ علي الفارسي الصعبي :

كـم تـلقـى لـليـالي حـادثـاً أنسيتم يـوم مـن تبـنـين غـار
فـوق طـرف ذي نـشـاط أمـه من بنـات الريـح مـأمـون العثار
وبيـمنـاه صـقـيـل مـرهـف غيـرةً منـه عـلى تلك الـديـار
أبـصـر الـدولاب منـه وقـفـة يـومـه في جنـح ليـل من غبـار
والمـذاكي بـالـرواسي أقبلت شـزبـاً تعـدو ولـلأقـوام ثـار
والقضـا ألقى منـاجيـق الـردى للفـريقـين ومـا نادى حـذار[1]

وله من قصيدة أخرى في مدحه أيضاً :

لـه يـوم تـربيخـا عـلى الخصم غـارة تـكـاد بهـا شـم الجـبـال تـفـطر
أحـاط بهـا الأقـوام من كـل جـانب وللحقـد أبـدوا و الضغـائن أظهـروا
وداروا بهـا شـرقـاً وغـربـاً وأقبلوا بعسكـر بغي لا يبـاريـه عسكـر[2]

وهناك قصائد أخرى لكل من الشاعـرين الآنفين نـظن أنها في وصف هذه الواقعة لم نورد شيئاً منها طلباً للاختصار .

وقد كانت وفاة الشيخ إبراهيم الحاريصي في ١٦ شعبان يوم السبت سنة ١١٨٥ هـ على ما ذكره الركيني وكانت وفـاة الشيخ إبـراهيم يحيى سنة ١٢١٤ هـ . بدمشق على ما ذكره في أعيان الشيعة .

---

(١) أعيان الشيعة ج ٥ ص ١٣١ وقد ذكرنا شطراً منها في وصف قلعة الشقيف في هذا الجزء ص ٨٢ وقد نشرت في العرفان م ٩ ص ٢٢٦ .
(٢) أعيان الشيعة ج ٥ ص ١٣٤ والعرفان م٩ ص ٢٢٨.

المعاهدة بين ناصيف وظاهر

في ٨ رجب سنة ١١٨١ هـ

كانت واقعة الدولاب حجراً أساسيا في المعاهدة الودية التي تم توقيعها في عكا في رجب سنة ١١٨١ هـ وحاول ناصيف بعد إنهاء هذه المعاهدة إبرام معاهدة ثانية بينه وبين الأمراء الشهابيين لئلا يتهم بالانحياز إلى جانب الشيخ ظاهر العمر ، فجاء ناصيف من عكا وذهب إلى بلاد الدروز .

والتاريخ لم يحمل لنا نص المعاهدة ، ولا حدثنا عن المواد التي تضمنتها ، وقبل هذه المعاهدة بأربعة أشهر وفد الشيخ ظاهر العمر والشيخ علي جنبلاط إلى صور ، ونظن أنهما كانا في ضيافة الشيخ عباس المحمد النصار ، لأنه كان قد سكن صور في تلك السنة ؛ وحاولا وضع معاهدة ولم يتم لهم ذلك .

وهل أراد إبرامها مع الشيخ عباس منفرداً أو بعد مراجعة الشيخ ناصيف ؟ ذلك أمر لا نعرف عنه شيئاً .

وقد كانت تتكرر الاجتماعات السياسية من زعماء الاقطاع الثلاثة عاملة وفلسطين ولبنان في هذه السنوات وما ذلك إلا لأنهم كانوا يشعرون بخطر محدق ، وكان كل واحد منهم يخشى سطوة الآخر لأن القوى متعادلة والطموح مشترك .

وقد كان موقف حكام عاملة من أعظم المواقف الخطرة ، لتوسط بلادهم بين حكومتين إقطاعيتين قويتين ، وثبات العامليين يدلنا على تفوقهم على جيرانهم قوة ونجدة .

وقد جرت حوادث بسيطة في هذه السنة وما بعدها كما حدثنا الركيني فلنذكرها متصرفين في عبارته تصرفاً بسيطاً قال « في سنة ١١٨١ هـ نزح الشيخ عباس المحمد إلى صور يسكنها وفي ٦ ربيع الأول صارت واقعة بين الكاخيا وخيل الشيخ عباس وقتل من الفريقين نحو عشرة رجال منهم الحاج محمد عجمي وعلي حسين وعلي نصار ، وفيها عمرت مرج رميش وفي ١٧ ربيع الأول

وصل الشيخ علي جنبلاط والشيخ ظاهر العمر إلى مدينة صور إلى الجمعية وما تمت وفي الشهر المذكور سكن الشيخ حيدر الحرفوشي عيناثا لأن يده رفعت عن حكم بعلبك وحكمها أخوه محمد ؛ وفي هذه السنة توفي الشيخ جابر العلي في قلعة ميس وفي خامس جماد الثانية كبس الصفدية تربيخا وأخذوا منها معزا وقتل منها واحد وامرأة ومن الصفدية واحد وفي اليوم نفسه كبست الدولة القصيبة والصرفند وفي ثامن رجب سار الشيخ ناصيف إلى عكا إلى عند الشيخ ظاهر العمر ووقع الصلح بينهم ثم سافر إلى عند الدروز ؛ وتوفي الشيخ ابراهيم جابر يوم ٢٣ رمضان » . انتهى .

إن مجيء الشيخ ظاهر إلى صور لوضع المعاهدة وإتمامها بعد ذلك في عكا يدلنا على أن الشيخ ظاهر هو الذي خطب ود العامليين وأنهم أجابوه أخيرا لذلك ، خلافاً لما زعمه جورج يني في مقالاته التي نشرت في المقتطف .

« وفي سنة ١١٨٢ هـ في ١٧ ج أول صار عرس أولاد الشيخ حيدر الفارس في قلعة الشقيف وفي شهر رجب كان عرس أولاد الشيخ واكد والشيخ عباس وأولاد حمد وحسين وفي هذه السنة تزوج الشيخ عمر والحمد وحمزة المحمد والشيخ إبراهيم الحسن .

« وفي سنة ١١٨٣ هـ رحل الشيخ حمزة من صور إلى حاريص وفي يوم الثلاثاء ٢٢ صفر ركبت خيل ناصيف إلى أرض قلعة مارون وسلبوا ظاهر فاعور وقتلوا ظاهر ماجد في قرية قلويه والسبب في ذلك مرعي السالم البدوي العراقي ، وفيها تزوج الشيخ عقيل ولد الشيخ ناصيف وقاسم المراد. وفيها يوم الاثنين ١٢ شعبان صار بين حمزة بن علي منصور وبين الدروز نزاع فأصيب بطلقة وسلم وقتل من الدروز اثنين ؛ وفي شوال ركب ظاهر العمر وولده علي الظاهر وركب ناصيف وعباس وقبلان إلى مرج الحبش وتفرقوا ، وفي ٩ ذي القعدة غزا المشائخ المذكورون مع الشيخ ظاهر علي النوابلسي وقتل من النوابلسي فوق المائة وقتل ابن عثمان الظاهر والشيخ جهجاه » .

« وفي سنة ١١٨٤ هـ في ١٢ محرم اشترك زعماء بلاد بشارة مع الشيخ

ظاهر العمر في محاصرة ولده علي الظاهر في مدينة صفد وفي ربيع الثاني جاء الشيخ حمزة إلى مارون وحاصر « تحصن » في القلعة وفيها كان عرس الشيخ قبلان بالحمادية ، وفي رجب نهب الشيخ ظاهر العمر وولده علي الظاهر جبخانة عثمان باشا واجتمع المشائخ من أجل ذلك ومن أجل غزو جبل نابلس لأن عثمان باشا حاصر البرقاوي ولم يقدر عليه. وفي يوم الاثنين ١٢ شوال تأهب مشائخ بلاد بشارة (؟) والشيخ ناصيف والشيخ عباس والشيخ علي الفارس والشيخ ظاهر العمر مع السناجق إلى المزيرب علي باشا الحاج وكان اسمه عثمان باشا الصادق ورجعوا ولم يقع بينهم شيء .

محاولة الاستقلال

كان عثمان باشا الصادق يكره ظاهر العمر وحاول غزوه ، وأحس ظاهر بذلك فاستنجد كل من ظاهر العمر وعثمان باشا الصادق بعلي بك حاكم مصر وكان علي بك قد عزم على الخروج عن طاعة العثمانيين مغتنماً فرصة انشغالهم بحرب المسكوب ، فاغتنم الفرصة وأرسل ستة سناجق من الغز مع عشرة آلاف مقاتل إلى سوريا بقيادة إسماعيل بك وأمرهم بالانقياد لظاهر العمر ، فاستقبلهم الشيخ ظاهر وقدم لهم النفقات ثم اجتمع هو وحلفاؤه من زعماء عاملة الشيخ ناصيف والشيخ عباس والشيخ علي الفارس وغيرهم والسناجق الستة وقرروا الاصطدام بقوات عثمان باشا وذهبوا إلى المزيريب وكان ذلك نهار الاثنين ١٢ شوال من سنة ١١٨٤هـ[1]. وعندما فهم عثمان باشا بذلك انسحب من أطراف القدس إلى دمشق وتجهز للحج فحاول ظاهر غزوه والحال هذه ، وأبى عليه المصريون بحجة أنهم لا يقاتلون زوار بيت الله الحرام وقيل إنهم كانوا قد كرهوا نصرة ظاهر العمر لما شاهدوه من تجبر أولاده وتكبرهم فرجعوا عنه من غير حرب ولا قتال ، وأقام السناجق في نواحي يافا فشكاهم ظاهر إلى علي بك فجهز جيشاً

(١) توقيت الحادث بالوقت الآنف والتصريح بأسماء الزعماء العاملين الثلاثة والإشارة لغيرهم أخذناه من الركيني . وأما أسباب الحادث فقد اعتمدنا فيها تاريخ الشهابي كما اعتمدناه في كثير من تفاصيلها وقد لخصنا هذا وما بعده من ثمانية صحائف تبتدىء بصحيفة ٨٠٠ وتنتهي بصحيفة ٨٠٨ .

وأرسله بقيادة محمد بك أبي الذهب. ولما وصل إلى أراضي غزة التقى باسماعيل بك والسناجق الستة وحضر اليه أولاد الشيخ ظاهر وزعماء عاملة، والذين حضروا اليه منهم هم الشيخ ناصيف والشيخ حمزة والشيخ علي الفارس فانهم استقبلوه في ١٨ صفر سنة ١١٨٥ هـ إلى جسر بنات يعقوب وساروا معه[1] فزحف بنحو من ستين الفاً من المصريين والعامليين والفلسطينيين نحو دمشق وكان عثمان باشا قد رجع من الحج فخرج لقتالهم وما لبثت عساكره الا قليلاً حتى انهزمت فخيم أبو الذهب حول المدينة قاصداً حصارها وارسل اليهم كتاباً من علي بك يشتمل على تنفيرهم من عثمان باشا وترغيبهم بعدل علي بك وتخويفهم عاقبة الخذلان؛ فلما وصل اليهم الكتاب خرج اليه العلماء والعوام بأجمعهم وطلبوا الأمان فأمنهم ثم دخلها وفتح القلعة وانتهى كل شيء؛ وتوسط الشيخ ظاهر مع أبي الذهب بشأن الأمير منصور الشهابي فكتب اليه أماناً وولاه على بلاد جبيل وأما عثمان باشا فانه فر من دمشق وتوجه إلى حمص وأرسل نائبه يوسف آغا بن جبري إلى الأمير يوسف الشهابي ابن أخت الأمير منصور الآنف يستنجده على أبي الذهب وطفق عثمان باشا يجمع العساكر حتى اجتمع لديه خلق كثير. وأما أبو الذهب فإن إسماعيل بك الذي حضر مع السناجق جعل يثني عزيمته ويوهن همته ويخوفه عواقب الأمور ويحذره صولة السلطان وسوء مخالفته إذا فرغ من حرب المسكوب واقنعه بأنه في خروجه على السلطان أصبح حربياً في دار الاسلام يحل دمه وما له ويوضح له بغي أسرة الشيخ ظاهر وتمردهم حتى أقنعه بهذا وأشباهه. فنهض بجيشه ليلاً متوجها إلى مصر وشاع خبر رحيله فتعجب الناس من ذلك كل العجب لجهلهم بالسبب ورجع كل من أولاد الشيخ ظاهر وزعماء عاملة إلى بلاده، ولما فهم عثمان باشا برحيله عاد إلى دمشق ووافاه الأمير يوسف الشهابي فأكرمه عثمان باشا غاية الإكرام لأنه كان متأهباً لنصرته فعظم شأن الأمير يوسف في بلاده حتى اضطر عمه الأمير منصور إلى التنزل عن الحكم وتسليم الأمور اليه لأنه استمال وجوه الناس عنه. وأما أبو الذهب فإنه لما وصل إلى مصر تعجب علي بك من أمره واستوضحه الحال فشكا اليه تصلف الشيخ

(١) اعتمدنا على الركيني في توقيت هذا الحادث وهو يخالف الشهابي لأنه ذكره في حوادث سنة ١١٨٤ هـ.

ظاهر وخيانته وجرأة عشيرته وأنهم عتاة مردة لا يفهمون للوفاء معنى ، وانهم كانوا يغتالون وحدات جيوشه المتفرقة وأسهب في ذلك وعندها كتب علي بك إلى الشيخ ظاهر كتاباً يلومه فيه فأجابه الشيخ ظاهر مكذباً ذلك كله، وجعل ولده عثمان رهينة عنده فيما إذا ظهر أن الأمر على خلاف ما يقوله؛ وأظهر استياءه الشديد من أبي الذهب لأنه تملك الشام ثم تركها بدون سبب وعند ذلك انتفت الشبهة من نفس علي بك وتحقق خيانة أبي الذهب . ثم إن أبا الذهب جعل يستميل الناس بالمال فاجتمع عليه شطر منهم وأظهر أمره وخرج إلى صعيد مصر وأقام فيه[1] .

واقعة البحرة أو واقعة الحولة

وأما عثمان باشا الصادق فانه بعدما رجع إلى الشام أخذ يعد العدة للانتقام من زعماء عاملة ومن الشيخ ظاهر العمر ، فزحف بجيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل وبجملة من القبائل العربية وكان مع الباشا باشة حلب وباشة مرعش ، وعسكر على جسر بنات يعقوب في الأردن فالتقاه الشيخ ناصيف والشيخ حمزة والشيخ حمد العباس والشيخ علي الفارس بثلاثمائة من الفرسان لا غير والتقاه الشيخ ظاهر العمر وأولاده ووقعت الواقعة في رابع جماد أول سنة ١١٨٥ هـ[2] واجتاز ناصيف بمقام نبي الله يوشع (ع) فترجل عن جواده وزار المقام وكنس الحضرة الشريفة بعمته بيده وكان الزعماء في ذلك العهد يلبسون العمائم وعمائمهم شالات الترم الإيراني وقال إن رجعنا منصورين لا بد من تجديد عمار هذا المقام الشريف[3] ولما التقى الفريقان وحمي الوطيس انهار عسكر

(١) الشهابي ص ٨٠٨ وذكر الركيني أن عثمان خرج إلى مصر بحراً مستاء من أبيه وإذا صح هذا يكون ظاهر أرسل ولده بهذا الأسلوب لأمر سياسي وراء المفاوضة مع علي بك .

(٢) اعتمدنا في هذا التوقيت على الركيني دون الشهابي ومروة فانهما وقتاه بغير ما مر .

(٣) الخال في المقدمة ولعل هذا إضافة منه فانها لا توجد في نسخ رسالة مروة ويدل على هذا تمام كلام الخال (ره) وهو قوله فرجع وجدد بناءه وصغر الآبار كما هي اليوم ووضع فيه الثريات ولا يبعد أن تجديد بناء جامع قرية بليدا في تلك السنة . انتهى وفي سنة ١٤٠٦ هـ كنت متشرفاً بحج بيت الله الحرام ، فحدثني الحاج محمد بن عبد المجيد الهادي من قرية طرفلسي ليلة ذي الحجة سنة ١٤٠٥ هـ أنه يحفظ ما كتب على قبر يوشع بمناسبة بناء ناصيف له ، وهو هذا ذا مشهد قد بناه ـ في مسكن الروع اروع ـ فلا عدمنا علاه ـ ما خامر القول مسمع ـ فقل وأرخه أمس شفيع ناصيف يوشع .

عثمان باشا انهياراً غريباً وانهزم هزيمة شنيعة ، وما زال القوم في أثر المنهزمين حتى رموا أنفسهم في البحرة مع ما يصحبونه من أمتعة وحيوانات فمات أكثرهم غرقاً لأن الرعب استولى على الجيش فترك الأسلحة والأمتعة وكل شيء وركب البحرة وأما العرب فانهم فروا هاربين[1]. وقيل إن ناصيفاً وظاهراً هاجما قوات عثمان باشا في ظلام الليل فانذعرت العساكر وقتل منها خلق كثير وألقى الأكثرون أنفسهم في بحرة الحولة طلباً للنجاة فكان نصيبهم الغرق وهرب عثمان باشا بنفر قليل[2] وقتل في هذه المعركة ثمانية آلاف من عسكر الباشا[3] ولم يقتل من رجال العامليين الا رجل واحد اسمه الشيخ جبر من الحمادية وتعرف هذه الواقعة بواقعة البحرة. وقد غنم الأميران المتحالفان ناصيف وظاهر في ذلك اليوم شيئاً كثيراً من المدافع والسيوف وبقية أنواع السلاح ومن الخيل والجمال والبغال والفرا والأموال والأمتعة والأطعمة وأما البارود فانه احترق وناطحت شظايا اللهب السماء وذهبت معنوية الحكومة من نفوس الرعايا بعد هذه الحادثة. وكان والي صيداء في تلك الأيام درويش باشا ابن عثمان باشا الصادق فلما علم بهزيمة أبيه فر من صيداء إلى دمشق وأقام بها أياماً ثم عادا إلى صيدا وبعد وصوله تهدده زعماء عاملة فاستعان بالأمير يوسف الشهابي فأمده بمن يحرسه وجعل له درويش لقاء ذلك خراج بيروت والجبل عن تلك السنة وأخيراً شدد الزعماء عليه فأخلاها ورجع إلى دمشق وبعد وصول درويش باشا إلى الشام أرسل والده عثمان باشا إلى الأمير يوسف الشهابي يحمسه على غزو العامليين . وأما الشيخ ظاهر العمر فإنه بعد انتهائه من حرب عثمان باشا أرسل رسالة إلى علي بك في مصر يعلمه الحال ومذ وصلته تأكدت لديه خيانة أبي الذهب فجمع علي بك كثيراً من

---

(١) الركيني.

(٢) الشهابي ص ٨٠٨.

٣ ـ مرة في رسالته قال ما لفظه وسنة ١١٨٤ هـ ركب عثمان باشا على بلاد بشارة وعسكر على جسر بنات يعقوب في الأردن فلاقاه ظاهر العمر مع ناصيف فكسروه وقتل من أصحابه ثمانية آلاف غرقاً في بحيرة الحولة وتسمى وقعة البحرة وكسبوا من العسكر شيء كثير وفي تاريخها قيل سم هم غم . انتهى . وفي نسخة الفقيه ثمانين الف وفي نسخة الخال وكانت سنة قيل في تاريخها سم هم غم : واذا حسبنا هذا التاريخ كان ١١٨٥ وهو يصلح تاريخاً لهذا الحادث على ما ذهب اليه الركوني .

العساكر وأقام عليها اسماعيل بك وهو لا يعلم أنه شريك أبي الذهب في الخيانة وأمره في الخروج إلى قتال أبي الذهب في الصعيد ، فسر اسماعيل بك بذلك ، ولما انتهى إلى الصعيد كتب إلى صديقه أبي الذهب وتفاهم معه وعادا إلى مصر جميعاً ومعهما الجيوش العظيمة فظن علي بك أن أبا الذهب دخل في طاعته وأظهر الارتياح لذلك ، وخرج هو من مصر قاصدا عكا ومعه الشيخ عثمان الظاهر فتلقاه الشيخ ظاهر العمر بكل إكرام ودخل به إلى المدينة ، وجلس أبو الذهب على عرش مصر ونادوا باسمه وأظهروا له الطاعة ، ولما اجتمع علي بك والشيخ ظاهر أرسلا كتباً إلى ملكة المسكوب يسألانها الاسعاف على الدولة العثمانية بالمراكب الحربية ليسلماها لقاء ذلك الموانيء البحرية وأقام علي بك ينتظر الجواب وكانت نيته امتلاك البلاد العربية من عريش مصر إلى بغداد(١) .

واقعة كفر رمان
أو واقعة النبطية الثانية

الاثنين ١٢ رجب سنة ١١٨٥ هـ(٢) .

ينبغي أن تعد واقعة كفر رمان من الأيام المشهودة التي يتحدث عنها التاريخ العربي فانه مهما حدَّث عن شيء لا يحدثنا أن خمسمائة بطل عربي يكتسحون عشرين ألفاً من إخوانهم على أقل الروايات وتسعين ألفاً على أكثرها. غير أن يوم كفر رمان قد انطوى على مثل ذلك وفي هذه الحادثة روايتان نستحسن إثباتهما .

خلاصة رواية الشهابي(٣)

لما انتصر زعماء عاملة « المتاولة »(٤) على عثمان باشا في حرب البحرة

---

(١) الشهابي ص ٨٠٩ غير أن كلامه هنا يقضي بانهما وعداها بمصر وفيها مضى بان علي بك وعدها بالموانىء البحرية .

(٢) الركيني : واما الشهابي فانه زعم أنها كانت في شهر ربيع الأول سنة ١١٨٥ هـ الموافق تشرين الأول سنة ١٧٧١ م .

(٣) في تاريخه ص ٨٠٩ و٨١٠ .

(٤) اسم للشيعة في جبل عامل وبعلبك خاصة لاحظ الجزء الاول ص ٢٤ من هذا الكتاب .

تتطاولوا على أطراف جبل الشوف ومرجعيون والحولة فاتفق الأمير يوسف وخاله الأمير إسماعيل حاكم وادي التيم على غزوهم فجمع الأمير يوسف جيشاً يناهز العشرين ألفاً وسار به. وعند وصوله إلى جسر صيدا أرسل عقال الدروز بقيادة الشيخ علي جنبلاط للمحافظة على صيداء وسار بالعسكر إلى جباع الحلاوة وأحرق قرى إقليم التفاح أثناء مسيره وكان الشيخ حيدر الفارس يومئذ في جباع ففر من وجهه ولما انتهى العسكر إلى جباع أحرقها وقطع أشجارها وهدم بيوتها وبات هناك ليلتين ثم توجه إلى النبطية فنزل على ينبوع المأذنة وبات هناك وفي تلك الليلة وافاه كتاب من خاله الأمير اسماعيل يطلب منه التريث في الحملة لأنه وافاه كتاب من مشايخ المتاولة عن يد الشيخ ظاهر العمر يسألونه العفو عنهم على أن يقدموا له كل ما يريد ، فأبت عليه مشائخ بلاده ؛ وزحف بعسكره نحو النبطية وكان عسكر المتاولة مجتمعاً فيها وكان عندهم الشيخ علي الظاهر ، وأحرق الأمير في طريقه قرية كفر رمان فالتقته شرذمة من المتاولة في نحو خمسمئة فارس ووقع بينهم القتال فانكسر عسكر الأمير يوسف كسرة هائلة لم يكن مثلها في عسكر آخر على عهد هذه البلاد حتى أن كثيراً من العسكر مات تعباً وعطشاً ومنهم من اختلت عقولهم فلم ينتبهوا لأنفسهم ومنهم من ألقوا ثيابهم وأسلحتهم غنيمة للعدو يشتغل بها عنهم ، وقيل إن رجلاً علقت ثيابه بشجرة هناك فوقف إلى أن وصلوا اليه وقتلوه . ومات في تلك الموقعة من عسكر الأمير يوسف أكثر من ألف وخمسمئة قتيل ولو وصل اليهم باقي عسكر المتاولة لما سلم منهم أحد واتفق في ذلك الوقت وصول الشيخ كليب نكد ومعه رجال المناصف فناوشهم القتال في وعرة هناك وأشغلهم عن العسكر المنهزم ؛ ثم وصل الأمير اسماعيل فأبعد المتاولة عن الشيخ كليب وارتفع القتال ، ولولا ذلك لم ترجع المتاولة عنهم حتى أفنتهم لأنهم كانوا كالغنم بين أيدي الذئاب ولما رجع الأمير يوسف ومن سلم من عسكره إلى البلاد ضجت الأرض بالبكاء وتسربلت النساء بالسواد حتى كنت ترى نساء البلاد كالغربان. واما الشيخ علي جنبلاط وعسكره فإنه انسحب من صيداء عندما بلغته هزيمة الأمير يوسف وقيل إنه كان بين الشيخ علي جنبلاط والأمير منصور والشيخ عبد السلام العماد وبين المتاولة مؤامرة ضد الأمير يوسف ، حتى قيل إن الشيخ عبد السلام تواعد معهم أن ينكسر لهم أمام

العسكر وهكذا كان ، وغنموا في ذلك اليوم من أسلاب العسكر وخيله وسلاحه ما لا يحصى ورجعوا سالمين غانمين .

خلاصة رواية العامليين[1]

في سنة ١١٨٥ هـ . مر في كروم « نيحا » مكاريان عامليان من قرية كفر رمان يحملان عنباً وطلع عليهما بعض دروز القرية وسلبوهما ما معهما من المال وأتلفوا العنب وضربوهما ضرباً مبرحاً حتى تركوهما وقيذين وبعد مدة انسحبا على بغليهما راجعين إلى كفر رمان ولم يلبثا أن ماتا متأثرين من الضرب فشكا أهلهما الأمر إلى حاكم المقاطعة الشيخ علي الفارس المقيم يومئذ في قلعة الشقيف ومركز المقاطعة النبطية وسموا له المعتدين لأن المكاريين سمياهم لأهلهما فكتب الشيخ علي الفارس إلى الأمير يوسف يسأله أن يرسل الجناة اليه ليحاكمهم ، فماطل الأمير يوسف وسوَّف في الجواب. ولما يئس الشيخ من عدل الأمير ومن إجابة طلبه انصرف عن الاستعانة به وبعد ذلك بمدة قليلة وجد أربعة رجال قتلى من دروز نيحا في المكان الذي سلب فيه المكاريان وضربا فرفع أبناء نيحا أمرهم إلى الأمير يوسف واتهموا المتاولة بقتلهم فاستكبر الأمير يوسف ذلك وثارت فيه نخوة الشباب واستشار شيوخ بلاده في غزو المتاولة وتأديبهم فأشاروا عليه بذلك، وأعلن الحرب على جبل عامل وسار اليه في جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً على أقل تقدير وتسعين ألفاً على أكثر تقدير جمع من كل حدب وصوب بعد أن نشر الدعوة للحرب في كل البلاد واتخذ الشيخ علي الفارس للأمر عدته فوضع حامية في قلعة الشقيف من أبناء عمه تحمي الحريم والنساء واستنجد بالشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل وبالشيخ ظاهر العمر حاكم عكة وحليف المتاولة. ولما بلغه زحف الأمير بعسكره اليه جمع ما حوله من العسكر فكان ألفاً وخمسة مقاتل الألف رجالة والخمسمئة كانوا فرساناً . وكتب إلى الشيخ ناصيف بزحف الأمير يوسف اليه وكان الأمير في ذلك الوقت يصعد من صيداء

(١) بقلم الأستاذ الشيخ أحمد رضا العاملي النباطي نشرت في مجلة الكلية في بيروت في تموز سنة ١٩٣٠ ونقلتها مجلة العرفان في م ٢٠ ص ٣٢١ ونقلناها نحن حرفياً .

إلى جباع يحرق ما أمامه من القرى ويدمرها تدميراً حتى بلغ جباع فأعمل فيها الهدم والحرق وقطع أشجارها ، وهبط إلى النبطية فأقام ليلته في الطريق على ينبوع الميذنة على مسيرة ساعة من النبطية فاجتمع الحاضرون من مشايخ المتاولة بالنبطية في محل يسمى عريض القهوة شرقي البلدة وانما سمي عريض القهوة من ذلك الحين لاجتماعهم فيه وشربهم القهوة، فقرروا استعجال الشيخ ناصيف والشيخ ظاهر العمر وأرسلوا كشافة تكشف لهم خبر الجيش المهاجم فرجع بعضهم وأخبر بقوته فأمر به الشيخ والمجتمعون فحبس وجاء آخر بتهوين أمرهم وقال له فيما قال : إنهم من أهل لغات متعددة ، لا يفهم أحدهم ما يقوله الآخر ، ومعهم جمع عزل من السلاح ، وإنما جاؤا لتكثير العدد طامعين في السلب والنهب . فخلع عليه الشيخ علي الفارس واكرمه وما ذاك الا ليشد عزيمة عسكره ويستبقي شعلة الحماسة في نفوسهم فقرر المؤتمرون أن لا يبدأوا القوم بالحرب وخشوا بادرة الحماسة في عسكرهم فحجزوا ألفاً من العسكر في خان السوق بالنبطية وأوصدوا دونهم الباب وكانوا بقيادة الشيخ حيدر الفارس أخ الشيخ علي الفارس وفي الصباح تقدم الأمير يوسف بفرقة من عسكره إلى النبطية فاجتاز كفر رمان بعد أن اتخذها مركزا لعسكره وأتى النبطية من الشمال واحتل الضاحية الغربية منها ونصب خيمته وكان في اعلاها كرة ذهبية كبيرة يتدفق منها الشعاع بعد اشراق الشمس عليها وأصبح أهل النبطية والعسكر المدافع فيها ينظرون إلى خيمة الأمير صباحاً في ضاحيتهم وكان الشيخ علي الفارس أعد فوارسه الخمسمئة فتقدم نحو خيمة الأمير بتعبئة حربية أحاطت بجيش الأمير المحتل من ثلاث جهات وتركت جهة واحدة مفتوحة ، ليتمكن الأمير واتباعه من الهرب وأوصاهم بان لا يقطعوا هذا الخط عليه ودلفت الجند بفرسانها ، ولكن الأمير الذي كان هازئاً بالمتاولة وعسكرهم مستخفاً بهم رأى ما لم يكن يدور في خلده فارتاع وعمد إلى بغلته فركبها[1] بعد أن فر أكثر من كان حوله من عسكره الذين لشجاعة المتاولة في نفوسهم هيبة كبرى وصورة هائلة وأمر الشيخ علي الفارس جيشه أن لا يقطعوا الطريق على الأمير يوسف حتى يلحق بعسكره

---

(١) وفي قصيدة شناعة العامية أنه طلب منهم الحصان فذهلوا وأتوه بالبغل .

المرابط في كفـررمان، وكان ذلك من التدبير الحربي لأنهم قبـل وصول النجـدة إلى المتاولة لا يقـدرون على الـوقوف في وجـه الجيش المهاجم لقلتهم وكثرته، وتعقب الشيخ علي بفـوارسه فـرقة الأمـير يوسف ونـاوشها في القتـال في المحل المعـروف بالجزائر بين النبطية وكفر رمان ولما سمع المحجوز عليهم في الخان صـوت البارود نقبوا الحائط وخرجوا منه[1] وعلت الضجة واشتدت النخوة وكانت نجدة الشيخ ناصيف النصار ومعه زهاء ثلاثة آلاف مقاتل وكانوا في مشـارف شوكين، وبذلـك تكون قوته قد قاربت النبطية فسمعت الضجة فاطلقت العنان لخيلها والتفت على الدروز من ناحية زبدين حتى اشتركت في هجوم الألف الذين هم بقيادة الشيـخ حيـدر الفارس من جهـة الجهة الجنـوبيـة لجيش الأمير، ودارت رحى الحـرب في المحل المعروف بوادي أبو نعيم وبعد أن كان عسكر المتاولة مدافعاً أصبح مهـاجماً وعسكـر الأمير مـدافعاً وتحـاجز العسكـران عند المساء، وفي الليـل قسم المتـاولـة عسكرهم عشر فـرق فرقـوها عـلى رؤوس التلال تـوقد النيـران الكثيرة وأحيـوا ليلتهم يتـزاورون وينشدون الأنـاشيد الحـربيـة حتى خيـل للعسكر الـدرزي أن الأرض حولهم استحالت عسكراً. وبات عسكـر الأمير يعـد المتاريس للدفـاع عن مركزه لقاء هذه القوة التي ظهرت له كبيرة وطلع عليهم الصباح وقد أمـد الشيخ ظاهر العمر عسكر العامليين بألف مقاتل بقيادة ولـده الشيخ عـلي الظاهـر وامتد القتال طول اليوم الثاني وظهر الضعف في عسكر الدروز، وتحاجز الفريقان، ولم يطلع صباح اليوم الثالث حتى كانت الهزيمة فاشية في جيش الأمير يوسف وأعمل العامليون سيوفهم فيهم حتى صعدوا عقبة العرقوب وانتشروا في هاتيك السفوح وكان الرجل منهم يعلق ثوبه بأغصـان الحراج فيقـول من الدهشـة يا شيـخ جب ارخيني خذ القبق والسكيني. وصعد الأمير يوسف منهزماً في طريق جرجوع فلحقه أحـد الرجلين عـلى اختلاف الـرواية إمـا الشيخ نـاصيف النصار أو الشيـخ علي الفارس فلحقه في عقبة جرجوع وأنزله من بغلته وألبسـه فروه مقلوبـاً وقال لـه : لولا شبابك ومكانة اقاربـك لقتلتك ولكنني عفـوت عنك لـذلك قـالوا فقـال له

---

(١) لا يزال أثر النقب في الحائط الذي أصبح داخلا في دار فضل بك الفضل نائب الجنـوب ـ المعين ـ في الجمهورية اللبنانية وهو حفيد الشيخ حيدر الفارس .

الأمير يوسف «قدها أولاد أم علي وأكثر» وأولاد أم علي كلمة يستعملها للشيعة في ذلك الوقت ليفجروا النخوة في رؤوس الشباب .

وبلغت عدة القتلى من عسكر الأمير يوسف ثلاثة آلاف وهنا أورد قصيدة شناعة العامية وفيها وصف هذه الواقعة إلى هنا انتهى ما كتبه الأستاذ رضا بلفظه .

على هامش الحادث

ربما ينسى التاريخ ويحفظ الأدب .

لدينا قصيدة زجلية تاريخية تبلغ ٩٨ بيتاً نظمت بمناسبة واقعة كفر رمان دوَّنها الخال في المقدمة وهي قصيدة قصصية تمثل عصراً من العصور الخالية وترمز إلى لغة الشعب الدارجة في ذلك الوقت ، وإلى الروح الوثابة التي كانت تجول في أعصابهم الثائرة المتهيجة ، وهي في النهاية ملحمة تاريخية .

إن الحوادث العاملية باسرها غامضة ملء كلمة الغموض فإننا لا نعرف في جميع الحوادث أحداً من القتلى ولا من القاتلين ولا من الذين باشروا الحرب ولا كيفية القراع والنضال ولكن واقعة الدولاب وكفر رمان لم تكونا كذلك بفضل الأدب. فقد وصف لناشاعرا عاملة حملات الشيخ على الفارس والشيخ محمود النصار في الدولاب وأن خمسين فارساً طردوا ألفي فارس وأن ظاهر العمر زعيم الصفديين تنكس عن جواده عندما ازدحم المنهزمون إلى غير ذلك مما قرأته في شعر الحاريصي والطيبي ، ووصف لنا شناعة حادثة كفر رمان في قصيدته الزجلية بصورة جلية لذلك آثرنا إثباتها على أنها لا تتناسب مع لغة الكتاب ، فقد حدثنا شناعة عن عدد الأعداء وعن مللهم ونحلهم وبلادهم وعن الأماكن التي وقعت فيها القتلى وعن حصر الامير علي الفارس قواته في داخل الحصن وعن هزيمة الأمير يوسف وأنه طلب الجواد ولكن من عظم الدهشة أتوه بالبغل وإذا لم يصب الشاعر الواقع فانه أصاب أدب النكتة وحدثنا عن الدروز أنهم اتخذوا المتاريس عندما حمي الوطيس وأن أولي الحل والعقد بعثوا رسولاً إلى الأمير ناصيف يستحثه على الإسراع في إنهاء الحرب قبل أن يتم تحصين القوات الدرزية ويحدثنا أن النخوة تشعبت في أعصاب ناصيف وتجلت بكل مظاهرها

وأنه ألقى كلمة حماسية على مسامع جنده افتتحها بالاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم نادى بأعلى صوته : اين حماة الأعراض أين الاسخياء في اليوم العصيب فأجج نار الحمية في نفوس الأبطال فتناخى حماة الجيش من كل جانب ، وأن محموداً ندب أخاه ناصيفاً للحملة من الجهة الشمالية فلباه ولما هم بالحملة قبض الغلمان على أعنة جواده ومنعوه من الانطلاق فصاح بهم ناصيف صيحة أرهبت الأعداء واستلفتت أنظارهم وأخيراً تغلب الجواد عليهم وطار به كانه عاصفة وبيد ناصيف صفيحة بيضاء تمطر الأعداء حمماً يحصد بها الهامات وينثر الأكف والأيدي وإلى جانبه بطل العامليين أخوه محمود ينظم الكلا بالمثقفة السمروان الشباب ضربوا نطاقاً حول ناصيف وظللوه بالسيوف والرماح ، وفدوه بالأنفس والأرواح ، فكان ناصيف كلما اجتاز بجانب زعزعه وكلما توجه إلى مجمع اقتلعه فما هي الا حملتان وإذا بالجيش الدرزي يستغيث من حملاته وترتعد فرائصه من سطواته ، حتى اختلت عقولهم كما يحدثنا الشهابي ثم انهزم الجمع وولّوا الدبر. ويحدثنا أن الحملة الأولى كانت في طريقه إلى الجهة الشمالية وأنه كان يتقصد الفرسان المرابطين على رؤوس الروابي والآكام وأن الحملة الثانية كانت على معظم الجيش وبعد ذلك قامت الصيحات في جيش الدروز. وحدثنا شناعة أيضاً أن الأمير يوسف حاول أن يخدع العامليين فإنه طلب منهم الصلح ويظهر أن ذلك لم يؤثر شيئاً فانه سماه مكراً محمولاً في جراب ومما يلفت النظر أن اللغة العاملية في ذلك العصر تشبه اللغة العراقية الدارجة اليوم فان كثيراً من مفردات القصيدة لا يفهمها إلا من يتذوق لغة العراق وهذا يدلنا على أن الانفصال حصل في الزمن الأخير ؛ كما أن الشاعر قد كرر كل قافية مرتين مع اختلاف المعنى وإذا فاته ذلك فلم يفته لزوم مالا يلزم . (القصيدة) .

قال ولد مريح في بياتو شكل ... في زمان كل أحواله شكل
سائلوا من كان داري بالأمور ... تاتشوفوا أيش محصوله شكل
وقعة صارت على جيش الدروز ... رحت أنشد عاذلي عنها وسل
واشرح اللي صار فيها بالقريض ... واقترحها لاجل ما صار وحصل
عسكر جروه عاديرة جباع ... كالجراد وقايده ليث وفحل

ولـد ملحم راعي الحظ المنيـف
قـادهـا مـن حمص لا ديـرة حمـا
من ارض بيروت للشـوف العـرّيض
وانحـدر بجـمـوع مـا الهم عـدد
شي دروز وشي يهـود وشـي قـرود
مـا تـأخـر جيشـهـم الا وصـل
يـا رجـال الشـوف ملون الفجـاج
رايـديـن لا ديـرة بـشـارة جمـيـع
مـا يعرفـون الظاهـري الظاهـر زعيم
كيف نسيـوا صـولـة الـزيـر العنيـد
ويح ثم الـويـح من غـارة هـذول
كـل حـامي ديـرتـو صعب المـراس
دونها مـن كـل غـطـريـف عـلاج
يـا دروب الخيـل صفـوهـا جمـوع
خيـل مثـل السيـل وقـروم تـريـع
واعتقـد نـاصيف عـاكـل الجمـوع
كم وقـايـع قبـل هـذي يحـدهـا
مثـل مير الشـوف يوسف يـوم صـال
في عسـاكـر عـدهـا تسعـين الف
جاهلين الحرب مـا يـدرو الـزمـان
شـايلين المكـر معهـم في الجـراب
لا عـلي تـروح لا عـنـد الأمـير
واعقبـوا بجمـوع يبغـون المـراد
لا يحيط المـكـر الا بـالجـنـود
رايمـين حـصـارنـا وسط الجدار
من يغـالط عـزوة الـزيـر العنيـد
ثـارت النخـوات في روس الـرجـال

لا عـقـود أم العـلى بـيـده يحـل
لا قـرايـا الشـام صـواتـه وصـل
من بـلاد جبيـل كم فـارس وصـل
يـا جميـل السـتر من هـذي الملل
وشي انصـارى وشي اكرادوشي ملل
عـابـلاد جبـاع خلوهـا سـهـل
حـزبهم وعـلاج مـا ظني سـهـل
لا صفـد وبلادهـا سـاحـل جبل
عـز مـن بـذراه لـلحـنى جـبـل
ينصـر المـظلوم نـاصيف اعتـدل
سـائلوا عثمـان بـاشتهم عـدل
والـقـرايـا دونها خـيـل ووهـل
طـالعـو بـالسعد عـالـزهـرا اهـل
حصنـوا البـارود في ذاك المحـل
كـم وكـم ديـرات ادعـوهـا محـل
صـار مثـل الليث اسـرع من قتـل
كم شـوارب حـزهـا بيـدو وفتـل
لا عـرب صـاليم عـالـوادي نـزل
او تـزيـد عـداد خـوفي من الـزلـل
خـايفـين الـدهـر وصـروف النكل
حـيـث أن الـعـلم دزونـه قـبـل
تـايجـير الـصـلح ونـعـاود قـبـل
عـاكفـر رمـان فـاتـوا بـالعجـل
مـدفـع البـاغـين قصـر بـالعجـل
ليش مير لصـال مـا يـدري الفشـل
جـرح قلبـه كـل مـا ينقض فشـل
واعتلوا الـزانـات من فـوق الجبـل

هـون طـاب المـوت واختـار الجبـان ... مـا بهـا لـلبـين والـواشي حـيـل
وانتخى محمـود لا نـاصيف اخـوه ... لا عـلي الفـارس تحـدر كـالجبـل
شفت اخـو زينت كـريم شبـه ذيب ... ينتـخي لـلكـل يجملهم جمـل
شفت اخـو يسرى واسعـد كـالفهـود ... شـفت عبـاس العـلي يـوم حمـل
طـالبـين العـون من رب العبـاد ... أن يحـل السعـد في ذاك المحـل
وانتخى ابـراهيـم لا قـاسم مـراد ... كـان ابـن دبـور فكـاك العـقـل
من قفـاهم خيـل صارت كـالغيـوم ... هـزبـري لـو كـان حاضـر ما غفـل
واشـتهـر نـاصيف لمـا يعـرفـوه ... صـار مثـل الـطود يهوي أن نـزل
شفت ذاك السـاع للفعـل المهـول ... والخصيم الـلي يغـالـطهـم أضـل
يـا عـلي الفـارس يعـارك بـالجموع ... شبـه ليث صـال واسـرع من بـطل
بعـد هـذا احجمت جمـع الـدروز ... للمتـاريس عـمروهـا بـالعـجـل
ارسلو الصـوات لا نـاصيف يقـول ... أن هـذا الأمـر مـا عـاد ينمهـل
انتخى في الحـال نـاصيف العنيـد ... صـار مثـل السبـع يهدر كـالجمل
اوكبت حـولـه رمـاحـو كـالغيـوم ... يـا كـرم ايـوب يـا مـا قـد فعـل
انتخى محمـود بـرمحـو بـالجمـوع ... قـال يـا نـاصيف امض من شمـال
ذاك كـان بـالـرأي مـا لـو من شبيـه ... غـير عبـاس العـلي نعم البـطل
نهضـة الحكـام لا سحب السيـوف ... سيـدهـا نـاصيف يـا نعم البـطل
كـان يـوم مـر مـن يـوم الفـراق ... عـالـدروز الكسـر والـيهـم نـزل
شـوف خيل الـزير فـاتت عالـظهـور ... شبـه غيم طـافهـا سـاحـل جبـل
والكـواخي قـاضبـة رأس الحصـان ... خـايفـين عـالشيـخ من ذاك الملل
وهـو يهـدر بينهـم مثـل البـعـير ... او كـسبـع هـاج في روس الـقـلل
من كـثر مـا هـاج ارخـوا للحصـان ... ارعب العـدوان في كـثر الـصهـل
هـاجت الصبيان في سحب السيـوف ... او كـبت خـلفـه كغيـث لـو نـزل
سيفهم نـاصيف يـا نعم الـعقيـد ... شـاهـرا لـلسيف في يـدو نصـل
اوكبت خلفـه فـوارس كـالغمـام ... شـاهـرات سيـوف بيـديهم نصـل
شـاهـرا للسيف في يـدو اليمـين ... طـارح الابـطال في روس الـتـلل
والـذي منهم سيـاج النـاقضـات ... ذاك اخـوه الليث محمـود الخصـال

ناقلا للرمح في كف اليمين مردي الفرسان فيه بالعجل
صال في العسكر يميناً مع شمال يا اخوه الزير يهدر كالجمل
اظلم الافاق من كثر العجاج شوف لمع السيف يبرق بالعجل
صاح مير الشوف هاتولي الحصان من عظم ما شاف نسيوا للبغل
وارتعب من حين شاف الخيل اجت افقست كالرعد لو جاد وهطل
سيفها ناصيف يا نعم العقيد شاهراً للسيف في يد ونصل
صاح باعلى الصوت يا جد الحسين اين اهل العرض وارباب البذل
جردون الحدب برماح طوال وانطر بن الخيل واصطكت شمل
اول المشوار لا علج الطريق وثاني المشوار للقارح شمل
واذهل العقال رقص الصافنات من ظهور الجيد يخفون الصقل
قامت الصيحات في جيش الدروز يا جميل الستر من هذا البطل
شبه ليث مذاق لينا سريع يا خيوله شبه غيث لو هطل
هون شفت الفعل من سيدي يبان جاد اخو محمود فيها قد فعل
كم طريح راح من كفو ينود من جناب السيف دلاله فعل
ما يفوت المير ديرتنا حرام لو نبت من فوق طربوشه نخل
جاش يا اهل الخيل باطل يا قروم كلمن يوزم لا عظمو نخل
راح مير الشوف مقتول ذميم علقت بذراه نيران الشعل
اين مير الشوف يوسف اين راح الذي للحرب راكبلو بغل
ما فطن لا حرب محمود الزعيم راح قلبو ممتلي منهم دغل
شاف قومه قفوهم خيل تزوم كاشحات شاب شلتهم شلل
يحسبون الحرب هو بيعة حرير ويش جاب الحرب لا غزل الشمل
شيخهم بالواد فاتونه خطيط بفرا السمور وجميع الثقل
قصروا الخطوات منهم بالصعود هرولوا والكل صايبهم ثقل
والذي ما فات منهم قول مات والسليم يقول عمري ما بصل
هون عشرة وهون مية واقعين حالبين عيونهم مما يصل
ذاك بالوادي وهذا في البطين والذي مشهور منهم فوق تل
خمت القيعان منهم والفلا من كثر ما صار عالبيدا قتل

ذاك بو جرحين هذا بو ثلاث	صابهم هدلان واكثرهم هزل
راحت العقال صايبهم صراع	ما يعرفون الجد من بعض الهزل
من كفار الشوف تدعس في رمام	لا قفا جرجوع ما قالوا دخل
وصل لا جزين يوسف واستراح	عرف قوى البأس منه وانشغل
يا وقعة ما مثلها ظني يصير	يضربوها عاد في الدنيا مثل
نالها ناصيف كساب الحميد	مسقي العدوان من حنظل وخل
الفتى ناصيف ماله من شبيه	بالمراجل فاق عاكل الملل
في بني متوال ما ظني يصير	مثل ناصيف الاسد نعم البطل
صوته كالرعد عند الازدحام	يزعج الابطال يهتز الجبل
ذاك ستر لا بني متوال جميع	صانها بالسيف ساحل مع جبل
ومن بعد ذا نذكر محمد بالصلا	احمد المبعوث لا كل الملل
مع ذويه الغر انوار الهدى	حجة الرحمن عا اهل النحل

واقعة صيداء

الخميس ٩ ربيع الاول سنة ١١٨٦ هـ[1]

بعدما انهزم عثمان باشا الصادق الكرجي تلك الهزيمة الشنيعة في حرب البحرة ، حاول إضعاف العامليين بالقاء الفتنة بينهم وبين جيرانهم فاغرى الأمير يوسف في إعلان الحرب عليهم وبعدما فشل الأمير يوسف في حرب كفر رمان استولى ناصيف وظاهر على صيداء وكان ناصيف قد طرد درويش باشا منها قبل ذلك ، بعد ذلك كله تحقق عثمان باشا أنه لا طاقة له بمقابلة زعماء عاملة وحليفهم الشيخ ظاهر ، فرفع عريضة إلى الدولة العلية ، يذكر فيها تمردهم ،

(١) وقتها الركيني بهذا التوقيت ثم ضبط هذه الواقعة وما قبلها بقوله كان بين وقعة الباشوات في الحولة ووقعة كفر رمان مع الدروز خمسين يوماً ، وبين وقعة كفر رمان ووقعة صيدا مع الدالي خليل والدروز ثمانية أشهر إلا يومين ، وأما الشهابي فقد عدها في حوادث سنة ١١٨٥ هـ . وزعم أنها كانت نهار الثلاثاء في رجب . وأما مروة فإنه عدها في حوادث سنة ١١٦٦هـ فهو يوافق الركيني .

وتملكهم ايالة صيداء ، فحضر كتاب شريف إلى الأمير يوسف بالقيام لحرب الشيخ ظاهر والشيخ ناصيف ، وبذلت له الدولة لقاء ذلك المال السلطاني المرتب على بيروت والجبل في تلك السنة بعنوان نفقة عسكر ، وكانت الدولة مشغولة في تلك الأيام بحرب الدولة المسكوبية ، وفي هذه السنة توفي عثمان باشا الصادق الكرجي في دمشق فتولاها بعده عثمان باشا المصري ؛ وكان قد خرج ساري عسكر على عربستان فكتب إلى الأمير يوسف يأمره بجمع العسكر لحرب زعماء عاملة وأرسل اليه الداخلي خليلا وزير كوت سابقاً وحضر معه أحمد بك الجزار ومعهما ألف فارس ومدافع وزنبركات وذخيرة ، وعند وصولهم إلى عين السوق تلقاهم الأمير يوسف الشهابي ابن الأمير ملحم بكل إكرام وجمع عساكر بلاده وساروا جميعاً إلى حصار صيدا وكانت عساكرهم أكثر من عشرين ألفاً فأقاموا على حصارها سبعة أيام وتضايق أحمد آغا الدنكزلي المغربي الذي أقيم فيها يوم دخلها ناصيف وظاهر في ١٥ رجب بعد انتهاء الحرب في كفر رمان بلا فصل وفي أثناء هذه المدة رجع أكثر عسكر الدروز إلى بلادهم فسكن روع أحمد آغا وقد ذكرنا أن علي بك وظاهر العمر كاتبا ملكة المسكوب وطلبا منها أن تمدهما بالمراكب ، فاتفق وصول المراكب في ذلك الوقت إلى عكا وهي خمس مراكب كبيرة وجملة مراكب صغيرة ، وبمجرد وصولها إلى عكا أرسلها الشيخ ظاهر إلى صيداء وكان عسكر الأمير يوسف والدالي خليل لا يزال محاصراً صيداء فاطلقت المراكب عليهم المدافع فانسحبوا إلى حارة صيداء وأرسل الشيخ ظاهر كتاباً إلى الأمير يوسف يطلب منه أن يحضر بعسكره إلى جسر صيداء ليجري الاتفاق بينهما هناك وإلا ناجزهم الحرب هو والشيخ ناصيف وبقية زعماء عاملة فأبى الأمير يوسف فسار اليه الشيخ ظاهر وزعماء عاملة وجملة فرسان من الغز الذين كانوا مع علي بك فكان عددهم ينوف عن عشرة آلاف مقاتل، ولما وصل العسكر إلى براك التل الذي هو قرب سهل الغازية بالقرب من مدينة صيدا وضع أثقاله هناك وبات تلك الليلة في ذلك المكان وفي صباح ٢٢ أيار الموافق شهر رجب نهار الثلاثاء من سنة ١١٨٥ هـ التقى العسكران في سهل الغازية فضربت عساكر الدولة عساكر المتاولة الغز بالمدافع والزنبركات فقتل منهم نحو ماية قتيل وهجم الدالي خليل وأحمد بك الجزار على القوم ونشب بينهم القتال فانكسر

عسكر الدروز من خلفهم وهجم الغز الذين مع علي بك وفي مقدمتهم علي بك الطنطاوي وكان من أشجع غز مصر ودام ضرب السيف بينهم برهة فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو خمسماية قتيل وانقلب راجعاً إلى دمشق فكان عسكر الدروز الذين معه يسلبون من عسكر الدالي خليل والجزار ما يقدرون عليه من سلاح وغيره، وعند رجوع الأمير يوسف إلى دير القمر جمع بعض المسلوبات وأرجعه للدولة ورجع الدالي خليل ومن معه إلى دمشق وهو يذم الدروز بكل شفة ولسان ولولا الدالي خليل ما سلم أحد من الدروز والدولة في تلك الموقعة فانه فعل في ذلك اليوم أفعالاً تعجز عنها الأسود[1]. وهناك رواية أخرى انفرد بها الخال رحمه الله تعالى في المقدمة[2] فانه بعد ما وقعت الحادثة بسنة ١١٨٦ هـ وذكر أن عسكر الأمير يوسف والدالي كان مؤلفاً من شوفيين وبعلبكيين وغزو أكراد وأن الغز والأكراد كانوا مع الدالي خليل والجزار وأن الأمير يوسف كان أمير الجيش بأجمعه وأن الغاية من هذه الحرب امتلاك صيداء وبلاد بشارة فقط وبعدما أورد قصيدة شناعة الهائية الآتية قال: قيل لما توافق العسكران في سهول صيداء رأى العامليون أن جيش الأمير يوسف أكثر عدداً وعدة لكثرة الرجال والسلاح فصنعوا مكيدة لإلقاء الرعب في قلب القائد العام الأمير يوسف فدخل أحد الفدائيين في عسكر الأمير يوسف بشكل سائل غريب ولما جن عليه الليل دخل خيمة الأمير يوسف من ظهرها ووضع خنجرا فوق رأسه ثم خرج، فاحس به

---

(١) هذه رواية الشهابي وأما الركيني فانه قال في عاشر صفر سنة ١١٨٦ هـ كان الظاهر العمر متجهاً إلى بلاد الشقيف للاجتماع بعسكر الشيعة المتوجه إلى حرب الأمير يوسف في أرض صيداء فاستطرق على الحولة ونهب مواشيها وبات على عين الذهب وعبر جسر خردلة إلى بلاد الشقيف وجاءت المراكب في البحر إلى ملاقاتهم وفي يوم الخميس ٩ ربيع أول صارت وقعة عظيمة بين مشائخ الشيعة الشيخ ناصيف وبقية المشائخ والشيخ ظاهر وغز مصر وبين الدروز والدالي خليل وقتل من الدروز أكثر من ألف وخمسمائة رجل وغنموا غنيمة عظيمة منها مدافع الدروز والدولة . انتهى : واذا لاحظنا رواية الشهابي من دعوى الحصار سبعة أيام وتفرق بعض الدروز وغير ذلك وجدنا أنه يمكن التوفيق بينها وبين رواية الركوني كما أن قول الشهابي عساكر المتاولة الغز إلخ يدلنا على أن الغز كانوا في مقدمة الجيش العاملي وأن القتلى كانت منهم .

(٢) ذكر الخال جملة من الحوادث في المقدمة أسندها إلى المخطوطات وذكر جملة اخرى اسندها لما سمعه من المرحوم والده والمعمرين من مجاوريه ولعل هذه الرواية من القسم الثاني .

الحارس فانسل الفدائي وكفأ عليه قدراً من قدور العسكر حتى سكن عنه الطلب فخرج كما دخل .

وقيل أيضا أن الشيخ علي الفارس سار مع جماعة في ظلمة الليل متكتمين واحداً واحداً واجتمعوا في نقطة معينة اتفقوا عليها وقرروا بينهم علامة يعرفونها ثم تفرقوا حول عسكر الأعداء واطلق كل واحد منهم عياراً نارياً من بندقيته وضرب من كان أمامه بسيفه وانسلوا راجعين فظن عسكر الشوف أن هجوماً مدبراً باغتهم وكان ظلام الليل قد أرخى ستره ، فاختبط العسكر في الظلام وجعل يضرب بعضه بعضاً فلما أصبحوا سرى فيهم الفشل وهجم عليهم عسكر العامليين بغتة وثارت الثائرة فكانت الغلبة للعامليين وحليفهم الشيخ ظاهر العمر الذي أمدهم بعسكره وكانت عساكره بقيادة ولديه علي وعثمان وابني عمه أسعد وأحمد[1] فانهزم الدالي خليل والجزار والأمير يوسف وروى آخرون هذا الحادث بما يلي[2] :

في ١٠ حزيران ١٧٧٢ م - ١١٨٦ هـ بعد انهزام جيش الامير يوسف وفشله في معركة كفر رمان - النبطية انضم إلى جيش عثمان باشا والي الشام الذي انهزم في معركة البحرة (التي اشرنا اليها) ، واتحدوا على حرب ظاهر العمر وحلفائه المتاولة . وكان عدد جيش الاتراك ثلاثين ألفاً ، وجيش الظاهر والمتاولة عشرة آلاف حملوا على ذلك الجيش فانهزم حالا وبدأت المذبحة بعد المعركة حسب المألوف . ولكن الدروز هذه المرة هم الذين يذبحون حلفاءهم بعد انقلاب الجيش ، لأن خيالة عثمان باشا كانوا يملكون سلاحاً جميلاً ، وثياباً موشاة بالذهب ، وسروجاً مصفحه بالفضة . فارتمى الدروز عليهم لينهبوهم وكانوا لا يقدرون أن يدافعوا عن انفسهم . وعند سقوطهم على الحضيض يسحقون رؤوسهم باعقاب بنادقهم أو يذبحونهم بالخناجر ، فلم ينج منهم الا القليل . وعاد المتاولة إلى بيوتهم ، وذهب الظاهر بالصفديين والمماليك إلى يافا .

---

(١) المقدمة .

(٢) تاريخ جبل عامل - محمد جابر آل صفا ص ١٣٢ .

وكان الجزار يومئذٍ في خدمة عثمان باشا وانهزم مع من انهزم فاعجب به الامير يوسف الشهابي لأن كل انسان ينتظر نهاية المعركة ليأخد طريق الهرب ينظر اليه الامير كبطل (كذا) . فاستقدمه إلى دير القمر كمستشار له ، لأن الأمر يوسف كان من طبيعته كالنباتات المعترشة لا تعيش دون وصي . وقد زعزعت الهزيمة سلطته لأن الناس حملوه مسؤولية الهزيمة . والدروز يقبنون هذا الرأي الذي يبررهم فخشي أن يخسر لقبه وسلطته وثروته التي جمعها له وريره « سعد الخوري » فخطر له تحصين بيروت وايداع امواله فيها . ولم ير رجلا اكثر موافقة لهذه المهمة واكثر امانة من الجزّار .

هذا ما قاله المؤرخ الفرنسي (ادوار لكروا) في تاريخه صفحة ٧٤ .

اما مؤرخو جبل عامل فقد تكلموا ايضاً عن هده المعركة وتُعرف عندهم بمعركة الحارة حدثت في ٦ شوال ١١٨٦ هـ و١٠ حزيران ١٧٧٢ وقالوا عنها .

انه لما انتصر الشيعيون في المعارك السابق ذكرها تهددوا والي صيدا درويش باشا بن عثمان باشا وارغموه على الهرب ، فأخلى المدينة ملتحقا بوالده . واحتلها الظاهر وحلفاؤه ، وعين لها حاكماً (احمد اغا الدنكزلي) . وجهز عثمان باشا حمله بقيادة خليل باشا والي القدس فسارت إلى صيدا اولا وحاصرتها لكي بعد سقوطها في ايدي المحاصرين يستأنف الهجوم إلى جبل عامل لسحق الشيعيين وانصارهم .

واجتمع في النبطية قواد الشيعة وحكام المقاطعات وعزموا على مداهمة العدو ليلاً والفتك به فاختاروا من رجالهم خمسمائة فارس ولفوا حوافر خيولهم باللبّاد لكي لا يسمع لسنابكها صوت عند المسير ودهموا عسكر العدو في ضاحية صيدا قرب قرية الحارة ، وكانوا يحاصرون المدينة ، فالجأتهم قنابل الاسطول الروسي أن يتقهقروا للضواحي فوقعوا بين نارين . واحاطت خيل الشيعة بهم في ليلة حالكة السواد وهم نيام فأصلوهم ناراً حامية فهبوا مذعورين يفتك بعضهم ببعض واختلط الحابل بالنابل لشدة الظلام وهلك منهم خلق كثير .

وفي الصباح نشبت المعركة الفاصلة في سهل الغازية وانجلت عن فور

الشيعيين وانهزام العدو . واجهز عليه الـدروز كما سبقت الاشـارة فلم يبق منهم احد .

ولشناعة الشاعر العاملي الزجلي في ذلك العهد قصيدة بمناسبة هذا الحادث نستحسن إثباتها لأنها تحفظ كثيراً مما نسيه التاريخ وهي مأخوذة من المقدمة الخطية التي هي بقلم الخال رحمه الله تعالى .

وأما عدد القتلى من الطرفين فقد اختلفت فيه الروايات فقيل إنه قتل من الدروز أكثر من خمسمئة كما في روايـة الشهابي وقيـل أكثر من ألف وخمسمئـة كما في رواية الركيني وقيل ثلاثة آلاف كما في رواية مـروة . وأما من قتـل من عسكر العامليين فقيل مئة قتيل كما في رواية الشهابي وقيل غير ذلك كما في رواية مروة[1] لاحظ الهامش واليك قصيدة شناعة :

يـقـول المـريحي مـن ضـمـيـرو	بيـوت من الـذكـا فيها بنـاهـا
عـلى مـا صـار في بيـوت القـوافي	معـاني يطرب الفـاهم لغـاهـا
ويـذكـر وقعـة صـارت بصيـدا	جمـوع ومـالهـا حـد تـراهـا
من الشوف العريض ومن بعلبـك	جـراد (؟) قـد غشى ثـراهـا
لـفـا الجـزار والـدالي معـاهـم	كـراد وغـز مـا نفهـم لغـاهـا
ولا نعـرف كـواخي مـن امـارا	ولا نعـرف تـوابـع من لفـاهـا

(١) قال مروة ما لفظه : وركب الأمير يوسف على بلاد المتاولة من صيدا إلى جبع وصارت الوقعة في كفر رمان إلى جرجوع وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتاولة ١٥ رجلاً وكان مع الدروز الوالي (؟) خليل والجزار انتهى ما في نسخة العرفان والمظنون أنـه سقط سطر أو أكـثر من قلم الناسـخ وأما نسخة الفقيه ففيها بعد قوله ثلاثة آلاف . وفي سنة ١١٨٦ هـ صارت الوقعة في صيداء بـين المتاولة والدروز وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتاولة ١٥ رجلاً وكـان مع الـدروز الوالي (؟) خليل والجزار وأما نسخة الخال ففيها بعد قوله ثلاثة آلاف وانتصرت المشايخ وفي سنـة ١١٨٦ هـ صارت الوقعة في صيدا بين المتاولة والدروز وقتل من الدروز ثـلاثة آلاف ومن المتـاولة قليـل قيل مائة وخمسة عشر وكـان على الـدروز الوالي ـ ؟ ـ خليـل والجزار . انتهى . والنسـخ كلها عبـرت بالوالي خليل والصواب الدالي خليل والدالي في اللغة التركية بمعنى المجنـون وكان في طبـع خليل خفة ومن أجل ذلك لقب بهذا اللقب والأتراك لا يستنكرون من هذه الألقاب ذكر ذلك الشهـابي ص ٨١١ وقد تعرض إلى واقعة صيدا في ص ٨١١ وص ٨١٢ .

عقيد الكل مير الشوف يوسف بقومو صار للحارا وأجاها
وقال اليوم نملك باب صيدا ونملك ديرة بشارا معاها
حتم ناصيف بالجيرة وزمزم برب البيت والمختار طه
مزالي جاذب السرعين بيدي بلادي ما احد غيري يطاها
ونبه عارجالو مع ابطالو اسود الحرب ياما اصعب لقاها
حلف محمود[1] بالدين المعظم ورب العرش والياسين طه
ما زالي ناقلا للرمح بيدي بني متوال في عز وجاها
علي الفارس تفرس بالفضايل بلاد ومن العدا دوماً حماها
علي الفارس شديد الباس صعب جموع الضد في سيفو محاها
وقاسم سترها يوم الهيازع اذا شح الندا قاسم نداها
وعباس المحمد كان حاضر برمحو جال بالهيجا وجاها
وعباس العلي ذيب المشاتي اخو شيري بنيرانو حماها
مشاعيل الطراد اولاد واكد على خيل غدت عنها فلاها
عفا يوم لفي الصوات صايح اتوا من كل فج ومن فلاها
فتاهم كل واصول غشمشم حماة الصور بومحمد فتاها

مجمل حوادث سنة ١١٨٥ هـ وما بعدها

في ١٨ صفر من سنة ١١٨٥ هـ استقبل زعماء عاملة أبا الذهب إلى جسر

(١) محمود هو ابن نصار الأحمد أخو ناصيف النصار ومحمد النصار ومراد النصار . أما مراد فانه خلف قاسماً المعروف بقاسم المراد ولا نعرف احفاده وأما محمد فقد خلف جماعة منهم عباس المحمد المشهور وحمزة المحمد وعلي المحمد وعلي المحمد خلف جماعة منهم عباس العلي المشهور . وأما محمود النصار فقد انجب ولدين أولهما حمد البك وكان سيد العرب في عصره ولم يترك عقباً . ثانيهما محمد البك وتوفي قبل أخيه حمد البك ولم يخلف إلا أسعد البك . وتوفي أسعد البك وترك ولداً واحداً وهو علي بك الأسعد الشهير فعاش علي بك تحت ظلال جناحي عم أبيه حمد البك وكانت ذرية بطل العامليين الشيخ محمود النصار قد انحصرت به فانجب علي بك ثلاث بنين منهم شبيب باشا وانجب شبيب باشا علي نصرت بك الأسعد المتوفي قريباً وكان كل من علي بك وولده شبيب وحفيده علي نصرت من مشاهير الرجال على عهد الدولة العثمانية وانما ذكرنا هذا حفظاً له لأننا على وثوق منه ولأنه يشتمل على التعريف بجملة من أبطال هذه الوقائع الذين ذكرهم الشاعر الزجلي و.الركيني.

بنات يعقوب واشتركوا معه في حرب عثمان باشا الصادق والي الشام وهزموه ، وفي هذه السنة شيع زعماء عاملة الشيخ مقبلاً إلى عكا عندما كان متوجهاً لحج بيت الله الحرام[١] وفي أول جماد أول غزا زعماء عاملة مع ظاهر العمر إلى جبل نابلس وفي ١٨ جماد أول كانت واقعة البحرة التي مرت مفصلة ، وفي رابع رجب ركب ظاهر العمر إلى رأس العين وجاء الغز ومعهم عشرون مركباً بحرياً وأطلقوا المدافع قرب صور . وفي نهار الاثنين ١٢ رجب كانت واقعة كفر رمان أو واقعة النبطية الثانية التي مرت آنفاً . وفي ١٥ رجب بعد انتهاء واقعة كفر رمان دخل الشيخ ناصيف والشيخ ظاهر إلى صيداء ونهباها وأحرقا إقليم الخروب وأمر الغز بالاقامة في صيدا وتسلمها أحمد آغا الدنكزلي المغربي من قبل ظاهر العمر . وفي ٦ شعبان ركب ظاهر العمر إلى رأس العين بعسكره وتجهز زعماء عاملة لغزو الدروز وتحدوهم فلم يحرك الدروز ساكناً وكاتبوا ناصيفاً وظاهراً وتفرقت العساكر . وفي نهاية شوال غضب ظاهر على ولده عثمان وأرسله إلى مصر بحراً إلى عند علي بك ، ومن أجل هذا يقول الشهابي احتال على ولده عثمان وأرسله إلى علي بك رهناً كما قدَّمناه[٢] وقال الشهابي إن زعماء عاملة والشيخ ظاهر أصبحوا يتطاولون على أطراف بلاد الدروز ، مثل إقليم الخرنوب وإقليم جزين أكثر من الأول وكان الشيخ كليب نكد قد رجع من حاصبيا إلى دير القمر فركب إلى قرية برجة وغزا المتاولة في قرية علمان فهزمهم ومنعهم عن الحضور إلى إقليمَيْ الخرنوب وتلك الأطراف[٣] وأما عثمان باشا الكرجي الصادق فانه توفي قبل حادثة صيدا وتعين مكانه عثمان باشا المصري[٤] وفي نهاية ذي الحجة ركب

---

(١) للآن لا نعرف مقبلاً ولم يحدثنا عنه الركيني غير هذه المرة ومرة اخرى فإنه حدثنا بأنه ذهب لزيارة الأئمة في العراق ولا نستبعد أن يكون أخا قبلان.

(٢) لخصنا هذا كله من كتاب الركيني وقد أشار الشهابي لشطر منه واختص الشهابي بتسمية متسلم صيدا وبدعوى أنه تسلمها من قبل ظاهر وينبغي ملاحظة هامش ص ١٠٦ من هذا الكتاب .

(٣) لاحظ تاريخ الشهابي ص ٨١١ .

(٤) كان عثمان باشا الكرجي من مماليك أسعد باشا العظم وكان أسعد باشا يقربه لنباهته فلما توفي أسعد باشا ضبطت الدولة أمواله وأخبرهم عثمان بخزائنه ثم وجدوا قائمة فيها فكانت مطابقة لكلامه فلقب بالصادق وانعمت عليه الدولة بثلاثة نياشين ثم أصبح والياً مكان مولاه لاحظ تاريخ الشهابي ص ٧٨٥ .

الشيخ ناصيف إلى جبل نابلس هو والشيخ ظاهر العمر وقيل جرت حرب بينهم وبين أهلها .

وفي سنة ١١٨٦ هـ في ١٠ صفر استطرق ظاهر العمر على الحولة ونهب مواشيها وبات على عين الذهب وعبر جسر خردلة إلى بلاد الشقيف لملاقاة عساكر العامليين المتجهة إلى حرب الأمير يوسف في صيدا ولاقتهم المراكب في البحر وفي ٩ ربيع الأول حدثت واقعة صيداء التي اسلفناها فانتصر العامليون وحليفهم ظاهر العمر وغنموا غنيمة عظيمة وفي ١٥ ربيع الثاني ركب الشيخ حمد العباس المحمد النصار والشيخ أحمد حمد محمود النصار والشيخ ظاهر العمر مع علي بك إلى جهة مصر لأجل حصار يافا وضربوا عليها الحصار نحواً من شهر ونصف وفي يوم الاثنين ١٦ جماد الثاني كبس الشيخ علي الفارس قرية آبل وأخذ « عجالها» بقرها وقتل ١٥ رجلاً وقتل عبداً من عبيده اسمه زيتون الحاج حسين عليق. وفي نهار السبت ١٩ رجب اجتمع العسكر في شحيم ثم تفرق بسبب ذهاب الأمير اسماعيل الشهابي إلى عند الشيخ ظاهر العمر وفي ٢٩ ذي الحجة ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس إلى جبل نابلس[١] وفي سنة ١١٨٧ هـ في صفر توجه محمد بك أبو الذهب من مصر بعساكره إلى حرب أستاذه علي بك وذلك بعد حصار يافا في العام الماضي[٢] وعند وصوله إلى غزة التقاه علي بك بجنوده ووقع القتال فانكسر علي بك كسرة هائلة وقتل علي بك الطنطاوي وسحقته الخيل حتى لم يعرف بعينه وجرح علي بك الكبير في وجهه جرحاً بليغاً وسقط إلى الارض وأخذ وقدم إلى أبي الذهب فانكب أبو الذهب عليه وقبل يده وبكى وأقبلت السناجق والكشاف يقبلون يديه وحضروا به إلى مصر وأحضر له أبو الذهب الجراحين ولما أوشك أن يبرأ دسوا له السم في الجرح فمات[٣] ولما

(١) هذا كله ملخص عن جبل عامل في قرن الركيني وقد ذكر الشهابي توجه علي بك مع عساكر الشيخ ظاهر العمر إلى الديار المصرية في تاريخه ص ٨١٤ ولم يصرح بأسماء العامليين .

(٢) الركيني ولكنه لم يحدثنا عن نتيجة هذا الحصار وأما الشهابي فانه لم يشر للحصار ولا إلى توقيت حوادث الحركات بين علي بك وأبي الذهب ونحن اعتمدنا على الركيني في ذلك كله .

(٣) الشهابي ص ٨١٤ ولنذكر لمحة عن حياة أبي الذهب ليعرف القارىء علاقته بعلي بك في سنة ١١٧٨ هـ كان =

قتل علي بك الطنطاوي وجرح علي بك الكبير انهزمت الجيوش التي صحبته من عاملة وبلاد صفد وقتل منهم الشيخ صليبة ابن الشيخ ظاهر العمر .

وفي هذه السنة نهار الأربعاء ٢٦ صفر توفي الشيخ عباس ابن الشيخ محمد النصار وفي ٢٠ ربيع الأول توفي الشيخ علي منصور[١] وأما المراكب المسكوبية التي حضرت واقعة صيداء وأعانت العامليين على طرد الدروز والدالي خليل فإنها توجهت بعد انتهاء الحادث إلى بيروت فافتتحوها ونهبوها. ولما انتهى الخبر إلى الأمير يوسف تجهز برجال بلاده إلى حدث بيروت فأرسل اليه ساري عسكر المراكب يطلب منه نفقة عسكر ليسافر عن المدينة فأرسل له ٧٥٠٠ قرش فأخذها وعاد إلى عكا ثم إن الأمير يوسف اعلم عثمان باشا المصري بذلك فارسل نائبه محمد آغا ومعه الجزار ومعهما ثلثمئة نوتي إلى مدينة بيروت وتسلم الجزار بيروت من قبل الأمير يوسف لأنها تحت حكمه. وعند قدوم الجزار إلى بيروت أطلق عليه أبو غقلين المغربي الرصاص فأصاب عنقه فقدم له الأمير يوسف الجراحين وعالجوه حتى برىء ثم إن الأمير يوسف طلب من عثمان باشا رفع الجزار عن بيروت فأبى عليه ومذ علم الجزار بذلك أصلح سور المدينة وتأهب للحصار ومنع الدخول إلى البلد والخروج منها. فلما علم الأمير يوسف بذلك جمع عسكراً وحضر به إلى قرية بعبدا وجعل يراسل الجزار ويذكره صنيعه فطلب الجزار الاجتماع به فاجتمعا في (المصيطبة) قرب المدينة[٢] فاستمهله الجزار أربعين يوماً فامهله ولما رجع الجزار زاد المدينة تحصيناً ثم أعلن التمرد والعصيان وجعل المغاربة المقيمون في بيروت يغيرون على ضواحيها فيقتلون وينهبون فاتفق الأمير يوسف مع الأمير منصور وجمعوا العساكر وحاصروا بيروت واستعانوا بالشيخ ظاهر العمر فأمدهم بالمراكب المسكوبية وكانت قد زادت على أن يسلموا ثلثمئة الف قرش فحوصرت

= محمد بك خزندار عند علي بك وفي هذه السنة ألبسه سنجقاً وكانت عادة الغز حين يلبس أحدهم السنجقية يخرج من دار أستاذه وينثر الفضة على الخدم ولكن محمداً هذا نثر الذهب عند خروجه بدل الفضة فلقب بأبي الذهب . الشابي ص ٧٩٠ .

(١) الركيني هو الذي أشار للهزيمة ولوفاة الشيخ عباس والشيخ علي منصور ومقتل الشيخ صليبة .

(٢) المصيطبة الآن في قلب المدينة .

بيروت براً وبحراً أربعة أشهر وأطلقت عليها المراكب ستة آلاف مدفع دفعة واحدة فاضطر الجزار إلى التسليم لنفاد المؤن فسلم عن يد الشيخ ظاهر فتسلمه وكيل الشيخ ظاهر ومن معه وسار بهم إلى عكا ثم أن الجزار اختلس جملة بغال للشيخ ظاهر وسافر ليلاً[2] واما الركيني فانه ذكر أن مراكب المسكوب حاصرت بيروت في ٢٣ جماد اول سنة ١١٨٧ هـ .

واقعة القرعون

وبعدما فتحت بيروت وقع الاختلاف بين عثمان باشا المصري والأمير يوسف فجهز الباشا عسكراً مؤلفاً من خمسة عشر ألفاً وخرج به إلى البقاع وضرب خيامه في بر اليسا، فجمع الأمير يوسف عسكر بلاده وتوجه إلى المغيثة وجرت بينهم جملة وقائع فاستنجد الأمير بالشيخ ناصيف النصار فسارع ناصيف لنجدته وقاد فرسانه بنفسه ومذ وصل إلى القرعون وفهم بذلك عثمان باشا هرب ليلاً بعساكره إلى دمشق تاركاً أكثر الميرة والذخائر والمدافع ، وعند الصباح حضر عسكر الأمير إلى القرعون وأخذوا ما وجدوه واحضروا المدافع إلى قلعة قب إلياس وطلب الامير الاجتماع بالشيخ ناصيف « للإكرام فأجاب بما أنه لم يبق حاجة لا يمكنه المكث وانثنى راجعاً إلى بلاده ورجع الأمير يوسف إلى دير القمر » وصارت بينه وبين زعماء عاملة محبة عظيمة وزالت من بينهم الأحقاد القديمة وأخذوا على بعضهم العهود والمواثيق[1] . وأما الركيني فانه يقول : في ٢٥ جماد الثاني سنة ١١٨٧ هـ توجه الجزار بعسكر عظيم من الشام لحرب الدروز وإن الشيخ ناصيفاً والشيخ ظاهراً توجها معا إلى جهة صيدا وفي نهار السبت توجهت

---

(١) هذا كله ملخص عن الشهابي ص ٨١٢ و٨١٣ و٨١٤ ولنذكر للقارىء لمحة من حياة الجزار لأننا سنحدثه عنه في نحو من ثلاثين سنة بعد هذا التاريخ : الجزار رجل عادي جاء إلى مصر وخدم في بيوت الحكام ولبس لبس المماليك ثم إن عرب الهنادي قتلوا سيده عبد الله بك فقتل منهم كل من قدر عليه وكان من بينهم أربع مشائخ فعلا ذكره وسُمي الجزار ثم فر على عهد علي بك إلى القسطنطينية ثم سافر إلى حلب وتجول في بر الشام واتصل بعثمان باشا المصري وحضر واقعة صيداء . لاحظ الشهابي ٧٩٧ وص ٧٩٨ وص ٨١١ وقيل في شأنه غير هذا كما في غير تاريخ الشهابي .

(٢) الشهابي ص ٨١٨ وص ٨١٩ .

العساكر إلى مرجعيون ثم إلى البقاع لمعاونة الدروز ولما أقبلت عساكر ناصيف وجنوده وفهم بها جند عثمان باشا طار في الليل تاركاً المدافع والخيام وسائر المعدات والآلات وكان مع العامليين علي الظاهر وبعد فرار الجند زحف علي الظاهر وكان مع العامليين على قرى الشام ونهبها وفي نهار السبت ٢٢ رجب انعقدت جمعية بين ناصيف والدروز في وادي صيدا وتمت المعاهدة(١) .

وذكر الشهابي أن عثمان باشا طلب من الدولة الصفح عن الشيخ ظاهر العمر على أن تكتب عليه إيالة صيداء ويؤدي الأموال المتأخرة فأجابته الدولة بالموافقة وكتب عثمان باشا رسالة إلى حكام المقاطعات ومنهم الأمير يوسف وقبل الأمير يوسف بذلك مرغماً لأنه لم يحب أن يكون تحت إمرة الشيخ ظاهر وكان تاريخ الكتاب في ٢٧ ذي الحجة سنة ١١٨٦ هـ(٢) .

أسباب انقراض حكم ظاهر العمر وأولاده

وفي سنة ١١٨٨ هـ . نهار السبت سادس محرم توفي محمد البدوي بن عباس العلي وفي نهار السبت ١١ صفر ركبت خيل بلاد بشارة والشومر والشقيف مع ظاهر العمر على بني عدوان عرب الوكر. وفي نهار الخميس سادس ربيع الثاني سافر الزوار مع الشيخ مقبل(٣) وفي هذه السنة عزل عثمان باشا المصري عن دمشق وتولاها محمد باشا العظم وفيها وصل القبجي وكان يحمل كتاباً من الباب العالي للشيخ ظاهر العمر يتضمن العفو المؤكد عنه وكان تاريخه في ذي القعدة سنة ١١٨٨ هـ فتأهب الشيخ ظاهر لدفع الأموال المتخلفة عليه وكان في ذلك الوقت يحكم صيدا وعكار وحيفا ويافا والرملة وجبل نابلس وبلاد نابلس وبلاد إربد وبلاد صفد ، وفيها رفع أبو الذهب عريضة للدولة تتضمن ما كان من علي بك وظاهر العمر وطلب الرخصة في تأديب ظاهر واسترجاع الأموال التي غنمها من معسكر علي بك فأذنت له الدولة بذلك فتوجه بجيش ينوف على الستين ألفاً

---

(١) الركيني .

(٢) لشهابي ص ٨١٦ .

(٣) الركيني، في جبل عامل في قرن .

وقد سارت الدعاية أمامه فكان له منها قوة أخرى فكان الناس يقولون إن الجمال المخصصة لنقل الجنود ثلاثون ألفاً وإن نقاط النقل بين مصر وفلسطين ثلاثة وأنه خصص لكل نقطة عشرة آلاف بعير وأنه يصحب معه معامل لصنع المدافع وأن المدافع تصنع له على القدر الذي يريده من الصغر والكبر وقد بلغت هذه الدعاية منتهاها فقد وجلت منه جميع سكان سوريا ؛ وأخلوا صور وصيداء وبيروت بمجرد وصوله إلى يافا وفر زعماء الدروز إلى الجبال ومثلهم أهل نابلس وغيرهم[1] وكان ظاهر قد حصن يافا بالرجال والمدافع وكان المتسلم فيها الشيخ كريم الأيوب ابن الشيخ ظاهر فأغلق الأبواب وأحاطت بها عساكر أبي الذهب من كل مكان واستمر الحصار ستين يوماً ، ثم تملكها الغز بالسيف ولم يسلم من أهلها الا القليل. وقبض أبو الذهب على الشيخ كريم الأيوب وأحضره معه إلى عكا ثم خلع عليه وأطلقه فلحق بالشيخ ظاهر وقبل وصوله إلى صور مات كمداً ثم توجه أبو الذهب إلى عكا ، ففر الشيخ ظاهر إلى صيدا ثم رجع من صيداء إلى صفد ثم فر ومعه أولاده وثقله إلى عرب عنزة ، فأرسل أحمد آغا الدنكزلي رسالة إلى أبي الذهب يعرض فيها طاعته ، فأقره على صيدا وكان متسلماً فيها من قبل ظاهر ثم حضر الشيخ ناصيف النصار إلى مقابلة أبي الذهب وصحب معه عشرين حصاناً من جياد الخيل وقدمها له فطيب قلبه وأمره بالإقامة عنده لبينما يحضر جميع زعماء عاملة ، هذه رواية الشهابي[2] وأما الركيني فإنه قال : ـ في سنة ١١٨٩ هـ نهار الخميس ١٤ من المحرم وصل القبجي من إسلامبول إلى صيدا في طلب ميرة خمس سنين ولاقاه جميع المشائخ القواطعجية إلى عكا إلى عند الشيخ ظاهر العمر وفي نهار السبت نهاية المحرم توجه جميع المشائخ إلى استقبال أبي الذهب في غزة بخيلهم ورجالهم بطلب من ظاهر العمر ، وفي يوم الاثنين ثاني صفر توفي الحاج يوسف ابن الشيخ مشرف[3] وفي هذا الشهر أرسل المشائخ التقادم والذخيرة إلى باشة الشام وفي ١٧ ربيع الأول وصل الخبر باستيلاء أبي

(١) عدد الجند وما قبله نقلناه عن الشهابي ، وحديث الجمال والمدافع نقلناه عن الركيني ، وقضية هزيمة الزعماء وإخلاء المدن تعرض لها كل منهما .

(٢) في تاريخه ص ٨٢٤ وما قبلها .

(٣) لا يبعد أن يكون الحاج يوسف ابن صاحب المزرعة المتوفي سنة ١١٤ هـ لاحظ ص ٦٦ من هذا الجزء .

الذهب على يافا ثم جاء إلى عكا وفر الشيخ ظاهر إلى صيدا ثم رجع إلى صفد على ما قيل. وفي نهار السبت رابع ربيع الثاني سافر الشيخ ناصيف إلى عكا للاجتماع بأبي الذهب فأكرمه إكراماً زائداً ، وكانت شفاعته لديه ماضية في كل ما يريد وقيل إن ظاهراً فر هو وأولاده إلى عرب الطيار المقيمين في البادية ، ثم أمر أبو الذهب بهدم صفد فهدمت ، وخافته البلدان القريبة والبعيدة ، ثم توجه الشيخ قبلان لمواجهة أبي الذهب في عكا وبينما كانت الناس منه في وجل عظيم واذا به صريع القدر ، وكان ذلك في ليلة الجمعة عاشر ربيع الثاني سنة ١١٨٩ هـ فتنادى عسكره بالرحيل وحملوا جثمانه محنطاً ، ورجع الشيخ قبلان والشيخ ناصيف سالمين غانمين[١]. ولما عاد المشايخ أرسلوا سرية قليلة ليتسلموا صيدا من السنجق المقيم فيها ويخرجونه منها طوعاً أو كرهاً ، فتحصن فيها وقتل منهم خمسة عشر رجلاً وقال لا أخرج إلا بأمر سلطاني، وفي يوم السبت ثامن جماد الثاني توجه الشيخ قبلان لمواجهة محمد باشا العظم باشة الشام ، وقبل وصوله علم بأن ظاهر العمر قد هوجم مرة أخرى[٢] وذلك أنه عندما بلغ الدولة موت أبي الذهب تجهز حسن باشا غازي في العمارة الهمايونية وحضر إلى يافا وكان الشيخ ظاهر قد رجع إلى عكا ، وعندما وصل حسن باشا إلى يافا أرسل إلى الشيخ ظاهر فرماناً يشتمل على المطالبة بالأموال المتأخرة واعطاء الأمان وابقاء الإيالة كلها بيده كما كانت من قبل ، فعقد مجلساً لمداولة الرأي فأشار الدنكزلي بالموافقة وتبعه الشيخ ظاهر ، وأشار أمين المال بالحرب قائلاً ليس عندنا مال ليس عند الشيخ ظاهر جواب الا الخيل والرجال ، فكان هذا النزاع أول الفشل لأنه لم يفصل الخصومة بنفسه ولم يبت بالأمر ، ومن ثم خرج الجمع دون أن يتوحد اتجاههم ، وذهب الدنكزلي الذي أشار بالمسالمة اليوم وكان متسلم صيداء بالأمس إلى أرباب المدافع وأفهمهم بما كان وخوفهم عاقبة الأمر وأمرهم باقفال

---

(١) هذه رواية الركيني وأما الشهابي فإنه قال قيل إنه مات فجأة وقيل إنه اختل قبل موته بساعات فكان يقول ردوا عني هذا المفترس وقد ذكر تاريخ وفاته شعراً وهو هذا « أرخت مات أبو الذهب » كما أشار إلى ماغنمه ناصيف وبالغ فيه وأشار للمعركة التي جرت بين الشيعة ومتسلم صيدا وذكر أموراً أخرى لاحظ ص ٨٢٤.

(٢) هذا تمام حديث الركيني وهو يوافق توقيت مروة لأنه جعل بين موت أبي الذهب ومجيء حسن باشا شهرا واحداً .

المدافع وأعلم حسن باشا بما كان واستحثه على القدوم ، فزحف حسن باشا بعمارته إلى عكا وأرسل إلى محمد باشا العظم وزير القدس أن يزحف بعساكره برّاً ، وأرسل من قبله وزيراً إلى صيداء وطفق حسن باشا يطلق القنابل على عكا ولم يقابله أحد فأصدر الشيخ ظاهر أوامره باطلاق المدافع على المراكب فامتنع المغاربة بحجة عدم جواز حرب السلطان وتحصنوا ولم يمكنوا أحداً من المدافع ، فعند ذلك جزع الشيخ ظاهر جزعاً شديداً وفر هارباً فرماه أحد المغاربة برصاصة في صدره عندما كان خارجاً من باب المدينة فخر على الأرض قتيلاً[1] وفر أولاده ملتجئين إلى الشيخ ناصيف النصار ؛ فرحب بهم ، ثم دخل الجيش المحتل واستولوا على خزائنه فوجدوا عنده أكثر من أربعين ألف ألف غرش من النقود عدا الحلي والسلاح والخيل والتحف والذخائر التي من بينها دواة عزيز مصر وكانت قطعة واحدة من الزمرد ، وكان يمكنه إرضاء السلطة بمئة ألف قرش ، وعندما استولى حسن باشا على المدينة أرسل أماناً إلى أولاد الشيخ ظاهر وكانوا لم يزالوا عند الشيخ ناصيف النصار فحذرهم الغدر فلم يقبلوا ولما احضروا بين يدي حسن باشا أمر بهم فاوثقوا كتافاً وهم المشايخ الأربعة عثمان وسعيد وأحمد وصالح، وأما علي فإنه لم يشترك معهم في شيء من الحرب والهزيمة وعندما تم أسرهم جعل الشيخ سعيد ينال من الحكومة لغدرها بهم بعد الأمان فأمر به حسن باشا فقتل وأرسل إخوته الثلاثة مع رأس أبيهم إلى القسطنطينية، وبعد وصولهم أنعمت عليهم الدولة فجعلت عثمان وزيراً في جدة وأحمد وزيراً على مدينة في بر الروم[1] .

وفاة بطل العامليين
الشيخ علي الفارس

وفي سنة ١١٨٩ هـ . نهار الإثنين ١٥ رجب توفي الشيخ علي

---

(١) وذكر الركيني أنه بلغهم قتل ظاهر العمر يوم الثلاثاء في ٢٥ جماد الثاني سنة ١١٨٩ هـ وأن رأسه حمل على أعمدة البواخر إلى اسلامبول .

(١) الشهابي ص ٨٢٦ وما قبلها .

الفارس بن أحمد الفارس صاحب قلعة الشقيف وهو صاحب المواقف المشهودة في واقعة الدولاب وكفر رمان وصيداء وغيرها ، وكانت وفاته في قلعة تبنين بعد عودته من بلاد صفد لأنه كان في مواجهة محمد باشا العظم والي الشام وصيداء وكان في بلاد صفد[1] وفي هذا اليوم توفي أيضاً الشيخ إبراهيم بن محمد حرب وفي نهار الخميس ١٨ رجب توفي الشيخ أيوب بن علي موسى حرب ؛ وفي شهر ذي الحجة توفي الشيخ فارس بن علي الفارس[2] .

وفي سنة ١١٩١ هـ . كتبت ولاية صيداء على الجزار وعزل منها محمد باشا الذي تولاها من قبل حسن باشا غازي فغضب حسن باشا لذلك لأنه عيّن بدون مراجعته مع أنه هو الذي يتولى بلاد عربستان ، ثم إن حسن باشا أمر بقتل الدنكزلي الذي نصح له وخان الشيخ ظاهر العمر ، وفي هذه الأيام وصل إلى عكا ستمئة خيال قبسيس وهم من وجاق يقال له « لاوند » وهم الذين يلبسون الطرابيش الطوال بعد ما نفوا وكانوا ستة عشر ألفاً ولم يسلم منهم إلا العدد الأنف فانقسموا شطرين شطر ذهب إلى الجزار وشطر ذهب إلى محمد باشا العظم لأن المبرزين منهم كانوا مختلفين ؛ فافترقوا واتبع كلٌ منهم جماعة وكانوا من أشد الناس في الحروب . وفي هذه السنة توجه الجزار للقضاء على الشيخ علي الظاهر وكان علي الظاهر منحرفاً عن أبيه وإخوته ولذا لم يشترك معهم في مأساتهم[3] وكان الجزار يحكم صيداء وعكا ففتح دير حنا وهرب منه علي الظاهر ثم عسكر علي الظاهر في « علما » فوجه الجزار عسكراً لحربه فانهزم الجزار ثم

(١) الموجود في رسالة الأستاذ الشيخ أحمد رضا التي أرسلها لنا المتضمنة لبعض الحوادث التاريخية أنه توفي في قلعة الشقيف بعد حصار الجزار ولا نعرف مستنده كما أن صاحب العرفان وضع علامة استفهام على قول الركيني باشة الشام وصيداء ولم نعرف الأمر الذي ينكره من رواية الركيني . سنلحق اطروحة وردتنا تدل على أنه كان بعد استشهاد ناصيف وانه سلم القلعة صلحاً مع الجزار وانه لم يغدر به ، وهذه الكراسة هي مما امتاز به كتابنا في طبعته الجديدة

(٢) جبل عامل في قرن الركيني ولم نجد العدد الرابع من م ٢٨ من العرفان المتضمن لحوادث سنة ١١٩٠ هـ وسنة ١١٩١ هـ .

(٣) الشهابي ص ٨٢٨ .

عسكر علي في (ديشوم) وفيها قتل[1] وقد اتفقت الرواية على أن القبسيس قتلوه ولكن المؤرخين اختلفوا في ذلك : قال الشهابي[2] في هذه السنة جرت حروب كثيرة بين الشيخ علي الظاهر وبين عساكر الجزار وقتلوا ولديه الحسن والحسين وكان علي القيصرلي هو المقدم على القبسيس المستخدمين عند محمد باشا العظم وفي تلك الأيام اتهمت الدولة محمد باشا بالخيانة والمفاهمة مع علي الظاهر فأراد أن يبرر موقفه لدى السلطة فأمر القيصرلي بمراسلة علي الظاهر سرّاً وأنه يجب أن يخدم عنده ويحارب معه ، ونظراً لما يعهده من العداوة بينه وبين القبسيس الذين هم عند الجزار رضي بذلك بعد أن استوثق منه بالأيمان المغلظة ولما دخل القيصرلي وأتباعه عليه قدم لهم القهوة فلوح بالفنجان وكان هذا التلويح رمزاً بينه وبين أتباعه للفتك بعلي الظاهر فهبوا سراعاً وقتلوه وانتهت سلطة الزيادنة ، واستقل الجزار بادارة بلادهم وجمع منها أموالاً لا تحصى ووضع ضرائب جديدة : وقال مروة: إن الجزار أرسل اليه القبسيس ليخدموه فقتلوه وحملوا رأسه وهربت فرسه إلى « صلحا » وبعد الواقعة أحضر الشيخ ناصيف جثته ودفنه في « عيناثا » وهذا يدلنا على أنه قتل في المعركة غيلة لا كما يزعمه الشهابي ونحن نستقرب أن يكون شكل الخديعة بالنحو الذي ذكره الشهابي والقتل بالنحو الذي ذكره مروة[3] ويقول الشهابي لم يكن في زمان علي الظاهر أفرس ولا

---

(١) مروة في جبل عامل في قرنين .

(٢) ص ٨٣٢ وقد لخصنا الحديث .

(٣) وأما الركيني فلم نتمكن من الحصول على عدد العرفان المتضمن لحوادث هاتين السنتين ولننقل ما في رسالة مروة بلفظه وفاء بالوعد قال :

وسنة ١١٨٩ هج . جاء أبو الذهب إلى يافا حاصرها ففتحها وركب على صفد وهربت حكامها وواجهه ناصيف في عكا وأمنه فرجع إلى بلاده فما كان إلا شهر واحد حتى جاء حسن باشا فحاصر عكا وقتل ظاهر العمر فيها وفي سنة ١١٩١ هـ حكم الجزار في عكا وصارت باشوية ففتح دير حنا فهرب منه علي الظاهر فأخذ إخوة علي وحبسهم في عكا فرجع حسن باشا وأخذهم إلى القسطنطينية وبعد ذلك عسكر علي الظاهر في علما من بلاد صفد فركب عليه الجزار عسكراً وباتت الغلبة على العسكر ثم عسكر في « ديشوم » فأرسل اليه الجزار عسكراً برسم أنهم قبسيس ليخدموا عند علي الظاهر فقتلوه وأخذوا رأسه وهربت فرسه إلى « صلحا » وبعد الواقعة أحضر ناصيف جثته ودفنه في عيناثا وسنة ١١٩١ هـ . ركب الجزار باشا على صيدا وكبس مزارع إقليم الخروب حتى وصل ، جون ، وروم ونهب دير المخلص ، وصار جراد عظيم فغلت الأسعار

أشجع ولا أكرم ولا أفصح منه ولا أكبر نفساً حتى أنه لم يزوج بناته أنفة من أن يقال بنت علي الظاهر لها زوج يأمرها وينهاها . وقيل إن عبداً حاول مبارزته فترفع فألح العبد فاعترضه بالسيف فسار جواده قليلا ثم وقع نصفه الأعلى وثبت النصف السفلي على الجواد. ويقول الأمير حيدر إنه رأى بناته يسألن الناس الصدقات ، وليكن في هذا عظة لذوي النعم والرفاه والعزة والكبرياء فإن الله سبحانه بالمرصاد .

وفي سنة ١١٩٢ هـ . رحل المشائخ النكدية إلى عاملة هرباً من المال المتخلف عليهم وهو مئة ألف قرش ونزلوا ضيوفاً على الشيخ ناصيف النصار فقبلهم بكل إكرام[١] . وفي يوم ٢١ شعبان من هذه السنة ركبت خيل المتاولة أجمع إلى البقاع إلى الدروز وفي يوم الاثنين ٢٢ شعبان ركبت خيل المتاولة على عرب الطيار ، وفي غرة ذي القعدة ركب الشيخ عقيل ابن الشيخ ناصيف النصار لتعزية أولاد الشيخ علي جنبلاط بأبيهم ، وفي يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة توفي الشيخ محمد العلي بن علي منصور منكر في جبع[٢] وفي يوم السبت ٢٠ ذي الحجة صار بين الجبلية والجزار وقعة فانهزم الجزار وقتل من « حرفيش » و« جب جنين » قدر ثلاثين[٣] .

استشهاد أبي حمد الشيخ محمود النصار في واقعة الرقاد سنة ١١٩٣ هـ .

في سنة ١١٩٣ هـ استنصر عرب الصقر وعرب السردية وعرب بني صخر بالشيخ ناصيف النصار على خصومهم بني حسن المرؤ وسين لآل المزيد وكان آل المزيد قد استنصروا بالحكومة وكان اسم رئيسهم فاضل المهنا فامدهم ناصيف

= فبيع مد القمح بغرش وخمسة ، والرز بقرش وربع ، والشعير مد إلا ربع بقرش . انتهى . وفي نسخة الفقيه والخال والشعير مدّين إلا ربع بقرش . إنتهى .

(١) الشهابي ص ٨٣٥ .

(٢) لاحظ ما ذكرناه ص ٨٥ من هذا الجزء .

(٣) الركيني في جبل عامل في قرن .

بجيش ذي عدة وعدد وتوجهت الجيوش يوم السبت تاسع ربيع الأول فالتقى الجمعان في نهار الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول من سنة ١١٩٣ هـ . في (الجيدور) من أعمال حوران على مقربة من (الحارة)، وكان نهر الرقاد يفصل بين القوات المتحاربة وكانت هذه الواقعة في فصل الشتاء وقد استمر المطر ثمانية أيام بلياليها واشتد البرد وتوحلت الأرض وكثر الضباب ومل الناس من الانتظار فجازف أبو حمد واجتاز النهر،والظاهر أن الفرسان كانت تجتازه آحاداً ولما اجتازه وهو مثقل بأعباء المطر والبرد والعبور وكان ذلك اليوم كثير المطر والضباب فانهال الفرسان عليه من كل جانب وهم لا يعرفونه ولم يجد مجالاً للقتال ومذ تجلى الضباب وتكشفت الحرب تبين أن أبا حمد قد قتل وهكذا كان حال كل من عبر النهر ولم يجرؤ بعده أحد على العبور وكل من عبر النهر قتل؛ وقد استشهد معه ابن أخيه قاسم المراد النصار صاحب قلعة دوبية ومئة فارس وقد قطعت الحكومة رؤوسهم ورؤوس من مات من البرد وجردهم أعداؤهم من اللباس وتركوهم عرايا مسلبين وعندما فهم بنو حسن بقتل أبي حمد أيقنوا بالهلاك والبوار ، وتهيأوا للفرار ، وطلبوا الفيافي والقفار ، ولما انتهى الخبر إلى ناصيف هب للأخذ بالثأر ، وطار بما تيسر له من الفرسان واقتفوا أثر المنهزمين فدفداً بعد فدفد وكان المنهزمون يصلون الليل بالنهار لشدة خوفهم،وكان ناصيف يسرع في آثارهم إلى أن أدرك إحدى المنازل وآثار النار لم تزل فيها فعلم أنه قد اقترب منهم فجد في السير والطلب ؛ ولما لاحت أشباح الغزاة للمنهزمين أيقنوا بالهلاك والبوار فنجوا بأنفسهم تاركين الأثقال والنساء والأطفال فانتهى ناصيف إلى منازلهم ورأى آثار التسليم بادية ولم يجد في المنازل أحداً من الرجال فعندها حملته سجاياه على العفو والاحسان فأمر الفرسان باعتزال البيوت ونزل هو في بيت كبيرهم ودعا بأكبر أولاد فاضل المهنا وكان له من السن دون العشرة فخلع عليه فرواً ثميناً ثم دعا بأولاد الشيوخ والموجهين فخلع عليهم كلاً بحسبه فضج الحي ومن فيه بالدعاء والابتهال وفي رواية مروة أنه وجد ولدين مجدرين في الحارة لفاضل المهنا فخلع عليهما[1] وقد أرخ شاعر عاملة الشيخ إبراهيم يحيى وفاة أبي حمد فقال : -

---

(١) هذه الرواية مستقاة من الركيني في جبل عامل في قرن ومن ديوان شبيب باشا ابن علي بك ابن أسعد بك ابن =

أقـول والنـار في الأحشـاء سـاطعـة والـدمـع مـا بـين منهـل ومـدرار
يا ليت شعري أينجاب الدجى وأرى مـن المسـرة شـمسـاً ذات أنـوار
ويسفـر الـدهـر عن يـوم نصـادف في تـاريخـه ثـأر محمـود بـن نـصـار

وقد كان أبو حمد يعد بألف فـارس ومواقفـه في واقعة تـربيخا وكفـر رمان مشهورة[1]. وفي شهـر ربيـع الثـاني من هـذه السنـة نهب الشيـخ نـاصيف بقـر الزركشية التركمان وفي نهار الثلاثاء ثـلاثين جمـاد الأول توفي الحـاج نصر الله بن الحاج حرب من الصعبية وفي ليلة المبعث ٢٧ رجب تأهل الشيخ علي ابن الشيخ أبي ناصيف وفي ليلة الاثنين أطلقت المدافع في صـور في وقت متأخـر فظن أهـل القرى أن صور كبست فركبت الخيل وزحفت الرجال فظهر أن هلال العيد ثبت بشهادة الشهود في ذلك الوقت[2]. وفي غـرة رمضان جـاء الأمير محمـد الحرفـوش وسكن في قرية شحور وفي منتصف ذي القعدة جاء كليب بن أبي نكد وسكن في قرية دير دغيا .

وفي سنة ١١٩٤ هـ في ٨ صفر تـوفي صليبة ابن الشيـخ حيدر فـارس وفي جماد الأول كبس حيدر الفارس عرب القرية وقتـل منهم رجلاً وفي يـوم الخميس ٢٥ رجب ركبت خيل الشيخ ناصيف إلى عند الجزار إلى عكا لمحاربة محمد باشا باشة الشام وفي هذه السنـة انتقل الجـزار من عكا إلى صيـدا وفي ٧ شوال بـات عسكره على رأس العين وتوجه هو إلى صيداء بحراً. وفي هذا الشهر قتلت الدروز رجلاً من عنابة جبع ورجلين من بلاد الشقيف وفي هذه السنـة انتقل الشيـخ أبو

= محمـد بـك ابن أبي حمد محمود النصار في ص ٢١ ومن رسالـة مروة فإنه قال: وسنة ١١٩٣ هـ ركب أبو حمد على عرب عنزة فقتل هو وابن أخيه قاسم المراد ومعهم مابة فارس هكذا في نسخة العرفان والفقيه وفي نسخة الخال هو ومئتا فارس على نهر الرقاد في الجولان فركب ناصيف من تبنين فهربت العرب فلحقهم للرمثة وقطعوا البرية ففاتوه هرباً فرجع فوجد ولدين صغيرين في الحارة لفاضل المهنا كبير العرب مريضين في الجدري فخلع عليهم ورجع للبلاد . انتهى .

(١) قال الشهابي في حوادث سنة ١١٩٧ هـ ص ٨٤١ و٨٤٢ وكان عندهم يعني الشيعة أبطال لا تطاق في الحروب . . . إلى أن قال قتل الشيخ أبو حمد وكان يعد في الحرب بألف فارس . وقد وقع في هذه الصحائف اشتباه من الشهابي لأن أبا حمد استشهد في سنة ٩٣ كما سمعت وله اشتباهات أخرى ههنا .

(٢) ولعل هذه الحادثة هي التي زعم الأستاذ رضا أنها حدثت على عهد عباس العلي وينبغي أن تعد جميع الحوادث التي كانت في هذا العصر على عهد ناصيف لأنه حاكم البلاد لاحظ ص ٣٤ من هذا الكتاب ج ١ .

صليبة الحمادي إلى مدينة صور وسخروا لـه دواب القرى والـذي لم يرسـل دابته يؤخذ منه مقدار كراها والقرية التي لم ترسـل دوابها يؤخـذ من أهلها قـرشين أو ثلاثة ويستأجر بها[1] وفي هذه السنة اجتاز الأمير يوسف الشهابي بالشيخ ناصيف النصار وهو ذاهب إلى عكا بعدما حلف أخوه الأمير السيد أحمـد اهالي البـلاد ولم يكن مع الأمير يوسف إلا خدمه والشيخ كليب نكـد فتلقاه الشيـخ ناصيف ونهاه عن النزول إلى عكا وقال له إنه يسلمه بلاد الشيعة ويكون هو تحت يده فما قبـل الأمير يوسف ولما وصل إلى عكا استقبله الجزار وأكرمه[2] .

وهذا الحادث يدلنا على أن ناصيفاً كان متيقظاً لحركات الجزار عالماً بنـواياه ساهراً على مصالح الاقطاع اللبنـانية أجمـع لأنه كـان يحاول قـطع العلاقـات بين الجزار والزعماء من جهة ويحاول إصلاح ذات بينهم من جهة أخرى .

وفي سنة ١١٩٥ هـ . وتاريخها ، ظريفة[3] ، صارت الجمعية بين الشيـخ ناصيف والأمير محمد الحرفوش في الطيبة من بلاد عـاملة ؛ وركبت خيل الشيـخ ناصيف مع الأمير محمد الحرفوش إلى بعلبـك وفي ٢٠ من المحرم بلغنـا أن الامير محمد الحرفوش خرج من مدينة بعلبك إلى الشوف إلى دير القمر ونزل على الأمير يوسف الشهابي ، فقتل الأمير يوسف أخاه أفندي في دير القمر وذهب إلى مدينـة صيدا ثم إلى صور واجتمـع بالشيـخ ناصيف في ٢٨ من المحـرم ثم توجـه الأمير يوسف إلى عكا لـمواجهة الجـزار وبقي الشيخ كليب في صـور ومعه قـدر ستين ، بواردي ، مسلحاً .

---

(١) هذه الحوادث كلها منقولة عن الركيني : ويظهر أن المشائخ الحمادية كانوا كثيرين في عاملة ويظهر أن أبا صليبة شخصيـة بارزة وأن الحكـام يهتمون في أمـره ويرغبـون في إسكانـه في صور ومن ثم أمروا الناس بنقل أسبابه واحتياجه إلى هذا المقـدار في أمر النقـل يدل عـلى كثرة الأثـاث واللوازم والظاهر أنهم من عشيرة آل حمادي البقـاعيين ومـواقفهم مشهورة وتـاريخهم حافـل بالبسـالة ومن أحفادهم اليوم الزعيم اللبناني الكبير الأمير صبري حمادي رئيس البرلمان اللبناني .

(٢) الشهابي ص ٨٣٨ .

(٣) هذا التاريخ من صنع الركيني تحسب التاء كما تكتب لا كما تلفظ ، وهذه السنة كانت عبـرة بحق لأنها اشتملت على أعظم عظمة فبينما كانت سلطة العامليين فيها في أعظم صـورها واذا بهـا هباء منثوراً .

هكـذا يقول الركيني ولعـل هذا الحـديث هو الحـديث الذي رويناه عن الشهابي آنفاً : وفي نهار السبت ثاني صفر كبس الشيـخ حيدر الفـارس اللزازات في صور ونهب مواشيها .

وفاة الشيخ عباس العلي

وفي ليلة الأربعاء في الحادي عشر من ربيع الأول من سنة ١١٩٥ هـ توفي الشيخ عباس العلي .

واقعة دير القمر

وفي يـوم السبت ١٤ من ربيع الأول ركب الشيـخ نـاصيف والشيـخ حمـد العباس مع الجزار والأمير يوسف على الشـوف وكان ذلـك في ٢٧ شباط وبمجـرد وصـول الخبر إلى أهـالي الشوف فـروا هاربـين حذراً من سـطوة الشيخ نـاصيف وجعل الأمير يـوسف يهدم الـدور والقصور في المختـارة ، وبعذران ، وأمـا أولاد الشيخ علي جنبـلاط فقد نجـوا بأنفسهم وتـركوا جميـع أثقالهم وفـروا إلى الريحـان ورجعوا خفية إلى عند فقهاء بيت الحرفي جبع ليتشفعـوا لهم عند الشيـخ ناصيف فأجابهم الشيخ ناصيف بأن هذا الأمر يرجع للدولة ووعـدهم ببذل المجهود. ولما راجع الجزار في ذلـك أجابـه لِمَا يـريد بشـرطين أولهـا دفع ألف وخمسمـائة كيس وثانيهما إسكانهم في المكان الذي ترغب فيه السلطة وكانت هذه الغزوة أول غزوة يدخل فيها الجيش العاملي دير القمر محتلاً ولم يدخلها قبل هذا إلا ناصيف باشـا سنة ١١٢٣ هـ . وأخذ زوجة الأمير حيدر أم الأمير ملحم[1] .

---

(١) الركيني في جبل عامل في قرن ولا بأس بنقل قـطعة من كـلام الركيني لأن فيها صـورة عن ذلك العهد قال : وصل العسكر ـ يعني عسكر الشيخ ناصيف ـ إلى جزين فحين وصل الخبر إلى أهالي الشـوف ، بوصـول عسكر الـذين قلوبهم بحب الله مشغوف ، زعق في الشـوف غراب البـين ، ونـادوا باجمعهم من أين إلى أين ، ووقـع فيهـا الـرحيـل والشتـات ، وخـرجت المخـدرات ، في البراري هائمات ، والرجل يفر من أمه وأبيه وأخيه ، وصاحبته وبنيه خوفاً من المنيـة تلتقيه . . . وأرسل الأمير يـوسف . . . إلى الشيخ نـاصيف المؤيد المسـدد . نطلب من الله العـظيم وشعيب النبي الكريم ، أن لا يعدونا صاحب الهمة العلية ، والنفس الزكية الـرضية ، إن رأيتم لائقـا في غيـرنا غـير مأمـور على جنـابكم الشريف تكفـوا العسكر عن القتـل والنهب والحريق لأن البـلاد =

وفي هـذه السنة ركبت خيـل المتاولـة أجمع مـع الأمير إسمـاعيل عـلى دولة الشام وكان الركوب يوم ٢٠ من ربيع الثاني وذكروا أنها حدثت واقعة عظيمة بين والي الشـام ودروز راشيا في أرض الـظهر الأحمـر وفي هذه السنـة في جمـاد الأول ركبت خيل المتاولة أجمع مـع الامير يـوسف ابن الأمير ملحم الشهـابي إلى البقاع على أخيه الأمير السيد أحمد ، واشترك والي الشام والجزار في هذه الحرب ويـظهر من عبارة الـركيني أن الجزار كـان مع الأمـير يوسف ووالي الشـام كان مـع اخيه الأمير السيد أحمـد وفي ٢٩ رمضان من هـذه السنة قيـل إن الشيخ نـاصيفاً كبس قريتين من الحولة ونهب مواشيهم[١] .

واقعة يارون

استشهاد شيخ مشائخ عاملة وحاكم البلاد الشيخ ناصيف النصار ـ

استشهـد نـاصيف نصـار نهار الاثنـين خـامس شـوال سنـة ١١٩٥ هـ[٢] والسبب في ذلك أن الجزار بعد استيلائه على فلسطين وبعد الجـرائم التي ارتكبها فيهـا تيقن أن زعماء عـاملة وجبال الـدروز سوف يثـأرون لإخـوانهم ويـأخـذون الحيطة لأنفسهم وأنهم يستفرصون الحوادث ، لـذلك أصبـح منتهى همه امتـلاك بلاد عاملة ، لأن الـدروز كفوه مؤنـة أنفسهم بسبب الفتن الداخليـة التي كانت قـائمة بينهم عـلى ساق لـذلك كـان أمرهم هينـاً ، أضف إلى ذلك أنـه إذا ابتدأ بمحاربة الدروز سوف لا يتركهم العامليون لأنهم عالمون بالنتيجة ، والدروز على العكس لأن الخلاف الذي بينهم يمنعهم من معاونة الجيران . جعل الجـزار يفرغ جهده في امتلاك بلاد بشارة وكان المتاولة متحصنين في القلاع مستعدين للقتال ، وهـم ثـلاث قبائـل تحت رياسـة ثلاث عـائلات وهم بنـو علي الصغـير ومقدمهم

= بلادكم ، والرعية رعيتكم ، وأمر جنابكم ماض علينا في الرخا والضيق . . . إلى أن يقول وكـان قائلهم ـ يعني متكلمي الدروز وعقالهم ـ يقول والله سيدي شعيب إن مثلنا مـع بني متوال كمثـل السمرمر مـع الجراد إذا حضـر واحد منهم يهرب منه ألف إلى آخـر هذا الحـديث كله على هـذا المنوال وهو مملوء بالدعاء لناصيف مما يدل على أن القلوب كانت تهجس بالعواقب .

(١) الركيني .

(٢) الركيني ومروة .

الشيخ ناصيف النصار وإخوته ، وبنو منكر فريق منهم مقدمه الشيخ محمد الحسن وعشيرته والآخر مقدمه الشيخ حيدر الفارس ، وكان عندهم أبطال لا تطاق في الحروب وكان قد جرى بينهم وبين الجزار وقائع كثيرة ولم يظفر منهم بطائل فجهز لهم في هذه المرة عسكراً عظيماً(١) وساقه عليهم بغتة ، وعندما قارب حدود البلاد جاء النذير إلى قلعة تبنين فخف الشيخ ناصيف إلى المقاومة بمن معه داخل القلعة وهم سبعمئة فارس لا غير من دون أن ينتظر اجتماع بقية القوات المرابطة في بقية القلاع فالتقى بعساكر الجزار الجرارة قرب قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة فاقتتلوا قتالاً شديداً كاد أن يأتي على الجمعين ويفني الفريقين وكان ناصيف يباشر الحرب بنفسه وبينما هو يجالد الفرسان ويطاعن الأقران وإذا بالقدر يرف فوق رأسه وعندما حمل على فارس كان يبارزه في المعركة وإذا بفارس آخر زنجي أطلق عليه الرمح فأصابه بجرح فثبت له وانثنى كارّاً عليه وضربه بالسيف فقتله ، وبينما هو كذلك وإذا بثلاثة فوارس آخرين قد هجموا عليه ، فأراد أن يلوي عنان جواده نحوهم فزلت نعال الجواد على بلاطة ، صخرة مستوية ، فسقط هو والجواد فحمل عليه أولئك الثلاثة وأطلق أحدهم الطبنجا فأصابته وطعنه الآخر في صدره فغودر عند ذلك قتيلاً ، وقضي الأمر بين الفريقين وحمل ودفن إلى جانب قرية يارون ؛ ولم يزل الناس يتبركون بقبره وبزيارته كما يتبركون بزيارة الشهداء. هذه رواية شبيب باشا(٢) وأما مروة فإن روايته مضطربة لأنه مرة يزعم أن عسكر الجزار كان متوجهاً إلى حاصبيا فظن ناصيف أنه يريد بلاده فخف لمقاومته وأخرى يزعم أنه دخل البلاد عن مؤامرة

---

(١) الشهابي ص ٨٤١ وقد وقع منه هنا عدة اشتباهات منها أنه جعل الحادث سنة (١١٩٧ هـ) ومنها أنه جعل مقتل الشيخ أبي حمد في هذه الموقعة لأنه قال وحمل الشيخ ناصيف في مقدمة العسكر فأصابته رصاصة في رأسه فقتل ثم قتل أخوه الشيخ أبو حمد وكان يعد في الحرب بألف فارس ومنها أنه قال إن الجزار احتل قلعة هونين ويونين والصواب أنه احتل قلعة تبنين ومنها أنه ذكر أن الزعماء كلهم اشتركوا في حرب الجزار ومؤرخوا العامليين على خلاف ذلك كما ستعرفه إن شاء الله تعالى .

(٢) في ديوانه ص ٢٧ وأما الشهابي فانه يقول حمل ـ ناصيف ـ في مقدمة الجيش فأصابته رصاصة في رأسه فوقع قتيلاً .

بينه وبين الشيخ قبلان رجاء الاستئثار بحكم البلاد[١] ولما استشهد ناصيف حزنت عليه بلاد عاملة بأسرها وحوصرت قلعة الشقيف شهرين وكان فيها الشيخ حيدر الفارس ، أخو الشيخ علي الفارس ، ثم سلم بعد الشهرين وهدم الجزار قلعة الشقيف وهرب المشائخ إلى بلاد بعلبك وهرب الشيخ قبلان وإخوته إلى الشام . وجعل الأمير اسماعيل يقبض أتباع مشائخ عاملة ومعتمديهم ويسلمهم للجزار ويعرفه بهم ويغريه فيهم ، ووضعت الدولة الضرائب على البلاد فجعلت تجمع الأموال والخيل والسلاح ، وارتكب الأمير اسماعيل فضائح جمة في هذا السبيل وكانت هذه السنة سنة خوف وجزع وذعر شديد[٢] وهل قتل الشيخ حيدر الفارس بعد التسليم أولا ؟ وهل كان العامليون بعد استشهاد ناصيف مشغولين بالمقاومة والدفاع عن إخوانهم المحاصرين أو أنهم اشتغلوا باقامة المأتم ووقفوا ينتظرون عاقبة الحصار ؟ وهل اشترك الشيخ قبلان في الدفاع أولا ؟ كل ذلك لم يحدثنا عنه التاريخ ؛ ولم يزل في مرحلة البحث والتنقيب ولكننا نستقرب من توجه التهمة نحو الشيخ قبلان بالمؤامرة مع الجزار أنه لم يشترك في هذه الحرب ، ولكن هزيمته مع إخوته إلى الشام تدل على أن حاله حال بقية المشائخ ، ولعل خصومه من أتباع ناصيف وجهوا اليه هذه التهمة ليصرفوا أنظار الشعب عنه فتكون لعبة سياسية محضة وهل احتلت قلعة تبنين بعد قتل ناصيف بلا فصل أو لا ؟ وهل احتلت القلاع التي بيد قبلان وإخوته بعد ذلك بلا فصل أو لا ؟ ذلك أمر لا نعرف عنه شيئاً كما لا نعرف عن المناكرة وقلاعهم شيئاً غير الكلمة الآنفة التي حكيناها عن الشهابي : ويظهر من استقراء الحوادث أن البلاد لم يكن فيها بعد ناصيف زعيم مطاع تخضع اليه ؛ وتعتمد عليه ، وأن أنظار الشعب لم تكن متوجهة إلى شخص بعينه ؛ ويظهر أن الأنانية وجدت مستنقعاً يساعدها على النمو ، وأن ذلك كله أوجب سكون الزعماء

---

(١) قال مروة ما لفظه : وفي سنة ١١٩٥ هـ . أرسل الجزار عساكر إلى حاصبيا فجاء إلى بارون فظن أهل بلاد بشارة أن العسكر يريدهم فحضر ناصيف وصارت وقعة ناصيف وحربت البلاد وقيل إن عسكر الجزار حصر البلاد بواسطة صاحب قلعة هونين وصار قتل ناصيف بو سعته وظن أن البلاد تصفى له فلم يبق على أحد منهم أ هـ .

(٢) ملخص عن جبل عامل في قرن الركيني .

ومحافظتهم على السلامة ، وقد خسروا بأجمعهم معاني الحياة بأسرها ، لقاء المحافظة على معنى واحد من معانيها وهو الرئاسة . وتزعيم الشيخ حمزة في سنة (١١٩٨ هـ) مع وجود الشيخ قبلان يدلنا على أن الأنظار كانت مصروفة عنه ، وأنها لم تكن مصروفة إلى شخص بعينه وأن أولاد ناصيف وأشباههم لم يكن لهم اللياقة الكافية وربما يكون عدم تقديم الشيخ قبلان ناشئاً عن عدم موافقته على الحرب فان قبلان كان أنبل شخصية بعد ناصيف ولكنه لم يكن ليركن للزعماء ولم يكونوا ليركنوا إليه وقد كان في أيام ناصيف متحيزاً عنه ، وكان الزعماء كلهم إلى جانب ناصيف ، أضف إلى ذلك كله أن حركات قبلان تدلنا على أنه كان شديد الاتزان ، لا يهون عليه إهراق الدماء ، وكان يتمنى الحكم المطلق من طريق السلم ويهوى دفع الشر بيد غيره . . . !

مراثي ناصيف

لم يصلنا شيء من مراثي ناصيف ذلك لأن الظرف الذي خيمت به المصيبة على عاملة أعقبته مصائب جمة أنست الناس كل شيء ، وإن كنا نعتقد أنها لم تنسهم ناصيفاً، وأن قلوبهم الدامية ظلت تقيم له المآتم نحواً من نصف قرن وأنها كانت تؤبنه بالذكريات الدامية ، والزفرات الحارة وقد نظم الشيخ إبراهيم يحيى وهو شاعر عاملة في ذلك العهد واحد المشردين عدة قصائد يرثي فيها عاملة ، ويبث بها صدى ذكرياته المؤلمة قال مؤرخاً شهادة ناصيف:

قتل ابن نصار فيالله من ... مولى شهيد بالدماء مضرج
وتداولتنا بعده أيدي العدى ... من فاجر أو غادر أو أهوج
هي دولة عم البلاد الظلم في ... تاريخها والله خير مفرج[1]

وله من قصيدة بعد تشريده يشرح فيها ما جرى على عاملة بعد ناصيف :

يقولون بُعد الإلف أعظم شدة ... وقربُ العدى عندي أشدُّ وأعظمُ

(١) قال الأمين في الأعيان والصواب بغير الواو . قلت التاريخ زائد حتى لو كان بغير الواو . والصحيح أن لفظة الجلالة لا تحسب بلامين بل بلام واحدة مشددة ، والتاريخ غير مستقيم على كل حال .

يعـز علينـا أن نـروح ومصـرُنـا　　لفـرعـون مغنىً يصـطفيـه ومغنم
وكـان لهـا مـن آل نـصـار صـارم　　صـقيـل وسـهم لا يـطيش ولهـذم
جـواد جـرى والسـابقـين إلى العـلى　　فجـاز مـداهـا والكـرام تجمجـم
ولا أمتـري أن الأنـابيب فضـلهـا　　جـليٌّ ولـكـن الـسـنـان المـقـدم
قضى في ظـلال المرهفـات مـطهـراً　　وأي شـهـيـد لا يـطهـره الـدم
فقـدنـاه فقـدان الصبـاح ومن لنـا　　بـطلعته الغـراء والـدهـر مـظلم
فجعنـا به والشمس في رونق الضحى　　فـلم نمس الا والـبـلاء مخـيـم
وعـاثت يـد الأيـام فينـا ومجـدنـا　　وبـالـرغـم مني أن اقـول مـهـدم
ولست تـرى الا قـتيـلاً وهـاربـاً　　سـليبـاً ومـكبـولاً يـغـل ويـرغـم
وكم عـالم في عـامـل طـوحت بـه　　طـوائـح خـطب جـرحهـا ليس يلئم
وأصبـح في قيـد الهـوان مكبـلاً　　وأعـظم شـيء عـالم لا يـعـظم
وكم من عـزيز نـاله الضيم فـاغتدى　　وفي جيـده حبـل من الـذل محكـم
وكم هـائم في الأرض تهفـو بلُبـهِ　　قـوادم أفـكـار تـغـور وتـتـهـم

وهي طويلة وله ثانية مشهورة تقترن على السنة الأدباء بحادثة الجزار أولهـا :

مـن لي بـرد مـواسـم الـلذات　　والـعـيش بـين فـتى وبـين فـتـاة
ورجـوع أيـام مـضـين بـعـامـل　　بـين الجبـال الشـم والهـضبـات

صفحة مطوية من تاريخ جبل عامل النضالي[1]
مقاومة سياسة الجزار التدميرية ١٧٧٥-١٧٨٥م

الموقع :

كان جبل عامل يشكل القسم الثاني من ولاية(*) صيدا ، وامتدت حدوده من نهر الأولي شمالاً حتى الرأس الأبيض جنوباً ، ومن البحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة بعرض ثمانين كلم شرقاً . وهي منطقة منبسطة تشمل هضاباً وسهولاً داخلية وساحلية وتخترقها أنهار وجداول .

وفصل مجرى نهر الليطاني هذه البلاد إلى قسميه جنوبيه وشماليه ، ضم القسم الأول منها مقاطعات تبنين وهونين وقانا ومعركة ، أما الشمالية فهي الشقيف والشومر والتفاح .

وقد كان لتكوين جبل عامل الطبيعي وموقعه ، أثر هام في تطور حياته

---

(١) وجدت كراسة موضوعة على المنضدة التي استعملها شبه مكتب لي وكان تتابع اعمالي يمنعني من فتحها والاطلاع عليها . وبعد أكثر من سنتين ، اطلعت عليها فوجدتها من أثمن ما يتعلق بتاريخ جبل عامل منذ شوال سنة ١١٩٥ هـ ١٧٧٥ م .
وهذه الكراسة - كما يظهر - اطروحة وضعها الدكتور حسين سلمان سليمان او مقال نشره في احد اعداد مجلة « تاريخ العرب والعالم » وفيها بعض الاشتباهات التي لا يسعني فعلاً تفريغ الوقت لإيضاحها .
ولا أعرف عن هذا الفاضل المحقق اكثر من ذلك ولكنه يستحق الشكر والتقدير .

(*) امتدت ولاية صيدا في تلك الفترة الزمنية من جسر نهر الكلب حتى جبل الكرمل .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فموقعه كحلقة اتصال بين جبل الدروز وفلسطين وسوريا ، جعله يتأثر إلى حد كبير بتقلبات ميزان القوى في المناطق المجاورة له ، فتوزعت قراه في الداخل وعلى هضاب هذا الجبل ، بعيداً عن الساحل حيث الصراع على امتلاك مراكز التقاء المواصلات الداخلية . كما كان لهذا الموقع أثره على السكان ، فكون هذه البلاد تشكل حلقة اتصال مع جيرانها ، حتم عليها الاستفادة من النهضة الاقتصادية التي شهدتها قراهم في القرن الثامن عشر ، فنتيجة لنجاح زراعة القطن والتبغ ومن ثم حصولهم على التزام مرفأ صور سنة ١٧٥٩م، سعى زعماء تلك البلاد إلى مضاعفة قوتهم العسكرية وزيادة نفوذهم السياسي ، فاهتموا بتحصين القلاع والحصون المنتشرة في ربوع وشواطىء بلادهم ، كقلعتي الشقيف وتبنين وغيرهما نظراً لما تتمتع به هذه القلاع من أهمية ستراتيجية .

وكانت مدينة صور بمثابة سوق لجبل عامل ، والمنفذ البحري الذي يصدر منه السكان منتجاتهم الزراعية إلى الخارج ، ويستوردون عن طريقه ما يحتاجون من سلع . ويكتنف المدينة سهل خصب مروي كان يزرع بالقطن والذرة والشعير والقمح والتبغ ، ونظراً للرواج الذي كانت تلقاه السلعة الأخيرة في دمياط ، اهتم السكان بزراعتها للغاية .

السكان :

ومعظم سكان جبل عامل من الشيعة الامامية « الاثني عشرية » باستثناء بعض القرى المسيحية وتبلغ نسبتهم العشر تقريباً . وعرفت هذه البلاد في العصور الحديثة باسم بلاد بشارة ، و« بلاد المتاولة » ، منذ أن أطلقت هذه التسمية على شيعة هذه البلاد ، وقد راجت التسمية الأخيرة بين القناصل الأوروبيين ، في التقارير التي كانوا يرسلونها إلى حكوماتهم (Pays du Mutualis) .

وكان يحكم هذه البلاد في القرن الثامن عشر مجموعة من المشايخ الاقطاعيين المتاولة ، يتولى كل منهم ادارة احدى مقاطعاتها . ويقيم فيها مع

اتباعه المزارعين ، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه ، في مأمن بعيداً عن أي تصد مفاجىء من قبل السلطات العثمانية . وينتمي هؤلاء المشايخ إلى ثلاث عائلات اقطاعية ، كانت لها السيادة الأولى في جبل عامل ، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف وبنو منكر في الشومر والتفاح وبنو علي الصغير في بلاد بشارة ، وكانت زعامة البلاد في البيت الأخير .

وكان بإمكان كل شيخ أن يجند عند الحاجة من مئتين وخمسين إلى ثمانمئة رجل ، إذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها ألفان وخمسمائة خيال . وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة تقريباً(١) . وقد اشتهروا بشجاعتهم في كل سوريا ، وعند الحاجة تصدر الأوامر إلى جميع القرى بالاستعداد للمسير ضد الأعداء والوحدة الدينية تكاد تكون هي الرباط الوحيد لاتحادهم السياسي ، وأشار الدبلوماسي الفرنسي (Paradis)(٢) بأنه شاهدهم يقاتلون بترتيب ونظام ، مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً . ويخضع هؤلاء المشايخ لسلطة شيخ أعلى يدعى « شيخ المشايخ » ، يقيم في قلعة تبنين ، أمنع مواقع هذه البلاد ، يجمع الميري منهم ومقدارها مئتا كيس ويدفعها لوالي صيدا ، وكان يأتي في الأهمية بعده الشيخ قبلان حاكم مدينة صور . وحين كانت تسوء علاقة هؤلاء المشايخ مع الباشا العثماني ، كانوا يتمنعون عن دفع الضريبة ويهددون بالاصطدام مع قواته ، وقد نقل الينا القنصل الفرنسي في صيدا صورة لعصيانهم ، ومدى ضعف سلطة الوالي عليهم .

---

(١) تباينت الأرقام لدى مؤرخي هذه الفترة . راجع : فرنسوا فولني . سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر . تر . حبيب السيوفي . أنظر ج ١ ص ٦٣ ؛ عبود الصباغ . الروض الزاهر في تاريخ ظاهر . مح . مسجل في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت ، تحت رقم (M.S/956/Z/mA) أنظر ص ١١ . Marity, Giovani Abbé. Voyage dans L'isle de Chypre, La Syrie et la Palestine avec L'histoire générale du levant; tradui de l'italien. voir V.2 p.26.

اعتمدنا على تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٥ تاريخ ١٧٧٢/٦/٢٨ .

(٢) Paradis (Jean Michel Venture de) Mémoires sur les Druses peuples du Liban. = MS. publié dans (Les Annales de voyage), T.IV p.334.

« . . . طلبت من الباشا الحاكم أن ينصفني ، لكنه أبدى لي استياءه من تصرف هذا الشيخ المتمرد (أي ناصيف النصّار) الذي يتمنع عن دفع الميري المتوجبة للسلطان . . . »[1] .

« . . . أرسل الشيخ (أي ناصيف النصّار) مائة وخمسون فارساً لمصادرة البضائع ، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا اذا حاولت منعهم . . . »[2] .

وتحالف زعماء هذه البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مع قوى محلية تمردت على السلطة العثمانية في بلاد الشام الجنوبية ومصر (ظاهر العمر وعلي بك الكبير) ، فانزلوا معاً هزائم مذلة بقوات كل من والي دمشق وأمير جبل الدروز يوسف الشهابي ، لكن ما لبث هؤلاء الزعماء أن سقطوا الواحد تلو الآخر .

أحمد باشا الجزار والي صيدا

وبنهاية الشيخ ظاهر العمر في أواخر آب (أغسطس) سنة ١٧٧٥ استولى الأميرال العثماني حسن باشا على عكا وحكمها بنفسه ، ومع اقتراب عواصف الخريف فكر الأخير في سلامة أسطوله الراسي في ميناء حيفا الغير أمين . وفي هذه الاثناء وصل إلى عكا محمد باشا العظم ، واقترح على الاميرال جعل ميناء عكا تابعاً لادارة والي صيدا ، وكاد أن يتم ذلك لو لم يصل أحمد(*) بك الجزار إلى عكا في التاسع عشر من أيلول (سبتمبر)، فسلمه القبطان بنفسه ادارة المرفأ وجعله محافظاً للمدينة ، ولم يكن يحمل في ذلك الوقت رتبة الذيلين(*) ، وعين الأميرال والياً على صيدا محمد ملك باشا .

= الذيل أو الطوخ عند الأتراك العثمانيين ، مرزاق في رأسه كرة مذهبة يعلوها هلال وتعلق تحت رأس الكرة خصل من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر ، وكان لكبار رجال السلطنة العثمانية اطواخ بحسب مراتبهم فللسلطان سبعة اطواخ وللوزير ثلاثة اطواخ وللوالي العادي طوخان .

(*) احمد باشا الجزار من مواليد البوسنة ، اشتراه علي بك الكبير وجعله جلادا فلقب بالجزار .

(١) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB 1) سجل رقم ١٠٣٠ تاريخ ١٧٥٥/١١/٤ .

(٢) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (J) ملف ٧٩٥ تاريخ ١٧٥٤/١٢/٤ .

وعنـد استلام محمـد ملك باشـا مهام ولايتـه الجديـدة ، حاول أن يجمـع الميري المفروض على جبل عامل ، لكن مشايخ هـذه البلاد امتنعـوا عن اعطائـه سوى ما كانوا يدفعونه سابقاً ، وهو أقـل بكثير ممـا طلب منهم . وظلت المنطقـة الواقعة خلف عكا في الداخل ، وأغلب الجليل تحت سلطة أبناء ظاهر ، وخشي السلطان العثماني أن يبقي الميناء في عـزلة عن المنـاطق الداخليـة ، فقرر تـوسيع وظيفة الجزار وترقيته إلى رتبة أعلى .

وفي الثامن عشر من كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٧٧٥ نقل محمـد ملك باشا إلى ولاية مرعش ، وحضر بعد ذلك بيومين فرمان بترقية الجزار إلى رتبة بيلر بـك ولاية صيـدا (أي باشـا بـذيلين) ، وبـدلاً من أن يحضـر ليقيم في مـدينـة صيدا ، أرسل اليهـا متسلماً من قبله ، في حين بقي هـو في عكا وجعلهـا مركـزاً للولاية .

ما هي الأسباب التي دفعت الوالي الجديد إلى التخلي عن مـدينة صيـدا ، التي تعـاقب جميع البـاشوات الـذين حكموا الـولاية ، عـلى الاقامـة فيهـا وادارة الحكم منها منذ تاريخ انشائها ؟

الـواقع أن أحمـد باشـا الجزار كـان عـلى معـرفـة تـامة بمـا يصيب الـولاة العثمانيين ، حين تشعر الدولة بأنهم قد أثروا وأصبحوا يشكلون خـطراً عليها . ونظراً لأنه كان قد قرر في قرارة نفسه ، أن يحتفظ بمنصبه بـارادة الباب العـالي أو رغماً عنه ، وبما أن عكا كانت منيعة الجانب نظراً لما أقامـه فيها ظـاهر العمـر من أسوار وتحصينات ومدفعية ، في حين كانت صيدا مهددة من كل الجوانب وبدون تحصينـات ، فهي لا تناسب مخـططات البـاشـا ، فـاختـار الأولى لتكـون لادارة الولاية .

وما لبث أن رقي الجزار إلى رتبة الذيل الثالث ، وامتـلأت خزائنـه بالمـال وأمن القوة العسكرية اللازمة لفرض هيبته على رعاياه ، فلم يبق أمامه سوى هم واحد وهو التخلص من أبناء الشيخ ظاهر العمر ، فقـد كان يشعـر بأنـه ما دام

هؤلاء أحراراً فلن يجد الراحة. وكانوا قد حاولوا أن يفرضوا حصاراً اقتصادياً على عكا ، فمنعوا وصول المؤن اليها من البر ، لعل ذلك يدفع الجزار إلى التخلي عنها لكن الأخير صمد . وحين عين والياً على صيدا أصبح شرعياً سيد الجليل ، وكان على يقين تام بأنه إذا لم يتخلص من أبناء ظاهر فستظل سلطته اسمية .

وبدلاً من أن يجهز حملة مباشرة لتصفية اخصامه هؤلاء ، سعى إلى اضعافهم عن طريق التفرقة فيما بينهم ، بالرغم من أن ذلك مخالف لأوامر الباب العالي ، وحاول أن يكسب بعضهم إلى جانبه ، عن طريق الخداع والمسالمة والصداقة والعروض السخية ، وسمح لهم ولأنصارهم بدخول عكا والخروج منها ساعة يشاؤون ، بل ذهب بعيداً إلى حد الاعتراف رسمياً بهم حكاماً على المناطق الخاضعة لهم .

وكان الشيخ علي ظاهر العمر هو العقبة الكؤود التي واجهت الجزار ، فقد كان من أقدر المحاربين ويقود قوات كفؤة وتثق به ، وقد انتصر بها في معارك عديدة . وتأكد للباشا بأنه لن يتمكن من أن يكون سيد ولايته ما لم يتخلص من هذا الشيخ ، وتمكن بوسائل متعددة أن يجرد الأخير مساندة أخوته ، وفي شهر حزيران (يونيه) سنة ١٧٧٦ كتب الجزار إلى الباب العالي يبلغه بأن عثمان وأحمد وسعيد ، قد استجابوا لنداء الأمان .

وبعد أن جرد الجزار الشيخ علي الظاهر من مساندة اخوته ، سعى إلى كسب مشايخ جبل عامل نظراً لما يتمتع به هؤلاء من قدرة قتالية ، فانتقل إلى مدينة صور واجتمع إلى حاكمها حمد العباس ، ثم حضر اليها ثانية واجتمع مع الشيخ ناصيف النصّار ، ويبدو بأنه قد تصالح مع العامليين في هذه الاجتماعات ، ودليلنا على ذلك مرافقة هؤلاء للباشا في حملته التي كان يستعد لها .

وبتخلص الجزار من خطر الشيخ المذكور ، شعر بأنه لم يعد بحاجة إلى باقي أخوة الأخير الذين تعاونوا معه ، فقبض عليهم وسجنهم مع أولادهم

ونسـائهم ثم تخلص منهم تباعـاً . وحين رأى العـامليون مـا حلّ بـأبنـاء ظـاهـر العمر ، توقعوا أن تكون الحملة التالية عـلى بلادهم ، فـانسحبوا اليهـا وحشدوا حصونهم بالمقاتلين والأسلحة واستعدوا للقتال . وبالفعل فقد صدق حـدسهم ، فما لبث القبطان حسن باشا أن قـرر الاستفادة ، من الـرعب الذي ألقـاه جنوده وبحارته في بلاد الشام ، لتحصيل الأموال الأميـرية المتـأخرة المستحقـة للدولة . فاتفق مع والي صيـدا بتجهيز حملة عـلى جبل عـامل ، لتهـديم قلاعـه وحصونـه وجمـع الميري من ملتـزميـه . لكن مشـايـخ الجبـل اتفقـوا عـلى تجنب العـاصفـة القـادمة ، التي قـد تسبب في تـدمـير ونهب بـلادهم والقضـاء عليهم ، فقـرروا مفاوضة الأميرال العثماني.

وخشيـة أن يصيبهم ما أصـاب أبنـاء ظـاهـر العمـر ، إذا حضـروا لعكـا للتباحث حول شروط الصلح ، تطوع الشيـخ قبلان للقيـام بهذه المهمـة ، فقدم إلى عكا بالنيابة عن باقي المشايخ ونجح مسعاه في الوصول إلى الاتفاق التالي .

أولاً : أن يقف زعماء جبل عامل على الحياد بين المتنازعـين على النفـوذ في المنطقة .

ثانياً : أن يدفعوا الميري بصورة منتظمة وتقسيط المتأخر منهـا على الشكـل التالي .

(أ) أن يفـوا فوراً أي في شهـر أيلول (سبتمبـر) سنـة ١٧٧٦ مبلغ ١٥٠ كيساً(*) .

(ب) أن يدفعوا ١٥٠ كيسـاً خلال سبعـة أشهر و٣٠٠ كيسـاً خلال سنـة ١٧٧٧ .

ورضي الأميرال عن هذه الاتفاقية ، ووجدت هوى في نفسه وحفظت ماء وجهه ، لأنه كان يخشى مهاجمة جبل عامل ، نـظراً لانتشار القـلاع والحصون في

(*) اعتاد العثمانيون في معاملاتهم استخدام الكيس ، وهو يتسع لمبلغ مقداره ٥٠٠ قرش .

ربوعه ، وما عرف عن سكانه من شجاعة وفروسية ومهارة في القتال وتعلق بالحرية . وفكر بأنه قد يلاقي نجاحاً أكثر مع أمراء ومشايخ جبل الدروز ، وطلب من زعماء عاملة الاشتراك بقواتهم في تلك الحملة . لكن هؤلاء اعتذروا للأسباب التالية .

أولاً ـ وجدوا أن مصلحتهم تقضي بأن يبقى جبل الدروز متمرداً على الوالي ، فخضوع وولاء هذه البلاد للسلطة ، سوف يؤدي بهم إلى العودة لحياة الكر والفر ، التي كانت سائدة قبلاً في النصف الأول من القرن الثامن عشر بين جبل الدروز وجبل عامل ، حين كان ولاة صيدا يحرضون الأمير الشهابي الحاكم الزحف على قرى عاملة ، كلما امتنع سكانها عن تلبية طلبات الباشا الابتزازية . فإذا تمكن العامليون في ذلك الوقت من الصمود ، ومنعوا أمراء ومشايخ جبل الدروز من تحقيق أي نصر نهائي ، فمرده إلى عدم وجود أي خطر قائم على حدودهم الجنوبية ، لأن ظاهر العمر كان في ذلك الوقت منهمكاً في اقامة دولة قوية في الجليل ، ثم ما لبثوا أن تحالفوا معه .

ثانياً ـ تبدل الوضع على حدود جبل عامل الجنوبية ، فقد أقام الجزار دولة قوية مرهوبة الجانب ، تمكنت من تدمير دولة ظاهر العمر أعني قوة سياسية في بلاد الشام خلال الربع الثالث من القرن الثامن عشر .

ثالثاً ـ الاشتراك في الحملة المرتقبة على جبل الدروز يحتاج إلى مصاريف باهظة ، هم في غنى عنها الآن لأنها لن تعود عليهم بالنفع ، بل بالعكس سوف تؤدي إلى مضاعفة نفوذ والي صيدا .

رابعاً ـ كانوا على ثقة تامة أن نجاح حملة الباشاوات على جبل الدروز ، وارتفاع هيبة والي صيدا سوف تدفعه إلى اجتياح جبل عامل ، وفرض سيطرته على هذه المنطقة الفتية .

ويبدو أن الباشاوات قد قبلوا هذا الموقف السلبي من المشايخ العامليين ، ولم يلحوا عليهم في طلب المساعدة ، كما لم يحاولوا تأديبهم على تصرفهم هذا بانتظار فرصة أنسب . وذلك لاضطرارهما إلى نقل الجانب الاكبر من قواتها

الزاحفة على جبل الدروز عبر بلاد عاملة ، ومن الضروري عدم عرقلة سيرها أو التصدي لها في تلك البلاد الوعرة . فقبلا اعتذار المشايخ العامليين ، واكتفاؤهم بالوقوف على الحياد في الصراع المقبل ، وعدم التصدي للقوات المتنقلة في بلادهم إلى جبل الدروز .

وبالفعل فقد احترم العامليون تعهدهم ، وسمحوا للقوات الغازية بالانتقال من عكا عبر جبل عامل إلى صيدا ، ولم يعترضها أحد من سكانه وأقام أحمد باشا الجزار معسكراً عند مدخل المدينة . ثم ما لبث أن حضر اليها القبطان بحراً في ٣ آب (أغسطس) ١٧٧٦ ، وكتب إلى الأمير يوسف يطالبه بالميري ، واستطاع الأخير بعد مصاعب شاقة أن يؤمن له المبلغ وانتظره في بيروت ، لكن عساكر الجزار استولت على المال ، ونهبت وذبحت عدداً من سكان المدينة ، فأثار ذلك غضب القبطان حسن باشا ويؤكد الذين شاهدوه ، بأنهم لم يشاهدوا انفجار غضب يشبه ذلك الانفجار . ونظراً لأنه لم يعد بامكانه العودة إلى عكا واجبار الوالي تسليمه المبلغ ، فقد استدعى الأمير يوسف وترك له الأخير حملاً من الحرير قدرت قيمته بحوالي المليون ليرة فرنسية .

اقتتال في يارون

وشهدت الفترة الممتدة من (١٧٧٦ ـ ١٧٨١) سلسلة من الفتن الداخلية في جبل الدروز ، استفاد منها مشايخ جبل عامل فامتنعوا عن دفع الميري المتوجبة على بلادهم ، وتعدوا على القوافل التجارية التي كانت تجتازها من صيدا في طريقها إلى فلسطين وبالعكس ، فصدر فرمان سلطاني إلى والي صيدا يأمره بالسير على جبل عامل وتدميره للأسباب التالية :

١ ـ تمردهم أيام ظاهر العمر (تعاونهم مع علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب) ، ومشاركتهم في الحملات على والي دمشق (دورهم في هزيمة عثمان باشا الكرجي على جسر بنات يعقوب) .

٢ ـ غزواتهم على منطقة دمشق إذ هاجموها بقوة مؤلفة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ خيال .

٣ ـ امتناعهم عن دفع الميري بالرغم من تعهدهم السابق بدفعها سنوياً .

٤ ـ الاستيلاء سابقاً على أماكن متعددة من ولاية صيدا مثل شفا عمر وحيفا وعكا .

وكان الجزار قد ازدادت ثقته بالتعامل معهم بحزم ، فقرر الاستفادة من الفرمان المذكور لتحقيق عدد من المكاسب:

أولا ـ تعزيز مركزه وزيادة قوته عما كانت في السنوات السابقة ، واقامة حكم مركزي فعال في الولاية .

ثانياً ـ عدم استمرار بقاء مراكز قوى مستقلة ، وحكم ذاتي في المنطقة يعيق خططه تلك .

ثالثاً ـ تحقيق مكاسب مادية ، بالسيطرة على بلاد جبل عامل الغنية بمواردها الزراعية واحتكار تجارتها والاستيلاء على ثروات وكنوز مشايخها .

ونظراً لما يعلمه عن مدى شجاعة وكفاءة السكان القتالية ، ووعورة البلاد وما تتضمنه من حصون وقلاع ، قرر تجهيز حملة قوية قادرة على تحقيق آماله . فجمع قوة تقدر بحوالي الثلاثة آلاف رجل ، وجعلها بقيادة معاونه سليم نظراً لأن الباشا لا يعرض حياته في مغامرة خطرة غير مأمونة العواقب .

وفوجىء الشيخ ناصيف باجتياح قوات الجزار لبلاده ، فخرج على رأس ألف فارس للتصدي للحملة ، والتقى بالعساكر المهاجمة عند قرية يارون الداخلة ضمن بلاد بشارة ، وجرى اقتتال بين الفريقين في ٢٣ أيلول (سبتمبر) سنة ١٧٨١ انتهى بمقتل الشيخ العاملي وحوالي ثلاثمائة إلى أربعمائة من مقاتليه ، من بينهم أخوه الفارس أحمد وعدد من القادة في حين خسر سليم باشا ثلث قواته ، ثم تقدم الأخير بعساكره في بلاد بشارة لتحطيم القلاع السبع الرئيسية فيه (هونين وتبنين ويارون وميس وصربا وجباع وشمع) . واستولت العساكر على ميناء صور .

وخشي مشايخ جبل عامل أن يتعرضوا للذبح والقتل والاهانة عند توغل

قوات الجزار في بلادهم ، ففروا بعيالهم وأنصارهم واختفى بعضهم في بلاد بعلبك لدى مشايخ آل الحرفوش ، والبعض الآخر في بلاد عكار لدى محمد بيك المرعبي (الأسعد)، وقدم اثنان منهم الطاعة للجزار ، في حين صمد الشيخ حيدر الفارس برجاله الستمائة في قلعة الشقيف ، وفشلت جميع جهود الجند لاحتلال تلك القلعة .

وعادت قوات الباشا وهي تحمل معها ثروات هائلة ، جمعوها من مقتنيات مشايخ وسكان جبل عامل التي خضعت لهم وسبى الجند النساء والأطفال وباعوهم في الأسواق للراغبين في الشراء . كما نقلوا كميات كبيرة من مؤلفات ومخطوطات نادرة ، كان قد وضعها علماء تلك البلاد ، الذين غادروها عقب تعرضها للاحتلال ، وتوجهوا إلى البلاد الإسلامية النائية كالهند وايران وأفغانستان ، فقدموا بتعاليمهم خدمات جلّى إلى الإسلام والشيعة الامامية .

وكان فرح الجزار كبيرا بنجاح حملته ، نظراً لأن هذه العملية سوف تكسبه مكانة ونفوذاً في الأستانة وفي ولايته ، لأنه اخضع واستولى على منطقة استعصت على معظم ولاة صيدا ، كما أصبح سيد بلاد مزدهرة وأراضي خصبة غنية، تضم مدينة ومرفأ صور التجاري التي غادرها جميع سكانها ، حين علموا بالنكبة التي حلت بالشيخ ناصيف النصار ، خشية أن تأتي قوات الباشا وتحتل المدينة ، ويصيبهم ما يصيب عادة البلاد التي تجتاحها قوات الجزار ، من قتل وذبح ومذلة ونهب .

وشعر والي صيدا أنه لن يستفيد من أهمية هذه البلاد الاقتصادية ، ما لم يبادر إلى إعادة سكانها لكي يقوم بحمايتها واحتكارها ، لأنها سوف تملأ خزائنه بما سيجمعه من ثرواتها . فحضر إلى صور لكي يؤكد بشخصه ، بقاء كل ما يخص زعماءها ، وتأمين ممتلكات السكان . وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بقولها .

« . . . أذاع هنا وفي كل الأمكنة التي لجأوا اليها ، أن بامكان جميع الذين

خـرجوا العـودة إلى صور دون خشيـة أو خوف ، سـواء منـه أو من أي شخص آخر . . . »[٥] .

واستبـدل الباشـا مشايـخ مقاطعـات جبل عـامل الـذين فـروا من البـلاد بمتسلمين مؤقتين من قبله، لأنه من سياسته عدم ابقاء أحد مدة طويلة في المراكز ذات الأهميـة ، وزودهم بوحـدات عسكريـة قادرة عـلى السيـطرة بفعـاليـة عـلى القرى ، وعامل هؤلاء المتسلمين رعاياهم بقسوة لانتزاع الدراهم التي قد تكـون معهم .

وأظهر السلطان العثماني رضاه الكامل عن عملية تدمير مشـايخ عـاملة ، وأرسل للجزار أحد موظفيـه ومعه هـدية مكـونة من سيف وخلعـة ثمينة ، لكن مظاهر الشرف هذه لم تجعله بعيداً عن مطالبة الباب العالي له ، بتـأدية الحسـاب عن الثروة التي استولى عليها في هذه الحملة .

وقد انعكس تأثير هذه الحملة على تجارة الفرنسيين في صيـدا ، وسببت في بروز عاملين متناقضين الواحد للآخر:

١ ـ تقلص حجم التجارة الفرنسيـة في تلك البلاد ، ولم يعـد يجني التجار الفـائدة نفسهـا التي كانـوا يحققونها ، من استهـلاك المشايـخ لكميات كبيـرة من الأقمشـة والسلع الأخرى ، ولم يعـد بامكـان التجار أن يبيعـوا شيئاً بعـد هـرب هؤلاء .

٢ ـ زادت قيمـة القـطن المغـزول المـرسـل إلى فـرنسـا ، وصـدّر التجـار الفرنسيون في سنة ١٧٨٢ خمسمائة بالـة زيادة عن السنـة التي قبلها ، لأن أحـداً ممن تبقى من السكان لم يعد يجرؤ أن يبدو عليه أي مظهر ثراء ، كما غادر البـلاد عدد كبير من المشايخ الأثرياء ، ورافقهم في هروبهم عائلاتهم واتباعهم خوفاً من الاهانة .

---

(١) مترجم من الباحث عن تقرير القنصـل الفرنسي في صيـدا مجموعـة (AEB 1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢ .

حصار قلعة الشقيف

وبتركيز الجزار لسلطته في مقاطعات جبل عامل ، عاد ووجه عساكره لتفرض حصاراً على قلعة الشقيف التي كان معتصماً بها الشيخ حيدر الفارس مع أتباعه ، وبالرغم من القصف المدفعي الذي كانت تتعرض له القلعة ، فقد صمد الشيخ شهراً كاملاً . ولم تستطع عساكر الباشا تحقيق أي كسب ، بسبب رداءة القنابل المستعملة وجهل المدفعجية بأصول استخدام سلاحهم ، وشجاعة المحاصرين الذين أبدوا بسالة فائقة في الدفاع عن أنفسهم ، خشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ملتهم .

وحين فشلت خطة الباشا لاحتلال القلعة بالقوة ، سعى إلى تحقيق ذلك بالوعود المغرية للأسباب التالية :

١ ـ خشي أن تطول فترة الحصار أكثر ، وما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة .

٢ ـ صمود العامليين فترة أطول يؤدي إلى ازالة الهيبة والمكانة والخوف ، التي كان يثيرها اسمه في ولاية صيدا ، بعد احتلاله حصن دير حنا(*) ، وانتصاره على الشيخ ناصيف النصّار في معركة يارون .

٣ ـ خطر بقاء قواته في هذه البلاد المعادية له ، واقتراب فصل الشتاء وما يصحبه من برد قارس في هذه المنطقة الجبلية .

٤ ـ من مصلحته أن يتم تسليم الحصن عن طريق المفاوضات ، ليضمن سلامة محتوياته من نهب قواته فيما لو سقط عنوة ، لأنه كان يعلم أن القلعة تحوي ثروات هائلة وضعها فيها العامليون ، لانقاذها من أعدائهم نظراً لمناعتها .

وقد أكد هذا الاعتقاد الأخير سلوك الباشا ، الذي حضر شخصياً إلى

(*) حصن دير حنا يقع في فلسطين وكان بمثابة آخر مقر لعصيان الشيخ علي ظاهر العمر .

الشقيف في الرابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨١ ، عندما أكدوا له بأن المحاصرين مستعدون أن يستسلموا له شخصياً ، مما سبب في تذمر قواته التي كانت تمني النفس ، بأنها كما اعتادت ستكون مكافأتها القيام بنهب ما تجده .

واستسلم الشيخ حيدر الفارس ورجاله وسلموا الحصن للباشا ، وكان يقيم فيه ما يقارب ثلاثمائة عائلة أظهر الجميع لهم الاحترام عند خروجهم ، وأعطى والي صيدا تعليمات صارمة بعدم اذية أي فرد من المستسلمين ، بحيث أن أحداً منهم لم يتألم من أي شيء . واقطع للشيخ واتباعه الذين كانوا معه من سكان القرى المجاورة للشقيف والتي كانت قد تدمرت كلياً ـ اقطاعاً ليعيشوا فيه ويكون لهم كملك . وقد اتبع هذه السياسة السلمية ليضمن تأهيل المنطقة بالسكان ، وزراعة الأرض الخصبة التي تحولت إلى بور ، بسبب الهجرة الجماعية التي نفذها الأهالي بعد اقتتال يارون ، وبالتالي ستعود عليه بفوائد اقتصادية عظمى .

الفرق الانتحارية

لكن هذا الشعب الذي اعتاد أن يعيش مستقلاً ، بعيداً عن تسلط ولاة صيدا وأمراء جبل الدروز ، أبى أن يخضع لحكم الجزار وقواته . فما أن عاد الآخر إلى عكا ، حتى هرب معظم السكان حاملين معهم ما استطاعوا حمله ، والتجأوا لدى والي دمشق عدو أحمد باشا التقليدي ، فأقاموا في أمان وطمأنينة ، وقد تم هروب الشيخ حيدر الفارس واتباعه ، بتفاهم سري مع هذا الباشا .

وفي هذا الوقت كان الجزار قد ركز سلطته في مدينة صور ، ووجد شيخ المدينة نفسه وحيداً بعد فراره منها ، وانقطع كل اتصال بينه وبين عائلته واتباعه ، فاضطر أن يدخل في طاعة الجزار . فأمنه الأخير واستقبله بحفاوة لتشجيع باقي المشايخ واتباعهم على العودة إلى مناطقهم ، ومنحه التزام قرى بالقرب من صور مقابل رسم سنوي مقداره ألفي قرش ، وكانت هذه القرى تدر على ملتزمها الجديد دخلاً يمكنه من العيش بيسر .

ومع ذلك فقد ظل هذا الشيخ مع سكان اقطاعه ، يترقبون الفرصة

المناسبة لنيل حريتهم والتخلص من الجزار ، والعودة إلى حكم بلادهم بأنفسهم كما كانوا سابقاً . وظنوا أن حلمهم بات وشيك التنفيذ ، حين بدأت تنتشر في بلاد عاملة اشاعات ، بأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية لتدمير الجزار ، وصار السكان يتصورون أن عزل الباشا سيتم بين لحظة وأخرى .

وفي اليوم الثامن من أيار (مايو) ١٧٨٢ مرّت من أعالي شاطىء مدينة صور ، البارجة الفرنسية الملكلية (Auror) يرافقها سبعة عشر مركباً تجارياً . فظن العامليون أنها حملة القبطان المزعومة ، فأعلنوا عن فرحتهم بدون تحرز ، واتفق الشيخ مع جميع أبناء ملته للانقضاض على قوات الجزار الموضوعة في جبل عامل ، عند أول نبأ عن نزول الاميرال في عكا . ولكن وصلت أنباء هذه المؤامرة إلى مسامع الباشا . فعزل الشيخ واقتيد مع أعوانه مكبلاً بالحديد إلى عكا ، ووضعهم على هذه الحالة في أحد سجونها .

ولما كان الجزار لا يسامح هكذا مؤامرة ، أمر بطرد جميع المتاولة وعاملهم بوحشية متناهية ، أشار اليها المؤرخون المعاصرون .

« . . . ثم آل أمر حريمهم وبقية عيالهم وأولادهم إلى أن داروا في البلاد يشحذون . . . »[1] .

وامتد هذا التدبير بعد توقيف شيخ صور ، على متاولة صيدا التي كان يسكنها عدد كبير منهم ، لكنه لم يلبث أن أعادهم خشية استنكار الباب العالي لهذا العنف نحو شعب لا حول له ولا قوة .

ورغم النكبات القاسية التي نزلت بأبناء جبل عامل ، فقد أبى هؤلاء الاستكانة والاستسلام ، وتمكن الشيخ فارس ناصيف النصّار واخوته وباقي المشايخ الذين فروا إلى بعلبك وعكار ، من تشكيل فرق انتحارية أخذت تتسلل إلى جبل عامل ، وصاروا يكمنون لعمال الجزار وجنوده ، ويفتكون بهم ويغيرون على القوافل التجارية المارة .

---

(١) حيدر رضا الركيني . جبل عامل في قرن مخ . نشرته مجلة العرفان . أنظر م ٢٨ ص ٩٥٢ سنة ١٩٣٩ .

وعـرفت هذه الفـرق الانتحاريـة لدى العـامة بـاسم « طيـاح » أي قـطاع الطرق ، وكانوا يطلبون من البلاد مـال الميري والـذخائـر والمؤن ، فالقـرية التي تدفع المطلوب فيها تسلم من اذيتهم وشرهـم ، والتي تتردد في ذلك أتوا اليها ليلاً ونهبوها وقتلوا مشايخها ، ثم يختفون بسرعة قبل قدوم العساكر .

وفشلت جميـع محاولات الجـزار للايقـاع بهؤلاء الـطيـاح ، وأقـام مـراكـز عسكرية كثيرة كانت تدعى « السردلة » أرسلها للبحث عنهم في بلاد عاملة لكنها كانت تعود خائبة . ثم عين عساكـر من العامليـين أنفسهم ، ومع ذلـك لم يجده ذلـك نفعاً ، لأنهم حـين كانـوا يحضرون للبحث عن المشـايخ العصـاة ، يكـون هؤلاء قد انتقلوا إلى مناطق أخـرى وعرة أو إلى اطـراف البلاد ، في حـين يكون جنود الجزار في أول البلاد ، وأشار إلى ذلك المؤرخ ابراهيم العورة بقوله :

وقد عانت بلاد عاملة كثيراً من هجمات أولئك الطيـاح ، لأنها وقعت بين نـارين نار متسلمي الجـزار وجنوده ونـار الثوار . فكـان الباشـا يرسـل متسلميـه وجنـوده السردلـة لملاحقـة العصاة ، فيعيثـون في البـلاد فسـاداً ويضيقـون عـلى السكان ، ويغير الثوار على القـرى فيسلبون وينهبـون ويحرقـون ما يصـادفهم من أمتعة ، ومن ثم يفرون في بطون الأودية أو يعتصمون في قمم الجبال .

وكان الأهالي يدفعون الميري والذخـائر للمتسلمـين والعساكـر السردلـة ، الذين كانوا يدّعـون بأنهم يحـافظون عليهم من التعـديات ، هـذا إلى جانب مـا كـانت تعانيـه البلاد التي يمـر بهـا هؤلاء من أعمـال السخـرة ومصـادرة الغـلال والمواشي والدواب . كما كانـوا يدفعـون الميري والـذخائـر للمشايـخ المذكـورين وأتباعهـم ، بحجة أن البلاد بلادهم وأهاليها عبيد لهم .

وبعد أن أخضع الجزار جبل عامل ، وأقام ضباطه حكاماً على مقاطعاتـه ، وحكم تلك البلاد حكماً مبـاشراً ، ازدادت مكـانته في الأستـانة . فصـدرت إليه أوامر سنة ١٧٨٤ بتجهيز حملة لتدمـير دولة الممـاليك في مصـر ، على اعتبـار أنه الوحيد القادر على تنفيذ هذه المهمة ، نظرا لثرائه الفاحش وكفاءة ووفرة قواتـه . وفي الـوقت نفسه الـذي تلقى فيه تلك الأوامـر ، وصلته رسـائل من المـماليـك

ينـذرونه فيهـا ، بتنفيذ تعهـداته والتمـرد معهم ضـد السلطان العثمـاني . لكن الجزار تمكن من التخلص من هذا المأزق ، بايهام كلا الطرفين بحدوث تطورات في ولايته ، تستدعي عدم مغادرته لها .

فسعى إلى اثـارة حرب أهليـة في جبل الـدروز ، عن طريق التفـرقة بـين ذوي النفـوذ فيها ، أو التلويـح للطموحـين في الأسـرة الشهـابيـة بمنصب الأمـير الحـاكم ، أو عن طـريق اثـارة الكـراهيــة والعـداء فيـما بينهم بمختلف السبـل والـوسائـل . ووجد في ذلـك فرصـة لتحقيق عدة أهـداف كان يتـطلع إلى تنفيذ بعضها ، منذ أن أوكلت اليه مسؤ ولية الولاية :

١ ـ خداع السلطان والحفاظ على صداقته مع مماليك مصر .

٢ ـ التغلب على مشكلة وعورة الجبل وصعوبة اختراقه .

٣ ـ تنفيذ حلمه القديم بالقضاء على نفـوذ أمراء ومشـايخ جبـل الدروز ، وجعل ضباطه متسلمين على مقاطعاته .

ونجح الجزار باثارة العداء بين ملتـزم جبل الـدروز الأمير يـوسف الشهابي وخاله الأمـير اسماعيـل الشهابي متسلم مقـاطعتي مرجعيـون وحاصبيـا التابعتـين لإدارة ولاية دمشق ، وأمد الأمير الأخير بقوات من عنده ، أقامت معسكراً لها في جزين لكنها هزمت في جباع . وكان ذلك بمثابة الصدمة للبـاشا ، الـذي لم تهزم قواته في كل المعارك التي خاضها ، ففرض حصاراً اقتصادياً على جبل الـدروز ، الذي لا ينتج من الحبـوب الغذائيـة ما يكفي حـاجة سكـانه ، لعله يتمكن عن طريق التجويع تحقيق ما عجـز عنه عسكـرياً أي بتـأليب جميع رعـايا الجبـل على أميرهم حين يشعرون بالجوع ، وبالتالي الضغط عليه لقبول شروط الباشا .

ولم يكتب لهـذه السياسـة النجاح مما دفـع البـاشـا في الأول من حـزيـران (يونيو) ١٧٨٤ إلى تسيير قواته ورجال الأمير اسماعيل نحو جبل الدروز ، ومـا كادت تلك العساكـر تتوغـل وتقيم لها معسكـراً ، حتى جاءهـا أمر بـالانسحاب فوراً ، وسيرها الباشا إلى جبل عامل الذي ازداد فيه نشاط الثوار .

فقد استغل الطياح انغماس الجزار في القتال الدائر بين امراء آل شهاب في الشوف ، وسحبه أعداداً كبيرة من قواته المتواجدة في بلاد عاملة لمساندة حليفيه الأميرين الشهابيين اسماعيل وسيد أحمد . فزادوا من غاراتهم وهجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم ، وتشجع فتيانهم الذين فروا إلى دمشق فحضر حوالي ستماية فارس منهم ، وشكلوا مع الطياح قوة مهاجمة انضم اليها حوالي ألف من فلاحي جبل عامل . وشجعهم الامير يوسف الشهابي وتحالف معهم ، وسهل امدادهم بالسلاح والمؤ ن والمقاتلين .

وتقدم الشيخ عقيل ناصيف النصّار ومعاونه مرعي فدوني ، بهذه القوة في الجبال المؤدية إلى قلعة تبنين ، وكان هدفه استخراج الثروة التي كان قد تركها والده مطمورة تحت شجرة في الحصن ، وكانت قد فشلت جميع جهود الجزار للعثور عليها .

وفوجىء الشيخ الشاب بوجود قوة مسلحة من المغاربة ، كان قد تركها الباشا في القلعة لحفظ الأمن في البلاد المجاورة ، فأفنى تلك القوة ونقل الكنز إلى مكان أمين . ولم يقتل من رجاله سوى أربعة ، ثم غادر القلعة بعد أن ترك فيها حامية من رجاله ، وأحرق ونهب عدة قرى وتابع زحفه نحو عكا .

وأصيب الجزار بالهول حين ترامى اليه ، النصر الذي أحرزته قوات الطياح في تبنين ، وخشي من انتفاضة سكان جبل عامل والتفافهم حول الشيخ الشاب . مما قد يؤدي إلى استقلالهم وتعرض قواته للفناء ، نظراً للتحالف القائم بين العامليين وأمير جبل الدروز ، وما يلي ذلك من قطع الامدادات عن عساكره التي تقاتل في الشوف . فقرر اخماد الفتنة في مهدها ، والحيلولة دون ازدياد نفوذ متمردي جبل عامل بين ابناء ملتهم ، وبالتالي تدهور مكانته بين رعاياه .

أنكر أحمد باشا تعرض قواته للهزيمة في تبنين ، وأطلق في الأول من حزيران (يونيه) ١٧٨٤ مدافع قلعة صيدا ، احتفاء بانتصار جنوده على عصاة جبل عامل. وأغلب الظن بأنه تصرف على هذا الشكل لتأكيد نفي الهزيمة ، إذ

لا يعقل أن تتحرك عساكره من معسكرها على بعد ساعة من صيدا، وتتوجه إلى بلاد عاملة وتحارب الطياح وتنتصر عليهم في خلال ساعتين قبل حلول الظلام.

وعند الساعة الرابعة من مساء الأول من حزيران (يونيه) سنة ١٧٨٤ ، أصدر أمراً إلى القوات التي كان قد سيرها في ذلك اليوم لاجتياح جبل الدروز ، بالانسحاب وأرسلها من جديد إلى جبل عامل . واضطر الأمير اسماعيل الشهابي العودة باتباعه إلى صيدا ، وقصف الباشا أربعة قرى عاملية ودمرها تدميراً كاملاً ، كما تمكنت قواته من الانتصار على الطياح . وفي الثاني من حزيران (يونيه) عرض الباشا رؤوس القتلى المتمردين خارج أبواب المدينة ، كما أمر بخوزقة أحد الزعماء العامليين . قد تصرف بهذا الشكل لتحقيق هدفين مهمين في تثبيت سلطته :

١ ـ اثارة الرعب والخوف لدى سكان الولاية ، فلا يجرؤ أحد على مخالفة أوامره لأن ذلك سوف يكون مصير كل متمرد .

٢ ـ ترهيب أنصار الأمير يوسف فيتخلون عن نصرته .

وبعد أن أعاد النظام في جبل عامل ، ترك والي صيدا جانباً من القوات التي أرسلها إلى هناك للحفاظ على الأمن فيها وسحب ما تبقى لاستخدامه في حملة جديدة على جبل الدروز المتمرد عليه ، وعزل الأمير يوسف الشهابي وأقام عمه الأمير سيد أحمد وخاله الأمير اسماعيل كحاكمين على تلك البلاد ، رغم معارضة جميع السكان واعتبارهم الأميرين المذكورين كمغتصبين للسلطة ، وتوقع القنصل الفرنسي في صيدا أن تفشل الحملة إذا استمر مشايخ الجبل متحدين .

« . . . سوف يصدونه إذا استمروا متحدين . . . »(١) .

وشعر أحمد باشا الجزار بأنه لن يتمكن من تحقيق ما يصبو اليه ، وإذا عاند

(١) مترجم من الباحث عن تقرير نائب القنصل الفرنسي في صيدا مجموعة (AEB1) سجل رقم ١٠٤٠ تاريخ ١٧٨٤/٦/٢ .

واستمر عدوانه فسوف يواجه مخاطر ومضايقات كثيرة وذلك للأسباب التالية :

١ ـ ضآلة حجم قواته البالغ عددها أربعة آلاف جندي .

٢ ـ ضخامة عدد مقاتلي الأمير يوسف البالغ عددهم عشرين ألف مقاتل .

٣ ـ اتحاد أخصامه واندفاعهم للدفاع عن مقاطعاتهم باخلاص وحُسن نية .

٤ ـ صعوبة التوغل في تلك البلاد المغطاة بالجبال العالية ، والتي تخترقها الأودية الوعرة .

فتخلى عن مشروع اخضاع جبل الدروز بالقوة ، وسعى إلى استعمال الحيلة عن طريق استقطاب بعض الزعماء من ذوي النفوذ . ونجحت خطته هذه واضطر الأمير الحاكم يوسف الشهابي إلى التخلي عن الالتزام لصالح خاله الأمير اسماعيل وعمه الأمير سيد أحمد على أن يحكما معاً ، وتعهد الأميران المذكوران أن يدفعا بالتقسيط للجزار ألفاً وثلاثماية كيس . وبالطبع فإن مبلغاً كهذا سوف يجبى من السكان عن طريق استحداث ضرائب جديدة ، لكن أمراء ومشايخ الجبل رفضوا دفعها ، وفشلت كل الجهود التي قام بها الحاكمان بالرغم من مساندة الجزار لهما .

فاستجاب الأخير لنصائح مستشاريه وأعاد في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٧٨٤ الأمير يوسف الشهابي ، ملتزماً على جبل الدروز بالاضافة إلى مقاطعتي حاصبيا ومرجعيون وفقاً للشروط التالية :

١ ـ يتعهد الأمير بأن يدفع للباشا مقابل التزام البلاد المذكورة مبلغاً مقداره ألف كيس سنوياً .

٢ ـ يتعهد الأمير بأن يدفع بدل الالتزام الذي كان في عهدة الأميرين اسماعيل وسيد أحمد والبالغ قيمته ألفاً وثلاثماية كيس .

٣ ـ أن تقسط الأموال على دفعات مؤلفة من خمسماية كيس كل ثلاثة أشهر .

٤ ـ أن يسترهن الباشا لديه الشيخ سعد الخوري إلى حين تسديد كامل المبلغ المقرر .

وفي هذه الاثناء ساد اقتناع بالاستانة بقوة الجزار العسكرية والاقتصادية ، وأنه أحد الولاة القلائل القادرين الاعتماد على أنفسهم لتمويل وقيادة قافلة الحج بفعالية . فصدر فرمان آخر يوم السبت في الأول من أيار (مايو) ١٧٨٦ بجعل اثنين من مماليكه سليمان باشا والياً على طرابلس وسليم باشا والياً على صيدا . وأشارت التقارير الدبلوماسية الفرنسية الصادرة عن عكا إلى ذلك بقولها :

« . . . أصبح الجزار سيد سوريا الأوحد ، تخضع لأمره البلاد الممتدة من اللاذقية شمالاً إلى غزة جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً إلى بادية الشام شرقاً ، يحكم هذه البلاد الشاسعة بواسطة ضباط . . . »(١) .

وكان قد بدأ يسود التذمر والشكوى، لدى مشايخ وأعيان القرى المجاورة لمدينة صور ، والخاضعة لحكم ضباط الجزار وصاروا ينتظرون الفرصة المناسبة للتخلص من حكامهم ، والعودة إلى حياتهم السابقة للأسباب التالية :

● معاناتهم من ظلم هؤلاء المتسلمين ، والضيق الواقع عليهم لاضطرارهم إلى دفع الميري والذخاير والمؤ ن مضاعفة للحكومة والطياح .

● لم يعد لهم أملاك شاسعة يعتاشون منها ، ولا يجيدون مهناً للعمل بها ، ولا تعودوا ممارسة التجارة ، ولا يمكنهم التسول ، بل يفضلون الموت على ذلك .

● يتحدّرون من طبقة اجتماعية اعتادت رفاهة العيش ، وأن تكون حاكِمة لا محكومة .

وشعر هؤلاء المشايخ أن انتقال الجزار من عكا إلى دمشق ، ومن ثم

---

(١) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB 1) سجل ٩٧٩ حالة القنصلية العامة في سوريا وفلسطين خلال عام ١٧٨٦ .

توجهه بالدورة إلى منطقة نابلس ، فرصتهم التي كانوا يتحينونها لاستعادة سيادتهم على قلاعهم ومقاطعاتهم السابقة ، نظراً لتوزع قوات الجزار في ولايات صيدا وطرابلس ودمشق ، واضطراره لاصطحاب اعداد وافرة منهم في الدورة . وأشار إلى ذلك القنصل الفرنسي في عكا (Regnault) بقوله .

« . . . الاستفادة من ابتعاد الوزير لاستعادة حريتهم . . . »[1] .

وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض ، تم فيها الاتفاق على الانقضاض على عمال وجنود الوالي في جبالهم ، وقرروا أن يستهلوا مخططهم بالهجوم على صور وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها .

ولكن علم سليم باشا بالمؤامرة قبل تنفيذها ، فأصدر أمراً إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وارسالهم إلى عكا ، وفي اليوم الرابع عشر من أيار (مايو) ١٧٨٥ نفذ الباشا بهم عقوبة الاعدام ، فخوزق أربعة وثلاثين منهم على أبواب المدينة ، على مرأى من القنصل الفرنسي في عكا (Regnault) ، الذي كتب إلى حكومته قائلاً :

« . . . لا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم ، الموقوفين كذلك والمتهمين بالتحالف مع المتمردين . . . »[2] .

وعلم سيد سوريا بما حدث في صور وجوارها ، وكان يستعد للخروج بقافلة الحج من دمشق إلى مكة ، وكانت جماعة من العامليين ، من آل علي الصغير قد فرّت إلى مشغرة ، وأقامت فيها باذن وحماية الأمير يوسف الشهابي . فخشي أن يستغل هؤلاء فرصة غيابه ، وتوزع قواته بين ولايات طرابلس وصيدا ودمشق ، ومرافقة عدد من تلك العساكر لقافلة الحج الشامي ، فيتوجه هؤلاء المشايخ إلى جبل عامل بمساعدة الأمير الشهابي الحاكم ، للانتقام لما

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) مترجم من الباحث عن تقرير القنصل الفرنسي في عكا مجموعة (AEB I) سجل ٩٧٩ تاريخ ١٧٨٥/٥/٦ .

أصابهم على يد الباشا وقواته . فقرر أن يزيل مخاوفه بالقضاء عليهم عن طريق الأمير يوسف ، والفرصة متاحة أمامه الآن نظراً لوجود الشيخ سعد الخوري مربي ومستشار الأمير يوسف ـ مرتهناً لديه ، وبذلك سوف يجبر الأخير على تنفيذ ما يطلب منه ، ولن يجرؤ مطلقاً على معارضته خشية تعرض الشيخ سعد لأي أذى ، كما يتمكن من تحقيق هدفين مهمين في وقت واحد :

● ضرب التحالف العاملي الشهابي وزرع بذور الفتنة والانشقاق بينهما والحيلولة دون اتحادهما ثانية .

● القضاء على آل الصغير اللاجئين في مشغرة دون أن يتكلف شيئاً .

وقبل خروج الجزار بقافلة الحج أصدر أمراً إلى الشيخ سعد الخوري ، أن يكتب إلى سيده أمير جبل الدروز بالقاء القبض على مضيفيه العامليين ، وارسالهم إلى والي صيدا سليم باشا . واستجاب الأمير يوسف للأمر وسلم العامليين إلى عدوهم ، وقد أثار تصرفه هذا استنكار المعاصرين ، لأنه يتنافى وتقاليد المنطقة التي تحث على حماية اللاجيء والدفاع عنه ، وأشار إلى ذلك المؤرخ حيدر الشهابي(1) بقوله :

« . . . لم يحفظ الجوار ويرعى الذمام . . . ولام الناس الأمير يوسف على ذلك . . . » .

وبوفاة أحمد باشا الجزار سنة ١٨٠٤ سعى مشايخ جبل عامل للاستفادة من الاضطراب السياسي الذي ساد بلاد الشام ، فطردوا المتسلمين من مقاطعاتهم واستعادوها كما كان الحال سابقاً . لكن تمكن خلفه سليمان(*) باشا من توطيد سلطته كوالٍ لصيدا ، فأعاد المقاطعات العاملية إلى حكمه المباشر وعين عليها متسلمين من قبله ، وفشلت كل السبل التي لجأ اليها العامليون للعودة إلى حكم بلادهم حتى سنة ١٨٢٢ . ففي تلك السنة نتيجة لتمرد

(*)سليمان باشا (العادل ، والي صيدا (١٨٠٤ - ١٨١٩).

(١) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ج ١ ص ١٤١ .

عبد الله باشا على سلطات الاستانة ، سعى إلى مواجهة الخطر الذي يهدد حكمه ، عن طريق تكتيل العصبيات المحلية في المنطقة إلى جانبه . ونظراً لمعرفته الأكيدة بالقدرات القتالية التي يتمتع بها المشايخ العامليون ، سعى إلى التقرب منهم عن طريق التلويح لهم ، بتحقيق حكم طالما كافحوا من أجله بكل السبل ، فأرسل إلى الشيخ فارس ناصيف النصّار يبلغه برغبته ، رفع المتسلمين المعينين من قبله في اقليمي الشومر والشقيف ، واعادتها لتكون بتصرف المشايخ كما كانت سابقاً في يد آبائهم مقابل :

● أن يقوم المشايخ العامليون بايراد الأموال الأميرية ، التي يرسلها عادة متسلموه من جبل عامل .

● أن يجند المشايخ عند الحاجة الفي خيال وعدداً من المشاة ، يحضرون لخدمة الوزير والقتال إلى جانبه عند الطلب .

● يتعهد الوزير للمشايخ بأن يتخلى لهم عن مبلغ خمسمائة كيس ومائتي غرارة شعير .

ووافق العامليون على هذه الشروط فاستعادوا حكم بلادهم ، واحترموا تعهداتهم للوزير فحاربوا إلى جانبه ، ولعبوا دوراً هاماً في الانتصار الذي أحرزه في معركة المزة على خصمه درويش باشا والي دمشق .

حوادث سنة ١١٩٦ هـ وسنة ١١٩٧ هـ

في ربيع الثاني من سنة ١١٩٦ هـ جاءنا خبر موت عمر الحمد في بعلبك وفي سنة ١١٩٧ هـ جاءنا خبر وفاة الشيخ أحمد ـ لعله حمد ـ ووفاة الشيخ حسين ووفاة عمر الحمد في بعلبك ووفاة عباس العلي في مدينة عكا[1] وفيها توفي حيدر

---

١) الركيني وحديثة عن حوادث هذه السنة مضطرب فهو يروي الحوادث غير جازم ويظهر أن الأخبار كانت شديدة القلق فانه وصل إلى البلاد خبر وفاة عمر الحمد مرة في سنة ٩٦ وأخرى في سنة ٩٧ كما أن عباس العلي توفي سنة ١١٩٥ هـ لاحظ ما ذكرناه آنفاً ص ١٥٢ والظاهر أنه سقط كلمة أولاد من الناسخ وأنه يريد أولاد عباس العلي فقد ذكر في حوادث هذه السنة تاريخ ابتداء =

الواكد في بلاد بعلبك وتوفي الشيخ أبو صليبي وولده علي في بلاد بعلبك[1] .

وفي هذه السنة جعل الشيخ علي خاتون يدور على القرى ويجمع الأموال ليسد بها (بلصة الجزار) الغرامة المالية التي وضعها الجزار على البلاد ، وكل ما بذلت له قرية شيئاً من دراهم أو غلة يقول لأهلها أحسبوه من الزكاة ويدونه في دفتر عنده ، ويعطيه للدولة ويحيل الدولة على أهالي القرى. هذا حديث الركيني وقد ذكر في حوادث هذه السنة شيئاً له قيمة نستحسن إثباته قال ما ملخصه : كان ابتداء حكم بيت علي الصغير من وقعة عيناثا سنة ١٠٥٩ هـ واستمر حكمهم الى ان استشهد ناصيف سنة ١١٩٥ هـ فيكون مجموع مدته ١٣٥ سنة ثم آل أمرهم بعد ناصيف إلى الفرار الى الشام وبعلبك والهرمل ثم إن الجزار أرسل الى الشيخ حمد العباس يطيب خاطره ويطلب منه العود إلى البلاد فلما رجع هو وعياله وإخوته قبضهم في عكا وحبسهم إلى أن ماتوا في السجن وهم الشيخ حمد وأخوه حسين وأولاده عباس العلي ثم آل أمر حريمهم وبقية عيالهم وأولادهم أنهم داروا في البلاد يشحذون ويطلبون من الناس ! .

وهذا الحديث يؤكد صحة ما ذكرناه في هامش الصحيفة الآنفة .

ـ واقعة شحور ـ

(نهار الثلاثاء ١٣ رجب سنة ١١٩٨ هـ[2]

وفي سنة ١١٩٨ هـ وقعت حرب عظيمة بين الجزار والأمير يوسف الشهابي ، وكان العامليون يقاسون الضغط وكان الزعماء مشردين يتحينون

= حكم بيت علي الصغير وانتهاءه وأن حمداً وحسيناً وأولاد عباس العلي توفوا في عكا في أسر الجزار لانه خدعهم وقبضهم.

(١) لاحظ ما ذكرناه ص ١٥٠ من هذا الجزء .

(٢) اعتمدنا في هذا التوقيت على الركيني والشهابي وأمامروة فانه عدها في حوادث سنة ١١٩٧ هـ ولننقل عبارة مروة وفاء بالوعد قال ما لفظه : وفي سنة ١١٩٧ هـ جمعوا وحشدوا وكان المدبر الشيخ علي الزين صاحب شحور فرأسوا حمزة من بيت علي الصغير هكذا في نسخة الخال والعرفان وفي نسخة الفقيه وكان المدبر الشيخ علي الزين وفارس وحمزة من بيت علي الصغير : ونهضوا إلى تبنين وقتلوا المتسلم وهرب الكاتب من بيت الأيوب وأخذ الدفاتر إلى صيدا إلى =

الفرص ، ولما تسامعوا بذلك جاؤا إلى الأمير يوسف فأمدهم بالخيل والسلاح وتوجهوا إلى بلادهم(١) وفي هذه السنة نبل ذكر الشيخ علي الزين صاحب شحور فقام التاريخ العاملي يحدثنا عنه بأنه قام في الأمة العاملية رافعاً عقيرته وناداهم للقيام بواجبهم المقدس وتولى بنفسه إدارة شؤون هذه الحركات وزعم الشيخ حمزة بن محمد النصار من آل علي الصغير وهو أخو عباس المحمد وعم حمد العباس المحمد(٢) وضم اليه أولاد ناصيف وأقام الحرب على ساق ، ففي يوم الأثنين ١٢ رجب سنة ١١٩٨ هـ أعلنوا الثورة فتوجهت القوات إلى تبنين فقتلوا المتسلم المقيم فيها من قبل الجزار وهرب الكاتب بالدفاتر وهو من بيت الأيوب إلى صيدا وفيها الجزار فأرسل الجزار عسكراً إلى شحور فوقعت الحرب فيها نهار الثلاثاء ١٣ رجب وقتل من الشيعة مقتله عظيمة كما في رواية مروة وفي رواية الركيني قرب مئتي قتيل وأخذوا جملة أسرى ونهبوا البلد نهبة عظيمة وحملوا رؤوس القتلى إلى صيدا وفي يوم الواقعة فرت الناس إلى الجبال والأوعار خوفاً من تنكيل الجزار(٣) ثم قتل الشيخ حمزة شر قتلة وقتل معه جماعة من أكابر الشيعة كما قيل وأطلقت الأسرى وهرب الشيخ علي الزين مع أسرته وأولاده ناصيف إلى الشام وأقاموا فيها ثم إن الجزار أصبح والياً على الشام سنة

= الجزار فأرسل عسكراً إلى شحور فقتل مقتلة عظيمة وأخذوا أسرى وصلب حمزة في الخزوق وفي نسخة الخال مع جماعة من أكابر الشيعة : وفكوا الأسرى فهرب بيت الزين مع أولاد ناصيف إلى الشام وتلددوا هناك خفية فقدر الله أن الجزار حكم الشام أيضاً فهربوا إلى العراق ونزل أولاد ناصيف على حمد الحمود كبير خزاعة وفي ذلك الوقت صار حرب بين خزاعة وثامر الحمود شيخ عرب المنتفج وظهر من أولاد ناصيف كل شجاعة وإقدام وخلص الشيخ علي زين أحد أهل شحور إلى الهند وصار وزيراً لأحد ملوكها ونال عنده رتبة وحين ملك الأنكليز هناك هاجر إلى بلاده .

(١) الشهابي ص ٨٤٤ ومؤرخو عاملة لا يربطون هذا الحادث بحوادث بلاد الدروز ، وغير بعيد ان تكون فرصة سنحت فاستغلها الأمير يوسف والعامليون ، هذا ليرهب عدوه وهذا ليستخلص حقه .

(٢) تقدم ذكر الشيخ حمزة في هذا الكتاب مراراً لاحظ ص٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٤ وقد حاول أموراً قبل هذا التاريخ فأخفق كما أخفق في هذه المرة وهذه الظاهرة تدعو اللبيب الى الإيمان بالحظ وتدعو المؤمن الى الاعتقاد بأن كل شيء رزق من الله تعالى .

(٣) الركيني وقد بالغ في الخوف والذعر والفرار .

١١٩٩ هـ ففروا إلى العراق وأقام أولاد ناصيف عند حمد الحمود شيخ الخزاعل واشتركوا معه في حرب دارت بينه وبين ثامر الحمود شيخ المنتفج وأظهروا بها كل بسالة وإقدام وأما الشيخ علي الزين فإنه ذهب إلى الهند واستوزر بها ونال رتبة عالية ثم عاد لبلاده بعد احتلال بريطانيا للهند[١]

(١) الشيخ علي الزين هو جد أسرة آل الزين فان الزعيم القدير يوسف بك الزين هو ابن الحاج اسماعيل الزين ابن الحاج سليمان ابن الشيخ علي الزين وقبيله ينتمي إلى الخزرج كما ذكره لنا المرحوم المبرور العلامة الشيخ محمد رضا الزين في رسالة خطية تحتوي على اثنتي عشرة صحيفة وهي محفوظة كغيرها مما كتبه لنا أعلام المؤرخين من العامليين وقد كان أحفاد الشيخ علي الزين مثال النبل والفضيلة فانهم جمعوا التقوى والجاه والثراء وأعمال البر حتى كانت هذه الأمور تتجلى فيهم أكثر منها في سائر البيوتات العاملية ولا يزالون كذلك حتى اليوم وقد كتب لنا عمنا المرحوم هذه الرسالة في ٣٠ جمادى الثانية سنة ١٣٦٤ هـ ١٢ حزيران سنة ١٩٤٥ م وقد انتقل إلى رحمة الله في جمادى الثانية سنة ١٣٦٦ هـ بعد ما جدد العهد بزيارة الأئمة في العراق وقد أقمنا له فاتحة حضرها أعيان العلماء والصلحاء .

جبل عامل في القرن الثالث عشر الهجري

مآسي الجزار

استشهد ناصيف وحوصرت قلعة الشقيف وسلم الشيخ حيدر الفارس والمعروف أنه قتل بعد التسليم[1] وفر الزعماء إلى بعلبك والشام وعكا وغيرها وخدع الجزار الشيخ حمد العباس فأمنه ثم غدر به وبأخيه الشيخ حسين وبأولاد عباس العلي حتى أصبح حريمهم وباقي أطفالهم يتكففون الناس وصلب الشيخ حمزة بعدما قتل نحواً من مئتي قتيل في يوم شحور وبعدما نهبها وروع البلاد وفر أولاد ناصيف إلى العراق وفر آل الزين إلى الهند وبعدما هدم قلعة الشقيف وغيرها من القلاع وأسر الأطفال والنساء قبل ذلك .

وفي سنة ١١٩٩ هـ كان الشيخ قبلان وإخوته والشيخ عقيل ـ الظاهر أنه ابنُ ناصيف ـ في الشام فاستقبلهم درويش باشا باشة الحاج وطيب خواطرهم وخلع عليهم وفي هذه السنة وقعت مجاعة شديدة وقيل إن الشيخ قبلان وأخاه الشيخ إبراهيم توفيا في بغداد[2] وفيها توفي الأمير اسماعيل الذي أعان الجزار

(١) : يظهر من الأطروحة التي نشرناها في هذه الطبعة الثانية أنه خرج من القلعة محفوظ الكرامة هو وأتباعه ، ثم بعد ذلك اتفق مع والي الشام سراً ورحل إليه ، والأطروحة تنسب ذلك إلى علي الفارس ، والصواب أنه أخو حيدر الفارس ، لأن علي الفارس كان قد توفى قبل ذلك .

(٢) الركيني: ويظهر أنهم فروا من الجزار كآل الزين وأولاد ناصيف لأن الجزار تولى على الشام في هذه السنة .

على التنكيل بالعامليين في سجن الأمير يوسف وأخفى أمره شهرين خوفاً من الجزار لأنه كان أوصاه به وفيها أرسل الجزار إلى الأمير يوسف أن يقبض على المشائخ المتاولة الذين كانوا نازلين في قرية مشغرة فقبض على سبعة عشر منهم وأرسلهم إلى عكا إلى سليم باشا مملوك الجزار فأمر بشنقهم ولامت الناس الأمير يوسف على ذلك لأنهم كانوا قد نزلوا في بلاده بإذنه واستأمنوا بـه[1]. وفي ١٢٠١ هـ عزل الجزار عن الشام وفيها حكم البلاد أحمد آغا ابن حيمور وجميع المعلمين تعدوا عن رأيه وفي سنة ١٢٠٢ هـ جاء أبو عز المغربي والحاج حسين صبرة وجملة معلمين إلى تبنين وحاسبوا أهل البلاد والمعلمين وأخذوا الفقهاء جميعاً إلى عكا لحساب أهل البلاد[2] .

وفي سنة ١٢٠٣ هـ فهم الجزار أن في داره خناء بين المماليك والخيالة فعزم على قتلهم وترقب إلى أن دخل بعضهم من باب السر فهجم عليهم يريـد قتلهم فاطلقوا عليه أربع رصاصات فجرح جرحاً سليماً وهرب المماليك إلى دار سليم باشا فخرج سليم باشا والمماليك وتبعه أعيان عسكر الجزار ولم يبق عنده إلا القليل وسار سليم باشا وسليمان باشا بعساكرهما إلى صور وضبطوا جميع إيالات الجزار . وحضر اليهم المتاولة والصفدية وسلموهم أمر بلادهم وأرسل سليم باشا الخلع للأمير يوسف واستبشرت الناس بذلك وتوقعوا انقراض دولة الجزار ؛ ثم رجع سليم باشا بالعساكر إلى عكا وضرب عليها الحصار فجمع الجزار من كان عنده وأضاف اليهم العمال وأقامهم على السور وعزم على الفرار إلى مصر بحراً ليلاً فأشار عليه القاضي بكبس عسكر عدوه ليلاً فإن فتح فذاك وإلاّ فر ، ولما فعل ذعر عسكر سليم باشا وانهزم وهرب سليم باشا إلى دمشق وسليمان باشا إلى دير القمر وقتل عسكر الجزار من عسكرهما مقتلة عظيمة ، وقتل بعد ذلك جميع السراري والمماليك التي بقيت في عكا ؛ وفي هذه السنة وقع الخلاف بين الأمير علي ابن الأمير اسماعيل وبين الأمير يوسف فأمد الجزار

---

(١) الشهابي ص ٨٤٨ .

(٢) الركيني وقد ذكر في غضون هذه السنوات أن أخاه علياً تزوج وأن ولده محمداً شرع في القراءة وعمره ست سنوات وأنه رجع من الحاج وعمره أربع وثلاثون سنة .

علياً بمئة فارس فالتقتهم قوات الأمير يوسف والأمير جهجاه الحرفوشي فكسروهم كسرة هائلة ، وقتلوا من عسكر الجزار نحواً من الستين، ثم إن الجزار عاودهم الكرات بقوات كاملة فهزمهم وهنا يئس الأمير يوسف من الحكم ففرق عياله واتفق مع أهالي البلاد على اختيار ابن عمه الأمير بشير ابن الأمير قاسم الشهابي وكان الجزار يميل اليه فجهزه الأمير يوسف وأرسله للجزار وعاهده أن لا يضره ثم وقع بينهما قتال وحروب وانتهى الأمر بشنق الأمير يوسف في عكا سنة ١٢٠٥ هـ بعد ما سجنه الجزار فيها[١] .

وفي سنة ١٢٠٤ هـ في رجب أخذ الجزار (غير مقروء كما في العرفان) والسيد محمد أمين إلى عكا ثم سافر معه إلى الحج وفي شهر شوال شنق الجزار الأمير يوسف في عكا وشنق الأمير يوسف الثاني وشنق علي درويش في هونين وفي سنة ١٢٠٨ هـ توفي الشيخ علي خاتون في جويا وهو في أسر الجزار وقبضوا عياله وأولاده من بعده هكذا يقول الركيني ويقول الشيخ أحمد رضا[٢] إن الشيخ علي خاتون هاجر في طلب العلم فاشتهر فضله في العراق وإيران ثم رجع إلى بلاده فابتلي بفتنة الجزار فصودر ماله مرتين ولم تقبل منه فدية ثم أخذت مكتبته الكبرى التي كانت تضم نحواً من خمسة آلاف مجلد من الكتب الخطية النادرة فأمست طعمه لأفران عكا ويقول هو وغيره أن كتب العامليين اشغلت أفران عكا بالوقود أسبوعاً كاملاً ؛ وحدثنا العالم المعمر المعاصر الشيخ علي مروة حفظه الله أنه رأى بعينه في عكا بعض الكتب المشتملة على الآثار العاملية وقد كتب عليها أنها من موقوفات الجزار وقد سمعت من آحاد أن جملة من المكاتب ذهبت ضحية الدفن حتى قيل إن داراً جددت فوجدت وسط الجدار مكتبة مندثرة من طول الزمن وحدثنا العالم الفاضل الشيخ موسى بري أن شيوخ بلده تبنين يزعمون أن باب عكا الحديد هو باب قلعة تبنين وأن الجزار نقله بعد احتلالها ويقول مروة في جبل عامل في قرنين ما لفظه : في سنة ١٢٠٨ هـ فتك أحمد باشا الجزار بأكابر بلاد بشارة وقتل منهم جماعة خنقاً في الحبس منهم سلمان البزي وكفل البلاد

---

(١) الشهابي ص ٨٥٣ ، ٨٥٤ وما بعدها

(٢) العرفان م٢ص ٣٨٦ .

لأهلها[١] وهذا يدلنا على أن العامليين ظلوا مستأسدين في سبيل حريتهم وأنهم لا يرون للدماء قيمة اذا كانت ثمناً للشرف والكرامة .

وفي سنة ١٢١٠ هـ فر السيد محمد أمين وأولاده من الجزار ومات حسين الحمد في بلاد الشام وكان بقيادة نابليون بونابرت فحاصر عكا سبعين يوماً وفرق قوات الجزار واستولى على البلاد كلها ما عدا عكا وأعطاه الشيعة والصفديون زمام الطاعة تخلصاً من عسف الجزار وجوره ورجع المشائخ العامليون الى مشغرة وتحسنت أحوال البلاد الاقتصادية في هذا العهد وكثرت النقود ثم إن الجيش الافرنسي انجلى عن البلاد في ١٦ ذي الحجة سنة ١٢١٣ هـ بعدما دمر وخرب وبعدما وقع الطاعون فيه وجاءت الأخبار بتوجه قوات العثمانيين الهائلة التي تساندها القوات الانجليزية اليه ، ولما انسحبت القوات الافرنسية واطمأن الجزار خافت الناس منه ولا سيما الذين أمدوا الافرنسيين وأعانوهم وخافه الأمير بشير ابن الأمير قاسم الشهابي الذي كان معه ولكنه لم يقدر على إعانته وذهب المتاولة إلى الأمير بشير واستجاروا به من ظلم الجزار فعجز عن ذلك فجعل الجزار يستصفي الأموال ويفتك بالأعيان ويفعل ما يريد وأخيراً أصبح إلباً على الأمير بشير وفر الأمير بشير في البلاد ولما عزم على دخول دمشق رجع المشائخ المتاولة إلى منازلهم في عكار عند علي بك الأسعد الذي أصبح بعد ذلك علي باشا[٢] . . .

---

(١) تتمة كلام مروة : حتى كانت سنة ١٢٠٩ هـ حضر ملك فرنسا إلى مصر وملكها ثم إلى عكا وهدمها على الجزار سنة ١٢١٢ هـ ودخلت سنة ١٢١٣ هـ فرحل الفرنسيس بعدما هدموا عكا ولما رأى الجزار أهالي البلاد من بلاد عكا وجبل عاملة يحضرون الدجاج والبيض وسائر الأمتعة للافرنج كفر بهم أي نكل بعد ذهاب العسكر وأهلكهم قتلاً وحبساً مع الأعمال الشاقة من حفر وبناء حتى أهلك الحرث والنسل ومع ذلك كان يعذبهم في الحبوس بتسليط الكلاب والقطط والمكاوي وضرب مقارع الحديد وكان له معذبون أكراد وعليهم رئيس يسمى الشيخ طه يزيدي يقول بروح الشر وأن المعظم هو الشيطان ويسوؤه أن يسمع سب الشيطان لا سيما وهي كلمة خفيفة على ألسنة العامة وكان من يأمر الجزار بقتله لا يقتل بدون عذاب حتى تزهق نفسه وبقي الحال في شدة حتى سنة ١٢١٩ هـ انتهى ولكن في نسخة الخال سلمان البزي بالراء المعجمة وفي نسخة الفقيه سليمان كذلك وفي نسخة العرفان سلمان البري بالراء المهملة .

(٢) الركيني ومروة والشهابي ص ٨٨٨ وص ٨٩٤ .

هلاك الجزار

وفي سنة ١٢١٩ هـ في محرم توفي الجزار في عكا وتولى بعده غيره وبعد برهة يسيرة تولى مكانه سليمان باشا وأرسلت الدولة راغب أفندي ناظر الخارجية بالدونما الهمايونية ليشترك مع الوالي في إصلاح ما أفسده الجزار فاستدعيا فارس الناصيف ابن الشيخ ناصيف النصار وابن عمه محمد البك ابن الشيخ محمود النصار المعروف بأبي حمد وأظهروا لهما الإكرام والعناية والرعاية فاطمأنّا لهما وطلبا منهما إعادة البلاد إلى المشائخ كما كانت في عهدها الأول لأنهم توارثوها سالفاً عن سالف، ومدنوها وأوجدوا فيها المشاريع الحيوية المتعارفة في ذلك الزمان كالقلاع والحصون والمرابط والقناطر والمعابد والبنيات والأسواق والآبار والمطاحن والأغراس ومنها جفتلك رأس العين وقسم كبير من بساتين صيداء فأجابهما بعدم إمكان ذلك بعد إدخاله في واردات الخزينة منذ خمسة عشر عاماً. ثم تم الاتفاق على إعطائهم مقاطعة إقليم الشومر برمته عوضاً عن أملاكهم المغصوبة المتفرقة في سائر البلاد وأجريا ـ ترقين ـ أي إخراج قيود هذه المقاطعة من دفاتر الخزينة ووزعت الضريبة الموضوعة عليها من أموال وذخائر على باقي المقاطعات وأعطيا بها المراسيم العالية التي من جملتها أنها مرفوعة القدم ممنوعة القلم ـ يعني ليس عليها شيء من الضرائب بالكلية ثم عينا لبيت الرئاسة مئتي كيس سنويا تدفع للرئيس من خزانة عكا وتدفع له ذخائر مرجعيون في كل سنة ايضاً ثم أن سليمان باشا سأل عن المحل المناسب للرئيس فاجيب بعد الفحص أن قرية الزريرية هي انسب الاماكن موقعا واحسنها هواء فاعطيت للرئيس برمتها ثم امر البنائين فشيدوا البنيات المناسبة للعيال والاضياف والحكم وبنيت على نفقة الدولة ثم انتقل فارس الناصيف ومحمد البك المحمود اليها وجمعا آل علي الصغير وآل ابي صعب وآل منكر وقسمت قرى اقليم الشومر ومزارعه بينهم كل بحسبه واصاب بيت الرياسة منها سهم وافر والرياسة كانت بيد الكبير من البيت الذي يتولى الرياسة من آل علي الصغير، وانما يتولاها من قبل الوالي وكان الكبير فارس الناصيف واستدام الوضع على ذلك إلى ان فتح ابراهيم باشا المصري ابن محمد

علي باشا الديار الشامية[1] وقد توطدت العلائق بين الدولة وبين زعماء عاملة في هذا العهد واشتركوا مع الوالي في حروبه واهتموا في عمران البلاد فتقدمت تقدما باهراً. لاحظ حديث مروة[2] .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ توفي الشيخ شبيب بن ناصيف النصار في شحور وفي سنة ١٢٢٢ هـ توفي الشيخ ظاهر في مارون وفي سنة ١٢٢٥ هـ في آخر ربيع الأول غزا سليمان باشا والي الشام ومعه الدروز والمتاولة وصار بينه وبين يوسف باشا وقعة وكانت الغلبة لسليمان باشا وقتل من المتاولة أحمد بن عباس المحمد النصار ومعه اثنان وهما إخوة أولاد متيرك وانهزم يوسف باشا وعاد سليمان باشا إلى الشام. وفي سنة ١٢٢٩ هـ توفي الشيخ نصار بن ناصيف النصار في قرية الطيبة [3] وفي سنة ١٢٣٠ هـ توجه الأمير بشير الشهابي الثاني إلى عكا فلما وصل إلى جسر القاسمية تلقاه متسلم هونين إبراهيم آغا ومعه بلاد المتاولة ومشائخ تلك البلاد ولما وصل إلى صور تلقاه المتسلم وأكابر البلدة ثم سافر فتلقاه أولاد الشيخ ناصيف النصار ودعوه إلى منازلهم وبالغوا في إكرامه وقدموا له الذخائر وجوادين وبات عندهم تلك الليلة[4]. وفي سنة ١٢٣٤ هـ توفي سليمان

---

(١) شبيب باشا في ديوانه ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

(٢) قال مروه ما لفظه : وبقي الحال في شدة حتى سنة ١٢١٩ هـ فهلك الجزار وخلفه سليم باشا أحد مماليكه فالتات عليه الجند وقتلوه ونصبوا سليمان باشا بعد تشريده من سليم باشا واستوزر حسن آغا البلارسان واستكتب ما بين اليهودي وغلب على أمره علي باشا فاستبد الثلاثة بتدبير البلاد فكان أول امرهم أن صانعوا أولاد العشاير وأرضاهم وعوضهم عن أملاكهم المغصوبة التي اغتصبها وردوهم الى أوطانهم بعد التشريد فبذلك استراحت البلاد من فسادهم أيام تشريدهم ومن فساد عساكر الجزار وهدأت الأمور والأحوال أيام سليمان باشا وعمرت البلاد عمراناً زائداً ونمت نمواً فائقاً وعمرت الأبنية وغرست الأشجار وسار سيرة حسنة إلى أن هلك فأخلفه عبد الله باشا ابن علي شريك الجزار في الحكومة وهو شاب غرير وأمه امرأة من طرابلس فاستبد بالأمر دونه قوم اصطنعتهم أمه من أهل بلاد عكا كعبد الحليم ومسعود الماضي وتركوه في لهوه وشبابه واستعمل العنف في الرعية وغرم الأهالي زيادات على المرتبات فأخذ بتعمير محلات ومدن فعمر مدينة تسمى مدينة العدل حتى قامت حيطانها ثم أمر بهدمها وعمر محلاً يسمى البهجة على طريقة الأستانبول وجعله بستاناً ومنتزها وكان يغرم عليه الأموال الجسيمة من دون طائل ثم في سنة ١٢٣٦ هـ انتهى .

(٣) ملخص عن جبل عامل في قرن للركيني.

(٤) الشهابي ص ٩٢٧ .

باشا في مدينة عكا وفي سنة ١٢٣٥ هـ جاءت باشوية عكا إلى عبد الله باشا ، وفيها في جماد الثاني توفي حسن الحيدر ابن الشيخ حيدر الفارس في قرية البابلية وتاريخ وفاته .

حسن مضى والصالحات أمامه أرخ لدى حسن شفاعة حيدر

وتوفي ابن عمه شبيب في قرية النميرية ودفنا في يوم واحد وفي سنة ١٢٣٧ هـ توفي البك ابن ابي حمد النصار في قرية الزريرية وفيها في شهر جماد الأول رضي عبد الله باشا على المتاولة وأرجعهم إلى أماكنهم (١).

واقعة جسر بنات يعقوب

في رجب سنة ١٢٣٧ هـ

في سنة ١٢٣٧ هـ ارسل عبد الله باشا والي عكا إلى الشيخ فارس ابن الشيخ ناصيف النصار ومشائخ عاملة أنه يريد أن يرجعهم إلى حكم بلادهم وهي جبل عامل التي يقال لها الآن إقليم الشومر وبلاد الشقيف وأنه يريد أن يرفع المتسلمين منها والزعماء هم يؤدون الأموال التي كانت ترد عن يد المتسلمين. ويترك لهم خمسين الف درهم في كل عام ومئة غرارة شعير على شرط أن يكون عندهم ألفا جندي بين فارس وراجل تحت طلبه وقت الحاجة فاستعفوا من ذلك وكان غرضهم استشارة الأمير بشير الشهابي فأجابهم أن الوزير قد خاصم دولة والي الشام خصاماً طويلاً، واحتياجه اليكم يطول فأرسل الشيخ فارس الناصيف معتمده الحاج حسن شيث إلى عكا وطلب من عبد الله باشا أن يفعل ما أراد ويعاهدهم أن لا يغدر بهم بعد ذلك فكتب لهم صكاً بذلك وأرسل اليهم الخلع كما كانت عادة آبائهم من قديم الزمان وطفقوا يتحكمون في اتخاذ الأعوان والخيل

(١) الركيني وينبغي الاشارة إلى قول الشيخ أحمد رضا في العرفان م٢ص ٣٣٠ ان عبد الله باشا هو الذي أعطى مقاطعة الشومر للعامليين كما أن ظاهر كلامه أن عبد الله باشا استلم الحكم بعد الجزار مع أنه استلمه بعد موت الجزار بنحو من خمس عشرة سنة وهذا كله غريب جداً من الأستاذ رضا .

والسلاح ووافق ذلك خاطر الوزير فأضاف اليهم ولاية مرجعيون ـ وكانت قبل ذلك تضاف إلى حكم الشهابيين ـ وفرض عليهم مالاً معلوماً كما كان على المتسلمين من قبلهم. ثم إن الفتنة اشتدت بين عبد الله باشا والي عكا وبين درويش باشا والي الشام فارسل عبد الله باشا جيوشه لتقطع الطريق على جيوش درويش باشا التي تريد العبور إلى نابلس ولا طريق لها إلا من جسر بنات يعقوب وجسر المجامع؛ وأرسل عبد الله باشا الشيخ فارس الناصيف بعسكر بلاده مع عساكره وعندما أحس درويش باشا بالأمر أمد عسكره بالجيوش ولما التقوا تقهقر عسكر العامليين إلى قاطع الجسر وحوصر عسكر الأرناؤط والمغاربة هناك في الخان فأسرع قائد قوات عبد الله باشا لنجدة المحصورين في الخان. وصباح الخميس وصل إلى الجسر وقسم العسكر الذي معه فرقتين ونشب القتال بين تلك العساكر فانكسر عسكر درويش باشا وفر هارباً واستولى عسكر عبد الله باشا على خيامهم وأسلابهم ومدافعهم وذخيرتهم ثم أمدهم الأمير بشير بعسكره امتثالاً لأمر عبد الله باشا ولما وصلت عساكر درويش باشا إلى سعسع وقع اختلاف بين قوادهم فاقتتلوا وكانت الواقعة في ٢٢ رجب واستمرت إلى ٢٦ منه[١] وفي أول شهر رمضان انتقل عسكر عبد الله باشا ومعه عسكر الأمير وعساكر عاملة إلى أرض المزة وجرت بينهم حرب ثم تحصن باشة الشام في القلعة وتحصن الأهالي بالمدينة ثم ارتحل عبد الله باشا بعد عشرين يوماً وكان باشة أدانا وباشة حلب قد وفدا لنصرة باشة الشام ثم توجه الباشوات الثلاثة لحرب الدروز [٢] ثم جري على عبد الله باشا ما ذكره مروة[٣]. وفي سنة ١٢٣٨ هـ جاء العفو عنه

(١) الشهابي ص ٩٨٩ وص ٩٩٢ يقول الأستاذ رضا في العرفان في م٢ ص ٣٣٠ أنه رأى شيخا مسنّاً أخبره بأنه كان ممن حضر واقعة جسر بنات يعقوب بقيادة فارس الناصيف وقد وقت مروة هذا الحادث بسنة ١٢٣٦ هـ ووقته الريكيني والشهابي بسنة ١٢٣٧ هـ.

(٢) الركيني في جبل عامل في قرن.

(٣) قال مروة مالفظه: ثم في سنة ١٢٣٦ هـ ارسلت عليه الدولة إلى الشام فأظهر العصيان وعسكر على جسر المجامع وجسور بنات يعقوب وحصر أهل الشام عسكره على ذلك الجسر وبعد حصار طويل خرجوا للعسكر ولحقوا عسكر الشام فقتلوهم في خراب ناعران من أرض الجولان ثم لحقوهم إلى الشام وحضر الأمير بشير من جبل لبنان بعسكره إلى المزة فحرقوها ودخلوا الشام فقرأ الفرمان بأن عبد الله باشا فسرملي أي خارجي فرجع الناس وكفوا وكانت البلاد جميعها عسكرت =

وفي سنة ١٢٤١ هـ سلم الأمير بشير إقليم جزين وإقليم التفاح وجبل الريحان لولده خليل وفي سنة ١٢٤٦ هـ فتح عبد الله باشا قلعة سانور بعد حصار ثلاثة أشهر والذي فتحها هو الأمير بشير الشهابي امتثالاً لأمر عبد الله باشا ولكن عبد الله باشا ألبس مدافعه الجوخ الأحمر عند فتحها إشارة إلى أن الفتح بواسطة مدافعه لا بواسطة الأمير فاغتاض الأمير من ذلك (١) . . .

واقعة البهجة

وفي سنة ١٢٤٧ أرسل الخديوي محمد علي باشا المصري ولده ابراهيم باشا لحصار عكا فأعانه الأمير بشير بعدما هدده بأنه إن لم يمتثل أوامره يهدم بلاده ويغرس في مكانها التين فامر إبراهيم باشا باطلاق النار مستمراً وكان الحصار في شعبان واستدام سبعة أشهر (٢) وقبل فتح عكا نهض زعماء عاملة وجمعوا جيشاً وافوا به جهة عكا وقد علق القتال مع العساكر المصرية فكانت

= مع عبد الله باشا فرفعوا أيديهم وخرجت العساكر من الشام وعليها الحاج درويش باشا والي حلب وحاصر عكا سنة ١٢٣٧ هـ فأخذ بمخنق عبد الله باشا فضرع له ودخل في طاعته فرق له وكتب بترضية الدولة عنه وأرسل عبد الله باشا الأمير الكبير بشير الشهابي كبير لبنان بل كبير القطر الشامي سفيراً إلى مصر للخديوي محمد علي باشا يوسطه بالترضية عنه فكتب للدولة فرضيت عنه ثم استمر عبد الله باشا على عنفوانه وتناول بلاد نابلس والقدس الشريف وعصى عليه آل جرار في قلعة سينور فحصرهم وهدمها عليهم حتى سواها بالأرض وحرثها وقطع الأشجار والأملاك حولها وهدم قرية عرابة جبل نابلس على آل عبد الهادي وعمل العسكر هناك عملاً رديئاً فهاجر شيخ عشيرة آل عبد الهادي الشيخ حسين عبد الهادي إلى مصر لعند محمد علي باشا شاكياً أفعال عبد الله باشا فقدر الله أن عبد الله باشا أغضب الأمير بشير الشهابي بمروره على عكا بعد حرب سينور ولم يشكر له عناءه وأتعابه فأرسل إلى مصر وكان عبد الله باشا أساء الأدب مع محمد علي باشا ولم يراع حرمته وحسن صنيعه معه فجرد عليه العساكر وقائدها ولده ابراهيم باشا فهدم عليه عكا بالقنابل والمدافع بعد حصار سبعة أيام وأخذه أسيراً وأرسله إلى مصر ومن مصر إلى القسطنطينية وبعد مدة وجيزة نفي أتباعه في البلاد وكان كبيرهم حسين آغا المملوك إلى قبرص وذهب حسين المملوك الى القسطنطينية وعمل مخادعة مع عبد الله باشا حتى يشتري له رأس العين وتوابعها البرجين وباثولية والغروية من أعمال صور فما تمت له انتهى وفي نسخة الخال والعرفان بعد حصار سبع فقط ولم يذكر أياماً أو شهوراً . . .

(١) الشهابي ص ١٠١٥ وص ١٠٢٠

(٢) الركيني هو الذي ذكر ابتداء الحصار ومدته وقد ذكر فتح الشام وحلب وأدانا ملخصاً في سطور وبها ينتهي كتابه ولو أن النسخة الأصلية وصلت الينا لاستفدنا منها أموراً جمة .

الغلبة للمصريين وقتل من العامليين في الواقعة المعروفة بواقعة البهجة خارج عكا مئتان واربعون بين فارس وراجل ولما استولى ابراهيم باشا على تلك الأطراف ضبط أملاك حاكمها ورئيسها بعد الامتناع من النزول على حكمه وكان قائد هذه الثورة حمد البك ابن ابي حمد الشيخ محمود النصار وكان معه ابن اخيه أسعد البك وأما محمد البك أخو حمد البك فقد توفي سنة ١٢٣٧ وبعد فتح سوريا جاءا فاشتريا داراً في دمشق وتركا عيالهما فيها وجهزا عسكراً من قبلهما وانضما إلى العساكر العثمانية فشهدا حرب حمص ونزب وغيرها إلى أن بلغا قونية وهناك تغلب ابراهيم باشا فأقاما بعيالهم في قصبة الزبداني من أعمال دمشق وكانت أملاكهم مضبوطة وكان ابراهيم باشا عرض عليهما بواسطة الأمير بشير الشهابي الإرجاع إلى بلادهم كما كانوا بشرط الخضوع للحكومة المصرية وقبول أنظمتها فلم يقبلا. ثم إنه قبل خروجه من الديار الشامية بثلاث سنين أرجع اليهم أملاكهم دون حكومة البلاد وفي أثناء هذه المدة توفي أسعد البك[1] .

ولنعد لما كنا فيه، وبعد حصار عكا سبعة أشهر أمر ابراهيم باشا جيوشه أن يهجموا على عكا دفعة واحدة وأطلق عليها النار باستمرار ففتحها عنوةً ودخل بجيوشه وأطلق الأمان لعبدالله باشا فسلّم له فلما أقبل صافحه وأمنه على دمه وعرضه ثم أرسله بحراً إلى مصر ثم تقدمت جيوش ابراهيم باشا في الفتح حتى احتلت البلاد السورية بأجمعها وقد عهد المصريون في حماية المدن السورية إلى الأمير بشير الشهابي فعين في صيدا الأمير بشير ملحم وفي صور الأمير حسن أسعد ثم لما تم الصلح بين السلطان العثماني والخديوي المصري أمر الوزير المصري شريف باشا بعزل المتسلمين من صيدا وصور . وفي هذه السنة وضع الأمير بشير ضريبة على الطواحين وعلى رجال بلاده وفي سنة ١٢٤٩ هـ أمر الوزير على الأمير بشير أن يجمع سلاح بلاد صفد وساحل عكا ففعل ثم جاء إلى رأس العين وأمر بجمع سلاح صور والمتاولة وتلك المقاطعات فجمعها وأرسلت

---

(١) ديوان شبيب باشا الأسعد ابن علي بك ابن اسعد البك ابن محمد البك ابن محمود النصار ويظهر من كلامه أن جده محمد البك حضر واقعة البهجة مع أن الركيني ذكر وفاته سنة ١٢٣٧ هـ في جماد أي قبل حصار عكا بثلاثة أشهر تقريباً كما أن علي بك ولد في هذا التاريخ لاحظ الديوان ص ٧١ لتعرف موضع الاشتباه .

إلى عكا وفي آخر هذه السنة جاء ابراهيم باشا إلى عكا وطلب من الدروز الفاً وستمئة شاب ليدخلهم في جنده النظامي فطلبوا منه إعفاء النصف فقبل وفي سنة ١٢٥٠ هـ هم الأمير بجمع المطلوب فامتنع الدروز ولما علم بذلك أمر ابراهيم باشا بجمع الأسلحة وزحف بعشرة آلاف فأخذهم الرعب فجمعوا الأسلحة فوراً ولما تم جمع السلاح طلب منهم الفا ومئتي شاب للنظام فجمعوا فوراً وأرسلوا إلى عكا(١) .

قال مروة في جبل عامل في قرنين:

وفي سنة ١٢٥١ هـ أمر ابراهيم باشا بأخذ عسكر النظام من دون نظام ولا قرعة وسلط الأمير بشير الشهابي على بلاد بشارة فجرى من عسكر اللبنانيين ما جرى وخربت البلاد. قال الشيخ علي السبيتي وفي سنة ١٢٥٢ هـ صارت الزلزلة الكبيرة هدمت قدس وصفد وعيثرون وما خلت بلد من الهدم وقال فيها التاريخ استاذنا الشيخ علي مروة:

ظهر الفساد على البسيطة فاختشت ... رب العباد فزلزلت زلزالها
أمست تميد بأهلها فكأنها ... أرجوحة جذب القوي حبالها
ومياهها كادت تغيض وتخرج الأ ... ثقال لَمّا ربُّها أوحى لها
دهش الأنام لهولها فكأنهم ... شهدوا القيام وشاهدوا أهوالها
فلعظم ما عاينت قلت مؤرخا ... يا أيها الناس اتقوا أمثالها (٢)

ثورة حسين بك الشبيب
وأخيه محمد علي بك الشبيب(٣)

لما دخل ابراهيم باشا سوريا أدخل بلاد بشارة في عمالة الأمير بشير

(١) مقتضب من تاريخ الشهابي ص ١٠٢٢ وص ١٠٢٥ وص ١٠٢٨ وص ١٠٣٠ .
(٢)هكذا في جبل عامل في قرن إلا أنه قدم ما ذكرنا في سنة ٥٢ على ما ذكرناه في سنة ٥١ وفي نسخة الفقيه قال الشيخ علي السبيتي وفي سنة ٥٢ وليس في نسخة الخال والعرفان قال الشيخ علي السبيتي .
(٣) : وهما من آل صعب ، وسننقل ذلك عن الأستاذ محمد جابر .

الشهابي فأذاقهم كل شدة حتى كان في محبسه في صور زهاء الألف رجل (؟) ولكن لم يطل ذلك فإن ابراهيم باشا رفع سلطة الشهابيين عن بلاد بشارة حتى اذا كانت سنة خمس وخمسين خرج الشيخ حسين الشبيب في مئتي رجل ففاجاه اللبنانيون بخمسمئة رجل ومئة فارس فهرب الشيخ حسين وأصبحت البلاد عرضة لاستبداد العسكر اللبناني ولم يسع العامليين لمَّ شعثهم وكان أحدهم يخشى من الكلمة حتى في كسر بيته وكان لعسكر الأرناؤط والدالاتية والانكشارية سلطة استبدادية فكانوا يروحون ويؤوبون بين عكا ودمشق وصيدا وبيروت ويفرضون على البلاد ضيافتهم وإعطائهم ما يطلبون إلى حد الرضا بلا عوض[1]. ويقول الأستاذ جابر أن ثورة حسين بك الشبيب وأخيه محمد علي بك الشبيب دامت ثلاث سنين[2] ويقول مروة وسنة ١٢٥٥ هـ خرج حسين آل شبيب من عشيرة الصعبية في بلاد بشارة فأرسل الأميربشير ولده الأمير مجيد وكان شاباً مترفاً غريراً على بلاد بشارة لإلقاء القبض على حسين الشبيب فهرب إلى اللجاه فألقى عليه القبض كبير الدروز وأرسله إلى الشام فقتله حكمدار الشام شريف باشا وبقي عسكر الأمير في البلاد وعاثوا بها مقدار شهرين فهلكت البلاد وفي سنة ١٢٥٦ هـ اتفقت الدول الثلاث على إخراج ابراهيم من البلاد فمر على البرية إلى عنزة فهلكت عساكره وتملكت الدولة البلاد وهدم الانكليز عكا في ذلك الزمن . ثمَّ عثرنا عليه من مجموعة المرحوم المقدس استاذنا الشيخ علي مروة[3] . . .

---

(١) الأستاذ الشيخ أحمد رضا في العرفان في م٢ص ٣٣٠ .

(٢) العرفان م٢٧ ص٩ .

(٣) انتهى الكتاب المنسوب للسبيتي وقد نقلناه برمته مفرقاً فيما مضى من هذا الكتاب في المواضع التي تناسبه كما أن تاريخ الركيني انتهى قبل هذا الحد وتاريخ الشهابي انتهى عند هذا الحد تقريباً ونستند في بقية الكتاب الى ديوان شبيب باشا والمقدمة الخطية التي هي بقلم خالنا المرحوم الشيخ حسين سليمان البياضي وبعض النتف التي ينفرد بها المرحوم الأستاذ محمد جابر وبعض المخطوطات الأخرى

وقائع حمد البك وحكومته

مقاومة الجيوش المصرية واستخلاص البلاد العاملية والفلسطينية والأردنية ، واقعة جسر القاقعية ، وحمص ورميش ، ووادي الحبيس ، وشفا عمرو ، وغيرها

عرفت فيما مضى أن المصريين احتلوا سوريا حوالي سنة ١٢٤٨ هو أن العامليين قاوموهم في واقعة البهجة وفشلوا وأن المصريين ضبطوا أملاك مناوئيهم من الزعماء وعهدوا إلى الأمير بشير الشهابي في حماية المدن السورية فوضع متسلمين من قبله في صيدا وصور ثم لما تم الصلح رفعوا سلطة الشهابيين من عاملة وجمعوا سلاح البلاد وذلك في سنة ١٢٤٩ هـ ومن الواضحات أن ذلك يستدعي ضروب العسف وأنواع الإرهاق فقد قيل إنه وجد في صور نحو من ألف مسجون وقد كان الجيش المحتل يكلف الناس مالا يطيقون، فإن عداوة الدروز مع العامليين مشهورة ومعاونة العامليين لعبد الله باشا ضد المصرين غير خفية،والجيش الفاتح المتوغل في بلاد الأناضول محتاج إلى المساعدة فكانت الضرائب تفرض مضاعفة والسخرة تنفذ بكل قسوة ولا قانون إلا الرصاص والسياط،ولما اشتد الضغط قامت الثورات ولكنها لم تجدِ شيئاً فقد وضعت الضرائب ونفذت الأحكام وجمع الجند للنظام بدون قرعة ولا نظام حتى خربت البلاد.وكان حمد البك وهو أشهر زعيم عاملي بعد عمه ناصيف النصار يرقب الحوادث ويتحين الفرص للانقضاض على المصريين حتى إذا تم اتفاق الدول في مؤتمر لندرة في تموز سنة ١٨٤٠ م على انتزاع سوريا من محمد علي باشا وإعادتها للحكم العثماني ووصل الجيش التركي إلى حلب برّاً تظاهره أساطيل انكلترا بحراً (١) رفع حمد البك علم الثورة فجمع ثمانية آلاف مقاتل وقادها بنفسه وعلى حسابه وكان معه علي بك الأسعد المحمد حفيد أخيه (٢) فاصطدم بالأمير مجيد الشهابي عند جسر القاقعية وكان الشهابي ينوي الهجوم على جبل عامل الجنوبي فرده على أعقابه ثم سار بجنده إلى حمص فانضم إلى الجيوش العثمانية

---

(١) هذا التوقيت مأخوذ من مقالات محمد جابر في العرفان م٢٧ ص٧ .

(٢) هذا مأخوذ من ديوان شبيب باشا ص٣٢ .

وأظهر ضروباً من البسالة والتدبير فاستدعاه عزت باشا قائد الجيش التركي العام وأثنى عليه وعينه حاكماً عاماً على جبل عامل بلقب شيخ مشائخ بلاد بشارة وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في جنوب جبل عامل[1]. فرجع حمد البك وجعل يطارد المصريين ويحطم قواتهم فاشتبك معهم في عدة معارك في رميش ووادي الحبيس وشفا عمرو وكانت واقعة وادي الحبيس أهم تلك الوقائع فإنه أسر فيها من الجيش المصري أربعمئة وعشرين جندياً وأرسلهم مع حفيد أخيه علي بك الأسعد إلى عزت باشا الذي جاه بالدونما الهمايونية فساقها مع معداتها وذخائرها حتى سلمها له وكان عمر علي بك في ذلك التاريخ نحواً من عشرين سنة لانه ولد سنة ١٢٣٧ هـ[2]؛ ثم إن حمد البك سار بقواته بعد واقعة وادي الحبيس من بلاد عكا حتى دخل صفد وأجلى من بها من المصريين ووضع فيها متسلماً من قبله يقال له الشيخ حمد الغزي وكان من أخصائه وتولى إطلاق المساجين الذين حشرهم المصريون في سجون عكا بنفسه وهكذا فعل في طبريا والناصرة وشفا عمرو ثم حرر رسالة بذلك لخالد باشا وأوصل الخبر إلى عزت باشا. وفي أثناء هذه الحوادث ورد كتاب من جوقموس باشا رئيس العساكر الجهادية الشاهانية أي القائد العام للجيوش المعدة لمقاومة المصريين بتاريخ ٦ أذار سنة ١٢٥٦ هـ وهذا نص عبارته :

افتخار العشائر الكرام حضرة متسلم بلاد بشارة بك عالي قدر حفظه الله

قبل تاريخه أصدرنا لجنابكم أوامر كافية بشأن سرعة توجهكم نواحي صفد ومن حيث وردت لنا أخبار الآن عن ابراهيم باشا بالقيام من الشام والمرور من نواحي جسر بنات يعقوب اقتضى والحالة هذه أسرعنا بإصدار أمرنا تكراراً لجنابكم لكي بحال وصوله إليكم تقوموا حالاً بجمع خيلكم وزلمكم إلى صفد

---

(١) محمد جابر العرفان م٢٧ .

(٢) شبيب باشا في الديوان ص٣٢ و ٧١ والظاهر أن محمد جابر أخذ عن الديوان واقتبس من قصيدتي الكاظمي والسبيتي واستقل بما أشرنا اليه آنفاً فقط وينتف أخرى وأما نحن فقد اعتمدنا على الجميع .

ومتى بلغكم قدوم ابراهيم باشا سواء كان من نواحي جسر بنات يعقوب أو من جسر المجامع يلزم منكم بالحال وَالساعة تسرعوا بكامل جيوشكم لضربه وتتبعوا آثاره أينما توجه وتبطشوا به وبالأكثر ليلاً ولا نقبل لكم ولا عذر كلياً عن عدم قيامكم عاجلاً حيث هذه آخرة الواقعات ونحن بحوله تعالى عازمين على القيام بالذات لصفد ولا يلزم زود تأكيد عن ذلك اعتمدوا أمرنا هذا والله تعالى يحفظكم ، انتهى . (١) ولما انقضى أمر المصريين وعادت البلاد إلى حكم الأتراك أغدقت الدولة على الأمير حمد البك بالعطايا فأهدت اليه سيفاً قبضته مرصعة بالجواهر باسم الحضرة السلطانية ووجهت اليه رتبة « اسطبل عامرة مديري » وفوضت اليه حكومة جبل عامل كما كان أسلافه من قبله وأهداه شاه إيران شالاً من الكشمير الثمين وطائراً من البزاة(٢). ثم إن عرب اللجاه وحوران نبذوا طاعة الدولة فانتدبته الدولة لتأديبهم فجهز حملة من رجاله وجنده وعسكر على الحدود وعسكر على الأردن فغير الجسر وخيم حيث الطريق إلى ناعران وفي أثناء ذلك استاقت عربان الجولان ماشية لعرب الخيط من أعمال صفد فلجأ هؤلاء إلى بلاد بشارة بما عندهم من المواشي فراراً من أولئك ونزلوا سهل قادس في جنوب مقام نبي الله يوشع عليه السلام فاجتمعوا أولئك العربان وغزوهم بغتة فأصابوا سائر ماشيتهم فبلغ الخبر جيرة ذلك الموقع وهم قرى عيثرون والمالكية وقدس فلحقوهم ولكنهم لم يدركوا آثارهم، وعندما وافى البك الخبر استرجع من العربان ما غنموه وسلمه لأربابه وبث في تلك الأطراف الأمن ؛ وكان مدة إقامته يبعث بجموع من طرفه تحت قيادة معتمديه فيجتمعون مع العسكر السلطاني المعسكر بانتظار حركته لهاتيك الجهات ليتجسسوا الأمور ويرسل بالجواسيس لتلك الأنحاء وبقي ينتظر حيث فهم في هذا الأثناء مخالفة رأي الوالي في بيروت لرئيس العساكر في الشام وجعل مخابراته متصلة مع الجانبين ليأخذ النتيجة بالصورة المرضية لدى اولياء الأمور(٣). وفي

---

(١) ديوان شبيب باشا ص ٣٣ وعنه أخذ جابر ولكنه لم يشر للمستند .

(٢) محمد جابر في العرفان م٢٧ وقصيدة الشيخ حبيب الكاظمي الموجودة في ديوان شبيب باشا .

(٣) ديوان الباشا عن الجوهر المنضد للسبيتي اثبتناه على ركته ولحنه ص ٤٠ .

تلك الاونة اشتبكت الدولة مع الروس في حرب القرم فعدلت عن عزمها وغيرت خطتها وأوعزت اليه بالكف عن تعقيب الثوار فعاد الى تبنين مقر عمه ناصيف بعد أن نال ثقة رجال الدولة وثناءهم وفيما يلي نص رسالة أرسلها اليه محمد باشا القبريسي وكان يومئذ مشيراً للأوردوا عربستان وتولى بعدها منصب الصدارة العظمى وهو يشير في هذه الرسالة إلى المهمات التي قام بها حمد البك ويشكره عليها:

غب التحية الوفية والتسليمات البهية نبدي أنه بتاريخه ورد تحريركم الجالب السرور وحصل به كمال الأنس والحبور بما أفاده من نيلكم رتبة (اسطبل عامرة مديري) شاهانية بساية الاحسانات العميمة الملوكانية وفي الحقيقة إن ذلك من ثمرات شجرة صداقتكم المعهودة ومكافأة لما قد أبرزتموه في خدمة الدولة العلية من الغيرة المشهورة بناء على تكرر تقديم الإنهاء من طرفنا بمسارعتكم لخدمة الدين والدولة وقت سوق الأوردو الهمايوني لإنفاذ الارادة السنية وما اجريتموه حينئذ من الهمة المخلصة الوفية ومن كان مثلكم من عبيد الدولة العلية المتصفين بالصدق والاستقامة يستحق فوق هذا من الرفعة والكرامة بعون عناية ذي القدرة الصمدانية وساية ولي نعمة العالم والبرية لاتزالون مشمولين بالرضا السامي الملوكاني حائزين الترقي وبلوغ الأماني إلى أن نهنيكم برتبة الوزارة العظيمة المقدار في ظل صاحب الشوكة والاقتدار. والآن بناء عليه وخاصة لتهنيتكم بهذه المسرة حررنا لكم شقة المحبة والخلوص فواصلونا بمشعرات صحتكم المرغوبة مع إفادة المهام المطلوب ودمتم :

عن شام في ١١ را سنة ٦٩ « محمد »[١]

ثم إنه لما فاز حمد البك في معاركه الآنفة ونال الشهرة الواسعة وفدت عليه الشعراء من العراق وفلسطين ولبنان وأطنبوا في مواقفه ومآثره وقد اقتصر شبيب باشا على اثبات بعض ما أثبته الشيخ علي السبيتي في الجوهر المنضد الذي ألفه في شرح قصيدة علي بك الأسعد وأروع ما حمله لنا التاريخ في هذا المضمار

(١) ديوان الباشا ص٤١ والشعر الذي نختاره الساعة من المدائح والمراثي مثبت في ما بعدها من صحائف الديوان وعنه أخذنا .

قصيدة الشيخ حبيب الكاظمي وهي قصيدة تزيد على مئة بيت نقتصر منها على ما يلي

قال الكاظمي :

بشرت بالمزن أرواح النعامى ... فاجلُ بالكأس على أيدي الندامى
وطوى البشر الأماني إذا وطا ... حمد البك من الظهر السناما
حلب الدهر به ضرع الندى ... فارتوى صوباً وما استسقى غماما
قد شكى السيف الظما حتى ارتوى ... وانحنى عود القنا حتى استقاما
واطىء الهام احتكم فيها بما ... تنصف الحكمة في البين اقتساما
ودع الحكمة تعطي قسمها ... للظُّبى جاماً وللتيجان جاما
واحْيِها سنة من سنّوا على ... سنن الدهر مقاماً لن يراما
لست بالآخذ عن مستحدث ... ولك السبق قديماً ودواما
إنها جاءتك تزجي خيلها ... ولقد ألقت بناديك الزماما
وتخطى المجد أعناق الورى ... فاذا حل بناديك أقاما
واصطفاك الملك عيناً ويداً ... وحباك الله نصراً واحتشاما
حيث ألفاك حساماً قاطعاً ... حادث الخطب فأهداك الحساما[1]
وقد اختارك درعاً سابغاً ... فجنى المثل بمثليه اعتلاما
برميش[2] كيف أوطأت العدى ... بالضميرات فنكست النظاما
إذلوى مير اللوى[3] عنه اللوى ... والتوى كالظَّبي يحتل الأجاما
هل درى الوادي[4] من استنزله ... أجدل شام بواديه حماما

---

(١) إشارة للسيف المرصع القبضة بالجواهر الذي أهدي اليه من الحضرة السلطانية .

(٢) قرية جنوبي جبل عامل بالقرب من بنت جبيل وأمامها سهل فسيح وفيها جرت المعركة بين حمد البك والجند النظامي المصري فانهزم المصريون .

(٣) هو اللقب الرسمي للقائد المصري وهي رتبة عسكرية وكان اسمه عمر كما يظهر من قصيدة السبيتي الآتية .

(٤) هو وادي الحبيس قرب عكا ويظهر من الأبيات الآتية أن فلسطين ألقت القياد الى حمد البك ولم تشاغب وقد استفدنا من قصيدة الكاظمي والسبيتي عدة فوائد ، وهنا ينطبق ما قلناه فيما مضى قد يحفظ الأدب وينسى التاريخ .

خـــر منقضـاً عـــلى أوكـــارهـــا فتخـــاذلن من الركب اصـطلاما
ولـــك السطوة أورت زنـــدهـــا في فلســـطين فـألفيت اللهـــامـا
رأت الـتـســليم مـــنهـــا سلماً منك ينجيها فـوافتك اعتصـاما
ورئـــيس الـقـــوم ولّى مـــدبـــراً حين ألفى قسور الحرب إماما
وعلى الأردن[1] منك انتفضت ردن المـوت هجـومـاً واقتحـامـا
ولكم أشفيت قلبـاً مـــوجعـــاً في شفا عمرو[2] وأحييت رماما
ثم أطلقت أســارى[3] أوغلت للحشـا ناراً وللدمع انسجـامـا
هكـــذا من لـــرضـــا سلطانـــه يجعـل الأعـداء أشـلاء حـطامـا
يـــاليـــوثـــاً جـــاء من أشبـــالهم كعـلي القدر[4] مقـدامـاً همـامـا
عـــطر الـكـــون ثـنـــاء فـيـهـم ينشر الطيب على رغم الخزامي

وختامها

خـــذ أبـافـــدعم[5] مني غـــادة اسفرت عن غرة الصبح اللثاما
دم وعش واسلم وصلْ واغنَم وصلْ لا القنا جاف ولا السيف كهاما
لم يـــزل ذكـــرك يـعـلو كـــلما بشـرت بـالمزن أرواح النعـامى

ومن قصيدة لشاعر مسيحي يدعى ابراهيم افندي الصولي :

أقـســمـت بمـنـحـلك الـشـعـرِ وبمـــا في الـغـــرة مـــن فـجـــرِ

---

(١) هو النهر المعروف وعلى ضفافه جرت معارك دامية بين الأمير حمد البك وبين جيوش المصريين فهزمهم .
(٢) اسم لبلدة بالقرب من عكا وفيها وقعت معركة بين الأمير والجيش المصري ايضاً فكانت الغلبة له عليهم .
(٣) يشير للاسارى الذين تولى حمد البك اطلاقهم من سجون عكا
(٤) هو الزعيم علي بك الأسعد وقد خلف عم ابيه حمد البك في زعامة جبل عامل فكان حكمها بعد حمد لعلي بك .
(٥) كنيـة حمـد البـك ولم يكن له ولـد ويكنى محمد البـك الأسعد أخـو خليل بـك الأسعـد وشـريـك علي بك الأسعد في الحكم بأبي فايز ولم يكن له ولد ويكنى كامل بك الأسعد بأبي سطام ولم يكن له ولد ويكنى علي بك الأنف بأبي السعود وثامر بك بأبي درويش وهكذا كانوا يكتنون على عادة العرب .

وبسهم لواحظها وبما قد أودع فيها من سحرِ

ومنها:

وهنالك رأس عساكرهم حمد يتهلل بالبشرِ
وهناك هناك أتى حمد كهزبز فُكَّ من الأسرِ
وانقضَّ بجيش جرار كأسد على بقرٍ شفرِ
وتبعه الجيش يصيح بهم إن الانسان لَفي خُسْرِ
لله بنو نصار وما نسلت من وائل للفخرِ

ومن قصيدة للأديب اللغوي الشيخ علي السبيتي الكفراوي أولها:

تفاخرني السراة وإن قومي لَقومٌ جلببوا الشمس الظلاما

* * * *

لنا يوم الحبيس(١) وأي يوم منعنا شوس مصرٍ أن تناما
غدا عمراً(٢) رئيسهم شريداً له خلفٌ وليس له إماما
دهته المشرفية والعوالي وكم فجٍّ تخيله ركاما
وقبل يوم حمص(٣) لو ترانا أثرنا نقع حرب قد أغاما
تقاعس كل أشوسَ مشمخرٌ وبحر الموت يلتطم التطاما
أطعنا الملك إذ يعصيه قوم على حال نرى الصبح الظلاما

وهي طويلة.

وفي سنة ١٢٦٢ هـ تزوج علي بك الأسعد المولود في سنة ١٢٤٧ هـ في قلعة تبنين فاجتمعت الناس بمناسبة زفافه من سائر الديار الشامية من ذوي

---

(١) قد مرت الأشارة اليه في قصيدة الكاظمي فان المراد بالوادي هو وادي الحبيس.
(٢) اسم القائد المصري في وقعة الحبيس وقد أفهمنا هذا الشاعر عن اسم القائد وعن هزيمته بنفسه قبل جنده وهذا مما حفظه الأدب ونسية التاريخ.
(٣) هي الواقعة التي اشترك فيها حمد البك مع الجيش التركي في حمص في مقابلة الجيش المصري وكانت الغلبة لهم على المصريين.

الحضارة والبداوة بين وجيه وأمير ، وكبير وصغير ، ولقد جمعت وليمة ذلك الزفاف ما ينوف عن الأربعين الفاً ، وكانت الجفان والأواني لا تعد ولا تحصى ، وقد امتدت للخاص والعام ومع ذلك لم تكفِ فآل الأمر الى اتخاذ الألواح الكبيرة وإلصاق بعضها ببعض ، حتى غدت كأنها جفان في بطون أودية ، تقل ربوات من القرى وغصت المنازل والبيوت المعدة لهذه الجماهير وكانت الخيام قد ضربت وامتدت أطنابها ، حتى غطت وجه هاتيك البقاع ؛ والناس كأنهم في محشر من فرح ، وأنشدت الشعراء في ذلك اليوم غرر الشعر ، وقد أغدق على الوفاد في ذلك اليوم بالصلات والعطايا من الخيل والسلاح والخلع والنقود ، حتى قال الناس لو كان هذا البذل من بحر لنفذ ؛ وكان يكرم كلاً بحسبه[1] ومن جملة القصائد التي نظمت بمناسبة هذا العرس قصيدة الشيخ صالح الطرشيحي من طيرشيحا في جهات فلسطين قال :

طفح الكون سروراً طفحا ... وهمى غيث الصفا كالمطرِ
وتلاشى الهم عنا وانمحى ... ماعهدنا في الورى من كدرِ
مذ أقام السعد فيه الفرحا ... لعلي ذي المقام الأنورِ

* * * *

فهلموا يابني الدنيا إليهْ ... وانظروا ما بهرت منه العقولْ
محشر قد جمع الناس عليهْ ... لا تفي في وصفه منا النُّقولْ

ومنها ما قاله الشيخ حبيب الكاظمي ، فمن قصيدته اللامية :

بغطارف بيض اذا استنصرتهم ... لملمة لبىَّ نداك الفيصلُ
من يعربٍ فيها تسامت يعربٌ ... فمكفِّل في مجدها ومكفَّلُ
هم آل نصار الذين اذا انتموا ... لبس المفاخر حارث ومهلهل

---

(١) ديوان شبيب باشا ص٩٤ و ٩٥ حكاه عن كتاب الجوهر المنضد للسبيتي ونقل لفظه ولخصناه منه ، وعدها صاحب الكتاب من مكارم علي بك ، ويظهر من حديث السبيتي عن هذا اليوم أنه من الأدباء لا العلماء ، لأنه يتمدح بتهيؤ آلات الطرب وألعاب الأفراح في هذا اليوم ، ولا يليق بالروحاني أن يذكرها إلا في مقام الانتقاد .

الخيـل صـافنـة عـلى أبـوابهم والرعب يعـدو في القلوب فيقتل

ومنها في مدح حمد البـك:

لم يعتقل سمر القنا عن حاجة وبـعـزمـه لـلبـاتـرات مـفـلل
لكنـما اعتقـل الـرمـاح لعله أن يستجير به السماك الأعزل
لكم الهنـا آل الصغـير مكبـر في عـز شأن عـلاكم ومهلل
بقران دريِّـينَّ في أوج العـلى شمس تنيـر علا وبـدر أكمـل
هوذا عليٌّ البـك أسعد واطىء هـاماتهـا وهـو الحـري الأفضـل

وله عدة قصائد رنانة في مدح حمد البك منها قصيدة دالية نظمها بمناسبة العيد ويمدح بها عليًّا ومنها بائية يمدح بها حمداً وعليًّا وكل شعره غرر(١) .

الوضع الإداري على عهد الأمير حمد البك وأنواع الضرائب(٢)

استقرت البلاد على عهد حمد البك وخضعت لحكم الدولة العثمانية ولأخذ العسكر ودفع الضرائب ولكن تحت رياسة حمد البك وكان هو الذي يدير شؤون البلاد وهو الذي يتولى ذلك وكان شكل الحكم أشبه شيء بالحكم الإقطاعي وكان يحيط به ثلة من أرحامه كعلي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد وسلمان بك وثامر بك وحسين بك السلمان الذي حكم في بنت جبيل سنة ١٢٦٤ هـ وكان حمد البك يدفع للحكومة أموالاً مقررة والأمراء يأخذون من البلاد أموالاً وضرائب مختلفة وكانت أنواع الضرائب كما يلي ١ ـ: فدنة ٢ ـ: ثمن فراء ٣ ـ: ثمن أحذية، كان الأمراء يأخذون عن كل فدان شيئاً معلوماً يسمونـه فدنة ويأخذون ثمن فراء للعسكر يزعمون أن الحكومة تطلب منهم هذا الطلب لكي يشتروا به فراء في أول الشتاء لأن البلاد باردة والعسكر يتجول دائماً

(١) ديوان شبيب باشا ص٤٣ و ص٤٩ .
(٢) هذا البحث كله مستقى من المقدمة التي هي بقلم الخال رحمه الله ويقول إنه سمعه من المرحوم والده والمعمرين من أهل البلاد المجاورة لبلده . .

ويأخذون منهم أيضاً ثمن أحذية ومكثوا على هذا الحال زمناً ثم فرضوا أعشار الغلال وجعلوا على كل بلد شيئاً معلوماً من الحبوب يورده الأهالي للأنبار ـ المكان المعد لحفظ الحبوب الراجعة للحكومة في المراكز ـ ويسمونه حصة العنبر وكان أكثر البلاد خراباً ولم تكن النفوس محصاة في ذلك العهد فنفوس الأهلين لم تكن مسجلة في دفاتر الحكومة ومثلها الأراضي بل كان الأمراء والأغنياء يجمعون الناس إلى القرى ويعطونهم ثمن بقر وبذور ويأخذون منهم حصة معلومة ويسمونهم شركاء فكل بلد لها شريك يقدم لها ما تحتاجه من الأمور الآنفة وكانوا يلزمون الناس بفلاحة الأرض وزرعها رغماً وما زالت الأمور كذلك إلى سنة ١٢٦٩ هـ

ولم يتعرض لهذه الأمور غير الخال رحمه الله كما أنه لم يتعرض هو ولا غيره لتقسيم المقاطعات ولا لتسمية حكامها نعم ذكر ثامر الحسين ووالده حسين السلمان وأنه حكم مقاطعة هونين ومرجعيون وأن مقر حكمه بنت جبيل بمناسبة الاختلاف الذي جرى بين ثامر وبين علي بك . . .

وفاة حمد البك

توفي حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ ودفنه علي بك الأسعد حفيد أخيه في مقام نبي الله يوشع بن نون (ع) وبنى قبّتين إحداهما على المقام والثانية على القبر، وجعلها أصغر من قبة يوشع (ع) بقليل تعظيماً له ، وشيد هناك عدة بنيات ؛ ولم يترك حمد عقباً من ذكر أو أنثى وكان إرثه منحصراً بعلي بك الأسعد ، وكان يكنى بأبي فدعم ، وقد أرخ عام وفاته الشيخ إبراهيم صادق يحي العاملي الطيباوي وهو إذ ذاك في العراق بقصيدةمنها :

لقد عميت عين المفاخر إذ رأت من الأفق ارخ بدرها حمد غابا

وله تاريخ في مقطوعة كتبت على القبر وهو :

وقد بنى أبو السعود فوقها بيتاً على قواعد المجد رسا

فطاول السبع العلى مذأرخوا   بيتاً على تقوى عليٍّ أسسا[1]

وأبو السعود هو علي بك الأسعد ولم يكن له ولد من بعده بهذا الأسم وإنما هو مجرد اكتناء ، وقد رُثي حمد البك بعيون الشعر ؛ وأبلغ المراثي قصيدة للشيخ حبيب الكاظمي ، منها : -

أملفع بالبيض من أكفانها   ومناله بالبيض مجد أخضر

* * * *

ويد تصفرها المنون وطالما   منها جرى في الروع موت أحمر

ويظهر أن وفاته كانت في شهر رمضان وذلك حيث يقول :

فكأن نعشك والقلوب وراءه   تجري وموكبك العديد الأكثر
سيف ابن ذي يزن سرى بر كابه   ولديه قحطان تسير وحمير
ولقد غلطت بشبهه سيف اذا   ما كان عن سيف يجل ويكبر
بل كان لما آن ينشر آية   والناس تعلن بالأذان وتخبر
صبحا علا والناس ترقب فجره   لصيامها فمهلل ومكبر
صاموا عن اللذات بعدك فالبكا   من وردها وعلى التأسي تفطر
الله أكبر أي طود قد هوى   من آل نصار وبدر يخفر

* * * *

حتى اذا أدوا لديك صلاتهم   وعليك صلّى الخالق المتكبر
ستروا محيًّا طالما كُشفت به   دجنُ العنا وامتدَّ صبح أنور

وهي طويلة وله في رثائه هائية أطول منها يقول فيها :

عجبت يا واحد الدنيا لواحدة   لما حملت وقد سارت سواريها
مجرداً وسيوف الهند مغمدة   وسائراً والمذاكي في مواقيها

---

(١) ديوان الباشا ص٦٦ و ٦٧ و ٦٨ ومن الغريب ان كتاب القبريسي الذي يهنؤه فيه جاءه في ١١ رمضان سنة ١٢٦٩ هـ وقد مر الكتاب فتكون وفاته بعده بقليل .

وهي كسائر شعره كلها غرر ، وتمتاز بأنها تحمل صورة عن نفس هذا الشاعر الملتهبة وتمثل الفاجعة ، وممن رثاه الشيخ علي زيدان العاملي بقصيدة تزيد على مئة بيت منها :

وأين أخو الأقلام يخضب هامها ... فيثنى العوالي أو تضل الكتائبا
ملكت لواء الحمد إن كنت ضارباً ... غداة التقى الجمعان أو كنت واهبا
تسبلت الدنيا لفقدك واغتدت ... رياض المنى منها قفاراً سباسبا
فقل لحسودٍ راح يغضي على قذًى ... يكابد أضغاناً ملأن الترائبا
أتأمل من حوض الأماني مشارباً ... ولم تشرب الكاس الذي كان شاربا
تزحزح قصيّاً قام بالأمر حازم ... وشبل غدا عن فلك الليث نائبا
لئن جبَّ هذا الدهر منا مناكباً ... فإن لنا من ساعديك مناكبا

وقد أجلنا مدائحه ومراثيه كما أجلنا مدائح غيره ومراثيه إلى الحلقة التي خصصناها بزعماء عاملة ، وفي يوم الأربعين تلا الشيخ محمد علي خاتون خطبة طويلة مسجعة ؛ وقد أثبت شبيب باشا بن علي بك الأسعد هذه الخطبة وتلك القصائد في ديوانه حاكياً لها عن كتاب السبيتي ، ويظهر من قصيدة زيدان وخطبة خاتون أنه كان يوجد في عاملة من ينتظر أن تكون زعامة البلاد له بعد حمد البك وأن يحرم منها علي بك الأسعد[1] وكانت مدة حكم حمد البك منذ سنة ١٢٥٦ هـ إلى سنة ٦٩ واستشهد والده الشيخ محمود النصار سنة ١١٩٣ هـ فيكون عاش بعده ستاً وسبعين سنة ولا نعرف المدة التي عاشها مع أبيه ، وكان أديباً ماهراً وشاعراً عالماً وخطيباً لبقاً حتى نعته بعض الولاة بفيلسوف العرب ، ويظهر أن الحركة العلمية والأدبية على عهده كانت موفقة جداً ، وهذا من الطبيعي فإن الزعيم إذا كان عالماً أديباً يكبر العلم والأدب وأما الجاهل بهما فهو عدو لهما .

ولا يحضرنا من شعر حمد البك شيء سوى مطلع قصيدته السالفية التي امتدح بها السلطان عبد المجيد خان العثماني وهو :

تورد خد الظبي واخضرَّ سالفه ... له الخال قد أضحى سميراً يسالفه

(١) لاحظ ديوان شبيب باشا ص ٤٩ ـ ٦٦

وله تشطير البردة وقد أحكمه[1] كما قيل .

حكومة علي بك الأسعد[2]

ولد علي بك الأسعد سنة ١٢٣٧ هـ وتوفي جده محمد البك ابن أبي حمد الشيخ محمود النصار في سنة ولادته ، وتوفي والده أسعد بك قبيل خروج ابراهيم باشا المصري من سوريا[3] . وقد شارك علي بك عم أبيه حمد البك في مطاردة المصريين وكان عمره إذ ذاك نحواً من عشر سنين وقد تولى بنفسه سوق أسرى واقعة وادي الحبيس وتسليمهم للقائد العثماني وتزوج سنة ١٢٦٢ هـ كما ذكر في الديوان ص٩٤ وتولى حكومة البلاد بعد وفاة حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ وكان حمد البك قد مهد له الأمور وكان يحمل كفاءة عظيمة ومقدرة خارقة ، ولباقة ممتازة فقد عمرت سوق العلم على عهده ، وقامت عكاظ الأدب على ساق ، واعتزت البلاد وظهرت بأعظم مظاهر الكرامة ، وقد ألف بين زعماء عاملة ، فأمرهم بأن يتخاطبوا فيما بينهم بيا ابن العم مع ما بينهم من بُعد الأنساب ، ومع أن آل علي الصغير يتزوجون من المناكرة والصعبيين ولا يزوجونهم[4]

وقام علي بك في مقام عم أبيه حمد البك وتولى حكومة البلاد وأحسن ادارتها فكان الزعيم المطاع الذي يقف آل علي الصغير وآل منكر وآل الصعبي عند أوامره وكان له قدم راسخة عند الدولة العثمانية حتى كانت الإيالة تستعين به على تسكين الثورات وتأديب العصاة كما كانت تستعين بعم أبيه حمد البك

(١) ذكر الباشا في ديوانه ص ٤٣ مطلع السالفية وأشار لتشطير البردة ولم يذكر منها شيئاً .

(٢) هو علي بك ابن أسعد البك ابن محمد البك ابن أبي حمد الشيخ محمود ابن الشيخ نصار الأحمد وقد كان أحفاد نصار يعرفون بآل نصار وهم أبناء ناصيف النصار ومحمود ومراد النصار ومحمد النصار ومن أبناء محمد النصار عباس المحمد النصار وعباس العلي المحمد النصار وحمزة المحمد النصار وحمد العباس المحمد النصار وسلمان العباس العلي المحمد النصار جد ثامر الحسين السلمان العباس ووالد حسين السلمان

(٣) وفاة أسعد البك ذكرت في ديوان حفيده شبيب باشا الأسعد ص٣٢ ووفاة محمد البك ذكرها الركيني في حوادث سنة ١٢٣٧ هـ وولادة علي بك ذكرها السبيتي في الجوهر المنضد كما حكى ذلك عنه شبيب باشا في الديوان ص٧١ .

(٤) لاحظ ديوان شبيب باشا ص٩٢ .

وبعم جده الشيخ ناصيف النصار ، وكان قد أحكم صلاته مع زعماء القبائل السورية من أهل البوادي فغمرهم بالعطايا وأرهبهم بكثرة السلاح والرجال وأرهب بهم من عداهم من الزعماء وكان علي بك مضافاً الى حنكته واجتماع كلمة أهل العلم حوله وإحاطة أهل الأدب به من سائر الأقطار العربية وتوجه أنظار الأفذاذ اليه ، أديباً ماهراً وشاعراً عبقرياً تتجلى في شاعريته روح الشاعر العربي الفطري حتى أن الأديب السبيتي ألف كتابه الجوهر المنضد في شرح عينية علي بك الأسعد المشهورة التي يفتخر فيها بآبائه وأجداده ومآثرهم وهي التي يقول فيها[1]:

نعمتَ صباحاً ربع تبنين واغتدتْ ... بك الغيد والآرام وهي رواتع

ومنها:

سموت بآباء كرام شعارهم ... بناء المعالي حيث كيوان طالع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم ... تمائمه البيض الرقاق القواطع
وهم مهدوا من عامل كل صعبة ... وهم شيدوها والرماح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنا ... وفي همم تندك منها القوارع
وهم لذوي الآمال كعبة آمل ... وعند لقا الأعدا رياح زعازع
ورب امرىء أودى الغرور بنفسه ... فسيق لما قد ساءنا وهو جازع
وجرَّ عنان الغي منه تبختراً ... ورام التي منها تطير القنازع
فكان عثوراً قد كبا بغية به ... وضاق به رحب الفضا وهو واسع

وله عدة قصائد ذكرها السبيتي في شرح القصيدة وحكاها شبيب في مقدمة الديوان ومنها قصيدته الهائية التي أرسلها لبني عمه من مركز الإيالة وفيها يقول[2]:

---

(١) ذكرنا شيئاً وافراً من شعره ومدائحه ومراثيه في الادب العاملي وفي زعماء عاملة امس واليوم وهما حلقتان من حلقات هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً ، اطلب قصيدته العينية من ديوان ولده شبيب باشا ص١٠٩ .

(٢) اطلب القصيدة في ديوان ولده شبيب باشا ص١٠٧ وقد حكاها عن كتاب السبيتي الذي أتم =

بني عمنا من آل فهر ووائـل حماة العذارى في الهياج وسورها
نشدتكم هل موقفي كان هيناً لدىٰ الحضرة العليا التي عز طورها

وكانت مكارم علي بك تتجاوز الحد فقد خرج من أمواله وذخائره وأسلحته وتحفه عدة مرات وكـان له هيبـة وسطوة تسـاعده عـلى حل المشكـلات ويستنير بها في دجى المعضلات.

يحدثنا السبيتي[1] أنه عندما حدثت الواقعة المعروفة بواقعة صفورية في فلسطين بين زعيم الأكراد في الديار الشامية شمدين زادة محمد سعيد باشا الذي أصبح بعد ذلك محافظ موكب الحاج الشريف وبين عقيل آغا الحاسي الشهير رئيس قبائل عربان الديار المصرية ـ الهوارة والهنادي ـ فتغلب الحاسي على زعيم الأكراد وقتل أخاه وتتبع فلول رجاله فاستنجد زعيم الأكراد بعلي بك الأسعد فجهز له سرية من رجاله وأمده بالذخائر والمهمات وحشد معه العسكر في أرض الخيط من أعمال صفد وفرق جموع آغا الحاسي ثم كتب للوالي والمشير يخبرهما بالحادث ويستأذنهما في الحملة على عقيل آغا فورد له الجواب بالشكـر على ما قام به وطلب الكف عن تأديبه ـ والظاهر أنه الجأهما بعد ذلك للصلح ـ ثم إنه وفد عليه عقيل آغاالحاسي ومعه من قومه الهوارة والهنادي ثلاثمئة فارس وأهدى لعلي بك فرساً وجواداً من الخيل الجياد وكان الوالي قد نحى عقيل آغا عن منصبه فأكرمه علي بك غاية الإكرام وخلع عليه وعلى قومه الخلع الثمينة حتى أنه لم يبق في منازله قطعة من القطع الثمينة النفيسة المدخرة مما بقي من الموروث عن آبائه واسلافه إلا أخرجها في ذلك اليوم حتى بلغت قيمة ما أكرمهم به ثلاثمئة وخمسين ألف غرش ـ وبالطبع إن هذه القيمة مع قطع النظر عن قيمة تلك الأشياء الأثرية ـ ومما أكرمهم به علبتان من الذهب مرصعتان بالألماس الثمين

= الجزء الأول من المجلد الأول منه في ١١ ذي الحجة سنة ١٢٧٦ هـ ويزعم الأستاذ رضا أنه نظمها بعد حادثة لبنان التي وقتها هو بأنها حدثت سنة ١٢٧٩ هـ وهو اشتباه ظاهر كما أنه اشتبه في توقيت حادثة لبنان بهذا التوقيت لأن شبيب باشا يوقتها بأنها حدثت سنة ١٢٧٧ هـ ويذكر كتاب الأمير عبد القادر الجزائري لوالده بتلك المناسبة وتاريخه في ٣ صفر سنة ١٢٧٧ .

(١) حكاه عنه شبيب باشا في ديوانه ص٩٣ و ٩٥ و ٩٦ وكلام السبيتي معقد في غاية التعقيد حتى انه يذكر الحوادث مدخلا بعضها في اثناء البعض الاخر حتى تكاد لا تتميز.

وخنجران ثمينان مذهبان مرصعان بالألماس والات تبغ من الكورباء المرصع بالألماس وخمسة وسبعون سيفاً مفضض القبضة من أحسن السيوف وبندقية وعدد من السلاح المسمى ـ طبنجا وقرابينه ـ وألبس كلًّا من الثلاثمئة بعضهم جبة وسروالاً من الجوخ وكفية من الحرير، والبعض عباثة وسروالاً وكفية وكان قد أشغل الخياطين الموجودين في قلعة تبنين للقيام بشؤونه والموجودين في صور وصيداء وأمرهم بالاسراع بالعمل وقد عهد الى زعيم هذا الوفد بتقسيم هذه العطايا عليهم كلاًّ بحسبه. فانها وضعت في مكان مخصوص ثم أذن له بتفريقها على قومه . ثم إن علي بك طلب من والي صيداء العفو عن عقيل آغا فأجابه الى ذلك وأصدر أوامر الرضا فذهب مغموراً بالجود والاحسان والعفو والامتنان .

ويقول السبيتي أيضاً[1] لما قامت الثورة في جبال النصيرية التي أضرم نارها الزعيم العلوي الكبير اسماعيل خير بك والد أهوش بك ورئيس المتاورة المعروفة بشدة البأس ووفرة العدد ، دعت السلطة علي بك واستعانت به في هذه المهمة فجهز جيشا وجاء به لقاعدة الأيالة ثم بعث رسالة الى زعيم تلك البلاد القائم بهذه الثورة فوعده وأوعده فما كان منه حتى حضر وألقى قياده اليه ، فاستعفى الوالي عنه فعفا عنه الوالي وألبسه خلعة الخضوع فانصرفت الثورة وحقنت الدماء وقد ذكر الشعراء هذه الحادثة في شعرهم وسيمر على القارىء شيء من ذلك إن شاء الله .

وعلي بك هو الذي أصلح بين آل المزيد وآل الدوخي رؤساء بني علي وكل منهما من فروع عنزة وحسم ما بينهم من خلاف وعقد راية الصلح بيده ، التي كانت ولم تزل من خصائص آل علي الصغير منذ زمن قديم الى يومنا هذا فلا يتم صلح ولا تعقد راية الوئام بين قبيلتين متعاديتين من العشائر الضاربة في جنوبي سوريا وشرقها إلا في دور آل الأسعد في تبنين والطيبة[2]

(١) حكاه عنه شبيب باشا في الديوان ص ٩٨ وزاد محمد جابر بعض الخصوصيات في العرفان في م٢٧ ص١٩٨

(٢) محمد جابر في العرفان م٢٧ ص١٩٨

وعندما حدثت الحرب الأهلية الكبرى في لبنان بين الدروز والنصاري سنة ١٨٦٠م الموافق سنة ١٢٧٧ هـ[1] وقف علي بك وأهل بلاده موقفاً شريفاً يشكره لهم التاريخ فقد التجأ اليهم كثير من منكوبي النصارى، فآواهم العامليون وأكرموا مثواهم ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً لم يزل يذكره نبلاؤهم الى اليوم، وبالطبع إن مصدر هذه الأعمال علماء عاملة وزعماؤها فقد حدثنا التاريخ أن النصارى أودعوا أموالهم في جباع في دار العلامة الشيخ عبد الله نعمة وفي دور آل الحر[2] ووجيههم في ذلك الوقت الشيخ علي الحر فانتهب الدروز تلك الأمانات ولم يعفوا عن أموال العلامة وآل الحر، فاهتز الجبل بأسره وأسرع محمد بك الأسعد على رأس ألف فارس إلى جباع لمهاجمة الدروز وحاول أن يثأر لكرامة هؤلاء وينتصر للمسيحيين غير أن سياسة الدولة قضت بايقاف الهجوم وحال دونه خورشيد باشا والي ايالة صيدا، فسوى المسألة وأعاد المنهوبات وعوضت الدولة على العلامة الشيخ عبد الله نعمة وعلى آل الحر بدل ما فقد لهم، وعندما وقعت الواقعة أرسلت الدولة العثمانية الوزير فؤاد باشا لإخماد الثورة فاستدعى علي بك وصحبه معه إلى الشام وغيرها وكان مع علي بك ما يقرب من ألف فارس من فرسانه الأشداء على نفقته فقسمهم ووجههم لحماية تلك الجهات فأرسل سرية إلى حوران، وثانية إلى غوطة الشام، وثالثة إلى وادي التيم لملاحظة حاصبيا وراشيا ونقل مصابي المسيحيين منها ومن جبل لبنان إلى صور وصيداء وبيروت وكان قد آوى شطراً منهم في دار حكمه تبنين وكانت مع ذلك صداقته مع زعماء الدروز محفوظة، واقتضى الأمر أن يتوجه بنفسه إلى حوران فلما وصلها

(١) وقت الشيخ أحمد رضا هذا الحادث بسنة ١٢٧٩ هـ في العرفان م٢ وهو يخالف توقيت شبيب باشا في الديوان ص٩٨ - ١٠٢ ويخالف توقيت رسالة الأمير عبد القادر الجزائري التي أرسلها لعلي بك بمناسبة هذا الحادث وتاريخها ص٣ سنة ١٢٧٧ هـ وقد اشار لهذا الحادث شبيب باشا ومحمد جابر وغيرها .

(٢) الأستاذ محمد جابر هو الذي ذكر محاولة انتصار محمد بك الأسعد للنصارى كما أنه زعم أن الأمانات كانت في دار العلامة الشيخ عبد الله نعمة فعقبه الأستاذ علي مرتضى الحر في م٢٧ ص٣٣٧ زاعماً أن الأمانات كانت في دور آل الحر أيضاً وأن الحكومة عوضت على آل الحر أكثر مما عوضت به على العلامة الشيخ عبد الله نعمة لأن منهوباتهم أكثر وأجابه الأستاذ جابر موافقاً له غير أنه ناقشه في مستنداته التاريخية قائلاً إنها تعرضت لإحسان الشيعة للمسيحيين وذكرت آل الحر من جملة المحسنين ولم تذكر الأمانات .

توافد عليه الزعماء كولد علي من غزة والرولا وغيرهم وكان علي بك إذا ركب تقاد له ستة جنائب من جياد الخيل مزينة بالحلي المتقن مسرجه بالسروج المفضضة المذهبة ولا يركبها أحد سواه ينتقل من بعض منها لآخر متى شاء ، وكان يمتطي في ذلك الوقت صهوة عبيان الجواد الأشقر الذي قيل إنه ليس له ثانٍ في الأقطار الشامية حاضرها وباديها، ولما نظر الشيخ محمد الدوخي السمير رئيس بني علي إحداها ادهشته فسأل السائس عن جنسها وكانت حمراء فقال له النعامة فذكر لعلي بك إعجابه بها فأمر له فيها بما عليها فأخذها شاكراً ؛ وكان يصله هو وغيره من الزعماء إذا وفدوا ، ويتفقدهم بالصلات وهم في منازلهم ؛ وكان اذا حضر في المحل الذي يقيم فيه فؤاد باشا يكون عضواً فوق العادة في المجلس المشكل للنظر في الأمور ، وعندما أرسل سرية إلى حوران كتب الى السيد الأمير عبد القادر الجزائري الحسيني وهو بدمشق ليخرج لهم تذكرة المرور على القاعدة المتخذة في ذلك الحادث فورد إليه الجواب وهذا نصه[1] :

قدوة الأمراء الكرام وعمدة الفخماء العظام جليل القدر والشأن علي بك المحترم أدام الله تعالى بقاه .

غب استعطاف الخاطر العاطر الفاخر مع كثرة الاشتياق لرؤياكم ؛ ثم أبدي أنه يوم تاريخه قد وصل لنا كتابكم المنيف وما تفضلتم به بخصوص إخراج تذكرة لوكيل حضرتكم حسب تعريفكم أخرجنا لهم تذكرة الرخصة والإمرار وهو واصل لطرفكم ، والمأمول من بعد عدم إبراحنا من شريف الخاطر ، دائماً اتصال التحارير والله سبحانه وتعالى يهون جميع أموركم ويديمكم بالبقاء في الأنظار الملوكانية بما أظهرتم من الهمة والغيرة والخدامات السنية وأدام الله تعالى بقاكم في ٣ص ١٢٧٧ هـ

وقد بنى علي بك في نفس قلعة تبنين السرايات ـ القصور العديدة والدور الكثيرة والدوائر للضيفان والحشم حتى أصبحت تدهش العقول وتحير الألباب لما

(١) ذكر قضية واقعة لبنان ومتعلقاتها الباشا في الديوان ص٩٨ ـ إلى ص١٠٢ عدا ما أشرنا اليه في الهامش السابق .

فيها من غريب النقش وبديع الترخيم ومبتكر الفن وحسن البناء، فانه استحضر لذلك أشهر أهل الفن وقد بلغ مجموع ما أنفقه في هذا السبيل ما يزيد على ثلاثة آلاف كيس وثمانمئة كيس(٢)، وكان يطرب لفعل الجميل ويرتاح للمكارم حتى لم يبق بيت من بيوت المجد الا وله عليه يد، وكان لا يسمع بحاجة لأحد الأشراف الا ويسارع لقضائها وقد سطر السبيتي في الجوهر المنضد شطراً من هذه الأيادي.

منها أنه بلغه أن السلطة أوقفت أحد الزعماء من ذوي البيوتات لاستيفاء مبلغ سبعين ألف غرش كانت ديناً عليه فأرسل معتمده فوفاها عنه وأطلقه ابتداء من غير استدعاء. ومنها أنه بلغه أن شخصا آخر نظير الأول مال به الزمان وأن عليه خمسة وأربعين ألف غرش فأرسل بهذا المبلغ اليه. ومنها أنه استحضر عائلتين كبيرتين من بعض أمراء بعض الديار فاسكنهما في قصوره الشامخة وبذل لهما سائر ما تحتاجانه من مال وذخيرة وأقامتا على ذلك أعواماً. ومنها أنه كان يكرم ذوي البيوت العاملية فلم ير في زمانه شخص يستحق منصباً وهو دونه(٢).

اسباب انهيار حكومة آل علي الصغير عامة
وزوال حكم علي بك الأسعد خاصة

تعرضنا لهذه الناحية بصورة مجملة من الناحية التاريخية ومفصلة من الناحية التحليلية في ج١ من جبل عامل في التاريخ ص١٣٧، ونريد الآن شرحها بصورة واضحة من الناحية التاريخية، وأسباب الأنهيار تنحصر بفتنة داخلية استغلها المستعمر الأثيم، وقد كان علي بك يعالج هذا الداء بالأساليب المختلفة وأهمها بالصبر على مالا يرتضيه من ابن عمه البعيد ثامر بك الحسين. وأخيراً رأى أن يستأصل الداء ويجري عملية الانتقام فاصدر منشوراً بتنحية ثامر عن مقاطعتي جبل هونين ومرجعيون وتعيين ابن عمه الآخر محمد بك الأسعد

---

(١) الكيس في زمن نصار كان يشتمل على خمسماية غرش اما في زمن علي بك فلا اعرف مبلغه
(٢) ذكر هذا كله شبيب باشا في الديوان ص٩٠ و ص٩١ ولم يسم القوم تكريماً لهم وابتعاداً عن المن بالأحسان.

مكانه وكان محمد بك لا يقل عن علي جرأة ونبلاً وكان يده الجبارة التي يعدها للبطش والانتقام، فقد كان محمد البك فارساً معروفاً بالرمي أديباً شاعراً سخيّاً لكن هذه العملية أدت الى القضاء على حكومة آل علي الصغير واستبدالها بالحكم العثماني المباشر .

وعندما تحدثنا عن حمد البك تحدثنا عن شطر وافر من حياة علي بك وكانت الظروف التي مرت عاملاً فعالاً في تهيئة أسباب الحكم لعلي بك الأسعد ، وينبغي أن نشرح العوامل الثانية التي اندكت على أسسها هذه الحكومة العتيدة التي كانت ترى ثابتة الأركان محكمة البنيان .

وينبغي قبل كل شيء أن نحدث القارىء عن ثامر الحسين وعلى بك الأسعد المحمد المحمود ، فان التحدث عن علي بك يكوّن هو والتحدث عن ثامر بك حلقة واحدة مستديرة ؛ ولا يسعنا أن نفهم شخصية واحد منهما قبل أن نفهم شخصية الآخر فهما في اصطلاح المنطقيين في سلسلة واحدة من العلل والدور فيهما معي ، واذ أخذنا صورة عنهما نكون وضعنا بين يدي التاريخ صورة واضحة عن الوضع السياسي الداخلي في عصرهما .

ثامر بك الحسين :

ابن الشيخ حسين السلمان ابن الشيخ سلمان العباس(١) بن عباس المحمد بن علي المحمد ابن الشيخ محمد النصار ابن الشيخ نصار الأحمد وهنا يلتقي نسبه بنسب علي بك الأسعد(٢)، ونصار الأحمد هو الزعيم الشهير الذي خلفه بنوه وتفوق بعده ولده ناصيف وكان هذا الفخذ من أبناء علي الصغير يسمون بآل نصار فكل من ثامر وعلي بك من آل نصار .

« توفي ثامر سنة ١٢٩٨ هـ في قرية ميس من جبل عامل مجتازاً بها بعدما

---

(١) هذا النسب ذكره الى هنا شبيب باشا ص ١١١ .

(٢) وهذا ذكره محمد جابر في العرفان م٢٧ ص٢٩٦ وينبغي ملاحظة مامر في هامش هذا الكتاب ص١٨١ و ٢٠٤ ليعلم كيفية اتصال نسبهما .

مرض ثلاثة أيام وهو شيخ كبير ودفن فيها وحكم أبوه حسين بك السلمان سنة ١٢٥٨ هـ[١] وكانت بنت جبيل دار حكمه وقد بنى فيها السراي ومكث بها سبع سنوات وتوفي سنة ١٢٦٥ هـ فأقيم مكانه ولده ثامر بك باسم مدير جبل هونين[٢] » .

وكان حسين بك السلمان هو الزعيم العاملي الوحيد الذي سالم المصريين عند احتلال ابراهيم باشا لسوريا وكان صديقاً حميماً للأمير بشير الشهابي الثاني وكانت له مشيخة المشائخ على عهدهم[٣]، وكانت وفاة أبيه سنة ١٢٦٥ هـ على عهد حمد البك ولا يبعد أن يكون حمد البك ولى حسيناً الحكم قبل وفاته بسنة كما تشير لذلك رواية المقدمة التي ذكرناها في الهامش الآنف ، كما أن الظاهر أن الزعامة العامة (مشيخة المشائخ) انتقلت من حسين السلمان إلى حمد البك وكان ثامر أسن من على بك ، ومن أجل سنه وسابقة أبيه في مشيخة المشائخ كان يرى نفسه أحق من علي بك في الزعامة المطلقة. وكان ثامر يحكم مقاطعتي جبل هونين ومرجعيون كما يقول جابر ويقول العلامة الأمين إنه أول من لقب بالبك من حكام جبل هونين ولبس الطربوش كما أن أول من لقب بالبك ولبس الطربوش من بني عمهم حمد البك[٤]، وكان الأمراء منهم قبل ذلك يلقبون بالمشائخ وكذلك بالأمراء الصعبية والمناكرة ويلبسون العمائم والنبشات وذلك في عهد السلطان عبد المجيد فانه أول من لبس الطربوش واللباس الافرنجي من السلاطين العثمانية ، وكان أسلافه يلبسون العمائم وما يشبه الجبب ويقول الأستاذ جابر : وفي تلك الأيام يعني سنة ١٨٦٠ م أبدل زعماء العشائر زيهم القديم ولبسوا الطربوش العزيزي بدلاً من الطربوش المغربي بعد أن نزعوا العمائم على عهد المصريين وخلعوا سراويل الجوخ العريضة والدامر القصير ولبسوا الملابس

---

(١) ذكر الخال في المقدمة انه حكم سنة ١٢٦٤

(٢) ما بين الأهلة ملخص عن أعيان الشيعة للعلامة الأمين ج١٥

(٣) محمد جابر في العرفان م٢٧ ص ٢٩٦

(٤) الذي يظهر لنا ، أن محمد البك بن محمود النصار كان يعرف بالبك قبل أخيه حمد البك ، وستعرف ذلك عند التحدث عن أولاد ابو حمد محمود النصّار .

الافرنجية زي هذه الأيام اقتداء برجال الدولة عدا ثامر بك فقد بقي بلباسه العربي حتى وافاه الأجل(١) .

وقد اضطربت الرواية في وقت تنصيب ثامر وفي وقت سفره إلى مصر والآستانة وفي وقت حربيه أو حروبه لعلي بك ، والذي نفضله الساعة هو الاقتصار على رواية الأستاذ محمد جابر مستسلمين لها فانها رواية ضافية . . .

الحرب الداخلية

بين علي بك وثامر الحسين(٢)

قدم سوريا سنة ١٨٦٠ م فؤاد باشا السياسي التركي المعروف وكان يومئذ وزير الخارجية العثمانية وقد ارتقى بعدها لمقام الصدارة العظمى ، أرسلته الدولة مندوبا فوق العادة لإصلاح شؤون سوريا إثر الحروب الأهلية التي شبت بين الطوائف في دمشق ولبنان ووادي التيم . ووفد عليه زعماء جبل عامل برئاسة علي بك الأسعد ومعه ما يزيد عن ألف فارس من خيرة فرسان الشيعة وأبطالها فأكرم الوزير وفادتهم وأثنى على طاعتهم واحتفى بعلي بك وأعلى مجلسه وعينه عضواً مستشاراً في المجلس الأعلى الذي ألفه للنظر في شؤون سوريا والتحقيق في الفتن التي ثارت فيها ، وأوكل اليه حفظ الأمن في ضواحي دمشق وحوران ووادي التيم وحماية منكوبي المسيحيين وتأمين نقلهم الى السواحل ومطاردة الثوار الفارين فقبضوا على جماعة ، منهم حسين بك جنبلاط ، أحد قواد الثوار وعوتبوا على ذلك من بعض أعيان الدروز فأجابوهم « حسين بدل عن حسين »(٣) . . .

---

(١) لاحظ رواية الأمين وجابر في الأعيان والعرفان لتعرف موضع الاختلاف فان الأمين يقول إن ثامراً أول من غيرَّ زيه وجابر يقول إنه لم يغير زيه أبداً

(٢) ما نذكره تحت هذا العنوان مأخوذ برمته عن العرفان م٢٧ ص٢٩٦ وهو بقلم محمد جابر وقد وافقه كل من الخال في المقدمة والأمين في أعيان الشيعة وشبيب باشا في الديوان في شيء مما ذكره واستقل هو ببعض النتف وسنشير في التعليقات لشيء مما زادوه عليه .

(٣) أما الأول فهو حسين بك جنبلاط وأما الثاني فهو حسين بك الشبيب الصعبي الذي قبضه الدروز غدراً في ضواحي الشام وسلموه لشريف باشا الوزير من قبل ابراهيم باشا المصري وشنقه هو وخادمه موسى قليط. لاحظ قصته فيما مر من هذا الكتاب ص١٨٣

ويحدثنا رواة ذلك العصر أن فـؤاد باشا لم يرق له نفوذ علي بك الأسعد وسلطته الواسعة ووفرة جنوده وأعوانه، وكانت الدولة بدأت باصلاح نظام الادارة وإلغاء الحكم الاقطاعي، غير أن حراجة الموقف واشتعال البلاد بالثورات الأهلية وما اتخذه علي بك من الاحتياط والحذر من غدر الترك دعاه إلى تأجيل أغراضه لوقت مناسب وكان يلاطف علي بك ظاهراً ويطري إخلاصه .

وقد استصدر له الإدارة السنية السلطانية بتلطفه برتبة (قوبجي باش) في حين أنه يرسم الخطط سراً لقلب حكومته ، والقضاء على نفوذه[1] .

الحرب بين علي بك الأسعد
وثامر بك الحسين

كان بين علي بك الأسعد وابن عمه ثامر بك الحسين خلاف قديم وتنافس على الزعامة الأولى فاذكى نارها فؤاد باشا ومن خلفه من رجال الدولة على عادة الترك وقاعدتهم المعروفة فرق تسد . . . . وكان ثامر بك معروفاً بالشجاعة والصراحة . . . وكان يتقلد سيفاً عريضاً يعرف (بالبالة) لا يفارقه في سفر أو حضر حتى لقب بابي « بالة » وهو الزعيم الوحيد الذي نافس علي بك في زمن صولته وزاحمه مزاحمة شديدة على رئاسة العشائر وشهر عليه حرباً عواناً وكانت شجاعته تفوق تدبيره فلم يكتب له الفوز، جرى ذلك في سنة ١٨٦٢ م ففارق البلاد قاصداً مصر بطريق البر ترافقه حاشية كبيرة ونزل ضيفاً على الحكومة المصرية فأكرم سعيد باشا الأول خديوي مصر وفادته وأحله محلاً رفيعاً وأمر

---

(١) اما شبيب باشا في الديوان ص ١١١ فانه ينسب إشعال نار الفتنة إلى محمد خورشيد باشا الذي كان بمعية فؤاد باشا في حادثة لبنان وأصبح بعد ذلك والي إيالة صيداء فأعان ثامر بك ويقول إنه لم يكن بينه وبين علي بك ألفة منذ اجتمعا في معيه فؤاد باشا ، وأنه في ذلك الوقت تشكلت ولاية سوريا من إيالة الشام وإيالة صيداء واتخذت دمشق قاعدة الولاية وعين اليها شرواني زادة محمد رشدي باشا الذي نال بعدها الصدارة العظمى وكان هذا صديقاً لعلي بك فمن ثم أعلمه بالأمر وأرجعه لما كان ولكن القدر عاجل علي بك لوجود الوباء. هكذا يقول الباشا في ديوانه لاحظ ص ١١٤ نعم اذا صح أن علي بك مات مسموماً كان هذا أشد دهاء ومكراً وكان الأمر مدبراً من قبل فؤاد باشا وأشباهه كما يقول الأستاذ محمد جابر .

باعداد دار رحبة لنزوله والقيام بضيافته وعلائف خيوله وأهدى ثامر بك للجناب الخديوي عدة أفراس من جياد الخيل وأقام مدة في مصر مشمولاً برعاية الخديوي ثم عاد منها إلى سوريا وسار توّاً إلى الآستانة ويقال إن الغاية التي كان يرمي اليها في رحلته إلى مصر، هو طلب وساطة الخديوي لدى الباب العالي بمنحه حكومة جبل عامل ورئاسة العشائر كلها وكان يرى نفسه أحق بالزعامة العامة من علي بك الأسعد لأنه أكبر زعماء العشائر سنّاً ولأنها كانت لأبيه الشيخ حسين السلمان في عهد الحملة المصرية على سوريا في سنة ١٨٣٢ م . . . وحل ضيفاً في الآستانة على محمود نديم باشا الصدر الأعظم وقدم له هدايا ثمينة منها سبحة من الجوهر قوِّمت بألف وخمسمئة ليرة ذهبية[١] وعاد من الآستانة وقد أنعمت عليه الدولة برتبة (ساردر كاه عالي) رئيس حجاب الحضرة العلية وبراتب شهري مقداره خمس عشرة ليرة ذهبية وأعطي أمراً بابقائه مقاطعجي أي صاحب مقاطعة وقيل بحكومة جبل عامل كلها بدلاً من علي بك الأسعد فاتسعت مسافة الخلاف بينهما واشتد النزاع وثارت المعارك في سهول تبنين وسالت الدماء وأدرك علي بك خطورة الموقف وخشي مفاجأة الحوادث. وكان يعلم أن حكومة بيروت وكانت مركز إيالة صيداء يومئذ تشد عضد ثامر بك سراً فأرسل قبل نشوب الحرب جانباً من تحفه وأمواله ورياش قصوره فأودعها في أمانة الحاج درويش صاحب ميفذون (قرية جنوب النبطية تبعد عنها ميلين) وسعى بعض الأعيان باصلاح ذات البين بين الزعيمين فلم يفلحوا فطلبوا من مشير الإيالة التدخل

---

(١) يقول العلامة الأمين في أعيان الشيعة ج ١٥ وجرت بين ثامر وعلي بك عدة حروب مرة في سهل تبنين ومرة في مرجعيون ثم عزل ثامر وجعلت الدولة بدلاً عنه نصيف آغا وهو رجل تركي فذهب ثامر إلى الآستانة على عهد السلطان عبد العزيز فلما كان يوم الجمعة وخرج السلطان إلى السلاملك وقدم اليه جواده فركبه هتف ثامر بك قائلاً ـ آفرين راعي الحصان ـ فأعجب السلطان ذلك وعرف جرأته وشجاعته وقوة قلبه وكان الناس شأنهم في ذلك الموكب الصمت فسأل عنه فأخبر به وسأله عن سبب قدومه فأخبره فأمر باعادته الى المديرية . ثم عزل وألغيت مديرية بنت جبيل وألحقت بصور ثم أعيدت وعين لها أخوه سلمان بك فبقي أربعة أشهر وتوفي سنة ١٢٨٦ هـ ولما كانت سنة ١٢٨١ هـ وتوفي علي بك حاكم تبنين بدمشق ألغي الحكم الإقطاعي في جميع بلاد جبل عامل وقسمت إلى قائمقاميات ومديريات. انتهى .
وربما يلاحظ القارىء شطراً من الاختلاف بين رواية الأمين وغيره .

لايقاف الحرب فأوفد المشير أحمد باشا الصلح وكان يشغل مديرية سياسة العشائر ورئاسة الترجمة مندوباً من قبله على رأس فرقة من الجند لحسم الخلاف فوصل المندوب بالعساكر النظامية والحرب قائمة على قدم وساق فخاض ساحة المعركة ودخل بين صفوف المحاربين تحت وابل من الرصاص فأوقف رحى الحرب وأصلح بين الزعيمين وأصابت رصاصة جواده فقتل تحته وإلى هذه المعركة يشير نسيبنا الشيخ أبو الحسن محمد جابر اليانوحي وهو من شعراء القرن الماضي من قصيدة له في مدح الصلح :

فسل تبنين يوم أثير فيها عجاج النقع وارتفع الغبار
أتاها أحمد بالصلح يسعى ورايات الصلاح له شعار
على الأمرا أشار بكل حزم بحسم الحرب فاتحدوا وساروا

وبقيت الرئاسة العامة لعلي بك واكتفى ثامر بك بمقاطعته، ولم يدم هذا الاتفاق طويلاً وتجدد الخلاف سنة ١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م وفيها أصدر علي بك منشوراً بصفته حاكم المقاطعة العام وشيخ مشائخ بلاد بشارة بعزل ثامر بك من مقاطعتي هونين ومرجعيون وتعيين محمد بك الأسعد مكانه[1]، غيران والي صيدا خورشيد باشا لم يصادق على هذا التعيين لأنه يخالف الخطة السياسية التي درج عليها من إضعاف سلطة علي، بك فجاء إلى صيدا وحل ضيفاً في دار آل الجوهري في البستان المعروف بالرابوطية شرقي المدينة .

وكان علي بك الأسعد اذا سار يواكبه خمسمئة فارس شاكي السلاح على خيول مطهمة قد تقلدوا السيوف المحلاة أغمادها بالذهب والفضة والقرابينات الضخمة الواسعة الفم بأيديهم الرماح، ومن خلفه ستة جنائب من جياد الخيل العربية وأمامه علم خاص وتضرب بين يديه النقارات وهما طبلان صغيران متلاصقان يضعهما الفارس على عاتق جواده يضرب عليهما على نغم خاص ولا يكون ذلك الا لكبار الزعماء الاقطاعيين .

---

(١) يقول شبيب باشا في الديوان إن أباه التمس على هذا العزل والتنصيب لاحظ ص ١١١ من الديوان .

قدم علي بك وابن عمه محمد بك بهذا الموكب الى صيدا بطلب من الوالي واصطفت الخيول والفرسان على جانبي الطريق من الجادة الممتدة من أول شارع الجبانة حتى بستان الرابوطية ودار بينه وبين الوالي حديث ثامر بك وأعرب الوزير عن رغبته بابقاء ثامر بك على رأس مقاطعته احتراماً لمقامه وكبر سنه وأجاب علي بك إنني حاكم المقاطعة العام والمسؤول عن ادارتها بمقتضى المراسيم السلطانية التي منحتها الدولة لأسلافي وإنني لا أستعيد منشوراً أصدرته لمصلحة المقاطعة ولا أقبل باعادة ثامر بك حفظاً لمعنوية حكومتي والمسألة بين أمرين : إما مصادقة صاحب الدولة يعني الوالي ، وإما قبول استقالتي، فامتعض الوالي ولم يعتد بسماع هذه الأقوال وأصر على إنفاذ أمره ، ولم يتزحزح علي بك عن موقفه فزاد الوالي حنقاً وقبل استقالته فنهض. علي بك مودعاً وقال إنني اطرح مسؤولية ما يقع في البلاد من الطواريء على عاتق صاحب الدولة ، فارتاع الوالي لكلمات علي بك وخشي سوء العاقبة واغتنم بعض جلساء السوء هذه الفرصة للايقاع بعلي بك وأعربوا للوالي عن خطورة المسألة وأن علي بك خرج ساخطاً ومحمد بك خرج مهدداً وسيهاجمان بأعوانهما الثكنة العسكرية ومركز الحكومة ورجالهما أبطال أشداء لا يهابون الموت، فأمر الوالي قائد الجند العام المرافق له أن يبتدع وسيلة لاعتقال الزعيمين وارسالهما الى بيروت فزارهما القائد وتلطف بهما ودعاهما لشرب القهوة في مقره بالثكنة ولم يدر في خلدهما أن الأمر خديعة اغتراراً بقوتهما وما لهما من النفوذ العظيم في البلاد، ولما شربا القهوة أبلغهما القائد أمر الوالي بإبقائهماضيفين عنده حتى إيابه من عكا. وفي الليل سير بهما إلى بيروت تخفرهما قوة كبيرة من الجند النظامي . وقيل إنهما أنزلا سفينة حربية كانت راسية في ميناء صيدا فأقلتهما إلى بيروت وأمر الوالي بقائهما في بيروت طليقين إلى أن ينتهي التحقيق في المضابط المتقدمة من بعض الخونة الذين لبوا طلب الحكومة فلفقوا عليهما دعاوى باطلة[1]

(١) يقول شبيب باشا في الديوان ص ١١١ و ١١٢ و ١١٣ ان الوالي كان متوجهاً الى عكا فاستطرق على صيداء وطلب مواجهة علي بك ومحمد بك فجاءآ الى صيدا وكان حديثهما في اليوم الأول في أمور عادية وفي اليوم الثاني جاء الوالي إلى المحل الذي يقيم فيه علي بك وفتح معه الحديث فكان ما ذكره محمد جابر ويقول الخال في المقدمة أن الوالي اشغل علي بك بالحديث ثم أمر منادياً ينادي

ولبثا في بيروت أشهراً لا يسمح لهما بالرجوع إلى بلادهما وفي خلال ذلك ألغى الباب العالي إيالة صيداء وضمها إلى ولاية الشام تحت اسم ولاية سوريا وجعلت بيروت (سنجق) متصرفية تابعة للشام وتعين لولاية سوريا شرواني زادة محمد رشدي باشا وكان من رجال معية فـؤاد باشا خلال وجوده في سوريا وصديقاً لعلي بك الأسعد منذ تلك الأيام فبسط علي بك للوالي الجديد قضيته وتحامل خورشيد باشا عليه لعداء قديم بينهما فأحسن خورشيد باشا استقباله وطيب خاطره ووعده باعادته إلى مقاطعته مكرماً .

والظاهر أن هذا الوالي كان أكثر دهاء من خورشيد باشا ومخالفاً له في أسلوب إدارته ودعى علي بك ومحمد إلى دمشق ووعدهما باعطائهما الأوامر باعادتهما للمقاطعة فوافياها وقد داهمها الهواء الأصفر « الكوليرا » فلم يلبث الأول أن قضى نحبه في ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م ودفن في مقام السيدة زينب بنت الأمام المرتضى عليه السلام وتوفي الثاني بعده بأربعة أيام ودفن في مقام السيدة رقية بنت علي عليهالسلام وقيل بل ماتا مسمومين .

ومما ينبغي أن نثبته ولا يفوتنا ذكره أن ثامر بك أسقط في يده لما اعتقل الزعيمان وأدرك حقيقة مقاصد رجال الدولة فعرض على أبناء عمه مساعدته والقيام بثورة ضد السلطة فأبيا عليه ذلك حتى لا يزيد الخرق اتساعاً . وإن سعد الدين بك الأمين الزعيم المعروف من آل صعب جاء إلى صيدا بأعوانه بقصد

= في رجاله وأتباعه بالرجوع فظن رجاله أن البك أذن لهم بالرجوع فرجعوا ثم أبلغهما الأمر بالبقاء ثم أمرهما بالسير إلى مركز الإياله وأرسل معهما أربعة من الشرطة فسألاه عن الشرطة فقال هم خدام لسعادتكم ثم منعهما من العود وبقيا طليقين ولم يسجنا مخافة الثورة وبقيت الناس تترقب قدومهما وتستعد لاستقبالهما إلى أن جرى عليهما ما سيذكره محمد جابر وهو يوافق المقدمة والديوان وزاد في الديوان أن الوالي عندما خرج من صيدا متوجهاً إلى عكا وانتهى الخبر إلى تبنين تلقاه شبيب باشا وأخوه نجيب بك ومعهما جمع من حشم أبيهم وكانا صغيرين ودعياه إلى مقرهما فأجاب ولبث في قلعة تبنين بضعة أيام وكان معجباً بطيب الهواء وبداعة الفن والاتقان في البناء وقال إنه لم يجد لهذا المكان نظيراً في جميع تلك الديار وكان معه جمع من الأعيان وكان غرضه الأول من مروره العثور على مستمسك يحتج به أمام السلطة ولكنه ندم على ما سبق منه ولم يسعه تكذيب نفسه أمام السلطة .

مهاجمة الثكنة العسكرية واستخلاص المعتقلين فوصل بعد فوات الوقت وارسالها إلى بيروت .

إلى هنا ينتهي ما اخترناه من حديث الأستاذ محمد جابر ولكن الخال في المقدمة يقول إنهما نزلا في دور بعض الشيعة وأن الوالي كان في كل يوم يقول لهم لا تذهبوا لنا معكم مخابرة فاذا جاؤ وا تشاغل الى أن وقع الوباء فدعاهم هو أو بعض رجال الدولة على مائدة فمات علي بك ثم أصدر الأمر إلى محمد بك في اليوم الثاني وأمره بالإسراع لملافاة شؤ ون علي بك فمات في اليوم الرابع. لاحظ ديوان الباشا في هذا المقام .

وقد كان لعلي بك حظ من الأدب والأدباء فكان الشعراء يقصدونه بمدحهم لا لنيل نواله فقط بل لأنه يتذوق الأدب ويقدره ولو جمعت مدائحه لبلغت عدة مجلدات . وأما مراثيه فقد كانت كثيرة طبعاً ولنشر لنبذ مما حملته لنا الكتب. قال العلامة الفاضل الشيخ ابراهيم افندي الأحدب نائب قضاء بيروت وقتئذ من قصيدة طويلة(١):

وفي ربيع قضى من للأنام يرى ربيع فضل به يحيا الثنا العطر
به خواطر اهل المجد قد شغلت فقد الخطير له بين الورى خطر

وممن أرخ عام وفاته الأديب الشهير الشيخ عبد الله البلاغي وقد نقش هذا التاريخ على قطعة من الرخام كبيرة بخط حسن وضعت في الحائط فوق قبره إلى جانب منبر حرم السيدة زينب ابنة امير المؤمنين (ع) وهو هذا :

مضى رأس العشائر عاملي أمير من بني نصار أوحدْ
الى دار النعيم فحل فيها مقيماً في ولاية آل أحمدْ
عليه كلما همت الغوادي سحائب من رضى الرحمن سرمدْ
وقد أرخته لعلي سعد بجيرة زينب سَعِدَ ابنُ أسعدْ

وهذا التاريخ ناقص سنتين وقد روى في الديوان شطراً من مدائح علي بك

(١) ديوان الباشا ص ١١٦ .

للسبيتي وللشيخ علي زيدان وللشيخ حبيب الكاظمي وللشيخ محمد حسين وأخيه الشيخ عبد المطلب ولعلهما من آل مروة والشيخ محمد حسين قد أشار إلى قضية اللاذقية في قصيدته حيث يقول :

ومضطغن باغ ملكت قياده وكم حاسد قد حاد عنك منكبا
وفدت لأرض اللاذقية جحفلاً وأظهرت للأعداء يوماً عصبصبا
فاذعن منقاداً اليك عميدها حقيراً ذليلاً بعد أن كان مغضبا

ومن مدحه السيد عبد الله النصري الطرابلسي مفتي صيدا الأسبق ومنهم السيد عبد الله ابن السيد علي الأمين والعلامة الشيخ محمد علي عز الدين وقد ذكر شطراً من شعرهم وبعضه من أبلغ الشعر ونحن نؤجله إلى الحلقة المتضمنة للبحث عن الزعماء[1]. ومن مدحه ورثاه الشيخ عباس القرشي وبما أن ديوانه لم يزل مخطوطاً وقد عثر عليه قبل أيام نستحسن الاشارة إلى جملة من مدائحه ومراثيه حفظاً لها من الضياع[2].

(١) ينبغي ملاحظة ديوان الباشا ص ٧٢ ـ الى ص ٨٨ للاطلاع على هذه المدائح عدى ما ذكره بمناسبة زفافه وغيره .

(٢) وينبغي أن نشير في هذا الهامش إلى ترجمة للقرشي والي ديوانه ، كان العامليون لا يحفظون له أزيد من مقطوعتين أو ثلاث وكان ذووه كذلك ولا يعرفون اين انتهت حياته ولكن في هذه السنة وهي سنة ١٣٦٦ هـ جاء الفاضل الشيخ عباس ابن الحاج خليل النبلي زائراً للائمة عليهم السلام فتعرف بآل القريشي ودفع اليهم ديواناً مخطوطاً اشتراه من بعض مكاتب حلب ببضع ليرات سورية قائلاً إنكم أحوج مني اليه وأقوى على حفظه مني وقد طلبت الديوان من أحفاد أرحام هذا الأديب الشيخ باقر والشيخ حسن القريشيين فوجدته يحتوى على نحو من ١٤٠ صحيفة وفي كل صحيفة نحو من عشرين بيتاً أو أكثر ولهذا الشاعر ظاهرة يمتاز فيها وهو أنه لا يطيل في شعره ولا يفوته الابتكار ولا تتجاوزه النكتة وهو مع ذلك مداح مبدع وهجاء مقذع وقد تناول بهجائه بعض اشراف العامليين كآل نعمة وآل عسيران وكان يخصص من آل نعمة الشيخ حسن نجل العلامة المقدس الشيخ عبد الله نعمة والذي نعتقده ان مجونه كان لا يروق لأهل هذا البيت وانه وجد له مساعدا فقد صرح في شعره بان الشيخ علي الحر دفع عنه اعتداء الشيخ حسن وقد رمى الشيخ حسن بما هو بريء منه قطعا ولكن مجونه دفعه إلى ذلك فان القريشي يقر على نفسه باقتراف جملة من المحرمات ويستغفر منها احيانا وذلك كله لا يجعلنا نؤمن بانه كان كما يقول فان جامع ديوانه يصرح بانه عندما استنسخ الديوان وجد فيه ما لم يكن يظهر من هذا الشاعر وان ظاهره الدين والنزاهة ثم يعتذر الناسخ بان ناقل الكفر ليس بكافر كما انه يظهر من شعره ان علي بك الأسعد لم يقبل عليه في اول الامر وانه بعد ذلك اصبح من اقرب الناس منه =

قال من قصيدة .

أبا السعود إن يفضْ ماء الندى فـانـه من كفـك اليمنى نبع
أو يورَ في داجي الخطوب ثاقب فانه من رأيـك الواري سطع
لـو يقتدي بـظنك الجـاهل في ما قدر الله على الغيب اطلع
إن الذي باراك في شأو العلى بـه العثار مـولـع اي ولـع
محوت بالعدل الذي سـرت به ما نقش الجور وخـطت البدع

ذكرت في صفحة ٣٢ من الديوان المخطوط وقال في رثائه في صفحة ٨٥ منه :

سقى ثـرى صـرت لـه صيب يعشب أرضـاً لم تكن تعشبُ
كـنـت فـتى مـا أمَّـه راغـب فـآب إلا وهـو مسـتـحـقـب
ما مات من ظـل له يـا أبا السعـود ذكـر بـعـده طيـب
لاسـرني بـعـدك دهـري ولا استعـذب في فيَّ الذي يعـذب
لـو لم تمت لم أدر أن الندى بعدك من أهل النـدى يذهب
صـلى عليك الله في مـوقـف يشهـده المحسـن والمـذنـب

وقال في رثائة أيضاً :

أبعد علي لا وربـك لم يطب لي العيش في الدنيا ولم يصف موردي

= حتى انه اختلس فرصة للفرار من علي بك وترك بيتيه المشهورين في غرفته الخاصة به في قصور علي بك اللذين يتناقلهما ادباء عاملة وهما

زرت ابن اسعد فاهملت انامله

ولنشر لترجمة هذا الشاعر : ساح في اكثر البلاد العربية وفي ايران وتركيا وكان محررا في جريدة الجوائب واستطرق حلب فاقام بها مدة ثم تركها واعدا بالعود بعد ستة اشهر فعاد اليها بعد عشر سنوات مريضاً في سنة ١٢٩٩ هـ في رمضان فتوفى فيها في ٢٢ ذي الحجة من السنة المذكورة واستولت الحكومة على متروكـاته باعتبار انه لا وراث له وباعتها فاشتريت اوراقه لاجل ديوانه واستنسخ السيد احمد وهبي ابن السيد محمد درويش منه نسخة لنفسه وفرغ منها في ٤ رمضان سنة ١٣٠٠ هـ وفرغ من الترجمة في سادس رمضان من السنة المذكورة وذكر قطعا من الشعر نسبها للمتنبي احتفاضا بها لانها غير موجودة في الديوان وقد اثنى عليه هذا الكاتب بالحفظ والدين والاستقامة وحبه للتشيع وبانه كان من ابرع الناس اذا حدث واجودهم طريقة . . .

فان كان غيري يكره الموت إنني حبيب إليَّ الموت بعد ابن أسعد
وإني وإن سر العدو رزيتي لذو عزمة لا تنثنى وتجلد

وقال ص ٨٧ من الديوان المخطوط أيضاً : وهذان البيتان هما مما يحفظه العامليون وينقلونهما عنه:

زرت ابن اسعد فانهلت أنامله عليَّ من جودها بالوابل الغدقِ
حتى انصرفت بلا إذن ولا عجب إني خشيت على نفسي من الغرقِ[1]

وقال أيضاً :

ابا السعود لو أن المال يحرسه من راحتيك قضاء الله ما سلما
ما ذا علي اذا جار الزمان ولم يكن سواك به ما بيننا حكما

وله من مقطوعة ص ٨٩:

لئن قضى حمد نحباً وكان لنا بحراً فانت لنا من بعده الديم
لا قلص الله عنَّا ظل عرفك يا أبا السعود ولا زلَّت بك القدم

وقال في ص ٩١ و ٩٢ ونظن أن علياً كان يستعذب ملحه ويستزيده منها :

علي يا ابن أسعد لا تلمني فليس عليٌّ في عتبي ملامة
أراك وعدتني ومطلت وعدي أظنك منجزي يوم القيامة

* * * *

لا عذر للمتناسي عهد صاحبه وإنما العذر بين الناس للناس
كانت مواعيدكم رأسا على جسد مالي أرى جسداً منها بلاراس
ضحت مواعيدكم مرضى وليس لها نفسي فداكم سوى إنجازها آسي

(١) قد قال هذين البيتين معتذراً عن انصرافه بدون إذن بعد ما منعه علي بك عن الانصراف وقد كان هذا الشاعر يشكو شدة الملق وديوانه مملوء من مثل هذه الشكوى ومما قاله :
ألفت عسري حتى لا يفارقني كعاشق لم يطف يوماً بمعشوق
فما فؤاد أم موسى حين فارقها موسى بأفرغ من كيسي وصندوقي

والله لو كلفت نفسي من ابن أبي السعود مالم يطقه سائر الناس
لشاهدت عينه مني أخا ثقة كما يشاء على عُدمي وإفلاسي

* * * *

أجبني فديتك يا ما طل ويا من بلقياك لي باخل
ويا من نداه يجيب الندا اذا ما دعا غيره السائل
ويا خير مأوى من الحادثات يا من به شرفت وائل
اذا لم تلد وانقضى حولها فقل لي متى تلد الحامل

وقال لما اعتقل خورشيد باشا علي بك الأسعد في بيروت:

ولما غدوتم فرج الله عنكم ببيروت في قصر مشيد لدى الأسر
وأبدت أعاديكم شماتاً وأصبحت تشد إلي الطرف عن نظر شزر
لقد كدت أبكي من عظيم مصابكم ولكنني ألقى المصيبة بالصبر
ولو لم يكن أمر ابن أسعد بغتة أشد على خورشيد ما هان من أمر
وأضحى علي بين فرسان وائل بمرهفة بيض ومشرعة سمر
ولكن اذا ما الله شاء مشيئة أتتك بها الأيام تمشي على قدر

* * * *

تالله ما سجن السجان من رجل طلق اليدين كمسجون ببيروتا
كان الأرامل والأيتام في سعة فأصبحت لم تجد من بعده قوتا

* * * *

أهوى لقاك أبا السعود فكيف بي ما جئت إلا ردني البوابُ
ما كان عهدي يا ابن أسعد قبلها تنهى وتأمر دونك الحجّابُ

وله فيه مدائح أخرى ومدح أبا فائز محمد بك الأسعد بمقطوعة واحدة وهي :

يا أبا فائز فديتك قل لي هل يكافيك بالثناء الشكورُ
وكثير الثناء فيك قليل وقليل النوال منك كثير

لم تزل هذه أياديك فينا وسواء شكورها والكفور

وقد أكثر من مدح أبي الجواد محمد بك من آل منصور من آل علي الصغير وقد صرح بذلك ص ١١٣ من الديوان المخطوط وكان جواد بك يقيم في جبع وأبوه يقيم في القاقعية وقد استفدنا ذلك كله من هذا المخطوط ويسميه جواد بك الأسعد ولعل منصور المشار اليه هو منصور الذي مر ذكره في كتابنا هذا ص ٧٠[1] وقد مدح آل منكر بقوله :

أشهد بالله بأن الندى والبأس في أيدي بني منكر
قوم هم القوم الذين امتطوا سياسن العزة والمفخر
سالمهمُ تسلمْ وإما تكن حرباً لهم فرد ولا تصدر

وقد يكون في الديوان شؤون أخرى ولم يكن لنا من الوقت أكثر من ساعتين انفقناهما في دراسته وهو ديوان تاريخي ونستبعد أن يكون هذا المجموع يحتوي على جميع ما نظمه هذا الشاعر وقد تعرض فيه لجملة من البيوتات النجفية والايرانية والبعلبكية كآل زغيب وغيرهم .

بعد وفاة علي بك ومحمد بك

في سنة ١٢٨٢ هـ انتهت حياة علي بك ومحمد بك في دمشق ، وبانتهائها انتهت حياة جبل عامل المعنوية والعسكرية والسياسية والأدبية . لأنها فقدت استقلالها الذي يشبه الأستقلال اللامركزي ، وحكمها العثمانيون حكما شبه المباشر ، وأقفلت المدارس وتعطلت نوادي الأدب ، واشتغل العلماء وطلاب العلم بطلب معاشهم .

وقسمت البلاد إلى ثلاثة أقضية ،[2] :

---

(١) : وبالجملة : المناكرة هم حكام جباع ، والشيخ علي منصور هو أحد جدودهم أو هو جدهم والظاهر أن أبا الجواد هو محمد بك الجواد المنكري الذي كان يتولى اقليم التفاح ، ويقيم في جباع ، كما ذكره الشيخ سليمان ظاهر في رسالته لنا سنة ١٣٦٦ هـ .

(٢) كما هي الآن يعني في سنة ١٣٢٩ هـ وهي سنة كتابة هذه المقالات هكذا قال الأستاذ رضا في المجلد الثاني من العرفان

قضاء صور
قضاء صيدا
قضاء مرجعيون

وخضعت البلاد لنظام الجندية ، ولتأدية الضرائب على النحو الذي تفرضه الدولة ، سواء كانت عادلة أو مجحفة .

فقد أوجبوا على المزارع دفع عشر الحبوب عيناً بجميع انواعها للدولة ، ولم يزل الحال كذلك الى سنة الف وثلاثماية هجرية .

وكانت الدولة العثمانية بعد وفاة علي بك ومحمد بك قسمت الأراضي ، وإن شئت قلت سجلت الأراضي باسم من هي تحت يده . ووضعت ضريبة « الويركو »

قلت : وسمعت وانا طفل ان أكثر الناس كانوا لا يقبلون تسجيل الأرض باسمائهم مخافة دفع الويركو، وأن كثيراً ممن لا أرض له سجل أرضاً باسمه وصارت له .

قال الأستاذ رضا : وكانت الأراضي قبل ذلك تعتبر خراجية وملكاً للدولة[1] وكان السلطان يقبلها للزعماء بمبلغ يتفق عليه معهم .

وكان الزعماء يجبرون الناس على زرعها ، أو يزرعها الزعماء انفسهم بواسطة وكلائهم

وكان الأغنياء يتفقون مع اهل القرى على زراعة ما تحت أيديهم من الأرض ، فيقدمون لهم ثمن البقر التي يحرثون عليها والبذور ،والفلاحون يقومون بالعمل ، ويأخذ الأغنياء من الفلاحين حصة معلومة ويسمونهم شركاء

قلت : والذي اظنه ، إن ثمن البقر يكون ديناً على الفلاح وليس ملكاً

---

(١) الارض الخراجية هي الارض المحياة التي فتحها المسلمون عنوة بأمر الامام، وهي ملك لجميع المسلمين ، من وجد منهم ومن سيوجد ومن أجل ذلك لاتباع ولا تشرى وبما أن ولي المسلمين هو الأمام فهو اللذي يقبلها لمن يزرعها بحصة معلومة .

للغني ، ولعل الغني يعتبر البذور قرضاً على الفلاح وإنما قلت هذا ، لأنني عشت في العراق زمناً طويلاً ، وكان الزعماء الشيوخ يقدمون للفلاحين المساعدات من الخيل التي يحرثون الأرض عليها والبذور ، وربما يقرضونه بعض المال لنفقته ونفقة عياله ، وبعد انتهاء الموسم ، يأخذ الزعماء حصتهم ، ويستوفون ديونهم ، وإذا لم يفي موسم الفلاح بذلك ، كتب عليه صكاً به على الفلاح ، ولن يسمح للفلاح بالانتقال إلى مقاطعة زعيم آخر إلى أن يجيء صاحب المقاطعة الجديد ويفي عنه ، أو يتكفل به ويكون الفلاح نفسه رهناً على ذلك الدين

وبقي المال في العراق هكذا الى سنة ١٩٥٨ م ، التي حصل فيها الانقلاب ضد الملكية ، واصبح الحكم جمهوريا ، وقسمت الأراضي على الفلاحين ، وقد جعلوا لكل زعيم الف مشارة أو دونم ، ولكل ملاك ملكَ الارض قانوناً كذلك ، فإذا كان سجلها باسمه وباسم بنيه ، كان لكل واحد الف ، وكان للفلاح مايتي دونم . هذا في الارض التي تزرع من غير الارز .

وقال الخال في المقدمة :

كان الأغنياء الذين يشركون الفلاحين ، يعينون وكلاء من قبلهم لجباية الضريبة - حصتهم - ولا تسأل عما كان يلاقيه الفلاح والفقير من الظلم والاهانة[1]

وفي سنة ١٣٠٧ هـ الف وثلاثماية وسبعة هجرية زادوا على الويركو بالماية ستة ، وعلى الاعشار كذلك ، وأصل الويركو والعشر مال مقدر معلوم في سجلات للدولة .

قلت : ومعنى هذا أنه يجب على الفلاح ان يدفع ذلك المقدار وإن كان الموسم محلا وكانت عائداته لا تفي بالمطلوب .

---

(١)كان الأغنياء والوجهاء يضمنون الأعشار من الدولة ، ويعينون جباة من قبلهم يسمون وكلاء كان الفلاحون اشبه بخدم لهم ، وكانوا يقدمون لهم البيض واللبن والدجاج والحطب مجانا يقسمونه على العجايز والرعاة وغيرهم . واذا تجاوز الفلاح فأخذ من غلاته شيئاً ليأكله او ليعلف به دابته عوقب بغرامته بأمثاله.

وقال الخال : وفي سنة ١٣٠٩ هـ الف وثلاثماية وتسعة زادوا على الأعشار والويركو بالماية عشرة ونصفا .

وفي سنة ١٣١١ هـ الف وثلاثة ماية واحدى عشرة واثنتي عشرة ، زادوا على المئة خمسين ، ولم يزل كذلك إلى ان انتهت الحرب العامة(١)

وكانوا في أيام الحرب ، يأخذون ثلث الدواب . من البقر والماعز والغنم ، لأجل ذبحها للعسكر ، وكانوا أيضاً يأخذون ثلث نواتج الأرض من الحبوب ، ولا تظن بهذا الزمان خيرا .

وبعد علي بك بمدة لمع نجم خليل بك الأسعد واصبحت الزعامة العامة له وذهب المرحوم شبيب باشا ابن علي بك الأسعد ، إلى استانبول ، وكان عمره حين وفاة والده نحو اثنتي عشرة سنة ، وعاد للبلاد سنة ١٣٢٨ هـ بعد وفاة خليل بك ، ونزل في تبنين مسكن آبائه في القلعة ، ونازعه الزعامة كامل بك الأسعد ابن خليل بك الأسعد .

واشار الخال إلى هذا النزاع بقوله : ولما رجع كان بينهما ما كان(٢)

---

(١) لا يخفى ان الخال كان من وجهاء القرى وكان منزله ملتقى للاضياف ولا سيما وأنه يتوسط الطريق بين صور وبنت جبيل فيضغط المسافرون للاستراحة في منزله .

ولاجل ذلك فهو ممن عاش في هذه الفترة وأحاط بشؤون هذه الضرائب وورعه وتقواه هو الذي جعله يشارك الضعفاء بالشعور في مآساتهم ، وان كانت لا تصل اليه سبب وجاهته

(٢) لما رجع شبيب باشا التف حوله العلماء، بأجمعهم إلا نادرا، ولعل ذلك تقديراً لماضي أبيه وعمهم محمد البك أولشهرته بالتقوى والاستقامة وقابله خصومه بالاساليب غيرالمشروعة فهجموا على قرية صريفا ، واطلقوا النار عليها ، وقتلوا بعض المواشي ، ثم ارسلت البرقيات الى الاستانة ، بأنه هو واتباعه أو اتباعه فعلوا ذلك ، وبان وجوده من البلاد مفسدة لها .

فجاء الأمر من الاستانة باخراجه من البلاد، فذهب الشيخ الوالد وجماعة أخرون من العلماء والاعيان، واتصلوا بالمسئولين وطلبوا منهم الابراق للاستانة أما بابقائه واما باخراجه من البلاد مع خصومه لأن بقاء احدهما وإخراج الأخر مفسدة كبرى بالنسبة لأنصار من يخرج ، لأن الباقي منهما في البلاد سينتقم من خصوم من يخرج فابرقوا ،واستجابت الدولة فألغت المرسوم الصادر باخراج شبيب باشا .

وبعد ذلك بزمن لا اعرفه ارسلت اللصوص فنهبت دار الشيخ الوالد في حاريص ودار خالنا الشيخ في البياض ، ولا اعرف من هذا الحادث الا هذا المقدار.

ثم لم تطل مدة الباشا وتوفي ، فاستقامت الزعامة لكامل بك الأسعد .

وقدمنا شيئاً من ذلك في هذا الكتاب تحت عنوان ـ زعماء عاملة امس واليوم ـ

وقال الخال : وفي سنة ١٣٠٠ هـ الف وثلاثماية هجرية جرى تسجيل النفوس على التمام، بدون إخفاء، فظهر في قضاء صور وحده، طابور عسكر، قدره ثمانماية شاب ، كلهم من أبناء العشرين ، فجندتهم الدولة ، ووجهتهم لحرب اليونان ، وكان من جملتهم ، خالكم الشيخ امين سليمان ـ يعني اخاه ـ وقد عين إماما في الجيش .

ولم تزل الدولة ، تأخذ كل من دخل في سن العشرين ، تأخذه جندياً في أول الأمر ، ثلاث سنوات ، فإن سلم رجع إلى اهله ، وبعد بضعة اشهر يطلب السلك عسكري آخر يسمى احتياط فيبقى سنتين ، فإذا بقي حيا عاد إلى اهله ، وبعد مدة قليلة ، يطلب للخدمة باسم محافظ ، فيبقى ثمان سنوات ، وقيل ثلاثة عشر سنة .

وبالجملة : كان الرجل لا يعفى من الجندية ، الا بعد بلوغ الاربعين من عمره .

ولا يعفى أحد من هذه الخدمة، إلا ذوو الاعتذار، او من يقدم بدلاً شخصياً عنه في كل طلب ، أو يقدم بدلاً ماليا مقدار خمسون ليرة عثمانية ذهبا[1]

---

(١) وبهذه المناسبة يعجبني ايراد القصة الآتية : قال الشيخ الوالد شملت الجندية ابن عمي محمد ابن الحاج حسن ، المعروف بابي نايف وبحمد الحاج حسن ، فذهب والده الحاج حسن إلى صور ليدفع خمسين ليرة بدلاً عنه ، فسمع بأن السفن التي تأتي من خارج لبنان لتهريب من شملتهم الجندية اقبلت في عرض البحر فعزم على تهريب ولده فيها تخلصاً من الدفع كما يفعله كثير من الناس قال وكنت في صور ضيفاً على السيد عبد الحسين شرف الدين ، فجائني عمي يستشيرني في ذلك فقلت له : أتضيع ولدك ولا تشتريه بخمسين ليرة فأجابه الأمر طويل وفي كل سنة يريدون مني بدلا وفي النهاية ينفد ما لدي من المال ويأخذون ولدي فأكون قد خسرت مالي وولدي ، وكانت تلك الليلة ليلة الجمعة قال الشيخ الوالد فاتفقنا على الاستخارة ، واستخرت له في القرآن الكريم فكانت الآية الكريمة: =

قلت : وقد قال الخال قبل ذلك ، ان أول إحصاء جرى في عهد علي بك سنة ١٢٨٠ هـ ، ولكنه إحصاء بغير ضبط

وحدثني الفاضل الشيخ موسى برى العاملي التبنيني في النجف الأشرف حوالي سنة ١٣٦٠ هـ بما يرويه عن شيوخ بلدتهم

قالوا : ان الدولة العثمانية طلبت من علي بك الأسعد الشباب لتجندهم التجنيد المنظم ، فارسل رجاله الى جماعات النور الذين كانوا يقيمون في سهل الخان ، قرب تبنين ، واسروا منهم عدداً من الشبان وسلموهم للدولة . وقالوا : لا يوجد عندنا إلا هذا العدد ، من هو في سن الجندية او لا نقدر إلا على تسليم هؤلاء

ثم أن النور هربوا ، أو إن الدولة عرفتهم واطلقتهم لأن قانون الجندية لا يشمل هذا الصنف من البشر الذين لا وطن لهم .

وهذا العمل مظهر من مظاهر الاستقلال والاعتزاز وهو في الوقت نفسه حماية لشباب البلاد ، لأن الجندي العثماني كان معرضاً للضياع والهلاك.

وهذا وأمثاله من جملة حسنات الاقطاعيين ، التي كانوا يعوضون بها عن استئثارهم هم وأعوانهم وحواشيهم بخيرات البلاد .

= واضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى .

فارسله في تلك السفن ، ومضى عليه في مهجره نحو سبع سنوات وعاد بعد انتهاء الحرب سنة ١٩٢٠ م تقريباً واكتسب بالتجارة فى هذه المدة خمسة وعشرين الف ليرة ذهباً وقيل : خمسين ألف ليرة .

فاظهر النعمة . وأنعش الفقراء ووصل العلماء والشعراء واعيان القرى المجاورة على دفع ما عليهم من الضريبة الافرنسية اعانهم بنحو القرضى .

وكان رحمه الله يقتني جياد الخيل ويلبسها « رشمة » من الفضة وكان جميل الصورة معتدل القامة وكان يتميز بان شعر رأسه وحاجبيه أسود أسحم كث ، وشعر شاربيه ولحيته أشقر كأنه مخضوب بالحناء .

وكان الاجانب في مهجره يكثرون النظر اليه والتأمل به ويعتقدون انه انما كان على هذه الصفة لا بد من بيت المقدس . ولعل ذلك كان سبباً في حدبهم على التعامل التجاري معه .

لقطات تاريخية[1] تتعلق بما نحن فيه

زار السيد عباس ابراهيم[2] مشاهد الأئمة عليهم السلام في العراق وذلك في سنة ١٣٦٥ هـ ونزل في النجف الأشرف ضيفاً على العلامة السيد علي مهدي

(١) هذه اللقطات نروي بعضها عن السيد عباس ابراهيم ونروي بعضها الآخر عن الزعيم أحمد بك الأسعد ، كما ستعرفه .

(٢) السيد عباس هو ابن السيد حسين بن السيد علي ابراهيم والسيد علي هو من تلامذة صاحب الجواهر ، والشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، والسيد حسن الخرسان . وهو والد السيد حسن ابراهيم المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ والسيد حسن هذا هو والد العلامتين السيد محمد والسيد مهدي وأخو السيد حسين والد السيد عباس المذكور

والسيد مهدي توفى سنة ١٣٩١ هـ الموافق ١٩٧١ م وقد ناهز المائة ، وأما اخوه السيد محمد فقد توفى قبل ذلك ١٩٤٦ م

ونحن نستنتج من هذا ان السيد عباس ممن ولد حوالي سنة ١٢٨٠ هـ لأن ابن عمه السيد محمد ابراهيم ابراهيم اصغر منه ، ولعله من مواليد سنة ١٢٩٠ هـ ويشهد لذلك ان السيد عباس كان يستقبل ثامر الحسين عندما يزور جد السيد علي ويتولى امر حصانه وثامر توفي في ميس سنة ١٢٩٨ هـ كما ذكره العلامة الأمين في اعيان الشيعة ج١٥ الطبعة الأولى في ترجمة ثامر الحسين

هذا وقد وجدت كتاباً خطياً عند الفاضل الشيخ حسين العسيلي في الصرفند نجل العلامة الشيخ على العسيلي حفظهما الله تعالى فاستهديته اياه ففعل، وتبين انه تأليف السيد علي ابراهيم جد آل ابراهيم ، وبخطه وهو شرح على منظومة بحر العلوم في العبادات من الفقه وعليه اجازات اساتذته الثلاثة بخطوطهم وتواقيعهم والكتاب يدل على فضل وذوق واجتهاد ولكن الشهادات لم تتضمن الاجتهاد ولست اعرف السبب .

وقد اهديت هذا الكتاب للاخ العلامة السيد علي مهدي ابراهيم لأنه اولى بحفظه مني وكان قد=

ابراهيم ، فاخبرني السيد علي حفظه الله تعالى بأنه أكبر آل ابراهيم سنا ، وانه أسن من عمه السيد محمد ابراهيم ومن والده السيد مهدي ، وان له الماماً بتاريخ بلادنا وحوادثها .

فزرته وقلت له : حدثنا بما تعرفه من تاريخ بلادنا مما شاهدته ومما سمعته . فقال :

(أ) فقال : قالوا ، عندما توجه ناصيف النصار والشيخ علي الفارس إلى الحرب في وقعة كذا قرب صيداء ولعلها وقعة الحارة ـ النسيان مني ـ قال ناصيف لعلي الفارس ، وهما يسيران في الطريق : لو جمعنا العيال والأطفال وأرسلناهم للبادية لكانوا في مأمن اذا قتلنا .

فاجابه علي فارس : ما دمنا أحياء لن يصل اليهم أحد ، واذا قتلنا لم يضرنا شيء ، لأننا لا نعرف عنهم شيئاً بعد الموت .

(ب) وقال ايضاً : كان آل علي الصغير يتقدمون على الصعبيين في الرياسة وفي الرسميات ، والمقصود بالرسميات الاجتماعات العامة التي هي عبارة عن مواجهة عظماء الدولة ، والاجتماعات بمناسبة المشاكل والأفراح والأتراح ، وكان الصعبيون يتقدمون في الحروب على آل علي الصغير ، على ذلك جرى الإتفاق بينهم[1] .

(جـ) وقال أيضاً عندما ذهب علي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد إلى صيدا لمواجهة باشة صيدا ، قال محمد لعلي بك : إني خائف أن يغدر بنا الوالي ، فدعني أتأخر أنا ، واذهب وحدك ، فاذا جرى عليك شيء خلصتك .

فأجاب علي بك بقوله : لا تبالي ، كم واحد مثل هذا قلبت قميصه فوق رأسه[1]

= طلبه مني وعرض علي عوضه ما اختاره من الكتب التي تحتويها مكتبتهم فضلاً عن المال ، فلم أقبل عوضاً سوى امرين عصىً من العاج وتصوير الشهادات وإعطائي نسخة منها ، فوفى بالاولى ولم تزل ذمته مرهونة بالثاني .

(١) : زارنا الحاج فهد الصعبي في منزلنا في حاريص ، وكان من المخلصين للشيخ الوالد رحمه الله ، =

قلت : ثم ذهبا معاً في موكب مؤلف من خمسماية فارس ، وجوقة تسير أمامهما تدق الطبول ، وتكون مؤلفة من أربعة وعشرين طبلاً تنقر نقراً خفيفاً ، ولا يكون هذا إلا للصدر الأعظم ، وعندما بلغ خبر مسيرهما للباشا بهذا الموكب ، خاف أن يدخلا صيدا ويحتلّاها ، وكان قد وشي بهما إليه قبل ذلك وحذّر من الإحتلال .

فخرج الوالي لاستقبالهما خارج صيدا ، وبعد اللقاء استدعاهما شخصياً لتناول فنجان قهوة في القلعة ، فاستجابا ، ثم استأذنا بالعودة ، فطلب منهما المكث، ثم أرسل منادياً ينادي في الناس: أن علي بك ومحمد بك يأمرانكم بالرجوع إلى بلادكم وهما متأخران هنا ، فتفرقت الناس وبقي الباشا يماطلهما وهما منقطعان عن الإتصال بأتباعهم ، وتمت الحيلة .

(د) وقال أيضاً : إن محمد بك الأسعد كان شريك علي بك في الزعامة وكان وزيره ويده اليمنى .

قلت : علي بك هو ابن اسعد البك بن محمد البك بن الشيخ محمود النصار المعروف بأبو حمد ، المستشهد سنة ١١٩٣ هـ

ومحمد البك هو ابن أسعد البك بن خليل بك بن الشيخ ناصيف النصار المستشهد سنة ١١٩٥ هـ .

قلت : لا يخفى أن علي بك ومحمد بك توفيا في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ وأن الدولة سيطرت على البلاد وإنها جعلت خليل بك في ذلك الوقت موظفاً صغيراً (مأمور أحراش) ثم بعد فترة غير قليلة أصبح الزعيم المطاع ، وورث

= وأخبرنا بأنه لا يزال يحتفظ براية علي الفارس وبخاتمه ، وبأنه كان قد أمّنها في البنك المركزي ، وكان الخاتم معه فاخرجه من محفظته ، وهو خاتم عقيق كأنه مرآة عليه كتابة ، ولم أرَ في حياتي عقيقاً أجمل منه ، وأدخلته في خنصري فكان بقدره وكنت وعدته بأن أزوره تكريماً له ، وطلباً لمعرفة ما عنده ، أو ما يعرفه من تاريخهم ، ثم عاجله القدر .

(١) معنى الكلمة الكناية عن فعل القبيح بالآخر ، والمقصود بها استدلال الطرف المقابل والاستهانة به .

الزعامة بعده ولده كامل بك الأسعد وهو أخو عبد اللطيف ومحمود بك ، وجد كامل الأسعد الموجود فعلاً لأمه .

وتوفى كامل بك بعد الاحتلال سنة ١٣٤٢ هـ ولم يكن له ولد ، بل تخلف ببنتين فقط ، وانتقلت الزعامة المطلقة إلى يوسف بك الزين فترة من الزمن، ثم في سنة ١٣٥٦ هـ برز عبد اللطيف بك الأسعد وتوفي بعد ذلك بستة أشهر تقريباً ، وورث الزعامة عنه ولده أحمد بك الأسعد وورث الزعامة عن أحمد ولده الوحيد كامل بك الأسعد ، وقد اعتزل السياسة منذ سنة ١٤٠٣ هـ تقريباً وبرز بعده نبيه بري من بلدة تبنين وهو اليوم أعرف من أن يعرف .

هـ ـ وقال أيضاً: إن محمد بك وخليل بك إبنا أسعد بك الخليل أمهما من بيت شرف الدين ـ العوام ـ واسمها عبلا ، وبيت شرف الدين المذكورين موجودون بكثرة في الطيبة وفي كفرتبنيت .

فقد قيل أن أسعد مرض مرضاً معدياً ـ لعله الجدري ـ فتولت هذه المرأة المذكورة خدمته فبنى بها ، فتزوجها تقديراً لقيامها بأموره ، واولدها محمدا وخليلا .

قال : وكان بنو عمهما يعيرونهما بانهما أولاد عبلا .

و ـ وقال أيضاً : أن محمد بك كان من أجمل أهل زمانه ، وكان من أشد الناس قوةً ، وليس له ثانٍ في الرمي .

قلت : وقد سمعت في صغري من غير السيد عباس المذكور ، أنه رمى حربةً وهو في الميدان ، فأثبتها في جدار القلعة ، ولا يخفى أن القلعة مبنية بالحجر الصلد ، وأن الفروج التي تكون بين الصخرة واختها ضيقة بحسب العادة.

ز ـ وقال السيد عباس أيضاً : كان ثامر الحسين السلمان العباس[1] يسهر

(١) قال الشيخ سليمان ظاهر في رسالة خاصة منه لنا سنة ١٣٦٥ هـ توفي حمد البك سمة ١٢٦٩ هـ وحلّ محله حفيد أخيه علي بك الأسعد، فنحى علي بك ثامر البك ابن الشيخ حسين بن سلمان بن عباس المحمد بن محمد بن نصار الأول بن أحمد ويلتقي نسب ثامر وعلي بك ومحمد بك في نصار الأحمد الذي عبرنا عنه بنصار الأول ، بعدما حكم علي ١٢٦٩ واصدر أمراً بتنحية ثامر بك عن منصبه سنة ١٢٧٠ هـ ذهب ثامر إلى =

في أغلب لياليه عند جده السيد علي ابراهيم ، وكان جريئاً جداً وكان الزعماء يخشون لسانه ، وكان يشتمهم بمحضرهم ولا يحتشمهم ، وكان يشرب النارجيلة ويلبس الطربوش ، ويركب حصاناً أسود .

فقلت له : يقولون أنه ذهب إلى استانبول ، وحمل معه هديةً ثمينة للسلطان ، فما هي تلك الهدية ؟

قال : حمل معه عشرين رطلاً من التبغ الفاخر ، ومقداراً من فرود التين الجيد ، ولعله « الشريحة »

والفرد اسم للقفة المحاكة من ورق النخل تتسع لنحو خمسين كيلواً من التين ، وكان ذلك برأي جدنا السيد علي آل ابراهيم .

قلت : ولكنه عندما ذهب إلى مصر ليوسط محمد علي باشا عند الباب العالي ، أهدى له سبحة قدرت بألف وخمسماية ليرة ذهباً ، ولعل الملوك يقدرون الهدية الأولى أكثر من السبحة ، لأنها تتوزع على حاشية القصر .

ح ـ وقال أيضاً : وقد عزاه علي بك فأرسل إليه جماعة من فرسانه وكان في قرية (آبل) فأعلموه بذلك فلم يكترث وكان يشرب الأركيلة ، وكلما أخبروه باقترابهم احتقرهم ولم يعتنِ بهم ولم يزل مشغولاً بالأركيلة ، حتى إذا اقتربوا منه ، قام وامتطى جواده وفرَّ هارباً

ط ـ وقال ايضاً : لقد تآمروا مرةً على قتله ، وكان أخوه حاضراً مع المتآمرين ، فقال بعض الحضور : ينبغي أن نتعاقد ونكتب محضراً ونوقعه لئلا يحدث قتله فتنة في البلاد ، ولما انتهى إليه الخبر ، وعلم بذلك ، قال : كنت

= الاستانة ورجع سنة ١٢٧٢ هـ بمرسوم عالي يعيده الى منصبه ، ولم يرق ذلك لعلي بك الأسعد ، فعارضه بالقوة ، وكان بينهما حرب في ارض ابل السقي مرة وفي سهل « تبنين » أخرى ثم جرى الصلح بينهما ، واستقرت الحال زمناً بعد ذلك ، وكان محمد البك شريكاً لعلي بك في كل ذلك .

أظن مؤامرتهم هذه حيلة وتهديداً ، أما إذا كان الأمر جدياً فسأسقي الأرض من دمائهم .

قلت : وقد ذكر المؤرخون العامليون أنه غزا علي بك مرتين وأن جد آل الصلح هو الذي توسط في الصلح بينهم ، وقد تعرض بعض الشعراء لذلك وسنورده في محله إذا شاء الله تعالى .

ي ـ وقال السيد عباس أيضاً : إن فلاناً البغال من بلدة عِباً كان عائداً من بيروت ، ومعرجاً في الدامور يستريح مع بغاله من السير على عادة المكارين ، وكان هو وولده يتناولان طعام الغداء ، فرأى شخصين راكبين مجتازين في الطريق ومعهما « الجندرمة» يعني الدرك ، فتأملهما وقال : كأنهما علي بك ومحمد بك ، ثم قال لولده : قم والتمس الخبر ، فلم يهتم الشاب ولم يعتن ، ثم أمره أبوه فقام واستقصى الخبر ، فأخبر أباه انهما علي بك ومحمد بك . فلما سمع المكاري الشيخ ، انفجر بالبكاء ، فقال له ولده لماذا تبكي ؟ فقد اراح الله البلاد والعباد من ظلمهم ؛

فأجابه الوالد : بلادنا بعدهم بتصبح ذليلة ، بيتحكم فينا الأعداء ! قلت وهكذا كان .

وهذه القصة تمثل انطباعات المجربين من العقلاء الذين يتحملون الأذى الأخف في سبيل دفع الأذى الأعظم ، وتمثل انطباعات الشباب الذين يهمهم التخلص من الأذى الحاضر غير مفكرين فيما يتعقبه من الخسران في المستقبل.

لقطات من تاريخ جبل عامل بعد سنة
نرويها عن احمد بك الأسعد(١)

في سنة ١٣٦٨ هـ توجهت من موطني النجف الأشرف في العراق لزيارة الشيخ الوالد في بيروت ،

(١) تتعلق بتاريخ بلادنا بعد سنة ١٢٨٢هـ .

وكان ممن زارني الرئيس أحمد بك الأسعد ، رئيس مجلس النواب ، فقد زارني مرتين ، وكانت الثانية ليلة الجمعة ، وأقام عندنا نحو ست ساعات ، من المغرب حتى بعد منتصف الليل[1] .

وقد سألته عما يعرفه من تأريخ آل الأسعد، وعمّا يوجد عندهم من الكتب والآثار المتعلقة بهذا الموضوع .

وقلت له : اننا نعرف تأريخهم إلى يوم وفاة علي بك ومحمد بك سنة ١٢٨٢هـ ونجهل ما كان بعد ذلك .

---

(١) كان منزل الشيخ الوالد في بيروت ، في برج أبي حيدر ، قريب المسجد في طرف الشارع الرئيسي في الركن المتصل بشارع النويري ، وبعدما كنا قد أدينا الصلاة ، وبعدما تناول القهوة ، خلونا به مع الشيخ الوالد في مكتبة الشيخ الوالد طلباً للإنقطاع عن الناس ، لأن الديوان يطرق باستمرار من جميع الطبقات .

وكانت الزيارة الأولى قبل ذلك ، ولم يكن ثمة غيري وغيره ، وبعد تبادل المجاملة ، خطر في بالي أن أنصحه ، لأن ذلك هو مقتضى وظيفتي الدينية ، وفكرت في نفسي أنني لا أرجوه لدنياي ، لأنه ليس لي حاجة عنده ، ولا أخافه ، لأنني مقيم في العراق ، وعائد إليه بعد يومين أو أكثر .

قلت له : يا أبا كامل لك عندي نوع من الضيافة قد لا تجده عند غيري ، فيه رضاً لله سبحانه وصلاح للناس ولكم ـ وأردت أن أقوم لإحضار السكاير ، فبادر باخراج علبة سيكاير من جيبه ، وولع سيكارة وقدمها ثم وضع أخرى في فيه ، وجعل يشربها ، ثم توجه بكله إلي ـ فقلت له : سألخص ذلك في ثلاث كلمات :

الأولى : منزلة الزعيم من الرعية ، منزل الأب من عائلته ، فكما أن الأب العاقل لا يتعصب لأحد من بنيه ، ولا يحقد عليه ، كذلك يجب أن يكون الزعيم بالنسبة للرعية ، وكما أن الأب العاقل لا ينتقم منهم كذلك يجب أن يكون الزعيم لأنهم كلهم له ، وهو لهم .

الثانية : يجب أن يحمل هذا الواقع في قرارة نفسه ، ويعزم عليه ويلتزم به ويتجسد في عمله بلا قصد ولا اختيار وأعلم أن القلوب والعيون تتفاهم قبل الألسن ، وهذا أمر واضح لدى أمثالكم ، فمن العبث أن يكون الشخص يكره الآخر ثم يريد أن يقنعه بأنه يحبه فإن ذلك لا يخفى على سائر الناس ، فكيف يخفى على من هو في المستوى الرفيع .

الثالثة : لا ريب أن الأعمال المتراكمة تؤدي إلى الارهاق وقد يعمل الحازم في ساعة الإرهاق عملاً ، أو يقول قولاً يرتضيه لو كان مرتاحاً ومطمئناً ، لذلك يجب على أمثال هؤلاء أن يعتزلوا العمل في الشهر ثلاثة أيام ، ولو بدعوى التمارض لأن ذلك يكون سبباً في تجديد القوى الفكرية . وكان كلما انتهت سيكارتي قدم لي الثانية إلى أن انتهينا من هذا الحديث ، ثم ودعنا معتذراً بالمواعيد ، ووعد باعادة الزيارة ، وفعل .

فقال : سيادتك بتعرف ، اننا أهل هذا البيت في كل عشرين سنة أو ما يقرب منها نصابُ بنكبة ، يضيع على أثرها كل ما عندنا من نفائس[١] سواءً كانت من نوع الكتب أو غيرها .

كان عندنا أشياء كثيرة ، أقلها ، أنه كان عند المرحوم خليل بك ـ يعني جده لأبيه ـ رجل مسيحي ، وكيل على الياخور[٢] وظيفته تسلم كمية من علف الدواب من الشعير ، بكيل معلوم ، وعليه أن يسجل كل يوم ما ينفقه منه ، وفي كل فترة يقدم الحساب ويتسلم كمية أخرى وهكذا . وهذا العمل له قانون ، فالفرس له كمية معينة من الشعير ، والبغل له كمية دونها ، وهذا مصرف كبير بالنسبة لخيولنا ودوابنا ، ولخيول الضيوف ودوابهم .

وكان هناك شخص آخر يشرف على الحواصل ـ يعني الأمكنة التي فيها الغلات ـ من الحنطة والشعير وغيرهما .

وكان الشخص الذي على الياخور ، يقضي نهاره وبيده كتاب يدرس فيه .

وقد تبين بعد ذلك أنه له هواية في التصوير ، وأنه عندما يسجل أسماء الضيوف وانواع دوابهم التي يصحبونها ، يشتغل في نقش صورة الشخص ودابته .

وتبين بعد هذا ، أن هذا الكتاب أو الكتب من النفائس ، فاحتفظنا به .

ومن الصدف أن النكبة التي مرّت علينا بعد هذا العهد افقدتنا كل شيء ، حتى هذا الكتاب[٣] .

---

(١) ومن الصدف أنه بعد زعامته وزعامة ولده كامل ، واستفحال أمر الفلسطينيين في بلادنا ، طوقوا دار الطيبة ، وقتلوا عدداً من حراسها ، منهم عبد الكريم بك الأسعد ، صهر كامل الأسعد على شقيقته أو عمته ـ ونهبت جميع الأمتعة وعندما بلغ الخبر كامل الأسعد ، قال : لا أريد من هذه المنهوبات إلا السيفين ، ووصفهما واهتم بهما حسبما بلغنا ، ولا أعرف أكثر من ذلك .

(٢) الياخور : اسم للزريبة أو للزرايب المختصة بمأوى الخيل والدواب والجمال .

(٣) فاتني سؤاله عن وقتها ، وأظن أنه بعد الإحتلال ، أو عندما كان زعيماً وجهز قوات لمحاربة اسرائيل ، فطوقت البيت وهدمت منه جانباً ، وقتلت نيفاً وعشرين رجلاً ممن جهزهم .

وقال : عندما ورد خبر وفاة علي بك الأسعد في دمشق ، نصبت له مآتم الحزن ، وكان من جملتها عند العشاير « رقصة السيوف الحزينة » فكان الفتيان من الأمراء والزعماء يتجاولون بالسيوف والتروس على شكل منظم معروف إظهاراً للحزن والتفجع على المفقود .

وقال : بينما كان خليل بك ـ يعني جده لأبيه ـ يجول في الحلبة ضمن القائمين بهذه الرقصة ، وردت برقية من دمشق تخبر بوفاة محمد بك الأسعد وكان الناس ينتظرون قدومه ، فأحس بذلك ، وانسل من الحلقة دون أن يشعر به أحد ، وخلع ألبسة الحرب ، ولبس لباس التجمل ، وجلس لاستقبال الوفود ، وتقبل التعازي ، وكان عمره يومئذ سبع عشرة سنة ، وبهذا ابتدأ حياته .

قال : وبعد ما انقضت أيام الحزن المعتادة عندهم ، وجد على علي بك ومحمد بك ديوناً كثيرة ، فتوجه لقضائها ، فاشترى مضافاً إلى ما عندهما من الجمال خمسماية جمل ، وأمر رجالهم ومن يخصهم بأن يعملوا عليها بالأجرة ، وجعل يجمع ما يرده من أجورها مع وارداته الأخرى ، إلى أن تم وفاء تلك الديون ، وبقي كذلك عدة من السنين .

وقال : ثم اختل الأمن في البلاد ، وكانت البلاد قد استأجمت وتحولت بترك الزراعة احراشاً ، فعينته الحكومة مديراً للأحراش فنصحته نساء العائلة بالرفض وأصررن عليه ، خوفاً عليه من غدر الدولة كما فعلت بأسلافه ، فرفض وبقي في الطيبة .

والذي يظهر من هذا الحديث أنه كان يقيم في الطيبة ، فيكون المقصود أنه لم ينتقل إلى تبنين التي هي دار الحكم بالنسبة لهم .

ثم بعد ذلك عيّن « قائمقام » ثم بعد تعيينه في هذا المنصب رفضه ، وأصبح زعيماً شعبياً ، يرجع اليه وجهاء البلاد وأعيانها في حل مشكلاتهم .

ثم سألته عن نسب محمد البك ، فقال : محمد البك ، هو أخو خليل

بك ، وهما ابنا أسعد بن خليل بن الشيخ ناصيف المستشهد في يارون سنة ١١٩٥هـ .

وقال : إن محمد البك ليس له عقب .

وقال أيضاً : أن أسعد بن خليل بن ناصيف كان مريضاً بالجدري فتولت خدمته فتاة يقال لها : عبلا شرف الدين ، وهي من بيت شرف الدين المقيمين في الطيبة ، فتزوج أسعد بعبلا مكافأة لها ، فولدت له خليلاً ومحمداً .

وجلا بسبب ذلك إلى الكوثرية .

قلت : والظاهر أنه حكم عليه بالجلاء إلى الكوثرية ، أو أنه هو جلا إليها بنفسه لأنه تزوج بامرأة ليست من مستواهم .

قال أحمد بك : وبعد ذلك جرى نزاع بين أسعد وبين محمد الناصيف على الطيبة ، ثم احتكموا إلى العلماء والزعماء ، فقال اسعد لمحمد بك الناصيف : من أين اخذت الزريرية ؟ فقال محمد : أوصى لي بها خالي ! فمن أوصى لك بالطيبة ؟

فحكم العلماء والزعماء بالطيبة لأسعد .

قلت : محمد بك الناصيف لم أعرفه ، وفاتني السؤال عنه ، وهو يقصد بقوله أوصى لي بها خالي ، أنه أحق بالزعامة وبما تركه آباؤهم ، لأنه شريف الخال .

والعلماء والزعماء ، انما حكموا بالطيبة لأسعد ، لأنها ميراث له ، كميراث محمد الناصيف للزريرية .

هذا هو الذي فهمته من هذه القصة .

وقال : ثم رجع أسعد بك من الكوثرية إلى الطيبة بعدما كان قد نزح عنها ومعه ولداه محمد بك وخليل بك ، يعني جد أحمد بك لأبيه .

وكان اقاربهم الذين هم من غير سلالة أسعد الخليل يعيرونهم بعبلا.

قلت : ومن لاحظ ما أسلفناه عن خليل بك من تركه لحلقة رقص السيوف الحزينة ، وجلوسه للعزاء ، ثم لاحظ اهتمامه في وفاء ديون علي بك ومحمد بك ، ثم اتصاله بالدولة ، ثم ترفعه عن قبول الوظيفة ، أيقن بتفوقه ونبله وتميزه على غيره ، واعتقد بأنه يتمتع بالكفاءة المطلوبة ممن يتوق للزعامة .

وأقول أيضاً : ثم قال الزعيم أحمد بك : إن محمد بك الأسعد الخليل حارب عصابات الدروز في بلدة رب ثلاثين المجاورة للطيبة ، وأسرهم ، وذكر حربه مع بيت أفندي من الجواسيس ، ولكنني بعد ذلك رجعت إلى مسوداتي ، فلم أعرف اكثر من ذلك .

جمعية العلماء والزعماء في عهد خليل بك(١)

في سنة ١٣١١هـ كان خليل بك الأسعد هو زعيم البلاد ، فدعا وجهاء البلاد للاجتماع في النبطية في منزل نعيم بك ومحمد بك وفضل بك ، لأجل القيام بانشاء مدرسة دينية للطائفة ، والظاهر أنهم لم يفعلوا شيئاً .

وفي سنة ١٣٢٥هـ دعا ولده كامل بك الأسعد العلماء والزعماء ، للاجتماع في بلدة الطيبة في منزله المعروف ـ بدار الطيبة ـ لأجل إنشاء مدرسة دينية كما كان ينوي والده خليل . وجرى الإكتتاب ، فجمعوا ثمانماية ليرة ذهباً ، وكان المتبرعون لا يزيدون عن ثلاثين شخصاً ، وقد تفرقت الآراء حول هذا المشروع ، فتفرقوا قبل استقرار الرأي ، ثم قرر كامل بك الأسعد المذكور اجتماعاً في النبطية في دار محمود بك وفضل بك فحضر بعض وتخلف آخرون ، ولفظ المشروع أنفاسه الأخيرة .

ومما يتعلق بخليل بك حادثة الخيام التي ستأتي مفصلة عن قريب .

ومنها : ما سمعته من الشيخ الوالد قدس الله روحه ، وكان يحدث عن

---

(١) لاحظ العرفان م٢ الصادر سنة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م فقد ذكر شيئاً عن هذا هكذا وجدته في مسوداتي ، ولا أعرف له مصدراً أكثر من ذلك فعلاً

إخلاص أهل العلم في عملهم ، قال :

كان خليل بك في نزهة صيد ، فانتهى إلى المجدل أو الخربة[1] فاجتمع في مجلسه أحد عشر عالماً من العلماء ، فسألهم عن حلية الصيد وحرمته ؛ وكان الشيخ محمد دبوق ـ المعروف بقوة إيمانه ـ في طرف المجلس ، فأجابه بقوله :

هؤلاء يهابون البيك يجاملونه ، وأنا أقول لك : صيد البيك حرام ، وصيد محمد دبوق حلال ، لأن صيد البيك صيد لهو ، وصيد اللهو حرام ، وصيد محمد دبوق للقوت ، والصيد للقوت حلال ، فالتفت البيك مغضباً ، وقال : من المتكلم .

فأجابه : محمد دبوق بن الحاج فلان من خربة سلم .

فأطرق خليل بك فترة ، ثم قال للعلماء ، صحيح ؟ فقالوا : نعم .

ثم التفت للشيخ محمد دبوق قائلاً : من اين تعيش ؟

فأجاب : الذي خلقني هو الذي تكفل بمعيشتي .

فالتفت البك وقال : اقطعناك الأرض الفلانية ، هي لك لمعيشتك[1] .

ومنها : وهي على نقيض سابقتها ، ما حدثنا به المرحوم الحاج أمين مرجي في النجف الأشرف سنة ١٣٥٦هـ عندما زار المشاهد المقدسة أول مرة ، وكان معه ولداه الحاج محمد والحاج علي مرجي ، وهو يعود في نسبه لآل علي الصغير ، ومخلص لهم .

قال : حدثني فلان ـ نسيت أنا اسمه ـ أن خليل بك كان مشغولاً بالوضوء للصلاة ، فتكلم معه فلان ـ وهو سيد من رجاله وأتباعه ، ولعله سماه ـ فاجابه بما لم يرق له ، فاخرج الطبنجة عن جنبه واعترضه بها ، فوقع الرجل مشقوق البطن ، ونفرت رئته من بطنه ، وجعلت ترتعش كأنها جناح طائر ، ثم اتم خليلك بك وضوءه ، وصلى وكأنه لم يفعل شيئاً .

ونحن إذ ننقل امثال هذه الحكايات لنعطي للقارىء صورة عن مساوىء الاقطاعيين وحسناتهم .

---

(١) هذه القصة نقلناها في كتاب (حجر وطين) وهو غير جاهز ، ونقلناها هنا من بقايا الذاكرة .

حوادث سنة ١٣٢٩هـ

في الرابع من شهر رمضان سنة ١٣٢٩هـ توفي السيد حسن ابراهيم ، والد العلامتين السيد محمد والسيد مهدي .

وفي هذه السنة جرى نزاع بين آل العبد الله ، وبين أهل الخيام ادى إلى خرابها ، ثم احتكموا إلى الزعماء ، فرضي آل العبد الله بكل ما يحكم به كامل بك الأسعد ، واشترط أهل الخيام اشتراك غيره من الزعماء .

وفي هذه السنة ألفت في النبطية جمعية المقاصد الخيرية ، وكذلك في صور وفي صيدا .

وفيها ألفت جمعية في صيدا للشيعة . ولم تعرف الغاية منها ـ كما يقول صاحب العرفان ـ وقد توجه إليها ـ زارها ـ يوم اطلت على الدنيا كامل بك الأسعد ، وبعده يوسف بك الزين .

وفيها انتخب كامل بك الأسعد مبعوثاً في الاستانبول بالاجماع ، لأن الأصوات الثانوية كانت تتألف من ستة وعشرين شخصاً ، غاب منهم اثنان ، والباقون صوتوا له واحتج المعارضون الموجودون في بيروت زاعمين أن الثانويين كانوا مجبرين على انتخابه .

وفيها رجع الشيخ عبد الكريم شرارة من العراق ، واستقبله السيد عبد

الحسين شرف الدين إلى بيروت ، ومثله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذي كان حينئذ في صيدا . ومثلهما جملة من الوجهاء .

وفيها سيطرت الحكومة العثمانية على التبغ ، وجعلت له شروطاً صعبة لا يقوى الفلاحون على احتمالها .

وفي هذه السنة تقرر مد اسلاك التلغراف بين صيدا ومرجعيون والنبطية .

وفيها : هجمت قوة من الحكومة العثمانية مؤلفة من أربعين رجلاً ما بين فارس، وراجل، على قرية خربة سلم، بقيادة اليوزباشي طلعت بك الكردي ، ودخلوها عنوة ، وأمعنوا فيها نهباً وسلباً وتخريباً ، وبأهلها ضرباً ، واعتقلوا من تمكنوا عليه من رجالها وارسلوه مكتوفاً مع الأسرى ، وذبحوا من الماعز رأسين ، ومن الدجاج سبعين دجاجة وسلبوا كل ما يتمكنون عليه مما يؤكل أو يلبس .

ثم أفرج عنهم ما عدا ثلاثة ، منهم المختار ، ثم اخلوا سبيله .

ثم هجم اليوزباشي على قريتي بستات والحميرة ، واعتقلوا سبعة أشخاص بدعوى أنهم مطلوبون إلى الولاية ، ثم ظهرت براءتهم .

وفيها : رجع كامل الأسعد إلى بيروت عائداً من استنبول ، واستقبله أخوه عبد اللطيف بك ، وفضل بك الحسن ، والحاج محمد سعيد بزي ، ثم استقبله زعماء الحولة في أربعماية فارس إلى النبطية ، ثم عادوا بدون مشاهدته .

ثم جاء ، فاستقبل في النبطية وحبوش وما ورائهما استقبالاً فخماً إلى النهاية (كما وصفه بعض مراسلي جريدة جبل عامل) .

وفيها : انتهت دورة « المبعوثان » في استنبول ، وانتخب كامل بك في سوريا وبيروت ، لأنه نال ثقة الاتحاديين ، وكان انتخابه برضى الشعب واقباله لا كما زعم بعض خصومه من اللبنانيين .

يوم الخيام (1)

حوادث سنة ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٤م

في سنه ألف وثلاثماية واثنتي عشرة الموافق ١٨٩٤م وصل الخبر إلى النبطية ، بأن الطائفة الدرزية ، في حاصبيا ووادي التيم ، جمعت جموعها ورفعت بيارقها ـ اعلامها ـ وعزمت على مهاجمة قرية ـ الخيام ـ لحرق بيوتها ، والفتك بأهلها ، وفيها آل العبد الله ، الذين ينتسبون إلى التنوخيين ، فأسرع المرحوم السيد حسن يوسف ـ وكان في ذلك الوقت من مشاهير علماء جبل عامل ـ لدفع غوائل الفتنة ، فعقد اجتماعاً في منزله في النبطية الكبيري ، وتسمى النبطية التحتا ، ضم علية القوم وأصحاب الرأي والتدبير ، فعزموا على اصدار منشور عام وتوجيهه إلى ابناء جبل عامل ، يدعوهم فيه للاجتماع في الخيام وللدفاع عنها بقوة السلاح ، وأن لا يتعدوا الحدود ، ولا يبادئوا أحداً بشر ، وأرسل منادياً ينادي في الاسواق ، هلموا لنصرة اخوانكم هلموا للدفاع عن كرامة طائفتكم وعهد إلى الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر ومحمد جابر بوضع نص للمنشور ، وباستنساخ نسخ عديدة منه ، فكان ذلك ، ثم ارسلت الكتب مع السعاة إلى زعماء البلاد ووجهائها ، وكانت هذه الكتب موقعة بتوقيع السيد ، ومختومة بخاتمه ، وقد أقدم على ذلك غير مبال بما يترتب عليها من

---

(١) هذا الحديث مأخوذ من العرفان م ٢٧ ص٨٠٥ من مقال للاستاذ محمد جابر وكان ممن سار إلى الخيام ، وشهد حوادث ذلك الاجتماع .

مؤاخذة السلطة ، وكان لهذه الكتب اثرها العظيم ، فقد هبت الناس للتلبية ، وسارت الجموع إلى الخيام ، افواجاً افواجاً ولم تمض اثنتا عشرة ساعة ، حتى بلغ عددهم خمس عشرة ألفاً ، إلى عشرين ألف مسلح ، وكان الاستاذ محمد جابر ممن ذهب إلى الخيام ، وحضر هذا الحادث ، ورافق تحركاته .

وكان الأمير سعيد الشهابي هو كبير الشهابيين وزعيمهم في حاصبيا ووادي التيم ، قد أوفد اثنين من ابناء عمه وهما الأمير علي الشهابي والأمير مسعود الشهابي إلى الخيام ، وزودها برسائل لآل العبد الله يعرض توسطه في الخلاف ، وعقد راية الصلح وكان الشيخ حمد قيس هو شيخ الطائفة الدرزية في حاصبيا وجوارها وقد تبودلت الرسائل بينه وبين المسؤولين في الخيام طمعاً بحقن الدماء وتهدئة الحال ، وكان السفير بينهم الذي يحمل الرسائل شيخ درزي يدعى أبا علي سياغة ، وكانت رسائله تنطوي على رغبة صادقة في الصلح وكانت تدل على حنكة وعقل راجح ، ومثلها رسائل آل العبد الله فانها كانت تنطوي على ذلك بمهارة وحذق يشوبها شيء من القوة .

ثم انفصل نحو خمسماية شاب مسلح وهم من أهالي الخيام ، وأهالي عيثرون ، واشتد بهم الحماس ، واندفعوا للناحية الشرقية ، يريدون الهجوم على قرية الحمارية ، وبعض القرى الدرزية ، فاعترضهم العقلاء وهدأوا ثائرتهم وامروهم بالروية والانتظار .

أسباب الحادث

هي أن رجلين من أهل الخيام ذهبا إلى جهة القنيطرة لبيع البطيخ ، ولما رجعا اعترضهم ثلاثة رجال مسلحين من دروز عين قنيا بانياس وارادوا سلبهما ، فلم يستسلما ، وانتهت المعركة بينهم بقتل درزي واحد من الثلاثة ، وجرح شخص واحد من أهل الخيام ، واتصل الخبر ، بأقارب الجريح الخيامي ، فجاء من حمله إلى بلده ، واعترضهم في طريقهم درزي آخر ، فقتلوه ، فاستعظم الدروز أن يقتل منهم اثنان في جريح واحد ، ونسوا انهم هم المعتدون ، وان الآخرين مدافعون ، فحشد الدروز رجالهم في قرية «المارية» الواقعة شرقي الخيام ، ورفعوا الأعلام ـ البيارق ـ وشرعوا يرددون الاناشيد الحماسية ،

فاحتشد أهل الخيام أيضاً في ساحات الخيام ، وجعلوا يرددون اناشيدهم الحماسية ، وخشي آل العبد الله أن يتفاقم الخطب ، بطيش الشباب ، فكتبوا كتاباً للسيد حسن يوسف في النبطية ، يشرحون فيه القضية ، ويطلبون فيه النجدة واتخاذ التدابير اللازمة ، لانقاذ بلدهم من الدمار ، لأن بلدة واحدة لا تقوى وحدها على رد جموع الدروز الكثيرة ، ولما وصل الخبر للسيد جمع العقلاء ، واستشارهم ، فأصدر السيد كتاباً ، وأرسله للزعماء والعلماء ، فخف الناس إلى الخيام زرافات ووحدانا .

وكان أول من لبى الدعوة من الزعماء ، وأسرع للنجدة المرحوم ناصيف باشا الأسعد[1] النجل الثالث للمغفور له علي بك الأسعد ، الذي كان أميراً للبلاد ، وحاكماً عليها إلى أن توفي سنة ١٢٨٢هـ قال محمد جابر : وقد رأيناه يومئذ ، وقد قدم النبطية في طريقه إلى الخيام ، على حصان أشهب ، في خيل

(١) علي بك توفي سنة ١٢٨٢ هـ وطالب بالزعامة بعده ، ولده شبيب باشا الأسعد الذي لم تطل أيامه واعرف ولده علي نصرة بك الأسعد الذي عين في زمن والده مفتشاً على الولايتين ولاية حلب وولاية الشام وناصيف باشا هو اخو شبيب باشا .
وكان علي نصرة بك ابن شبيب باشا رجلاً وسيماً جليلاً ابيض ذا لحية شقراء يميل إلى الطول كامل الجسم ذا هيبة ووقار وكان أشد المخلصين للشيخ الوالد ، حتى أنه وقف مع الشيخ يتلقى التعزية عندما توفى أخي سليمان اليافع ، وقد ذهبت لزيارته مع عدد من ارحامنا في منزله مكرراً .
وقد أومأ مرة إلى صورة معلقة في الجدار فيها صورة والده وجمع من العلماء وإلى أحد جانبيه صورة الشيخ الوالد ، وهو شاب ، واتذكر أنه كان متكئاً على سيف .
ومن لطائف ما حدثنا به السيد وهبي شكر من الخيام ، وكنت ضيفاً في صيدا ، عند المرحوم صاحب العرفان الشيخ أحمد عارف الزين ، ولعل ذلك كان في سنة ١٣٥٠هـ .
قال : دخلت الفندق مرة ، وكنت احفظ مقطوعة من الشعر ، وكنت معجباً بصوتي فجعلت أرددها ، وهي من شعر شبيب باشا ، وكنت لا أعرفه ، وكان ثمة شخص جالس على كرسي لا يكاد يتحرك ، فناداني وقال لي : يا ولد هل تعرف هذا الشعر لمن ، وكان أراد أن يعرفني بنفسه ، فلم اجبه ولم أعتن به وكرر علي السؤال ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علي بك وهو شاب جسيم وسيم ، بأوسمته العثمانية العالية ، فسلم وركع ، ثم مشى إليه ، وقبل يده . وعاد القهقهري . فامتلأت رعباً وهربت وعلمت بعد ذلك أن الشخص هو شبيب باشا وأن الداخل هو ولده علي نصرت ، ولو أنني أجبته لنالني شيء من الكرامة ، وقال إنه راسل فورد مكرراً يقول له عندك ملايين وأنا رجل فقير لماذا لا تساعدني ؟ فأجابه على الكتاب : إن رسائلك تأخذ جزءاً من الوقت الذي أنفقه بلا فائدة ، فإن عدت قدمتك للمحاكمة .

كثيرة ، ورجال مسلحين ، فلبث في حضرة السيد بضعة دقائق ريثما شرب القهوة ثم تابع سيره إلى الخيام .

وبلغ الحماس في الناس في بلادنا حده الأقصى ، حتى أن الوجيه الشيخ علي الزين ، والد صاحب العرفان الشيخ أحمد عارف الزين ، قال : خرجت من «شحور» ـ بلدته ـ ساعة وصلني المنشور في خمسين رجلاً ، ولم انتظر حتى يجتمع الناس ، ولما وصلت إلى الخيام كان معي نحو ألف رجل ، بين فارس وراجل ، شاكي السلاح ، حيث كنا لا نمر بقرية إلا وينضم أهلها الينا .

قلت : وحدثني بعض من رآه في اثناء سيره ومعه نحو خمسماية مقاتل بعضهم فارس وبعضهم راجل، وبعضهم شاكي السلاح وبعضهم يتسلح بالدبسة ـ عصاة غليظة لها رأس يشبه البرتقالة دقت فيه المسامير حتى كاد يستحيل إلى مسامير لتقاربها ، وبعضهم يحمل رفشاً فاروعة وامثالها من الآلات القاتلة .

موقف الحكومة العثمانية من حادثة يوم الخيام

قال محمد جابر : لم تمد الحكومة الرئيسية يداً فعالة في حادثة الخيام ، بل وقفت في أول الأمر موقف المتردد ، واكتفت بارسال شرذمة من فرسان الدرك ، بقيادة ضابط قضاء مرجعيون ، المسمى محمد آغا قره شولي الكردي .

وقيل أن السبب في تهاون الحكومة هو أن سياستها كانت تقوم على تفريق الكلمة ، على قاعدة فرق تسد ، وانها كانت تغري احدى الطوائف بالأخرى .

وقيل : انه بعد هجوم فدائي الأرمن على دار البنك العثماني ، في الاستانة ، بالديناميت واحتلال بعض غرفها ومحاولة نسف تلك الدار بمن فيها ، ثم لم يخرجوا منها إلا بعد توسيط السفراء ، وبعد وعد الباب العالي بحل قضيتهم على الوجه الذي يرضيهم ، ظنوا بأن استفحال الخلاف بين الشيعة والدروز ، حلقة من سلسلة مدبرة تحركها الأيدي الأجنبية ، تنتهي بثورة عامة في سوريا ، لذلك أمر الباب العالي والي سوريا عثمان نوري باشا ووالي بيروت عبد الخالق نصوحي بك ، باتخاذ الحكمة في حسم الخلاف بسرعة ، ومن

الصدف أن الواليين كانا على خلاف مستحكم ، لأمور نجهلها ، فجعل كل منهما يشي بزميله إلى الباب العالي ، ويعزو أسباب الخلاف لسوء إدارة الآخر .

قال محمد جابر : ومن الصدف انني اطلعت على برقية من والي بيروت إلى قائمقام صيدا أحمد شكري بك ، وكان هذا قدم للنبطية واقام فيها لمراقبة الحوادث عن كثب وابلاغها في كل يوم لمقام الولاية في بيروت ، وكانت بالاشارات البرقية واليك ترجمتها بالعربية :

خذوا برقية للباب العالي من العلماء والاعيان بالشكوى من سوء أعمال والي سوريا وتبرير موقفنا .

وبينما كان زعماء الشيعة واعيانها ، يعقدون الاجتماعات السرية ، في الخيام ، وكان من جملة القرارات التي اتخذت في تلك الاجتماعات ، عقد اتفاق مع الأمير محمد الفاعور[1] ، وبينما هم كذلك ، ورد الخبر بأن الحكومة السورية ، أرسلت القومندان خسرو باشا ، على رأس أربعماية فارس ، رابطت في حاصبيا ، ثم وصل في اليوم نفسه إلى الخيام فرقة من فرسان الدرك ـ الجندرمة ـ ثم فرقة من سواري العسكر الشاهاني راغون الفرسان ، من الآي بيروت ، ومن الأنظمة العسكرية ، ان لا يخرج عسكر الدراغون من ثكناتهم ، إلا بعد صدور الارادة السنية ، من القائد الأعظم جلالة السلطان ، وكان على رأس هذه الفرق البيباجي القائد مصطفى بك اجل يقيني الكردي الدمشقي ، وصل القائد وعقد اجتماعا في الليل في منزل الحاج إبراهيم العبد الله واجتمع فيه زعماء الشيعة واعيانهم الموجودون في الخيام ، وابتدأ هو بالكلام فقال :

دولة والي بيروت أمرني أن ابلغ سلامه لاعيان الشيعة ووجهائها ، وأن ارجوكم باسمه ، وانا رجل منكم ولكم ، من ابناء عشائر الأكراد ، من صالحية

---

(١) كان من جملة التدابير التي اتخذت عقد اتفاق مع الأمير محمد الفاعور ، أمير عرب الفضل ، المخيمة في أراضي الجولان ومع كنجر بك رئيس عساكر الجركس ، القاطنة في قضاء النبطية ، لامداد الشيعيين بخيلهم ورجالهم ، وكان من جملة المقررات أيضاً الاستنجاد بابناء الشيعة في بعلبك ، وبعشائر الحمادية في الهرمل ونواحيها ، إذا نشبت الحرب ، وكانت هذه الاتصالات تجري بمزيد من التكتم ، ولم تتعد المداولة فيها بضعة اشخاص .

دمشق، ان تساعدوني، وأنتم المعروفون بصدق التابعية، للسلطة العثمانية، وان هذا الاجتماع لم يحصل إلا بقصد الدفاع، ومنع اتساع الفتنة، وحقن الدماء، وطلب القائد ما يلي :

أولاً : فضّ الاجتماع، ثانياً : تشكيل لجنة مؤلفة من زعماء الشيعة، ولجنة من زعماء الدروز، للنظر في اسباب الخلاف وحله على طريقة العشائر، أي لا تنظر فيها المحاكم النظامية، ثالثاً : الاتفاق على اجتماع مؤلف من زعماء الشيعة وزعماء الدروز، في مكان يتفق عليه، لعقد راية الصلح، فاستمهلوه إلى صبيحة اليوم الثاني لاعطائه الجواب النهائي، وكان القصد من الاستمهال رفع النتائج إلى زعيم البلاد الأكبر المغفور له خليل بك الأسعد، لأخذ رأيه، وكان الزعماء يرفعون اليه خلاصة الحوادث في مساء كل يوم، ولما وصلته الرسالة الأخيرة، توجه ليلاً، من دار الطيبة إلى سهل كفركلا، الواقع بين الخيام والنبطية، بصحبة انجاله وبعض خواصه، فوافاه الزعماء، وعقدوا اجتماعاً في منتصف تلك الليلة، تحت أشجار الزيتون، وتلا امامهم محمد جابر جميع الرسائل والمخابرات التي جرت بين آل العبد الله وبين الأمراء الشهابيين ومشايخ الدروز، وملخص مقترحات القائد مصطفى بك، فقال خليل بك : انني جدا مسرور من هذه النهضة التي قامت بها الطائفة الدالة على تضامنها واتحادها، فانها رفعت اسمها عالياً، واروم اتخاذ الحكمة ومنع الاعتداء، ومنع النزف والطيش، والوقوف على قدم الدفاع، ولا بأس بالصلح الذي يحفظ كرامة الطائفة، ويمنع اهراق الدماء، وما عرض الصلح على قوم وابوا إلا وخذلهم الله . ثم قال : ان والي سوريا كتب إلى الباب العالي ينسب اليه اثارة هذه الفتنة بممالئة والي بيروت، وقال: ان ولده كامل بك يتحفز لخوض نيران المعركة ومعه ألف رماح .

وانفض هذا الاجتماع عند بزوغ الفجر، وعاد خليل بك مع حاشيته إلى الطيبة، وعاد بقية الزعماء والاعيان إلى الخيام، وفي صباح اليوم الثاني عقد اجتماع آخر، حضره القائد مصطفى بك، فابلغوه قرارهم بقبول الطلب الذي طلبه، على أن يرأس الاجتماع لعقد الصلح زعيم شيعي باسم مندوب ولاية

بيروت ، فأرسل القائد برقية إلى مقام الولاية بنتيجة الاتصالات ، وباقتراح الشيعة المذكور ، فأقرته الولاية بالحال ، وارسلت برقية إلى خليل بك الأسعد ، تدعوه لأن يترأس الاجتماع ، وعين المكان وهو ـ رأس نبع الحاصباني ـ قرب سوق الخان ، واعتذر خليل بك عن الحضور ، وأناب عنه نعيم بك الفضل . وبعد الظهر استعرض القائد الجموع المحتشدة في سهل فسيح شرقي الخيام ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألف مقاتل ، وسار بين صفوفهم ، وسر من انتظامهم ، واثنى عليهم ، وكانت تحييه الموسيقى الوطنية ، وتحنى له الاعلام ، ويتصاعد الهتاف « باد شاهم جوق بشا » ليعش سلطاننا كثيرا .

وبعد هذا اجتمع المؤتمرون على جسر نبع الحاصباني ، وكان على رأس وفد الشيعة الحاج محمد افندي عبد الله ، وعلى رأس وفـد الدروز الشيخ أحمد قيس ، ولما بدىء بكتابة وثيقة الصلح ، نهض الحاج محمد عبد الله ، وطلب باسم الطائفة الشيعية ، ان يقرن اسم المسيحيين مع الشيعة والدروز في متن الوثيقة ، فاعترضه شيخ درزي يدعى (ابا فريد) وقال : لقد اجتمعنا لحسم الخلاف بين الشيعة والدروز ، ولا شأن للنصارى معنا ، فاجابه الحاج محمد العبد الله ، نحن والمسيحيون حلف واحد ، وهم اخواننا في السراء والضراء ، ولا يكون الا ما ذكر ، فقال : الشيخ أبو فريد : لا يهمنا الأمر لو اتفقتم مع نصارى العالم ، فاحتدم الحاج محمد غيظاً ، واستل سيفه ، وهزه في وجه أبي فريد ، وقال : لولا حرمة المجلس لبترت رأسك فالقيته في الجولان ، ولكن الشيخ حمد قيس انقذ الموقف ، فاعتذر إلى الحاج محمد افندي ، ولام أبا فريد وصرفه ، وكتبت الوثيقة ، كما طلب الحاج محمد عبد الله ، ووقعها الفريقان ، وتصالحا وانتهت الحادثة بسلامة .

السبب في ادخال المسيحيين مع الشيعة في الصلح

قال محمد جابر : وقفت الطوائف المسيحية في مرج العيون ووادي التيم ، وقفة مشرفة ، يوم الخيام ، فحالفوا الشيعة وتضامنوا معهم ، وانضم كثير من شبانهم إلى الجموع المحتشدة في الخيام ، وكانت المصلحة تقضي بذلك ، لأن

العلاقات بين الدروز والمسيحيين كانت متوترة ، بعد مقتل الشيخ علي الحجار .

والشيخ علي الحجار هو زعيم درزي ، ذو صولة ووجاهة ، وهو شيخ قرية « المطلة » التي تبعد ثلاثة اميال جنوباً عن الجديدة ، مركز القضاء ، وكان يسكنها الدروز ، وقد اصبحت اليوم يعني يوم كتابة محمد جابر لفحوى هذه السطور ـ بعد أن جلا الدروز عنها قبل الحرب العظمى من املاك اليهود ، والحقت بعد الحرب بفلسطين .

وسبب مقتل الشيخ علي الحجار هو أن الولاية في بيروت ، ارسلت رفعت بك بن عبد الرحمن باجم بك النائب العام لمحكمة استيناف ولاية بيروت وكيلاً لقائمقام مرج العيون ، وكان شاباً مغروراً ، يمت بنسبه إلى عشيرة بابان القاطنة في السليمانية من أعمال العراق ، وهو صاحب جريدة « سرسيت » الحر ـ التي كانت تصدر في الاستانة بعد نشر الدستور التركي الثاني ، ضد الاتحاديين ، مما أدى إلى اغتيال احد محرريها « احمد صحيم بك ، وكادوا يفتكون برفعت بك لولا أنه نجا باعجوبة » .

جاء رفعت بك إلى مرج العيون ، والوالي يومئذ خالد بك ، وهو أيضاً من عشيرة بابان ، فاعتز رفعت بك بانتمائه لعشيرة الوالي وامعن بالرشوة ، وابتزاز الأموال بكل وسيلة ، وحاول أن يبتز مالاً من الشيخ علي الحجار ، فامتنع واغلظ له في القول ، فاحتدم رفعت غيظاً ورفسه برجله رفسة قوية في صدره « وكان رفعت محتـذياً جزمة » وكان الحجار شيخاً طاعناً في السن ، فمات لساعته ، وارتاح حينئذ رفعت ، فاستدعى بعض أنصاره ، فربطوا القتيل بالحبال ، ونقلوه في جوف الليل ، إلى حقل قريب مزروع ذرة ، وفي اليوم التالي عثر عليه احد الرعاة ، فانتشر الخبر ، وهاج الدروز ، واتهموا بقتله بعض اعيان المسيحيين ، فانتدبت ولاية بيروت الزعيم المعروف رضا بك الصلح ، للتحقيق في حادثة القتل ، ولتسكين الهيجان، وبعد التحقيق رفع تقريرا برأ فيه المسيحيين ، والقى تبعة القتل على عاتق رفعت بك ، ولكن الأهواء السياسية ، طمست ذلك التقرير ، وذهـب دم الشيخ علي الحجار هدراً ، فازداد الدروز

هيجاناً ، واغتيل رجل مسيحي ، يدعى عساف الصغير ذبحاً على جسر الخردلة ، الواقع بين النبطية ، ومرج العيون .

ماذا كان بعد الصلح في يوم الخيام

اصبح السلاح يباع علناً ، في أسواق جبل عامل ، وقد حشدت العساكر الشاهانية في النبطية ومرج عيون ، وبات زعماء جبل عامل على حذر ويقظة ، وظلوا يرقبون الحوادث ، وعقدوا اجتماعا سرياً في النبطية ، قرروا فيه تموين البلاد بالسلاح والذخائر ، والتمرين على الرماية ، والوقوف على اهبة الاستعداد، وقد امتلأت الأسواق بالسلاح والمعدات الحربية ، وكانت تباع علنا ، واقبل الناس على شرائها ، حتى لم يبق رجل قادر على حمل السلاح إلا واشترى قطعة أو قطعتين .

أما الحكومة فانها ظنت أن يداً اجنبية تحرك هذه الحوادث من وراء الستار ، لذلك اخذت الاحتياطات التامة ، فأرسلت خمسة طوابير من العساكر بقيادة الأمير الآي حسن بك ، وضعتها في حاصبيا ومرج العيون ، ووضعت طابوراً من الرديف في النبطية بقيادة تحسين بك بنباشي رئيس ألف جبلة ، ووزعت وزارة الداخلية مناشير عديدة في انحاء البلاد ، تدعو الناس إلى السكينة ، والابتعاد عن الفتنة ، وتنذر المخالفين بالعقاب الشديد .

وأقام الجند بضعة أشهر إلى أن استتب الأمن ثم اعيد إلى مراكزه ، ثم أن الحكومة العثمانية ، قدرت للطائفة الشيعية مواقفها المرنة ، وشكرتها لهم ، فحبتهم بالرتب ، وزادت راتب المغفور الشيخ علي الحر ، وكان يتناوله من الخزينة المالية[1] .

ليلة الأحد ٢٩/ ٩/ ٨٥ الموافق ١٤ محرم ١٤٠٦ هـ

حدثني في منزلنا في حاريص ، الحاج إسماعيل شكرون ، وهو رجل عاقل كامل ، وكان قد حدثني بهذا الحديث من قبل ، فاستعدته منه ودونته .

---

(١): ثم نقلت هذه الواقعة إلى هذه المسودة في ٢٩ شعبان سنة ١٤٠٠ و١٢/٧/ ١٩٨٠ في حاريص .

قال : كان الشيوخ المعمرون من أهل النبطية ومن حولها يحدثوننا بهذه القصة ، ومنهم السيد محمد أبو خدود ابن السيد حيدر أبو خدود من بلدة النبطية ، وكان يحدث عن أبيه السيد حيدر الذي حضر هذا الحادث وكان من أبطاله ، قال :

كان في الدروز شخص يدعى أبو قمرة ، وكان يقطع الطريق بين بلاد الشيعة وبلاد الدروز ، وكان كلما التقى به جماعة من الشيعة يستولي على ما كان معهم ، واجتاز به مرة من المرات جماعة من الخيام معهم بغال محملة حنطة فسلبهم البغال وما عليها ، وقطع أذن أحدهم ، وقال اذهب إلى الأفندي ـ يعني الحاج محمد عبد الله افندي وهو وجيه الشيعة في تلك المنطقة ـ وقل له ، ما أحل حزامي على كل الشيعة في جبل عامل ، أو ما أشد حزام فرسي على كل الشيعة في جبل عامل ، ولما علم الحاج محمد عبد الله بذلك حلف أن لا يشرب القهوة حتى يرى رأس أبو قمرة ، ثم جمع من حوله من الشباب وأعلمهم بذلك ، فقالوا ما معنا سلاح مثل سلاح أبو قمرة ، فان أبو قمرة عنده بارودة « معدل » ألمانية ، ونحن عندنا بندقية عثمانية أم الاصبع ، فإذا تقابلنا معه أفنانا ببندقيته قبل أن نصل إليه ، وسمعنا أنه يوجد في النبطية بندقية مثل بندقيته عند الخراب ـ وهو رجل من عائلة يقال لهم بيت طَه ـ فاستدعاه الأفندي ، وأعلمه بالأمر ، وقال له : إختر أي عدد تريده من الشباب . فأجابه وهو على ظهر فرسه أنا وحدي أكفيك ، ولكن أريد شخصاً واحداً ـ وأشار إلى رجل اسمه حسين زيبارة ، وهو رجل قصير ـ وقال أريد هذا فصحبه معه وذهبا ، وقال للأفندي غداً تشرب القهوة ، ولما حاذى المكان الذي يقيم فيه أبو قمرة تنحنح ، فخرج إليه أبو قمرة ، فبادره قائلاً : جئت لأقتلك ولا أحب أن أكون قد أخذتك غدراً ، فتناول أبو قمرة بندقيته بيده اليمنى ، فبادره الخراب بطلقة أعطبت يده اليمنى ، فتناولها أبو قمرة باليسرى ، فبادره الخراب بمثلها ، فالتفت إلى حسين زيباره وقال : لقد كسرت لك أجنحته ، اذهب إليه واحتز رأسه ؛ ففعل ووضع رأسه في مخلاة الفرس ، وعادا ، أما الخراب فقال لزيبارة أنا ذاهب إلى النبطية ـ أما انت فخذ الرأس وسلم على الأفندي وقل له يشرب القهوة .

فورد زيبارة الخيام صباحاً وطرق الباب على الأفندي ، فلما رآه قال له : « قمح والله زوان » ـ السؤال كناية عن نجاح العملية وعدمه ـ فقال له : قمح . ثم رمى الرأس من المخلاة ، فأمر الأفندي بدق القهوة ، واستدعى الشباب .

أما أبو قمرة ، فان فرسه عادت إلى البلد بلا فارس ، فجاؤوا إلى مقره فوجدوه مقطوع الرأس ، فشاع الخبر ، وقامت قيامة الدروز وأشعلوا النيران على رؤوس التلال إعلاناً باستعدادهم للحرب وأخذوا يتجمعون .

أما الحاج محمد أفندي ، فانه أركب شخصاً على فرس شقراء ، وأمره بالذهاب إلى قرى الشيعة وأمره أن ينادي : شباب ، غلمان ليّ جيّ (يعني يا شباب يا غلمان إلي إليّ) احترقت الخيام فجعل الناس يتجمعون من جميع البلاد ، ثم إن الأفندي قال لفلان ـ وهو رجل قصير بدين ـ إن أحد مشايخ الدروز (القيسي أو غيره) يحقد على الشيعة وينال منهم ، فهل تقدر على تدبيره ؟ فقال : نعم . قالوا فقصد بلدة ذلك الشيخ ، وتسلق إلى منزله فوجده نائماً ، فغرز خنجره في وسادته ، ووجد عِمته عند رأسه ، فأخذها ثم عاد من حيث أتى . فانتبه الشيخ صباحاً وأراد أن يتناول عِمته ، فلم يجدها ، ثم نظر إلى الخنجر وهو يترنح في وسادته إذا حركها ، فعلم بأن الشيعة قدرت عليه وعفت عنه ، فصحب بعض رجاله وحضر إلى عند خليل بك يشكره على العفو عنه وأظهر الطاعة .

قالوا ، وطلب أن يرى من قام بهذه المهمة ، فجاءه وهو يلبس العمة ، وفي ذلك من السخرية بالقيسي ما فيه .

وأما رواية الشاعر الزجلي المشهور في ذلك العصر (محمود قاسم) المعروف بمحمود حداثا ، في ملحمته الشعرية التي نظمها بمناسبة ذلك اليوم ، فانها تتضمن تجمع الدروز عند زعيمهم الشيخ حمد ، وأنه حرضهم على القتال ، وقال إني أرى الموت أسهل من حياة الذل ، إهجموا على الخيام ، واحرقوها ، واهدموا بيوتها ، ولا تبقوا على أحد ، وغداً إذا جاءني البشير بالتنفيذ دفعت له

بشارة عشرة ليرات ذهبية فاعترضه ثلاثة أشخاص منهم (وبالطبع إنهم من ذوي الرأي والنفوذ) .

وقالوا : يا حمد ، الخيام محصنة ، وفيها أبو علي محمد أفندي العبد الله ، وله عشيرة وأقارب كلهم سباع إذا تناخوا ، قام الأب والابن والأخ وابن الأخ والعم وابن العم ، وهؤلاء لن يموتوا حتى يقتلوا أكثر منهم ، نعم ، شدوا العزايم على النصارى ، ولعلهم إنما قالوا ذلك لأنهم يرونه كاف في أخذ الثأر ، أو لأن بعض المكارين كان من بعض النصارى .

ومن الصدف ، أن أبو مطانس ، رجل مسيحي كان حاضراً في هذا الاِجتماع ، فلما سمع هذه المقالة ، قام من وقته وساعته وطفش (ذهب على غير هدىً) إلى القليعة إلى عند الخوري بشارة ، وأخبره بالخبر ، فأمره الخوري بالذهاب إلى الخيام واعلام محمد أفندي ، فذهب إليه من وقته وساعته ، كل ذلك ليلاً ، وأعلمه بما كان .

أما محمد أفندي ، فانه أرسل رسولاً ورسالة إلى زعيم الشيعة في ذلك الوقت خليل بك الأسعد ، وأعلمه بالأمر ، وفور وصول الخبر إلى خليل بك ، أمر فرسانه واعوانه بالاستعداد للقتال والتهيؤ للنزال ، ووجه ولده كامل[1] بك

---

(١) كان كامل بك الأسعد شاباً في ذلك الوقت ، وكان يعد في وقته هو وأخوه عبد اللطيف من أقوياء الرجال ، وكان هو وسائر أهل هذا البيت يعدون من أجرأ الزعماء وأشجعهم .
وما نرويه عن قوته ما يرويه بيت الفقيه الموجودون في رب ثلاثين ، حيث يروون أن جد الحاج حسن الفقيه (الموجود فعلاً في سلك الدرك) كان من جملة رجال خليل بك الذين يعتمد عليهم ، وأنه كان يستدعيه لمصارعة الأبطال الذين كانوا يقصدون البك لعرض عضلاتهم عنده ، فيصرعهم ، وأنه لم يصرعه أحد . ويزعمون أنه تصارع مع كامل بك سراً ، فصرع البك ، وبقي ذلك سراً .
ومنها : ما سمعته من المرحوم خالي الشيخ حسين سليمان ، قال ، قلت لكامل بك مرة في ساعة فراغ : سمعت أن عطوفتك تستطيع مسح الطغراء ـ الكتابة المطبوعة على المجيدي العثماني ـ فقال لي : هل عندك مجيدي ؟ قلت : نعم ، وناولته إياه ، فأخذه بيده وجعل يمسحه بالإبهام والسبابة وشاغلني بالحديث ، ثم ناولني إياه ، فوجدت معالم الطغراء والكتابة قد تغير ، واحتفظت بذلك المجيدي مدةً طويلة . =

الأسعد إلى (العويذي ـ بلد) المطلة على كفركلا والخيام ، فعسكر فيها في ألف فارس رمّاح (كما يقول محمد جابر في روايته المتقدمة) .

ويظهر أن الدروز كانوا عازمين على مباغتة الخيام ، ولو تم لهم ذلك لأدى إلى دمار عظيم ، وفتنة عريضة ، تمتد أطرافها بينهم وبين جيرانهم ولكن وجود أبو مطانس كان سبباً في التنبه والاستعداد للحرب وأخذ الاحتياطات اللازمة .

واليك بقية ما يحفظه الناس إلى هذا الوقت من ملحمة محمود قاسم ـ المعروف بمحمود حداثا التي نظمها بهذه المناسبة :

ابـدأ بـالصـلاة عـالمحمـد صـلاة دايمـة لـيـلاً نهارا
بقـول قـالـه محمـود قـاسم حـوادث عمّت الدنيـا اخبـارا
حكـاها بـالجـرى أول وتـالي وابن الفن يفهم بـالاشـارا

سببهـا كـان متـوالي ودرزي وكان الشر اصلو من شرارا
عـرفـوا دروز راشيـا وحلوى ويمطى ومزرعـة دير العشـارا
وبـاقيـة القـرايا خبـروهـا مثـل طلاس وربـوح النشارا
رادوا يعملوا فتنـة عـظيمي وفـيهـا رايـديـن الإفـتـخـارا

وبعـدما جمعـوا كل المشـايخ وعملوا محكمـة وديوان إدارا

= وممن تميز منهم بالقوة ، حسن بك بن محمود بك بن خليل ، وهو ابن عم الزعيم أحمد بك .
في سنة ١٩٦٩ وردني في حاريص البطل الرياضي المشهور في بلادنا أحمد سويدان وكان قد مضت مدة لم أره فيها ، فسألت عن السبب ، فقال ، كنت في المستشفى ، فألححت عليه بالسؤال ، وأخيراً قال : إن حسن بك دعاه لمصارعته ، وأنه صرعه فغضب ، فأطلق عليه النار من جفت خلع ، وأحمد سويدان هذا كان يأكل كأس الزجاج ويقطع حبل الليف ، فقلت له : بعدك على قوتك ، فطلب حبل ليف فلف عليه يديه ، ثم قال ، يا علي يا علي ، وتله مرتين تلة خفيفة ، وقطعه في الثالثة .
وكان بالقـرب مني بلاطة موزاييك لدرج المنزل طولها نحو متر ونصف وعرضها ٣٦سم أو ما يقرب من ذلك ، ، فقلت : هل تستطيع حمل هذه بيد واحدة ؟ فقال : بل أرفعها بإصبعين ، فوضعها بين السبابة والوسطى ، وضغط السبابة بالإبهام ، ورفعها ، والصخرة لا تزال موجودة ، ولا أزال أذكر ذلك لمن يزورني وأريه إياها .

قالوا يا حمد نحن ارجالك وانت كبيـرنـا والمستشـارا
كيف الـرأي عنـدك يـا ابـانـا دبـرنـا بـرأيـك والبصـارا

قال الرأي عندي يا جماعة اشوف الموت احلى من العزارا
هـدوا عـالخيـام واحـرقوها ولا تخلوش منها ولا سرارا
قيمـوا النار بـالأربع نـواحي وخلوا رمـادها بـالجـو طـارا
ولا تبقـوا على مخلوق دايم وهـدوا بيوتهم وامحـوا الاثارا
وعند الصبح لو جاني مبشر عشر ليرات لاعـطيه البشـارا

ردوا عليه من قومـو .ثلاثـة وقالوا يـا حمد رأيـك هزارا
ما بتعرفش انو السور مانع وجوّا السور اسلام ونصارى
ما بتعرفش انو السبع فيهـا محمد بو عـلي نور العمـارا
حـولـو عيلتو خيـك وبيـك وعمك وابن عمك فرد حارا
حين ما نبح كلب الجعاري تشـوف رجالهم مثـل النمارا
بني متوال عادتهم قـديمـي سباعاً لو صلوا للحرب نارا
وهذا الرأي معنا ما يـوافق نعم شدوا العزايم عالنصارى

فهم مضمونها واحد مسيحي ضـرب كفو اليمـين عاليسـارا
وطفش بالليل عاخوري القليعـا وقلوا قـوم يا بـونـا بشـارا
قلوا ما الخبر يـابو مـطانس كفى الله شر من فينا استجارا
قلّوا العجل قيقب يا ابـانـا دخيلك دلني عــاشي مغـارا
قلّوا روح لمحـمـد افنــدي احكيلوا مثل ما توقع وصارا
طفش بـالليـل لمحمـد وقلوا كـلام السـر آخـرتـو جهـارا

كتب بالحال والسـاعة كتـابو لابـو كامـل وقدمـوا العبـارا
فهم مضمونها البيك المعـظم ونادى عالخدم كونـوا حذارا
درف خيال من عندو مخصص وقلّوا روح عــاتــل المنــارا

نادى يصوت عالي وين راحوا   بني متوال يا أهـل الجسارا
منهم من سمع صوت المنـادي   عشـــرتـلاف هالكانوا حضارا

ركب كامل ومسك السيف بيدو   وهزوا تاغتدي مثل السـوارا
هـز السيف بو زطـام بيدو   وصارف السيف بيدو كـالسوارا
وقلّوا الك من زمن ناصيف نايم   خسر القبقك اعـظم خسارا
وقلّوا قـــوم جايتك عـزيمـة   تـريد المعـركة والله الـزيـارا
وكان السيف شايف بيمنـامو   يأنّو قد حمي سوق التجـارا
وشرب من عـين ميتها لذيذي   ولـون المي يعطي بـالحمـارا
ودعاب السها يصـدق منامـو   ويشبع دوم من دم الكفارا

إلى أن قال :

حسب لا وقعة صارت قديمي   وبات الليل مجهـول الخسارا
وواتا والقلق من كل جانب   لذيذ النوم من عينيه طـارا

مجدل شمس عز الكـان فيها   تشـوف رجالهم مثـل الامارا

والليـل كان راكب عـالكحيـلا   صـار اليـوم راكب عـاحمـارا
واللي كان نايم عاتخت مصري   صـار اليـوم نـايم عـاستـارا
شفت لفـاتهم لبعيـد بيضـا   مثـل البوم عـاروس الحجارا

وهذه القصيدة للشاعر الزجلي (المعروف بشناعة) ابن مريح التي هي بمنزلة ملحمة شعرية شعبية تتحدث عن معركة صيدا (الحارة) التي جرت بين ناصيف النصار وظاهر العمر من جهة ، وبين الدالي خليل وأحمد باشا الجزار والأمير يوسف الشهابي ، من جهة أخرى . وانما آثرنا الإهتمام بها ، لأنها تحدثت عن عدد من أبطال وفرسان المعركة ، وهي هذه :

يقـول المـريحي من ضميـره   بيوت من الذكا فيها نبـاهة
على ما صار ببيوت القوافي   معـاني يطرب الفـاهم بناهـا

ويذكر وقعة صارت بصيدا جموع وما لها حدٌّ تراها
من الشوف العريض ومن بعلبك جراد قد غشا البيدا تراها
لقا الجزار والدالي معاهم كراد وغز ما نفهم لغاها
ولا نعرف كواخي من امارا ولا نعرف توابع من لغاها
دروز وغز وتلايم معاهم كراد رجال ما يدرو الوجاهة
عقيد الكل مير الشوف يوسف بقومه صار للحارة وجاها
وقال اليوم نملك باب صيدا ونأخذ ديرة بشارة معاها
ومن يأخذ تبيعة من رضيعة فلازم يعدها يكثر معاها
حتم ناصيف بالجيرة وزمزم ورب البيت والمختار طه
مزالي جاذب السرعين بيدي بلادي ما حدا غيري يطاها
ونبه على رجاله من بطاله اسود الحرب يا مصعب لقاها
أخو ناصيف محمود الخصايل عليه أم العلى تكثر نداها
حلف محمود بالدين المعظم ورب العرب والياسين طه
مزالي ناقلاً للريح بيدي بني متوال في عز وجاها
وقاسم سترها يوم الهيازع إذا شح الندى قاسم نداها
علي الفارس تفرس بالفضايل بلادو من عدو فيه حماها
على الفارس شديد البأس صعب جمود الضد في سيفه محاها
علي الفارس كريم الجد صعب شجاع لا يمل ولا يضاهي
علي الفارس تمرس بالمعامع له في كل معركة وجاهة
علي الفارس مقدم بالفوارس ونار الحرب مضطربي لظاها
وعباس المحمد كان حاضر برمحه جال في الهيجا وجاها
وعباس العلي ذيب المثالي أخو شيري بنيرانه حماها
مشاعيل الطراد أولاد واكد على خيل لفت بوّل ثناها
عفا يوم لنا الصوات صايح واجو من كل فج من خلاها
فتاهم كل داحول غشمشم حماة الصور بو محمد فتاها
لفوا وخيولهم ترعد براشم ضياغم للوغى ترعش قناها
ودزوا صايح للشيخ ظاهر أبو فراج كم شدة جلاها

وفي بالسيف عاتخت المعالي بجاهه أرخصت عليا جلاها
لنا في عزوة التتبع جنابه أسود ومن ظهر ظاهر نشاها
بواب البخل سكرها وفتح أبواب للسخا زخرف نشاها
علي الضيغمي والليث مدرع تراه على العدى يصفك وراها
علي هزبر الخيلين سيدي على حدود العدى داس بحذاها
عثمان السخا وسعيد وأحمد سيوف الحرب ما تحمل صداها
كريم مثل بو زيد الهلالي وصالح نصر والحايم عشاها
قروم يركبو عوج النواصي وصاحوا على العدى فاتت عشاها
وضرغام الجميع الكل ظاهر صبر عالأمر حتى أنه تناهى
ودز العلم لا ناصيف جاءت جموع لا رفاقتهم تناهى
فكانت خيلنا خيلين صارت على المهباج جمهور عفاها
عليف الخيل باتت في المخالي ولا تقبل من المسرى عشاها
على المصباح صفوها صفوفاً وعجوا للحروبي والوهاها
فهوناك انتدب محمود ربعه عيال الصور يدخلنه وراها
حرام أن العدا يبتان فيها ولا الجزار وعيونه تراها
مزالي قاضباً للسيف بيدي بني نصار في عز وجاها
سنان الحرب غبطين الهوايا حمول الخيل ديرتكم تراها
أسود جردوا حدب المداهن على قوم بقاياهم سفاها
وعاد الخيل في ذولا وذوله غراب البين موتهم سفاها
وعاد الزنبرك للجو ثاير وحدب الطوب يرعد من حذاها
فهذي عاودت راحت جنيبة ولخزى نعلة حملت خداها
وهذي صابها سهم المنايا وذيك الرمح نافذ من كلاها
عليهم حامت طيور الجوارح من العقبان تبغي لا كلاها
وكم من خيلهم جنباً كسايب سروج خيلهم سيدي خلاها
عليهم عربدوا والخيل راحت جفيل وخيلهم تطرد خلاها
وصار الذبح في العسكر وراهم بني متوال عافت من دماها
رجال لا يهابون المنايا لشرب الدم عادوا في مهاها

بني نصـار عقبـان كـواسـر لضرب السيف عادوا في مهاها
بـأيـديهم سيـوف مـرهفـات لعزم الهام لا تبغي سـواها
اشوف سيوف بيـديهم تلمع كبرق لاح في أعلى سمـاها
اشوف رماح بيـديهم تلاعب كزرق نجوم في أعلا سماها
أشوف خيولهم تأخذ وتعطي كـطير طار والبـاشق معـاهـا
وداليهم غـدا والغـز راحـوا وكلمن قال نفسي لا سواها
وراهم خيـل تـرعـد كـالصـواعق لأخـذ الـروح لا تبغي سـواهـا
وعند الجسر قتل المير ملحم وراح السـرج يشلي في دماها
فراس البغي عرجا يا ابن ملحم وتنعو كل مـا مدت يـداها
أمير الشوف قوطر عـالرعـايا وخلي الدار تنعي من بناها
دخلا لا حريم الشوف تبكي رجال وبعضهم تبكي نساها
وأهل القول وأهل العرف قالت وأهل البغي ما نالت مناها
وبعد القول صلوا عا محمد نبي الله عـزو مـا تنـاهـا

فصل

يتضمن لمحة عن زعماء جبل عامل

علي الصغير الوائلي السالمي العاملي أبو الزعماء

تمهيد :

الحياة مشاع ، يحوز عظماء الناس أخصبه تربةً ، وأنداه نباتاً ، وهم من أجل هذا الإستئثار بخير الحياة أصبحوا غرباء في شكل الحياة .

ففي المرحلة الأولى من مراحلها الشاسعة يفترق الإنسان الفذ عن أقرانه فيجتاز فجاج الحياة الواسعة وحيداً لا ينتظر قافلة ولا يصطحب دليلاً ، فتراه يختلف عن غيره من معاصريه في نشأته وأطواره اختلافاً واضحاً ويمتاز عنهم بكثير من المزايا والخصائص ،حتى كأنه لا تربطه واياهم رابطة ،ولا تجمعه معهم جامعة .

فان حكاياتهم وقصصهم وأخبارهم وملحهم في أيام طفولتهم ويفاعهم وشبابهم وما بينها وما بعدها لا تشبه غيرها من حكايات الناس ، المتداولة .

واذا استعرضنا سيرة على الصغير ،وجدناه قد هلك والده وهو حمل وولد في دار غربة ، وترعرع عند أخواله الأقربين وأعمامه الأبعدين « السوالمة » فشب ولمع واسترد ملك آبائه وأعاد ما كان لهم من مجد وشأن وهو شاب في مقتبل الحياة ثم أصبح بعد حين أبا الزعماء المشاهير والأبطال المغاوير ، وإن أمثاله من الناس يجب أن يكونوا موضع عنايةٍ لدى التاريخ كما كانوا موضع عنايةٍ عند

الأقدار ، ويجب أن يكون تاريخهم جلياً واضحاً أكثر من غيرهم ، ولكن المشيئة قضت أن يبقى تاريخهم لغزاً مبهماً يصعب حله .

فاذا أراد الباحث ان يحيط بحياة واحدٍ منهم وجد نفسه امام معضلة تاريخية محاطة بالشكوك مكتنفةٍ بالظنون .

وربما يكون السبب في ذلك ان نبلاء البشر وأفذاذهم يبلغون مقاماً سامياً ويكون أمرهم بمكانةٍ من الجلاء والوضوح فيتنكب معاصروهم سبيل التحدث عنهم لانه من توضيح الواضحات ، أو موضع التهمة بالحب والبغض ، أو الصلة والحرمان .

ثم يجيء عصر بعد ما تنقضي عصور وتكون الرواية قد توسعت وتضيقت بالنسيان والتسامح من جهة ، والتفسير والتعليق من جهة أخرى ، والولاء والبغضاء من جهة ثالثة ، فيكون في أخبارهم حينئذٍ من الإضطراب ما يجعلها مغمورةً بموجةٍ من الشكوك المتراكمة .

ولقد رددت الأوساط السياسية والأندية والمحافل اسم علي الصغير وبنيه قرنين أو قرون فكان ما تتحدث به الألسنة ثروة تأريخية مبعثرة ، وقد يكون المؤرخون تركوا التحدث عنه لأنه من التحدث بالمشهورات ، واستمرت الظروف تحمل المؤرخ على ترك التحدث عنه حتى كادت الأيام تطوي إسمه كما طواها ، وحتى دنت الساعة التي يريد المؤرخ ان يؤدي فيها رسالته ويلقي المسؤلية عن عاتقه ، وإذا به يجد علياً أحد أولئك الذين خيمت على أخبارهم أسراب الشكوك واكتنفها الغموض .

ونحن إذا تحدثنا عن علي الصغير في هذه الأوراق فاننا سنتحدث عن شخصية عربية لامعة تحدرت من أصلاب شامخة ، وتلقت الزعامة من أسلافها وتركتها لمن بعدها من الأعقاب .

من أجل ذلك كله كان التحدث عنه تحدثاً عن قبيلةٍ بأسرها وتحدثاً عن قطر بما ينطوي عليه ، وتحدثاً عن أمةٍ ذات شئون .

غير أننا سوف لا نسمح لليراع بالخوض في النواحي البعيدة المدى ، وسنكفكف له من عنانه ، ونلجئوه الى الايجاز ما استطاع مخافة الخروج عن القصد فإن الكتاب لم يوضع لعلي خاصة ، ولم يصرف همّه إليه وحده ، وانما وضع ليسجل تأريخ جبل عامل وليصور بين دفتيه حياة جمهرةٍ من الناس عاشوا في هذه البقعة من الأرض ومارسوا السياسة وزاولوا الادارة ، وحياة آخرين من العلماء والأدباء والشعراء ولا سيما أولئك الذين ساهموا في كل هذه الحقول ، فانه يشتمل على تأريخ آحاد من أمثال علي وانداده، وكان يجدر بالمؤرخ ان يضع لكلٍ كتاباً برأسه ، غير أننا نريد ان نلم بحياة الجميع إلمام المستعجل ونجمع ما يعرفه ليكون مادةً خصبة يرتادها الباحثون، ويعتمدها الكُتّاب وتكون حجرا أساسياً في تأريخ عاملة المجيد وليكون للقراء فيه متعة ، وللباحث فائدة .

إننا سنتحدث الآن عن علي الصغير وإذا تحدثنا عنه فإننا سنطرق في حديثنا عنه عدة جهات مهمة لها قيمتها تختلف وضوحاً وخفاءً وغموضاً وجلاء .

١ ـ متى ولد علي الصغير؟

٢ ـ متى دخل عاملة ؟

٣ ـ هل مات أبوه حتف أنفه أو ان الشكريين قتلوه ؟

٤ ـ هل تولى حرب الشكريين بنفسه ؟ أو ان أبناءه هم الذين حاربوهم دونه ؟

٥ ـ من هم بنوه الصلبيون ؟ ومن هم أحفاده الأقربون ، وماهي أسماؤهم .

٦ ـ هل كانت الحرب مع الشكريين يوم عيناتا ، أو يوم عيناتا وقانا ، أو يوم تبنين وقانا ؟

٧ ـ هل وقعت حادثة واحدة بينهم وبين الشكريين أو عدة حوادث ؟

هذه نواح عدة لا يستطيع الباحث ان يجزم بواحدةٍ منها قبل أن يستوحي المصادر التي بين يديه ويمعن النظر فيها وفيما تدل عليه وتشير اليه ويتعمق في

البحث والإستنباط ، فقد يتفق الرواة على بعض هذه الأمور وقد يختلفون وقد يمرون بها صامتين فلا ينتفع الباحث منهم ولو بوميض بارقة .

واذا لاحظنا هذه المصادر وجدنا الركيني يحدثنا بأن ابتداء حكم بيت علي الصغير منذ وقعة عيناتا ثم يوقتها بأنها في سنة تسع وخمسين بعد الألف الهجري[1] ووجدنا العلامة الأمين يجزم بحادثة عيناتا وبتاريخها الآنف ويعطينا عنها معلومات نافعة[2] ولكنه يخالف الركيني في كثير من الجهات . منها : أن الأمين يجعل الحادثة بين علي الصغير وبين بيت شكر ، والركيني لا يذكر بيت شكر ولا يتعرض لهم .

ومنها : ان الأمين يجعل الحادثة في عيناتا وقانا ، والركيني يجعلها في عيناتا وحدها واذا لاحظنا ديوان شبيب باشا وهو من نسل علي الصغير وجدناه يتحدث عن علي الصغير وعن بيت شكر وعن الحادثة التي وقعت بينهما ولكنه لا يوقتها ولا يذكر عيناتا ، بل يجعلها في تبنين وقانا ، وقد اتفق هو والأمين على أن علياً ولد عند أعمامه «السوالمة» وأنه غزا آل شكر وهو شاب في مقتبل حياته وتغلب عليهم ولكنه اختلف واياه في أسباب هذه الحادثة .

فالأمين يقول : إن بيت شكر قتلوا والد علي الصغير وذويه الأقربين ففرت أمه وهي حامل به .

والباشا يقول : توفي والده وهو حمل ولم يكن في بيته من يخلفه في الزعامة فجاءها إخوتها وحملوها إليهم[3] .

هذا ملخص ما تحمله هذه المصادر ومن أجل ما فيها من الإضطراب والالتواء وقف اليراع عن الإسترسال ، وراح يستوحي كل غاديةٍ ورائحة ، وغير

---

(١) : ذكره استطراداً في جبل عامل في قرن في حوادث سنة ١١٩٧ هـ المنشور في م ٢٨ من العرفان ص ٩٥٢ قال ما لفظه : ابتداء حكم بيت علي الصغير من وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ هـ إلى يوم قتل ناصيف النصار يوم الإثنين خامس شوال سنة ١١٩٥ هـ الخ ..

(٢) أعيان الشيعة ج١٥ ص١٠٣

(٣) لاحظ مقدمة ديوان شبيب باشا ص١٦

بعيد ان يصل إلى الغاية غير أنني سوف لا أسمح له بتدوين ما يستنبطه ورسم ما يعترضه من الصور قبل أن يعتمد البرهان ويدعم مزاعمه بالمنطق الرصين مخافة ان ينتهي بنا الى قارعة الشكوك المتشعبة فيكون مآلنا الحيرة والضياع .

من الممكن أن تكون المعارك جرت في عيناتا وقانا وتبنين في زمن واحد ، أو في أزمنةٍ متعددة ، ومن الممكن ان يكون علي الصغير حارب بيت شكر مرةً وتغلب عليهم وان يكون بنوه حاربوهم مرةً ثانية .

ومن الممكن أن يكون الأمين ألمّ بالحادثة إلماماً بسيطاً فأخذ من الديوان غزوة علي لبيت شكر ، وأخذ من الركيني حادثة عيناتا سنة ١٠٥٩ هـ ثم ربطهما وجعلهما حادثة واحدة .

ونحن بدورنا نستبعد كل الاستبعاد وجود نصوص معتمدة عند الامين غير ما في الديوان وفي كلام الركيني إن كان قد اطلع عليه ، كما أننا نستبعد كل الاستبعاد كون الحادثة الواقعة سنة ١٠٥٩ هـ مع علي الصغير نفسه ونظن انها وقعت مع بنيه وأحفاده لأننا إذا ربطنا الحوادث واحدةً بأختها وأمعنا في الدراسة أنكرنا بشدة نسبة هذه الوقعة لعلي نفسه واستطعنا بعد ذلك ان نقيم على مدعانا أوضح البراهين ، نقول ذلك ولا نحسبنا مجازفين في هذه المقالة ، وذلك لأن امامنا قضية واحدة يرتبك معها الباحث ويقف موقف الحيرة ثم يضطر لترك رواية العلامة الأمين مهما كانت مصادرها .

إن ناصيفاً هو ابن نصّار بن أحمد بن نصار بن مشرف بن محمد بن حسين بن علي الصغير .

واذا لاحظنا هذا النسب وجدنا بين ناصيف وبين علي الصغير ستة بطون وكان ناصيف هو السابع وعلي هو الثامن .

ولنفرض ان عمر علي الصغير عندما غزا آل شكر سنة ٥٩ عشرون سنة ، لأنه كان شاباً كما يقول الأمين، ولنفرض أنه تزوج في الخامسة عشرة من عمره وولد له حسين في سنة زواجه ، ثم عاش حسين وتزوج ايضاً في الخامسة عشرة

من عمره وولد له محمد في تلك السنة ، وهكذا كان زواج محمد ومن بعده ، فاننا إذا فرضنا تسلسل القوم على هذا المنوال وجريهم على هذه الوتيرة كان مجموع ما يكفيهم من الزمان إلى ان يبلغ ناصيف خمس عشرة سنة من عمره مائة وخمس سنوات ، واذا ضممنا لهذا الرقم شهور الحمل المتعارفة كانت ثلاثة وستين شهراً ، كان المجموع مائة وعشر سنوات تقريباً ، واذا كان عمر علي الصغير في سنة ١٠٥٩ خمسة عشر سنة ، وجب أن يكون عمر ناصيف سنة ١١٦٤ هـ عشر سنوات .

واذا عرفنا أن زعماء عاملةاجتمعوا سنة ١١٦٤ واقتسموا البلاد بينهم ورمموا الحصون والقلاع[١] وأن ناصيفاً في تلك السنة فاز بالزعامة العامة فكان شيخ المشايخ كان معنى ذلك ان ناصيفاً تزعم وهو ابن عشر سنوات وثلاثة أشهر .

إذا كان ذلك كله ازدحمت حولنا الظنون وحامت اسراب الشكوك، لأن عمر ناصيف في ذلك التاريخ حسب التحقيق الآنف نحواً من عشر سنوات ، ومن البعيد ان تصبح له مشيخة المشايخ وهو في هذا السن ، ولو كان ذلك لنص عليه المؤرخون لأنه أمر يلفت الأنظار ويستدعي الانتباه ، وأيضاً فان المقدّم عند العشائر بحسب العادة هو الأسن[٢] بعد استجماع اللياقات ، وهذا يقتضي ان ناصيفاً كان اسنهم ، فيكون آل الصغير وغيرهم الذين اقتسموا البلاد صبياناً وهذا أغرب !

وكيف يظن ذلك وهم في سنة ١١٦٤ رجال محنكون يرممون الحصون ويديرون دفة البلاد ، ويخوضون غمرات الحروب ، ويتولون إدارة شئون مقاطعاتهم .

---

(١) : جبل عامل في قرنين ، للسبيتي . وجبل عامل في قرن ، للركيني . والمقدمة للمرحوم خالي الشيخ حسين سليمان البياضي .

(٢) : كما نص على ذلك المرحوم محمد جابر في مقالاته في العرفان ، وكما يشير إليه المرحوم شبيب باشا في مقدمة ديوانه حيث ذكر أن سبب تقدم فارس في الرياسة على جده (جد شبيب) محمد البك بأن فارساً كان أسن من محمد البك .

هذا بناءً على هذا النسب الذي وجدناه في مسوداتنا ولم نتحقق مصدره فعلاً

وأما بناءً على نسبه الموثوق به الذي أرسله إلينا المرحوم الشيخ عبد المحسن الظاهر[1] في ١٣٦٥/٦/١٥ هـ فالأمر أشد إشكالاً ، فقد ذكر في نسب أحمد بك الأسعد أنه أحمد ، بن عبد اللطيف ، بن خليل ، بن أسعد ، بن خليل، بن ناصيف النصار، بن نصاربن نصار، بن أحمد، بن نصاربن مشرف، بن أحمد ، بن نصار ، بن حسين ، بن علي (المعروف الصغير) بن حسين ، بن أحمد ، بن حمد ، بن محمد ، بن هزاع الوائلي . إلى هنا متفقين عليه عموم مؤرخي العائلة وما فوق حتى يصل بوائل يوجد بعض الإختلاف ، ولم نزل نبذل الجهد بالتمحيص والتنقيب . إنتهى بلفظه .

إننا إذا تأملنا في هذا النسب وجدنا أن بين ناصيف وبين علي الصغير ثمانية بطون ، وهذا يعني اننا إذا قسمنا المائة والخمس من السنين التي هي بين إقتسامهم البلاد وبين دخول علي الصغير لها ، كان لكل من التسعة أحد عشر سنة وثمانية أشهر، ولا بد لنا أن نفرض أن كلاً منهم بلغ في الحادية عشرة من عمره وتزوج حينئذٍ وحملت زوجته إذ ذاك وولدت ولداً ذكراً سويا ، وعاش ذلك المولود حتى بلغ في الحادية عشرة وتزوج وحملت زوجته ، وهكذا دواليك الى ان تنتهي السلسلة الى ناصيف .

إننا مهما أسرفنا في التغاضي لا نستطيع أن نقف هنا مكتوفي الأيدي ولا يمكننا أن نقبل ما يحدثنا به هؤلاء الرواة إذا أدى الى مثل هذه النتيجة الغريبة .

---

(١) : الشيخ عبد المحسن الظاهر من آل علي الصغير ، وكان يقيم في بلدة الحلوسية قرب طرفلسيه (قضاء صور) وقد ألف كتاباً في تأريخ آل علي الصغير أو تأريخ جبل عامل ، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً ، وكنت عرفته رحمه الله يوم زار مشاهد الأئمة عليهم السلام في العراق سنة ١٣٤٧ هـ تقريباً وكان عمري آنذاك سبع عشر سنة تقريباً وهو كامل الجسم ، حسن الصورة يتمتع بالحشمة والوقار ، ويستطيع القارىء أن يحمل بعض الانطباعات الدالة على جلده من خلال الكتاب الذي ارسله إلينا ونحن في النجف وهو يعاني مرضاً دام معه أكثر من ثلاث سنوات (وصورته بين يديك) واستمرت علاقتنا معه منذ ذلك التأريخ ، وكان من المخلصين للمرحوم الشيخ الوالد تغمدهما الله في رحمته ولم يعقب إلا ولداً واحداً اسمه جودت ، وبنتاً.

إن هذه الصدفة لو صحت لما غفل عنها التاريخ ولما نسيتها العجائز فضلاً عن المحدثين والإخباريين من الرواة .

ولا بد إما من القول بأن بعض سلسلة النسب زادت سهواً من المؤرخين ، ودون هذا خرط القتاد ، وحمل للمؤرخ على أخشن مركب ، فان سواد العرب وسوقتها يحتفظون بأنسابهم ، ويحفظون أسماء أبائهم ، ويتحدثون بما كان لهم وعليهم . فما ظنك بأشرافهم ، هل يمكن ان ينسوا الجد الرابع أو الخامس أو غيرهما ، إن هذا مما لا يقبله منطق ولا يؤمن به باحث .

ولا بد حينئذٍ من القول بأن علياً الصغير وجد قبل الألف الهجري ليتسع الزمن الذي بينه وبين أحفاده ليتوالد ما بينه وبين آخر أحفاده توالداً طبيعياً يجري على متعارف الناس ، في استكمال الزمن الكافي للبلوغ والزواج والتناسل والكمال المؤهل للزعامة .

أجل، انني كنت أتهم التاريخ على اساس ما أسلفته من الحساب الدقيق وكنت اعتقد بأن علياً الصغير وجد قبل الألف الهجرية على الأقل وأن زعامة الشكريين لم تتمزق على يده ، وأن بنيه أو أحفاده هم الذين حاربوا الشكريين فقضوا على زعامتهم في سنة ١٠٥٩ هـ قضاءً مبرماً ، نعم ، كنت مؤمناً بهذا كله وكنت واثقاً بهذه النتيجة ، غير انني كنت لا أجرأ على المجاهرة بها ، فان مثل هذه الدراسة الدقيقة وان كانت هي احدى حسنات تقصير المؤرخين واضطراب رواياتهم ، إلا انها مستغربة لأول نظرة .

ثم انني وجدت في النصوص التأريخية ما يدعم هذه النتيجة ، ويحقق هذا الاستنباط ، ويقربه من الصواب .

هذا الصفدي[1] يحدثنا أنه في سنة ١٠٢٧ هـ تولى حسين اليازجي سنجقية صفد، وكتب لجميع مشايخ بلاد صفد يعلمهم أنه صار سنجقها عليهم ، فبعض المشايخ المذكورين لم يطابقه على ذلك ووافقه بعضهم ، مثل

---

(١) في تأريخ الأمير فخر الدين المعني . تأليف أحمد بن محمد بن يوسف الخالدي الصفدي ص ٦٠ ـ ٦٦ ـ ٧١ الذي كان يدون الأحداث لوقتها وساعتها .

بيت منكر ، وبيت شكر ، وبيت علي صغير . ويحدثنا أيضاً أن الأمير أحمد بن الأمير يونس بن الحرفوش عندما تزوج بنت الأمير فخر الدين المعني سكن قرية مشغرة وأسس بها اساس بنيان ، وجعل يكاتب بني متوال من المشايخ المتعينين ، فطلع اليه من شيعته وملته بهدايا أولاد داغر وأولاد علي صغير وابن منكر الحاج ناصر الدين ، بحجة انهم يسلموا على قرابتهم الحاج علي بن منكر لكونه كان نازحاً عنهم .

ويحدثنا أيضاً أنه في ختام ١٠٢٧ هـ نزح مشايخ بلاد بشارة بيت شكر وأولاد علي صغير إلى عند الأمير يونس بن الحرفوش ، وأنه عندما بلغ الأمير فخر الدين ذلك هدم بيوت أولاد شكر في عيناثا والحاج علي بن أبي شامة في بنت جبيل ، وفرحات بن داغر في قرية انصار ، والحاج ناصر الدين بن منكر في قرية الزرارية وولده في قرية حومين الفوقا ، وضبط جميع غلتهم .

وهذا الشهابي يحدثنا ايضاً أنه في سنة ١٠٢٢ هـ عندما عزم الأمير فخر الدين المعني على الفرار إلى البادية ، جاءه الخبر بأن الحافظ أحمد وجه عسكراً صحبة الأمير أحمد شهاب ، وفروخ بيك وأحمد بن طربيه الى جسر المجامع ليمنعوه فعند ذلك عزم الأمير على قتالهم ورجع وسار إلى قلعة الشقيف ، وعند وصوله حضر إليه أناس وأعلموه أن أولاد علي الصغير سلبوهم في الطريق ، فبالحال توجه وباغتهم في قرية الكوثرية ، وقبل وصولهم بلغهم الخبر بقدومه ، فهربوا ، ونهب الأمير القرية ، ورجع إلى القلعة[1] ويحدثنا أيضاً : أنه

(١) : الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان . تأليف الأمير حيدر أحمد الشهابي ، المطبوع سنة ١٩٠٠ م لاحظ ص ٦٣٠ منه ، وقد ذكر الصفدي هذه الحادثة في تأريخه ص ١٦ فقال : واشتكوا من أولاد علي مشايخ قرية الكوثرية بأن جماعتهم شلحوا اناساً ، وشرعوا يخربون البلاد ويشوشون على الرعية ، فركب عليهم بخيله ورجله ، فما وجدهم في القرية ، بل كانوا غايبين في جمعية مشايخ بني متوال ، وصار كبيرهم الحاج علي واخوه ناصر الدين ولدي منكر ، فنهب جميع ارزاقهم التي وجدت لهم في بلدهم الكوثرية المذكورة ، وأخذ ما لكل واحد من الدواب وغيرها ، ليتأدب غيرهم وعاد الى خيامه تحت قلعة الشقيف ، وأقام يومين إنتهى . وهذا الحديث يعطينا صورة عن التحرك السياسي في تلك الفترة ويظهر منه أن العامليين اغتنموا فرصة ضعف الأمير فخر الدين ، واجتمعوا وزعموا أبناء منكر واستعدوا لاستقبال الأحداث الجديدة بعد فراره الى البادية .

في سنة ١٠٢٧ هـ حضر أولاد داغر وأولاد على الصغير إلى الأمير يونس الحرفوش .

إن هذه النصوص تدل على أن عليا كان موجوداً قبل الألف الهجري ، لأن أولاده قاتلوا في السنة الثانية والعشرين بعد الألف ، فلا بد وأن يكون والدهم قد وجد قبل القتال بأمدٍ لا يقل عن أربعين سنة بل وخمسين على الأقل ، وذلك يستدعي وجوده قبل الألف . هذا على أننا لا نجزم بأن أولاد علي الصغير الذين تحدث عنهم الصفدي والشهابي هم أولاد علي الصغير بلا واسطة ، بل نحتمل أن يكونوا أحفاده أو أحفاد أحفاده ، لأن عادة العرب نسبة الحفيد وأحفاده إلى أشهر جدٍ من أجداده ، فان المؤرخين يجمعون على أن أولاد سبأ تفرقوا بعد انهيار سد مأرب وأنهم كانوا عشرة ، ثم يقولون منهم عاملة ابن سبأ ، مع أن بين عاملة وسبأ عشرة بطون ، وهكذا سائر العشرة ، كما أن الناس لا يزالون يسمونهم الى هذا الوقت أولاد علي الصغير وأبناء علي الصغير وبيت علي الصغير ، ومثلهم أولاد فرحات وأولاد منكر ، وبيت فرحات ، وبيت منكر ، فان ذلك لا يدل على أن فرحاتاً وداغراً آباءٌ لهم بلا فصل ، وبالجملة هذا التعبير لا يزال موجوداً في بلادنا ، وهؤلاء المؤرخون يكتبون أكثر ما يكتبونه باللغة الدارجة ، وقد ذكروا ناصيفاً ونصاراً وغيرهما قائلين : نصار بن علي الصغير وناصيف بن علي الصغير ، وهكذا غيرهم مع أنهم أحفاد أحفاده .

ونحن بعد الانتهاء من رحلتنا الى ماقبل اربعة قرون ، نعود منها معتقدين بأن علي الصغير كان موجوداً قبل الألف الهجري ، وانه لم يكن شاباً في سنة ١٠٥٩ هـ

وبعد هذاكيف نصدق أن بيت شكر هم الذين قتلوا والد علي الصغير ، وأنه كان هو حين قتل أبيه حملاً ؟

وكيف نصدق أيضاً أنه هو الذي قاد وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ ؟

وكيف نصدق أنه كان آنذاك شاباً ؟

وكيف نصدق أن ابناءه كانوا زعماء سنة ١٠٢٢ وما بعدها ؟ وانهم كانوا

يجتمعون مع الشكريين والمناكرة لتقرير مصير الزعامة ، وتصريف شئون البلاد ، وأن أباهم كان مهملاً بكل معاني الإهمال ، لا ذكر له ؟

كيف نصدق ذلك كله وهو يناقض بعضه بعضاً ؟

واذا تطرق الشك إلى كلمات الصفدي والركيني وغيرهما من المؤرخين الذين تعرضوا لهذه الأحداث المشار إليها ، فلا يمكن أن يتطرق إلى ما ذكره الصفدي أبداً ، لأن الصفدي كان موجوداً في سنة ١٠٢٢ هـ وكان يرافق الأمير فخر الدين ، وكان يكتب الأحداث في وقتها ، وهو الذي حدثنا عن اجتماع مشايخ المتاولة ، وعن نهب الأمير فخر الدين مواشي اولاد علي الصغير ، وأنهم هربوا. وحدثنا عن ترددهم إلى مشغرة للاجتماع بالأمير علي الحرفوشي ، وبهجرتهم الى عند والده الأمير يونس . ولم يذكر علي الصغير ولو مرةً واحدة .

والشهابي وان ذكر شطراً مما ذكره الصفدي ، إلا أن الظاهر أنه لم يستند اليه ويدل على ذلك مخالفته له في جملةٍ من الأمور التي اشتركا في التحدث عنها .

ثم إن التأريخ العاملي وغيره لم يحدثنا عن الشكريين بعد سنة ألف وسبع وعشرين بشيء أبداً إلى أن جاء شبيب باشا ، والعلامة الأمين وبينها وبين هذه الحوادث نحو من ثلاث قرون .

والركيني ، وهو أفضل مؤرخ عاملي لأنه كان معنياً بذلك وكان هو ووالده يدونان الوقائع عند حدوثها طيلة حياتها ، وهو الذي أشار الى حادثة عيناتا ووقتها بسنة ١٠٥٩هـ فإنه قال ما لفظه : «كان ابتداء حكم بيت علي الصغير من يوم وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ هـ » ولم يذكر كونها مع الشكريين ولم يذكر قانا وتبنين . وأوضح من ذلك كله ما وجدناه في أعيان الشيعة في المجلد الحادي والاربعين ص ٣٥٤ فإنه حكى عن كتاب محمد بن مجير العنقاني في تأريخه المختصر : أن في سنة ١٠٧٢ هـ قتل علي بن علي الصغير وأولاده ، وقتل عاصي واولاده ، وقتل قرقماز بن معن .

والذي نظنه أن علياً المذكور في الوقعة العظيمة التي جرت بين علي باشا

الـدفـتردار والي صيدا ، وبين مشايخ المتاولة التي وقتها الشهابي ومرورة سنة ١٠٧٠ ، واذا كان علي بن علي الصغير قتل هو وأولاده في هذه السنة فكيف يكون علي الصغير شاباً في سنة ١٠٥٩ عندما أوقع بالشكريين ومع كونه له ولد ولولده أولاد وقد يكونون رجالاً عندما قتلوا .(١)

وبعد هذا كله فنحن لانزال نجهل الوقت الحقيقي الذي وجد فيه علي الصغير ، فضلاً عن وقت ولادته ووفاته .

كما أننا نجهل اسماء أبنائه الذين كانوا موجودين منذ سنة ١٠٢٢ هـ نعم ذكر مؤرخو العامليين في نسب نصار انتسابه لحسين بن علي الصغير .

ثم أن الفاضل الشيخ يوسف عمرو من بلدة المعيصرة قضاء جبيل ، جاءنا بأوراق استنسخها من مخطوط موجود عند بعض أقاربه من آل عمرو في وادي السلوقي ، فيها ما يلي :

أتى من بلاد الموصل والعراق سنة ٥١٥ هـ في زمن الصليبيين أحد أفراد بني حمدان المدعو الضحاك بن جندل الحمداني التغلبي الـوائلي من آل ربيعـة مع عشائره وأحلافه من مضر وقحطان وكانو يقدرون في أثنائها باكثر من ستين ألف فارس وراجل(٢) وكان يغير على بلاد الافرنج من جبل عامل وسواحل لبنان الى أن اشتد ساعده ، فعصى على ملك الشام المدعو شمس الملوك إسماعيل حفيد طاغتكين ، فحاربه إسماعيل المذكور وانتزع منه إمارة البلاد المذكورة ، وعوضه عنها بعلبك والبقاع . »(٣)

---

(١) :ولا ينبغي أن ينسى القارىء أن الولد والحفيد وأحفاد الحفيد كلهم في التأريخ وفي لسان العرب ينسبون للجد الشهير ، فليس معنى كونه ابن علي الصغير ولده بلا فصل .

(٢) : لم نعثر على هذا النص في بعض مصادر التأريخ .

(٣) : في الكامل لإبن الأثير ج١٠ ص٦٥٦ : وكان بوادي التيم من أعمال بعلبك اصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوس وغيرهم وأميرهم اسمه الضحاك فسار اليهم بهرام سنة اثنتين وعشرين وخمسماية وحصرهم وقاتلهم ، فخرج اليهم الضحاك في ألف رجل ، وكبس عسكر بهرام . الخ .. وفي ج١١ ص١١ وفي هذه السنة (٩٢٨) سار شمس الموك إسماعيل من دمشق الى شقيف تيرون وهو في الجبل المطل على بيروت وصيدا ، وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم ، قد تغلب عليه وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج ، يحتمي على كل طائفة =

وبعدما انتهينا في البحث إلى هذه النتائج ، وجب علينا أن نضع بين يدي القارىء أوسع ما اشتملت عليه المصادر التي بين أيدينا ثم نترك له الحكم .

قال شبيب باشا الأسعد[1] : على عهد صلاح الدين الأيوبي ، جاء من بادية نجد جدنا محمد بن هزاع الوائلي القحطاني من رؤساء قبائل عنزة بجيش من أعراب بوادي قبائله إلى بلاد جبل عامل بالديار الشامية ، فدخلها والأمير عليها يومئذٍ بشارة بن مقبل القحطاني[2] وهي تعرف من عهده حتى اليوم ببلاد بشارة ، فساق عليه حرباً حتى انتهت بانتصار محمد بن هزاع على بشارة ، فاستولى جدنا محمد على البلاد ، وحكمها ، وتزوج بنت بشارة ، وأجرى عليه معاشاً يقوم بأوده إلى أن توفي . وبشارة جدنا من طرف الأم ، وبقي جدنا محمد بن هزاع أميراً بها مدة حياته ، وبعد وفاته تلقاها أبناؤه وأحفادهم .

ومما روي : أنه أقام حصنها أحد أولاد عاملة بن سبأ ثم انهار على توالي الأزمان فأعادوا تشييد ذلك الحصن الكبير وأحدثوا بتلك القلعة الأبراج المتينة ، والحصون المكينة وما برحوا الى أن أفضت حكومة البلاد إلى أحمد بن مشرف الوائلي ، وهو غير مشرف الثاني ، ثم توفاه الله لرحمته . ولم يكن إذ ذاك في ذلك البيت رجل يقوم مقامه فترك زوجته حاملاً ، وكان تزوجها من بني عمومته ، وهم بنو سالم المعروفون - بالسوالمة - فخذ من أفخاذ «عنزة» فجاء إخوتها وقومها وحملوها إليهم ، وكانت منازلهم يومئذٍ في أطراف بادية الشام مما يلي نجد ، فولدت غلاماً سمته علياً باسم أخيها الغائب في ديار اليمن في مهمة من مهماتهم الذي لم تره منذ جيىء بها وكان لها به شغف، وعرف بالصغير للفرق بين اسمه واسم خاله ، فشب الغلام وامتاز بالنجابة عن أقرانه وقد بلغ الخامسة عشرة ،

= بالأخرى فسار شمس الملوك إليه في هذه السنة واخذه منه في المحرم ، وعظم أخذه على الفرنج لأن الضحاك كان لا يتعرض لشيء من بلادهم المجاورة له الخ . . . ايضاً راجع تاريخ بن خلدون ج ٥ ص ١٥٧ وص ٢٠١ وراجع دائرة المعارف للبستاني مادة (ضحك) .

(١) : في ديوان العقد المنضد ص ١٦ .

(٢) : تقدم نسبه ص ٢٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب (جبل عامل في التأريخ) محكياً عن ابن فتحون ، وتقدم الخلاف في بشارة أيضاً .

أصبح يحل المشكلات بين القبائل ، وما بلغ أشده حتى كان قد عرف حقيقة أمره وأمر أبيه أنبأته أمه أنه بعدما خلت البلاد منهم قام بالأمر جماعة من وجهاء عاملة يقال لهم : بنو شكر وأنهم أصبحوا يتصرفون في البلاد ، وأن سيرتهم غير محمودة عند أهلها لما يبدو منهم من الجور والعسف ، وأفهمته أن هوى البلاد معه فسألها عن أقرب الناس من أبيه وأخلصهم له ، فأخبرته عن رجلين من وجوه البلاد ، فجهز قوماً من عشيرة خؤلته وقصد عاملة حتى دخلها وأرسل رسولاً إلى ذينك الرجلين ، وعندما وافاهما خبره هاما على وجهيهما لاستقباله فرحين ، ولما لقياه حدثاه بما تعانيه البلاد من الضنك والتلهف على لقائه ، وأخبراه : بأن آل شكر مشغولون بأعراس وأفراح في تبنين وقانا ، فقرر قسمة جنوده قسمين ، كل يفاجىء موقعاً من الموقعين ، وكان قد اجتمع إليه جمهور من العامليين ، فنفذ الخطة ، فقابلهم بنو شكر ولكن الدائرة كانت عليهم . انتهى ملخصاً .

وقد صرح الباشا بأن والد علي الصغير يعرف بأحمد بن مشرف العاملي ، وان مشرفاً هذا غير مشرف الثاني ، ولعله يقصد بالثاني مشرف الذي هو من أحفاد علي الصغير ، لا مشرف الذي كان يقيم في مزرعة مشرف المعروفة باسمه الى اليوم الواقعة قرب بلدة « قانا » الذي توفي سنة ١١١٤ هـ .

وقال في أعيان الشيعة[١] : آل علي الصغير وهم من خيرة الأمراء يكرمون العلماء والأشراف وتتجلى فيهم الأخلاق العربية الكريمة من الشهامة والشجاعة والكرم والغيرة والوفاء بالعهد وحفظ الجار ، نبغ منهم غير واحد ، وتأمروا في بلاد بشارة من جبل عامل عدة قرون وأعقابهم فيه حتى اليوم أهل إمرة ورياسة ، وأجلّهم الأمير الشيخ ناصيف بن نصار المقتول في عهد الجزار .

ثم يستطرد السيد الأمين في ذلك نقلاً عن كتاب « جواهر الحكم ودرر الكلم » للشيخ محمد آل مغنية حيث يقول في وصفهم : « أدركت أيام عزهم وجاههم ، فادركت منهم حمد بك الشهير الخطير ، وابن أخيه علي بك الأسعد ،

---

(١) : م١٥ ج١٦ ص١٠٣ في ترجمة ثامر الحسين .

والشيخ حسين السلمان وولده ثامر بك . . . إنضاف لعزّهم جميع سكان سوريا من أمراء وعشاير ، وانحاز لفخارهم كل رجل واستجداهم الرفيع والوضيع . . الخ

ثم استطرد قائلاً : وقال في مقام آخر يعني الشيخ محمد آل مغنية : يمين الله إن عطاياهم وأمدادهم لأهل الفضل وقيامهم بعمران بيوتات أهل العلم واحياء الدرس والمدارس والبذل لطلابه أمر لا يحتاج الى برهان . . هذا مع كثرة الوافدين من كل جهة حتى العراق والحجاز ، وأما سكان سوريا من الحضر والبدو ، فقلّ أحدهم إلا ولهم عليه الفضل واليد الطولى .

ثم قال السيد الأمين : واصلهم من بني عنزة من بني سالم المعروفين « بالسوالمة » جاء جدهم إلى جبل عامل وتحضر واتصل بالحكام ، وحارب معهم وصارت له عندهم مكانة انتهت الى الامارة في تلك البلاد ، إلا ان اسمه ومبدأ إمارته فيها لا يزال مجهولاً .

أما ما يقول بعض أفراد هذه العائلة[1] من أن اسمه محمد بن هزاع ، وأنه جاء إلى بلاد عاملة و الأمير عليها بشارة بن مقبل من قبل صلاح الدين الأيوبي ـ وهو الذي تنسب إليه بلاد بشارة ـ فحاربه هزاع[2] وغلبه وتزوج ابنة بشارة وأجرى عليه معاشاً حتى مات فلا يستند إلى مأخذ وماهو إلا نوع من الأقاصيص التي تخرجها المخيلات ، والذي يظن كما قال بعضهم أن حكمهم بعد بني سودون الذين كانوا من جهة نواب دمشق المنصوبين من ملوك مصر المماليك الأتراك حوالي سنة ٧٠٠ هـ أما بشارة الذي تنسب إليه بلاد بشارة ، فالظاهر أنه بشارة بن أسد الدين بن عامر العاملي السبئي الذي كان في عصر صلاح الدين وحضر معه فتح هونين وأقطعه خيط بانياس[3] وحضر معه فتح

(١) : لعله يعني ما قاله شبيب باشا في ديوان العقد المنضد الذي قدمناه آنفاً

(٢) : لعله يريد محمد بن هزاع .

(٣) : هذا يدل على أن بانياس وما حولها من بلاد بشارة ، لأن البلاد التي تنسب إليه هي البلاد التي تملكها وحكمها ، وبانياس منها حسب النص المذكور .

السواحل الشامية ، واستمر حكمهم في بلاد بشارة إلى ما بعد الألف[1] فتغلب عليهم الشكريون وهم سادة أشراف لا تزال ذريتهم في جبل عامل الى اليوم بعد حرب جرت بينهم ، وقتلوا رئيسهم ورجال عشيرته ، وهربت زوجته التي كانت حاملاً الى بني عمه السوالمة وولدت ذلك الغلام عندهم في البادية ، وسمته علياً باسم أخيها الغائب ، وعرف بالصغير تمييزاً له عنه أو عن آخر منهم كان قبله فلما بلغ علي الصغير الخامسة عشرة من عمره ، صار له مقام سام بين القبائل ، وكان قد علم من والدته وقومه أن أباه كان أمير بلاد بشارة وان الشكريين قتلوه واستولوا على ملكه[2] فحركته همته الى الأخذ بثأره واستعادة ملك آبائه واجداده فسأل والدته عمن كان من خواص ابيه من وجوه تلك البلاد، فاخبرته عن رجلين فراسلهما ، وأخبرهما عن عزمه ، ففرحا بذلك ، وأخبراه أنهما ورجالهما طوع إشارته وان أهل البلاد عموماً يتمنون عوده اليهم ليخلصهم من ظلم الشكريين فانهم كانوا قد ظلموا كثيراً وساءت سيرتهم فنهض بشجعان قومه السوالمة الى اطراف البلاد ، وجاء ذانك الرجلان ومن لف لفيفهم وأخبراه أن الشكريين مشغولون باقامة افراح وأعراس ، قسم منها في عيناتا والقسم الآخر في قانا ، فقسم رجاله الى فرقتين كل منها تهاجم موقعاً من الموقعين ، وكان قد انضم اليه جمع كثير من أهل البلاد ، فهاجم رجاله الشكريين في البلدين حال اشتغالهم في الأعراس ، وجرت بينهم حرب كانت فيها الغلبة على الشكريين فقتلهم وأبادهم وأخذ ثأره منهم ، وعادت أفراحهم أتراحا، واستولى على البلاد . وكانت هذه الوقعة سنة ١٠٥٩ هـ وأبلى في هذه الوقعة أبو شامة العاملي[3] مع علي الصغير بلاءً حسناً .

---

(١) : الذين وجدوا بعد الألف ، وكان لهم شأن ، هم أولاد علي الصغير ، لا آباؤه وأجداده كما نقلنا ذلك فيما تقدم عن الصفدي والشهابي .

(٢) : قد عرفت فيما حكيناه عن الصفدي المعاصر لأولاد علي الصغير انهم كانوا يشتركون هم والشكريون في إدارة البلاد وتسيير شئونها، فكيف يكون علي الصغير ولد بعد عهد بنيه وأخذه بثأر أبيه ، ولعمري إن هذا وامثاله يوجب اساءة الظن بالتاريخ وبالمؤرخين .

(٣) : قد تقدم فيما حكيناه عن الصفدي ، أن الأمير فخر الدين هدم بيوت أولاد شكر في عيناتا ، والحاج علي بن أبي شامة في بنت جبيل الخ . . . لأنهم كانوا قد نزحوا مع أولاد علي الصغير الى=

وهو جد الطائفة المعروفة بآل شامة في بنت جبيل وعيثرون ، وإنما هم آل أبو شامة واليه تنسب « ابـو شامي » في الحجـير وعلى نهر الليـطاني ، وصوابـه : مطاحن أبو شامة[1] .

والقبور التي في رأس العقبة بين عيناتا وبنت جبيل ، هي من قبور من قتل في تلك الوقعة .[2]

واستمروا في الإمارة إلى سنة ١٢٨١ هـ ألف ومايتين وواحد وثمانين هجرية[3] ولا تزال الوجاهة والرياسة في أعقابه الى اليوم ومدة ملكهم إذا صح انهم ملكوا حدود ٧٠٠ هـ خمسمـاية سنـة لم يتخللها إلا ملك الشكـريين، وهـو لا يصل إلى عشرين سنة ، بل دونها ، وملك الجزار من سنة ١١٩٥ التي قتل فيها ناصيف[4] إلى سنة ١٢١٩ هـ التي هلك فيها الجزار ، وهو نحو ٢٢ سنة ثم عادوا بعد ذلك التأريخ الى إمارتهم ، ولما استدعى والي الشام الأميرين علي بك ومحمد بك الى صيدا ، اشار عليهما ثامر بك بعدم الذهاب إليه ، وأن يعلنا الثورة في البلاد[5] فلم يوافقاه على ذلك ، وذهبا إليه فقبض عليهما .

= عند الأمير يونس ، ومن الغريب أنه ذكر هدم بيوت هؤلاء مع بيت فرحات بن داغر في قرية أنصار وبيت الحاج علي ناصر الدين بن منكر في قرية الزرارية وولده في قرية حومين الفوقا ، ولم يذكر أنه هدم بيوت أولاد علي الصغير ، وما ذلك ألا لأمر ما ، واذا كان الحاج علي ابو شامة معاصراً لأولاد علي الصغير سنة ١٠٢٧ هجري ، فكيف يكون أبو شامة هو الذي أعان علي الصغير على الأخذ بثأر أبيه دون الحاج علي ، اللهم ألا إذا كان الحاج علي يسير على غير خط أبيه .

(١) : لا ريب أن الأمين أخذ هذا إما من آل أبي شامة أنفسهم ، واما من مصادر أخرى لم تصل إلينا . نعم، حدثني العلامة الشيخ علي نورالدين حفيد العلامة الشيخ حسين نور الـدين أن جده المذكور كان عنده كتاب يتضمن أنساب العامليين ، وان آل أبي شامة ينتسبون لكلب ، وأنه انما كان يخفيه لإشتماله على معائب بعض العوائل .

(٢) : لا ريب أن الأمين أخذ هذا إما من أفراد الناس الذين ينقلون الحوادث ، واما من كتاب ما ولكننا نستبعد أن يكون مصدره كتاباً ولا يصرح به .

(٣) : انتهت امارتهم باعتقال علي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد ، وكان ذلك في سنة ١٢٨١ هـ. وتوفيا في دمشق سنة ١٢٨٢هـ .

(٤) : الصواب أن استشهاد ناصيف كان في ٥ شوال ١١٩٥ . لاحظ هذا الكتاب في موقعة يارون

(٥) : الصواب ، أن والي صيدا استدعاهما ، فذهبا إليه ، فاحتجزهما فأراد ثامر إعلان الثورة ليخلصهما ، فلم يرضيا بذلك لسوء ظنهما به أو بالعاقبة ،ونشرح ذلك عند التحدث عنهما .

وقد لمع منهم في وقتنا أحمد بك الأسعد ، ثم ولده الوحيد كامل بك الأسعد الذي تولى رئاسة المجلس النيابي اللبناني دوراتٍ طويلة : ومنهم أسعد الأسعد الذي رُشّح لأمانة رئاسة الجامعة العربية .

الشيخ أحمد بن علي الصغير

توفي فجأةً سنة ١٠٩٠ هـ ألف وتسعين هجرية .

وهو أول شخص من آل علي الصغير يسميه لنا التأريخ منذ ابتدأ يتردد اسم أولاد علي الصغير على ألسنة المؤرخين .

وهو أيضاً أول شخص منهم يعبرّ عنه المؤرخون (بالشيخ) ، أما قبل ذلك ، فكان المؤرخون يعبرون عنهم بأولاد علي الصغير ، أو ابناء علي الصغير ، ولم يذكروا اسم أحد منهم ، ولا نعتوهم بالمشائخ .

وهو أيضاً ، أول شخص منهم نعرف تأريخ وفاته ، ولكننا لم نزل نجهل تأريخ ولادته ، وتأريخ مبدأ إمارته .

وهو أول واحـد منهم ، بل ومن سائر العامليين يعبّر عنه الشهابي بـ (شيخ المتـاولة) . نعم عبر عن الحاج علي بن منكر وأخيه الحاج ناصر الدين بن منكر بـ (مشايخ المتـاولة) ، فان هذين فازا بمشيخة المشائخ حوالي سنة ١٠٢٣ هجري في عهد الأمير فخر الدين . كما ظهر من ملاحظة تأريخ الصفدي . ويتضح من هذا ، أن مشيخة المشائخ بعد الألف الهجري ، لم تكن لآل علي الصغير قبل الشيخ أحمد المذكور ، وعلى هذا الضوء نستطيع القول ، بان مبدأ زعامته كان سنة ١٠٥٩ هـ اقتباساً من قول الركيني : كان ابتداء حكم بيت علي

الصغير من يوم وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ هـ ، فتكون مشيخته دامت نحو ثلاثين سنة ، ولعله من أجل طول المدة امتاز باكتساب الشهرة . وينبغي أن نذكر للقارىء النصوص التي تتعرض له أو تشير إليه .

قال الشهابي : بعد وفاة ملحم المعني وفرار ولديه قرقماز وأحمد ، تسلم الحكم آخرون ، وأصبحت صيدا باشوية، وتسلمها علي باشا محمد الدفتردار ، وهو أول باشا وصلها ، وفي هذه السنة ـ يعني سنة ١٠٧٠ هـ كانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة .[١]

ويقول أيضاً في حوادث سنة ١٠٩٠ هـ : وفيها توفي الشيخ أحمد بن علي الصغير ، شيخ المتاولة .[٢]

ويقول مروة في تأريخه (جبل عامل في قرنين) المخطوط[٣] : في سنة ١٠٧٥ هـ ، صارت وقعة عيناتا ، ولعله يشير إلى الوقعة التي نعتها الشهابي بالعظيمة ، لأننا لا نعرف وقعةً غيرها حدثت في هذا العهد .

وقال العلامة الأمين[٤] : الشيخ أحمد بن علي الصغير الـوائلي ، توفي فجأة سنة ١٠٩٠ هـ على ما ذكره الشيخ محمد بن مجير الدين العينقاني في كتيبّه . انتهى ولم يزد على هذا شيئا .

ثم إننا إذا لاحظنا أسلوب الشهابي في تأريخه ، وقارنّا بين أسلوبه عند التعرض للمترجم ، وبين أسلوبه عند التعرض لمن كان قبله من وجهاء العامليين نستطيع الجزم بأن الشيخ أحمد المذكور كان زعيماً مرموقاً يتمتع بشهرة واسعة وشخصيةٍ ذات شأن .

إن الشهابي كان إذا تعرض لزعماء جبل عامل قبل سنة ١٠٩٠ هـ يقول : مشايخ بني متوال ، أو مشايخ المتاولة ، أو بيت شكر ، وأولاد علي الصغير ، أو

---

(١) :في تأريخه ص ٧٣٣

(٢) : في تأريخه ص ٧٣٩

(٣) : في تأريخه الذي لا يزيد عن كراسة ، وهو مخطوط ، وقد نقلناه برمته ، ووزعناه على تعاليق كتابنا هذا جبل عامل في التأريخ بحسب المناسبة .

(٤) : أعيان الشيعة ج٩ ص٦٧

بيت منكر ، ولم يسمّ واحداً منهم إلا الحاج علي وأخيه الحاج ناصر الدين أولاد منكر ، وذلك عندما اسندت إليهما مشيخة المشايخ حوالي سنة ١٠٢٣ هـ لكنه هذه المرة عندما تعرض للمترجم غيّر أسلوبه فقال : وفيها توفي الشيخ أحمد بن على الصغير شيخ المتاولة .

كما أن مؤرخي العامليين ، كمروّة في (جبل عامل في قرنين) والركيني في (جبل عامل في قرن) لم يسميا أحداً من آل علي الصغير قبل هذا العهد ، ونحن إذا وصلنا إلى هنا وعلمنا أن صيدا صارت باشوية سنة ١٠٧٠ هـ - كما يقوله الشهابي - وان حكومة جبل عامل انفصلت عن حكام جبال الشوف فصلاً تاماً - كما نص على ذلك مروّة والخال في المقدمة - إلا أنه وقت ذلك بسنة ١٠٦٩ هـ جزمنا بتبدل لون الحكم ، وببروز العامليين في ذلك العهد ، وأمكننا بعد هذا أن ننسب الفتنة العظيمة التي وقعت بين المتاولة وبين علي باشا محمد الدفتردار ، أول باشوات صيدا - إلى الشيخ أحمد المذكور لأنها هي أول ركيزة في تأهلهم للاستقلال عن المعنيين كما أنه يمكننا القول بأنه كان بطل وقعة عيناتا سنة ١٠٥٩ هـ أو أحد أبطالها .

بقي علينا شيء له قيمته ، وهو أن نعرف أن أحمد هذا ، هل هو أحمد ابن نصّار ، بن مشرف ، بن محمد ، بن حسين ، بن علي الصغير ، فيكون هو والد نصار الأحمد وجد نصار والد ناصيف النصار ، أو غيره ؟

ولنقف عند هذا الحد ، ونترك بقية الحديث للباحثين المنقبين ، وعلى كل حال فاننا نحتمل أن يكون معاصراً لكل ما حدث منذ سنة ١٠٥٩ هـ إلى سنة ١٠٩٠ هـ لأنه لو كان شاباً عند وفاته لما أغفل التأريخ ذلك فلا بد وأن يكون قد تجاوز سن الكهولة ، بل الشيخوخة .

قال مروة : وسنة ١٠٧٠ هـ كانت وقعة عيناتا ، وفيها صارت صيدا باشوية. وفي سنة ١٠٧٧ هـ كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ ، وسنة ١٠٧٨ هـ كانت وقعة وادي الكفور ، إنتهى .

وأما الشهابي فلم يذكر في غضون هذه السنين ما يتعلق بعاملة وزعمائها

إلا الفتنة التي وقعت بينهم وبين علي باشا أول والٍ لصيدا ، ووقتها بسنة ١٠٧٠ هـ ولم يذكر مكان الموقعة .

وبقي علينا أن نعرف أسباب الخلاف بينه وبين علي باشا واسباب وقعة النبطية ، ووقعة وادي الكفور .

وليبق ذلك رهناً في ذمة التأريخ .

نصار الأحمد

هو نصّار بن الشيخ أحمد ، بن نصّار ، بن مشرف ، بن أحمد ، بن نصّار ، بن حسين بن علي الصغير . (١)

قال شبيب باشا : (٢) وقد كان نصار الأحمد رئيس البلاد وحاكمها من طرف الدولة العلية ، شهماً ، هماماً ، بلغ من الشهامة أقصى الغاية من حكمةٍ ودرايةٍ واشتهر ذكره وارتفعت منزلته ، وفي زمانه كانت حادثة (وقعة البحرة) وكانت نتيجتها غرق الجيش الذي نازله بها في بحرة (حولة الشعراء) وهي مآء الأردن وحتى اليوم تعرف بين الناس بهاتيك الجهات (يوم البحرة) وروي أنه بعد نصف القرن المنصرم كان قد عثر بعض الناس على قطع أسلحة غريقة بالماء ، من هاتيك الحادثة .

ولقد توفاه الله وخلف بنيه الثلاثة وهم : ناصيف ، ومحمود الشهير « بأبي حمد » ومراد .

قلت : لا ريب أن نصّاراً كان يتمتع بمكانةٍ عالية ، ويشهد لذلك ، أن أولاده وأحفاده كانوا يعرفون بآل نصار ، ولو كان الشيخ أحمد بن نصار أكثر

---

(١) : اعتمدنا في هذا النسب على رسالة المرحوم الشيخ عبد المحسن الظاهر التي تعرضنا لها في بعض التعليقات ، عند البحث عن أحوال علي الصغير .

(٢) : في ديوانه : العقد المنضد ص٢٠

بروزاً ، لكان ينبغي أن يكون هو عنوان أهل هذا البيت ، والشواهد على ذلك كثيرة ، أقلها نعوتهم بآل نصار ، منذ نصف القرن الثاني عشر الهجري حتى نهاية القرن الثالث عشر تقريباً .

قال الشيخ ابراهيم يحي بعد استشهاد ناصيف سنة ١١٩٥ هـ :

قتـل ابن نصّـارٍ فيـالله مـن ... مـولًى شهيـدٍ بـالـدمـاء مضـرّج

وقال في قصيدة من قصائده :

وكان لها من آل نصار صارم ... صقيل وسهم لا يطيش ولهذم

وقال شاعرهم الشيخ حبيب الكاظمي بمناسبة زواج علي بك الأسعد سنة ١٢٦٢ هـ:

هم آل نصار الذين إذا انتموا ... لبس المفاخر حارث ومهلهلُ[1]

---

(١) : المُهلْهِل أخو كليب ، والحارث صهره على أخته ، وأحد بني عمومته ، وكان الحارث ممن اعتزل الحرب التي جرت بين المهلهل ، وبين عمه أولاد مرّة ، وفي طليعتهم جساس بن مرة واسمه عمرو ودامت هذه الحرب أربعين سنة حتى كادت تستاصلهم ، وهي من حروب العرب المشهورة وقد تركت كلمات مأثورة أصبحت من الأمثال السائرة .

منها قول جساس : لأقتلن بها فحلاً .

ومنها قول كليب : هيهات دون عليان خرط القتاد .

ومنها قول الشاعر :

المستجـير بعمـروٍ عنـد كـربتـه ... كـالمستجير من الـرمضاء بـالنـار

فانه يقال إن عمرو هو جساس ، وأنه عندما طعن ابن عمه كليباً فأرداه استسقاه ماءً فأجهز عليه ، والذي أظنه أن كليباً طلب الماء مكيدةً منه ليقبض عليه إذا دنا اليه وأن ذلك لم يخف على عمرو .

ومنها : أقوال العامة لمن يصنع أمراً ويراه مهمّاً (كأن يحمل رأس كليب) . وقولهم في من يزعم مناعة منطقته، أو أرضه أو غير ذلك (أهو حمى كليب !) يشيرون بذلك الى المنطقة التي كان كليب حماها لإبله، فدخلت فيها ناقة البسوس، فاستغربها كليب فرماهـا في ضرعهـا، فعادت الى منزل جساس ، وكانت البسوس ضيفاً عليه ، فاستعظمت ذلك ، فهوّن عليها جساس قائلاً : لأقتلن بها فحلا . فبلغ ذلك كليباً فظن أنه يريد قتل فحل إبله المسمى : عليان ، فقال هيهات ، دون عليان خرط القتاد .

وقد كنت في أول يفاعي أسمع أهازيج الأطفال في أيام الدراسة على البيدر ، وهم يـرددون:

صـاح الـديـك يـاسـتـار غـفـوا عـلـيـنـا أولاد نـصّـار

وعندما كنت أدون أحداث بلادنا في عهد أولاد نصّار تذكرت هذا البيت ، وأصبحت أفهم منه أنهم يشيرون به إلى غارات أولاد نصّار على عمّال الجزار والمستسلمين له ، وأعتقد أن هذا البيت هو بعض الآهازيج التي كان يتغنى بها السواد منذ ذلك العهد .

وههنا عدة تساؤلات يمكن الجواب عن بعضها:

الأول : من هو نصار الذي ينتسبون اليه ، هل هو نصار بن أحمد ؟ أو نصار بن نصار بن أحمد ؟

وبعبارة ثانية : أيهم كان أشهر ، نصار الثاني أو أبوه نصار الأول ؟ وأعني به نصار الأحمد .

إذا علمنا بأن أحمد توفي سنة تسعين بعد الألف ، وعلمنا بأن مشرفاً صاحب المزرعة التي هي قرب قانا ، والتي سميت باسمه والتي أقام فيها بنيّة أنهاها سنة ١١٠٨ هـ ثم اعتقل بعد سنتين، ثم توفي بعد ذلك بأربع سنين، إذا علمنا ذلك كله ، علمنا أن نصار بن أحمد لم يكن حاكماً في هذه الفترة التي بين وفاة أبيه ، ووفاة مشرف .

نعم ، يمكن أن يكون نصار الأحمد ، أو ولده نصّار الثاني بن نصار بن أحمد قد حكم في جزءٍ من الفترة الكائنة بين وفاة مشرف سنة ١١١٤ هـ وبين تزعم ناصيف سنة ١١٦٤ هـ ، واذا تم ذلك ، فلماذا أهمله التأريخ ؟

السؤال الثاني : أصحيح أن نصّار الأحمد حضر واقعة البحرة ـ كما يقول شبيب باشا ؟

= والقصة مدونة في كتب التأريخ الثابت ، وأدخل عليها القصاصون أموراً كثيرة وكانت متداولة بيننا أيام الصبا .

الجواب : هذا اشتباه بلا ريب ، لأن هذه الحادثة وقعت في زمن ناصيف سنة ١١٨٥ هـ ، ولو كان نصّارُ حياً في ذلك التأريخ ، لكان له من العمر أكثر من خمسٍ وتسعين سنة ، ولو كان ذلك لكانت وفاته في عهد ولده أو حفيده ناصيف ولو كان ذلك لما خفي أمره أبداً ، لأن من يكون ناصيف ومحمود ومراد أولاده أو أحفاده ، ويتوفى في أيام عزهم ، تكون أيام وفاته مهرجاناً للشعراء والأدباء وذلك لن يخفى أبداً .

السؤال الثالث والأخير : أصحيح أن نصاراً الثاني لم يخلف إلا ثلاثة بنين ، وهم : ناصيف ، ومحمود أبو حمد ، ومراد . ؟ وكيف يكون هذا ؟ مع أن عباس العلي هو عباس بن علي بن محمد بن نصار .[1] وأيضاً ، عباس المحمد وحمزة المحمد كلهم ينتسبون إلى نصار .

الجواب : الظاهر أن هؤلاء كلهم ينتسبون الى نصّار الأول ، أعني نصّار بن أحمد ، وأن ناصيفاً وأخويه ينتسبون إلى نصّار الثاني ، ومن أجل ذلك كان يقال للجميع : أولاد نصّار .

هذا ، مضافاً إلى ان شبيب باشا أعرف بنسب جده وعمّيه من غيره ولو كان لنصار الثاني ولد رابع ، لذكره ونص عليه .

نظير هذا في وقتنا تسمية أكثر آل علي الصغير ببيت الأسعد ، مع أن أسعد الذي ينتسب إليه جمع منهم غير أسعد الذي ينتسب إليه جمع آخر .

والسبب في ذلك : أن آل علي الصغير عندما شردوا في عهد الجزار ، أقاموا في عكار عند أسعد البك ، وبنوا لهم بناءً هناك ، وقيل أنه لايزال ، وسموا كل من ولد لهم في ذلك الوقت أسعداً ، تيمناً بأسعد البك وتكريماً له ، وهي عادة عربية مألوفة ، ثم نسب كل منهم لأسعده والناس يظنون أنه واحد . وهم متعددون .

---

(١) :هذا النسب مأخوذ من العرفان/ مجلد ٢٧ ص ٢٩٦ .

آل منكر

الحاج علي آل منكر

اخوه الحاج ناصر الدين آل منكر

الشيخ علي منصور بن منكر

محمد بك الجواد المنكري ـ حاكم جباع

آل منكر ، هم أسبق زعماء عاملة شهرةً ، فقد صرح التاريخ بأسمائهم ، عندما اجتمع الوجهاء في عيناتا في أوائل القرن الحادي عشر ، وزعموا الحاج علي منكر وأخاه الحاج ناصر الدين منكر[1] ولم يصرح التاريخ باسم واحدٍ من غيرهم .

وآل منكر يعرفون بالمناكرة ، وقد يقال أنهم بنو منقر ، عشيرة قيس بن عامر المنقري ـ وهو غير بعيد ـ ولكن هذا حدس وتخمين لم يقم عليه دليل ، والمشهو أنهم بيت علم ، وأشهر من اشتهر منهم الشيخ منصور الملقب (بأبي لِبَّادة) . واشتهر منهم قبله الشيخ ناصر الدين بن منكر[2] وكان منزله ـ يعني

---

(١) : تقدم الحديث عنهم مكرراً عند البحث عن علي الصغير ، في كتابنا هذا .

(٢) : الشيخ سليمان ظاهر . في رسالة ارسلها إلينا عندما أهديناه جبل عامل في التأريخ وكلفناه ببعض معلوماته لندخلها في الكتاب ، ولنصلح الاشتباهات الواقعة فيه والرسالة لا تزيد عن أربع صحائف بقطع الربع : وأظنه ارسلها الينا في سنة ١٣٦٤ هـ

منزل ابي لبّادة ـ قرية حومين الفوقا ، ويقال إن قبره فيها ، [1]

ومن آل منكر ، الشيخ علي منصور المنكري ، الذي تردد اسمه على صفحات التاريخ منذ سنة ١١٢٢ هـ بعد وفاة مشرف بن علي الصغير صاحب المزرعة . قال مروة : في سنة ألف ومائة واثنين وعشرين القى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلي منصور ، وتوفي الحاج محمد بزيع .

وقال الخال في المقدمة أن ذلك حدث في سنة ألف ومائة واثنين وثلاثين . وهما لم يصرحا بأن علي منصور من آل منكر ، ولكن الشيخ محمد بن مجير الدين العنقوني ، صرح بذلك ، عندما تعرض العنقوني لحوادث سنة ١١٢٢ هـ .

ذكر ذلك العلامة الأمين في أعيان الشيعة في ترجمة الشيخ عبد السلام الحر ، كما حكاه عنه الشيخ سعيد الحر .

وعلى كل حال ، فلا نشك أن الشيخ علي منصور المنكري ، ومحمد بزيع والشيخ عبد السلام الحر ، كانوا في أسر عثمان باشا سنة ١١٢٢ أو ١١٢٤ هـ وأنه صحبهم معه إلى البصرة ، وأنهم هربوا من السجن من البصرة ،

ولا نشك أيضاً ، أن محمد بزيع توفي عقيب اعتقال عثمان له ، وهل كان مطلقاً قبل ذلك أولا ، وهل حج قبل الأسر أو بعده أسئلة لا نستطيع الجواب عليها

ثم إن توقيت الخال اعتقال الجماعة سنة ١١٣٢ اشتباه أو تصحيف ، وذلك لاتفاق الشهابي مع مروة ، ومع الشيخ سعيد الحر في روايته عن العنقوني ، على كون أسرهم وحمل عثمان باشا إياهم للبصرة كان مابين سنة ٢٢ و ٢٤ .

ثم إن شخصاً يسمى الشيخ علي منصور كان موجوداً في سنة ١١٧٩ هـ .

---

(١) ولعل القبر المحاط بأرض واسعة الذي فيه مقام صاحبه الذي يسمونه ولياً هو لهذا الوجيه وهو مجهول الاسم ، وقد سألت عنه الحاج عبد النبي شريم الذي يتصرف في أوقافه والتي فيها حسينية ومسجداً ومدرسة فقال : إنه لا يعرف .

وهل هو نفس هذا الشخص ، أو غيره ؟ احتمالان . ولا يبعد بقاؤه حياً سبعاً وخمسين سنة بعد هذا التأريخ .

وعلى هذا ، فعلي منصور ، وعباس علي ، اللذين ذكرهما الركيني في حوادث سنة ألف ومائة وتسعة وسبعين ١١٧٩ وذكر انهما كانا موجودين في قلعة ميس ، ولكنه لم يصرح بـأنهما من آل منكر ، أو من آل عـلي الصغير ويحتمـل أن يكون أحدهما من آل منكر والآخر من آل علي الصغـير . ويحتمل كـونهما معاً من آل منكر .

ويقول الركيني في سنة ١١٨٣ اختلف حمزة بن علي منصور مع الدروز ، فقتل منهم اثنين وأصابوه برصاصة ، وبرىء .

وقـال الشهابي، في حـوادث سنة ١١٢٤ : إن عثمـان بـاشـا، قبض عـلى الشيخ علي منصور بن علي الصغير ، وقتله . لاحظ ص ٧٥٥ من تاريخه وهنا عدة استفهامات ، نترك الجواب عنها للقارىء .

وقال الركيني في حوادث سنة ١١٩١ هـ من يوم الثلاثاء ١٦ ذي الحجة توفي الشيخ محمد العلي بن على منصور منكر في جبع .

ويمكن ان يكون محمد العلي بن علي منصور ، هو اخو عباس علي الـذي ذكره الركيني في حوادث سنة ١١٧٩ .

وقال الشيخ سليمان ظاهر في رسالة لنا منه : كان يومئذٍ يعني عن ايام علي بك يتولى مقاطعة التفاح وجباع ، محمد بك الجواد المنكري ، واما ناحية الشوف فهي القرى التي أقطعها والي عكا سليمان باشا للعشائر « البكوات » تعويضاً عن أملاكهم التي صادرها الجزار ، المعروفة للآن باسم « البكليك » .

قلت : معنى هذه الكلمة في اللغة العاملية المال الذي لا مالك له ولعل أصلها تركي .

الشيخ ناصيف النصار
المستشهد في ٢ شوال سنة ١١٩٥ هـ

هو ناصيف بن نصار الثاني ، بن نصار الأول ، بن أحمد ، بن نصار ، بن مشرف بـن أحمد ، بن نصار ، بن حسين ، بن علي الصغير[1] ينتهي نسبه مسلسلاً إلى وائل تغلب ، القبيلة المعروفة بين قبائل العرب .

وابتدأ يحدثنا التاريخ عن ناصيف منذ سنة ١١٦٣ هـ واستمر يذكره في كل شهر ، بل في كل يوم ، إلى سنة ١١٩٥ هـ ، وهي السنة التي استشهد فيها .

---

(١) : اعتمدنا في هذا النسب على رسالة الشيخ عبد المحسن الظاهر ، وقد تقدم عندما تحدثنا عن علي الصغير في بعض التعليقات .
واما ما ذكره لنا الشيخ سليمان الظاهر في نسب الشيخ محمود النصار فإنه بحسب الظاهر بعيد عن الصواب .
قال عنه : أنه هو محمود بن نصار الثاني ، بن نصار الأول ، بن أحمد بـن نصار ، بن أحمد ، بن حسين ، بن حمدان ، بن أحمد ، بن نصار بـن مشرف ، صاحب قلعة مشرف ، بن أحمد ، بن نصار ، بن علي الصغير ، بن حسين ، بن أحمد ، بن حويشان بن جمعان ، بن حمد بن ناصيف ، بن شعلان ، بن جندل بن سالم ، بن عبد الله ، الوائلي ، وينتهي نسبه الى كليب بن ربيعة . وذلك ، لأن هذا النسب يخالف النسب الذي أجتمعت عليه مؤرخو العائلة ـ كما يقول الشيخ عبد المحسن الظاهر . مضافاً إلى ما يقال : من أن كليباً لم يعقب .
وزاد الشيخ سليمان ظاهر ما يلي : ولأصل هذه العشيرة ثلاثة افخاذ فخذ آل علي الصغير ، وهم الذين سكنوا جبل عامل . وفخذ آل الجيرود وهم الذين سكنوا خدود في ضاحية دمشق . وفخذ السوالم ، وهم الذين ما زالوا بادين قلت : والسوالمة هم اخوال علي الصغير كما تقدم .

كان ناصيف بطلاً شجاعاً ، واميراً مطاعاً ، وكان في آخر أمره يهزم جيوش أعدائه باسمه قبل بطشته ، فإذا علم الجيش المحارب أنه سيصطدم بناصيف وعسكره ، كانت الخطة الوحيدة التي يستعملها للنجاة ، هي الهزيمة أو الاستسلام .

إن التاريخ حدثنا عن نـاصيف في نحو من اثنين وثلاثين عاماً ، فدلنا على أنه القائد المطاع ، والجندي الباسل الفاتح ، والمصلح المفكر ، والأمير الحكيم الحليم. وأنه لم ينهزم في حرب قط، ولم يشترك في حرب من الحروب إلا وكان النصر حليفه ، الى ان انزلق به جواده على الصخرة المعروفة باسمه قرب مقبرة يارون ، وجاءته رصاصة طائشة ووقع شهيداً في سبيل حرية بلاده وكرامة قومه .

وكان زعماء عاملة قبل عهد ناصيف لا تجمعهم جامعة ولا تربطهم رابطة مع أنهم أهل دين واحد ، ومذهب واحد ولغة واحدة ، ويعيشون في قطر واحد .

فقد كان يغزو أحدهم الآخر ، ويصافي عدوّه ، ويعادي صديقه فكثيراً ما استقل قبلان في حرب ، وكثيراً ما استقل عنه بنو عمومته في حروب أخرى . وقد جرى بين محمود النصار وبين قبلان ، وبين عباس العلي وبين ابن ابي صعب ، مناوشات بسيطة في ظروف مختلفة في أيام وحدتهم ، فما ظنك بهم قبل ذلك .

وكان زعماء عاملة مع جيرانهم في فلسطين ، وجبل الدروز والشوف على أشد ما يكون من الخلاف والنزاع ، وكان جميع زعماء هذه الأقطار ينوايء بعضهم بعضاً ، وكان ولاة العثمانيين يغذون هذا الخلاف ويستعينون بسببه على أحدهم بالآخر .

ولكن في سنة ١١٦٤ توحدت كلمة العامليين واقتسموا البلاد فيما بينهم ، وشرعوا في ترميم القلاع وتشييد الحصون ، كلٌ في المنطقة التي تخصُّه .

وكان ناصيف في ذلك الوقت يحاول توحيد كلمة العامليين والفلسطينيين

والدروز ، بل والبعلبكيين ، وأن يكون من الجميع وحدةً واسعة الأطراف ، وأن يجعل من هذه الوحدة سوراً منيعاً لا يجد الأتراك فيه منفذاً يدخلون منه لتفرقتهم ثم الاستعانة ببعضهم على الآخر .

ففي (جبل عامل في قرن): في سنة ١١٧٩ هـ صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس[1] ، والشيخ علي الفارس ، والأمير إسماعيل ، والشيخ علي جنبلاط ، في حاصبيا .

وفي عشرين شوال من شهور هذه السنة ، ركب الشيخ ناصيف والشيخ عباس المحمد ، والشيخ عثمان الظاهر إلى بلاد الدروز في الجمعية .

وفي سنة ١١٨١ هـ في سابع عشر ربيع الأول ، وصل الشيخ علي جنبلاط والشيخ ظاهر العمر ، إلى مدينة صور ، إلى الجمعية ، وما تمت .

وفي ثامن رجب من سنة ١١٨١ هـ سافر الشيخ ناصيف إلى عكا إلى عند الشيخ ظاهر العمر ، ووقع الصلح بينهم ثم سافر إلى عند الدروز .

وذكر في حوادث بعض السنين ، أن الجمعية انعقدت في الطيبة ، وحضرها الأمير محمد الحرفوشي من أمراء الحرافشة في بعلبك .[2] وكان ذلك في محرّم ، وكتب ناصيف معه كتابا إلى بعلبك . والذي يستعرض مذكرات الركيني يجد فيها عشرات الاجتماعات الهادفة الى هذه الوحدة .

إننا إذا لاحظنا ما تقدم ، نجد أن ناصيفاً كان ممتطياً صهوة جواده متنقلاً من قطر إلى قطر ، ومن بلد الى بلد ، ليجمع كلمات زعماء هذه الأقطار ، محاولاً تكوين وحدة واسعة النطاق ، ولاحظنا أنه هو وحده المعني بهذه المهمة دون من عداه من هؤلاء الزعماء .

---

(١) المقصود بالشيخ عباس، الشيخ عباس المحمد بن نصار، لأنه هو حاكم صور في هذا التأريخ لاولده حمد ، ولا ابن أخيه عباس العلي ، ويشهد لذلك التصريح به في الاجتماع الذي يليه .

(٢) : الشيخ علي جنبلاط ، والأمير اسماعيل ، من زعماء الدروز . والشيخ ظاهر العمر ، وولده الشيخ علي الظاهر ، وولده الآخر الشيخ عثمان الظاهر ، من زعماء فلسطين ، والشيخ ظاهر العمر لم يكن مع أولاده في وفاق .

آلا ترى أنه كان يحضر جميع هذه الاجتماعات ، وكان بعض زعماء هذه الأقطار في ذلك العهد قد يحضر اجتماعاً ، ولا يحضر اجتماعاً آخر وكان البعض الآخر مثله ، ما عدا ناصيف .

إن هذه الظاهرة في حياة ناصيف وحدها ، تكفي دليلاً على أنه كان الزعيم الاجتماعي المتفوق في عصره ، المحيط بقضيته وقضية المنطقة بأسرها ، المهتم في تحضير العلاج الكافي لسلامة الجميع ، الذي يتحصنون به من فتن العثمانيين وأساليبهم المجرمة.

إستطاع ناصيف أن يدخل ظاهر العمر وولديه عثمان الظاهر وعلياً الظاهر في هذه الاجتماعات ولكن العلاقات لم تتوطد إلا بين ناصيف وبين الشيخ ظاهر فقط، ولعلها حصلت بعدما أسر الشيخ ناصيف الشيخ ظاهر يوم طيربيخا، ثم عفا عنه واكرمه ، وكان ناصيف لا يحاول جمع الكلمة على أساس الضعف ، ولا على أساس طلب النجدة منهم ، فانه كان القائد الذي لم ينهزم قط في حروبه مع هؤلاء الزعماء وغيرهم ، وكان قد عفا عنهم بعد ما أمكنته الفرصة منهم ، فكان لهم بذلك أتم برهان على أنه ليس بضعيف ولا يريد الخيانة ، لأنه أسر ظاهراً وعفا عنه ، وأسر الأمير يوسف وعفا عنه ، واستولى على أموال قبيلة آل المزيد ونسائها وأطفالها وعفا عنها ، وخلع على ولدي زعيمهم فاضل المهنا ، وعلى سائر من وجد في مضاربهم لأن الضعيف يستعمل النقمة عند الإمكان مخافة أن لا تعطيه الفرصة ما أعطته ، ولا تسمح له مرةً ثانيةً بما سمحت له أولاً ، اما القوي فلا يحتاج الى ذلك ، لأنه يرى نفسه قادراً في كل حين .

وقد اشترك ناصيف مع الجزار في محاربة باشة الشام ١١٩٤ واشترك مع ابي الذهب عندما جاء من مصر وتوجه إلى الشام في ١٨ صفر سنة ١١٨٢ هـ وكانت الغلبة لهم ، واشترك مع الجزار والأمير يوسف في محاربة الشيخ علي جنبلاط لأجل استرجاع سلطة الأمير يوسف التي زاحمه عليها جنبلاط .

إن الأمير يوسف استنجد بالجزار فانجده فلم يكترث الشيخ علي جنبلاط ثم استنجد الأمير يوسف والجزار بناصيف فانجدهما ولما علم الجنبلاطيون

بانضمامه إليهما، ولـو منهزمـين واستجاروا بعلماء الشيعـة من آل الحر من جبـاع فأجاروهم، واستنجد ظاهر العمر بناصيف في حربه مع الصقر، فأنجده وهزمهم، وعفا عما تركوه من أموال وماشية لظاهر العمر، ولم يقبل منها شيئاً .(١)

كما أن الشيخ ناصيف، وحليفه ظاهر العمر أعانا الأمير يوسف على انتزاع بيروت من يد الجزار، فانتزعوها منه(٢) .

وأعان ناصيف الأمير يوسف في حربه مع عثمان باشا والي الشام في واقعة المغيثة (البقاع) وكان الباشا قد جرد عليه حملةً مؤلفةً من خمسة عشر ألف مقاتل، ولما أعانه التجأ عثمان باشا الى الفرار والنجاة، تاركاً مخيمه وذخائره الحربية غنيمةً باردة(٣) وقد هدد درويش باشا والي صيدا، ونبذ طاعته، وبعث شرذمةً من خيله، فصادرت الخزينة السلطانية وهي في طريقها من صيدا إلى دمشق(٤) .

واذا استعرض القارىء ما نقلناه في هذا الكتاب من الحوادث منذ سنة ١١٥٦ هـ إلى سنة ١١٩٥ من المصادر التي وصلت إلينا، وجدنا ناصيفاً حركةً دائمة، وطاقة متفجرة تفيض بالخير.

فانه يجده مدافعاً، لا مهاجماً، يعفو ولا ينتقم وملبياً لمن يستعين به .

من صفات ناصيف : الظفر والعفو.

تمكن ناصيف من قتل الأمير يوسف الشهابي في موقعة كفر رمان التي وقعت في ١٢ رجب سنة ١١٨٥ هـ عندما أسر في عقبة جرجوع وهو منهزم لكنه عفا عنه، وألبسه فَرْوهُ مقلوباً، وهو بمنزلة جزّ الناصية عند العرب وقال له :

---

(١) : لاحظ قصيدة الشيخ ابراهيم العاملي الحاريصي الهائية المعروفة

(٢) : العرفان م٢٧ ص١٩٤ نقله الأستاذ جابر عن ادوارد الكروا في كتابه : سوريا ومصر . تعريب جورج مسرة .

(٣) : العرفان م٢٧ ص١٩٤ عن تأريخ جودت باشا التركي ج١ ص٣٧٧

(٤) : العرفان م٢٧ ص١٩٤ عن جورج يني في المقتطف م٢٨ ص٣٢٦ .

لولا شبابك لقتلتك . ومعنى هذا ، أن حدث السن ، قليل التجربة ، قاصر النظر .

وتمكن من قتل الشيخ ظاهر العمر في موقعة طيربيخا أو الدولاب ، التي حدثت في نهار الاثنين ، ثامن جمادي الأولى سنة ١١٨٠ هـ عندما أسره ، وكان هو المبتدىء بالشر ، ثم عفا عنه وأركبه بنفسه على فرسه المسماة (البريصاء) وكانت من أشهر خيول العرب ، وحفزه الحضور ـ أو بعضهم ـ واشاروا عليه باستبقائها لأهميتها ، فقال كلمته المشهورة : إذا رجعت البصيصة ـ يعني بلدة البصة ـ فلا حاجة لنا بالبريصة يعني البرصاء وقد صغرهما استخفافاً بهما .

وتمكن من الانتقام من آل المزيد عندما قتلوا أخاه محمود النصار وابن اخيه قاسم المراد ومائة من جنوده وانهزموا وتبعهم إلى الرمثا في أرض الأردن ، وظفر بأولادهم ونسائهم والعجزة منهم ، فاستقبلوه بالبكاء والصراخ ، وكانوا قد قتلوا أخاه أبا حمد ـ الشيخ محمود النصار ـ الذي يعد بألف فارس ، فعفا عنهم ، وخلع على ولدي كبير آل المزيد ، فاضل المهنا وعلى الآخرين منهم .

وتمكن من أموال عرب « الصقر » الذين حاربهم ظاهر العمر ، واستنجد بناصيف فانجده فهزمهم ، ثم لم يأخذ من أموالهم ومخلفاتهم شيئاً ، وغنمها الشيخ ظاهر العمر .

هكذا عفا الشيخ ناصيف عن عدد من العظماء وهم ألد الخصوم ، مع أنه لو إنتقم منهم ، لكان له في الانتقام منهم مفخرة في منطق الحروب وعالم السياسة ، لا تقل عن مفخرة العفو .

ولكن لذة العفو عند عظماء البشر تفوق لذة الانتقام من الخصوم المجرمين .

هذه صورة عن حياة زعيم من زعماء الشيعة في جبل عامل ، في عهد الأقطاع وعهد التمرد ، وعهد الاستهتار بكرامة الإنسان ، نقدمها لزعماء المسلمين اليوم بل ولزعماء العرب ، ولا سيما الشيعة منهم ليكون لهم من ناصيف

درساً نافعاً ، وعظةً بالغة ، وليعرفوا كيف يسوسون البلاد وكيف يمتلكون قلوب العباد ، وكيف يخلدون أسماءهم في التاريخ وكيف يكونون مفخرةً لأممهم ، لا سبة وعارا ، وخزياً وشنارا.

وقد أحتذى ناصيف في ذلك بإمامه علي بن أبي طالب عليه السلام ، فإنه قتل عمرو بن ود وعفا عن سلبه ، وتمكن من عمرو بن العاصى ، ومروان بن الحكم وغيرهم ، ولم يقتلهم ، وهم من ألد الخصوم .

وكان ناصيف يباشر الحروب العظيمة بنفسه ، وينغمس في الأوساط ، يخترق الصفوف ويصطدم بالحتوف ، ثم يخرج من المعارك ولواء النصر يرف على رأسه . يحدثنا الشاعر الزجلي[١] شناعة : أن ناصيفاً في وقعة كفر رمان ، حمس الشجعان ، وأثار الحمية في نفوسهم ، ثم هم بالحملة ، فحرك جواده ، فاحاطوا به ، وقبض الغلمان على أعنة جواده ، فاستشاط ناصيف غضباً ، وارتفع صوته بالتهديد والوعيد والحماس ، حتى استلفت أنظار الأعداء ، وتسائلوا عنه ، فعرفوه ، وأخيراً تغلب على من أحاط به ، فهوى من اعلى السفح كالقمة ، فكان في اثناء هويه سيلاً عرماً يجرف الجموع ، وانكفأ حوله الشباب يظللونه بالسيوف ، ويذودون عنه الحتوف ويظهر أنه كان له في حملته هذه شوطان ، وأنه كان يتقصد الزعماء والأبطال ، فانه هو الذي أسر الأمير يوسف في عقبة جرجوع ، في احدى الروايتين، وهو الذي أحكم الرمح في صدر ظاهر العمر وأسره ، ومن المعلوم أن الموت الأحمر يحدق بهؤلاء لأنهم يحترسون بكماة الأبطال ، وأسود الرجال .

إن تقصده للزعماء يدل على شجاعته من جهة ، وعلى ترفعه عن مبارزة السوقة من جهة اخرى وعلى بعد نظره ، فان الفتك بواحد من قادة الأعداء يعادل الفتك بمعظم الجيش لأنه يكون سبباً لوهنهم وضعفهم ، وتمزقهم .

وقد كان ناصيف مع هذه الشجاعة والبسالة ، يحمل إيماناً عظيماً بالله

---

(١) : في قصيدته اللامية المفصلة التي ذكرناها في الجزء الثاني من هذا الكتاب

سبحانه ، ويتوكل عليه ، ففي سنة ١١٨٤ هـ كانت وقعة البحرة ، فان عثمان باشا غزا بلاد بشارة وعسكر على جسر بنات يعقوب فزحف ناصيف لمقابلته في ثلثمائة فارس من رجاله ، واشترك معه ظاهر العمر ، فزار في طريقه مقام نبي الله يوشع عليه السلام فترجل عن فرسه ، ودخل حرمه ، وكنسه بعمته بيده[١] وقال : إن رجعنا منصورين لابد من تجديد عمار هذا المقام الشريف ، فانتصر انتصاراً هائلاً ، وغنم الغنائم الجسيمة ، وجدد البناء بعد ذلك فأتمه في اربع سنوات كما يظهر لي وذلك فإنه أتمه في سنة ١١٨٨ هـ ، وحفر الآبار كما هي اليوم ، ووضع الثريات في المقام[٢] وقد أرخ عام بنائه الشيخ ابراهيم يحيا الطيباوي فقال :

مقام شريف أطلع اليوم شمسه	خليفة نصار المؤيد بالنصر
فلذ بحماه طالباً للذي بنى	من الله طول العمر مع وافر الأجر
وقل عند إهداء السلام مؤرخاً	عليك سلام الله يا ثاوي القبر[٣]

وقد كانت انتصارات ناصيف غريبة في بابها ، تكاد تنكرها العقول ، فقد قتل من أعدائه في وقعة (كفر رمان) ثلاثة آلاف قتيل عدا الجرحى وفي رواية اخرى قتل اربعة آلاف ، وقُتل من جيشه خمسة عشر رجلا فقط .

وقتل من اعدائه في وقعة البحرة ثمانية آلاف ، اكثرهم مات غرقاً في البحرة أثناء الهزيمة ، وقتل من عسكر ناصيف رجل واحد يسمى الشيخ جبر الحمادة لا غيره ، وقد غنم من الجيش أموالاً وذخائر يستغرق تعدادها وقتاً طويلاً .

ويقال أن ناصيفاً ومن تولى الزعامة بعده ، كانوا لا يبتدؤن أحداً بالحرب ، وانما كانوا يدافعون من هاجمهم ، ويغيثون من استصرخهم، ويشهد لذلك الحاريصي في قصيدته التي سنذكرها في آخر هذا الموضوع ويشهد لذلك

---

(١) : المقدمة وغيرها ، كان الزعماء يلبسون العمائم من شالات الترم الكبيرة
(٢) : المقدمة
(٣) : أعيان الشيعة

الاستقراء ، فان حروبهم التي نعرفها كانت كلها ما بين دفاع أو إغاثة .

ومن مزاياه العسكرية

ما يقال : من إنه أخفى موت أخيه أبي حمد ، وابن أخيه قاسم المراد ، وأقام أفراحاً وأعراساً في تبنين، لجملة من يتعلق من بنيه وبني عمومته : وهذا ان دل على شيء فانما يدل على عمق في التخطيط العسكري . وعلى تقوية الروح العسكرية في نفوس ذويه واتباعه والاصرار على بقاء الرعب يعيش في قلوب اعدائه .

ولو تصفح القارىء جبل عامل في قرن للركيني لرأى ناصيفاً في آخر ايامه في معارك وغزوات مستمرة ، وانتصارات متتابعة بدون قتال يذكر ، بل بالخوف منه والطمع فيه علماً منهم أنه إذا انتصر لا يستأصل ، ولا ينهب ، ولا يدمر اسأل الله أن يغفر لكل زعيم يسير على هذا الخط في سياسته .

استشهاد ناصيف النصار

في ٥ شوال سنة ١١٩٥ هـ

لقد استشهد الشيخ ناصيف النصار يوم الإثنين ، خامس شوال سنة ١١٩٥ هـ فقد بلغه أن جيش الجزار اجتاز في بلاده بدون إذنٍ منه ، فهب بمن معه لمنعه ، فاستشهد .

وفي هذا الوقت ، كان ناصيف قد فقد حماة فرسانه ، وبقي حوله جيل جديد ، عاش في النعمة والرفاه ثلث قرن وكان عليه رحمه الله ان يتنبه الى انه يقاتل في هذه الساعة باناس غير الذين قاتل بهم بالامس ، وان يتأنى ولكنه القدر ونهاية العمر .

وقيل إن عمره إذ ذاك فوق الستين ، وسمعت ممن روى عن شيوخ عيناتا أن عمره كان نيفاً وتسعين سنة ، وأنه كان يشد حاجبيه بعصابة . ولذا عندما قتل ، تفرق عسكره ، ولو كان بعض الذين كانوا يقودون حروبه أحياءً لكان

لهذه المعركة مصير آخر . ولكنه القدر ، وانتهاء المدة ، والثقة بالنفس ، أو الغرور الذي ينسي صاحبه الاحتياط وحفظ خط الرجعة

ففي أحد عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ استشهد اخوه محمود النصار ، وابن أخيه قاسم المراد ، وهما من أشهر أبطاله .

وأراد ناصيف تغطية هذا النقص في قواته العسكرية ، فأعلن أفراحاً وأعراساً ، هذا ، مع أن (الشعار) الشعراء ظلت تتغنى بمراثي أخيه وابن أخيه نحو مائة سنة ، أي منذ ذلك العهد الى زمن شبيب باشا ، (وهو الذي ذكر ذلك) فانهم كانوا يفتتحون مجلس الغناء على الربابة بذلك .

وفي عشرين صفر سنة ١١٨٦ هـ توفي الشيخ عباس بن الشيخ محمد بن نصار الأول ، حاكم صور ، وخلفه بعده ولده الشيخ حمد العباس ، الذي كان يرافق ناصيف والشيخ قبلان في أسفارهما للاجتماعات السياسية ، والذي ذهب في ١٥ ربيع الثاني سنة ١١٨٦ هو والشيخ أبو حمد محمود النصار ، والشيخ ظاهر العمر مع علي بك إلى مصر لحصار يافا ، ودام الحصار نحو شهر ونصف .

وتوفي في عشرين صفر من هذه السنة الشيخ علي منصور .

وفي ٢٥ جمادي الثانية في سنة ١١٨٩ هـ قتل الشيخ ظاهر العمر على أيدي الأتراك في جيش يقوده حسن باشا غازي ، وفر أولاده والتجأوا الى ناصيف ، ثم بعدما سعى في أخذ الأمان لهم تمزقوا وفي ١٥ رجب سنة ١١٨٩ هـ توفي الشيخ علي الفارس في قلعة تبنين ، وكانت وفاته بعد عودته من صفد من مواجهة أبي الذهب .

أما أبو الذهب، فإنه قد توفي ليلة الجمعة عاشر ربيع الثاني سنة ١١٨٩ هـ ، فتنادى عسكره بالرحيل ، وحملوا جثمانه محنطاً إلى مصر ، فرجع قبلان والشيخ ناصيف سالمين غانمين .

والظاهر أن ناصيفاً لم يقم للشيخ علي الفارس مراسيم العزاء اللائقة بمثله ، أو أنه لم يكن في تبنين بل كان متخلفاً عند ابي الذهب هو والشيخ قبلان

وإما لأنهم كانوا في ازمةٍ سياسية أوجدتها وفاة ابي الذهب ، وإما لأنه اخفى ذلك مخافة طمع اعداء العامليين فيهم . لأنـه كان لا يقل عن الشيخ أبي حمد في البطولة والشجاعة ، وفي ادخال الرعب على قلوب الأعداء .

وفي جمادي الأولى سنة ١١٩٥ هـ توفي الشيخ عباس العلي .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن ناصيفاً عندما ذهب أول مرة لمواجهة أبي الذهب صحب له هديةً عشرين حصانا ، فطاب لذلك قلبه ، وفتح له أبواب الشفاعة فكان نافذ الكلمة عنده .

أين استشهد ناصيف ؟ وكيفية استشهاده . ؟

استشهد ناصيف في يارون على بلاطةٍ واسعة تعرف اليوم باسمه والظاهر انها سطح صخرةٍ ضخمةٍ مغمورةٍ بالأرض ، سطحها يساوي سطح الأرض متصلة بمقبرة يارون .

رأيتها بنفسي في سنة ١٩٦٣ م تقريباً ، ورأيت فيها أثراً يشبه تزلق حافر حصانٍ عليها وكنت أظنه مصطنعاً . ورأيت حمرةً بسيطة في نفس الصخرة يزعمون أنها بقايا لون دمه . ويقال : ان دماء الآدميين إذا وقعت على الصخر لا يزول أثرها بالغسل . وقيل لي أنه يوجد صخرة قرب جويا قتل عليها السيد فلان سنة ١٥٢٠ م وأنه لا يزال أثر دمه عليهـا حتى اليوم .

وروى الأستاذ علي فواز[١] ـ وهو من بلدة تبنين ـ وكأنه يرويه عن شيوخ بلدتهم ، أن ناصيفاً أراد أن يستعمل ضرباً من ضروب الفروسية ، فأشار الى جواده باشارةٍ يعرفها ، فارتفع به عن الأرض ، ووقف على رجل واحدة ، وأراد أن يهوي بسيفه على قرنه عند هوي الجواد فتكون قوة الضربة مضاعفة ، فانزلق به جواده ، ووقع على الأرض ، فهجم عليه ثلاثة أو أكثر وتعاونوا على قتله ، فقتل .

---

(١) : هو المحامي اللامع النزيه ، وأخو معالي الوزير سعيد فواز ، ومدير الجمارك أسعد فواز المتقاعد المتفق على نزاهته وكماله .

وقد شرح ذلك شبيب باشا في ديوانه .

ماذا جرى بعد استشهاد ناصيف

كان الزعيم المرموق بعد ناصيف ، هو الشيخ قبلان ، لأنه كان مسلم الزعامة ، وكان له مكانة مرموقة ، ولكنه لم يتقدم لنصرة ناصيف ولا للأخذ بثأره ، ولأجل ذلك يرميه بعضهم بالخيانة .

ويدلك على مكانة الشيخ قبلان ، ما قاله الركيني : وفي سنةٍ تاريخها « ظرف » ١١٨٠ تقدم الشيخ عباس العلي إلى الشيخ قبلان فجره إلى الخلف ، وأمر بحبسه في قلعة هونين .

ويدلك على أنه لا يحمل نية سوء ، أنه كان هو وناصيف معاً عند أبي الذهب يوم مات ، وأنه بعد استشهاد ناصيف صحب معه الشيخ عقيل بن الشيخ ناصيف إلى الشام ، إلى عند محمد باشا العظم مما يدل على أنه كان يتمتع بعقل وافر وتجربة وحنكة ، وأنه لم يرجح الحرب ، لأن ذوي النجدة والحفاظ كانوا قد انقرضوا بين موت وقتل .

والذي اعتقده، ان حماس الشباب الذي لا تجمعه قيادة حكيمة هو الذي غرر بهم في الاستعجال في القتال بعد فقد ناصيف ولا ريب انهم كانوا يجهلون أبعاد ما يخلفه هذا القتال في مثل هذا الظرف المذهل فقاتلوا وتمزقوا .

ولكنهم اجتمعوا بعد ذلك في شحور عند الشيخ علي الزين ، ورأسوا الشيخ حمزة المحمد أخا الشيخ عباس المحمد وعم حمد العباس ، وهاجموا مقر قيادة الجزار في تبنين وقتلوا المستسلمين ، ثم تفرقوا وثبت الشيخ حمزة وقبض عليه مع جماعة وقتل .

أما الشيخ حيدر الفارس أخو الشيخ علي الفارس الذي تولى منطقة الشقيف ، وقام بعد أخيه بالزعامة ، فالظاهر أنه أدرك خطورة ملاقاة الجزار عسكرياً في تلك اللحظات فاعتصم مع أربعماية عائلة في القلعة .

ولما دخل فصل الشتاء ، ورأى الجزار أن البلاد بقيت بلا زراعة ، خاف هلاك الناس ، واستشار معاونيه بالطبع ، فأشاروا عليه بتأمين الشيخ حيدر وأنه

هو الذي يمكنه أن يعيد الحياة في الجنوب ، وبعد أخذٍ ورد اتفقا على ذلك مع حفظ كرامة الشيخ حيدر وأتباعه ، فخرج بكرامة وسلامة ، ولكنه أرسل باشة الشام سراً ، ثم ذهب إليه .

وبالطبع ، انه كان ينوي الثورة ، ولكن الظروف لم تساعد ، ومن أجل هذا استمرت حرب العصابات في الجنوب نحو ثمانية عشر سنة .

وتستطيع أن تقرأ ما سطرناه في هذا الكتاب في حوادث جبل عامل منذ سنة ١١٩٥ هـ إلى سنة ١٢١٨ هـ وتقرأ الأطروحة الفريدة التي نشرناها برمتها في هذه الطبعة .

تأريخ استشهاده وبعض مراثيه

كان استشهاده في يارون يوم الإثنين ، خامس شوال سنة الف وماية وخمسة وتسعين كما اسلفناه .

وقد أرخ عام وفاته الشيخ ابراهيم يحي الطيباوي بتأريخ مغلط ، وهو ممن تشرد بعده ولعل ذلك هو سبب الغلط ، فانه لم يكن مستقر الفكر ، ولا طامن الجأش . قال :

قتل ابن نصّارٍ فيا لله من مولى شهيد بالدماء مضرّجِ
وتداولتنا بعده أيدي العدا من فاجرٍ أو غادر أو أهوج
هي دولة عمّ البلاد الظلم في تأريخها والله خير مفرّج

وقد تنبه لهذا في أعيان الشيعة ، فقال : ولعل الصواب (بدون واو) . قلت : وهو مع ذلك لا يستقيم ، ولم يصلنا شيء يستحق الذكر من مدائحه لناصيف واخوته ، والذي وصلنا من شعره وشعر الحاريصي كله في علي الفارس وأخيه ، وذلك ، لأن أحفاده آل الفارس احتفظوا فيه ، وقد ذكر آل نصار فيها عرضاً .

ومما يلفت الأنظار ، أن الشيخ ابراهيم يحيا ، رثى ناصيفاً في قصائده التي يرثي فيها عاملة ، دون سائر الزعماء ، مما يدلنا على عظم ناصيف في نفسه ،

وعلى انه له فيه مدائح أكثر مما له في غيره وعلى أن مدائحه في غيره تشبه مدائح الشعراء في ممدوحيهم من حيث انتظار الجوائز اما رثـاء من مات ولم يخلف بعـده من يجبر فهو وفاء محض وتقدير واخلاص .

وإلى القارىء الكريم بعض مدائحه ، ومراثيه :

قال الشيخ ابراهيم العاملي الحاريصي[1] رداً على قصيدة الشيخ عبدالحليم النابلسي شاعر الشيخ ظاهر العمر التي يمدحـه فيها، ويمن عـلى العامليـين بنصر الظاهر لهم ، وقد حذفنا النسيب واثبتنا المدح خاصة ، كما أننا لم نثبت قصيدة النابلسي مخافة التطويل .

قال :[2]

يـا للرجـل لمحنـةٍ لا يـرتجى ... غـير ابن نصـار يحـلُّ عقـالهـا
ناصيف من يحمي الثغور ومن به ... أبـدت سماء المكـرمات هـلالهـا
نـدب له ألقى الـزمـان قيـاده ... لـو طاولتـه الشـامخـات لـطالهـا
ويـدُ مقبّـلة البنـان كـريمـة ... مدّت على المستضعفين ظلالهـا
شكـر الإلـه فعـالـه في غـارةٍ ... شعـوا أرى خـير المآل مـآلها
فسرى الصباح بفتيةٍ مشهورةٍ ... علم العـزيز صـلاحهـا فـأدالهـا
شوس تمد من السيوف قصارها ... يوم الوغى ومن الرماح طوالها
لا تنثني عـما تحـاولـه من العليـا وإن بـلغت بهـا آجـالهـا
تجفو لدى كسب الثنا أرواحها ... وتعـاف في نيـل المنى أمـوالهـا
سارت على اسم الله غير مطيعة ... أهـوائهـا يـاللعشيـرة يـالهـا
تهوي بها نحـو الطراد سـوابق ... تخـذت غبار الـدارعين جـلالهـا
جرد تقول العاصفات إذا غدت ... هـذي بناتي من يجـول مجـالهـا
ما اطلقت في غارة ثم انثنت ... إلا وبـلغـت المـنى أبـطالهـا

---

(١) : قال في أعيان الشيعة ، الحاريصي نسبة الى حاريص ، قرية قرب تبنين ، أهلها معروفون بالذكاء . عالم فاضل ، مجيد ، يعد في طليعة شعراء جبل عامل في ذلك العصر ، وعقبه في حاريص إلى اليوم . «ح» وكان شاعر أمير أمراء جبل عامل . الشيخ ناصيف .

(٢) : ديوان شبيب ص ٢٤ . أعيان الشيعة أيضاً في ترجمة هذا الشاعر .

وافى بها في يوم تربيخا وقد جازت خيول الدارعين خلالها[1]
طافوا عليها بالصوارم والقنا فكأنهم قطع الغمام حيالها
فسطى ونادى لافرار فأدبرت تلك الجموع ونالها ما نالها
عافت هنالك خيلها وسلاحها والرعب من تلك السروج أنالها
يا عصبةً رأت الجميل وما وفت وبنت على نياتها أفعالها
وتعمدت سفك الدماء وما رعت سنن النبي حرامها وحلالها
انسيتم أيام سخنين[2] التي لم يُنسكم طول المدى أهوالها
جافت جفون كماتناطيب الكرى فيها وعافت عذبها وزلالها
ألقت على ابن العظم كل عظيمةٍ فرد أشد نكايةً ما نالها
والصقر[3] لولا الخوف من عقباننا ما ازمعت عن أرضكم ترحالها
أفما ابحنا في العراك غنيمةً اغنامها وخيولها وجمالها
حتى خلت لكم البلاد وأوترت من كان يبغي حربها ونزالها
يبلي الجديدان الصفا وحقوقنا تبقى وان حاولتم إبطالها
يا فتنة تأبى العقول وقوعها القت على متن الهدى أثقالها
فيها ذهاب الدين والدنيا وما يسطيع غيرابي سعيد زوالها[4]

وقال الشيخ ابراهيم يحي العاملي الطيباوي[5] في قصيدة يرثي بها ناصيفاً، وهي طويلة جداً، ومنها قوله :

---

(١) : يشير إلى الحرب التي شنها ناصيف على ظاهر، عندما احتل ظاهر قرية تربيخا والبصة، فاسره ناصيف ثم عفا عنه .
(٢) : اسم قرية من أعمال طبريا، وقع فيها حرب بين ابن العظم وظاهر، وانجده الشيخ ناصيف، وكانت الغلبة لهم .
(٣) : الصقرة : قبيلة من قبائل عرب فلسطين، جرت بينهم وبين الشيخ ظاهر وقعة، فاستنجد الشيخ ظاهر بالشيخ ناصيف، وتركوا أموالهم، وترفع عنها ناصيف وتركها لظاهر.
(٤) : يظهر أن ابتداء النابلسي بقصيدته، كان سبباً لحل عرا الوئام والاتفاق بين ناصيف وظاهر، ويظهر أن الحاريصي، حث ظاهراً على رفع هذه الوحشة، لأنه هو المعني بأبي سعيد .
(٥) : في أعيان الشيعة، عن الشيخ علي السبيتي العاملي الكفراوي، أن هذا الشاعر أحد الثلاثة الذين برعوا وفضلوا على استاذهم في حياته، وهو أحد المشردين في حادثة الجزار، وشعره في منتهى الجزالة، وهو جدّ آل صادق العامليين .

يقولون بُعد الإلف أعظم شدةً وقرب العدى عندي أشد وأعظم
يعز علينا أن نروح ومصرنا لفرعون مغنىً يصطفيه ومغنم
منازل أهل العدل منها خليةً وفيها لأهل الجور جيش عرمرم
فلا باذلٌ زاداً ولا قائلٌ هدىً ولا دافعٌ ضيماً ولا متكرم
وعهدي بها مأهولة وربيعها على كل مرتاد الصغار محرّم
وكان لها من آل نصار صارم صقيل وسهم لا يطيش ولهذم
جواد جرى والسابقين إلى العلى فجاز مداها والكرام تجمجم
ولا أمتري أن الأنابيب فضلها جلي ولكن السنان المقدم
قضى في ظلال المرهفات مطهراً وأي شهيد لا يطهره الدم
فقدناه فقدان الصباح ومن لنا بطلعته الغراء والدهر مظلم
فجعنابه والشمس في رونق الضحى فلم نمسِ إلا والبلاء مخيم
وعاثت يد الأيام فينا ومجدنا وبالرغم مني أن أقول مهدم
ولست ترى إلا قتيلاً وهارباً سليباً ومكبولاً يغل ويرغم
وكم عالمٍ في عاملٍ طوحت به طوائح خطب جرحها ليس يلئم
وأصبح في قيد الهوان مكبلاً وأعظم شيء عالم لا يعظم
وكم من عزيز ناله الضيم فاغتدى وفي جيده حبل من الذل محكم
يدين بدين الكافرين مخافةً ألا ربَّ شيء حلَّ وهو محرم
وكم هائمٍ في الأرض تهفو بلبه قوادم أفكار تغور وتتهم
ولما رأيت الظلم طال ظلامه وان صباح العدل لا يتبسم

إلى آخر ما قاله ، وقصائده فيه كثيرة ومما يلفت النظر أنه كان يمدح غير ناصيف من زعماء عاملة ، ولكنني لم أر له رثاءً لغيره .

واشهر قصائده في وصف الحالة بعد ناصيف وفي عهده ، التائية التي مطلعها :

من لي بردّ مواسم اللذاتِ والعيش بين فتىً وبين فتاة
ورجوع أيام مضين بعاملٍ بين الجبال الشم والهضبات

عهدي بهاتيك المعاهد والدمى ... فيهن مثل الحور في الجنات
والروض أفيح والجناب ممنع ... والورد صافٍ والزمان مواتي
والشمل مجتمع واخوان الصفا ... أحنى من الآباء والأمات
إذ لا ترى إلا كريماً كفه ... والوجه عين حيا وعين حياة

ويقول فيها :

أو فارساً يغشى الوغى بمهندٍ ... ينقضّ مثل النجم في الهبوات
يجلو بهمته الهموم إذا دجت ... إن الهموم تزول بالهمات
ما دام في قيد الحياة فدهره ... يومان يوم وغىً ويوم هبات

ويقول فيها أيضاً :

لهفي على تلك الديار وأهلها ... لو كان تنفع غلتي لهفاتي
ياليت شعري هل أرى ذاك الحمى ... حالٍ من الفتيان والفتيات
سرعان ما درجت أويقات اللقا ... إن البروق سريعة الخطوات
أشكو إلى الرحمان بعد أحبةٍ ... عصف الزمان بهم وقرب عداة
خطب دعاني للخروج من الحمى ... فخرجت بعد تلوّم وأناة
وتركته خوف الهوان وربما ... تُرك النمير مخافة الهلكات
مستوطناً دار الضلال وربما ... القى الغريب عصاه بين عُصاة

إلى آخر القصيدة(١) .

أولاد الشيخ ناصيف النصّار

تخلف ناصيف النصّار بعدة بنين ذكور ، نعرف منهم خمسة ، وهم : الشيخ عقيل ، والشيخ فارس ، وشبيباً ، ونصاراً ، وخليلاً(٢) .

---

(١) : أعيان الشيعة ج٥ باب الألف .

(٢) : خليل هذا ، هو جد كامل بك الأسعد الموجود فعلاً وجد أقاربه من ذرية خليل بك ، فان كامل هذا هو ابن أحمد بن عبد اللطيف بن خليل بك بن أسعد بن خليل بن الشيخ ناصيف . وقد نقلنا هذا النسب من رسالة الشيخ عبد المحسن الظاهر .

واليك بعض ما نعرفه منهم .

إجتمع أعيان العامليين في شحور في منزل الشيخ على الزين صاحب شحور ورأسوا الشيخ حمزة ابن الشيخ محمد النصّار ، وضمّ إليه أولاد ناصيف .

وفي يوم الإثنين ١٢ رجب سنة ١٢٩٨ هـ أعلن الثورة علي الجزار ، وهاجم المتسلم في تبنين من قبل الجزار وقتله ، فأرسل الجزار عسكراً إلى شحور فوقعت الحرب في نهار الثلاثاء ١٣ رجب فقتل من الشيعة مقتلةً عظيمة ـ كما في رواية مروة ـ وفي رواية الركيني قتل ما يقرب من مائتي قتيل وأخذوا جملة أسرى ، ونهبوا البلد نهبةً عظيمةً ، وحملوا رؤس القتلى إلى صيدا ، وفي يوم الوقعة فرّت الناس إلى الجبال والوعور خوفاً من تنكيل الجزار .

ثم قتل الشيخ حمزة ، وقتل معه جماعة من أكابر الشيعة ـ كما قيل ـ وهرب الشيخ علي الزين مع أسرته ومع أولاد ناصيف إلى الشام وأقاموا فيها .

ثم إن الجزار أصبح والياً على الشام سنة ١١٩٩ هـ ، ففروا إلى العراق وذهب الشيخ علي الزين إلى الهند ، وأقام أولاد ناصيف في العراق عند حمد الحمود (شيخ الخزاعل) واشتركوا معه في الحرب التي دارت بينه وبين ثامر الحمود (شيخ المنتفكً) وأظهروا فيها كل بسالة واقدام ، ثم ذهب الشيخ علي الزين إلى الهند ، واستوزر بها ونال رتبةً عالية ثم عاد إلى بلاده بعد احتلال بريطانيا للهند[1] .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ توفي الشيخ شبيب ابن الشيخ ناصيف النصار في شحور .

وفي سنة ١٢٢٩ هـ توفي الشيخ نصار ابن الشيخ ناصيف النصار في قريته الطيبة .

وفي سنة ١٢٣٠ هـ توجه الأمير يشير الشهابي الثاني إلى عكا ولما وصل إلى جسر القاسمية تلقاه متسلم هونين ابراهيم آغا ومعه المتاولة ومشايخ تلك

(١) : لاحظ ما قدمناه في كتابنا هذا تحت عنوان واقعة شحور لتحيط بذلك ولتعرف المصادر .

البلاد ، ولما وصل إلى صور ، تلقاه المتسلم وأكابر البلدة ، ثم سافر فتلقاه أولاد الشيخ ناصيف النصار ودعوه إلى منازلهم وبالغوا في إكرامه ، وقدموا له الذخائر وجوادين وبات عندهم تلك الليلة[1] .

وفي سنة ١٢٣٧ هـ أرسل عبد الله باشا والي عكا إلى الشيخ فارس ابن الشيخ ناصيف النصار ومشايخ جبل عامل أنه يريد أن يرجعهم إلى حكم بلادهم ووعدهم بأمور كثيرة ، فارسل له الشيخ فارس معتمده الحاج حسن شيت . وفي تلك السنة استنجد عبد الله باشا بالشيخ فارس[2] .

وفي سنة ١٢٢٨ هـ رجع الشيخ فارس هو وعياله إلى الزريرية وبنى فيها داره .

وفي سنة ١١٨٣ هـ تزوج الشيخ عقيل بن الشيخ ناصيف وقاسم المراد .

وفي سنة ١١٩٦ هـ ذهب الشيخ قبلان ومعه الشيخ عقيل ابن الشيخ ناصيف إلى الشام إلى عند محمد باشا العظم . وفي سنة ١١٩٢ هـ في غرة ذي القعدة ، ركب الشيخ عقيل ابن الشيخ ناصيف النصار لتعزية أولاد الشيخ علي جنبلاط بأبيهم .

---

(١) : لاحظ ما قدمناه في كتابنا هذا تحت عنوان : هلاك الجزار .
(٢) : لاحظ ما قدمناه في كتابنا هذا تحت عنوان : وقعة جسر بنات يعقوب .

الشيخ محمود النصار ، المعروف بأبي حمد
المستشهد في يوم الاثنين ١١ ربيع الأول ١١٩٣ هـ

الشيخ أبو حمد محمود النصار ، هو أخو ناصيف النصار ومراد النصار ، أولاد نصار الثاني بن نصار الأول بن الشيخ أحمد ، المتوفي فجأة سنة ١٠٩٠ هـ ولهم أخ رابع اسمه ظاهر ، توفي سنة ١١٦٢ هـ حسبما ذكرناه عند ذكر القلاع في قلعة الموت .

كان أبو حمد يعيش مع أخيه ناصيف في قلعة تبنين ، وكان له فيها مقصورة تخصه ، ولا تزال تعرف حتى يومنا هذا باسمه ، فيقال : مقصورة أبو حمد ، أو إيوان أبو حمد . وكان ناصيف يتناول فيها القهوة عصر كل يوم عنده.

قال الشهابي في حوادث سنة ١١٩٧ هـ ص ٨٤١ ـ ٨٤٢ : وكان عندهم ـ يعني الشيعة ـ أبطال لا تطاق في الحروب . . . إلى أن قال : قتل الشيخ محمود أبو حمد ، وكان يعد في الحروب بألف فارس .

وقال حفيده شبيب باشا في مقدمة ديوانه : كان ناصيف وأبو حمد شبلا أسد ، ولكل منهما الرأي الأسد ، واتصفا بصفاتٍ لا تحتاج معها لقول « ليت » و « لو » وهما في منعة المنزلة أمنع من عقاب الجو . . .

ويكفي دليلاً على ذلك ، أن أخاه ناصيفاً تتبع قاتليه من بلد إلى بلد ، حتى أدرك عيالهم وأطفالهم في الرمشا ، ولما ظفر بهم صفح عنهم وخلع عليهم ، ثم لما عاد كتم أمر قتله ، وأقام افراحاً وأعراساً ـ على ما تخطره ـ مخافة طمع أعدائه فيه إذا علموا بقتله .

ويشهد لذلك ، أن الشهابي زعم أنه قتل في سنة ١١٩٧ هـ وقال الركيني وفي سنة ١١٦٤هـ نزل القضاء والقدر بوقعة الشيخ ظاهر ، وذلك في قلعة دوبيه ليلة الأحد ٢٤ ربيع الأول مع أنه قتل سنة ١١٩٣هـ ، فإن هذا يدل على أن أمر قتله كان قد خفي على الدروز .

أما قتله ، فسببه ما يلي :

وقعت فتنة في ربيع الأول/١١٩٣ هـ بين عرب الصفرة ، وعرب السردية ، وعرب بني صخر ، وبين بني حسن المرؤسين لآل المزيد ـ وهم من عرب عنزة ـ وكان رئيس آل المزيد يومئذٍ فارس المهنا وقد استنصر بالدولة ، واستنصر عرب الصفرة واتباعهم بناصيف . فأمدّهم ناصيف بجيش ذي عدة وعدد ، والتقى الجيشان في الجيدور من أعمال حوران ، على مقربةٍ من الحارة ، وكان نهر الرقاد يفصل بين القوات المتحاربة ، وكان الفصل شتاءً ، وكان المطر قد استمر ثمانية أيام بلياليها ، واشتد البرد ، وتوحلت الأرض ، وانتشر الضباب الشديد ، وملّ الناس من الانتظار ، فجازف أبو حمد واجتاز النهر ، وجازف معه ابن اخيه قاسم المراد وجملة من اتباعه ، وكان مثقلاً بالألبسة المتشبعة بماء المطر ، فانهال عليه الفرسان من كل جانب ، ولعلهم استوحدوه لأنه كان أول من عبر ، ولم يجد مجالاً للكر والفر ، فقتلوه ، وقتل معه نحو مائة فارسٍ ، وقيل مائتان ، منهم قاسم المراد ، ولما علموا بأنهم قتلوه ، ولوا منهزمين مخافة سطوة ناصيف ، وقد تقدم شرح ذلك .

وقد أرخ عام وفاته الشيخ إبراهيم يحيا فقال :

أقول والنار في الأحشاء ساطعة ... والدمع مابين منهل ومدرار
ياليت شعري اينجاب الدجى وأرى ... من المسرة شمساً ذات أنوار
ويسفر الدهر عن يوم تصادف في ... تاريخه ثأرُ محمود بن نصّار

وله قصيدة يمدحه فيها سنة ١١٨٢ ، يقول بها :

وغانيةٍ مثل الهلال تركتها ... وأدمعها تنهل فوق المناكب
تقول إلى من تقطع البيد صادياً ... فقلت إلى محمود بحر المواهب

أبي حمد حامي البلاد ومن جرى ندى كفه في شرقها والمغارب
أنامله في الحرب خمس صواعق وفي السلم لا تنفك خمس سحائب
لعمرك ما أنساه يوم تألبت عليه الأعادي من فتيّ وشائب
رماحهم مثل الأفاعي وخيلهم تدب على وجه الثرى كالعقارب
أغار على جيرانهم فتواثبت إليه حماة الحي من كل جانب
وثار لهم من آل نصار عصبة على كل معروق الجناحين شازب
يكاد ظلام النقع فوق رؤوسهم يواريهم لولا ضياء المناقب
واعجب شيء أن خمسين فارساً تمزق الفي فارس بالقواضب

وهو يشير بهذا البيت إلى وقعة طيربيخا ، التي غزاها فيه ظاهر العمر بألفي فارس ، فهب لكفاحة خمسون فارساً كانوا في تبنين ، فقتلوا من أتباع ظاهر مائتي فارس ، وأسر ظاهر نفسه ، ولم يقتل من العامليين إلا رجل وامرأة ، كانا قد قتلا قبل وصول النجدة .

وللشيخ ابراهيم يحيا المتقدم قصيدة في مدحه ، وفي كل شطر منها تأريخ ، وهي لا تحضرنا فعلاً .

ونحن إذا استعرضنا ما ألممنا به من حياته نجده ذهب ضحية الاعتزاز والكبرياء ، واللامبالات بالخصوم ، واهمال ملاحظة الظروف .

فليتنبه الأباة المغاوير من شبابنا ، ولا ينبغي ان يفوتهم الحذر .

لأن المغامرة مقامرة ، والمقامرة رذيلة ، ولا ينبغي أن ينسوا أيضاً أن تضحيتهم هذه ليست تضحية بأنفسهم فقط بل تضحية بانفسهم وبقومهم ، لأنهم قد لا يجدون عوضاً عنهم .

ملاحظة

مما يلفت الأنظار أن الجزار ـ وهو السفاك المعروف ـ لم يقتل أحداً من ذرية الشيخ ناصيف النصار ، ولا من ذرية الشيخ محمود النصار ، لا هو ولا غيره ممن خلفه في الحكم .

مع أنه أعدم وسجن جمعاً من ذرية عباس المحمد وعباس العلي ، وحمزة المحمد ، وغيرهم من آل علي الصغير ، ومن آل الصعبي ، والمناكرة ، ومن أعيان جبل عامل .

أولاد أبو حمد الشيخ محمود النصار

أعقب أبو حمد ولدين لا غير .

أحدهما : حمد البك الذي كان يكنى به ، وقد لمع نجمه سنة ١٢٥٧ هـ ، ولقبّ رسمياً (بشيخ المشائخ) وامتدت زعامته وصار صيته في الآفاق ، وتوفي سنة ١٢٦٩ هـ فيكون قد عاش بعد أبيه ستاً وسبعين سنة ، ولا ندري كم عاش مع أبيه .

وكان حمد البك يلقب بأبي فدعم على ـ عادة العرب في الإكتناء ـ ولم يكن له ولد ، ولذا ورث الزعامة من بعده حفيد أخيه علي بك الأسعد .

وسنتحدث فيما يأتي عن كل واحد من حمد البك وعلي بك حديثاً نتعرض فيه لبعض ما نعرفه عنه .

ثانيهما : محمد البك ، وقد توفي سنة ١٢٣٧ هـ وكان له ولد اسمه أسعد البك ، وكان يعيش مع عمه حمد البك حسبما أظن ، وحسبما ينبغي .

والظاهر أن أسعد البك لم يكن موجوداً في سنة ١٢٥٧ هـ لأن حمد البك أرسل اربعماية وعشرين أسيراً من جنود إبراهيم باشا مع معداتهم وأسلحتهم تحت رعاية حفيد أخيه علي بك الأسعد بن أسعد هذا ، ولو كان موجوداً لكان أحرى بذلك واولى .

محمد البك بن أبو محمد محمود النصار وابن عمه فارس الشيخ ناصيف النصار

كان المثل يضرب بصباحة محمد البك وجماله ، وروي أنه لم يُرَ في عصره أجمل منه وجهاً في الديار العربية فقد كان معتدل القامة ، بهي الطلعة ، وقوراً ، شجاعاً سخياً .

وكان إذا جلس جثا على ركبتيه واضعاً عليهما سيفه قابضاً عليه بكلتا يديه وفي زناره خنجر قبضته مرصّعة بالأحجار الثمينة ، وكان لا يفارقه .

وإذا جلس لا يتزحزح ولا يتحرك ، حتى كأنه بنيان مرصوص ، وقد جلس مرةً على عادته وأطال الجلوس ، ثم لما أتى وقت الصلاة قام ليسبغ الوضوء ، فتقدم الخادم وتناول الجزمة ـ حذاء له ساق ـ ليخرج منها رجله ، فانبعث الدم ! وتبين أن حصاة صغيرة كانت دخلت في الحذاء ، ولاستمراره في جلوسه وثباته ، دخلت الحصاة في قصبة الساق فأدمتها ، ولم يتحرك .

وكان أيضاً ذا منطق ذرب ، منطلق اللسان تخشى بوادره .

وأما فارس ، فانه كان مقدماً عليه لسنه ، وكان هذا ـ تغمده الله برحمته ـ جليلاً شجاعاً ، كريماً ، وهو :

ذو خصالٍ قلدت بالفخر أجياد العشيرة
ساد فيها قومه وهو لهم كنز الذخيرة

وفي سنة ١٢٣٧ هـ هو الذي كان قائداً لجيوش عبد الله باشا محافظ عكا ، ووالي صيدا ، عندما جرت المحاربة بينه وبين العسكر الشامي على الجسر الذي في عبر الأردن[1] .

وقد لقّب فارس الناصيف رسمياً على عهد عبد الله باشا والي إيالة صيدا برئيس العشاير من طرف الباب العالي ، وقد اشترك هو وابن عمه محمد البك بالتفاهم مع العثمانيين .

فقد كان سليمان باشا يسير على عكس سيرة الجزار ، فبينما كان الجزار محباً للاثرة والانتقام والتدمير ، كان سليمان باشا محباً للترفيه على الناس ، عافياً عنهم ، مهتماً في عمران البلاد وتهدئة الأمور ، لذلك اهتم هو وراغب أفندي ناظر الخارجية بالدونما الهمايونية في تسوية الحال في البلاد ، فاستدعيا فارس الناصيف وابن عمه محمد البك ابن أبو حمد ، وكانت الرياسة قد انحصرت بهما ، واكرماهما وأظهرا العناية بهما ، فكان ذلك سبباً لجلب قلبيهما ، وحضرا للتفاهم ، وأول شيء طلباه اعادة الأمور كما كانت على أن تكون بجملتها لهم لأنهم ورثوها عن آبائهم .

ومنها الحصون والقلاع التي رممت ، والمياه التي أجروها للأرض التي عمروها ، والبساتين التي أنشأوها ، والمطاحن ، جملة وافرة من بساتين صور وصيداء ، فاعتذر الباشا والأفندي بأن هذه البلاد والممتلكات قد دخلت في ميزانية الدولة منذ أزيد من خمس عشرة سنة ، وأن إخراج ذلك منها صعب مستصعب .

ولكن يمكن تعويضكم بدلاً من ذلك كله مقاطعةً كاملة

وأخيراً تم الاتفاق على ذلك ، فتقرر اعطاؤهما اقليم الشومر برمته ، عوضاً عن أملاكهم المتفرقة التي كانت لهم قديماً ، وأجريا ترقين ـ إخراج قيود هذه المقاطعة ـ من دفتر الخزينة ، ووزعت أموالها وذخائرها ـ يعني الضرائب التي

---

(١) : ديوان شبيب باشا ص ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ .

كانت عليها ـ على باقي المقاطعات ، وأعطياهما بها المراسيم العالية التي من جملتها « انها مرفوعة القدم ممنوعة القلم » يعني أنها لا تكلف بشيء من الضرائب بالكلية .

ثم عين لبيت الرياسة مايتي كيس تدفع سنوياً من خزينة عكا مع ذخائر مرجعيون التي تجبى كل سنة .

ثم طلب الباشا تعيين المكان المناسب لسكنى الرئيس ، وبعد الفحص وقع الاختيار على « الزريرية » فأرسل الباشا بنائين من قبله، فشيدوا البنايات المناسبة التي لا تزال إلى الآن يعني إلى عهد شبيب باشا سنة ١٣٠٠ هـ .

ثم جاء فارس وناصيف[١] وجمعا آل علي الصغير ، وآل ابي صعب ، وآل منكر ، وقسموا القرى والمزارع الموجودة في هذه المقاطعة ، فاصابت القسمة كلاً بحسبه ، وأصاب بيت الرياسة قسم من تلك القرى .

ثم انحطت أمور آل علي الصغير بعد فارس ، ولا نعرف فعلاً وقت وفاة فارس ، ولا ذريته ولا المدة التي استقامت له فيها الأمور .

ونحن منذ هلاك الجزار لم نسمع بحمد البك ، وكأن أخاه محمداً هو الذي تقدم عليه في هذه الفترة التي اشترك فيها مع ابن عمه فارس الناصيف .

---

(١) : لم نعرف ناصيف هذا .

حمد البك ابن أبو حمد محمود النصّار
شيخ المشايخ، المتوفى سنة ١٢٦٩ هـ

هو حمد بن محمود بن نصار الثاني بن نصار الأول بن أحمد[١] قتل الشيخ محمود النصار أبو حمد يوم الإثنين ١١ ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ وتوفى حمد البك في سنة ١٢٦٩ هـ فكانت مدة حياته بعد أبيه ستاً وسبعين سنة .

ولا نعرف المدة التي عاشها مع أبيه ، غير أنا نعرف أن أباه كان يكنى بأبي حمد قبل قتله بمدة طويلة ، ولا نعرف أن ذلك هل كان مجرد اكتناء ، أو لأنه كان قد ولد وسمي حمداً واكتنى به .

كان حمد البك يكنى بأبي فدعم جرياً على عادة العرب في الاكتناء ، ولكنه لم يكن له ولد ، ولذلك ورثه حفيد أخيه علي بك الأسعد .

صفاته :

كان حمد البك ذا شهرة واسعة ، وكان عالماً فاضلاً ، شاعراً حكيماً ، شجاعاً سخياً ، عاقلاً ، بارعاً ، ماهراً ، خطيباً فصيحاً ، خبيراً بأحوال العالم والتواريخ القديمة ، وأنساب العرب ، وكان يفصل ما يُعدّ من الأمور الشرعية على النهج الشرعي لعلمه بأحكامه ، ثم ينفذها ، وكان يعرف في زمانه :

---

(١) : ديوان شبيب باشا ص٣٩

بحاكم الشرع والسيف ، ولقد ذكره بعض ولاة الأمور ، فنعته بفيلسوف العرب[1] .

ويقول الأستاذ محمد جابر :

وكان حمد البك شيخاً وقوراً ، بعيد النظر، حصيف الرأي، عالماً فاضلاً ، درس على العلامة القبيسي في مدرسة الكوثرية ، واستعاد مجد أهل بيته بعد أن مال بهم الزمان ، وزعزعتهم الأحداث ، وكان شاعراً حسن الديباجة وأشهر قصائده (السالفية) ، وهي قصيدة طويلة على نهج الخاليات المعروفة ، مدح بها السلطان عبد المجيد ، ومطلعها :

تورد خد الظبي واخضر سالفه   له الخال قد أضحى سميراً يسالفه .

وقد التزم فيها هذه القافية .

وله تشطير قصيدة البردة المعروفة في مدح النبي (ص) .

قلت : ومن المؤسف أننا لم نعثر على شيء من ذلك ولم يصلنا من شعره إلا هذا البيت من السالفية .

لمحة عن حياة حمد البك

سكت التأريخ الذي بين أيدينا عن نشأة حمد البك وعن سيرته في نحو أربعين سنة .

فقد انقضى حكم الجزار الذي دام نحو ربع قرن ، وحكم سليمان باشا وعبد الله باشا ، وكانوا هم الذين يحكمون بلادنا ، ولم نسمع في عهدهم باسم حمد البك ولو مرة .

ففي سنة ١٢٣٧ هـ كان ابن عمه فارس الناصيف هو الزَعيم البارز في بلادنا ، ولقد لقب رسمياً برئيس العشائر ، وكان محمد البك أخو حمد يشاركه

---

(١) : ديوان شبيب باشا

في المهمات السياسية كما يظهر من ديوان شبيب باشا .

وكان أخوه محمد يعرف بالبك بقولٍ مطلق . ولكن العلامة الأمين يقول : أول من عرف منهم بالبك ، هو : حمد البك ، والظاهر أن هذا بعيد عن الصواب ، لأن محمداً توفي في سنة ١٢٣٧ هـ قبل بروز حمد البك بمدة طويلة .

والذي أظنه أنه كان يتعمد الابتعاد عن السياسة وأنه كان يشتغل بأموره الخاصة ويطلب العلم .

فقد اتفقوا على أنه كان عالماً فاضلاً ، وأنه كان شاعراً وأنه التحق بمدرسة العلامة الشيخ حسن القبيسي في الكوثرية ، ولم يحددوا مدة زمن التحاقه بها ، ولا مدة مواصلته لها واذا دلنا هذا على شيء ، فانما يدل على أنه كان يتمتع بعقلٍ وأناة .

وكما يمكن أن يُفسر التحاقه بالمدرسة الدينية واعتزاله للسياسة هذه المدة الطويلة بأنه من باب الرغبة في العلم أو الدين أو من باب حب السلامة ، لأن من كان يتعرض للسياسة من معاصريه لاقوا أعظم المرارات ، يمكن أن يُفسر بأنه كان يتستر بذلك عن مراقبة أرباب الدولة ، وكان ينتظر فرصةً يثق فيها بالنجاح .

فقد حدثنا الركيني قائلاً :

في هذه السنة رأينا نساء أو عيال عباس العلي يتكففون الناس في أيام البيدر ، والناس لا تعطيهم لقسوتهم عليهم ! (نقلناه بالمعنى من محفوظاتنا) .

وحدثنا السيد عباس بن السيد حسين بن السيد علي ابراهيم ، أن فلاناً اجتاز بحمد البك وهو يحرث أرضه بيده ، وزوجته الحاجة فلانة تعينه ! فسلّم

عليه ، ثم قال له : كيف الحال يا شيخنا ؟ فاجابه حمد البك بقوله : ما فيه حال يدوم[1]

وحدثنا شبيب : أنه لما تغلب إبراهيم باشا المصري على بلاد عاملة ، خرج منها حمد البك وابن أخيه أسعد إلى دمشق ، واشترى داراً في دمشق واسكنها عائلته، وبالطبع أن علي بك كان من جملة العائلة والتحق هو وابن أخيه بالجيوش العثمانية ، وأظهر من ضروب الشجاعة والبسالة ما وردت أخباره إلى العاصمة .

وقد شهدا حرب حمص ، ونَزَبْ ، وغيرهما ، إلى ان بلغا قونية ، وهناك تغلب إبراهيم باشا على العساكر الشاهانية ، وأسر رشيد باشا ، واستقام أمره ، وتمّ استيلاؤه على الديار الشامية ، وأقام حمد البك وابن أخيه أسعد بك في قصبة الزبداني من أعمال دمشق ، هذا وأملاكهما مظبوطة .

وقد عرض عليهما ابراهيم باشا العود إلى بلادهم وارجاع أملاكهم بشرط الخضوع ، وتوسط الأمير بشير في ذلك ، فأبيا .

وقبل خروجه من سوريا بثلاث سنين أرجع إليهما الأملاك دون الزعامة .

وفي أثناء هذه المدة توفي أسعد البك ابن محمد البك ابن أبي حمد الشيخ محمود النصار .

وفي سنة ١٢٥٦ هـ اهتمت الحكومة العثمانية باخراج ابراهيم باشا ، واتفقت مع الإنكليز على ذلك ، وعندما انتهى الخبر إلى حمد البك رفع علم الثورة ، فاجتمع له ثمانية آلاف مقاتل ، فسيرها لقتال ابراهيم باشا ، وقام بنفقاتها ، وكان معه حفيد محمود النصار .

---

(١) : السيد حسين هذا زار النجف في سنة ١٣٦٥ هـ تقريباً ، وكان أسن آل ابراهيم ، فاستحفيناه السؤال عما يعرفه من أحوال البلاد ، فحدثنا عن حمد وعن علي بك ومحمد بك وثامر ، وسننقل حديثه برمته وكنت أقدر أنه ممن ولد في عهد علي بك .حديث السيد عباس يدل على أنه لم يكن يتمتع بلقب بك .

فكانت الوقعة الأولى على جسر القاقعية مع مجيد الشهابي بن الأمير بشير فهزمه، ثم في حمص وغيرها، ثم في الحبيس ورميش، وعكا، وبلاد صفد، وطبريا ، والناصرة ، وشفا عمرو وأطلق الأسارى من عكا ، وكان هؤلاء قد أسرهم ابراهيم باشا وسجنهم .

وأسر أربعماية وعشرين جندياً من المصريين يوم الحبيس ، وهي أعظم وقائعه معهم ، ثم أرسلهم مع حفيد أخيه علي بك مع معداتهم واسلحتهم وذخائرهم فسلمهم علي بك إلى عزة باشا الذي جاء بالدونما الهمايونية .

وكان كلما فتح مكاناً وضع فيه متسلماً من قبله ، وبقي حمد البك يطارد قواتهم ، ويقابل جيوشهم ، ويتغلب عليهم في كل وقائعه ، حتى اخرجهم من البلاد الشامية أجمع ، وأعانه على ذلك خروج ابراهيم باشا إلى مصر من طريق البر حتى هلك اكثر عسكره بدون حرب ، كما صرح بذلك بعض المؤرخين غير شبيب باشا .

وبعد هذه الوقائع استقر الحكم لحمد البك على بلاد عاملة بتمامها وأقام في تبنين ، وأعاد لها لياليها الزاهرة .

وهنا أغدقت عليه الحكومة العثمانية بالتشكرات ، وبالهدايا وبالألقاب . فأهداه السلطان سيفاً مرصّع القبضة بالجواهر الكريمة ، باسم الحضرة السلطانية . وأعطي لقب متسلم بلاد بشارة أولا ، ثم لقب شيخ المشايخ رسمياً ، ثم أعطي رتبة عسكرية ، وهي : رتبة اسطبل عامرة مديري .

وفوضت اليه حكومة جبل عامل ، كما كان أسلافه من قبله . وأهداه شاه إيران شالاً من الترم الثمين ، وطائراً من البزاة . وقصده الشعراء بالمدائح والتهاني من مختلف البلاد العربية ، فاغدق عليهم الهبات ، والصلات، وكان عصره أشبه بأيام سيف الدولة في حلب[1] .

وقبل ذلك في سنة ١٢٥١ هـ أراد ابراهيم باشا أخذ عسكر النظام من

---

(١) : لاحظ ديوان شبيب باشا ص ٣٩ والعرفان م ٢٧ ص ٩ وغيرهما .

البلاد بلا نظام ، فأهلك البلاد ، وقد تقدم في هذا الكتاب تحت عنوان « ثورة حسين بك الشبيب وأخيه محمد علي بك الشبيب سنة ١٢٥٥ هـ »

ولا ريب أن هذا النوع من الاضطهاد والعسف ، ساعد حمد البك على النهوض في وجه ابراهيم باشا ، وعلى التفاف الناس حوله وانقيادهم إليه ، ولا سيما وأنه كان جاوز الستين من العمر .

وفاته وقبره ومراثيه

توفي حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ، ودفن في المقام المنسوب إلى نبي الله يوشع عليه السلام ، وكان ذلك إما بوصيةٍ منه ، واما باختيار حفيد أخيه علي بك الأسعد له .

وقد بنى علي بك قبةً على قبر يوشع ، وقبةً دونها على قبر حمد البك وانما صغرها إجلالاً لنبي الله يوشع(ع) .

وممن أرخ وفاة حمد البك وبناء القبتين الشيخ إبراهيم صادق حفيد الشيخ ابراهيم يحيا الطيباوي شاعر ناصيف النصار .

اما تأريخ الوفاة ، فهو :

لقد عميت عين المفاخر إذ رأت   عن الأفق أرخ بدرها حَمَدُ غابا

وأما تأريخ بناء القبتين ، فقد كان سنة ١٢٧١ هـ ، أعني بعد وفاة حمد بسنتين ، ولعله نظمه عند الانتهاء من بناء القبتين ، فمنه قوله :

قف أيها الوافد بالباب الذي   وقف الأملاك فيه حرسا
وان دخلت الباب فاقرأ حمداً   حمداً ومدحاً في الصباح والمسا
فهو الذي مع يوشع قد جمعا   بتربةٍ حصبائها تقدسا
وقد بنى أبو السعود[1] فوقها   بيتاً على قواعد المجد رسا
فطاول السبع الألى مُذأرخوا   بيتاً على تقوى علي أسسا

(١) : كنية علي بك الأسعد.

مدائح حمد البك ، ومراثيه .

أما مدائحه ، فقد تقدم بعضها في كتابنا هذا عندما تعرضنا لحوادث عصره ، وتعرضنا لشيء منها عندما تحدثنا عن حفيد أخيه علي بك كما سيأتي ومن غرر مدائحه التي لم نشر إليها ، قصيدة للشيخ حبيب الكاظمي تزيد عن خمسين بيتاً ، ومنها :

يا باسم الثغر والابطال عابسة   وماطر الجود والهيجاء تلتهب
إن كنت والناس في الناسوت متحداً   فالعود والعود ذا ندٌّ وذا حطب

ومنها :

إن الجواهر تصدى بالسنين ولا   يصدى ثناكَ ولو مرت به الحقب
قد يهجر الشمس من أودى به رمدٌ   ويكره الماء من أودى به كلب

ومنها :

فقل أبا فدعم هيبت في شرف   يحكى السماء ويحكي شخصك القطب

وأما مراثيه ، فانها تكاد تكون في طليعة المراثي في الشعر العربي وهي تحمل صورة معبرةً عما يختلج في نفوس الراثين ، ولعلها أشد بلاغةً من مدائحه ، وهذا قلما يوجد بحسب العادة ، لأن المدح باب من أبواب الرجاء التي يستمطرها المادح بمدحه ، أما الرثاء فانه ليس كذلك ، واليك نموذجاً منها ، فمن قصيدةٍ رائية للشيخ حبيب الكاظمي وابياتها نحو أربعةٍ وثلاثين بيتاً .

أملفع بالبيض من أكفانها   ومناله بالبيض مجد أخضر
ما فارقتك البيض ياابن محمدٍ   كلا وبيض ثناك لا يتغير

ومنها :

يبكي الفرند وطالما أضحكته   والحرب في موج العجاجة تمطر

ومنها :

ويد تصفرها المنون وطالما   منها جرى في الروع موت أحمر

ومنها :

كم من يد في الله منك بها يد ... بيضاء عن ضوء المكارم تسفر
أسديتها في الله حتى هللت ... وجه النبي وسر منها حيدر

ومنها :

فكأن نفسك والقلوب وراءه ... تجري وموكبك العديد الأكثر
سيف ابن ذي يزنٍ سرى بركابه ... ولديه قحطان تسير وحِمْيَرُ

ومنها :

حتى إذا أدوا لديك صلاتهم ... وعليك صلى الخالق المتكبر
ستروا محيّاً طالما كشفت به ... ظلم الدجى وامتد صبح أنور

ومنها :

مالي أجد إلى السلو فلم أجد ... باباً لديه جازع يتصبّر
إلا وجود ابي السعود فانه ... نجم بآيات السعود يبشر
جمع العلى بمحاسنٍ لو صورت ... ليلاً لنظم جزعها المتصور
الحول الندب الأريب المصقع ... الفذ الأريب الأريحي القسور

وله في رثائه قصيدة أخرى نحواً من خمسين بيتاً .

منها :

قالوا قضى حمد العليا فقلت لهم ... الله أكبر فات الركب حاديها
نعى أبا فدعم الناعون فانسلبت ... قوى المعالي وقد جزت نواصيها

ومنها :

عجبت يا واحد الدنيا لواحدةٍ ... لما حملت وقد سارت سواريها
مجرداً وسيوف الهند مغمدة ... وسائراً والمذاكي في مواقيها
وقد سمعت الندا في كل ناحية ... والأرض تذري على الهامات سافيها

وللشيخ علي زيدان في رثائه قصيدة تبلغ مائة بيت ، منها :

واين أخو الأقلام يخضب هامها ... فيثني العوالي أو يضل الكتائبا
واين الذي جدواه تستغرق المنى ... فيحي ضماراً أو يريش المطالبا

ومن رثاه ، الشيخ ابراهيم صادق حفيد الشيخ الشاعر الشيخ ابراهيم يحي العاملي ، فانه رثاه بقصيدة غراء منها :

ظعنوا فهل لك بالأسى عنهم يد	أم هل يطيعك بالعزاء تجلد
عمت مواهبك البلاد فأتهموا	بجميل ذكرك في البلاد وأنجدوا
حملوك ميتاً والدموع طليقة	وفؤاد كل شجٍ عليك مقيد
والحور تبسم في لقائك بهجةً	والدهر مغبر المحيا أنكد
وزهت بقربك روضة قدسية	لك في ثراها عند يوشع مرقد
من في ثغور المسلمين مرابط	رصداً وانت بها الرصيد المرصد
من للرعية سائس من للشريعة	حارس من للسبيل ممهد

ومنها في مدح علي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد :

كم لي اليك مقاصد أملتها	لولا علي قلت خاب المقصد
تتكلم الأيام عنه صامتاً	واذا تكلم فالحديث المسند
يا أيها الملك المطاع ومن له	زمر الخلائق بالمكارم تشهد
وعليه تلهج بالثناء فواحد	ينشي مدائحه وآخر ينشد
ولك المساعد والنصير محمد	ومحمد نعم النصير المسعد
احيا الندى من بعد مافقد الندى	طلابه فكأنهم لم يفقدوا

وأخيراً :

كان حمد البك خطيباً مصقعاً ، يدرك بقوة البيان مالا تدركه الجحافل بقوة السنان .

ومن ذلك ، انه اجتمعت عموم العشائر بأمر والي ايالة صيدا عندما كان جبل لبنان راجعاً لإيالة صيدا ، وذلك عند حدوث حادثة لبنان القديمة ـ وهي غير حادثة سوريا الأخيرة ـ وحاكمها يومئذٍ الأمير بشير الشهابي الثاني ، وكان الاجتماع بموقع من الجبل غير بعيد عن بيروت ، فقام فيهم خطيباً ، فأشخصت إليه الأنصار ، واستولى على المسامع والأفكار ، ولم ينته حتى بلغ الغاية ، وادرك

المقصود ورتق الفتق ، وسد الخلة ، وأمات الفتنة ، وأصلح ذات البين ، وانطفأت الفتنة ، وتفرقت الجموع[1] .

وقد قدرت له الدولة هذا الموقف ، وجاءته التشكرات على ذلك .

قلت ، إن سياسياً يقوم خطيباً في جموع محتشدة للقتال خليق بأن يقال عنه : أنه سياسي محنك ، وعاقل عارف وخطيب مقتدر .

ومن ذلك : أن أهالي لجا حوران[2] شقوا عصا الطاعة على الدولة العثمانية ، ولجأ إليهم كثير من مردة ذؤبان العرب ، فصممت الدولة العثمانية على ضرب اللجا واخضاعه ، واستنهض رأس عساكر عربستان في الشام حمد البك ، لعلمه بزيادة المامه وسعة خبرته بالحروب ، وحسن تدبيره ، وقدم عهده بالرياسة ، ومعرفته بكبراء الطوائف ، ومحبتهم له ، وميلهم إليه ، واقتداره على استجلاب كبيرهم ودانيهم وقاصيهم ، ومتمردهم وعاصيهم ، بقوة بطشته ، وصدق عزيمته ، وذلاقة لسانه ، وقوة بيانه .

فهب بمجموعه ، وعسكر على الأردن ، وعبر الجسر ، وخيم حيث الطريق إلى ناعران ، وفي اثناء ذلك استاقت عربان الجولان ماشية عربان الخيط ، من أعمال صفد ، فلجأ هؤلاء إلى بلاد بشارة بما عندهم من المواشي فراراً من أولئك ، ونزل سهل قدس - جنوب مقام يوشع - فاجتمع أولئك العربان ، وغزوهم بغتةً فأصابوا سائر ماشيتهم ، فبلغ الخبر البلاد المجاورة لذلك الموقع ، وهم أهالي عيثرون ، والمالكية ، وقدس ، فلحقوهم ، فلم يدركوهم ، وعندما انتهى الخبر الى حمد البك ، استرجع ما أخذوه ، وسلمه لأربابه ونشر الأمن والسلام في تلك الجهات مدة وجوده .

وقد اكثر من ارسال الجواسيس الى اللجا ، لتعرف الأحوال وكانت المخابرات متصلة .

---

(١) : ديوان شبيب باشا ص ٣٩ - ٤٠ ولا يخفى أن الحادثة الثانية كانت بعد حمد البك في زمن علي بك .

(٢) : ديوان شبيب باشا عن الجوهر المجرد ص ٤٠ .

وقد فهم اثناء ذلك أن رأي الوالي في بيروت مخالف لرأي رأس العساكر في دمشق ، لذلك أصبحت همته ارضاء الطرفين ، والوقوف في وجه الثائرين .

وقد استطاع بلباقته وحسن إدارته أن يمنع توسيع الثورة وان يراسل الوالي ورأس العساكر معاً ، وان يكون على صلة تامة فيهما .

وأخيراً حدثت الحرب في القارص بين العثمانيين والروس فصدر أمر الدولة العلية برفع الحرب عن اللجا ، ورجعت العساكر الشاهانية إلى دمشق ، ورجعت عساكر البك إلى تبنين[1] .

وقد قدمنا في هذا الكتاب صورة كتابين من بعض كبار المسؤولين الأتراك ، تتضمنان شكر حمد البك على قيامه بذلك .

---

(١) : الأولى ص ٤١ والثانية ص ٣٣ .

علي بك الأسعد ومحمد بك الأسعد الخليل

علي بك الأسعد ، بن أسعد البـك ، بن محمد البـك ، بن الشيخ محمـود النصار[١] .

ولد علي بك سنة ١٢٣٧ هـ وتوفي في دمشق سنة ١٢٨٢ هـ ودفن في مقام السيدة زينب كريمة أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعليها ، وعمره خمس واربعون سنة .

نشأته :

يظهر أن ولادته كانت سنة وفاة جده محمد البك في الزرارية ، وأن والده أسعد بك هو الذي تولى تربيته ، وبالطبع أن عمه حمد البك كان يشرف عليه وعلى أبيه أسعد بك . وفي سنة ١٢٤٧ هـ بعد استيلاء المصريين على عاملة خرج به عمه ووالده واشتريا داراً في دمشق وتركاه هو والعيالات فيها ، وبقيا منضمين للجيوش العثمانية المقاومة للمصريين ، ثم لما تغلب المصريون على العثمانيين ، أقام عمه ووالده في الزبداني ، وبالطبع أنه كان معهما وتوفي والده حوالي سنة ١٢٥٣ هـ وفي تلك السنة عاد هو وعمّ أبيه حمد البك الى البلاد وفي سنة ١٢٥٦ هـ أعلن حمد البك الثورة على المصريين وكان حفيد أخيه علي لا

(١) : عن كتاب الجوهر المجرد . للسبيتي ، راجع ديوان شبيب ص ٧١ والعرفان م ٢٧ ص ١٩٥ للأستاذ جابر .

يفارقه ، وكان عمره إذا ذاك تسع عشرة سنة ، وهو الذي تولى أسرى وادي الحبيس فقادهم مع ذخائرهم ومعداتهم حتى سلمهم إلى عزة باشا ، وفي سنة ١٢٦٢ هـ تزوج علي بك[1] والظاهر أنه تزوج بكريمة سهيل العباس المحمد النصار . وقد توفي حمد البك سنة ١٢٦٩ هـ وكانت ذرية الشيخ محمودالنصار منحصرةً بعلي بك الأسعد ، وكانت الخناصر قد انعقدت عليه ، فتولى الزعامة بعد وفاة عمّ أبيه حمد البك بلا فصل ، ويكون عمره إذ ذاك اثنتين وثلاثين سنة ، ويظهر أن أمر زعامته كان مدبراً ، فان شعراء العلماء وخطباءهم ، وكافة الأدباء خصّوا علياً بالتعزية بحمد البك وقلدوه الزعامة ، وأهملوا كل من عداه من آل علي الصغير أو غيرهم ، ويظهر أن هذه الحركة كانت الضربة الأولى القاضية على قانون العشائر الذي يقضي بتزعم الاسن، وقد تزعم علي بك في الوقت الذي كان يوجد في بني عمه ثامر الحسين وهو من تتوق نفسه للزعامة العامة ، لأنه يرى نفسه أحق بها ، لأنه أسن ، ولأنها كانت لأبيه في عهد ابراهيم باشا ، ولذلك حاول ثامر بك الحسين غير مرة أن يسترجع الرياسة بالقوة على أساس ما أسلفناه من السن والسابقة . والظاهر أن شجاعته واقدامه كانا يفوقان تدبيره وكياسته فقد كان يعمل لزعامته من خارج وكان علي بك عمل لها ويعمل لها من داخل لذلك فاز علي بك برضى الدولة ومحبة الناس له وكان علي بك مع ذلك محكم الصِلاة مع ولاة الأمور والزعيم الحق هو الذي يعمل لزعامته من داخل اولاً ثم من خارج فيرضي الخاصة ويقنعهم بكفاءته وبقية الرعية تتبع الخاصة بدون برهان ، بل يكون برهانهم الوحيد متابعة الخاصة له .

ولقد شن الغارة ثامر بك السلمان على علي بك مرتين مرة منها في سهل تبنين ومرة في سهل ابل السقي وكان الفوز النهائي لعلي .

وقد كان لعلي بك من المظاهر والشهرة وحسن الأحدوثة مالم يكن لغيره .

قال الأستاذ جابر[2] : كان علي بك من أعظم رجال الشرق العربي مقاماً ، وأنبلهم ذكراً ، وأعرضهم جاهاً ، وأوفرهم عقلاً وحزماً ، وأجزلهم كرماً

(١) : عن كتاب الجوهر المجرد للسبيتي . راجع ديوان شبيب ص ٩٤ .
(٢): العرفان م ٢٧ ص ١٩٥ للأستاذ جابر .

وجوداً ، وقد امتدحه الشعراء من بيروت ، وطيربيخا ، والعراق ، وأنحاء عاملة ، وسائر البلاد العربية ولم يصل إلينا من ذلك إلا النزر اليسير من ولده شبيب باشا في مقدمة ديوانه ، وكان لقبه الرسمي ، رئيس العشائر ، وشيخ مشائخ بلاد بشارة ، كما كان أسلافه واللقب الأول منح لهم من طرف الباب العالي بعد الاتفاق الذي عقد في عكا بين عشاير جبل عامل ، وبين سليمان باشا والي إيالة صيدا في سنة ١٨٠٤ م وأول من ناله فارس الناصيف النصار ، واللقب الثاني منح لهم بعد جلاء المصريين من سوريا سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤٢ م[1] .

كرم علي بك

لقد أعاد للناس عهد معن واضرابه من أسخياء العرب ، فقد أجزل العطايا للقريب والبعيد ، والصغير والكبير ، والحاضر والبادي ، وقد امتدحه الشعراء بالجيدات الطوال ، وقد أسهب الكتاب ممن عاصره وتخلف عنه في تعداد مآثره ومكارمه ومفاخره ، وقد كان العلماء والأدباء يعيشون بفيض مداه ، فكان يقطعهم الاقطاعات ، ويمدهم بالمرتبات ، وينقذهم من النكبات ، وقد كانوا يعززونه ويمجدونه ، وكانوا همزة الوصل بينه وبين الطبقة الدنيا ، وكانوا لسانه الناطق أمام وبين الجماهير والى القاريء نبذاً من مكارم علي بك وهباته ، وخدمته للعلم وتشجيعه للأدب[2] .

منها : أن الحكومة العثمانية اعتقلت بعض الزعماء المعاصرين لعلي بك ، لأنه تخلف لها عليه دين مقداره سبعون الف قرش[3] فارسل علي بك هذه القيمة مع معتمده ، وقضى بها دين ذلك الزعيم الذي هو من ذوي المجد الرفيع ـ كما يقول شبيب باشا ـ وأطلق اساره على بعد داره من غير أن يدعى لذلك ، فان الزعيم المعتقل لم يستغث به ، وغيره لم يتوسط بهذا الأمر ، بل كان ذلك ابتداء

---

(١) : العرفان م ٢٧ ص ١٩٥ للاستاذ جابر .

(٢) : هذه النبذ نقلها عن ديوان شبيب باشا وعن الجوهر المجرد للسبيتي بالواسطة ، وعن كتاب الشيخ محمد مغنية نفائس الحكم وجواهر الكلم ، وعن مقالات الأستاذ جابر في العرفان م ٢٧ وعن مقالات الأستاذ رضا في العرفان م ٢

(٣) : مفعول القرش في ذلك التاريخ لعله يعادل مفعول الدينار اليوم .

إحسان ، ولم يسم شبيب باشا هذا المعتقل وانما أشار إلى أنه بعيد الدار ، مما يدلنا على أنه ليس بعاملي ، وأنه من بعض الأقطار العربية المجاورة ، وانما احتفظ باسمه تشريفاً له .

ومنها : أنه قضى عن زعيم آخر خمسة واربعين الف قرش ، لأنه بلغه أنه مثقل بالديون ، وهو من أرباب المجد والشرف ، فأرسل إليه هذا المبلغ من غير استدعاء ولم يسمه تشريفاً له أيضاً وابتعاداً عن المن، وقد أشار الشعراء لهاتين المكرمتين وغيرهما ، ومنهم الشيخ علي زيدان العاملي في ميميته الرائعة ، حيث يقول :

غيث الندى ليث الكتيبة لا كمن يدعى فيحجم أو يجود فيندم
حلّ المغارم عن ذويها وانثنى طلق الجبين كأنه لا يغرم

ومنها : أنه أنفق من الخلع والهدايا في زيارة عقيل آغا الحاسي[1] شيخ عرب (الهنادي والهوارة) ما قيمته ثلاثمائة وخمسون ألف قرش ، وتفصيل ذلك : هو أن فتنةً حدثت في الديار الشامية ، بين زعيم ألاكراد شمدين زادة محمد سعيد باشا الذي صار بعد ذلك أمين الكلار ومحافظ موكب الحاج الشريف وبين عقيل آغا الحاسي الشهير ، وكان في أرض صفورية من أعمال طبريا ، وكانت الغلبة لعقيل آغا على زعيم الاكراد ، وقتل أخو زعيم ألاكراد في تلك الوقعة . ثم إن عقيل آغا تتبع فلول قوم زعيم الأكراد في حولة الشعراء وهنالك استنجد هذا الزعيم بعلي بك الأسعد ، فحشد الجيوش ، وأعد المهمات والذخائر ، وعسكر معه في أرض الخيط من أعمال صفد ، وفلل جموع عقيل آغا ، وكان كتب الى الوالي والمشير يخبرهما بالخبر ، ويستأذنهما بالحملة على عقيل آغا ، وبين لهما الكيفية ، فورد له التشكرات لما أجراه من الاهتمام والغيرة ،

---

(١) : هو عقيل آغا بن موسى آغا الحاسي ، من رؤساء القبائل العربية في مصر ، جاء هو وأخوه صالح آغا إلى الديار الشامية ، وأقام هو وقومه قبيلتا الهوارة والهنادي في بلاد عكا ، وتارةً كان يستعمل البداوة ، وتارةً يستعمل الحضارة ، وكان ينزل في بلاد طبريا ، والناصرة ، وشفا عمرو ، والغور ، ومرج بني عامر ، ومايلي تلك الجهات وغالب إقامته بأرض طبريا ، وكان الولاة يعهدون إليه في محافظة تلك الجهات ، وله من الشهرة ما يغني عن الإطناب فيه .

وأنه يكفي ما بذله في هذا السبيل ، وكأن هذا الاعتداء لا يستحق نظرهما أكثر من هذا الجزاء وقالا له ، إن الأولى بالوقت الحاضر الكف والاعتزال عن هذا النزال ، لذلك انسحب بعسكره وعاد إلى مكانه ، وبعد مدة ، وفد عليه عقيل آغا ومعه من قومه الهوارة والهنادي ثلاثمائة فارس وهو يقود حجرةً وجواداً من الخيل الجياد على سبيل الهدية ، وكان الوالي منحرفاً عنه وقد عزله عن مأموريته ، ومما قدمه لهم علبتان من الذهب مرصعتان بالماس ، وخنجران ثمينان مرصعان كذلك ، مع بعض تحف أخرى كطقومة من الكهرباء مرصعة بالماس أيضاً وكانت تستعمل لشرب التبغ في ذلك العهد ومما قدمه خمسة وسبعون سيفاً مفضضاً من أحسن السيوف ، ومائة بندقية وعدد من الطبنجا وقرابها ، وكسى كل فرد من الثلاثمائة خيّال ، بعضهم جبة وسروال من الجوخ وكفية من الحرير ، والبعض عباءة وسروال وكفية ، وقد كان أشغل الخياطين في صور وصيدا ، مع من يقيم منهم في تبنين ، في الخياطة ، فتنجز ذلك كله بسرعة ، ثم وضع ذلك كله في مكان وفوض أمره إلى عقيل آغا ، ففرقه في من معه كل بحسبه، ثم إنه التمس من الوالي وامق باشا أن يعيد عقيل آغا إلى وظيفته، فورد الجواب من الوالي فوراً بالإيجاب(1) . هذا ما ذكروه من النفقات مما هو موضع عنايةٍ عندهم واهتمام .

ومنها : أنه اجتمع في يوم زفافه سنة ١٢٦٢ هـ ألوف مؤلفة من سائر الأقطار الشامية ، حتى لا تتصور جانباً إلا وفيه من الناس جانب ، سواءً من ذوي الحضارة أو البداوة بين وجيه وأمير ، وكبير وصغير ، ولقد جمعت وليمة ذلك الزفاف ما ينوف على الأربعين ألف شخص ، وقد آل الأمر لاتخاذ جانب من الألواح الكبيرة وارساقها ببعضها حتى غدت تقل ربواتٍ من القرى في بطون الاودية هذا مع ما أعدّ لهذا الحشد من الجفان والأواني التي لا تحصى ، وقد غصت المنازل والبيوت التي أعدت لهذه الجماهير وكانت الخيام قد ضربت حتى غطت وجه تلك البقاع ، وقد أنشد الشعراء غرر القصائد ، ومنهم الشيخ صالح

(١) : ذكره في ديوان شبيب ص ٩٥ عن كتاب السبيتي وتقويمها بهذا القدر يدلنا على أن مفعول القرش يعادل مفعول الدينار ، فان في هذه التحف ما يقوم بعشرات الألوف من الدنانير ، مع قطع النظر عن قيمتها الأثرية .

الطرشيحي ، والشيخ حبيب الكاظمي وغيرهم من العراق وفلسطين غيرهما ومما قاله الطرشيحي يصف ذلك الاجتماع :

طفح الكون سروراً طفحا وهمى غيث الصفا كالمطر
وتلاشى الهم عنا وانمحى ما عهدنا في الورى من كدر
مذ أقام السعد فيه الفرحا لعلي ذي المقام الأنور
فهلموا يا بني الدنيا إليه وانظروا ما بهرت منه العقول
محشر قد جمع الناس عليه لا تفي في وصفه منا النقول

وقد مرشيىءٌ من شعر الكاظمي بمناسبة هذا الزفاف، في ترجمة (حمد البك) وقد فاض نداه على أفراد تلك الجموع فغمرهم بالصلات والعطايا من الخيل والأسلحة ، والتحف والخلع ، والنقود ، كل بحسبه ، حتى أدهشهم ، فكانوا يقولون : لو كان هذا البذل من بحر لنفذ ، فسبحان الواهب المانح المواهب [1] .

ومنها : أنه بعد وفاة المرحوم حمد البك ، جاءته الوفود تترى من جميع الأنحاء الشامية وغيرها ، تعزيه وتهنيه على قواعد الملوك والأمراء ، فخرج مما عنده من التحف ، والخيل والأسلحة والمال ، ثم قال : وقد رأيناه خرج مما عنده مراراً .

ومنها : أنه وهب فرساً من جياد خيله بما عليها من ذهب وفضة ، إلى الشيخ محمد الدوخي ، وتفصيل ذلك :

هو أنه عندما حدثت حادثة سوريا الأخيرة ، ودعته الحكومة العثمانية للإشراف على الوضع ، وذهب إلى حوران ، طفقت تفد عليه الوفود من رؤساء القبائل ، وكان إذا ركب تقاد له ستة جنائب من الخيل الجياد ، مرختة بالحلي المتقن الثمين البديع الرونق ، مسرجة بالسروج الفضية ، المحلاة بالذهب ، لا يركبها أحد غيره ، وإنما تعد له متى شاء انتقل من أحدها للآخر . وكان يركب

---

(١) : ديوان شبيب ص ٩٤ عن الجوهر المجرد للسبيتي .

الجواد الأشقر (عبيان) الذي كان يقال عنه في الجهات السورية : أنه نادر المثال عند أرباب الحضارة والبداوة .

ومما بهر تلك الوفود منظر تلك الجنائب الست ، حتى أن الشيخ محمد الدوخي وقع نظره على حجرة حمراء من جياد الخيل ، فبهت لمنظرها ، فسأل السائس عن نسبها وجنسها ، فقال له : نعامة فقابل البك ، وذكر له ما أعجبه منها ، وقال له : إن هذا الجنس المعروف بالنعامة ، لا يوجد منه في قبيلته ، فأمر البك بأن تقادله بما عليها . فأذهل الحاضرين ذلك ، وقد استلمها شاكراً مع ما كان يتحفه البك به إذا وفد عليه ، ويهديه إليه إن لم يفد .

ومنها : أنه أحضر عائلتين كبيرتين ، كثيرتي العدد ، من بعض الأمراء في بعض الديار فأسكنهما في محل إقامته ، في القصور الشامخة والقلاع الباذخة ، ويذل لهما جميع ما تحتاجان إليه ، فأقامتا في جواره أعواماً ، في سعةٍ ودعة ، ورغد عيش وهناء[1]، بعدما مالت بهم تقلبات الأحوال ورأوا ضروب الأهوال .

ومنها : أن بعض تجار بيروت العظام ، ووجهائها الكرام التمس منه أن يكون ضيفاً عنده ، وهو «م» أحد المشهورين من أعيان الطائفة المسيحية ، فالتفت إليه البك يوماً وقال ، يا فلان ، حيث أنك في حال سعة يقتضي أن توسع دائرة منزلك ، لأن ذلك من المقتضيات المستلزمة ، فقال : نعم ، ولكن البناء يلزمه نفقات نقدية ، وأموالنا فعلاً مشغولة بالتجارة ، وعن قريب إنشاء الله نفعل ذلك . فقال البك : لا عذر لك ، ثم استدعى البك خادمه بعد تلك الجلسة ، وأمره بأن يدفع له أربعمائة ليرة ذهباً ، وقال : قل له إن هذا هو المصرف اللازم لما قاله لك . وهو يهديك إياه على سبيل رفع التكليف . فأتاه الخادم ودفعه إليه ، وكان يجهل الأمر فقال صاحب البيت للخادم ، بعد أن أعلمه القصة ، أنا على كل حال غريق بحر منن البك ، ومكارمه ما زالت

---

(١) : من الواضحات أن نفقات الأمراء غير نفقات سائر الناس ، وأن نفقه عائلتين كبيرتين منهم تكفي ألوفاً من العوائل العادية ، ولم يسمّ الرواة هاتين العائلتين ابتعاداً عن المن وتشريفاً لهم .

متواصلة علي ، ويبقي أعده من أملاكه فقط ما كان الآن لزوم لهذا ، وانما عطية الكريم لا ترد[1] .

ومنها : أن الشيخ عباس القرشي النجفي[2] كان يقول قبل اتصاله بعلي بك الأسعد :

ألفتُ عسكري حتى لا يفارقني كعاشقٍ لم يزل إلفاً لمعشوق
وما فؤاد ام موسى يوم فارقها موسى بأفرغ من كيسي وصندوقي

وقد وفد على علي بك، فأنس بوافر أدبه، وسعة اطلاعه، واحاطته بفنون اللغة والآداب ، فغمره بالعطايا ، ولم يسمح له بمبارحة ديوانه في حصن تبنين ، فاختلس الشيخ فرصةً سانحة ، وفرّ من القلعة ، تاركاً في الغرفة المتخصصة له رقعة كتب فيها هذين البيتين ، وهما مشهوران على ألسنة العامليين ، كاشتهار الحكاية عند متأدبيهم :

زرت ابن أسعد فانهلت أنامله علي من جوده كالوابل الغدق
ثم انصرفت بلا إذن ولا عجب اني خشيت على نفسي من الغرق

ومنها : أنه أنعش خلقاً كثيراً من مصابي المسيحيين ، عندما ثارت الحرب بينهم وبين الدروز في حادثة سوريا الأخيرة سنة ١٢٧٧ هـ فانه نقل كثيراً منهم من حاصبيا وراشيا ولبنان وغيرهما ، إلى بيروت ، وصيدا ، وصور ، وتبنين .

تشجيعه للعلم والأدب :

هذا الشيخ محمد مغنية العاملي يحدثنا في كتابه الخطي[3] فيقول عند ذكر

---

(١) : ديوان شبيب باشا عن الجوهر المجرد للسبيتي ص٩٨ ، وكذلك ما أسلفناه .

(٢) : الشيخ عباس هو أحد مشاهير أدباء ذلك العصر ، وهو أحد خريجي مدرسة جباع في جبل عامل ، وكان قد سكن مدة في الأستانة ، وكان يتولى تحرير جريدة « الجوائب » ويصحح لغتها ، وكان في فقر مدقع ، مع ما كان عليه من الكمال ، فلما اتصل بعلي بك أصبح على عكس ذلك . العرفان م ٢ مقالات رضا .

(٣) : المسمى نفائس الحكم وجواهر الكلم ، الذي يعتمده الأمين في أعيان الشيعة ، نحن ننقل منه بواسطته ، وقد ذكر هذا في ج ١٦ ص ٧٦ وقد حدثني حفيده الأستاذ أحمد مغنية النجل الثالث =

الشيخ جعفر مغنية المتوفي سنة ١٢٨٣ هـ : فاستدعاه الشيخ محمد علي بن الشيخ يوسف خاتون ، من أجلاء علماء جبل عامل ، وكان ذا جاه طويل عريض ، لاتصاله بأمير جبل عامل حمد البك ، مع كونه من بيت علم كبير قديم ، فأراد أن يفتح مدرسة في جويا على طريقة آبائه وأسلافه فاستدعى المترجم ورتب له معاشاً سنوياً ، إلى أن قال :

ثم استدعاه أمير جبل عامل علي بك الأسعد إلى قلعة تبنين لتعليم أولاده وتهذيبهم وهم : شبيب باشا ، وناصيف باشا ، ونجيب بك ، ومعهم جماعة من الطلبة ، منهم الشيخ موسى شرارة ، فبقي على تلك الحال إلى أن أصابتهم النكبة ، وأخذوا إلى صيدا ثم الى بيروت ، ثم الى دمشق ، وتوفي علي بك وابن عمه محمد بك في دمشق بالوباء سنة ١٢٨٢ هـ إلى أن قال : وكنت سنة ١٢٨٣ هـ سكنت صور وتزوجت بها ، فرتبت له من مالي معاشاً سنوياً ، ووضعت عنده ابن شقيقتي السيد نجيب ابن السيد محي الدين فضل الله الحسني ، وابن ابن أخي يذاكر بمسألة ، لأنه بعد نكبة العشائر انقلب موضوع العلماء ، خصوصاً حينما جددت رواتب على الأرض ، وحصلت التسوية بين الجميع ، وكان قبل ذلك يوجد اقطاعات كثيرة للعلماء ، وذوي البيوت ، فأهل البيوت التزموا أمر معاشهم ، وهجروا الدرس ، وصار نسياً منسياً ، خصوصاً جبع . فبعدما كان سوق الدرس فيها عامراً ، وإليها الرحلة ، أصبحت هي وغيرها كأن لم نكن. انتهى ما أردناه .

ونحن إذا درسنا هذه الكلمة فهمنا منها لأول نظرة أن حياة علي بك الأسعد كانت حياة للعلم والأدب ، وانهما ماتا بموته ، وفهمنا ان الزعامة ليست رهبة وهيبة وسطوة وانما هي دعة وسعة وفضل واحسان ، وحماية للعلم والعلماء .

قلت : وقد كنت استغرب التفاف العلماء حول شبيب باشا ابن علي بك

= للمرحوم الشيخ محمود مغنية ، أحد أعلام عاملة وأدبائها أن كتاب جده الشيخ محمد يبلغ مجلدين ، وان بعض الأدباء استعاره منهم ولا يزال يماطل فيه .

الأسعد بعد عودته من الأستانة ، ولكنني بعد ما لاحظت هذا الموضوع وجدته يستحق ذلك . ووجدت العلماء مدينين لأبيه ، وهم اولى الناس بتقدير الفضيلة وبالمكافأة عليها .

العلم والأدب في عصر حمد البك وعلي بك

يقول الأستاذ الشيخ أحمد رضا[1] :

وقد نمى الأدب في عصر حمد البك نمّواً باهراً ، حتى اشترك فيه العوام وبرع منهم رجل إسكافي ، يدعى أحمد حرب ، كان يحفظ البدائع ، وكان يروي روائع الشعر ، وكان بيته كعبةً للأدباء .

ويقول أيضاً : أنه رأى له قصيدة في مدح حمد البك ، وأنه لم يحضره منها شيء ساعة كتابته ، وأنه لا يحفظ له سوى بيتين يخاطب بهما أحد أصدقائه وقد وعده وأخلف وعده ، وهما :

وعدتَ قلبي بوعدٍ غير منتجز حاشا لمثلك أن يوفي بما وعدا
وعد تَماطل لا يوفي وان وقعت أم السماء وقام الدهر أو قعدا

واشتهرت في الأدب بعد ذلك امرأة في بنت جبيل ، تدعى منى ، كان لها في نقد الشعر خبرة حسنة ، وكان لها في معرفة النجوم ومبادىء الهيئة حالة مقبولة ، وكانت تجالس الأدباء ، وتساجل الشعراء من وراء حجابها ، وكانت روايتها للشعر ، وحفظها لجيّده ، تدل على مكانتها الأدبية .

وكان محمد علي بن عبد النبي من حنوية ـ بلدة قرب قانا الجليل ـ مع جنونه المطبق ينظم الشعر فيجيده ، ومن ذلك قوله :

الهجر شأنك والتبريح لي شان والحسن عندك لكن ليس إحسان
ما سُرّ قلبي بوصل منك آونةً إلا وأعقبه هجر وسلوان
إن نار قلبي حكت نار الخليل فقد جرى لنوح بجفني منك طوفان

---

(1) : العرفان م٢/٣٨٨ .

ناديت ربعك لما أن مررت به وهاج لي منه أتـراب وأشجان
قد كنت معهد آرامٍ بهم علقت أيدي الفراق فقل لي أين هم بانوا

وقد كان في ذلك العصر مساهمة حسنة لربّات الخدور في المعارف والآداب .

فقد لمعت منى ـ من بنت جبيل ـ كما تقدم ، ولم يكن قرض الشعر عند آل علي الصغير مقصوراً على رجالهم ، بل تعداه إلى السيدات من نسائهم وكريماتهم وكن يدرسن النحو ، والصرف ، والبيان ، والأدب ، فينبغ منهن شاعرات فاضلات .

كالسيدة فاطمة كريمة أسعد بك الخليل ، أخت خليل بك الأسعد ومحمد بك الأسعد ، وعمة كامل بك الأسعد ، وعبد اللطيف بك ومحمود بك وهي زوجة علي بك الأسعد بن أسعد بن محمد البك بن محمود النصّار[1] .

ومنهن : السيدة زينب كريمة علي بك الأسعد ، والدة الزعيم الشاعر محمد بك سهيل قائمقام راشيا اليوم[2] .

ومنهن : الأديبة التي لمعت في عصرها في مصر وسوريا ، زينب محمد علي فواز ، من بلدة تبنين ـ مقر زعماء البلاد في وقتها ـ ومن شعرها الذي تبكي فيه بلدها تبنين ، وتندب الزعماء الذين كانت تعيش في رحابهم ، قولها :

يا أيها الصرح إن الدمع منهمل فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
وهل بقي منك من ينعى معي فئة هم المغاوير في يوم الوغى الأول
قد كنت للدهر نوراً يستضاء به أخنا عليك البلى يا أيها الطلل
كم زينتـك قدود الغيـد رافلةً بالعز تسمو ووجه الدهر مقتبل
أبكيك يا صرح كالورقاء نادبة شوقاً إليهم إلى أن ينتهي الأجل
قد كنت مسقط راسي في ربى وطني إن الدموع على الأوطان تنهمل

(١) : وقد ترجمت لها الأديبة زينب علي فواز التبنينية في كتابها المطبـوع المشهور (الـدر المنثور في طبقـات ربات الخدور) .

(٢) : من مقالات محمد جابر في العرفان م٢٧ ص١٩٧

تبنين إن كنت من بعدي على حزن فاليوم يوم رجوع القلب يشتعل
وقفت وقفة مشتاق به شغف علّي أرى اثراً يحيا به الأمل
إذا الأحبة قد سارت رحالهم فزاد شوقي كما قلّت بي الحيل
فالنفس شاكية والعين باكية والكبد دامية والقلب مشتعل
أعلا هيووست[1] أبراجاً لها عجب تصارع الدهر لا ضعف ولا كلل

وبالطبع ، إن هذا الشعر كان بعد وفاة علي بك الأسعد سنة ١٢٨٢ هـ وبالطبع إن هذه الشاعرة استطاعت الرحيل إلى مصر واستطاعت تأليف كتابها واستطاعت طبعه بفضل ندى أرباب تلك القصور ببقايا حليها المرصع بالأحجار الثمينة التي كانت تتلقاها من سيدات القصر بالمناسبات الموجبة لذلك من الأفراح والأعياد .

صورة موجزة عن حياة الأديبة زينب فواز العاملية

هي زينب ابنة علي بن حسين بن عبد الله بن حسن بن ابراهيم بن محمد يوسف فواز .

ولدت في تبنين التابعة لقضاء صور ـ في ذلك العهد ـ من جبل عامل لها ديوان شعر كبير لم يطبع ، ومن جيد شعرها تشطير هذين البيتين:

أمنت إلى هذا وذاك فلم أجد من الخلق من أرجوه في عالم الحس
وما رمت من أبناء دهر معاندٍ أخاثقةٍ إلا استحال على العكس
فأيقنت أن لا خلّ في الناس يرتجى من الناس حتى كدت ارتاب من نفسي
واصبحت مرتاباً بمن شط أودنا وان كان في المريخ أو جبهة الشمس

ولها :

فمن ذا الذي في الناس ينظر حالتي ولا يلعن القرطاس والحبر والقلم

ولها مقالات كثيرة منشورة في الصحف والمجلات ، ولها مؤلفات

---

(٣) : اسم باني القلعة . وقد نقلنا هذه المقطوعة من العرفان م٢ ص٢٨٩

منها : الدر المنثور[1] في طبقات ربات الخدور، مطبوع ، جمعته من أربعين كتاباً ، عدا ما التقطته من الصحف والمجلات .

ومنها : الرسائل الزينبية . جمعت فيه أقوالها ورسائلها بحسب الظاهر .

ومنها : ثلاث روايات أدبية ، وهي : حسن العواقب، والهوى، والوفاء ، والملك قورش .

ومنها : كتب أخرى لم تطبع حتى آلان[2] ، وهي كتاب مدارك الكمال في تراجم الرجال والجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد .

وقد كلفتها بعض صويحباتها أن تنظم لها تأريخ ولادتها الذي كان سنة ١٢٨٤ لتضعه في لوحٍ من ذهب ، وتجعله في ضمن حليها ، فقالت :

زها مطلع العليا بشمس منيرة سمت أفقاً تروي المعالي مكارمه
وجاءت باقبالٍ فقلت مؤرخاً آلا وافت البشرى بميلاد فاطمة[3]

قلت : زينب فواز من بلدة تبنين ـ قضاء بنت جبيل ـ من جبل عامل قرب بلدتنا حاريص ، ويقال أنها كانت في عهد علي بك الأسعد تعيش في القلعة مع عقائله ، وأنهن كن يقرضن الشعر ، وانتكبت بنكبة آل الأسعد وهاجرت لمصر واتخذت الأدب والتأليف حرفةً لها .

وبعد الوصول إلى هنا عثرنا على بعض شعر علي بك الأسعد

(١) : لا ندري ما إذا كانت ألفت هذاالكتاب في القلعة واعتمدت في مصادره على مكتبة علي بك وحمد البك ، أو في مصر ذلك شيء لانعرفه فعلاً .
(٢) : الكلام للكتاب الذي نقل منه .
(٣) : نقلت هذه الترجمة عن كتاب بلاغة النساء في القرن العشرين ، تأليف فتحية محمد ، المطبوع في مصر (مطبعة السعادة) ص ١١٤ والكتاب غير موجود عندنا فعلاً .

عينية علي بك الأسعد (1)

خليلي ما هذا الجفا والتقاطع ... وماذا التنائي والدموع هوامع
رعيت سوام اللحظ في زهرة الدجى ... فما بان لي للنيرين مطالع
ولم ار غير الفرقدين واختها ... العميصا تعاطيها الرضا فتمانع
سلوا مهجتي الحرا ودمع تذيبه ... بعين واخرى للديار تطالع
فانسانها يرنو الى ربواتكم ... كأن له في الرقمتين ودائع
اقلب فكري بالتداني فلم أجد ... سبيلاً وداعي البين بالبعد صادع
كوى الدهر أحشائي من البحر وانثنى ... علي بسهم أو ترته النوازع
متى نلتقي يوماً بتبنين حامل ... وتبصرهاتيك الليالي رواجع
أأنسى لييلات اديرت كؤوسها ... علينا واقداح السرور فواقع

نعمت صباحاً ربع تبنين واغتدت ... بك العين والآرام وهي رواتع
يقولون عذالي اما آن ان يرى ... فؤادك من بين الأخلاء هاجع
تذكرت هل يجدي العواذل عذلهم ... وهل يصنع المحبوب ما أنا صانع
لي الله كم عهد رعيت وذمة ... حفظت وود أخبثته الاضالع
وكم ليلة أحييتها وجفونكم ... غريقة نوم أهنئتها المضاجع

(1) : يقول شبيب باشا في ديوانه: وقفت في هذا الوقت على قسم من القصيدة العينية المشروحة التي شرحها السبيتي التي عدد ابياتها مائة وثلاثون بيتا الى ان قال فرأيت اثبات هذا القسم الخ.

خليلي اني كلما ذر شارق　　شرقت بماءٍ أسبلته المدامع

ومنها .

فما أنا عن عهد الأقارب معرض　　ولا انا عن وصل الأخلاء راجع
سموت بأبآء كرام شعارهم　　بناء المعالي حيث كيوان ساطع
لهم شرف يسمو على هامة السها　　ومجدهم فوق المجرة طالع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم　　تمائمه البيض الرقاق القواطع
هم مهدوا من عامل كل صعبة　　وهم شيدوها والرماح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنا　　وفي همم تندك منها القوارع
وهم لذوي الآمال كعبة آمل　　وعند لقا الأعدا رياح زعازع
وهم في الوغى آساد كل كريهة　　وفي السلم بالجدوى غيوث هوامع
وايامهم من عهد عادٍ شهيرة　　وفي كل عصر هم بدور طوالع
مناقب لا تحصى لهم ومآثر　　شذا عرفها في الهند والصين ضايع
رعوا ذمم العلياء بالهمم التي　　اليها جميع العاملين خواضع
وكم شامخ العرنين أضحى مذللاً　　لدينا وكأس الذل والحتف جارع
نروي القنا في يوم معترك اللقا　　وبتارنا في هامة الضد راكع
وان طلب المعروف والفضل طالب　　اشارت الينا بالأكف الأصابع
ورب امرىء اودى الغرور بنفسه　　فسيق لما قد ساءنا وهو جازع
وجر عنان الغي منه تبختراً　　ورام التي منها تطير القنازع
فكان عثوراً قد كبا بغيه به　　وضاق به رحب الفضا وهو واسع
الم تعلم الأقوام اني فتى الوغى　　وبدر إذا ما اظلم الخطب طالع
واني من القوم الكرام ذوي العلى　　ليوث قراع مالهم من يقارع

ومن شعره :

وإن دافعتهم من زمان صروفه　　يعاضدهم عون من الله واقع
وفي جبهة الأيام خطت مآثر　　لنا سطرتها في الدهور الوقائع
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنا　　فليس لنا عند الفخار منازع

انتهى ما تيسر لنا منه

وله في قصيدة اخرى :

الا بلغي يا ريح عني تحية يعطر ارجاء الربوع عبيرها
وبثي رعاك الله شكوى اخي جوى لسلمى غدا يشتاق وهو اسيرها
وقولي لاحباب تناءت ديارهم وشطت مغانيهم وبانت قصورها
أخذتم فؤادي جفوة ومنعتم رقادي فهل عن قلبي الغداة سعيرها
أما آن أن يطوي النوى شقة النوى وتشرق من اعلام نجدٍ بدورها

ومنها :

واني وإن هز التصابي معاطفي فلي همة في المجد عز نظيرها
رميت ذوي العدوى علي بأسهم اصيبت بها اكبادها ونحورها
ألم تعلم الأقوام ان بني العلى اذا اشتورت في الخطب اني مثيرها
وان اظلمت آراؤهم في مهمة فإني ورب الراقصات منيرها
وما كل من رام المعالي ببالغ معارج عزٍ بان عنها سريرها
وهل للقطا شأو البزاة فان سطت فهل ليعاقيب مجير يجيرها
ومن اين للعرفاء عزماً موفقاً اذا ما بدا من أسد غاب زئيرها
وهل يمرح اليعفول في غيل باسلٍ ويرقى الى اوج المعالي بعيرها
وهل لسنان اللهذميات نسبةً بابرة مساس براها كفورها
وهل لجبان القوم اقدام أشوس اذا خمدت نار الهياج يثيرها
جلى مدلهمات الشدائد عزمه ويدد بالرأي السديد خطيرها
فقل لبني الأعمام ان فتاكم طبيب بادواء الرجال خبيرها
فديتكم من كل سوءٍ فهل لكم سواي فتىً حامي العلى ومجيرها
فكم ليلة قد جن غيهب دجنها تقضت وفكري في الأمور سميرها
فما انكشفت إلا وبان لناظري طوالع اقبالٍ تبلج نورها
بني عمنا من آل فهرٍ ووائلٍ حماة العذارى في الهياج وسورها
نشدتكم هل موقفي كان هيناً لدى الحضرة العليا التي عز طورها
فكم طخية صماء رضت صعابها وواهية وهما اقيل عثيرها

وقد كنت كالضرغام يحمي عرينه اذا ما اكفهرت في الهياج امورها
وكنت لكم ازهو افتخاراً على الورى وسقيا العدى من راحتي قمطريرها
ففينا بني الأعمام عز ومنعة لعاملةٍ او لا مجير يجيرها

وفي قصيده اخرى لامية :

لقد انحلتني غادة وائلية بديعة حسن لا تقاس بأمثال
رمتني بلحظ يكلم القلب والحشا بحدٍ له امضى من الهند فصال
تعشقها والعالم الله انني الى جانب الفحشاء لست بميال
شكوت لها ما بي من الضر والجوى وما حل بي من عكس حال الى حال
فقالت دع العتبى وحقك لست في سوى حبكم والله علقت آمالي
ابيت ولى قلب يقطعه النوى ونار باحشاء تهب باشعال
فذاكرتها عهد المودة والولا وما كنت عن عهد المودة بالسالي
رعى الله عهدي للحبيب وعفتي وصفواً لنا قد مر في الزمن الخالي
وايامنا تزهو سناء وكهفنا رفيع الذرى سامي على كل مفضال
عميد بني الدنيا ومردي كماتها بأبيض بتار واسمر عسال
هو البحر لكن ماءه ساغ ورده لك الله كم يولي نوالاً لأمآل
هو الحمد المحمود من كل وجهة فأكرم بفعال الجميل وقوال
أقول لمن ظن الفخار بماله عليك العفا ان العلى ليس بالمال
ولكنها بالمشرفية والقنا وبالكر في الهيجا على ظهر صهال
لقد حازها من فاح في الكون ذكره وجر على الجوزا مطارف اذيال

انتهى

التعريف بمصادر جبل عامل في التاريخ

المصدر الأول ـ المقدمة المخطوطة

وهي رسالة تقع في ستة وثلاثين صحيفة بقلم خالنا الفاضل الثقة الورع الوجيه الشيخ حسين سليمان العاملي البياضي، المتوفي في اواخر جمادي اولى سنة ١٣٦٠ هـ الموافق سنة ١٩٤١ م ولعل ولادته كانت في حدود سنة ١٢٨٧ هـ لأنه ناف على السبعين حسبما اظن .

كلفته بتدوين موجز ما يعرفه من تاريخ بلادنا ، وإنما فعلت ذلك لأنني اغتنم مجالسه واستمع احاديثه ، واعلم أن عنده بعض المخطوطات ، وكانت احاديثه وكلها مفيدة تشمل احياناً على نبذ من تاريخ العلماء والزعماء والصالحين .

وفي سنة ١٣٥٤ هـ ارسل إلي من لبنان في البريد الى النجف الاشرف كراسة تقع في ستة وثلاثين صحيفة فرغ من تحريرها ضحى الجمعة في ٦ من شهر ربيع الانور ١٣٥٤ هـ الموافق ٦ حزيران سنة ١٩٣٥ م .

وقد افتتح هذه الرسالة بقوله قدس الله روحه ، ونور ضريحه :

بسم الله الرحمن الرحيم . وبه اتقي وبه استعين ،وعليه اتوكل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

إنسان ناظري ، الولد الأعز ، العلامة البارع النبيه ابن الشقيقة التقي من آل الفقيه ، وفقه الله تعالى لمراضيه .

السلام عليك بقدر ما ضمه الجنان من الشوق اليك ، ورحمة الله ورضاه وتوفيقه .

سألتني عن بلادكم وبلادنا جبل عامل ، وعن مجد تاريخها فسأتلو عليك مختصر ما أعرفه .

ان تقلبات جبل عامل ، والشام ، وفلسطين ، وحروبهم والكوائن التي جرت عليهم يطول المقام بذكرها .

وقد ذكر اهل التواريخ الطويلة كثيراً من احوال بلادنا ولكن الغالب على الظن ، ان احوال جبل عامل في هذه الثمانماية سنة كلها هموم وبلايا ، فلا يرتاح اهلها في كل مدة من الزمن الامدة صغيرة قصيرة . ثم يكون الحرب بينهم ، وان العثمانيين لم يملكوها من اول امرهم ، بل في سنة خمسماية وعشرة كانت صور خراب ، والبلاد أكثرها خراب ، قليل العمران ، ثم صارت البلاد تجد العمران ولكن ما يلبثون إلا مدة ، وتكون الحروب اما بين الدول لتملكهم ، واما بينهم ليأكل بعضهم بعضا ، وسأتلو عليك مختصراً بأوجز ما يكون من جملة ما وجدناه عندنا في بعض المخطوطات .

قال : صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف سنة الف وثمانية واربعين يعنى هجرية .

قلت : سنذكر عن قريب رسالة السبيتي ، وسترى ان ما ذكره الخال هو اولها ، ولكنه رحمه الله اختصرها فاختار منه نحو صحيفتين .

واتمنى لو توفقنا لنقلها من صورتها التي كادت ان تبيد وان نطبعها ملحقة بكتابنا تعميما للفائدة ، وصيانة لهذا المصدر من الضياع.

المصدر الثاني ـ جبل عامل في قرنين .

وهو يبتدىء بسنة ١٠٤٨ هـ وينتهي في سنة ١١٥٦ هـ وقد عنونه صاحب العرفان بـ: جبل عامل في قرنين مع انه يشتمل على مختصر هذه الأحداث في قرن وثمان سنوات لا غير .

وقد استنسخ لنا هذا الكتاب ابن شقيقتنا الأستاذ منيف الفقيه ، بأمر خاله العلامة الشيخ علي الفقيه اخي الاكبر ، عن نسخة بخط السبيتي وجدت في مجموعة عند عبد الخالق الفقيه من بلدة حولا الواقعة بين شقراء ومرجعيون، قريب الطيبة وهي اليوم تكاد تتصل ببلدة مركبا .

وهذه النسخة تشتمل على فائدة مهمة ، فان السبيتي قال من أولها :

وجدت في بعض مجموعات اصحابنا : صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف سنة ١٠٤٨ هـ

وقال في آخرها :

ثم ما عثرنا عليه من مجموعة المرحوم المقدس استاذنا الشيخ علي مروة وبهذه الكلمة تنتهي هذه الكراسة .

وعليه يكون هذا الكتيب من مرويات مروة أو مؤلفاته ، لا من مؤلفات السبيتي ولا انه يرويه عن غير مروة .

وقد وجدنا اختلافاً يسيراً بين نسخة الفقيه ونسخة العرفان ، وكنا نشير اليه عندما ننقله من هامش الكتاب وقد نقلناه برمته بحسب المناسبة في هوامش كتابنا هذا

المصدر الثالث:

لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني تـأليف الشيخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي الطبعة الأولى سنة ١٩٣٦، شرع فيه بذكر الحوادث الواقعة في اثناء سنة ١٠٢١ هـ الف واحدى وعشرين هجرية وينتهي منه بسنة ١٠٤٣ هـ الف وثلاثة واربعين هجرية ، وكان هذا المؤلف كما يظهر يصحب الأمير فخر الدين غالباً ويدون الحوادث في وقتها .

المصدر الرابع :

تاريخ الأمير أحمد حيدر الشهابي، المسمى بـ: الغرر الحسان في تـواريخ

الحوادث والازمان ، طبع سنة ١٩٠٠ م الف وتسعماية ميلادية في مصر ، وكان الفراغ من تبييضه في ١٥ حزيران سنة ١٩٠١ م .

وفيه اغلاط تاريخيه بالنسبة لما يتعلق بجبل عامل يعرفها الباحث بعد مقارنة هذا المصدر بما تضمنه غيره .

المصدر الخامس :

العقد المنضد المطبوع سنة ١٣٠٩ هـ الف وثلاثماية وتسعة هجرية .

وهو ديوان المرحوم شبيب باشا الأسعد ابن علي بك الأسعد وقد قدم له مقدمة تتضمن بعض ما يتعلق بآبائه تقع في نحو ماية واربعين صحيفة وبعض منها منقول عن كتاب الشيخ علي السبيتي الذي الفه لشرح عينية علي بك الأسعد وبعضها الأخر منقول عن كتاب الشيخ محمد مغنية ، وكلا الكتابين مخطوطان ولعلها مفقودان .

المصدر السادس :

جبل عامل في قرن للركيني ، وقد نشر من مجلدات العرفان القديمة ، وهو من أكثر الكتب فائدة في هذا الباب ، واتمنى لو طبع مستقلاً .

لأن هذا الكتاب يحتوي على حوادث جبل عامل في كل يوم تقريباً تتعلق بالزعماء والعلماء والحجاج والمزروعات والأسعار والوفيات بل والمواليد في بعض الأوقات .

جبل عامل في قرنين[1]

وبعد هذا نقدم للقارىء أول مصدر من مصادر تاريخ جبل عامل ، وإذا تمكنا في الطبعات المقبلة فسنضيف إليه المقدمة التي بقلم الخال وجبل عامل في قرنين للركيني .

صارت وقعة انصار من بلاد الشقيف سنة ألف وثمانية واربعين، وسنة الف وسبعين كانت وقعة عيناتا وفيها جاء جراد عظيم وقلت الحبوب حتى اكلت الناس العظام وبيع المدبقرش واحد وفيها صارت صيدا باشاوية، وسنة الف وسبعة وسبعين كانت وقعة النبطية وانتصر المشايخ وسنة ٧٨ كانت وقعة وادي الكفور وسنة واحد وثمانين صار موت عظيم وسنة اثنين وثمانين صار رخص عظيم بيع الشعير غرارة ونصف بقرش وسنة الف وماية وتسعة ركب الأمير بشير على بلاد بشارة ومسك مشرف من المزرعة وبنى عين الدروز قرب جوية، وقتل حسين العمر وصفا له الحكم في بلاد بشارة. وسنة الف وماية وثلاثة عشر القي القبض على علي منصور ومحمد بزيع في انطاكية وسنة اربعة عشر توفي مشرف في قضاء صيدا وسنة سبعة عشر صار زلزلة عظيمة اياما متعددة وسنة ألف ومـاية وتسعة عشر سليمان باشا حرق حاصبيا وسنة الف وماية وثلاثين قتل الشيخ

(١): مختصر حوادث تاريخية للمرحوم الشيخ علي سبيتي المؤرخ اللغوي الشهير وهي مع اقتضابها لا تخلو من فائدة تاريخية فلذلك آثرنا نشرها ـ العرفان .

يونس من العلماء قتله الأمير حيدر وسنة ألف وماية واثنين وعشرين القى القبض عثمان على الشيخ عبد السلام الحر وعلي منصور وتوفي الحاج محمد بـزيع . وسنة الف وماية وثلاثة واربعين توفي الشيخ عبد الله نعمة وسنة الف وماية وسبعة واربعين صارت وقعة انصار مع الأمير ملحم بن الأمير حيـدر واسر من الشيعة الف واربعماية ومات في الكنيف في بيروت وفكت الأسرى وكانت الوقعة بفتوى الشيخ نوح حكم تاريخها في الحامدية وسنة الف وماية وستة وخمسين صارت وقعة مرج قدس مع سليمان باشا ابن العظم وتوفي الباشا قبل الحرب فكفى الله المؤمنين القتال وقيل في ذلك تاريخ شعر:

قـالت الـدنيـا الغـرورة مـات سلمـان النجيب
قلت في التـاريـخ كفي مـوتـه فـرج قـريـب

وفيها ركب الأمير ملحم على انصار ثانيا وقتل من الفريقين اكثر من الف قتيل ونهبت انصـار، وسنة سبعة وخمسين كانت وقعة في مرج عيون بين الدروز والشيعة وكانت الغلبة للشيعة، وسنة الف وماية وثلاثة وستين شرعوا في عمارة القلع في تبنين وهونين ودوبيه وشمع واقتسموا البلاد فكانت لعباس العلي صور ولناصيف تبنين ولقبلان هونين وسنة الف وماية وواحد وسبعين جاء اسعد باشا العظم الى رأس العين فنهب وحرق قرايا الساحل. وسنة الف ومائة وثلاثة وسبعين صارت زلزلة اهلكت قرايا ومدنا وسنة الف ومائة وثمانين كانت وقعة طربيخا مع ظاهر العمر وانكسر ظاهر وقتل منه مائة قتيل ونهبت منه خيل ومن الجملة فرسه البرصاء. وسنة اربعة وثمانين ركب عثمان باشا على بلاد بشارة وعسكر على جسر بنات يعقوب في الأردن فلاقاه ظاهر العمر مع ناصيف وكسروه وقتل من اصحابه ثمانية آلاف غرقا في بحرة الحولة وتسمى وقعة البحرة وكسبوا من العسكر شيئا وفي تاريخها قيل سم هم غم . وركب الأمير يوسف على بلاد المتاولة من صيدا الى جبع وصارت الوقعة في كفررمان الى جرجوع وقتل من الدروز ثلاثة آلاف وفي سنة ستة وثمانين صارت الوقعة في صيدا بين المتاولة والدروز وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتاولة خمسة عشر رجلا وكان مع الدروز الوالي خليل والجزار. وسنة تسعة وثمانين جاء ابو الذهب الى يافا حاصرها

ففتحها وركب على صفد فهربت حكامها وواجهه ناصيف في عكا وأمنه فرجع الى بلاده فما كان إلا شهر واحد حتى جاء حسن باشا فحاصر عكا وقتل ظاهر العمر فيها. وفي سنة واحد وتسعين حكم الجزار في عكا وصارت باشاوية ففتح دير حنا فهرب منه علي الظاهر فاخذ اخوة علي وحبسهم في عكا فرجع حسن باشا واخذهم الى القسطنطينية وبعد ذلك عسكر علي الظاهر في علما من بلاد صفد فركب عليهم الجزار عسكرا وباتت الغلبة على العسكر ثم عسكر في ديشوم فارسل اليه الجزار عسكر برسم انهم قبسيس ليخدموا عند علي الظاهر فقتلوه واخذوا رأسه وهربت فرسه الى صلحا. وبعد الواقعة احضر ناصيف جثته ودفنه في عيناتا وسنة الف وماية وواحد وتسعين ركب الجزار باشا على صيدا وكبس مزارع اقليم الخروب حتى وصل جون وروم ونهب ديز المخلص وصار جراد عظيم فغلت الأسعار فبيع مد القمح بغرش وخمسة والرز بقرش وربع والشعير مد إلا ربع بقرش وسنة الف وماية وثلاثة وتسعين ركب ابو حمد على عرب عنزة فقتل هو وابن أخيه قاسم المراد ومعهم ماية فارس على نهر الرقاد في الجولان فركب ناصيف من تبنين فهربت العرب فلحقهم للرمثا وقطع البرية ففاتوا هربا فرجع فوجد ولدين صغيرين في الحارة لفاضل المهنا كبير العرب مريضين في الجدري فخلع عليهم ورجع للبلاد. وفي سنة خمسة وتسعين ارسل الجزار عساكرا الى حاصبيا فجاء الى يارون فظن اهل بلاد بشارة ان العسكر يريدهم فحضر ناصيف وصارت وقعة ناصيف وخربت البلاد وقيل ان عسكر الجزار حضر البلاد بواسطة صاحب قلعة هونين وصار قتل ناصيف بواسطته وظن ان البلاد تصفى له فلم يبقِ على احد منهم وفي سنة سبعة وتسعين جمعوا وحشدوا وكان المدبر الشيخ علي زين صاحب شحور فرأسوا حمزة من بيت علي الصغير ونهضوا إلى تبنين فقتلوا المتسلم وهرب الكاتب من بيت الأيوب واخذ الدفاتر الى صيدا الى الجزار فأرسل عسكراً الى شحور فقتل مقتلةً عظيمة وأخذ الأسرى فصلب حمزة بالخازوق وفكوا الأسرى فهربت بيت الزين مع اولاد ناصيف الى الشام وتلددوا هناك خفية فقدر الله أن الجزار حكم الشام ايضاً فهربوا الى العراق ونزل اولاد ناصيف على حمد الحمود كبير خزاعة وفي ذلك الوقت صار حرب بين خزاعة وثامر الحمود شيخ عرب المنتفج وظهر من اولاد ناصيف كل شجاعة واقدام

وخلص الشيخ علي زين أحد أهل شحور إلى الهند وصار وزيراً لأحد ملوكها ونال عنده رتبة. وحين ملك الانكليزهناك هاجر الى بلاده وفي سنة الف ومأتين وثمان فتك الجزار بأهالي بلاد بشارة وقتل منهم جماعة خنقا في الحبس منهم سلمان البري وكفل البلاد لأهلها حتى كان سنة مأتين وتسع حضر ملك فرنسا الى مصر وملكها ثم الى عكا وهدمها على الجزار سنة الف ومأتين واثنا عشر ودخلت سنة ثلاثة عشر فرحل الفرنسيس بعد ما هدمواعكا. ولما رأى الجزار اهالي البلاد من بلاد عكا وجبل عاملة يحضرون الحطب والدجاج والبيض وسائر الأمتعة للافرنج كفر بهم بعد ذهاب العسكر وأهلكهم قتلا وحبسا مع الاعمال الشاقة من حفر وبناء حتى اهلك الحرث والنسل ومع ذلك كان يعذبهم في الحبوس بتسليط الكلاب والقطاط والمكاوي وضرب مقارع الحديد وكان له معذبون كراد وعليهم رئيس يسمى الشيخ طه يزيدي يقول بروح الشر وان المعظم هو الشيطان ويسوء من سمعوه سب الشيطان لا سيما وهو كلمة خفيفة على ألسنة العامة وكان من يأمر الجزار بقتله لا يقتل بدون عذاب متى تزهق نفسه وبقي الحال في شدته الى سنة تسعة عشر فهلك الجزار وخلفه سليم باشا أحد اهل مماليكه فالتاث عليه الجند وقتلوه ونصبوا سليمان باشا بعد تشريده من سليم باشا أحد اهل مماليكه. واستوزر حسن آغا البلارسان واستكتب حايين اليهودي وغلب على أمره علي باشا فاستبد الثلاثة بتدبير البلاد فكان اول امرهم ان صانعوا اولاد العشاير وارضوهم وعوضوهم عن املاكهم المغصوبة التي اغتصبها وردوهم الى اوطانهم بعد التشريد فبذلك استراحت البلاد من فسادهم أيام تشريدهم ومن فساد عساكر الجزار وهدأت الحال ايام سليمان باشا وعمرت البلاد عمرانا زائدا ونمت نموا فائقا فعمرت الأبنية وغرست الاشجار وسار سيرة حسنة الى سيرة حسنة الى ان هلك فاخلفه عبد الله باشا بن علي شريك الجزار في الحكومة وهو شاب غرير وامه امرأة من طرابلس الشام فاستبد بالامر دونه قوم اصطنعتهم امه من اهل بلاد عكا كعبد الحليم ومسعود الماضي وتركوه في لهوه وشبابه فاستعمل العنف في الرعية وغرم الأهالي زيادات على المرتبات واخذ بتعمير محلات ومدن فعمر مدينة تسمى مدينة العدل حتى قامت حيطانها ثم امر بهدمها وعمر محلا يسمى البهجة على طريقة الاصطنبول وجعله بستانا ومنتزها وكان يغرم عليه الأموال

الجسيمة من دون طائل. ثم في سنة ستة وثلاثين ارسلت عليه الدولة والي الشام فاظهر العصيان وعسكر على جسر المجامع وجسر بنات يعقوب وحضر اهل الشام عسكره على ذلك الجسر وبعد حصار طويل خرجوا للعسكر ولحقوا عسكر الشام فقتلوهم في خراب زاعران ثم لحقوهم الى الشام وحضر الأمير بشير من جبل لبنان بعساكره الى المزة فحرقوها ودخلوا الشام فقرأ الفرمان السلطاني بأن عبد الله باشا فرملي اي خارجي فتراجع الناس وكفوا وكانت البلاد جميعا عسكرت مع عبد الله باشا فرفعوا ايديهم وخرجت العساكر من الشام وعليها الحاج درويش باشا والي حلب وحصر عكا سنة السبعة والثلاثين واخذ بخنق عبد الله باشا فضرع له ودخل في طاعته فرق له وكتب بترضية الدولة عنه وارسل عبد الله باشا الأمير الكبير [٤١] ير بشير الشهابي كبير لبنان بل كبير القطر الشامي سفيرا الى مصر للخديوي محمد علي باشا يوسطه بالترضية عنه فكتب للدولة فرضيت عنه ثم استمر عبد الله باشا على عنفوانه وتناول بلاد نابلس والقدس الشريف وعصى عليه آل جراة في قلعة سينور فحصرهم وهدمها عليهم حتى سواها بالأرض وحرثها وقطع الأملاك والأشجار وهدم قرية عرابة على آل عبد الهادي. وعمل العسكر هناك اعمالا ردية فهاجر شيخ عشيرة عبد الهادي الشيخ حسين عبد الهادي الى مصر لمحمد علي باشا شاكيا من أفعال عبد الله باشا وقدر الله ان عبد الله باشا اغضب الأمير بشير بمروره على عكا بعد حرب سينور ولم يشكر له عناءه واتعابه فراسل مصر وكان عبد الله باشا اساء الأدب مع محمد علي باشا ولم يراع حرمته وحسن صنيعه معه فجرد عليه العساكر وقائدها ولده ابراهيم باشا فهدم عليه عكا بالقنابل والمدافع بعد حصار سبعة (كذا) وأخذه أسيرا وارسله لمصر ومن مصر للقسطنطينية وبعد مدة وجيزة نفى اتباعه في البلاد وكان كبيرهم حسين آغا المملوك الى قبرص وذهب المملوك هذا الى القسطنطينية وعمل مخادعة مع عبد الله باشا حتى يشتري له رأس العين وتوابعها بالبرجين وباثوليه والفروية (؟) من اعمال صور وما تمت له قال شيخنا قدس سره وفي سنة الاثنين وخمسين صارت الزلزلة الكبيرة هدمت قدس وصفد وعيثرون وما خلت بلد من الهدم وقال فيها التاريخ استاذنا الشيخ علي مروة:

ظهر الفساد على البسيطة فاختشت　　رب العباد فزلزلت زلزالها
أمست تميد بأهلها فكأنها　　ارجوحة جذب القوي حبالها
ومياهها كادت تفيض وتخرج الأثـ　　قال لما ربها أوحى لها
دهش الأنام لهولها فكأنهم　　شهدوا القيام وشاهدوا اهوالها
فلعظم ما عانيت قلت مؤرخا　　وأيها الناس اتقوا امثالها

وكان في قرية صلحا[1] وهدمت عليه الدار واخرج من تحت الهدم بعد الاياس منه وفي سنة الواحد وخمسين امر ابراهيم باشا باخذ عسكر النظام من دون نظام ولا قرعة وسلط الأمير بشير الشهابي على بشارة فجرى من عسكر اللبنانيين ما جرى وخربت البلاد وفي سنة الخمسة وخمسين خرج حسين آل شبيب من عشيرة الصعبية في بلاد بشارة فارسل الامير ولده الأمير مجيد وكان شابا مترفا غريرا على بلاد بشارة لالقاء القبض على حسين شبيب فهرب الى اللجا فألقى عليه القبض كبير الدروز وارسله الى الشام فقتله حكمدار الشام شريف باشا وبقي عسكر الامير في البلاد وعاثوا بها مقدار شهرين فهلكت البلاد في سنة الستة وخمسين اتفقت الدول الثلاث على اخراج ابراهيم من البلاد فمر على البرية الى عنزة فهلكت عساكره وملكت الدولة البلاد وهدم الانكليز عكا.

(١) : سقط هنا اسم الرجل الذي هدمت عليه الدار

المحتويات

فصل

يتضمن لمحة عن بعض زعماء جبل عامل

